

حصارة العرب

خوستاف لوبيون



حضارة العرب

حضارة العرب

تأليف
غوستاف لوبيون

ترجمة
عادل زعير



رقم إيداع ٢١٩٢٥ / ٢٠١٣
تمك: ٧١٩ ٧٧٧ ٩٧٨ ٥٦٦ ٩

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
الشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦/٨/٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه
٤٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية

تلفون: +٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ فاكس: +٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: <http://www.hindawi.org>

الغلاف: تصميم سحر عبد الوهاب.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي
للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية
العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2013 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

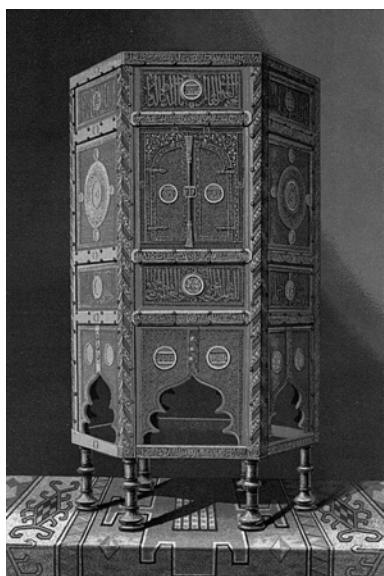
All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

٩	حضارة العرب
١١	مقدمة المترجم
٢٩	مقدمة المؤلف
٤١	الباب الأول: البيئة والعرق
٤٣	١- جزيرة العرب
٦٣	٢- العربُ
٩١	٣- العرب قبل ظهور محمد
١٠٥	الباب الثاني: مصادر قوة العرب
١٠٧	١- محمد: نشوء الدولة العربية
١٢١	٢- القرآن
١٣٩	٣- فتوح العرب
١٦١	الباب الثالث: دولة العرب
١٦٣	١- العرب في سوريا
١٨٧	٢- العرب في بغداد
١٩٧	٣- العرب في بلاد فارس والهند
٢١٧	٤- العرب في مصر
٢٥٥	٥- العرب في إفريقيا الشمالية
٢٧٧	٦- العرب في إسبانيا

حضارة العرب

٢١٣	٧- العربُ في صقلية وإيطالية وفرنسا
٢٣١	٨- اصطلاح النصرانية والإسلام
٢٥١	الباب الرابع: طبائع العرب ونظمُهم
٢٥٣	١- أهل البدو وأهل الأرياف من العرب
٢٦٩	٢- عربُ المدن: طبائعُهم وعاداتُهم
٢٩٣	٣- نظمُ العرب السياسية والاجتماعية
٤١١	٤- المرأة في الشرق
٤٢٩	٥- الدينُ والأخلاق
٤٤٧	الباب الخامس: حضارة العرب
٤٤٩	١- مصادر معارف العرب: تعليمهم ومناهجهم
٤٥٥	٢- اللغة والفلسفة والأداب والتاريخ
٤٧١	٣- الرياضيات وعلم الفلك
٤٨١	٤- العلوم الجغرافية
٤٨٧	٥- الفيزياء وتطبيقاتها
٥٠١	٦- العلوم الطبيعية والطبية
٥١١	٧- الفنون العربية
٥٤١	٨- فن عمارة العرب
٥٧١	٩- تجارة العرب: صلاتهم ب مختلف الأمم
٥٨٣	١٠- تمدين العرب لأوربة: تأثيرهم في الشرق والغرب
٦٠٣	الباب السادس: انحطاط حضارة العرب
٦٠٥	١- ورثة العرب
٦٢٥	٢- أسبابُ عظمة العرب وانحطاطهم
٦٤٣	المصادر



إسكلمة من البرونز المكفت بالفضة للسلطان محمد بن قلاوون، صنعت في القرن الثالث عشر من الميلاد (متحف الآثار العربية بالقاهرة، من تصوير المؤلف الفوتوغرافي).

حضارة العرب

«إن القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن ما ترك العرب المغلوبين أحرازاً في أدیانهم، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النصرانية الإسلام، واتخذوا العربية لغةً لهم، فذلك لما رأوه من عدل العرب الغالبين مما لم يروا مثله من سادتهم السابقين، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل.»

«ولم ينتشر القرآن، إذن بالسيف، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقه الشعوب التي قهرت العرب مؤخراً، كالترك والمغول.»

«أدرك الخلفاء السابقون، الذين كان عندهم من العبرانية السياسية ما ندر وجوده في دعاء الديانات الجديدة، أن النظم والأديان ليست مما يُفرض قسراً؛ فعاملوا أهل كل قطر استولوا عليه بلطف عظيم، تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم، غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة في الغالب، إذا ما قيست بما كانوا يدفعون سابقاً في مقابل حفظ الأمن بينهم، فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب، ولا دينًا سمحًا مثل دينهم.»

غوستاف لوبيون

مقدمة المترجم

بسم الله الرحمن الرحيم

١

كان من نتائج اصطراع الشرق والغرب منذ قرون مضت، وإلقاء العرب الرُّعب في قلوب الأوربيين – أن صار الأوربيون يشعرون بـمذلة الخضوع للحضارة العربية التي لم يتحرروا من سلطانها إلا منذ زمن قريب، فأخذوا يُنكرون فضل العرب على أوربة وتمدينهما لها، وأصبح هذا الإنكار من تقاليد مؤرخي أوربة وكتابها الذين لم يُقُرُّوا لغير اليونان والرومان بتدمينها، وقد ساعدتهم على هذا ما عليه العرب والمسلمون من التأثر في الزمن الأخير، فلم يشاءوا أن يروا للعرب رُقياً تاريخياً أعظم مما هم عليه الآن غير ناظرين إلى أن نَجَمَ حضارة العرب أفل منذ أجيال، وأنه لا يصح اتخاذ الحال دليلاً على الماضي.

ولم تخلُّ أوربة، مع ذلك، من مؤرخين أبصروا ما للعرب من فضلٍ في تمدين أوربة، فألفوا كتبًا اعترفوا فيها للعرب بما ليس فيه الكفاية.

وقد رأى هذا الجحودُ العلامة الفرنسي الكبير غوستاف لوبيون، وهو الذي هدَّته رحلاته في العالم الإسلامي ومباحثه الاجتماعية إلى أن العرب هم الذين مَدَّنوا أوربة، فرأى أن يبعث عصرَ العرب الذهبي من مرقده، وأن يُبَيِّنَيه للعالم في صورته الحقيقة ما استطاع، فأخرج في سنة ١٨٨٤ كتاباً «حضارة العرب» الذي نَعَرَضَ ترجمته على الناطقين بالضاد.

سَلَكَ العلامة لوبيون في تأليف كتاب: «حضارة العرب» طريقاً لم يَسِّقه إليه أحد، فجاء جامعاً لعناصر هذه الحضارة وتأثيرها في العالم، شاملًا لعجائبها مفصلاً لعواملها،

باحثًا في قيام دولة العرب، وفي أسباب عظمتهم وانحطاطهم، مبتعدًا عن أوهام الأوروبيين التقليدية في العرب والإسلام.

وقد استعان لوبون بطريقة التحليل العلمي على الخصوص، فأوضح في هذا الكتاب الصلة بين الحاضر والماضي، ووصف فيه عرق العرب وببيئاتهم، ودرس فيه أخلاقهم وعاداتِهم وطبائعهم ونُظمِّهم ومعتقداتهم وعلومَهم وأدابِهم وفنونَهم وصناعتهم وتأثيرِهم في الشرق والمغرب، وأسبابَ عظمتهم وانحطاطهم.

٢

لم يكن العرب، على رأي لوبون، من الأجلال قبل الإسلام، وقد رأى أن السجايا الخلقية للعرق العربي هي التي عينت اتجاهه، وأنه، وإن أمكن ظهور حضارة أمة ولغتها بغتة على مسرح التاريخ، لا يكون هذا إلا نتيجة نُضُج بطيءٍ، وأن تطور الأشخاص والأمم والنُظم والمعتقدات لا يتم إلا بالتدرج، وأن درجة التطور العالية التي تبدو للعيان لا تبلغ إلا بعد الصعود في درجاتٍ أخرى، فإذا ما ظهرت أمّة ذات حضارة راقية كانت هذه الحضارة ثمرةً ماضٍ طويلاً، ورأى لوبون، أيضًا، أن جهل الناس لهذا الماضي الطويل لا يعني عدم وجوده، وأن الحضارة التي أقامها العرب في أقلّ من مائة سنة، وهي من أنصر الحضارات التي عرفها التاريخ، ليس مما يأْتي عفواً، وأنه كان للعرب قبل الإسلام حضارة لم تكن دون حضارة الآشوريين والبابليين تقدماً، وكان للعرب، عدا الآثار القليلة التي كُشف عنها، لغةً ناضجةً وآدابً راقية، وكان العرب ذوي صلات تجارية بأرقى أمم العالم عالمين بما يَتَمُّ خارج جزيرتهم، فالعربُ الذين هذا شأنهم كانوا، لا ريب، من ذوي القراءح التي لا تَتَمُ إلا بتواتي الوراثة وبثقافَةٍ سابقة مستمرة، والعرب الذين صُقلُّتْ أدمنتهم على هذا الوجه استطاعوا أن يُبدعوا حضارتهم الظاهرة بعد خروجهم من جزيرتهم في مدة قصيرة.

ثم أيدَ لوبون وجهة نظره بقوله: «إن البربرة الذين قُوضوا دعائم الإمبراطورية الرومانية قاموا بجهود عظيمة دامت قرونًا كثيرة قبل أن يقيموا حضارة على أنقاض الحضارة اللاتينية، ويخرجوا من ظلّمات القرون الوسطى.»

ثم ذهب لوبون إلى أن المعتقدات القديمة في جزيرة العرب كانت قد ضَعُفت، وقدرت الأصنام قوتها ودبَّ الهرم في آلهتها، وأنه كان في الجزيرة العربية، خلا النصارى واليهود، مَنْ كانوا يعبدون إلَّا واحدًا، وهم الحنفاء.

ولكن لوبون، الذي ذكر استعداد العرب للقيام برسالتهم العظمى، أشاد بفضل الرسول الأعظم على العرب، وزعامته الكبرى لهم، فالرسول في نظره «كان يبدو رابط الجأش إذا ما هُزم، ومعتدلاً إذا ما نُصر»، وذهب لوبون إلى أن الرسول الأعظم «كان شديد الضبط لنفسه، كثير التفكير، صَمُوتاً حازماً، سليم الطُّويَّة ... صبوراً قادرًا علىاحتمال المشاق، ثابتاً بعيد الهمة، لين الطبع وديعاً ... وكان مقاتلاً ماهراً، فكان لا يهرب أمام المخاطر، ولا يُلقي بيديه إلى التهلكة، وكان يعمل ما في الطاقة لإنماء خُلُق الشجاعة والإقدام فيبني قومه ... وكان عظيم الفِطنة».

ورأى لوبون أن السيد الرسول الذي كانت تلك صفاتِه أتى العرب، الذين لا عهد لهم بالمثل العليا، بمثل عالٍ اهتدوا به، فاكتسب العرب بهذا المثل العالي آمالاً متماثلة، وتوجّهت به جهودهم إلى غرض واحد، وصاروا مستعدين للتضحية بأنفسهم في سبيل نشره في أنحاء الدنيا، ثم قال: «إن محمداً أصحاب في بلاد العرب نتائج لم تصب مثُلها جميع الديانات التي ظهرت قبل الإسلام، ومنها اليهودية والنصرانية، ولذلك كان فضل محمد على العرب عظيماً ... وإذا ما قيست قيمة الرجال بجليل أعمالهم كان محمد من أعظم من عَرَفُهم التاريخ ... والتعصُّبُ الدينيُّ هو الذي أعمى بصائر مؤرخي الغرب عن الاعتراف بفضل محمد».

٢

قامت عظمة الرومان على عبادة روما، وكانت روما سيدة العالم حين كان الرومانىُّ يُضحي بنفسه في سبيل عظمتها، ثم فقدت الأمم الإغريقية والرومانية والآسيوية مُثلها العليا، ولم يبق لحب الوطن والدين والاستقلال والأمة والمدينة أثر في نفوس أبنائها، وصارت الأثرة كلَّ ما في قلوب هؤلاء، «والآثار إذا كانت دليلاً قوم عجزوا عن مقاومة قوم آخرين مستعدين للتضحية بأنفسهم في سبيل معتقداتهم».

وصار العرب أمَّةً واحدةً بفضل الإسلام، وأصبح الإسلام مثَلَ العرب الأعلى، واكتسب العربُ به من الحمَىَ ما استعدوا معه لفتح العالم إعلاً ل شأنه بقيادة زعمائهم الماهرين. ولم تكن جزيرة العرب قبل الإسلام سوى ميدان حرب دائم واسع لِمَا تأسَّل في العرب من الطبائع الحربية، فقد جاء الإسلام وأَلْفَ بين قلوب العرب ووجهوا جميع قواتِهم إلى البلاد الأجنبية، وهم الذين وَرَثُوا الشجاعة أباً عن جد، صَرَعوا الأغارقة والفرس بفضل يقينهم، وصار الناس يدخلون في الإسلام، وينتحلون لغة العرب أَفواجاً.

وهنا يبدو إنصاف العلامة لوبون في بيان أسباب ذلك، فقد صرَّح بأنَّ وضوح الإسلام من أسباب انتشاره، وبأنَّ وضوحاً هذا مشتقٌ من قوله بالتوحيد المحمى الذي فيه سُرُّ قوته.

ومن أسباب انتشار الإسلام، كما بيَّنَ لوبون، ما أمرَ به من العدل والإحسان، وما انطوى عليه من التهذيب للنفوس والتسامح والملاءمة لمناهي العلم واكتشافاته. ثم ردَّ العلامة لوبون على الرزعم القائل: «إنَّ الإسلام انتشر بالقوة»، فمما قاله: «إنَّ القوة لم تكن عاملًا في انتشار القرآن ما تركَ العربُ المغلوبين أحراً في أيديهم، فإذا حدثَ أن اعتنقَ بعضُ الأقوام النصرانية الإسلام، واتخذوا العربية لغةً لهم، فذلك لما رأوه من عدل العرب الغالبين مما لم يروا مثله من سادتهم السابقين، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل».

«ولم ينتشر القرآن، إذن، بالسيف، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقَت الشعوب التي قهرت العرب مؤخراً، كالترك والمغول».

«أدركَ الخلفاء السابقون، الذين كان عندهم من العبرية السياسية ما نذر وجودُه في دُعَاةِ الديانات الجديدة، أنَّ النُّظم والأديان ليست مما يُفرضُ قسراً؛ فعاملوا أهل كلِّ قطر استولوا عليه بلطف عظيم تاركين قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم، غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة، في الغالب، إذا ما قيست بما كانوا يدفعون سابقاً في مقابل حفظ الأمان بينهم، فالحقُّ أنَّ الأمم لم تعرِفْ فاتحين متسامحين مثلَ العرب، ولا ديناً سُمِّحَ مثِلَّ دينهم».

«وما جَهَله المؤرخون من حلم العرب الفاتحين وتسامحهم كان من الأسباب السريعة في اتساع فتوحهم، وفي سهولة اعتناق كثير من الأمم لدينهم ونظمهم ولغتهم التي رسخت وقاومت جميع الغارات، وبقيَّت قائمة حتى بعد تواري سلطان العرب عن مسرح العالم». وأكثرَ لوبون، في مواضع كثيرة، من ذكر الأمثلة على تسامح العرب ورأفتهم بالمغلوبين، ومن ذلك «أنَّ العرب حاصروا الإسكندرية حصاراً دام أربعة عشر شهراً، وقتلَ في أثناءه ثلاثةٌ وعشرون ألفاً جندي من العرب، وأنَّ عمرو بن العاص كان سمحاً رحيمًا نحو أهل الإسكندرية مع تلك الخسارة التي أصيَّب بها العرب، ولم يُقُسُّ عليهم، وصنعَ ما يُكَسِّب به قلوبهم، وأجابهم إلى مطالبهم، وأصلحَ أسدادهم وتُرَعِّهم، وأنفقَ الأموال الطائلة على شؤونهم العامة».

ولذلك لم يَكُنَّ القرْنُ الأول من الهجرة ينقضي حتى كانت رايةُ النبي العربي تَحْفِقُ فوقَ البلاد الواقعة بين الهند والمحيط الأطلنطي، وبين القفقاس والخليج الفارسي وفوق إسپانيا.

٤

وبحث العلامة لوبون في القرآن وأصول الإسلام، وفيما يُسندُه بعضُ كُتُبُ أوربة إلى الإسلام من عوامل الانحطاط، كعقيدة القضاء والقدر (الجَبْرِية) وأحوال المرأة، ومبدأ تعدد الزوجات.

رأى لوبون أنه ليس في القرآن من الجبرية ما ليس في الأديان الأخرى، وأن فريقاً من فلاسفة الوقت الحاضر وعلمائه يقول: إن مجرى الحوادث تابعُ لسنة لا تتبدل، وأن الجبرية الإسلامية نوعٌ من التسليم الهايئ الذي يعلم به الإنسان كيف يخضعُ لحكم القدر من غير تبرُّمٍ ومُلاؤمة، «وتسلیمٌ مثلُ هذا ولید مزاجٌ أكثر منه عقدة، والعرب كانوا جَبَرِيين بمزاجهم قبل ظهور محمد، فلم يكن لجَبَريتهم تأثيرٌ في ارتقائهم، كما أنها لم تؤدِّ إلى انحطاطهم».

ولما تناول لوبون حال المرأة في الإسلام بينَ أن الرجال كانوا، قبل ظهور الرسول، يَعُذُّون منزلة النساء متوسطةً بين الأنعام والإنسان، وأنهم كانوا يرونها أداة للاستيلاد والخدمة، وأن عادة الولد كانت شائعةً بين عرب الجاهلية، ثم جاء الإسلام وحسنَ حال المرأة، وكان أول دينٍ رفع شأنها، ومنحها حقوقاً إرثية لا تجدُ مثلاً في القوانين الأوربية، وأمر بمعاملتها بأحسنَ مما في تلك القوانين، وبينَ لوبون، أيضاً، أن نقصان شأن المرأة حدث خلافاً للإسلام، لا بسبب الإسلام، وأن الإسلام، الذي كان أول دين رفع شأن المرأة، بريءٌ من خفظه، وأنه اتفق للنساء أيام حضارة العرب ما انفق لأخواتهنْ حديثاً في أوربة من التقدم، ثم التمس لوبون العذر للشرقيين في مراقبة المرأة، فقال: «إن الشرقيين، إذ كانوا مطلعين بغرائزهم على سرائر الأمور، وكانوا يَرَون من طبيعة المرأة أن تكون غادرة غير وفية، كما أن الطيران من طبيعة الطير، وكانوا حريصين على صفاء نسلهم، اتخذوا ما يَرُونهم من وسائل الحذر منعاً لحدوث ما يخشون».

وأنهى لوبون باللائمة على مؤرخي أوربة الذين قالوا: إن مبدأ تعدد الزوجات هو ركن الإسلام، وإنَّه علَّةً انحطاط الشرقيين، فمبدأ تعدد الزوجات، كما أوضح لوبون، لم يكن خاصاً بالإسلام، فقد عرفه اليهود والفرس والعرب وغيرهم من أمم الشرق قبل

ظهور الرسول، ولم تر الأمم التي اعتنقت الإسلام شيئاً جديداً فيه، وعند لوبون: «أن حبَّ الشرقيين الجَّمَّ لكثرة الأولاد وميلهم الشديد إلى حياة الأسرة، وخلُقُ الإنفاق الذي يردعهم عن ترك المرأة غير الشرعية بعد أن يكرهوها خلافاً لما يقع في أوربة، وغير ذلك من الأساليب الكثيرة، كلُّها أمورٌ تحفِّز الشرائع إلى تأييد العادات التي هي وليدة الطبائع، وإذا نظرنا إلى أن القوانين لا تثبت أن تطابق العادات كان لنا أن نقول: إن تعدد الزوجات غير الشرعي في أوربة لا يثبت أن تؤيده القوانين»، ولم يَرْ لوبون سبباً لجعل مبدأ تعدد الزوجات الشرعي عند الشرقيين أدنى مرتبةً من مبدأ تعدد الزوجات السريّ الخبيث الذي يُؤَكِّي إلى زيادة اللُّقطاء في أوربة.

وإنما عزا لوبون سقوطَ الدولة العربية وانحطاط العرب إلى صفات العرب الحربية المتأصلة التي كانت نافعةً في دور فتوحهم، فالعربُ بعد أن تَمَّت فتوحهم أخذ ميلهم إلى الانقسام بيدو، وصارت دولتهم تتجزأ، وقوَّضوا كيانهم بسلاحهم أكثر مما قُوِّض بسلاح الأمم الأخرى، وعوا لوبون انحطاط العرب، أيضاً، إلى ما حدث من قبض أناسٍ من ذوي العقول المتوسطة على زمام دولتهم الواسعة بعد أن كان يُدِير شؤونها رجالٌ من العباءقة، وإلى ما ألفه العرب من الترف، وما أصابهم من فتورٍ في الحماسة لمثلهم الأعلى، وإلى تنافس مختلف الشعوب التي خَضَعت لسلطانهم، وإلى فساد الدم العربي الذي نشأ عن توالد العرب وتلك الشعوب.

وعلى ما في هذه الأساليب من الصحة لا نعتقد أن لوبون أصاب حين ظنَّ أن من أصول الإسلام النظام الأساسي القائل بجمع جميع السلطات في يد سيد مطلق، وحين عزا انحطاط العرب إلى هذا النظام الذي حُمل به الناس كما ادعى، على التمسك بأحكام الماضي الإسلامية غير المطابقة لاحتياجاتهم المتحولة، وبعد أن أوضح لوبون أن نظام العرب ديموقراطيٌّ، وأن مبدأ المساواة التامة ساد الجميع بفضلِه، وأن الفقهاء ساروا على مبدأ «لا يُنَكِّر تَغْيِير الأحكام بتغير الأمكنة والأزمان»، وأن المسلمين في عصر خلفاء بغداد وقرطبة الظاهر كانوا يعلمون، بما يأتون من ضروب الاجتهاد، كيف يُوَفِّقون بين هذه الأحكام واحتياجات الأمم التي انتلتها، كان من الخطأ ذهابه إلى أن نظام الحكم المطلق هو من أصول الإسلام، جاء في القرآن: ﴿وَلَتَكُنْ مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ... ﴿وَشَاءُوهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِنَّمَا عَزَّمَتْ فَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ ... ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ ... إلخ، وقال الرسول الأعظم: «الدينُ النصيحةُ لله ولكتابه، ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم» ... و«إن الله يرضي لكم

أن تعبدوه وحده، ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جمِيعاً، وأن تُناصحوا من ولَّه الله أمركم» ... و«ما تشاَرَ قومٌ إِلَّا هُدُوا لِأَرْشَدِ أَمْرِهِمْ» ... و«إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدِيهِ أَوْ شَكَ أَنْ يُعَمِّمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ» ... إِلَخ.

وبعد أن أوضح العلامة لوبون أن الإسلام أَلَفَ بين قلوب العرب، وأنهم فتحوا العالم بفضله متخذين ما أمرهم به من العدل والإحسان والتسامح والرأفة بالأمم المغلوبة دستوراً لهم، قال: «كان من سياسة العرب الثابتة، إذا ما أرادوا الاستقرار بقطر؛ أن يكونوا على وئام مع الأهلين المغلوبين، وأن يحترموا دينهم وشرائعهم، وأن يكتفوا بأخذ جزية طفيفة منهم»، وإلا كان هُمُّهم تمويل الجنود وأخذ الغنائم.

وأثبت لوبون، بما لا يترك للشك مجالاً، أن عبد الرحمن الغافقي لم يهدف من غزوه لفرنسا إلا الاستقرار بها واتخاذها قاعدةً للاستيلاء على أوربة، وأن النصر الذي أحرزه شارل مارتل في پواتيه لم يكن مُهِمًا كما زعم المؤرخون، بدليل عجز شارل مارتل عن استرداد أَيَّة مدينة استولى عليها العرب عسكريًّا في فرنسة، وبدليلبقاء العرب، بعد معركة پواتيه مدةً قرنين في جنوب فرنسة، وبدليل محالفة بعض أمراء فرنسة العرب على شارل مارتل الذي أخذ ينهب بلادهم، ثم قال لوبون: «إن النتيجة المهمة الوحيدة التي أسف عنها انتصار شارل مارتل في پواتيه هي أنه جعل العرب أقل جرأةً على غزو شمال فرنسة، ونتيجةً مثل هذه لم تكِنْ لتکبر أهمية انتصار هذا القائد الفرنجي».

ثم أمعن لوبون، بعد أن ذكر غاية العرب من غزو فرنسة، إلى تخوف مؤرخي الغرب على مصير أوربة فيما لو كان النصر قد تمَّ للعرب في معركة پواتيه وكانت غايتها الاستيلاء، وقال: «لنفرض، جدلاً، أن النصارى عجزوا عن دحر العرب، وأن العرب وجدوا جُوَّ شمال فرنسة غير بارد ولا ماطر كجوًّ إسپانية فطابت لهم الإقامة الدائمة به، فماذا كان يصيِّب أوربة؟ كان يصيِّب أوربة النصرانية المتبرِّبة مثلُ ما أصاب إسپانية من الحضارة الزاهرة تحت راية النبيِّ العربي، وكان لا يحدث في أوربة، التي تكون قد هُدِّبت، ما حَدَثَ فيها من الكبائر، كالحروب الدينية وللحملة سان بارتلمي ومظالم محاكم التفتيش، وكلُّ ما لم يعرفه المسلمون من الواقع التي ضَرَّجَتْ أوربة بالدماءِ عَدَّةَ قرون».

وقد خَصَّصَ العلامة لوبون فصلاً للحروب الصليبية وأشار فيه، غير مرَّة، إلى الفرق بين الفتح العربي والغارات الصليبية من حيث التسامح وحسن معاملة المغلوبين

والسياسة الرشيدة، فقال: «كانت أوربة، ولا سيما فرنسية، في القرن الحادى عشر الذى جُرِّدت فيه الحملة الصليبية الأولى فى أشد أدوار التاريخ ظلاماً ... ولم يكن الصراع العظيم الذى كان يَتَمَّحُض عنه العالم غير نزاع عظيم بين أقوام من الهمج، وحضارٍ تُعدُّ من أرقى الحضارات التي عرفها التاريخ».»

وقال لوبيون، بعد أن ذكر الفظائع الوحشية وأعمال التحرير والسلب التي اقترفها الصليبيون في طريقهم إلى القدس، وذبحهم لمائات الآلوف من المسلمين والعرب والأبراء: «كان سلوكهم حين دخلوا القدس غير سلوك الخليفة الكريم عمر بن الخطاب نحو النصارى.».

ثم قال لوبيون، الذي روى لنا أن أول ما بدأ به قائده الحملة الصليبية الثالثة ريكاردووس هو قتلته صبراً ثلاثة آلاف أسير مسلم سَلَّموا أنفسهم إليه بعد أن قطع لهم عهداً بحقن دمائهم: «ليس من الصعب أن يتمثل المرء درجة تأثير تلك الكبائر في صلاح الدين النبيل الذي رحم نصارى القدس فلم يمسّهم بأذى، والذي أمدَّ فليب أوغست وقلب الأسد ريكاردووس بالأزواد والمرطبات في أثناء مرضهما، فقد أبصر الْهُوَّة العميقة بين تفكير الرجل المتمدن وعواطفه وتفكير الرجل المتوجه ونزاوته.».

وتمنى العلامة لوبيون أن يكون العرب قد استولوا على العالم، ومنه أوربة، لما كان فيهم من نبيل الطبائع وكريم السجايا، فأعرب عن ذلك بقوله: «يرُوي، مع التوكيد، أن موسى بن نُصَير فَكَرَّ، بعد فتح إسبانيا، في العودة إلى سوريا من بلاد الغول وألمانيا، وفي الاستيلاء على القسطنطينية، وفي إخضاع العالم القديم لأحكام القرآن، وأنه لم يَعُقَّه عن ذلك العمل العظيم سوى أمر الخليفة إِيَاهْ بَأْنَ يعود إلى دمشق، فلو وُفِّقَ موسى بن نصیر لذلك لجعل أوربة مسلمةً، ولحقَّ للأمم المتقدمة وحدتها الدينية ولأنقذ أوربة، على ما يحتمل، من دور القرون الوسطى الذي لم تعرفه إِسْپَانِيَا بفضل العرب.»

٦

ولم يكن دور الفتح سوى وجِهٍ من وجوه تاريخ العرب، ولم تعنِ إِقَامَةٌ دُولَةٌ عظيمةٌ إِبْدَاعٌ حضارة، والعربُ قد أبدعوا حضارة جديدة، ولم يلبث دور ازدهار حضارتهم أن بدأ بعد أن فَرَغُوا من فتوحهم، وما بذلوا من الجهد في الواقع الحربي وجَهُوا مثله إلى الآداب والعلوم والصناعة، وأبدعوا فيها بسرعة ما أبدعوه في ضروب القتال، وكان لا بد من وجود عوامل لصعود العرب في سُلُّمِ الحضارة والإِبْدَاع فيها.

رجَّع العلامة غوستاف لوبيون هذه العوامل، خلا ما تقدم، إلى بيئَة العرب وذكائِهم
اللامع وخيالِهم الخصب وحيويَّتهم، وقال:

لم يلْبِثَ العرب بعد خروجِهم من صحاريِّ جزيرتهم أن وجدوا أنفسَهم أمام
ما بَهَرَهم من آثار الحضارة الإغريقية اللاتينية، وأن أدركوا تفُوقَها الثقافية، كما
أدركوا تفوقها الحربي فيما مضى، فجُدُّوا، من فورِهم؛ ليكونوا على مستوىها.
ويتطلَّب استمرارُ حضارة راقية ذكاءً مثقفاً ... وقد أثبتنا أنَّ العرب كانوا
أيامَ الرسول ذوي ثقافةً أدبيةً رفيعةً.

والحقُّ أنَّ الرجل المثقف قد يجهل أموراً كثيرةً، وإنما يتعلَّمها بسهولة؛
لما فيه من الاستعداد الذهني، وقد أظهرَ العرب في دراسة العالم، الجديد في
أعينِهم، من الحماسة كالاستعداد، الذي أبدوا لفتحِه.

ولم يتقَيَّدَ العرب في دراسة تلك الحضارة، التي واجهُتهم فجأةً، بمثل
التقاليد التي أثقلت كاهلِ البيزنطيين منذ زمنٍ طويل، فكانت الحرية من
أسباب تقدُّمِهم السريع ... ولم يلْبِثَ أن تجَّلَ استقلال العرب الروحيُّ الطبيعيُّ
وخيالُهم وقوَّةً إبداعِهم في مبتكراتِهم الحديثة، وقد رأينا أنه لم يمض سوى وقت
قصير حتى طبعوا على فن العمارة وسائلِ الفنون، ثم على مباحثِهم العلمية،
طابعِهم الخاص الذي يبدو أول وهلةً في آثارِهم.

وقد استدلَّ لوبيون على أنَّ العرب خرَجوا من جزيرتهم أصحابَ ذكاءً مصقولَ من
عجز البربرة الذين قَضَوا على الدولة الرومانية، ومن عجزِ الترك والمغول الذين قَضَوا على
الدولة العربية عن إبداعِ أية حضارة لعقولِهم الغليظة، مع توافرِ عواملِ البيئة، فقال:

يبدو لنا الفرق بين الأمم التي تكون على جانبِ كبيرٍ من الذكاء، كالآمة العربية،
والأمم المنحطة، كبربرةِ القرون الوسطى الذين قَضَوا على دولةِ الرومان،
وأجلالِ الترك والمغول الذين غمر طوفانِهم دولةَ محمد.

فلقد أبدعَ العرب من فورِهم، بعدَ أن استعانا بحضارة اليونان وحضارة
الرومانيَّة، حضارةً جديدةً أفضلَ من الحضارات التي جاءت
قبلها، وكانت عقولَ البربرة عاجزةً عن إدراكِ كُنهِ الحضارة التي قهروا أهلها،
وكان انتقامُهم بها ممسوحاً في بدءِ الأمر، ولم يسيروا بها نحو الرقيِّ إلا بعد
أن صُقلَتْ أدمنتُهم فصارت قادرَةً على إدراكِ معانيها بعد زمانٍ طويـل.

والواقع أن تقدم أولئك البرابرة الذين هدموا الدولة الرومانية لم يَحدُث إلا بتوالي الأجيال، وأنهم لبُطء تقدمهم لم يستطعوا إقامة حضارة جديدة على أنقاض حضارة القرون الأولى إلا بعد جهود استمرت قروناً كثيرة.

أما الترك والمغول فلم يكن لهم، على رأي لوبيون، شأنٌ في ميدان الحضارة، ولم يقدروا على الانتفاع بحضارة العرب انتفاعاً كافياً، فضلاً عن عدم استطاعتهم إبداع أي شيء بتوالي القرون.

حَقّاً إن العرب أخذوا يُنْظِمُون شؤونهم بعد إنتهاء دور الفتوح، فحوّلوا جهودهم إلى ميدان الحضارة، وأبدعوا حضارة أينعت فيها الآداب والعلوم والفنون، وبلغت الذروة. وهنا نذكر أن العلامة لوبيون، الذي رأى أن العرب أثبتوا منذ ساعة اتصالهم بالعالم الخارجي أنهم من ذوي العقول الناضجة المستعدة للتمدن والتمدن، لم يَسْعِه، حين تكلم عن تهمة حرق مكتبة الإسكندرية، سوى ردها عليهم بحرارة في الكلمات الآتية، وهي:

وأما إحراق مكتبة الإسكندرية المزعوم فمن الأعمال الهمجية التي تأباهَا عادات العرب، والتي تجعل المرأة يسأل: كيف جازت هذه القصة على بعض العلماء الأعلام زمناً طويلاً؟ وهذه القصة دُحِضت في زماننا فلا نرى أن نعود إلى البحث فيها، ولا شيء أسهل من أن نُثْبِت، بما لدينا من الأدلة الواضحة، أن النصارى هم الذين أحرقوا كتب المشركين في الإسكندرية قبل الفتح العربي بعناية كالتالي هدموا بها التماشيل، ولم يبق منها ما يُحرق.

٧

رأى العرب ذوو الذكاء اللامع والخيال الخصب والحيوية أنفسهم، في دور الفتح، في بيئات متباعدة واقعة بين بلاد الهند والمحيط الأطلسي، وكان لهذه البيئات تأثيرٌ متنوع فيهم مع تشابه صفاتهم الخاصة بعرقهم، فكان ما ترى من تفاوت في آثارهم الماثلة القائمة في تلك الأقطار، ومن وجود أوجه شبه بينها على العموم.

قال لوبيون: «كان شأن العرب بالنسبة إلى المهندسين الأجانب الذين استخدموهم في دور الفتح كشأن الرجل الغني الذي يقيم لنفسه بيته، فكما أن المهندس الذي يرسم بيت ذلك الغني يراعي فيه، لا رب، ذوقه، نرى مهندسي الروم قد راعوا ذوق العرب فيما أقاموا لهم من المباني الأولى، فتجلت عبقرية العرب فيها».

ولم يلبث العرب، بعد أن تحرّرُوا من المؤثرات الأجنبية، أن أصبح لumarتهم من الأشكال والنقوش الخاصة ما صار من المتذر معه خلطها بغيرها، وإن أمكن أن يرى شيءٌ من الأثر البزنطي أو الفارسي أو الهندي في بعض زخارفها مع محافظة البناء في مجموعه على طابعه العربي.»

ولكن إبداع فن عماره جديد لا يكفي لجعله أفضل من غيره، فقد يكون الفن الذي ظهر قبله خيراً منه، فإلى هنا انتبه العلامة لوبون، وقال: «يكفي الإنسان أن ينظر إلى إحدى البناءات التي أقيمت في دور راقٍ من أدوار الحضارة العربية، مسجداً كان ذلك البناء أو قصراً، أو أن ينظر إلى ما صُنِع فيه من دَوَّاه أو خنجر أو جلد قرآن؛ ليرى لهذه الآثار طوابع خاصةً لا يتطرق الوهم إليه في أصلها، والباحث في مصنوعات العرب، كبيرةً كانت أو صغيرةً، لا يرى فيها آية صلة ظاهرة بمصنوعات آية أمّة أخرى، فالإبداع في مصنوعات العرب تامٌ واضح ...

وتتجلى قوة الإبداع الفني في الأمم في سرعة تحويل ما ظفرت به من عناصر الفن، وجعله ملائماً لاحتياجاتها وابتكرها بذلك فناً جديداً، فإذا تحقق هذا لدينا علمنا أن العرب لم تسبقْهم أمّة ...

وما على المرء إلا أن ينظر إلى آثار العرب الأدبية والفنية؛ ليعلم أنهم حاولوا تزيين الطبيعة دائمًا، وذلك لما اتصف به الفن العربي من الخيال والتضارب والبهاء وفيض الزخارف والتتفنن في أدق الجزئيات.

والأمة العربية، قد رغبت بعد أن اغتنت (والأمة العربية أمّة شعراء، وأيّ شاعر لا يكون متقدّماً) في تحقيق خيالاتها فأبدعت تلك القصور الساحرة التي يُخَيل إلى الناظر أنها مؤلفة من تخاريم رُخاميةٍ مُرَصَّعة بالذهب والحجارة الكريمة.

ولم يكن لأمة مثل تلك العجائب، ولن يكون، فهي وليدة جيل فتىٌ مضى، وخيار خصب نَوَى، ولا يطمعَن أحدٌ في قيام مثلاً في الدور الحاضر المادي الفاتر الذي دخل البشر فيه.»

ولم يستطع العلامة لوبون أن يمنع نفسه، وهو المفكر الوقور، من التَّفَنُّي بآثار العرب، وإبداء ذلك في كل مناسبة، ومن ذلك قوله عن جامع الصخرة في القدس: «والماء قد يُفَكِّر في تلك القصور السحرية التي يُبَصِّرُها بخياله أحياناً، ولكن الخيال دون الحقيقة في أمر جامع عمر.»

والخلاصة: أن لوبون رأى أن فنون العرب آية في الإعجاز، وأنها تُورث العجب العجاب.

ولم يَرِ لوبون أن انتقاض الفنُ العربي، بما اذْهَرَتْهُ الأجيال السابقة مما يَضُرُّهُ، فعند لوبون أن كل جيل يقتبس من الأجيال الماضية، وهو يتضيف إلى ما اقتبسه إذا كان على ذلك من القادرين، قال لوبون: «أثبت العلم الرفيع أن أصول الفن اليوناني مقتبسة من الآشوريين والمصريين ... وأن العرب والأغارقة والرومان والفينيقيين والعربين وكلَّ أمة أخرى استفادوا من مجهودات الماضي، ولو لا ذلك لكان لزاماً أن تبدأ كل أمة بما بدأت به الأمم الأخرى، ولسُدَّ باب التقدم، وكلُّ ما تفعله الأمة في بدء الأمر هو أنها تقتبس من الأمم التي جاءت قبلها، ثم تضيف إلى ما أخذته أموراً أخرى ...»

وإذا انعمت النظر في المباني العربية، كالقصور التي أقامها العرب في الأندلس أو المساجد التي أقاموها في القاهرة، رأيت العناصر الأولى التي تألفت منها بلغت من التمازج درجةً يتعدَّر معها الانتباه إلى المصادر التي اشتُقَتْ منها.»

٨

ولم يكن النشاط الذي يحفز الإنسان إلى التقدم قويًا في أمة مثلَ قوته في العرب، كما شهد به العلامة غوستاف لوبون، ولذلك نال العرب درجة رفيعة من الثقافة بعد أن أتموا فتوحهم بزمن قصير، وكانت لهم مبتكراتٌ فيما ورثوه من علوم الأولين.

والواقعُ أن حب العرب للعلم كان عظيماً، وأن الخلفاء لم يتركوا طريقاً لاجتناب العلماء ورجال الفن إلا سلكوها، وأن أحد خلفاء بنى العباس شَهَرَ الحرب على قيصر الروم؛ ليأذن لأحد الرياضيين المشهورين في التدريس ببغداد، وأن العلماء ورجال الفن والأدباء من جميع الملل والنحل أخذوا يتقاطرون إلى بغداد التي كانت مركز الثقافة العالمية، كما أخذوا يتقاطرون إلى عاصمة الأندلس، قرطبة، التي كانت مركزاً للعلوم والفنون والصناعة.

قال لوبون: «كانت معارف اليونان واللاتين القديمة أساساً لثقافة متعلمي العرب في الدور الأول، وكان هؤلاء كالطلاب الذين يتلقّون في المدرسة ما ورثه الإنسان من علوم الأولين، وكان اليونانُ أساتذةَ العرب الأولين إذن، ولكن العرب المفطورين على قوة الإبداع والنشاط لم يكتفوا بحال الطلب الذي اكتفت به أوربة في القرون الوسطى، فلم يلبثوا أن تحرروا من ذلك الدور الأول ...»

والإنسانُ يقضي العجب من الهمة التي أقدم بها العرب على البحث، وإذا كانت هنالك أمم قد تساوت هي والعرب في ذلك، فإنك لا تجد أمة فاقت العرب على ما يحتمل ...

ولم يلبث العرب، بعد أن كانوا تلاميذَ معتمدين على كتب اليونان، أن أدركوا أن التجربة والترصد خيرٌ من أفضل الكتب ... ويعزى إلى بي肯، على العموم، أنه أول من أقام التجربة والترصد، اللذين هما ركناً المناهج العلمية الحديثة، مقام الأستاذ، ولكنه يجب أن يُعترف اليوم بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم.

ومنْح اعتمادُ العرب على التجربة مؤلفاتهم دقةً وإبداعاً لا يُتَّظَر مثُلُّهما من رجل تعودَ درسَ الحوادث في الكتب ...

ونشأ عن منهاج العرب التجربِيّ وصولُهم إلى اكتشافاتٍ مهمة ...
ولما آل العلم إلى العرب حَوَّلُوه إلى غير ما كان عليه، فتلقاه ورثُّهم مخلوقاً خلقاً آخر

«...»

٩

ولم يقتصر فضل العرب في ميدان الحضارة على أنفسهم، فقد كان لهم الأثرُ البالغ في الشرق والغرب، والشرقُ والمغرب مدينان لهم في تمذنهم، ولم يتَّفَق لأمةٍ فيهما ما للعرب من النفوذ.

ذلك ما رآه لوبون، وهو القائل: «إن الأمم التي كانت لها سيادة العالم، كالآشوريين والفرس والمصريين والأغارقة والروماني، توارت تحت أغوار الدهر ولم تنزل لنا غير أطلالٍ دارسة، وعادت أديانها ولغاتها وفنونها لا تكون سوى ذكريات، والعرب، وإن تواروا أيضاً، لم تزل عناصر حضارتهم، وإن شئت فقل: ديانتهم ولغتهم وفنونهم، حيّةً ...»
« وأنشأ العرب بسرعة حضارة جديدة كثيرة الاختلاف عن الحضارة التي ظهرت قبلها، وتمكنوا من حمل أمم كثيرة على انتقال دينهم ولغتهم وحضارتهم الجديدة، واتصلت بالعرب أمم قديمة كشعوب مصر والهندوس، واعتنت معتقدات العرب وعاداتهم وطبائعهم وفنَّ عمارتهم، واستولت بعد ذلك أمم كثيرة على الأقطار التي فتحها العرب، وظل نفوذ العرب فيها ثابتاً، ويلوح لنا أن رسوخ هذا النفوذ أبديًّا في جميع البقاع الآسيوية والإفريقية التي دخلوها، والتي تمتدُّ من مراكش إلى الهند.»

وتشمل فضل العرب قاهريهم أيضاً، مع عجز هؤلاء عن الانتفاع بحضارة العرب كما كان يجب، وانتحل أكثر قاهري العرب دين العرب وفنونهم وعلومهم، واتخذ أكثرهم العربية لغة له، ولم يدُرْ في خَلَد أحدِهم إقامةً حضارةً مقام حضارة العرب، فحضاره

العرب أينما حلَّ ثبَّتَ أصولها، ولم يقدِّر فاتح على زعزعتها، وهي من المناعة ما استطاعت أن تُهْمِنَ به على الأمم التي حاولت هدمها.

قال لوبيون: «لا نرى في التاريخ أمَّة ذات أثْرٍ بارز كالعرب، فجميع الأمم التي اتَّصل العرب بهم اعتنقت حضارتهم، ولو حيَّاً من الزَّمن، ولما غاب العرب عن مسرح التاريخ انتحل قاهروهم، كالترك والمغول، إلخ، تقاليدهم وبدوا للعالم ناشرين لنفوذهم، أَجَلٌ، لقد ماتت حضارة العرب منذ قرون؛ ولكن العالم لا يعرف اليَوْمَ في البلاد المتداة من سواحل المحيط الأطلنطي إلى الهند، ومن البحر المتوسط إلى الصحراء غير أتباع النبي ولغتهم». وعندما تكلَّم العلامة لوبيون عن عرب الأندلس قال: «لم يكُن العرب يُتَّمِّمون فتح إسپانية حتى بدأوا يقومون برسالة الحضارة فيها، فاستطاعوا في أقل من قرن أن يُحيوا مَيَّتَ الأرضين ويعمرُوا حَرَبَ المدن، ويقيموا فَحْمَ المباني ويُؤْطِّلُونَ وثيقَ الصلات التجارية بالأمم الأخرى، ثم شرعوا يتفرَّغونَ لدراسة العلوم والأداب، ويترجمون كتب اليونان واللاتين، ويُنشئون الجامعات التي ظلَّتَ وحدَها ملجاً للثقافَة في أوربة زمناً طويلاً».

ثم رأى لوبيون أن إسپانية هبطت إلى الدرك الأسفَل من الانحطاط بعد جلاء العرب عنها، وذلك بعد قوله: «لا يسعنا سوى الاعتراف بأننا لم نجد بين وحوش الفاتحين من يؤخذ على اقترافه مظالم قتَّلَ كُلُّ التي اقْتُرَفت ضد المسلمين، ومما يُرثِّي له أن حُرمَت إسپانية عمداً هؤلاء الملايين الثلاثة الذين كانت لهم إمامَة السكان الثقافية والصناعية».

ورأى لوبيون، والحقُّ ما رأى، أن العرب مدَّنوا أوربة مادةً وعلمًا وأخلاً، «فقد كان عرب الأندلس يتصفون بالفروسيَّة المثالية خلا تسامحهم العظيم، فكانوا يرحمون الضعفاء، ويرفُّقون بالملوكيين، ويفقُّرون عند شروطهم، وما إلى هذا من الخلل التي اقتبستها الأمم النصرانية بأوربة منهم مؤخراً ... وأثر عرب الأندلس في أخلاق الناس، فهم الذين علموا الشعوب النصرانية، وإن شئت فقل حاولوا أن يُعلِّمُوها التسامح الذي هو أثمن ما تصبو إليه الإنسانية ... ويمكن القول بأن التسامح الديني كان مطلقاً في دور ازدهار العرب ... ومثلُ هذا التسامح مما لم تصل إليه أوربة بعد ما قامت به في أكثر من ألف سنة من الحروب الطاحنة، وما عانته من الأحقاد المتأصلة، وما مُنِيَت به من المذايَح الدامية».

وقد أفضَّل العلامة لوبيون في إيضاح تمدين العرب لأوربة، وانتهى إلى ما يُ يأتي: «إنه كان للحضارة الإسلامية تأثيرٌ عظيم في العالم، وإن هذا التأثير خاص بالعرب وحدهم فلا تشارکهم فيه الشعوب الكثيرة التي اعتنقت دينهم، والعرب هم الذين هَذَبُوا بتأثيرهم الْخُلُقِي البرابرة الذين قَضَوا على دولة الرومان، والعرب هم الذين فتحوا لأوربة ما كانت

تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية، فكانوا مُمَدِّنين لنا وأئمة لنا ستة قرون ... وظللت ترجمات كتب العرب، ولا سيما الكتب العلمية، مصدرًا وحيداً، تقريباً، للتدرис في جامعات أوربة خمسة قرون أو ستة قرون ... وإذا كانت هناك أمّة تُقرُّ بأننا مَدِينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم فالعرب هم تلك الأمة ... فعل العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعتهم في إنقاذ تلك الكنوز الثمينة اعترافاً أبيدِياً، قال مسيو ليبرى: لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ؛ لتأخرت نهضة أوربة الحديثة في الآدابِ عدة قرون.»

ولم يغب عن بال لميوبون أن يرُدّ على قول بعض الكتاب إن معظم علماء العرب في بلاد الإسلام ليسوا من أصل عربي، فقد قال: «إن تلك البلاد مما ملكه العرب، وإن الدم العربي مما جرى في عروق أبنائها، وإن علوم العرب مما كان لها نصيب منه زمناً طويلاً، وإن إذا أتيح لأحدٍ أن يجادل في الآثار التي صدرت عن مدارس العرب كان ذلك من قبيل إباحثه لنفسه أن يجاذِل في مؤلفات علماء فرننسة بحجة أنهم من الشعوب الكثيرة التي تألف من مجموعها الشعب الفرنسي كالنورمان، والسلتان، والأكيتين ... إلخ.»

وعند العلامة لميوبون أن أوربة أخذت حضارتها من عرب الأندلس على الخصوص، وهو لم ير للحروب الصليبية كبيرٌ فضلٌ في تمدِّين أوربة خلا ما اقتبسه الأوربيون في أثنائها من وسائل تَرَفِّ الشرقي، وطِرَازِ عمارته وصنائعه، قال لميوبون: «إن استفادة الصليبيين من علوم العرب الخالصة كانت ضعيفة إلى الغاية خلافاً لما ذهب إليه كثير من المؤرخين، فالجيوش الصليبية إذ كانت جاهلة للعلماء لم تكن تبالي بالمعارف والأصول مبالغاتها بشكل البناء أو الأسلوب الصناعي.»

وسأل لميوبون، بعد أن أثبتت فضل العرب على أوربة وتمدِّينهم لها: «لماذا يُنكر علماء الوقت الحاضر تأثيرَ العرب؟» فكان جوابه: «إن استقلالنا الفكري لم يكن، بالحقيقة، في غير الظواهر، وإننا لسنا من أحمر الفكير في بعض الموضوعات كما نريد. فامرءٌ عندنا ذو شخصيتين: الشخصية العصرية التي كَوَّنتها الدراساتُ الخاصة والبيئةُ الْخُلُقيةُ والثقافيةُ، والشخصيةُ القديمةُ غير الشاعرةُ التي جَمَدَتْ وتحجرت بفعل الأجداد وكانت خلاصةً لماً طويلاً.

والشخصيةُ غيرُ الشاعرةِ وحدها، ووحدها فقط، هي التي تتكلم عند أكثر الناس، وتتمسِّك فيهم المعتقدات نفسها مسمّاةً بأسماء مختلفة، وتتملي عليهم آراءهم فيلوح ما تُملي عليهم من الآراء حرّةً في الظاهر فتحترم.

فالحقُّ أن أتباع محمد ظلوا أشد ما عرفته أوربة من الأعداء إرهاباً عدة قرون، وأنهم عند ما كانوا لا يُرِعِدونا بأسلحتهم، كما في زمن شارل مارتل والحروب الصليبية، أو

يهددون أوربة بعد فتح القسطنطينية، كانوا يُذلوننا بأفضلية حضارتهم الساحقة، وأنتا
لم تتحرر من نفوذهم إلا بالأمس.

وتراكمت مبتسراتنا الموروثة ضد الإسلام والمسلمين في قرون كثيرة، وصارت جزءاً
من مزاجنا، وأضحت طبيعةً متصلةً فيما تأصلَ حقد اليهود على النصارى الخفي أحياً
والعميق دائمًا.

وإذا أضفنا إلى مبتسراتنا الموروثة ضد المسلمين مُبتسراًنا الموروث الذي زاد مع
القرون بفعل ثقافتنا المدرسية البغيضة القائلة «إن اليونان واللاتين وحدهم منبع العلوم
والأداب في الزمن الماضي» أدركنا، بسهولة، سرّ جهودنا العام لتأثير العرب العظيم في
تاریخ حضارة أوربة.

ويتراءى لبعض الفضلاء أن من العار أن يُرى أن أوربة النصرانية مدينةٌ في خروجها
من دور التوحش لأولئك الكافرين، فعازٌ ظاهر كهذا لا يُقبل إلا بصعوبة». «
ووضع لوبون العرب في صفة اليونان والرومان، ورأهم أرقى من جميع أمم الغرب
التي عاشت قبل عصر النهضة، فكان في هذا أكثر إنصافاً من بعض كتاب العرب المعاصرين
الذى استهواهم الثقافة الأوربية المدرسية، فأخذوا يسايرون رجالها متဂاهلين ما لأمتهم
العربية من المقام العريض في ميدان الحضارة راغبين بالاغارة والرومان عنها حينما
يتكلمون في تاريخ الحضارة العالمية.

وعاشرت لوبون للعرب بظهور رجالٍ عظامٍ منهم كما تشهد بذلك اكتشافاتهم،
ولكنه أبدى ارتياه في ظهور عباقرةٍ منهم كنيتون ولبينتز، فنُعدُ ذلك هفوةً من العلامة
لوبون الذي ذكر في غير موضعٍ أن لفوازيه مدينٌ لعلماء العرب في علم الكيمياء، وأن كييلر
وكوپرنيك مدينان لعلماء العرب في علم الفلك مثلاً، فقد قال: «يرى بعض المؤلفين أن
لافوازيه هو واضع الكيمياء، وقد نسوا أنها لا عهد لنا بعلم من العلوم، ومنها علم الكيمياء،
صار ابتداعه دفعه واحدةً، وأنه وُجد عند العرب من المختبرات ما وصلوا به إلى اكتشافاتٍ
لم يكن لفوازيه ليستطيع أن ينتهي إلى اكتشافاته بغيرها»، وقال نقلاً عن العلامة سيديو: «
إن العرب سبقوا كييلر وكوپرنيك في اكتشاف حركات الكواكب السيارة على شكل بيضيٍّ،
وفي نظرية دوران الأرض»، وقال: «ترى في كتب العرب من النصوص ما تعتقد به أن
نفوسهم حدّثتم ببعض اكتشافات العلم الحديث المهمة»، فإذا كانت الحضارة العامة
سلسلةً حلقات، وكانت حضارة العرب من أهم تلك الحلقات كان من المتعذر ظهور نيوتن
ولبينتز وغيرها من أركان حلقة الحضارة الحديثة بدونها، والفضلُ للمتقدم.

وهنا أذكر أن لكتاب «حضارة العرب» الذي أقدم ترجمته مطالب ومناحي كثيرة لا تتسع هذه المقدمة للإحاطة بها، وأن أقل نظرة إلى الفهرس المفصل الذي نُشر في آخر هذا الكتاب يدل عليها.

فمن درس كتاب «حضارة العرب» وإنعام النظر فيه يتبيّن للقارئ أن العلامة غوستاف لوبيون سلك في تأليفه طريقاً جديداً لم يسبقها إليه أحد، وأنه حاول فيه بعث حضارة العرب من مرقدها، وإظهارها للملأ على وجهها الصحيح.

ولم يأل العلامة لوبيون جهداً في درس حضارة العرب مستندًا إلى أهم المؤلفات التاريخية، وإلى مشاهداته الشخصية، فجاء كتابه جامعاً لكتير مما في تاريخ حضارة العرب من العظات وال عبر، وقد أكثر بعض كُتابنا من الاستشهاد بجملٍ منه عند بحثهم في تاريخ الحضارة فصار من الضروري نقله بأسره إلى اللغة العربية.

وهذا الكتاب صحيح المناحي والغايات في مجموعه، وهو كغيره من الكتب المهمة، لا يخلو من هفوات لا تخفي على القارئ، ولكن هذه الھفوات لا تتحطُّ من قيمته العظيمة، وقد أشرت إلى أهمها في هذه المقدمة.

وبحث العلامة غوستاف لوبيون في طبائع العرب وعاداتهم ونظمهم في مختلف الأقطار كما كانت عليه في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، فعل القارئ أن يلاحظ ذلك، وأن يعلم أن هذا الكتاب ظهر في سنة ١٨٨٤م، وأن طبائع العرب وعاداتهم تحولت بعض التحول منذ ذلك التاريخ بفعل مبتكرات العلوم والفنون والصناعة، وبفعل علاقات أمم الشرق الوثيقة بأمم الغرب في الزمن الحاضر.

الآن إن الأمة العربية التي هي عرضة لأشد المصائب والمحن، والتي نرى أن القضاء على كيانها القومي، ومقومات حضارتها من سياسة أكبر دول التاريخ في المشرق والمغرب منذ قرون كثيرة، لا تزال تقاوم، وهذا هي ذي قد أخذت تنهض وتسعى؛ لتحتلّ مكاناً لائقاً بتاريخها المجيد، فإذا كان التوفيق قد أصابني في نقل هذا الكتاب، وكان للأمة العربية نفع فيه، ثُلِّت ما أتمنى.^١

عادل زعير

نابلس

هوما مش

(١) يقضي الواجب بأن أسجل شكري الوافر لمطبعة دار إحياء الكتب العربية التي التزمت طبع هذا الكتاب، وذلك لما بذلته من جهد وتضحية في إخراجه في هذه المرة على هذا الوجه النقيس الذي يحكي الأصل في المظهر جهد الاستطاعة، ولما قدمته إلى من تسهيل في الإشراف على طبعه بإتقان باللغة، وذلك بعد أن أعدت النظر في ترجمته، وقامت بتجديده في عبارته.

وهنا ننبه القارئ إلى أن العلامة لوبيون قد اقتطع كثیراً من كتب الحديث والأدب والعلم والفلسفة والتاريخ، إلخ، فأعدنا معظمها إلى أصله العربي، وأما الذي لم نتوصل إلى نصه العربي، وهو قليل جدًا، فقد ترجمناه من الفرنسية مع وضع إشارة (*) عليه في مواضعه تنبیهًا للقارئ (المترجم).

مقدمة المؤلف

١

يَعْرِفُ قراء كتبنا السابقة مَضامين هذا السُّفْرِ الجديِّد، ويَعْلَمُونَ أَنَّا سَنْدَرِسُ تارِيخَ الْحَضَاراتِ بَعْدَ أَنْ بَحَثَنَا فِي الإِنْسَانِ وَالْمَجَامِعِ.

كَانَ كَتَبُنَا السَّابِقُ^١ وَقَفَّا عَلَى وَصْفِ مَا اعْتَوَرَ جَسْمَ الإِنْسَانِ وَعَقْلَهُ مِنَ التَّطْوِيرِ الْمُتَابِعِ، وَعَلَى بَيَانِ الْعَنَاصِرِ الَّتِي تَتَأَلَّفُ الْمَجَامِعُ مِنْهَا، وَقَدْ رَجَعْنَا فِيهِ إِلَى أَقْدَمِ أَدْوَارِ الْمَاضِيِّ، وَأَوْضَحْنَا فِيهِ كَيْفَ نَشَأَتْ زُمْرَةُ الإِنْسَانِ الْأُولَى، وَكَيْفَ تَوَلَّتِ الْأُسْرُ وَالْمَجَامِعُ وَالصَّنَاعَاتُ وَالْفَنُونُ وَالنُّظُمُ وَالْمَعْقَدَاتُ، وَكَيْفَ تَحَوَّلَتْ هَذِهِ الْعَنَاصِرُ بِتَوَالِي الْأَجْيَالِ، وَبَيْنَآءَ فِيهِ عَوْمَلُ هَذِهِ التَّحْوِلِ.

وَإِنَّا، بَعْدَ أَنْ بَحَثَنَا فِي الإِنْسَانِ وَهُوَ مُنْفَرِّدٌ فِي تَطْوِيرِ الْمَجَامِعِ، نَرِى أَنْ نَطْبِقَ قَوَاعِدَنَا الَّتِي بَسْطَنَاهَا هَنَالِكَ عَلَى الْحَضَاراتِ الْعَظِيمَةِ إِكْمَالًا لِبَرَنَامِجِنَا.

إِنَّ الْعَمَلَ لَوَاسِعٌ، وَإِنَّ مَصَاعِبَهُ لَكَثِيرَةٌ، وَإِذْ كَنَا لَا تُبَصِّرُ مَدَاهُ الْآنِ عَزْمَنَا عَلَى جَعْلِ كُلِّ مَجْلِدٍ مِنْهُ تَامًا مُسْتَقْلًا، فَإِذَا انتَهَيْنَا مِنَ الْمَجَلَّاتِ الثَّمَانِيَّةِ أَوِ الْعَشْرَةِ الْبَاحِثَةِ فِي تَارِيخِ مُخْتَلَفِ الْحَضَاراتِ وَتَمَّ بِذَلِكَ غَایِتَنَا سَهْلُ تَرْتِيبِهَا تَرْتِيبًا عَلْمِيًّا.

وَبِالْعَرْبِ بَدَأْتُ، وَسَبَبَ ذَلِكَ أَنْ حَضَارَتِهِمْ مِنَ الْحَضَاراتِ الَّتِي اطْلَعْتُ عَلَيْهَا فِي رِحْلَاتِي الْكَثِيرَةِ أَحْسَنَ مَا اطْلَعْتُ عَلَى غَيْرِهَا مِنَ الْحَضَاراتِ الَّتِي كُمْلَى دُورَهَا، وَتَجَلَّ فِيهَا مُخْتَلَفُ الْعِوَالَاتُ الَّتِي أَوْضَحْنَا سَرَّهَا فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ، وَهِيَ مِنَ الْحَضَاراتِ الَّتِي نَرِى الْاطْلَاعَ عَلَى تَارِيْخِهَا مَفِيدًا إِلَى الغَايَةِ وَهُوَ أَقْلُّ مَا عَرَفَهُ النَّاسُ.

وَتَسْيِطِرُ الْحَضَارةُ الْعَرَبِيَّةُ، مِنْذِ اثْنَيْ عَشَرَ قَرْنَاهُ، عَلَى الْأَقْطَارِ الْمُمَتَدَّةِ مِنْ شَوَاطِئِ الْمَحِيطِ الْأَطْلَنْطِيِّ إِلَى الْمَحِيطِ الْهَنْدِيِّ، وَمِنْ شَوَاطِئِ الْبَحْرِ الْمَوْسِطِ إِلَى رِمَالِ إِفْرِيقِيَّةِ

الداخلية، وكان سكان هذه البلدان المترامية الأطراف تابعين لدولة واحدة، ويدينون الآن بديانة واحدة، ولهم لغة واحدة ونُسُمٌ واحدة، وفنونٌ واحدة.

ولم يُقْعِد عالمٌ بوضع كتاب جامع لتأثير حضارة العرب في الأمم التي سيطرت عليها شامل لعجائبها في إسبانية وإفريقية ومصر وسورية وفارس والهند، ولم تَنْلِ يدُ البحث العام فنونَ العرب، وإن كانت أكثر ما عُرِفَ من عناصر حضارتهم، وباء المؤلفون القليلون الذين أرادوا ذلك بالخيالية، فعزوا حبوط عملهم إلى نقص الآثار والأسانيد!

ولا ننكر أن تتشابه المعتقدات أوجب تجانساً كبيراً في فنون مختلف البلاد التي خضعت للإسلام، ولكن من الواضح أن ما بين الأمم الإسلامية من الاختلاف وما بين بيئاتها من التباين أَدَّى — من جهة أخرى — إلى فروقٍ بعيدة الغور في تلك الفنون، فما ذلك التجانس؟ وما تلك الفروق؟ سيرى القارئ الذي يتتصفح فصول هذا الكتاب، الخاصة بدراسة فن البناء وما إليه، درجة صمود العلم الحديث عن هذه المسائل.

وكما أمعنا في درس حضارة العرب، وكتبهم العلمية، واختراعاتهم، وفنونهم — ظهرت لنا حقائقٌ جديدةٌ وآفاقٌ واسعة، ولسرعان ما رأينا أن العرب أصحاب الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين، وأن جامعات الغرب لم تعرف لها، مدة خمسة قرون، مورداً علمياً سوى مؤلفاتهم، وأنهم هم الذين مَدَّنوا أوربة مادةً وعقلاً وأخلاقاً، وأن التاريخ لم يعرف أمةً أنتجت ما أنتجوه في وقت قصير، وأنه لم يَفُقُّهم قومٌ في الابداع الفنيِّ.

وتأثيرُ العرب عظيم في الغرب، وهو في الشرق أشد وأقوى، ولم يَتَّفق لأمةٍ ما اتفق للعرب من النفوذ، والأمم التي كانت لها سيادة العالم، كالآشوريين والفرس والمصريين واليونان والرومان، توارت تحت أغار الدهر ولم تترك لنا غير أطلال دارسة، وعادت أديانها ولغاتها وفنونها لا تكون سوى ذكريات، والعرب، وإن تواروا أيضاً، لم تزل عناصر حضارتهم، وإن شئت فقل ديانتهم ولغتهم وفنونهم، حيَّة، وينقاد أكثر من مائة مليون شخص مقيمين فيما بين مراكش والهند لشريعة الرسول.

وشيَّبت أصول شريعة الرسول وفنونُ العرب ولغتهم أينما حلَّتْ، ولم يُدْرِّ في خَلَد أحدٍ من الفاتحين الكثريين الذين قهروا العرب إقامةً حضارة مقام حضارة العرب، وانتحلوا كُلُّهم دين العرب وفنونهم، واتخذ أكثرهم العربية لغَّةً له، وتقهقرت أمم الإسلام في الهند دياناتٌ قديمة، وجعل الإسلام مصراً الفراعنة القديمة، التي لم يكن للفرس واليونان والرومان فيها سوى نفوذٌ قليل، عربيةً تامةً العروبة، وعرفت أقوام الهند والفرس ومصر

وإفريقيية لهم سادةٌ غير أتباع محمد فيما مضى، ولم يعرفوا لهم سادةٌ غير مسلمين بعد أن رضوا بالإسلام دينًا.

حَقًا إن من أعاجيب التاريخ أن يلبي نداء ذلك المُتَهَوْس الشهير شعبٌ جامحٌ شديدُ الشكيمة لم يقدر على قهره فاتح، وأن تنهار أمام اسمه أقوى الدول وألا يزال يُمسك، وهو في جَدَّه، ملaiين من الناس تحت لواء شرعة.

ويجب احترام أعظم مؤسسي الأديان والدول، وإن وَصَفهم العلم الحديث بذوي الهوس، وَحُقُّ له ذلك، ففيهم تتجلى روح الزمن وعصرية القوم، وب Lansanهم تنطق أجيالٌ من الأجداد راقدةٌ في ثنایا العصور، والخيالات، وإن كانت كلًّ ما يأتي به هؤلاء المبدعون لِمُثُلٍ عاليٍّ، هي التي أوجدت كياننا الحاضر ولا تقوم بغيرها حضارة، ولم يكن التاريخ سوى قَصْصٍ للحوادث التي أقام بها الإنسان خيالًا فعبده ثم هدمه.

والحضارة العربية من صنع قومٍ من شباب البربرة، فلما خرج هؤلاء القوم من صحاري جزيرة العرب صرعوا الفرس واليونان والرومان، وأقاموا دولة عظيمة امتد سلطانها من الهند إلى إسبانيا، وأبدعوا تلك الآثار التي هي آية في الإعجاز والتي تُورث بقاياها العجب العجاب.

فما العواملُ التي ظهرت؛ ونمّت بها حضارة العرب ودولتهم؟ وما أسبابُ عظمتهم وانحطاطهم؟

حَقًا إن ما ذكره المؤرخون ضعيفٌ إلى الغاية، ولا يقف أمام سلطان النقد، وطريقة التحليل العلمي أفضل وسيلة لإيضاح شأن أمّةِ كالآمة العربية. والغرب وليد الشرق، ولا يزال مفتاحُ ماضي الحوادث في الشرق، فعلى العلماء أن يبحثوا عن هذا المفتاح فيه.

وتبدو الفنون واللغات وأكثر الديانات العظمى بارزةً في الشرق، ويختلف سكان الشرق الآن عن سكان البلدان الأخرى في المبادئ والأراء والمشاعر. والشرق يتحول ببطء، ويقترب حاضره من ماضيه، ويستطيع من يبحث في أحواله الحاضرة أن يصل إلى صميم الأجيال الغابرة.

والشرقُ مرجعُ دائم لرجال الفن والعلم والأدب، وما أكثر ما جَلَستُ تحت نخلة أو أيام معبد فأخذتني سنةً، وخُضت في بحر من الخيالات، وأبصرتُ من خلالها سالف الأجيال، وتمثّلتُ لي مدنٌ غريبة ذات أبراجٍ مُشرفة، وقصورٍ عجيبةٍ ومعابدٍ شامخةٍ ومآذنٍ

رفيعة تتلألأ تحت وهج الشمس، ورأيت قوافل من أهل البدو وجموعاً من الشرقيين
بملابسهم الزاهية، وشراذم من الأرقاء السمر، ونساء مُخدّرات تجوب تلك المدن!
ولا مراء في تواري نينوى ودمشق وأورشليم وأثينا وغرناطة وممفيس وطيبة ذات
مائة الباب وأفول نجمها، ولا ريب في أن قصور آسية ومعابد مصر صارت خرائب وأطلالاً،
ولا شك في أنه لم يبق من آلهة بابل وسورية وكلدة ووادي النيل سوى ذكريات، ولكنه
يستتر تحت هذه الأنماض عِبرٌ لا تُحصى، وتشتمل هذه الذكريات على معانٍ بعيدة الغور،
وتنطوي أخبار تلك الشعوب التي تناوיבت ما بين عَمَدِ هِرْكُولَ ونجد آسية الخصبة، وما
بين شواطئ بحر إيجة المُخْضَرَة ورمال إثيوبيَّة المُحرقة، على أسرار وألغاز.

وتلك البقاء القاصية حافلة بالمعارف، وقد يُغَيِّرُ الباحث آراءه بسببها، ويبدل درسها
على وجود هُوَّةٌ عميقة بين الناس، وعلى بُطْلَان مزاعمنا في الحضارة والإخاء العالمي، وعلى
اختلاف ما نَحَاله ثابتاً من المبادئ والحقائق باختلاف البلدان.

وفي تاريخ العرب، إذن، مسائل كثيرة تتطلب حلّاً، وفيه دروسٌ عِبرٌ جديرة بالحفظ،
والعربُ عُنوان أمم الشرق التي تختلف عن أمم الغرب، ولا تزال أوربة جاهلةً لشأنهم،
فلنتعلم كيف تعرفهم، فالساعة التي ترتبط مقاديرها في مقاديرهم قد اقتربت.
وإن ما بين الشرق والغرب من الاختلاف عظيم إلى الغاية في الوقت الحاضر، ويبليغ
في عظمِه ما يتعدّر معه اعتناق أحدهما لمبادئ الآخر وتفكيره.

وقلَّبت مبتكراتُ العلوم والصناعة كيانَ الغرب المادي والأدبي رأساً على عقب، وتعاني
مجتمعاته المُسِنة تحولاً بعيد المدى، ويقاسي خلافاً شديداً، ويکابد في سبيل معالجة الشرور
التي نشأت عن ذلك الخلاف أزمةً عامةً تُسوّقه باطراد إلى تبديل نظرمه، ويئن من عدم
الانسجام بين المشاعر القديمة والمعتقدات الجديدة، ويألم من تصدُّع مبادئ الأجيال
السابقة.

وتنال يدُ التغيير في الغرب الأُسرةَ والملك والديانة والأخلاق والمعتقدات، وتصبح هذه
الأمور موضوع جدل، ولا يقدر أحد أن يت肯ّن بما يتمخض عنه العلم الحديث، وكَلَّفت
الجماهير بمبادئ سلبيةٍ في الوقت الحاضر، وبلغ گَلْفُها بها درجة الحماسة غير مقدَّرةٍ
نتائج ذلك.

ونرى الآن قيام آلهةٍ جدد مقام قديماء الآلهة، ونشاهد العلم يدافع عنهم اليوم، فمن
ذا الذي يذود عنهم في المستقبل؟

وحال الشرق غير ذلك، فالشرق في طُمأنينة وسكون، وقد بلغت شعوبه التي هي أكثرية البشر درجةً ظاهرة من التسليم الهادئ الذي هو عنوان السعادة على الأقل، ولا عهد له بما عندنا من الانقسامات والحياة الصاخبة.

وتتمتع شعوب الشرق بما حَسِنَاه من التماسك، فمعتقداتُ هذه الشعوب لا تزال قوية، وتحافظ أُسرُها على استقرارها القديم، وبقيت مقومات المجتمعات القديمة، كالدينية والأسرة والنظم والتقاليد والعادات، وهي التي أصابها في الغرب من الهدم ما أصابها، مؤثرةً في الشرق مسيطرة عليه، وليس على الشرقيين أن يفكروا في تبديلها.

٢

فَصَلَّنا في كتابٍ آخر طرق البحث والاستقصاء، التي يستعان بها على درس الحوادث التاريخية، تفصيلاً كافياً، والآن نذكر أهمها: إن مبدأ «العلة» المسيطر على دراسة قضايا العلم يسيطر على دراسة حوادث التاريخ أيضاً، وأن طرق البحث والاستقصاء التي يُستعان بها على دراسة القضايا العلمية يستعان بها على دراسة الحوادث التاريخية أيضاً، فيجب، إذن، درس الحادثة الاجتماعية كما تدرس أيّة حادثة طبيعية أو كيماوية. وتخضع الحادثات كُلُّها لبعض السنن، أي لنظام من الضرورات والوجوب، ويعمل الإنسان، وتسيره في عمله قوى مسيطرة يسميها أنس بالطبيعة وأخرون بالحكمة الربانية أو القضاء والقدر أو المصير؛ ونحن مُسَيرون من المهد إلى اللحد بما لا نستطيع مقاومته منقوى القاهرة الغالية المتماسكة، ولا تعدو أقصى جهودنا وغايةً أمانينا حد الوصول إلى معرفة بعض مظاهرها وصفاتها الازمة.

ومَثُلُ تاريخ الإنسان كمثل سرِّ واسع متماسك الأجزاء تتصل حلقاته الأولى بأقدم الأحقب والعصور، وكلُّ حادثة تاريخية نتيجةٌ حادثٌ أقدم منها، والحال، وهو وليد الماضي، يحمل في أثنيائه وتضاعيفه بذور المستقبل، فيستطيع صاحب ذكاء ثاقب أن يقرأ سَيْر الأمور المقبلة من خلال الحوادث الحاضرة.

ولن يتَّصف أحدٌ بمثل هذا الذكاء، والإنسان، وإن استطاع يوماً أن يطلع على العوامل التي أوجبت حدوث الحال، وعلى ما في هذه العوامل من القوى المقابلة، يتذرع عليه تحليلُ هذه العوامل، ومما لا يقدر عليه علمُ الفلك أن يُعَيِّن بالحساب اتجاه جُرم خاضع لتأثير ثلاثة أجرام أخرى، فما تكون المسألة حين البحث عن تأثير الوف الأجرام في جُرم واحد؟

ولم تُستنبط جميع السنن التاريخية المزعومة من غير ما هو تحت الحس والاختبار، وهي تُقاس بـ ملاحظات علماء الإحصاء الذين يستطيعون، بما يشاهدون ويختبرون، أن يُنبئوا، مثلاً، بعدد الوفيات والجرائم وأنواع الجرائم التي يُصاب بها بلد يسكنه مليون نفسم في سنة ما من غير أن يخلصوا إلى صميم عللحوادث الذي هو ضربٌ من الحال، وهذه العوامل كثيرةٌ إلى الغاية.

ونشأ عن تعذر النفوذ إلى عللحوادث الاجتماعية استخفاف فريق من العلماء بالعلوم التاريخية التي حاولوا الغوص فيها، قال الكاتب الفاضل مسيو رينان: «إن العلوم الافتراضية تُنقض بعد أن توضع، وستُهمل في مائة سنة، وأوشك جيلٌ من الذين لا يبالون بالماضي أن يظهر، ويُخشى، والحالة هذه، أن تندثر قبل أن تقرأ كتبنا في دقائق الأدب وروائع الفنون التي ينال التاريخ منها ضبطاً ودقّة»، ويرى رينان أن المستقبل للفيزياء والعلوم الطبيعية حيث يتجلّ «كُنه الوجود، ومعنى العالم، وسر الله، وما إلى ذلك».

وقد يأمل كلُّ واحد ذلك لا ريب، ولكننا لا نرى ما يُسوغ هذه الأمانى، فليس في العلوم الوضعية شيءٌ عن الموجب الأول لأى حادث كان، وكلُّ ما كشفت العلوم الوضعية الحديثة عنه، فكانت فيه قوتها، هو ما بين ظواهر الأمور من الارتباط، وهي حين تتناول أموراً معقدة تغرق في بحر من الفرضيات والظنون، ولا تقاد العلوم الحديثة تأثيراً بجواب حائر عن المسائل التي يضعها الإنسان كل يوم، وهي لن تحلَّ واحدة من المعضلات التي تواجه الطبيعة بها الإنسان من مهده إلى لحده، وهي لا تُشيع ما تلقيه في قلوبنا من فضول أبداً، وهي تثير الأفكار ولا تُفك المسائل، وتسلّح كُرتُنا الأرضية في الفضاء بالأجرام الخامدة قبل أن يجيب أبو الهول الخالدُ عن سؤال واحد.

إذن، يجب ألا يعترينا الوهم حول قدرة العلوم فنُخَمِّلها ما لا طاقة لها به، والعلوم تبحث، فقط، في أوصاف الإنسان أو الحيوان أو النبات أو المجتمع، وفي رسم صورةٍ صادقة عن أدوار الماضي، وفي ارتباط بعض الحوادث التاريخية في بعض، ولا نطالِب المؤرخ بأكثر من هذا.

والعمل شاقٌ، ويطلب عنايةً كبيرة، ومن الصعب جمعُ ما هو ضروري من المواد لتصوير إحدى الحضارات، وأصعبُ من هذا استخدام هذه المواد.

ولم تكن هذه المواد في أنساب الملوك وأخبار الملاحم والفتورات، وإنما هي، على الخصوص، في لغات كلٍّ دور وفنونه وأدابه ومعتقداته ونظمُه السياسية والاجتماعية،

ولم تنشأ هذه المواد عن المصادفات أو أهواء الرجال أو مشيئة الآلهة، بل عن احتياجات الشعوب وأفكارها ومشاعرها، وتتضمن الديانات والفلسفة والآداب والفنون نمطًا خاصًّا من الشعور وطُرْزًا معيناً من التفكير، ولا تتضمن غير هذا.

نعم، إنَّ أعمال الرجال وآثارهم تُعبِّر عن أفكارهم ومشاعرهم، وتمكننا من تصوُّر الدور الذي كانوا فيه، ولكن هذا لا يكفي، فالأممُ نتيجةٌ ماضٍ طويل، وليس الأممُ بنتَ ساعةٍ واحدة، وهي محصولٌ ما خضعت له من البيئات المختلفة التأثير، ولذا يُفترَّس حاضرها بماضيها.

ونرى تسمية البحث في تكوين العناصر التي تتَّلَّفُ الأمةُ منها بعلم الأجنَّةِ الاجتماعي، وسيكون هذا العلم أساساً متيناً يستند إليه التاريخ كما تستند علوم الحياة إلى علم أجنة الأحياء في الوقت الحاضر.

ولا بد لذوات الحياة من أن تقطع أطوارًا سُفْلَيَّة قبل بلوغها درجةً عالية من الرقيّ، وقلما يكشف التاريخ لنا الغطاء عن هذه الأطوار السُّفْلَيَّة بعد اختفائها، ولم يُفْتَنَ البحث العلمي أن يجمع منها ما هو أساسٍ من ضياع حلقاتٍ من سلسلتها، ولم تُصب المجتمعات كُلُّها أدوارًا متماثلة من التقديم أيضًا، ولم يجاوز الكثير منها بعد ما قطعه الغرب من المراحل التي هي عنوان الماضي الثابت، والذي يسير في الأرض يشاهد أدوار التاريخ البشري المختلفة منذ أقدم العصور الحجرية حتى الوقت الحاضر، وبهذا يمكن تأليف تاريخ إحدى الأمم، ومعرفةُ عناصر حضارتها.

ومن الممكن تأليف تاريخ لإحدى الحضارات ونموُّها بطريق البحث في المباني العظيمة والأداب واللغات والنظم والمعتقدات ... إلخ، وإذا كان من النادر نيلُ كلَّ هذا فإن بعض هذا يكفي لاستخراج ما تبقَّى، فالطرق العلمية التي يصل بها الباحث إلى تصوير حيوانٍ مستعيناً بقطعٍ من هيكله العظميٍّ يُستفاد منها في المباحث التاريخية أيضًا، وظهور بعض الخطوط والحرف يتضمن وجودَ غيرها دائمًا.

وقد تكون تلك الموادُ غير كافيةٍ من حيث الضبط والدقة على الخصوص، والعلم الحديث يترك إتمامها للحفة، ومن السهل أن نتوقع اختلافاً بين كتب التاريخ التي تؤلَّف في المستقبل وكتب التاريخ الحاضرة، فستقتصر كتب تاريخ الحضارات التي تؤلَّف في القرن العشرين، مثلًا، على العنوان ومجموعةٍ من الصور والخرائط والمنحوتات الهندسية الدالة على تقلبات الحوادث الاجتماعية.

ويمكن التعبير عن الجسامه والطاقة والوزن والديمومة بأرقام أو خطوط دائماً، ولا نرى حادثة نفسية أو اجتماعية مُعقدة يتعدى الإفصاح عنها بأرقام أيضاً، ويكتفى للوصول إلى قياسها بمقاييس أن تُفرّق إلى عناصرها الأساسية، ولا جرم أن علم الإحصاء أفلَ العلوم الحديثة، التي هي في دور النشوء، تقدماً، وما بلغه علم الإحصاء ينبعُ بفائدته المرجوة في المستقبل، فقد ألقى علماؤه، بما جمعوه من الأرقام، ضوءاً على إنتاج البلدان واستهلاكها وثروتها واحتياجاتها وقوتها سكانها المادية والأدبية، وتبين مشاعرها ومعتقداتها ومختلف العوامل المؤثرة فيها.

وريثما يقع ذلك في المستقبل، الذي يُعَبَّر فيه عن وقائع التاريخ والحوادث الاجتماعية بالصور والخرائط والمنحنيات الهندسية، نرى أن نستعين بأصح الآثار والأدلة التي خلَّفَها الماضي وأكثرها ضبطاً، وعندى أن ما لدينا من المواد التي ذكرناها يكفي لوضع صورة عن الحضارات الماضية وتاريخ تكوينها، ويجب، للانتفاع بتلك المواد، أن تدرس آثار الحضارات الماضية في أمكنتها، فمتى ظهرت هذه الآثار، لا الكتب، هي التي تُعرب عن الماضي، وليس في الكتب ما تُعرف به العلوم الطبيعية أو العلوم الاجتماعية.

وتكون دراسة البيئات في أمكنتها أمراً ضرورياً عندما يُبحَث في أمة، كالآمة العربية، ذات آثار كثيرة في مختلف الأقطار التي ازدهرت حضارتها فيها، وتُعلَّمنا الرحلاتُ كيف نتحرر من قيود الآراء المتأصلة والتقاليد الموروثة وضلال الماضي وباطله.

وسَيَّدِ القارئ في هذا الكتاب تطبيقاً للقواعد المذكورة التي ابتعدنا بها عن أكثر أحکامنا التقليدية الموروثة في الشرقيين، ولا سيما في دين محمد وتعدد الزوجات والرق والحروب الصليبية، والنظم والفنون وتأثير العرب في أوربة، وما إلى ذلك.

٢

إن الآثار الباقيَة من حضارة العرب كثيرة، وهي تكفي لإيضاح أقسامها الجوهرية بسهولة، وقد استعننا بأكثرها، أي بما خلَّفَه العرب من العلوم والأداب والفنون والصناعات والنظم والمعتقدات.

وأكثر ما رَجَعْنا إليه في وضع هذا الكتاب هو ما نسميه الآثار الماثلة التي تستوقف النظر بأشكالها الظاهرة، وتعبر عن رغائب الزمن الذي قامت فيه ومشاعره تعبيراً صادقاً، ولا غَرُونَ، ففيها يتجلَّ نفوذُ العروق وتأثير البيئة، وبها يمكن الوقوف على أحوال القرون الغابرة، فالكهف الذي نُحت في العصر الحجري أو المعبد المصري، أو المسجد الإسلامي، أو

الكتدرائية، أو محطة السكة الحديدية، أو مدخل المرأة العصرية أو الفأس المصنوعة من الصوّان، أو السيف ذو المقبضين، أو المدفع الذي يزن خمسين طنًا، أفضل لمعرفة جميع ذلك من أكdas كتب البحث والجدل.

ولا نرى غير طريقة واحدة لوصف الآثار المائة، وهي عرض صورها، فصور الپارتنون والحرماء وأفروديت أولى من مجموعة الكتب التي وضعها جميع مؤلفي العالم لوصفها.

وما تُقيِّه صور الآثار التاريخية في الرُّوع من المعاني الصادقة يدفعنا إلى الإكثار منها في هذا الكتاب، والقارئ الذي يقتصر على تصفُّح صور هذا الكتاب يطلع على حضارة العرب وتحولاتها في مختلف الأقطار أكثر مما يطلع عليه من الكتب الكثيرة، وذلك عدا إعفائَه من مطالعة المباحث المطولة في وصف تلك الآثار من غير أن يظفر منها بفكر صحيح، ولقد أصاب من قال: «إن صورة متقدة خيرٌ من مائة صفحة في الوصف»، وليس من المبالغة أن يقال: إنها خير من مائة مجلد.

ولا تكفي ألفاظ أية لغة لوصف آثار الشعوب، ولا سيما آثار الشرقيين، وإنما نطلع بالمشاهدة على مناظرها ومبانيها وفنونها وعروقها، ولا يستطيع أروع القول أن يؤثر في النفس بمثل ما تؤثِّر به رؤية الأشياء نفسها أو صورها عند الضرورة.

والفوتوغرافية هي التي يمكن أن تجود علينا بصور صحيحة للأبنية والآثار الفنية والمناظر وأمثلة الشعوب ومظاهر الحياة المنزلية، وبها نستعين في وضع هذا الكتاب، فما تقدِّر الفوتوغرافية عليه من الدقة في بضع ثوانٍ لا يستطيعه أشهر رجال الفن في أيام كثيرة.

ولو اقتصر الأمر على تصوير المبني، مثلًا، لاستطاع رسام ماهر لا قيمة للوقت عنده أن ينافس الفوتوغرافية، ولكن مثل هذه المنافسة تتعدَّر عندما يجب تصوير ألف من مناظر الحياة العامة التي هي عنوان وجود الأمة، فالفوتوغرافية وحدها هي التي تستطيع أن تصوِّر الأشياء في أثناء حركتها تصویرًا صادقًا، وذلك كشارع يزدحم الناس فيه، أو سوقٍ أو حصانٍ جوادٍ راكض، أو موكب عرس، أو ما ماثل ذلك.

ومنذ أمس فقط أوصَت طرق العلم الحديثة بأن يُستعان في الرحلات بالفوتوغرافية، وهذا الكتاب هو أول الكتب انتقامًا بالفوتوغرافية، وفيه يرى القارئ مقدار النتائج المهمة التي توصلنا إليها بفضل الفوتوغرافية، وكلُّ صورة فوتوغرافية اشتمل عليها وثيقة صادقة قوية لا يتطرق إليها الوهن.

وإذ كانت الصور الفوتوغرافية من عمل الشمس وحدها حُق لِي أن أناضل عن قيمتها، وعلى العالم الذي قد يستخف بالصور التي يحتويها هذا الكتاب أن يفكر قليلاً؛ ليري كيف تُفضل مجموعةً من الصور الفوتوغرافية على تلٍال الكتب التي بُحث فيها عن اليونان والرومان، وما أكثر ما نتعلم من الصور الفوتوغرافية، وما أحرق المؤلفات بجانبها! وليتُرك فنُ الرسم، وهو الذي قام حتى الآن بما طُلب منه في تصوير المباني والمعالم، مكانه للفوتوغرافية التي يُرَكَن إلَيْها، اليوم، في كتب العلم أو التاريخ أو الرحلات، نَعَم، إن في نقل الآلات الفوتوغرافية المعقدة إلى البلدان البعيدة واستعمالها لصعب كثيرة، ولكنه يجب على كل عالم أو سائح ثَبَّت ي يريد أن تكون لأثره قيمةً أن يخضع لحكم الضرورة مهما كلفه الأمر.

ولا يُترك مثلُ هذا العمل إلا لأربابه، فإذا كان من السهل استعمال آلة التصوير والتقطاف الصور، فإنه يُعُسر انتخاب الآثار التي يجب تصويرها ويصعب تعين الأحوال التي يجب أن تكون عليها هذه الآثار وقت تصويرها.

ويكفي لإدراك درجة الاختلاف في اللون أو الصفة أو الأوضاع، أن نُتَنَعَّمُ النظر في المنظر الواحد أو البناء الواحد أو الشخص الواحد الذي يُصوَّرُه مصوروون كثيرون. وعدسةُ التصوير صادقةٌ في ذلك كله لا ريب، ولكن الطبيعة هي التي تتغير، فالبناء أو المنظر الواحد الذي تضيئه الشمس في الشتاء لا يظلُّ البناء أو المنظر نفسه حين إضاءة الشمس له في الصيف، أو حين إضاءتها له في الصباح أو المساء.

وكلُّ الفن في التقطاف صور الأشياء حينما تكون مؤثرة في النفس مع تَوْحِي الضبط، ولا يكفي أن تكون الصورة صادقةً لتأثير في النفس، فمع أنني أنظر بعين العجب إلى كتاب مسيو بيرو عن مصر أرى الصور الشاحبة الجافة التي زَيَّنَ بها صفحاته لا تؤثر في النفس ذاك التأثير المطلوب،^٢ وغرض غير هذا ما يجب على المؤلفين أن يَسْعُوا إليه. وتختلف الوسائلُ التي نشرنا بها صورنا الفوتوغرافية على حسب تأثيرها في النفس، ففي الأمور التي قُصد بها التأثير جملة، لا تفصيلاً، حُولَت صورُها إلى كليشات على طريقة التجويف الفوتوغرافي الحديثة (فوتوغرافور)، وفي الأمور التي قُصد فيها إظهار الدقائق حُفِرت صورها الفوتوغرافية بالمنقاش في الخشب من غير أن يكون للرسم عمل فيها، وإذا عدوت بعض الشوائب وجدتُنا لم نلجلأ، لإظهار دقائق فن البناء، إلى طريقة الرسم بالتحطيط إلا عند عدم كفاية أية طريقة أخرى غيرها.

وفي الكتاب ٣٦٣ صورة لم تُترك واحدة منها لتفنن يصنع فيها كما يشاء، ورغبتنا عن الوثائق التي كان للخيال حُظُّ فيها مرجحين العدول عن مصدر الصور الرائعة، كالتي نُشرت في كتاب مسيو إير ومسيو مُسپيرو عن مصر، وحاوزها ناشر هذا الكتاب، مقتربين، مع الأسف، على ما استند منها – وهو قليل – إلى صور فوتوغرافية، فرأينا من العبث تكرار صنعه.

ولم تُفتنني الاستفادة من الرسوم التي صُنعت بأمانة مع اتخاذني الفوتوغرافية أساساً لصور هذا السُّفر، فاستعرت رسوماً كثيرة من مجموعات كوست وبريس الأقيني وجونس، ولا سيما الكتابان الرائعان اللذان نشرا حديثاً في إسبانية عما فيها من الآثار الفنية والمعمار، وكان للفوتوغرافية كبير عمل في هذا، أيضاً، ما جعلت هذه الرسوم خاضعة لطريقة التجويف الفوتوغرافي (الهيلوغرافور).

وقضت ضرورة التزيين ألا أُوزع صور هذا الكتاب توزيعاً مرتبًا دائمًا، وإنما يمكن القارئ أن يجد بسهولة ما قد يحتاج إليه منها عند نظره إلى فهرس الصور، والقارئ، باطلاعه على هذا الفهرس، يعلم تنوع هذه الوثائق، ويعلم ما نُشر منها في هذا الكتاب دون غيره.

وقد تعذر علينا، لضخامة هذا الكتاب وكثرة صوره، أن نُبني المصادر التي اعتمدنا عليها في هامش صفحاته، فاكتفينا بنشر فهرس شامل لها في آخره، فالقارئ الذي يريد أن يتعقب في بعض المباحث يجد ضاللته فيه.

وليعلم القارئ أن كل فصل في هذا الكتاب هو خلاصة عدة مباحث، وما أبديته من الملاحظات يمكن عده متعمماً لها.

ونحن إذ نختتم هذه المقدمة نُلخص المنهج الذي اتبناه في وضع هذا الكتاب، والذي تتبعه فيما نؤلفه من توارييخ الحضارات، بما يأتي، فنقول:

من المبادئ العامة: الوجوب في وقوع الحوادث التاريخية، والصلة الوثيقة بين الحوادث الحاضرة وحوادث الماضي.

ومن مواد التأليف: آثار الشعوب التي هي موضوع الدرس وتصويرُها تصویراً صادقاً، ووصف العرق جسمًا وعقلاً، والبيئة التي نشأ فيها العرق، والعوامل التي خضع لها، وتحليل لعناصر الحضارة، أي للنظم والمعتقدات والعلوم والأداب والفنون والصناعات، وتاريخ التكوين كلّ واحدٍ من هذه العناصر.

وإذا أصابنا التوفيق في عرض صورة واضحة عن الأزمنة التي نرغب في بعثها،
مستعينين بذلك المواد والمبادئ، فإننا نكون قد ثلنا ما نتمنى.^٣

هوماش

- (١) كتاب «الإنسان والمجتمعات ومصادرهما وتاريخهما» وهو يقع في مجلدين.
- (٢) يدرك القارئ درجة النقص في الصور التي أخذها مسيو بيرو من القاهرة عن الأهرام، والصور التي أخذها عن معابد جزيرة الفيلة وغيرها عند قياسها بجيد الصور الفوتوغرافية.
- (٣) من الواجب أن أختم هذه المقدمة بشكري لمن وجدت منهم نفعاً في أثناء تأليف هذا الكتاب، وفي أثناء رحلاتي الأخيرة، وأخص بالذكر منهم العضو في المجمع العلمي ومدير مدرسة اللغات الشرقية مسيو شيفر، والأستاذ في جامعة كوانبر مسيو، بـ. سيموميس، والدكتور سوزا فيتيرو في أشبونة، ورجل الفن في غوليان (البرتعال) مسيو شارل ريلقا، والوزير لدى بلاط سلطان مراكش مسيو دالوين، والمسجل في القنصلية الفرنسية بالقدس مسيو دومالپيرتو، والدكتور سوكيه، والكونت بود هوركي ببيروت، ومدير البنك السلطاني بدمشق مسيو شلو نبرغر، ومديري المكتبة الوطنية بباريس مسيو لاٹوا ومسيو تياري، والمصورين الرسامين مسيو هوبو ومسيو بيتي، ومسيو فيرمان ديدو الذي أسعدني الحظ النادر بأن أجده فيه ناشراً لم يقصر في الإنفاق على طبع هذا الكتاب وبأن كان لي في نصائحه الأخوية و المعارفه الفنية فائدة كبيرة.

الباب الأول

البيئة والعرق

الفصل الأول

جزيرة العرب

(١) جغرافية جزيرة العرب

جزيرة العرب هي مهد الإسلام، وهي منبت الدولة الواسعة التي أنشأها خلفاء محمد، ويتألف القسم الأكبر من جزيرة العرب من صحار، ويحيط بها البحر الأحمر من الغرب، وببحر عمان والخليج الفارسي من الشرق، والمحيط الهندي من الجنوب، وتتصل من أقصى غربها وشرقها بإفريقية وأسيا.

ويحيط بجزيرة العرب من ثلاثة جهات، أي من الغرب والشرق والجنوب، ثلاثة أبحار كما ذكرنا، وأما حدها الشماليُّ فغير واضح، وهو يمتد تقريرًا باتجاه الخط الذي يبدأ من مدينة غزة الفلسطينية الواقعة على ساحل البحر المتوسط مارًّا بجنوب البحر الميت فدمشق فالفرات، وينتهي ب الخليج فارس، ويبلغ طول جزيرة العرب من أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها نحو ٢٣ درجةً أو ٢٥٠٠ كيلو متر، ويبلغ عرضها من البحر الأحمر إلى الخليج الفارسي نحو ألف كيلو متر.

وتزيد مساحة جزيرة العرب على ٣٠٠٠٠٠ كيلو متر مربع، أي على مساحة تعدل فرنسة ستَّ مرات.

وليس لدينا إحصاء قاطع لنفوس جزيرة العرب في الوقت الحاضر، وقد قدّرت منذ بضع سنين بعشرة ملايين، ولم تَزد على خمسة ملايين في أحدث المؤلفات، وخمس هؤلاء السكان أهل بدو على الأقل.

ونحن إذا نظرنا إلى سطح جزيرة العربرأيناه مؤلًّفًا من هضبة تُشبه الصحراء الإفريقية في اتساعها وسهولها القاحلة الرملية، أو الصخرية، التي تتخللها بقاعٌ منبطة، وتنحدر هذه الهضبة إلى الخليج الفارسي.

ويقطّع مجاهل جزيرة العرب الواسعة أوديةً وبقاعً جبلية ذات مُدُن وقرى يسكنها فريقٌ من الزراع، ولا تَعرف الصحراء غير أهل البدو الذين يجوبونها. وتقع في وسط تلك الهضبة العربية بلاد نجد التي تُعدُّ جزيرةً حصبة تحيط بها الفُلُوات والجبال بدلاً من الماء.

ويُيظِّنُ أن نحو نصف جزيرة العرب مؤلفٌ من بِقاع خصبة، وأن النصف الآخر من صحارٍ، وإن دلتُ الخرائط على اتساع رُقعة الصحاري، وانقباض رُقعة البقاع الخصبة، وما في الخرائط من التفاوت ناشئٌ عن قلة ارتياح علماء الجغرافية لجزيرة العرب واضطرارهم إلى ترك البقاع المجهولة منها بِيضاً.

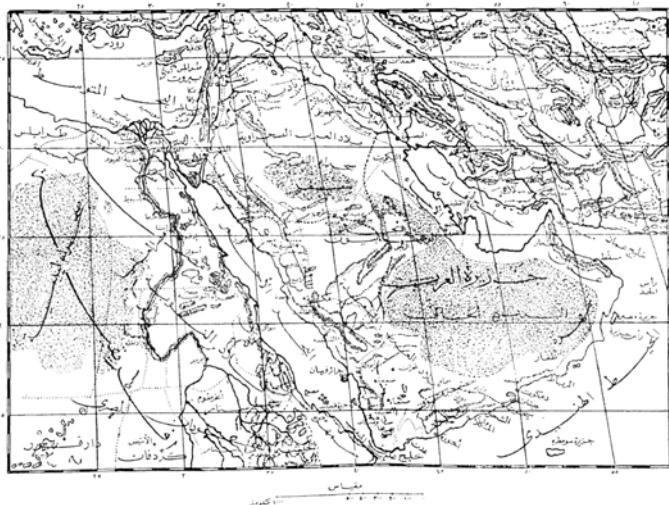
ولم يُعرف من سلاسل جبال جزيرة العرب الكثيرة سوى القليل، وأحسن ما عُرف منها السلسلة المتداة على طول الشاطئ الشرقي للبحر الأحمر حيث يرتفع بعض ذراها ٢٥٠٠ متر.

وفُقدان الأنهر الدائمة في جزيرة العرب مما يستوقف النظر، وتبقى أخاديدها خاليةً من الماء في أكثر أيام السنة، وتشُقُّ هذه الأخاديدُ جزيرة العرب طولاً وعرضًا، وقد يبلغ طول بعضها، كوادي الرُّؤْة: ١٣٠٠ كيلو متر، وهي تصبح كالأنهر العظيمة المعروفة حين يملأها ماء المطر.

والجذبُ والحرُّ من أظهر ما عُرفت به جزيرة العرب منذ القديم، والجذبُ على الخصوص، هو أشدُّ ما تعانيه، ولم ينشأ عن قطع أشجار غابها بالتدريج سوى زيادة القحط، شأنُ بلاد الجزائر الخصيبة في العهد الروماني، والجديدة في الوقت الحاضر. ويدوم المطر في جزيرة العرب بضعة أشهر على العموم، ومتى احتبس عمُّ الخراب، وأصبحت تلك البلاد غير صالحة للسكن تجريبياً، ويقترن القحط في جزيرة العرب بريح السُّمُوم في الغالب.

وريح السُّمُوم وعدم الماء أشدُّ ما تقاسيه القوافل في جزيرة العرب من أخطار، قال مسيو دِييرجييه: «تعرف القافلة، وهي تتوجّل في الصحراء، علامات ريح السُّمُوم الأولى، وهي: أن السماء تظهر في الأفق مُغْرَاءً ثم قَهْباءً^١ ودَكْناءً^٢، والشمس تضعف أشعتها فتصبح حمراء، والرمال الناعمة تملأ الجو والهواء، والرياح تثيرها فتندو كالبحر المزبد الذي تحرّكه العاصفة الهوجاء».

وهنالك تنقبض صدور السُّيَاح، وتحمر عيونهم، وتجف شفاههم، ويأخذون في الهرب هم وجمالهم التي تعددوا تارةً وتقفُ أخرى؛ لتطمّر نحورها في الرمل وتُمْرَغ



شكل ١-١: خريطة جزيرة العرب ومصر (وفق أحدث الوثائق).

مناخها بالأرض، وإذا ما استطاعت القافلة أن تتحمّي وراء صخرة حتى تهدأ الزوبعة فإنها تنجو، ولكنها إذا تاهت في الباادية وكانت بعيدة من الملاجئ أو اشتدت العاصفة فإن نشاطها يفتر، وتفقد غريزة حب البقاء، ويستولي عليها التّلُّ^٤ والدُّوار، وتصير غير قادرة على الفرار، وتُدفن تحت أكثبة الرمل، وتبقى مدفونة إلى أن تَهُب عاصفة أخرى، وتكشف عن عظامها البيضاء».

وتكون درجة الحرارة في داخل جزيرة العرب مرتفعةً عادة، ولا تُهبط في الصحراء إلى أقلّ من ٤٣ نهاراً و٢٨ ليلاً، وتكون معتدلة في الأماكن الجبلية أو القريبة من البحر، فقد شاهد نِيبوهر أن الحرارة في اليمن لا تزيد في أواخر شهر يوليه على ٢٩ درجة بمقاييس سنتيغراد، ويكون البرد في صنعاء قارساً في الشتاء.

والجفافُ والجُوُّ المحرق ليسا سائدين لجزيرة العرب كُلُّها، مع ذلك، ففي جزيرة العرب بقاعٌ متسعٌ اتساع الدول الأوربية المهمة كثيرةُ الخصب كبلاد اليمن، وببلاد نجد التي لم يَرِيْلْغريِّقُ ما هو أدنى من جوّها للصحة في العالم.

وتتألف صحراء جزيرة العرب من سهول رملية واسعة، وفيها آبارٌ وواحاتٌ ذات نخيلٍ ومناجعٍ.^٠

وتجب قبائل البدو الصحراء دائماً، ويأخذ عيشها بمجامع قلوب الأعراب، ويُفضلُه الأعراب على غيره مع نفحة الأوربيين منه، وليس حبُّ الأعراب لعيش الbadia حديثاً، فهم حفدة العرب الذين قصَّت التوراة علينا من أبنائهم، والذين حافظوا على ما تقتضيه من أذواق وطبائع وعادات.

ومما تقدَّم ترى جزيرة العرب ذات أجواءٍ وتربة مختلفة، فيوجب هذا اختلافاً في طرق معيشتها ونباتها وحيوانها وسكانها.

(٢) إنتاج جزيرة العرب

التمر والبنُّ من أهم ما تنتجه جزيرة العرب، ويعتمد سكانها على التمر في طعامهم، وعلى البن في اغتنائهم، ويستفيد العرب منذ القديم مما يُصدرون من اللبان^١ والسليخة^٢ والسنَا^٣ المكيّ والأدهان.

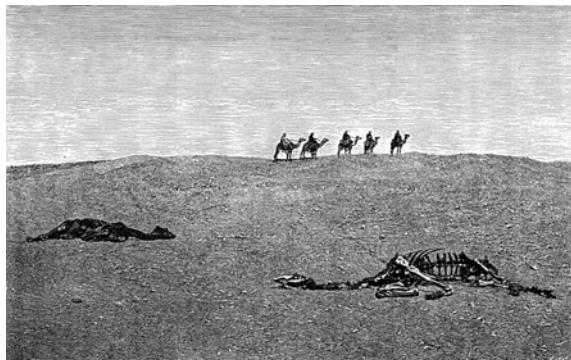
ولاختلف جو جزيرة العرب ينبع فيها مثل نباتات البلاد الحارة والبلاد المعتدلة، كالقطن وقصب السكر والجميز والطلح والدردار^٤ والمران^٥ ... إلخ. ويندر شجر الغاب في جزيرة العرب، والنخلُ أظهر ما فيها، وهو الذي يكون به لمناظر الشرق شكلُ خاص.

وتصلُحُ الأماكن الخصبة من جزيرة العرب لمثل النبات الذي يزرع في أوربة، كاللشمش والخوخ والتين واللوز والعنب والقمح والذرة والشعير والذخن^٦ والفول والتبغ ... إلخ.

ومع أن الزراعة في حقول اليمن جيدة، فإن العمل فيها شاق؛ لما تحتاج إليه من السقي الدائم بمياه المطر التي تُجمع في الآبار وبين الأسداد.

وتعرف جزيرة العرب مثل ما نعرف من الحيوانات الأهلية؛ كالبغال والحمير والبقر والضأن والمعز ... إلخ، ولا تجهل جزيرة العرب الكثير من الضواري كالأسد والنمر والفهد.

وليست الضواري أشدَّ ما يخاف سكان جزيرة العرب، وفيها الجراد الذي قد يأتي على الأخضر واليابس، وقد لا يخلو الجراد من فائدةٍ مع ذلك، فهو في الغالب، غذاء المسافرين في الbadia، وطعمٌ مطايِّح أسبابَ كثيرة.



شكل ٢-١: البادية من صورة فوتوغرافية.

والخيول والجمال أكثر حيوانات جزيرة العرب نفعاً للإنسان، فأما الجمل، وهو أفضل حيوان أهلي عند العرب، فلا تقطع البادية بغيره، وهو لقناعته وقوته واحتماله المشاقّ وصبره على العطش أياماً، لا يقوم مقامه حيوانٌ في الركوب وحمل الأثقال، وهو يستطيع أن يجوب البادية بين حلب والبصرة حاملاً ٥٠٠ رطل مع عَافٍ قليل، وهو يقدر أن يأكل ما لا يقدر حيوانٌ عليه من الطعام، وقد عجبت منه حين رأيته يأكل هادئاً مطمئناً أوراق الصبار التي تكون على جوانب الطرق فيشبه شوكها المسَلَات. وأما الخيول العربية؛ فذات شهرة عالمية، وهي إذ وُصفت غير مرّة، وكان ما قاله پلغريش من أحسن ما قيل فيها، فإنني أقتطف منه ما يأتي:

إن الخيول العربية، وهي قويةٌ عصبيةٌ رشيقة، مفتخرة بعتقها، مختالةٌ في مراتعها، مثال الأنفة في شكلها والكمال في صفاتها، وهي برأوسها الصغيرة النحيفة، وأحداقها الوهاجة، ومناخيرها الواسعة، وكواهلها الناهضة، وجوانبها الممتلئة القصيرة، وأكفالها الطويلة، وذيلوها المتوجة، وقوائمها الدقيقة المتينة عنوان الجمال، وهي بدّعتها وبأسها وقناعتها وسرعة عدوها تفُضُّل أحسن أنواع الأوربيّة، ويُعدُّ الأعراب خمسة أنواع أصيلة للخيول متولدة من خمسة حُجُورٍ^{١٢} كان يركبها الرسول على زعمهم، وعندما تلد الحِجْر الأصيلة مُهراً

يجتمع في المِضَرَب^{١٣} أناس؛ ليكتبوا شهادة عن وصفه واسم أمه ونسبها، ويضموها ويضعوها في كُتُبِّيْس جلدي يُربط ببنره، فيدخل بذلك في زمرة الجياد المرمودة التي أدى الطمع فيها إلى اقتتال القبائل غير مرة.

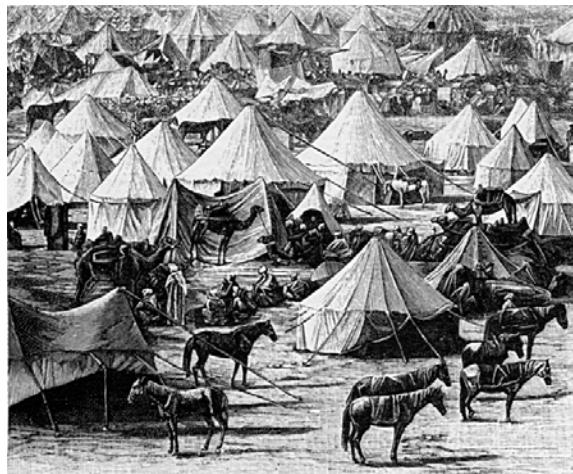
وسرعة عدو الفرس هي التي تنقد حياة المقاتل في الصحراء غالباً، ومما رواه بُرْكهارد أن فرساناً من الدروز هجموا في سنة ١٨١٥ على عصابة من الأعراب في حوران، ودحروها إلى مضاربها، وأحاطوا بها من كل جانب، وأنه لم ينجُ من القتل منها سوى رجل واحد امتنى صهوة جواده، وخرق خط الحصار، وولى مدبراً ولم يُعقب، وأن أحسن فرسانهم، وهو القُسَّاةُ الذين أقسموا أن يقتلوا العصابة على بكرة أبيها جُدوا في أثره، وأن ذلك المنزه لم يترك صخوراً وسهولاً وتلالاً إلا قطعها بسرعة الزوبعة، فلما أيقن أولئك الفرسان، بعد مطاردةٍ عنيفة دامت عدة ساعات، أنه لاأمل لهم في قتله ناشدوه أن يقف؛ ليقربُلوا ناصية جواده الأصيل ويترکوه، فرضي بذلك، فقالوا له لما صرَفوه كلمتهم المأثورة: «اغسل حوافر جوادك، ثم اشرب غُسالتها»، قاصدين بذلك إظهار مشاعرهم نحو جواده النجيب.

وأضيف إلى ما تقدم قوله: إن الخيول العربية لا تعرف سوى مشيتين: الخطاء والعده، وإن انقيادها لصاحبها جدير بالذكر، وما أكثر ما رأيتُ العرب يترجّلون، وخيولهم لا تحاول الابتعاد عنهم، مع تركهم أعنّتها لها!

وعلى ما في الخيل من الفائدة لا تتتوالد كثيراً في جزيرة العرب خلافاً لما يُظنُّ، وسبب ذلك: أن الخيل، وهي على عكس الجمل الذي يمكن تربيته في كلّ مكان، لا تُنشأ إلا في البقاع الخصبة، كسهول العراق وسوريا، ونجد، وفي نجد وحدها أعزُّ الخيول العربية وأرشقها.

وُعرفت جزيرة العرب في القرون القديمة بوفر معادنها الثمينة وأحجارها الكريمة، واليوم لم يبقَ أثر لذلك، ولا نعلمُ غير ما يُقصُّ علينا من الآنباء عن حديدها ونحاسها، ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن نبدي رأينا قاطعاً في ثروة جزيرة العرب المعدينة، فمعارفنا بها سطحية.

وظلت صناعة قسم من جزيرة العرب وتجارته على ما كانت عليه في القرون الخالية، وتُعدُّ الحليُّ اليمنية والتمور والخيل والنيلج^{١٤} والسنا المكي واللبان والمُرُّ^{١٥} الصافي ... إلخ، أهم مواد الإصدار من جزيرة العرب، ولا تزال القوافل تقوم، كما في



شكل ٣-١: مخيم حجاج بالقرب من مكة في موسم الحج (من صورة فوتوغرافية).

العصر الإسرائيلي، بإصدار هذه المواد من جزيرة العرب إلى أوربة، وبإيراد ما تحتاج إليه من إفريقية والهند وفارس.

وتحسب المسافات بالساعات في جزيرة العرب، كما في الشرق كله، ويرى العربي أن سير الجمل ذي الحمل الخفيف في الساعة الواحدة يعدل فرسخاً، فنجم عن هذا أن المسافات التي تلوح تافهةً على الخريطة تقطع في عدة أيام.

وجزيرة العرب خالية من الطرق المعبدة، والطرق التي تسلكها القوافل فيها هي الأودية أو الأخداد التي ذكرناها آنفاً، وإذا ما استثنينا هذه المسالك، التي لا تزال كما كانت عليه في الزمن القديم، رأينا مناحي جزيرة العرب تتبعين بآبارها التي تتعدد الحياةُ هناك بدونها، وأكثر مسالك جزيرة العرب استطراقاً هي: الطريق التي بين دمشق وبغداد، والطرق التي تبدأ من مدينة الرياض النجدية وتنتهي بمكة ومسقط وبغداد ودمشق.

(٣) أقسام جزيرة العرب

لم يعرِف القدماء من جزيرة العرب سوى الشيء القليل، ولم يَتَحدَّث هِيُودُس عنها في أكثر من بعض كلمات، ولا يُؤْبِه للأخبار الناقصة التي أتى بها إسْتَراپُون وَدِيُودُورُس الصَّقْلِيُّ، وهما اللذان أَسَنَا إلى جزيرة العرب من المنتجات، في الغالب، وما كانت تصدره إليها بلاد الهند فتصدرها إلى الخارج، وذكر بطليموس — ويظُهر أنه عَرَف جزيرة العرب أحسن مما عَرَفَهُ أَوْلَئِكَ — أنه كان في بلاد اليمين ١٧٠ مدينة، وعدًّا من هذه المدن خمس عواصم كبيرة.

ومعْرِفَة الرومان لجزيرة العرب كانت ضعيفةً إلى الغاية، وحاول الرومان غير مرّة، تدويخ جزيرة العرب التي كانوا يعتقدون أنها تنتج من التوابيل والأبازير والعطور والنسائح والحجارة الكريمة ما كانت تستورده من بلاد الهند والصين بالحقيقة، ولكنهم وهم الذين كانوا سادة العالم، لم يستطِعوا أن يقهروا قبائل البدو العربية التي احتمت بُكْثَان الرمال وجُوُّ البَلَاد.

ولم يتَوَغَّل الأُورَبِيون في جزيرة العرب إِلا حديثاً، ولم يَعْرِف عنها الأُورَبِيون، قبل نَيْبُوَهُر الذي زارها سنة ١٧٦٢ م، سوى ما أَخْذَوه عن جغرافييِّ العرب أو عن بطليموس من المَعَارِف المبهمة، ونرى الخريطة التي رسمها نَيْبُوَهُر أولى الخرائط العلمية عن جزيرة العرب، مع اقتصاره على السياحة في قسم من بلاد اليمين.

وانقضى نصف قرن بعد نَيْبُوَهُر من غير أن يقوم سائح آخر بارتياح جزيرة العرب، فلما كانت سنة ١٨١٥ استأنف بُرْكَهَارَدُ البحَّاث، فجمع أَنْبَاءً رائعةً عن جزيرة العرب، ولا سيما مكة والمدينة، وما قامَت به مصرُ حَوَالَي تلك السنة من غزوٍ ضد الوهابيين كان فاتحة بحثٍ واسع عن مختلف أقسام جزيرة العرب، ثم جاء جزيرة العرب سياحًّا كثيرون نذكر منهم وَالَّذِين (سنة ١٨٤٥) وَبِرْتُون (سنة ١٨٥٢) وَبِلْغَرِيف (سنة ١٨٦٢)

الذِّي زار في أواسط جزيرة العرب، أماكن كانت مجهولة قبله تماماً.^{١٦}

وَقَسَّمَ القدماء جزيرة العرب إلى ثلاثة أقسام: بلاد الحِجْرُ العربية (بطرا)، وهي القسم الشماليُّ الغربيُّ من جزيرة العرب، وبِلَادُ العَرَبِ السَّعِيدَة، وهي القسم الجنوبيُّ الغربيُّ منها، والصحراء العربية، وهي قلبها وشرقها.

فَأَمَّا بلاد الحِجْرُ الغربية (بطرا) فتشتمل على القسم الواقع بين فلسطين والبحر الأحمر، وأمَّا الصحراء العربية فهي الباذية الكبُرَى التي تمتدُّ من حدود سوريا والعراق

إلى الفرات وإلى الخليج الفارسي، وأما بلاد العرب السعيدة فتشتمل على القسم الجنوبي من جزيرة العرب، أي على نجد والجaz واليمن وعمان ... إلخ. وجَهْل جغرافيُّو العرب ذلك التقسيم، فلم يَرَوا بلاد الحِجر (بطرا) من جزيرة العرب، فكان التقسيمُ الوحيد الذي اصطلحوا عليه ما يأتي:

بلاد الحجاز: وهي جبليَّة رملية، تشمل على الجزء المتوسط من المنطقة الواقعة على ساحل البحر الأحمر، ومن بلاد الحجاز مكة والمدينة المقدستان.

وببلاد اليمن: وهي في جنوب بلاد الحجاز، تتتألف من الزاوية الجنوبية الغربية من جزيرة العرب، وببلاد اليمن أغنى جزيرة العرب وأخصبها.

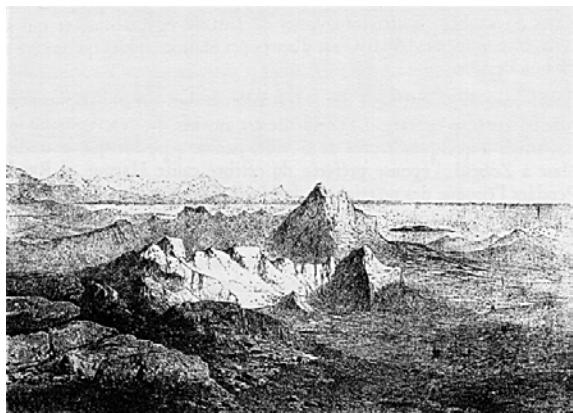
وببلاد حضر موت ومهرة وعمان والأحساء: وهي تلي اليمن كما يبدو من الخريطة، تمتد من خليج عدن إلى أقصى خليج فارس.

وببلاد نجد: وهي هضبةٌ خصبة ذاتُ مدن مهمَّة، تقع وسط جزيرة العرب، وتحيط بها الفلووات والمفاوز من كُلِّ جانب.

ولا مطابقةٌ بين هذه التقسيمات، التي يرجع أكثُرها إلى أقدم أدوار التاريخ، وتقسيم جزيرة العرب السياسي، فقد كان العرب قبل ظهور محمد منقسمين إلى ألواف من القبائل المستقلة، ثم قامت الدولة العربية فتألفت من تلك القبائل أمة واحدة، ثم عاد سكان جزيرة العرب، بعد زوال تلك الدولة، إلى حالهم السابقة، وأصبحت لا ترى في جزيرة العرب غير إماراتٍ صغيرة وقبائل مستقلةٍ تخضع كلُّ واحدة منها لرئيس واحد، ولا يُستثنى من ذلك سوى المالك الثلاث: نجد واليمن وعمان.
وإليك بياناً موجزاً عن مختلف الأماكن التي ذكرناها آنفًا:

(٣) بلاد الحجر العربية (بطرا)

ذكرنا آنفًا أن جغرافيَّي العرب لم يَعُدُوا بلاد الحِجر من أقسام جزيرة العرب، ونحن لا نستطيع إلا أن نُعدَّها من تلك الأقسام من الناحية الجغرافية والناحية الإثنوغرافية. وتألف «بلاد الحِجر» من جزيرة سيناء المتدة من حدود فلسطين إلى البحر الأحمر، ويدلُّ اسم «بلاد الحِجر» على حقيقتها، وذلك أنه يقع في وسط جزيرة سيناء طَوْدٌ من الصَّوَان يُسَمَّى طور سيناء، ويحيط بهذا الطَّوْد بقعةٌ صخرية ذات نبات قليل ضعيف، وتصبح هذه البقعة رمليةً بالقرب من الساحل.



شكل ٤-٤: منظر من طور سيناء (من تصوير مسيو دو لا بورد).

وكانت جزيرة سيناء ذات شهرة في التاريخ مع فقرها، فهي بلاد الأدوميين والعمالقة والأنباط والمديانيين الذين ذُكروا في كتب العبريين كثيراً، وفيها تاه بنو إسرائيل زمناً طويلاً بعد خروجهم من مصر وقبل دخولهم أرض الميعاد، ولا يزالون يشرون هنالك إلى الجبل الذي بلغ منه موسى شريعته إلى قومه، وإلى الحجر الذي ضربه موسى بعصاه فانبجس منه الماء، وإلى كهف حوريب الذي توارى فيه النبي إيليا خوفاً من غضب الملكة إيزابيل.

وتُرى في تلك البلاد القديمة التي قصَّت التوراة علينا أخبارها خرائب بلاد الحِجر (بطرا)، وهي أنقاض للمخازن التي كانت قبائل اليمن تجُلُّ إليها اللُّبان والأطياط لمبادرتها بسلع الفениقيين.

(٢-٣) بلاد نجد

بلاد نجد هضبة واسعة خصبة واقعة في وسط جزيرة العرب، وتحيط بها الفلووات والجبال من كل جانب.

واطلاع الناس على شؤون هذه الهيبة التي تقوم عليها الدولة الوهابية أمرٌ حديث، وقد قال پلغريف عن سكانها: «إن بينهم، كما بين سكان شفيلد وبِرمنغم، مهندسين قادرين على إنشاء خطوط حديدية وصنع آلاتٍ وبواخر»، ثم ذكر پلغريف، في أثناء كلامه عن نجد، أن من الباطل أن تُوصم جزيرة العرب بالتوحش، وأن يُحكم عليها بما يلاقيه السياح الذين لا يقصدون سوى بعض بقاعها الساحلية على العموم.

وعلى ما أصاب الوهابيين من الانهزام أمام المصريين في سنة ١٨١٠ وسنة ١٨١٨ لم تلبث الدولة الوهابية أن أعيد بنيانها، ويقيم أميرها عادةً في مدينة الرياض العظيمة الشأن.

والزراعة أهم ما يعتمد عليه سكان نجد، وقد قال پلغريف: «تثبت وفرة الذرة والقمح والتمر الجيد في نجد أن النجدين زُرَاعٌ ماهرون».

(٣-٣) بلاد الحجاز

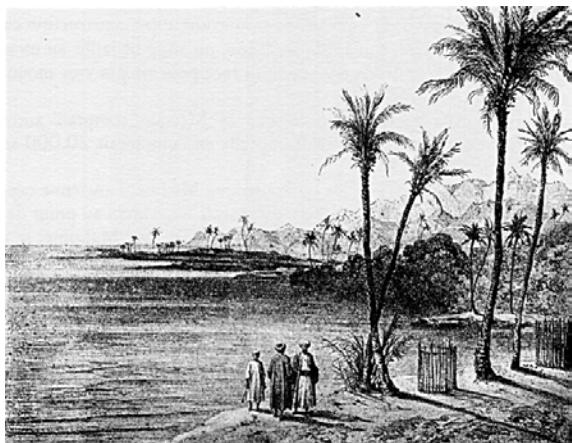
بلاد الحجاز واقعة على ساحل البحر الأحمر وتشتهر، على الخصوص، بأنها مهد الإسلام وبمكة والمدينة المقدستين اللتين يأتيهما، في كل سنة، ألف الحجيج من أقصى نواحي العالم الإسلامي.

وتتشتمل بلاد الحجاز على بقاع خصبة، ولكن معظم بقاعها غير ذي زرع، ونرى شريف مكة الأكبر، الذي يقيم بالطائف، هو الذي يقبض على ناصية الحكم فيها، وإن كانت تابعة لسلطان الأستانة بالاسم.

ومكة من المدن الواقعة في وسط الصحراء، ولا نشاهد مثالها في غير جزيرة العرب، ولا تفي أرضاً لها غير الخصبة باحتياج سكانها، فيجلب هؤلاء السكان الجبوب، التي يضطرون إليها، من مدينة جدة التي هي مرافئ مكة واقع على ساحل البحر الأحمر.

وجهل الأوربيون مكة، التي سماها أهلوها بأم القرى، زمناً طويلاً، ولا يستطيع أوربيٌّ أن يدخلها من غير أن يُعرض نفسه للقتل، وما قدر عليه بعض السياح من زيارة لها كان بفضل تَنَكُّرهم وتَضُلُّلهم من اللغة العربية، ولم يكن لدينا عنها، فيما مضى، غير رسوم ناقصة لا يُرکن إليها عند البحث الصحيح، ونستطيع، اليوم فقط، أن نتمثلها تمثلاً صحيحاً بفضل الصور الفوتوغرافية التي التقطها أحد رجال الجيش المصري، صادق بك، والتي انتهت إلينا بأوربة في سنة ١٨٨١، فاستعننا ببعضها في هذا الكتاب.

ولا تُفضل مكة على المدن العربية الأخرى بغير نظامها الكبير، ويندر الماء فيها، ويُجلب إليها أطيب الماء بقنواتٍ من ينابيع عَرَفة التي تبعد منها بضع ساعات، وتقول القصة: إن زوجة الخليفة الأشهر هارون الرشيد المفضلة، زبيدة، هي التي أنشأت تلك القنوات.



شكل ٥-١: واحة الذهب على خليج أيلة (بلاد الحجر العربية، من تصوير مسيو دو لابورد).

وتُصبح مكة في موسم الحج أغنى مراكز العالم الإسلامي التجارية وأكثرها تنوعاً، ويقوم في وسطها المسجد الحرام الذي ذاعت بفضله شهرة (أم القرى)، وتقوم الكعبة الشهيرة، التي يقول مؤرخو الشرق إن إبراهيم هو الذي أنشأها، في المسجد الحرام، وتنافس الخلفاء والسلطانين والفاتحون منذ زمن محمد في تزيين المسجد الحرام بسائق التقوى، فلم يبق شيء من زخارفه الأولى.

والمسجد الحرام مُربعُ الشكل، ويَجِدُ المرء نفسه، بعد أن يدخله من أحد الأبواب، في باحة فسيحة تحيط بها أقواسٌ قائمة على غابة من الأعمدة، وتعلو هذه الأعمدة قبابٌ صغيرة كثيرة، وتقوم مآذنُ المسجد الحرام على مختلف أجزاء ذلك المُربع.

وأتخذ المسجد الحرام المكي مثلاً في إنشاء كثير من مساجد سورية على الخصوص، ورأيُتُ في دمشق مساجد كثيرة مبنية على طراز الحرم المكي، وتحتلت مساجد القاهرة عنها بشكل مازنها ودقائق زخارفها بعض الاختلاف.

ويقع المعبد الصغير، الكعبة، في باحة الحرم المكي، والكعبة بناءً مكعبٌ ذو حجارة سُمر، ويبلغ ارتفاعها أربعين قدماً وطولها ثمانية عشرة قدمًا وعرضها أربع عشرة قدماً على حسب رواية بركهارد، وليس للكعبة سوى باب واحد يرتفع عن الأرض سبع أقدام، ولا يُوصل إليه إلا بسلّم متنقل ينصبونه في موسم الحج، ويتالف داخل الكعبة من حجرة واسعة مُبلطةٍ بالرخام، ومنارةٍ بمصابيح مصنوعةٍ من الإبريز ومزخرفةٍ بالكتابات. وداخل الكعبة غنيٌّ بزخارفه في كلِّ زمن، ومن أقدم ما وُصف به هو ما جاء في رحلة ناصر خُسرو المفيدة التي قام بها في سورية وفلسطين وجزيرة العرب ... إلخ. (١٠٣٥-١٠٤٢ م)، والتي نشرها حديثاً مديرُ اللغات الشرقية العالم، مسيو شيفر، قال ناصر خسرو:

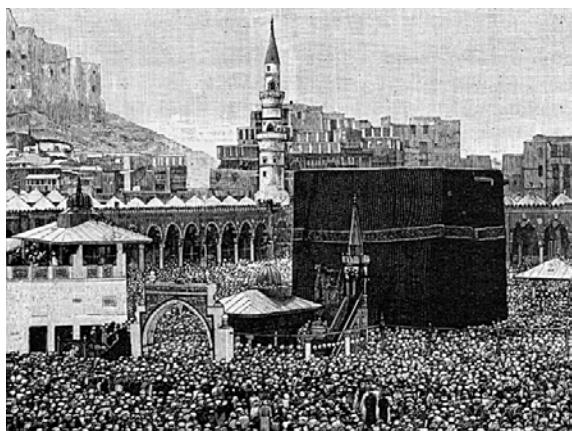
يُغطّي جُدر الكعبة رُخَامٌ من شتى الألوان، وتُسْمَر بجدارها من الناحية الغربية ستة محاريب فضية طويلة بمقدار قامة الرجل مُكَفَّتةً بالذهب واللجين^{١٧} المرقش باللون الأسود، ويبلغ ارتفاع الجُدر في البدء أربعة سواعد من الأرض، فإذا عدوت هذا الارتفاع وجدت ما فوقه حتى السقف مستوراً بصفائح من الرُّخام المزين بالزخارف العربية وبالنقوش المذهب معظمها.

والحجر الأسود الأشهر مُدمجٌ في أحد جُدر الكعبة الخارجية، ولا يزيد قطر الحجر الأسود، وهو الذي يقول العرب إن الملائكة أنروا به من الجنة؛ ليكون موطئاً لإبراهيم حين بنائه البيت الحرام، على سبعة قراريط، ولا نعلم شيئاً كرمه الناس زمناً طويلاً كالحجر الأسود الذي كان موضع احترام وتبجيلاً قبل ظهور محمد بقرون كثيرة. وتُكسي الكعبة في كل سنة كسوةً سوداء تسترها كلها عدا موضع الحجر الأسود وبضع أقدام من أسفلها، ويعصب أعلى الكعبة، في أوائل مواسم الحج، ببطاق موسى بآيات قرآنية مكتوبة بحروف من ذهب.

ويقوم في ساحة المسجد الحرام، أيضاً، بناءً مربع ساترٍ لينبوع، تقول القصة: إن ملكاً فجّره حين حَجَّت هاجر وجهها لكيلا ترى — وهي هائمةً على وجهها في الباردة — ولدها إسماعيل يموت عطشاً.



شكل ٦-١: مكة والمسجد الحرام (من صورة فوتوغرافية التقطها الكولونيل المصري صادق بك).



شكل ٧-١: الكعبة في المسجد الحرام بمكة أيام الحج (من صورة فوتوغرافية).

ويجزم مؤرخو العرب أنه كان يسكن مكة مائة ألف نفس في غابر الأزمان، ويرى بركهارد أنه لا يقطن بها سوى عشرين ألف نفس في الوقت الحاضر.

وتقع المدينة في الحجاز أيضاً، وهي أقدم عاصمة للدولة العربية، وتلي مكة في الشرف عند المسلمين من الناحية الدينية، فإلى المدينة هاجر محمد، وفيها تُوفيَّ بعد أن وَطَد دعائم دينه.

وتحيط بالمدينة أرضٌ جديبةٌ كما تحيط بمكة، ولا تُنْتَب هذه الأرض ما يحتاج إليه أهلوها من الحبوب، فيجلب هؤلاء الأهلون ما يُضطرون إليه منها من ميناء ينبع الواقع على ساحل البحر الأحمر.

وأصبحت المدينة ذات غنىًّا وثراء بفضل تقوى الحجاج وبِرِّهم، وتنافس بيتهما، المبنية من الحجارة المنحوتة، من طبقتين على الأقل، وشوارعها مبلطة، ويحيط بها سور مرتفع.

وليس في المدينة مبانٍ قديمة، خلا مسجدها المشهور الذي دُفن فيه محمد بعد أن كان يُعلّم الناس فيه أحكام الإسلام، وصارت المدينة، بفضل قبر الرسول، مكان حج وزيارة مهمٌّ مثل مكة تقريباً.

(٤-٣) بلاد عسير

تقع بلاد عسير الواسعة بين الحجاز واليمن، وكان الأوربيون يجهلونها حتى أوائل القرن التاسع عشر، ونحن لا نعلم من أمرها سوى أنه يسكنها قوم مقاتلون، وأنها ذات مدن مهمة كثيرة.

(٥-٣) بلاد اليمن

تتألف بلاد اليمن من القسم الجنوبي الغربي من جزيرة العرب، وهي أغنى جزيرة العرب وأخصُّها وأكثُرها سكاناً، وهي أهم جزء من البقاع التي كان يسميها القدماء «بلاد العرب السعيدة».

ويتعاطى سكان اليمن الزراعة والتجارة معًا، وترجع علاقاتهم بالمصريين والفرس والهنود وغيرهم إلى أقدم القرون.

والاليوم يدين أهلُ اليمن بالطاعة لمن يُسمونه «الإمام»، ويقيم الإمام بصناعة التي يبلغ عدد سكانها ستين ألفاً، ومن قول العالم الجغرافي العربي الإدريسي عن صناعة: أنها كانت مقرًّاً ملوك اليمن وعاصمة جزيرة العرب، وأنه كان ملوكهم قصرٌ متين شهير،

وأنها كانت تشمل في زمانه على عدة قصور تحيط بها الحدائق الواسعة، وعلى بيوت مصنوعة من الحجارة المنحوتة ومحتوية نوافذ زجاجية، وأن فيها عشرين مسجداً تعلو أكثرها قباب مذهبة فتساعد على تزيين هذه العاصمة القديمة.

وأتيح لغروتندن أن يزور صنعاء، فوصف موكب الإمام فيها يوم الجمعة بما يأتي: «يشق طريق المسجد خمسون أعرابياً مُدجّجون بالسلاح سائرون ستة ستة منشدون بعض الأناشيد، فیأتی خلفهم أمراء البيت المالك راكبين عتاق الخيل حاملين رماحاً طويلة تعلوها راياتٌ خفّاقة، فیأتی الإمام خلف هؤلاء الأمراء ممتطلاً صهوة جوادٍ أشهب ناهض من جياد الخيل التي تُربى في صحراء الجوف بشمال صنعاء، والتي تعدل خيول نجد سرعة ورشاقةً وتزيد عليها علوًّا، حاملاً بيده اليمني قنادة ذات قاريبة^{١٨} من فضة ومقبض من ذهب منقوش، متكتأ بيده اليسرى على كتف حصيٍّ، تاركاً العنان لاثنين من عبيده، متقياً وهج الشمس بمظلة وسعة مهدبة ذات جلاجل من فضة، فیأتی خلف الإمام سيف الخليفة مستظللاً بمظلة أقلَّ أهميةً من تلك، فیأتی خلف سيف الخليفة قائدُ الجيش وأقرباء الإمام وخواصُ ضباطه، فمائةً أعرابياً مسلح».»

ولا تزال صنعاء أهم مدن جزيرة العرب، وقال مسيو هاليقي الذي زارها منذ زمن قريب: «يذكرنا فنُّ عمارتها بالمباني الشهيرة التي شيدت على حسب فن العمارة الإسلامية».

وتشتهر مدن اليمن، ولا سيما الروضةُ القريبة من صنعاء، بحدائقها وبيوت لهوها، ويستعان في الروضة بالكرمة في صنع العُرْش كما يستعan بها في إيطالية. وتقع بعد ثلاثين فرسخاً من صنعاء خرائبُ مدينة مأرب أو سباً التي كانت عاصمة البلاد في غابر الأزمان، فغدت اليوم قريّةً، وكانت تلك الخرائب تشمل في زمن الإدريسيِّ، الذي ألف كتابه في القرن الثاني عشر من الميلاد، على أنقاض قصرين أقام أحدهما سليمان وأقامت الآخر نساء داود (!) وكانت الملكة التي زارت سليمان تملك سباً كما روت كتب اليهود.

ومن بين مدن اليمن المشهورة نذكر المرفأين، مخا وعدن، الواقعين على البحر الأحمر، وتنحصر أهمية مدينة عدن المتهدمة، التي استولى عليها الإنكليز، في موقعها، وكانت عدن فيما مضى زاهرة كثيرة السكان، ومما قاله العالم الجغرافي الإدريسي عنها منذ ستمائة سنة «أنه يُجلب إليها من السند والهند والصين ثمين الأدوات كنصال السيوف المرصعة والجلود المحببة والمسلك وسروج الخيل، واللفلف والبهار والنارجيل^{١٩} والأبازير والهال،

والقرفة وقشر العفص والإهليج ^{٢٠} والأبنوس، وقشر السلفاء والكافور وجوز الطيب والقرنفل، ومختلف المنسوجات النباتية الثمينة المخملية والعاج والقصدير ونخل الهند والقصب والنَّدْ المَرِ الصالح للتجارة.

والبُنُّ من أهم ما تنتجه بلاد اليمن في الوقت الحاضر، فتصدره إلى أنحاء العالم قاطبةً، ومع ما يزرع من البن الوافر في كثير من بقاع الأرض لم يبلغ من حيث الجودة في مكان ما بلغه في بلاد اليمن ذات الجو الخاص، وتعد مخا مستودع البن ^{٢١} اليمني. وليس للملك اليمن في الوقت الحاضر ما كان لأسلافهم في القرون الخالية من الجلال والعظمة، ولا يعود سلطانهم الآن حدود المدن الكبرى، ولا يتناول نفوذهم مختلف القبائل المستقلة المنتشرة في نواحي البلاد.

(٦-٣) بلاد حضرموت ومهرة وعمان والحساء

تمتد بلاد حضرموت ومهرة من شرق اليمن إلى عُمان، وتقع على طول ساحل المحيط الهندي، وتسكنها قبائل مستقلة، وفيها بعض مدن تكاد تكون مجهلةً. عاصمة حضرموت هي مدينة شبابام الواقعة على مسيرة يوم من مدينة تريم المهمة، التي يبلغ عدد مساجدها عدد ما في روما من الكنائس كما روى فريسنل. وتقع بلاد عمان، التي تأتي بعد مهرة، على ساحل المحيط الهندي والخليج الفارسي وهي رملية تتخللها واحات كثيرة وأودية خصبة، ومقر سلطانها مدينة مسقط التي لا قيمة لها اليوم.

وليس بلاد الأحساء المتدة من عُمان إلى مصب الفرات، والواقعة على طول الخليج الفارسي معروفة جيداً، ويُظن أنها قليلة السكان، ويعُد القسم الذي بين مدينة القطيف والبصرة صحراء واسعة، وتقع تجاه هذا القسم جزر البحرين التي هي أشهر معاوثر اللؤلؤ في العالم.

لقد أتينا ببحث موجز عن جزيرة العرب، وعليينا أن ندرس الآن أمر سكانها، وسنرى أن العالم لم يعرف قطراً طبع بجوه وأرضه طابعه على شعب كما طبعت جزيرة العرب بجوها وأرضها طابعها على من يسكنها من الأهلين.

ولا تنفع أبناء الفتوح وأخبار الملوك في الوقوف على تاريخ إحدى الأمم، والذي ينفع في ذلك هو البحث في مختلف العوامل التي أثرت في تطورها، والتي يجيء عامل العرق الذي تتنسب إليه في مقدمتها.

فما سجايا هذا العرق الخلقية ومواهبه العقلية؟ وماذا اعتور هذا العرق من التغير بفعل البيئة والوراثة والعلاقات بالأمم الأخرى؟
هذا ما نرحب في معرفته، وما نسعى إلى درسه في هذا الكتاب.

هوامش

- (١) المغراء: مؤنث الأُمْغَر؛ وهو ما كان لونه بلون المغرة.
- (٢) القهباء: مؤنث الأَقْهَب، وهو ما كان لونه القهبة، وهي بياض تعلوه كدرة.
- (٣) الدكناه: مؤنث الأَدْكَن، وهو ما كان لونه مائلاً إلى السواد.
- (٤) الثلول: من ثول الرجل يتول: حمق.
- (٥) المناجع: جمع المنجع، وهو الموضع يقصده الناس في طلب الكلأ.
- (٦) اللبان: الكندر، وهو صمع شجرة شائكة ورقها كالأس.
- (٧) السليخة: دهن ثمر البان قبل أن يربب.
- (٨) السننا: نبات كأنه الحنان، زهره مائل إلى الزرقة وحبه مفرطح إلى الطول، ومنه نوع عريض الأوراق أصفر الزهر وأجوده الحجازي، ويعرف بسنا مكة، ويقال له أيضاً «السننا المكي».
- (٩) الدردار: شجر عظيم له زهر أصفر وورق شائك وثمر كقرون الدفل.
- (١٠) المران: شجر تتخذ منه الرماح.
- (١١) الدخن: نبات حبه صغير أملس.
- (١٢) الحجور: جمع الحجر، أي: الأنثى من الخيل.
- (١٣) المضرب: الخيمة العظيمة.
- (١٤) النيلج: شيء يتخذ من نبات العظالم بأن يغسل ورق العظالم بالماء، فيجلو ما عليه من الزرقة، ويترك الماء، فيرسب النيلج أسفله كالطين فيصب الماء عنه ويجف.
- (١٥) المر: مائع يسيل من شجرة فيجمد وهو طيب الرائحة من الطعام.
- (١٦) كنت أريد أن أتم مباحثي في مختلف البلدان التي خضعت لدولة العرب العظمى، فأسيح في قلب جزيرة العرب، وأوضح بعض المسائل التي لم أجده لها حلّاً، فاقتصرت حديثاً على وزير المعارف العامة، وهو القيم على أموال البعثات العلمية، أن يعهد إلى في ارتياح جميع جزيرة العرب، والتقطاط صور فوتوفرافية لأهم آثارها، فلم يقبل اقتراحه، ولذلك عدلت، وأنا العاجز عن القيام بتلك الرحلة العزيزة من مالي الخاص،

عن مشروعٍ فاقتصرت على رحلاتي في أقسام دولة العرب الأخرى التي تسهل السياحة فيها.

- (١٧) اللجين: الفضة.
- (١٨) القارية: أسفل الرمح أو أعلىه.
- (١٩) النارجيل: الجوز الهندي.
- (٢٠) الإهليج: عقار من الأدوية.

الفصل الثاني

العربُ

(١) مبدأ العرق كما أقرّته العلوم الحديثة

أرى، قبل البحث في العرب، أن أمهد الأمر بدرس ما هو ضروريٌ من أوصاف الإنسان وقوفًا على هذا الفصل.

تقسم الجماعات البشرية المنتشرة في مختلف أقطار الأرض إلى عروق، وكان يُظنُّ أن الفروق بين العروق البشرية أقلُّ مما هي عليه بين أنواع الحيوان، بيد أن العلم الحديث أثبت أن عروق البشر مفترقةٌ في أخلاقها افتراق أنواع الحيوان المقاربة، فيجب عُدُّ كلمة «العرق» بالنسبة إلى الإنسان مرادفةً لكلمة «النوع».

ويمكن تعريف العرق، أو النوع البشري، بأنه يدلُّ على جماعات ذات أخلاق مشتركة تنتقل إليها بالوراثة انتقالاً منتظاماً.

ويرى الذين لم يدرسوا علم أوصاف الإنسان أن «الأمة» و«العرق» كلمتان متادفتان تقريبياً، مع أن لهما معانٍ مختلفة تماماً، فالآمة: هي جماعة من الناس الذين ينتسبون، في الغالب، إلى عرق كثيرة جمع بينها نظام حكم واحد ومصالح واحدة، فإذا صح ما ندعوه الآن بالأمة الإنكليزية أو الأمة الألمانية أو الأمة النمساوية أو الأمة الفرنسية مثلاً، لم يبقَ ما تصح تسميته بالعرق الإنكليزي أو العرق الألماني أو العرق النمساوي أو العرق الفرنسي، فكل أمة من هذه الأمم هي من تباين المحاذِ والأصول ونقص الادّغام ما لا يجوز معه أن تطلق عليها كلمة «العرق»، أجل، إن من الجائز أن تنضوي جماعات بشرية كثيرة إلى قوانين واحدة، وأن تدين هذه الجماعات بديانة واحدة، وأن نتكلم بلغة واحدة، ولكنه لا يتألف منها عرقٌ متجانس إلا بعد أن تستقرُّ فيها أخلاق واحدة وصفاتٌ جثمانية واحدة بفعل البيئة والتقاليد والوراثة.

ويتطلب كسب هذه الأخلاق والصفات زمناً طويلاً جداً، والصفات الموروثة إذا كانت لا تستقر إلا ببطوء فإنها لا تزول إلا ببطوء، وبأقصى البطوء تندمج العروق وتتحول، ويجب، لكي يكون للبيئات والتواجد أبلغُ الأثر في تكوين العرق، أن يتواكب التطور، ويترافق بفعل الوراثة المتتابعة المستمرة قروناً كثيرةً سائراً نحو غرض واحد.

ويعدون البيئة، في الغالب، من العوامل التي تستطيع تحويل صفات العرق وإثباتها، ولكن الوراثة التي تترافق بها أخلاق العرق وسجاياه وتترسب مع الزمن أقوى من البيئة وأعظم أثراً، فقد دلت حوادث التاريخ على أن العرق إذا ما استقرت أخلاقه وسجاياه بالوراثة وبلغ من الكِبَرِ عتياً^١ عجزت البيئة عن التأثير فيه، وصار أهون عليه أن ينقرض من أن يتحول، من أجل ذلك نرىبني إسرائيل يحافظون على مثالهم الثابت في كل قطر، ومن أجل ذلك أيضاً تعدد على بلاد مصر الحارة، مع ما فيها من قوة صهر، أن تُحُول العروق المسنة التي استولت عليها واحداً بعد الآخر فكانت قبراً لكل واحد فيها.

وإنما تؤثّر البيئات في العروق الحديثة، أي العروق التي تنشأ عن تواجد مختلف الأمم ذات الصفات المتباينة، فإذا ما فلت الوراثة الوارثة وانحلت بذلك مقومات الماضي القديمة الموروثة بفعل الوراثة الجديدة خلا الميدان للبيئة وقامت بعملها.

والتوالد، لكي يكون مؤثراً، يجب أن يتكرر، وألا تتفاوت كثيراً نسب من يتواجدون من أفراد مختلف العروق، وإذا عظم التفاوت في نسب العناصر المتوالدة كانت الغلبة لصفات العرق الوافر العدد، لا لصفات العرق القليل العدد الذي لا يبقى له أثر من حيث النتيجة، وقد دل الاستقراء على أن رهطاً من البيض لم يلبث أن يزول أثره بعد بضعة أجيال إذا ما تواجد هو وقومٌ من الزنوج، وأن صفات أمٍ مقهورة صغيرة تزول بالتواجد أمام صفات أمٍ منتصرة كبيرة.

ومن الأمثلة على ذلك أغارقة الوقت الحاضر الذي لا يمتدون إلى أجدادهم الذين خلّدتهم التمايل بوجه شبهٍ،^٢ ومن تلك الأمثلة رومان بلاد الغول الذين، وإن كانوا وارثين لحضارتهم ولغتهم، لم يبق لدمائهم أثرٌ في عروقنا، ومنها أيضاً حال العرب في مصر، فسوف ترى أن المصريين الذين تمردوا على حضارة الفرس واليونان والرومان ولغاتهم انتحرلوا لغة العرب ودينهم وتمدنهم، وأن مصر غدت بذلك أشدّ البلاد التي دخلت في دين محمد عروبةً، وأنه، مع كثرة تواجد المصريين والعرب الفاتحين وظهور مثالٍ جديد اختلف عن الأصل بعد انقضاء جيلين أو ثلاثة أجيال، أدى تفوق نسبة المصريين العديدة

من حيث النتيجة إلى تقلص أثر الدم العربي في المصريين، وأن الفلاح المصري العتيد، العربي بدينه ولغته، راجع أباً لقدماء المصريين وصورة حية لهم.



شكل ١-٢: أعراب ورؤساء أعراب من القبائل المستقلة المجاورة للبحر المليت (من صورة فوتوغرافية التقاطها المؤلف).

(٢) أهمية الأخلاق في تقسيم العروق

لا تصلح اللغة والدين والجماعات السياسية والصفات التشريحية، كشكل الجمامات ولون الجلود والسّحنات،^٣ لتقسيم العروق وإظهار الفروق الدقيقة بين الأمم المتقاربة، كالأمم الأوربية مثلًا، وإن صلحت الأوصاف التشريحية لتقسيم الأجناس البشرية الظاهرة الاختلاف الباديء التباين.

بيد أنه توجد صفات نفسية، وإن شئت فقل سجايا حُلْقِية، ثابتة ثبات الصفات التشريحية، وأنه سيأتي يوم تكون فيه هذه الصفات النفسية، التي ألغفها علم أوصاف الإنسان الحديث، أساساً لتقسيم العروق، فلا يقول فيه أشدُّ الناس تمسگاً بالأوصاف التشريحية؛ إنه ينال، باطلاعه على صفات العرقين المتقابلين التشريحية، معارف أكثر من التي ينالها باطلاعه على صفاتهما النفسية.

وتتأتي الصفات النفسية المتشابهة بنتائج متشابهة دائمًا كما تأتي الصفات التسريحية، ومن ينعم النظر في تطور إحدى الأمم يعجب مما يلاحظه من تجلي سجاياها الخُلُقية على نمط واحد في غضون الأجيال، وتنشأ عن الصفات النفسية نظم الأمة و شأنها في العالم على الخصوص، وتستتر تحت الأخلاق، أي تحت المقومات التي تولد مع الإنسان وتُقرّر طرأت شعوره و فعله، عوامل السير اللاشعورية.

وتختلف الأخلاق باختلاف العروق، ونفترس بها الاختلاف السبب في أن النُّظم المتشابهة تأتي بنتائج مختلفة عند إدخالها إلى أمم مختلفة، ونفترس به، مثلاً، علة الفوضى السائدة لجمهوريات أمريكا الإسبانية البائسة وما تتمتع به جمهورية الولايات المتحدة من السعادة والرخاء مع تماثل نُظم هذه البلاد وتلك.

وفي الماضي تنضح عوامل السَّير، ومنه تتسلب علينا، وفي الماضي الطويل تتكون المرءة والنشاط والشجاعة والمبادرة ورعد النفس وكبح العواطف، وغير ذلك من الأخلاق والمشاعر التي يرثها أبناء الجيل الحاضر؛ ليقللواها إلى جيل المستقبل، والتي لا يستطيع أي نظام أن يمنحها.



شكل ٢-٢: أعراب سوريون (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف في أريحا).

وعلى ما في السجايا الْحُلْقِيَّة من الثبات نراها تقدر، كالصفات الجثمانية، أن تتحول ببطء بتأثير مختلف العوامل، ولا سيما البيئةُ المادية والمؤثِّراتُ الأدبية والتواли، ومن ذلك اختلافُ أخلاق الروماني الذي كان معاصرًا لهيليو غابال عن أخلاق أجداده في العصر الجُمهوريّ، واختلافُ سكان الولايات المتحدة في الأخلاق عن آبائهم الإنكليز.

والأخلاقُ في طريق التحول عند أكثر الأمم الحاضرة، وهي لا تزال بعيدةً من الرُّسُوخ، فقد نشأ عن الفتوحات العظيمة التي ظهرت بها الأمم الحاضرة أن تقابلت عناصر كثيرة التباين فاختلط بعضها ببعض قليلاً، ولما يمض من الزمن ما يكفي لاكتسابها كثيراً من المشاعر المشتركة.

وأمرٌ مثلُ هذا يتضح جيداً حينما ندرس أحوال شعوب حديثة يُخَيَّل إلينا، أول وهلةٍ، أنها متجانسة كالفرنسيين المؤلفين بالحقيقة من عناصر مختلفة كالكمريين والنورمان والسلتان والأكتيان والرومانيين، وغيرهم من الذين داسوا ديارنا وجاسوا، خلالها من غير أن يتمازج حُقدُتهم، كما يجب، حتى الآن.

وأوضحُت في كتاب جديد مقدار التأثير العميق الذي يؤثِّر في مقادير الأمم مختلف العناصر التي تدخل في تركيبها، كما بيَّنت فيه أن دراسة هذه العناصر، لا دراسة النظم السياسية التي هي معلومات لا علُّ، هي التي ترشدنا إلى سُر الدُّور الذي تمثله الأمم في التاريخ، وما قُفت به من تلخيص ذلك في هذا الكتاب يكفي لإقناع القارئ بأهمية دراسة روح الأمم الذي لا يزال ناقصاً. وسنرى في البحث في أخلاق العرب تفسيراً وافياً لأسباب عظمتهم وانحطاطهم.

(٣) منشأ العرب

عُدَّ العربُ واليهود والفينيقيون والعربيون والسوريون والبابليون والآشوريون، الذين استوطنوا جزيرة العرب وأسية الصغرى حتى الفرات، من أصلٍ واحدٍ، ويُطلق على هذا الأصل اسم الأَرْوَمة السامية.

وتقوم قرابة هذه الأمم على تجانس لغاتها، واشتراكِ أبنائهما في صفاتِ جُثمانية متماثلة كاسوداد شعورهم وكثاثة لُحَاظِهم وكُمْدَةَ ألوانِهم ... وما إلى ذلك، ومن الممكن أن نجادل في قيمة هذه الصفات، ولكننا إذ نخرج بهذا عن الغرض، نرى الاقتصار على اقتباس ما ورد عنها في بعض المدون.

وذهب العلماء إلى وجود مثالين لصفات تلك الأمم الجثمانية، أحدهما: لطيف، والآخر: غليظ، فاما المثال الأول: فيتصف، كما قال مسييو جيرار: «بـقامتـه الهـيفـاءـ المـعـتـدـلـةـ وأـعـسـائـهـ الـمـكـنـزـةـ» المشتبـدةـ ومـفـاصـلـهـ الـدـقـيقـةـ، وـوـجـهـهـ الـطـوـيلـ الدـقـيقـ فيـأـسـفـلـهـ وـذـقـنـهـ الـمـتوـثـبـ وـفـمـهـ الصـغـيرـ، وـأـسـنـانـهـ الـبـيـضـ الـمـنـضـدـةـ، وـشـفـتـيـهـ الـرـقـيقـتـيـنـ، وـأـنـفـهـ الـضـيقـ الـأـقـنـىـ، وـعيـنـيـهـ السـوـدـاوـيـنـ النـجـلـاوـيـنـ، وـحـاجـبـيـهـ الـأـرـجـينـ، وـرـأـسـهـ الـمـسـطـيـلـ، وـنـجـدـهـ هـذـاـ الـمـثـالـ، الشـائـعـ بـيـنـ الـعـرـبـ عـلـىـ الـعـمـومـ، فـيـ بـنـيـ إـسـرـائـيلـ وـالـسـوـرـيـنـ وـالـمـصـرـيـنـ الـأـقـدـمـيـنـ وـالـعـاـصـرـيـنـ أـيـضـاـ».

«واما المثال الآخر: فيتصف بـقامتـه الطـوـيـلـةـ الثـقـيـلـةـ، وأـعـسـائـهـ الـعـضـلـةـ، وـوـجـهـهـ الـعـرـيـضـ الـثـخـيـنـ، وـفـكـهـ الـقـوـيـ الـبـارـزـ، وـذـقـنـهـ الـنـاتـيـ، وـفـمـهـ الـضـخـمـ، وـشـفـتـيـهـ الـغـلـيـظـيـنـ، وـأـنـفـهـ الـأـقـنـىـ الـوـاسـعـ، وـحـاجـبـيـهـ الـمـقـرـنـيـنـ، وـعيـنـيـهـ السـوـدـاوـيـنـ الـكـبـيرـيـنـ، وـجـبـيـنـهـ الـضـيقـ الـمـسـتـقـيمـ، وـنـجـدـ هـذـاـ الـمـثـالـ بـيـنـ الـأـشـوـرـيـنـ وـالـيـهـوـدـ وـعـرـبـ الـجـنـوبـ وـالـمـصـرـيـنـ الـذـيـنـ تـجـريـ فـيـ عـرـوـقـهـمـ دـمـاءـ إـفـرـيـقـيـةـ لـاـ رـيبـ، وـذـلـكـ لـاـ تـدـلـ عـلـيـهـ خـطـوـطـ سـخـنـاتـهـمـ وـنـسـبـ أـجـسـامـهـ، وـمـهـمـاـ تـكـنـ وـحـدـهـ هـذـهـ الصـفـاتـ الـتـيـ نـجـادـلـ فـيـ قـيـمـتـهـاـ، وـمـهـمـاـ تـكـنـ أـهـمـيـةـ هـذـهـ الـقـرـابـةـ السـامـيـةـ الـتـيـ لـاـ نـجـزـمـ بـهـاـ نـرـاـهـاـ تـرـجـعـ، عـلـىـ فـرـضـ وـجـودـهـاـ، إـلـىـ مـاـ قـبـلـ التـارـيـخـ، وـقـدـ كـانـتـ هـذـهـ الـأـمـمـ السـامـيـةـ عـلـىـ اـخـلـافـ وـتـبـاـيـنـ مـنـذـ أـقـدـمـ عـصـورـ التـارـيـخـ كـمـاـ دـلـتـ عـلـيـهـ الـرـوـاـيـاتـ».

وإذا جاز لنا أن نحكم في مبادئ الساميّين السياسيّة والاجتماعيّة، من خلال مبادئنا الحاضرة، رأيناها قبليةً غيرَ راقية، وذلك مع الاعتراف بأنَّ الأمم الساميّة أقامت حضاراتٍ عظيمةً، وأنَّ ثلاثة من الأديان الخمسة أو الستة التي تسود العالم (وهي اليهودية والنصرانية والإسلام) نشأت عن الفرعين الساميّين: اليهود والعرب. وكانت القرابةُ بين العرب واليهود وثيقةً، ودليل ذلك ما بين لغتي تينك الامتن وتقاليدهما من التشابه.

ولا جرم أن الشّبه قليلٌ بين العربيِّ أيام حضارته واليهوديِّ الذي عُرفَ منذ قرونٍ بالنفاق والجبن والبخل والطمع، وأن من الإهانة للعربيِّ أن يقاس باليهودي، ولكن، لا تنسَ أن طرق الحياة الخاصة التي خضع اليهودُ لحكمها منذ قرون كثيرة هي التي أنشأت منهم عرقاً ذليلاً غيرَ محترم⁷، وعندى أن كلَّ أمة تكون عرضةً مثلَ ما أصاب اليهود، ولا تعرفُ عملاً لها غيرَ التجارة والربا، وتحتقرُ في كلِّ مكان، وتنتقلُ إليها تلك الغرائزُ المنحطةُ بالوراثة المتتابعة مدة عشرين قرناً، وتأصلُ فيها، تصيرُ كما صارَ إليه اليهود لا محالة.

ويجب لكي نتمثل القرابة بين اليهود والعرب، أن نعود إلى عصر إبراهيم الذي نرى أن قبيلته الصغيرة كانت تغزو جيرانها، وتلقي الذعر فيهم، كما تغزو قبائل البدو العربية الحاضرة جيرانها وتخيفهم، ولنَعْلَمْ، كما أرجح، أن أسر اليهود في مصر لم يكن سوى نتيجة غزوة أسفرت عن حصر المصريين لليهود *النَّهَابِينَ* في مكان من شمال مصر لم يستطعوا الخروج منه في زمن موسى إلا بعد إقامتهم به زمناً طويلاً، وبلوغهم من النقوس عدداً تمكناً به من مقاومة الفراعنة، والرجوع لمدة أربعين سنة إلى حياة البدوية، وما كانت حياة اليهود لختلف، إلى زمن داود، عن حياة الصَّحاري التي *أَفْتَهَا* قبائل البدو العربية في فلسطين وجزيرة العرب.

(٤) تنوع شعوب العرب

يُعَدُّ أكثر الأوربيين العرب عرقاً واحداً على العموم، وكل مسلم، عند هؤلاء الأوربيين، يسكن بقاع آسية وإفريقية الممتدة من مراكش إلى جزيرة العرب، هو عربي، وذلك كما يَعَدُ العرب جميع الأوربيين من إنكلترا وإنجلترا وطلابينة وروس أمة واحدة يُسمُّونها الإفرنج.

والحق أن تمثُّل الأوربيين للعرب على هذا الوجه هو من عدم الصحة كتمثُّل العرب للأوربيين، وذلك أنه يوجد بين العرب مُثُلُّ كالتي تُشاهد في أوربة، وأن العرب قد انتهوا، بما صادفهم من البيئات، وبما اختلطوا به من الأمم، إلى أمزجة كثيرة معقدة إلى الغاية. وعلى ذلك أصبح عرب مكة، بعد أن كان يتَّأْلَفُ منهم عرق خالص في الماضي، مزيجاً من أبناء مختلف الشعوب المنشرين فيما بين المحيط الأطلنطي ونهر السند والذين يَحْجُّونَ مكة في كل سنة منذ زمن محمد، وقُلْ مثل هذا عن عرب إفريقية وسورية الذين اختلطوا بالفنقيين والبربر والترك والكلدان والتركمان والفرس والأغارقة والروماني، ولا تستثن من هذا أجزاء جزيرة العرب الوسطى المنعزلة، كبلاد نجد، التي اختلط أهلوها بالزنوج على نسبٍ واسعة منذ قرون.

واستوقف تأثير الزنوج في سكان جزيرة العرب نظر جمع السياح الذين ارتأدواها، ومن ذلك أن روى روتا وجود بُقعة في اليمن صار سكانها من أصحاب الجلود السُّود على وجه التقرير، مع أن سكان الجبال من أهل اليمن الذين قلَّ اختلاطهم بالآخرين ظلوا بيضاً، وإن قصَّ هذا السائح، في معرض الكلام عن أسرة أحد رؤساء تلك البقعة، أنه «يوجد في أبنائها جميع الألوان التي تترجم بين الأسود والأبيض تبعاً للعروق التي



شكل ٣-٢: عربيان حضريان من سوريا (من صورة فوتوغرافية التقاطها المؤلف بدمشق).

تنتمي إليها أمهاتهم، ومن ذلك أن رأى واليُّون قبائلَ من العبيد السود في الجوف، وأنه يوجد زنوجٌ في نجد وفي بقية جزيرة العرب من غير اكتراثٍ لللون وللتوالد، ومن ذلك أن رأى بلغريث مقاليد مدينة القطيف النجدية المهمة بيد زنجٍ، ومما قاله بلغريث: «إنني رأيت في الرياض أناساً من الخلاسيين^٨ يحملون سيفاً ذات مقابضٍ فضيةٍ ويخدمهم عربٌ خلص من أبناء إسماعيل وقططان».

وعجبتْ ليدي بـلنت من عدم الاكتتراث لأمر اللون أيضًا، وذلك في رحلتها إلى بلاد نجد في سنة ١٨٧٨، فرَوَتْ أن حاكم مدينة سكاكا النجدية زنجٌ أسودٌ كريه الملامح كزنوج إفريقيَّة، ثم قالت: «إن مما لا يصدقه العقل أن يحيط بهذا الحاكم الزنجي، الذي لا يزال عبًّا، رهطًّا من التُّدماء البيض الخالصي العروبة يمتثلون أوامرها، ويبتسمون استحساناً لأفاكيهه التافهة».

واختلاطُ مختلف العروق أظهر ما يكون لدى أهل الحضر من العرب، ويباهي كلُّ عربي بوجود نسوةٍ من مختلف الألوان في دائرة حريمه، ويتجلى صفاءُ العرق في سكانِ الجبال وأهل البدو من العرب أكثر مما في غيرهم، وذلك مع ملاحظة وجود أناسٍ من أهل بادية الشام الشرقية، القرية من تَدْمُر على الخصوص، شُقُرٌ رُّزق العيون بسبب اختلاطهم بأهل الشمال على ما يلوح.

(5) وصف الفوارق بين العرب

إن الفارق الأساسيُّ الوحيد بين العرب هو ما أيدته تقاليدهم وطريق معيشتهم، وهو تقسيمهم إلى أهل حضر وأهل بدو، ويجب لا يغيب هذا التقسيم الجوهرى عن البال حين البحث في تاريخهم، فأما أهل البدو، وهم الأعراب الموزعون فيما بين المحيط الأطلنطي وخليج فارس، فلهم طريق معيش وعادات وطبائع لا تزال كما كانت عليه منذ آلاف السنين، ويتحمل أن تبقى هكذا إلى الأبد، وهم مقسمون، كما في العصر الإسرائيلي، إلى قبائل ترحل عن الأماكن المقيمة بها عندما تستنفذ مواشיהם ما عليها من الكأ، وأما أهل الحضر من العرب فهم، على العكس، يتغيرون بتغير الأماكن والشعوب التي يخالطونها. وإن تقسيم العرب إلى أهل حضرٍ وأهل بدو يطابق ما في الرواية التي قالت بتقسيمهم إلى ثلاثة عروق: العرق الذي باد وعفا أثره قبل الإسلام، والعرق المؤلف من أبناء قحطان الذين استقروا ببلاد اليمن والذين هم أقحاح العرب، والعرق المؤلف من ذرية إسماعيل الذي هو ابن جارية إبراهيم المصرية.

وتعلم مما قلناه آنفًا عن العرب المعاصرين الذين هم وليدو توالٍ مختلفٍ أنه يتذرع وجود مثال خالص خاص بالعرب؛ بسبب ما تعرض له العرب من التمازج كتعدد وجود مثال فرنسيٌّ أو إيطالي.

وأحسنُ وصفٍ قيل في مثال العرب الجثمانى، الذي يطابق فريقيًا كبيرًا من العرب الخُلُص، هو ما ذكره الجراح الأول السابق في الجيش المصري، لاري، في الكلمات الآتية، وهي:

هم مربوعو القامة، ذوو تكوين حَسَنٍ، ومَرَأَةٌ ضُلُّ سُفْفُعٌ،^٩ وجوههم بيضيةٌ سُمْرُ، وجُبُنُهم عريضةٌ عالية، وحواجبهم سود منفصلة، وعيونهم كُحلٌ لامعة، وأنوفهم معتدلة، وأفواهُهم جميلة، وأسنانُهم مُنْضَدة عاجية البياض، وأذانُهم حسنة الشكل غيرُ كبيرة



شكل ٤-٤: عربي حضري سوري (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف في دمشق).

مايلة قليلاً إلى الأمام، وخرُوتهم^١ محاذية تماماً لأجفانهم، وفي المرأة العربية محاسن كثيرة كما في أخواتها في الأمم الأخرى، ونحن نعجب، على الخصوص، باستدارة أعضائهما اللطيفة، وتناسب يديها، واعتدال رجلتها، وهيَّف قامتها وتبخترها ... إلخ.

ويُقسّم أهل البدو أو الرعاة من العرب إجمالاً إلى قبائل كثيرة موزعة في أطراف الأرضي الخصبة القريبة من البايدية، وتُقيم القبائل بمصارب وخيام تُنقل من مكان إلى آخر عند الضرورة، وعلى ما بين أبناء القبائل العربية والعرب المتدينين من الشبه نرى أبناء القبائل العربية يُميّزون بتألق عيونهم وغموض ملامحهم، واعتدال قامتهم وسرعة عَدُوهم، وضمورهم وقوتهم، وتوبّعهم وخُيلائهم وعتقهم، وحذرهم وبأسهم ونجدهم

ولباقتهم، وذكائهم النادر وفُرُوسِيتهم ورميَّتهم، واستعدادهم العظيم لاحتراف مختلف المهن والصناعات».»

وأشدُ ما استوقف نظري من الأوصاف التي وصف لاري بها العرب هو ما شاهدته، على الخصوص، من التماع عيون صبيانهم، وبياض أسنانهم، ودقة أيديهم وأرجلهم، وهيف قامتهم ... وما إلى ذلك مما لا يُرى اليوم في غير عرب البايدية.

وإذا عَدْوت ذلك التقسيم الأساسي وجدت أن الفارق العملي الوحيد الذي بين العرب المولدين هو ما يقوم على البحث في سكان كل قطر يسكنه العرب، وهذا ما نفعله حينما نَصْفُ بالتتابع عرب جزيرة العرب وسورية ومصر وإفريقية والصين، وصفات هؤلاء النفسيَّة، لا صفاتُهم الجثمانية، هي أكثر ما نبحث فيه، مع أن نُشر صورنا الفوتوغرافية أَنْفع في تمثيل هذه الأمثلة من أيٍ بيانٍ مفصل كان.

(١-٥) عرب جزيرة العرب

عرب البقاع الوسطى من جزيرة العرب، ولا سيما الأعراب، هم، مع اختلاطهم بأناسٍ من الزنوج، أكثرُ العرب مشابهةً لأجدادهم الأقدمين، وهم الذين سُبِّبُوا بالبحث فيهم. ويتألَّفُ من الأعراب، الذين يَظْنُ الكثيرون أن جزيرة العرب لا تشمل على غيرهم، عرق جَلِيفٌ بعيدٌ من التمدن عاطلٌ من أيٍ تاريخٌ كان، ونحن إذا ما استثنينا الدين نرى أنه لم يتبدل فيهم شيءٌ منذ ألف السنين، وعلى من يُودُ أن يعرف ما كانوا عليه منذ ثلاثة آلاف سنة أن ينظر إلى حاضرهم، وهم الذين لم يطرأ على ما وصفهم به هيرودتس أو التوراة شيءٌ، وهم الذين قدّرُ عليهم ألا يتحوّلوا، وإذا كان من فضل البقاع الخصبة، كاليمن، أن تُنشئَ أهلَ حضُرٍ، فإنَّ رمال الصحراء القاحلة لا تصلح لغير الأعراب.

وسكانُ البدو من العرب مُقسَّمون، في كل زمان، إلى قبائل صغيرةٌ تخضع كل واحدة منها لشيخ أو أمير، ويقتصر سلطان هذا الشيخ أو الأمير، تقريباً، على قيادة المغاربين في الغزوات، وتقسيم الغنائم، والصدارة في بعض الحفلات.

والغزوُ وتربيةُ الحيوانات هما كلُّ ما يعني به الأعراب، ولا نهاية لما يشتعل بين القبائل العربية من الحروب لأنفه الأسباب، ما عملَت بمبدأ التأثير والقصاص الإسرائيли القائل: إن العين بالعين والسن بالسن والنفس بالنفس، وما تبع كلَّ حادث قتلٍ يقع بينها حادث قتلٍ مثله انتقاماً، ولا ترضي القبيلتان العربيتان المتعاديَّتان بالدُّيَّة بدلاً من القصاص إلا بعد أن ينهكهما الجهد ويعتريهما الوهن.



شكل ٢-٥: عرب من مصر العليا (من صورة فوتوغرافية التقاطها المؤلف بالقرب من طيبة).

وتنشأ عيوب أهل البدو من العرب ومحاسنُهم عن طراز حياتهم، قال هيردر:

لا يزال الأعراب محافظين على طبائع أسلافهم البدوية، وهم، على ما في الأضداد من غرابة، يتصفون بسفك الدماء وحقنها، وباعتقاد الخرافات ورذّها، وبالإيمان والإلحاد، وهم، على ما يظهر، ذوو فُتُّوةٍ خالدة يقدرون بها على القيام بجليل الأعمال عندما يؤمنون بمبدأً جديداً، وهم أحرار كرام شُمُّ الأنوف غِضَابُ مقاديم، يجمعون في مثالهم بين الفضائل والمساوئ الخاصة بقومهم. والأعرابُ نشيطٌ، ويعود نشاطه إلى وجوب كسب عيشه بنفسه، وهو صبورٌ، ويرجع صبره إلى ما لا محيس عنده من احتمال الآلام والمحن، وهو محبٌ للحرية، والحرية هي الأمر الوحيد الذي اتفق له أن يتمتع به، وهو محارب، ويحارب حاقداً كلَّ من يحاول استعباده، وهو قايسٌ على نفسه صارمٌ ولُوع بالانتقام في الغالب.

ونرى الأعراب متماثلين في أمور العَزْ والشرف؛ لتماثل أحوالهم ومشاعرهم، ويقوم فخرهم على السيف والقرى والبلاغة، فبحدِّ السيف يصونون حقوقهم،

وبالقرى يتجلّى كرم أخلاقهم، وبالبلاغة يحسّمون ما لا يقدّر عليه السلاح من
الخصام.

وقال ديقرجه: «قد يكون أظهر ما في الأعراب هو أنهم جماع الأضداد، فالنهب
والكرم، والسلب والجود، والقسوة والنبل ... وغير ذلك من الصفات التي تدعو إلى المقت
والإعجاب في وقت واحد مما نراه في الأعراب، وليس في هذا ما يُعذر به الأعراب لو لم
نلاحظ أنهم محكوم عليهم بالاكتفاء بما تنتجه بلادهم المعزولة التي هي أكثر أراضي
العالم جُدُوبَةً، ويعتذر الأعراب عن النهب بأنهم محرومون، لفقر بلادهم، طيب العيش
ووفرة الغلال والكُلُّ مما لم تعرفه أمّة أخرى، وبأنهم يُذيلون هذا الحيف المقدّر بأمسنة
رماحهم معتقدين أن من الحال دَهْمَ القواقل وسلَبَ ما بآيديها تعويضاً لهم مما لم
تقدر أن تجود عليهم به أراضيهم القاحلة، وبأنهم يُعدُّون قطع السابلة، وسلَبَ ما بآيدي
الناس ضرباً من حقوق الفتح والفرخ كتدويخ مدينة أو ولاية، وذلك لعدم تفریقهم بين
الحرب والكُلُّون».

ومساوئٌ مثل هذه لا تُغترِّر لو لم يكن عند الأعراب من الفضائل ما يُشفع لهم
به، ومن هذه الفضائل أن الأعرابِيَّ المحارب، المتعطش للنهب والانتقام، والذي يفعل عند
مَسْ كرامته ما لم تسمع به أذن من ضروب القسوة، مضيافٌ كريمُ أنيسٌ في مضربه،
ومنها أن الهضيم الذي يضع نفسه تحت حماية الأعرابي، ولو كان من أعدائه، أو الذي
يصبح في جواره، يُعُدُّ من أفراد أسرته، فلا يستطيع أحد بعدئذ أن يعتدي على حياته
المقدسة التي يدافع عنها ذلك الأعرابِيُّ أكثر من أن يدافع عن نفسه، وإن ظهر أن هذا
الغربي من أعدائه الذين تمنَّى زوالهم مائة مرة.

وليس بمستبعد أن يأخذ الأعرابِيُّ المضيافُ جَملَ جاره طوغاً أو كرهاً ويصنع منه
طعاماً؛ ليمنع في إكرام ضيوفه، والكرمُ أَفْضَلُ فضائلِ الأعراب، ويعُدُّ الأعراب أخص ما
تصفه به أمتهم».

وأضيف إلى ما تقدم أن الأعراب من سكان جزيرة العرب وسوريا وإفريقية يحبون
الحرية حباً جماً لا يقدر الأوربي أن يتصوره، وهم يزدرون أبناء المدن ويُعذرونهم من
الأرقاء لذلك، ويتضمن الارتباط في الأرض عندهم معنى تدويع الحرية والخصوص لسيد،
ويرى الأعرابُ الذين لا يملكون سوى حريةهم أن هذه الحرية أغلى شيء، وقد حافظوا
عليها بتواتي الأجيال، ولم يقدر جميع الفاتحين من الأنفارقة والرومان والفرس وغيرهم

من الأمم التي دَوَّخت العالم أن يُعْبِدوهم، وكل قهر للأعراب لا محالةٌ زائلٌ، والقهْر إذا ما وقع كان على أيدي أعراب آخرين، فلا يُفْلِي الأعراب إلا الأعراب.

ويرجع حُبُّ الأعراب للحرية إلى أقدم عصور تاريخهم، فقد روى ديودورس الصقليُّ أنَّ الأنبياء، وهم من أعراب بلاد الحِجْرِ العَرَبِيةِ (بطراً)، كانوا ممنوعين من بَذَرِ القمح وغرس الأشجار المثمرة، وبناء البيوت لما في هذه الأعمال من التضحية بالحرية طوعاً، ولذا لم يستزِلَّ الأعراب أحد، وهم الذين لم يُعطوا ملوكَ فارس الجزية، وقد أعطاها أهل فنقيمة فلسطين كما ذكر هيرودتس.

ويُلْقِي الأعراب الرعب في قلوب جيرانهم المتدينين؛ لما فُطروا عليه من الرغبة في النهب وحبِّ القتال، ويُعدُّ هؤلاء المتدينون الأعراب من قطاع الطرق، وينظر الأعراب إلى المسألة من ناحية أخرى، أي يفخرُ الأعراب بسلب القوافل فخر الأوربيين بضرب المدن بالقنابل أو افتتاح الأقطار أو ما إلى ذلك، ويحترم الأعراب رؤسائهم احترام الأوربيين لأعاظم القادة، وإن لم يقيموا لهم تماشياً.

وأصبح أعراب جزيرة العرب، بما كان عندهم من غرائز النهب والقتال، محاربين أشداء أيام خلفاء محمد فدَوَّخوا العالم بسرعة، ولم تتغير غرائزهم بتغيير ما لاقوا من الأحوال الجديدة، بل تجلَّت على صور أخرى ما كان الثباتُ من الغرائز، فأصبح حُبُّهم للنهب حِبًّا للفتح، وتحول كرمهم إلى ما أخذته أوربة منهم مؤخراً من طبائع الفروسيَّة، ثم إن ما بينهم من التفاخر والمنافسة لم يلبث أن جاوز الحدود المعقوله فكان سبباً في خسرانهم بعد أن كان حافزاً لهم على العمل الصالح في البداية.

وكان يتَّأَلَّفُ من الأعراب قسمٌ كبيرٌ من جيوش خلفاء محمد، وقام الأعراب الفاتحون بأجلِّ الخَدَم لِأولئك الخلفاء، وإن كان العلماء وأرباب الفن الذين ازدهرت بهم حضارة أتباع النبي لم يظهروا من بين الأعراب.

ويستخف الأعراب بسلطان الحضارة، ويُفْضِّلون عليها عِيش البدائية، وهذه من المشاعر الموروثة التي ترى مثلاً عند هنود أمريكا ولا يُؤْتَرُ فيها أي دليل، ورفض الأعراب، في سوريا علىخصوص، كلَّ أرضٍ عُرضت عليهم ليستقرروا بها، ويعِرُّفُ هؤلاء الأعراب، الذين يستوقف نُبلُهم وبأسهم نظر كل سائح، كيف يستغنون عن نعم الحضارة المصنوعة، وعن جبروت كل أمير إقطاعي كأمراء القرون الوسطى، ولا تخلو حياة البدائية من السحر والجمال مع ذلك، ولا أتردَّ ثانية في ترجيحها على حياة الم壮观 التي يقضى العامل فيها اثنين عشرة ساعة من كل يوم.



شكل ٦-٢: عربستان من جوار القاهرة (من صورة فوتوغرافية).

وعندى أن أهل البدو من العرب، مع بقائهم على الفطرة وعدم تحولهم قيداً أنملاه عن الحال^{١١} الابتدائية التي كانوا عليها منذ أقدم العصور، أفضل من جميع أمم الرعاة في العالم، وقد أتيح لي أن أحادثهم غيرَ مرة، فظهر لي أن مبادئهم في الحياة تعاملُ مبادئ كثير من الأوربيين العريقين في الحضارة، وسنرى أن الأعراب الأجلافَ بعاداتهم شراءً بتصوراتهم، ويندر أن يكون الأعرابُ غيرَ شاعر.

والأعرابي، وهو شاعر، صبيٌّ في خلقه، وينطوي تحت دعته الظاهرة من التقلب ما لا يشاهد مثله إلا في الأولاد والنساء، وهو كهؤلاء لا يتأثر إلا بعامل الساعة التي يكون

فيها، ولا تستهويه سوى ظواهر الأمور، ويبهُرُ الضجيج والضوضاء والبهرج، وفي فتنته سُرُّ اجتذابه.

وأمرٌ مثلُ هذا يشاهد في العروق، والأمم الفطرية، وما إليها من النساء والصبية الذين هم عنوان أدوار التطور البشري الأولى، والحق أنَّ الأعرابيَّ جُلُّ ذكي لم يصعد درجةً في سُلْمِ الحضارة منذ ألف السنين، ولم يُعَانِ ما عاناه الرجل المتمدن من التحول المتراكم بتواتي الأجيال، وإذا صَحَّ ما نعتقده من أنَّ اختلاف السجايا الخالية يكفي لوجود فروقٍ بعيدة الغُور بين الناس أمكننا أن نقول: «إنه يتَّأْلَفُ من العرب المتحضرين والأعراب عرقان تَفَصِّلُ بينهما هُوَةً عميقَةً».

ويختلف عرب الجزيرة الحضريون، الذين نبحث في أمرهم الآن، عن أولئك الأعراب اختلافاً كبيراً، فأهل الحضر من عرب الجزيرة لم يكونوا أجلافاً كما يُعتقدُ على العموم، وعند پلغريث أنَّ السياح الذين لم يزوروا سوى بعض الأماكن الساحلية التي لا أهمية لها في جزيرة العرب الواسعة هم مصدر هذا الرأي الفاسد، وينظر پلغريث إلى أهل عُمان بعين التقدير والإعجاب حيث يبحث في ثقافتهم، ولا يصعب، كما يرى، وجودُ أناس من أهل نجد قادرين، كإنكليلز، على صنع الآلات ومد الخطوط الحديد، وليس من المجهول شأنُ جامعة زيد وجامعة ذمار اليمنيتين اللتين، وإن كانتا دون جامعة الأزهر المصرية أهميةً، تساعدان مثلاً على نشر العلم القويم بين أولي البصائر من الأهلين.

ومن دأبنا في الوقت الحاضر أن ننظر إلى عرب الجزيرة من خلال المثل الكئيبة التي نراها في سورية ومصر والجزائر، والتي لا تتمُّ إلا على أناس أحطتهم ضروب الاختلاط والعبودية، وعلى الباحث الذي يرغب في استبار العرب أن يسيح في مهد العروبة، وأن يدرس أحوال العرب فيها عن كثب، فقد عد پلغريث عرب الجزيرة الذين عاش بينهم زمناً طويلاً من أعظم أمم الأرض كرماً ونبلاً، قال پلغريث:

إنَّ أهل الحضر من العرب من أنبِل شعوب الأرض وأكرِّمهم، وهم جديرون بهذا المديح، وقد أكثَرُتُ من السياحة في أنحاء العالم، وكانت لي صلات وثيقة بمختلف الأمم الإفريقية والآسيوية والأوروبية، فظهر لي أنَّ الأمم التي يُفضَّل أفرادها على سكان جزيرة العرب الوسطى قليلة إلى الغاية.

ويتكلُّم أولئك الحضريون العرب بلغة الأعراب مع ذلك، ويجري في عروقهم ما يجري في عروق الأعراب من الدماء، وما أبعد المسافة بين الفريقين!



شكل ٧-٢: مسلمون من النوبة (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

وذكرنا أن الفروق التي بين أهل الحضر من العرب الساكنين في مختلف البلدان كالفارق التي بين الأمم المتقدنة، وتشاهدُ مثلُ هذه الفروق بين سكان جزيرة العرب نفسها، فالفرق بين سكان القطر النجدي، الذي هو أوسع من كثير من الممالك الأوروبية، وبقية سكان جزيرة العرب لا يقلُ عن الفرق الذي بين سكان شمال أوربة وسكان جنوبها، والوهابيون، الذين هم أكثر نشاطاً من العرب الآخرين وأقلُ اندفاعاً وراء عوامل الزمن، أشدُ العرب مكرًا وغيرةً، قال پلغريث في وصف الوهابيين:

يقلُ الوهابيون عن العرب الآخرين كرماً وإقداماً ومرحاً وصراحة، ويزيدون عليهم صبراً وحكمةً، ويندر أن يدلُّ كلامهم على سرائرهم، وهم حَزَمَةٌ بعيدو الهمة جبارةً ذوو انتقام، قساً نحو أعدائهم، مشكوكُ في مودتهم لغير بني قومهم، ولذا فهم جديرون بأن يُسموا، من غير تجنٍّ ومع كل تحفظ، بإسكتلنديي جزيرة العرب.

ووجوههم ذات صُلُود وعبوس مما لا يُرى مثُلُه في وجوه عرب الشمال الطليقة، ولا يُؤخذون بداعف الساعة العتيدة، وإذا ما ساروا فبعد تفكير وإنعام نظر.

ويقدرون بإرادتهم القوية وثباتهم وجدهم على تنظيم شؤونهم الاجتماعية والسيطرة على جيرانهم مع ما فيهم من الذكاء المحدود، ولا ريب في أنهم سينتصرون، بفضل اتحادهم المتين، على أعدائهم الذين أضعفهم انقسامهم، وأن سيادة القسم الأعظم من جزيرة العرب ستكون لدولتهم الوهابية، وأن أطماعهم وأمالهم ستتحقق في أقرب وقت.

وتجلّي أخلاقهم في أدق شؤون حياتهم الأهلية، ويجب على من يرغب في مفاوضتهم ألا يسترسل في كلامه، وأن يزن حركاته كما يفعل عندما يحاذث أعداء.

(٢-٥) عرب سورية

عرب سورية، كعرب الجزيرة، أهل حضر يسكنون المدن، وأعرابٌ يقيمون بالبادية، ولم يكن في السيطرة المتابعة التي أصابت سورية ما يتوجّح منه أعرابها الذين لا يزالون يعتمدون في معايشهم على النهب وتربيبة المواشي منذ ثلاثة آلاف سنة، ونحن إذا ما استثنينا المدن نرى سورية قبضتهم بالحقيقة، فهم يهاجمون فيما وراء نهر الأردن، وفي أبواب دمشق نفسها، السياح والقوافل التي لم تؤدّ إليهم الفَدَى في مقابل حُقْرها وحمايتها والسامح لها بالمرور، وتجمّع في أعراب سورية صِفَةُ الشَّرِهِ وصِفَةُ الْكَرْمِ المتناقضتان اللتان أمعنا إلينا فيما تقدم، ويقدّسون الضيف ما دام نزيلاً لهم.

ولم يقدِّر أحدٌ على إلزام أعراب سورية بترك البادية التي تعودوا العيش فيها منذ قرون، وقد رفضوا كل أرض عُرِضت عليهم ليستقرّوا بها، وامتنعوا عن أي عمل زراعي. ونرى في سورية، بجانب الأعراب الذين يدينون بدين محمد، قبائل ذات شعائر وعقائد مختلفة يسهل تمييز بعضها من بعض؛ لعدم توالدها فيما بينها، وأهمُّها المتأولة والنميرية والموارنة والدروز.

فالمتأولة: قبائلٌ عربيةٌ جبلية تعيش في اعتزال، وهم من مسلمي الشيعة المتعصبين الذين يأبون تناول الطعام مع أي أجنبي كان، ونرى من أوصافهم أنهم مزيج من

المغول والعرب والفرس، مع أن بعض الباحثين يظن أنهم منحدرون من بعض القبائل الكردية.

والنصرية: قبائل جبلية أيضاً، وهم يدينون بديانة مشتقة من الإسلام بعيدة منه كلّ البعد، ويُرى أن النصرية من القبائل بالتناسخ، ويعبدون الشمس والقمر ... إلخ.

وللموارنة: مع قربهم من السوريين، طابعُ خاص، وهم أتباع طائفةٍ مسيحية ذات عجبٍ صارخٍ لم تكن على شيءٍ كبيرٍ من البساطة كما أثبتت الحوادث ذلك.

والدروز: يُشبهون الأعراب، وتتألف منهم طائفةٌ إسلامية عاتية حرة انفصلت عن السوريين والعرب منذ قرون، وتوجد بين الدروز الشجعان ذوي الصّولة وموارنة لبنان عداوةً متأصلة.

ويتألف من سكان مدن سورية وقرابها مزيجٌ من المصريين والفنقيين واليهود والبابليين والفرس والأغارقة والرومانيين والعرب والمغول والشركس والصلبيين والترك ... وغيرهم من الأمم التي استولت بالتتابع على سورية كلها أو بعضها، ولذا يشاهد السائح في سورية مُثلاً كثيرة التباين، ويتصف سكان المدن من السوريين بالذكاء ولبن العريكة والمكر والخداعة على العموم، وقد يُنعت الرومانُ السوريين بأنهم ولدوا للعبودية، والسوريون، وقد رَضُوا بكلّ حكم أجنبي أصابهم منذ قرون كثيرة، لم يبق من نشاطهم سوى منازعاتهم الدينية، وقد عُرِفوا، فيما لا يَمْسُ عقائد الدين، بإذعانهم التام، وانقيادهم المطلق لكل ذي سلطان مما لا يتصوره أوربيٌّ، ويمكن القاريء أن يقف على ذلك من القصة الآتية التي رواها مسيو دُوقوغويه عن أوربيٍّ كان في سورية أيام القمع الذي وقع بعد ملاحم سنة ١٨٦١:

روى ضابطٌ معلمٌ أوربيٌّ كان في خدمة الترك أنه شاهد الأمر الآتي، وهو: أن أحد الجلادين الكثرين في ذلك الوقت كاد يُتّم عمل نهاره، وأن الكلاب كان عالياً والكرسي واطئاً فلا يوصل إليه به، وأن مسلماً مُسناً مَرَّ من هناك راكباً حماراً حاملاً قطعة لحم، فأمره الجlad بالوقوف فأطاعه فترجّل ماداً عنقه للشنق طائعاً ظانًا أن أجله جاء، فآفأهمه الجlad أنه لم يقصد شنقه، وإنما يريده حماره؛ ليصعد فيه رجل محكوم عليه بالموت، ويوضع الحبل في عنقه، فلما وضع الجlad الحبل ونَحَسَ الحمار هو ذلك المحكوم عليه بالموت، فركب الشيخ الهرم حماره بعد أن حمل قطعة اللحم لائذاً بالغرار.



شكل ٨-٢: مسلمتان من النوبة (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

وإنني أقول مكررًا: إن ذلك الإذعان لا يتجلّى إلا في الأمور التي لا تتمسّ عقائد الدين، ولم يطرأ على الهدوء العميق الذي تتمتع به دمشق شيء من جراء الاضطرابات التي وقعت حديثاً في مصر، وعجّبتُ من السهولة التي كان يضرب بها جندي واحد جموعاً زاحرة ويدحرها لتفسح المجال لمرور أحد الأعيان أو السياح، ومع ذلك فقد سمعت في دمشق والقدس غير مرة أن أقلّ نجاح لعرابي كان نذير قتل لنصارى سوريا الذين يحمرُ الوجه خجلاً من جبنهم، وهولاء النصارى هم الذين كانوا يُدبحون في سنة ١٨٦١ كالضأن من غير أن يُنددوا أقل مقاومة؛ وهم الذين يكونون، لا ريب، جبناء أندالاً لو حدث في سنة ١٨٨٢ من الإلْخان فيهم ما كان يتوقعه الملا.

(٣-٥) عرب مصر

عرب مصر نتيجة توالد سكان مصر الأصليين والعرب الذين فتحوا مصر في سنة ٦٤٠ بقيادة عمرو بن العاص، وعرب مصر ليسوا عرباً بدمهم، وإن كانوا عرباً بلغتهم ودينهم، فقد دلّنا علم وصف الإنسان على أن العنصر العربي الغالب لم يثبت أن طغى عليه العنصر المصري المغلوب الأوفر عدداً والأكثر احتمالاً لجوء مصر المرهوب، وأن العناصر المتداخلة لم تثبت أن توارت، وأن المصري الحضري العربي بدینه ولغته رجع ابنًا لقدماء المصريين في زمن الأهرام، أي ذا سعّة في كتفه ووجهه، وغليظ في شفتّيه وتنوّع في وجنتيّيه ومشابهة للمُثل المنحوتة في قديم الآثار.

ولم يكن عرب النيل الحضريون أبناءً لقدماء المصريين بتقاطيعهم فقط، بل ورثوا عن هؤلاء أخلاقهم ولطفهم وأدبهم الجمّ أيضاً، وهم يخشون؛ لما عانوا من ضروب الاستعباد منذ قرون، جميع السادة، ولا سيما الأوروبيون، فقد استطعت، حين ذاعت الأنباء في القاهرة بأن مصر العليا مضطربة بالعصيان واللامح، أن أجول منفرداً في القرى القائمة على ضفّتي النيل من غير أن يصيبني أذى.

واحتياجات الفلاح المصري قليلة جدّاً، وهو إذا ما ملّك بُلْغَةً كان سعيداً، وهو يعيش من غير تفكير في المستقبل والوقت والأبعاد، ويكون جوابه «لا أعلم» حين سُؤله عن أشياء كان يجب أن تكون التجارب المتكررة قد هدته إليها، ولا يعرف مدة السفر بين قريته وإحدى القرى المجاورة ولا المسافة بينهما، ولا يرى له مصلحة في معرفة هذا. ونشاهد في مصر مثل ما نشاهد في جزيرة العرب وسورية من الأعراب والحضريين، ونرى الفرق بين أعراب مصر وحضارتها أعظم مما في أي قطر آخر؛ لاختلاف العرقين في مصر، فضلاً عن اختلافهما في المعيش، وإذا كانوا عرب المدن قد تحولوا بفعل التوالي المستمر إلى مصريين، فإن أعراب مصر لم يختلطوا بسوادهم نظراً إلى طرق معيشتهم الخاصة، وهؤلاء الأعراب يُشَبِّهُون، بقَنَا أُنوفهم ورقة شفاههم وطول وجوههم البَيْضَيَّةِ وعيونهم اللامعة، مثل العربي البدوي في زمن محمد.

والأعراب، فقط هم أهل الحرب والنِّزال المراهبون في مصر، وهم الذين يجب أن يخافهم الإنكليز في غزوهم الجديد لوادي النيل إذا لم يشتروا حيادهم بأي ثمن، كما أخبرنا به العارفون غير مرة.

ويَنْصِبُ أهل البدو من عرب مصر خيامهم في الصَّحاري الرملية القريبة من ضفتي النيل، وهم قلما يخشون جانبَ الحكومة، ولا صلةَ بينهم وبين الفلاحين الذين يُبغضونهم.

ومعًا يُشَرِّكُ هؤلاء الأعراب كمعايش عرب البايدية، فالعربي البدوي هو هو أينما حلَّ وحيثما اتَّجهَ.

ونرى في مصر، عدا العرب، عناصر كثيرة أخرى كالترك والأقباط والسوريين والزنوج والأغارقة والأوربيين وغيرهم من العناصر التي ينذر أن تتوالد هي والفلَّاح المصري، وذلك فضلًا عن أن جو مصر القتال لا يصلح لتناسل الأجانب، ومنهم الترك، في أكثر من جيلين، وأصولُ العرب، لا غيرُها، هي التي استطاعت أن تثبتُ في مصر.

ومن تلك الشعوب نذكر الأقباط الذين، وإن كانوا لا يُعدُّون حفةً خلصًا لقدماء المصريين، يُرى بينهم أشخاص مشابهون؛ لما في النَّوَائِيس القديمة أكثر مما بين سواهم، ويدين الأقباط بالنصرانية، ولم يخالطوا بالعرب، ويقطنون في مصر العليا، ولا سيما ببعض القرى والمدن كأسيوط، وتشبه لغتهم لغة قدماء المصريين، وتوصَّل شانپوليون، بدرسها إلى إيضاح الكلمات الهيروغليفية كما هو معلوم، ومع نصٍّ كثير من المؤلفات على أنه لا يتكلم أحدٌ باللغة القبطية في الوقت الحاضر سمعتُ أقباطاً يتكلمون بها فيما بينهم على لهجاتٍ مختلفة، ويكتب الأقباط لغتهم بالحروف اليونانية في الزمن الحاضر. ويعُدُّ الأقباط المقيمون بمصر بمئتي ألف نفس، وإن قالوا لي مؤكدين إن عددهم يزيد على خمسمئة ألف، ويلوح لي أن الصورة المحزنة التي تُصوَّر بها سجيتهم لا تمت إلى الحقيقة بصلة، وكل ما في الأمر أنهم أفضل في الثقافة من عرب الوقت الحاضر، ومن الترك علىخصوص، وأنهم، وإن كانوا لا ينالون أعلى المراتب بسبب دينهم، يُعطون المناصب الإدارية التي تتطلب جهداً ودراءة.

وأما الترك الذين حلو محل العرب في مصر سياسةً فإن تأثيرهم في تكوين العرق المصري صفرٌ، وتتألف منهم الآن طبقة أريستوقратية لا تختلط بالسكان، ولا يزيد عددهم على عشرين ألفًا.

(٤-٥) عرب إفريقيبة

إننا إذا استثنينا مصر التي تُعد من الشرق عادةً نرى أنه يسكن شمال إفريقية أنسُ منتشرون إلى ما بعد خط الاستواء من بعض النقاط، يدينون بدين واحد وإن لم تجر دماء العرب في عروقهم بصورة مطلقة، متمازجون من البربر والعرب والزنوج، وفي مراكش، على الخصوص، يتجلّى هذا التمازج الذي يزيد كلما دنونا من خط الاستواء. ويختلف برب إفريقيبة عن العرب كثيراً، وسنتكلّم عنهم مفصلاً في الفصل الذي خصصناه للبحث في تاريخ عرب إفريقيبة، فلا نبحث فيهم الآن.

وعرب إفريقيبة أهل بدو وأهل حضر كعرب الأقطار الأخرى الذين تكلمنا عنهم، وهم نتيجة اختلاط أعقد مما في أي مكان آخر، وأهل منهم الساحلية الذين ننعتهم بالعرب هم، على الخصوص، مزيج من القرطاجيين والرومان والوندال والأغارقة والبربر والعرب والترك والأوربيين والزنوج وغيرهم من الأدميين الذين تلاقوا في تلك السواحل والبقاء، وشاهدت في سواحل إفريقيبة الشمالية جميع المثل التي تترجح بين زنوج السودان والحرور العين، وليس من الصواب أن يُنطّأ عربُ الجزر بمثال واحد أو بجموعة مثُل كما فعل ذلك حديثاً أحد علماء وصف الإنسان الذي لم يأت بغير بحث سطحي عنها.

ولم يكن العربي الجزائري غير مولِد بالحقيقة^{١٢} ونرى فيه أحط صفات المولدين، وحضريو العرب من سكان مدن الجزائر نتيجة تمازج تلك الأمم، وقد حطتهم سيطرة الأجنبي المتتابعة، وأعرابهم متمردون على كل حضارة كأهل البدو في كل قطر، وهم أقل تمازجاً وانحطاطاً من حضريي العرب.

ويُجمع أولئك الحضريون والأعراب على مقت الأوربيين الظاهرين لهم وحقدهم الشديد عليهم، ويُضحي الجزائري، الذي نصفه بالخلي المتعدد المكسال القائم الوضيع المتزيّد، بما له ونفسه، ويشتراك في كل عصيان وتمرد؛ للخلاص من حكم الأجنبي الذي فتح بلاده، وقد تَتَم إبادة عرب الجزائر بوسائل منتظمة كالتي اتخذها الأميركيون لإبادة أصحاب الجلود الْعُمر، ولكن الذي أعتقد هو أن الفرنسي لن يستطيع حمل الجزائري على التفرنّس، وأن من المتعذر أن يسود السلام في قطر واحد بين العرب والفرنسيين الذين ينتسبون إلى عرقين مختلفين، وقد سمعت هذا الرأي، الذي يُجتَب تدوينه في الكتب عادةً من جميع أولي البصائر في الجزائر، وإنني أوافق عليه موافقة تامة.



شكل ٢-٩: متسولان مراكشيان (من صورة فوتوغرافية).

(٥-٥) عرب إسبانية

جميع العرب الذين ذكرناهم آنفًا من الأحياء الذين يصلحون أن نتمثل بهم أجدادهم مع ما طرأ عليهم من التغير، وغير ذلك أمرُ عرب إسبانية الذين بادوا ولم يتركوا من الذداري من نتَّور بهم أجدادهم، ونحن مع جهلنا حقيقة مثالهم نراه كان مختلفاً عن مثال العرب السابقين الذين فتحوا إسبانيا، فقد تغير المثال العربيُّ الأصلي بتواله هو والموالي من النصارى وببربر إفريقيية الذين أغروا على إسبانيا، ونتج عن هذا التوالد الذي دام ثمانية قرون عرْقُ جديد يختلف مثاله عن مثال الغِزَاة الفاتحين اختلافاً محسوساً كما تشهد بذلك السنن الأنثropolوجية التي بينَها في بدء هذا الفصل، وتشهد آثار حضارة العرب في إسبانيا بسمو ذكاء هذا العرق الجديد المولَّد، ويدل تاريخهم على علوٍ فروسيته وبسالته، ويُثبت صرامة الأهلي الذي كان علَّة زواله اتصفه بسجايا العرب الأصلية،

ونحن، إذ لا نستطيع أن نستدل على عرب إسبانية الذين انقرضوا إلا بدراسة حضارتهم وتاريخهم، نحيل القارئ إلى الفصول التي خصصناها للبحث في تلك الحضارة وذلك التاريخ.



شكل ١٠-٢: سَقَاء مراكشي في طنجة (من صورة فوتوغرافية).

(٦-٥) عرب الصين

أخذ خلفاء العرب وملوك الصين يتبادلون السفراء بعد أن أقام العرب دولتهم، وسُتُرَى في مكان آخر من هذا الكتاب أن صِلَاتِ العرب والصين التجارية كانت منتظمةً بِرًّا وبِحَرًّا. ولم يلبث الإسلام في الصين، كما في كل بلد دَخَلَهُ العرب، أن صار له أتباع، ويقدّر مسيو دابري دُوتيرسان عدد مسلمي الصين بعشرين مليون نفس، وذلك في كتاب نشره

حديثاً عن الإسلام في الصين، ويرى هذا المؤلف أن دماء عربية تجري في عروق مسلمي الصين وإن لم يكونوا عرباً حُصراً، وأنه يتَّأْلِفُ منهم عرقٌ مزيجٌ من العرب والترك والصينيين، ثم يقول: «إن المسلمين في الصين متذரعون من الكتبية المؤلفة من أربعة آلاف جندي الذين أمدُّ بهم الخليفة أبو جعفر الإمبراطور سُوتُسونغ في سنة ٧٥٥ م حين شقَّ أنلوشين العصا، والذين سمح هذا العاهم لهم بالإقامة بأهم مدن الصين مكافأةً لهم على ما قاموا به من الخدَّم فتزوجوا صينياتٍ، وكان بهم أصلٌ مسلمي الصين».

وقال ذلك المؤلف، بعد أن استشهد برأي أندرسن الذي يرى أن شرفهم يفوق الوصف، وذلك مع الاستشهاد بملحوظاته الخاصة:

إنهم يتصفون بروح الصدق والشرف على العموم، وإن من يتقلد منهم بعض مناصب الدولة يحترمه الأهلون ويحبُّونه، وإن من يتعاطى التجارة منهم يتمتع بالسمعة الطيبة، وإنهم يؤتون الصدقات كما يأمر الدين، وإن الناظر إليهم يُخَيِّلُ إليه أنهم يُؤلِّفون أسرةً كبيرةً واحدةً يشد بعضها أرْزَ بعض.

وإنهم، مع طابعهم الخاص، استطاعوا بفضل نباهم وإيمانهم الديني وتسامحهم أن يلائموا بيئتهم وأن ينموا ويكثروا، وذلك خلافاً لدعابة الأديان الأجنبية الأخرى الذين أرادوا أن يكون لهم شأنٌ في الصين فلم يتقدمو خطوة حتى الآن.

ونشأ عما فُطِرَ عليه مسلمو الصين من التسامح والروح الحرة واحترامهم عادات الصين وشرائعها ومعتقداتها أن يتمتعوا بما للصينيين من الحقوق، وأن يكون منهم حكامٌ وقادةً ومقربون من الإمبراطور.

أسهبَت في هذا الفصل في بيان بعض المسائل التي أغفلها المؤرخون مع ما لها من الأهمية الكبرى في إيضاح ارتباط حوادث التاريخ، ونَعَّدَ سجايا العرق الخُلُقية والذهبية أقوى العوامل في تطور الأمم، فالسجايا الخلقية التي تنتقل بالإرث هي التي تُعيّن اتجاه السير، ولا يستطيع أحد أن يتخلص من سلطانها، وعالم الأموال هو الذي يُملي على الأمة اتجاهها.

وفي الماضي تنضح عوامل سَيِّرنا الحاضر، وفي الحاضر تنضح عوامل سير أبناء المستقبل، والحاضر، وهو عبدُ الماضي، سيدُ المستقبل، فيجب على من يرغب في معرفة المستقبل أن يدرس الحاضر.

هوامش

- (١) بلغ من الكبر عتيّاً: بلغ غاية الكبر.
- (٢) لا أبالغ إذا قلت: إنه لا يُرى في بلاد اليونان الآن أغارقة حقيقيون إلا نادراً، كما أن بلاد اليونان لم تَـ إغريقياً حقيقياً منهم منذ زمن طويل، فلم أجده واحداً منهم لا في أثينة ولا في غيرها من بلاد اليونان، كما أني لم أجده تمثال شخص واحد من التماشيل، التي هي على شيء من القدم والمحفوظة في متحف أثينة، يشابه المثال الإغريقي، ومع ذلك فإن مسيو شليمان الذي سحت معه حيناً بين لي أن المثال اليوناني القديم لا يزال يوجد في ميغار وإيتاك وليسبوز ونواح أخرى لم أزرتها، ولكن هذا من القلة بحيث لا ينقض ما ذكرته آنفاً.
- (٣) أرى السحنات، التي لم تكن عاملًا أساسياً في تقسيم العروق البشرية حتى الآن، مهمة إلى الغاية، وقد اعترفت بأهميتها حينما شاهدت في رحلاتي الكثيرة في أوربة وأسية وإفريقياً كيف يسهل على سكان البلاد الأصليين أن يميزوا بالضبط أبناء مختلف العروق مع ما بين هؤلاء من وحدة في الأزياء، ثم حاولت إثبات أهمية السحنات في تقسيم العرق في رسالة خصصتها للبحث في السحنات، ففيها يجد القارئ إضاحاً كاسحاً عن الوسائل التي يستنبط بها ما بين أفراد العرق الواحد من الاشتراك في سحناتهم.
- (٤) جاس القوم يجوسون جوساً بين البيوت والدور: داروا فيها بالعبث والفساد، وطلبوها ما فيها.
- (٥) فصلت تلك المبادئ في الكتب أو المذكرات الآتية: المجلد الثاني من كتاب الإنسان والمجتمعات ومصدرهما وتاريخهما، علم وصف الإنسان ودرس العروق (المجلة العلمية) من موسكو إلى جبال ترة، بحث في تكوين العرق (مجموعة الجمعية الجغرافية).
- (٦) المكزة: المنقبضة.
- (٧) إن العربي مع إقراره لليهودي بالقراة، أول من يحرر وجهه خجلاً منها، وما شاهدته في رحلاتي الكثيرة التي قمت بها في ألمانية وبولونية وغليسية وروسية والشرق من الاحتقار لليهودي لا يذكر بجانب كره العربي له، فاليهودي في نظر العربي نوع من الحيوان النجس الذي يباح أن يصنع به كل شيء، ولا يخاطب العربي في الجزائر يهودياً إلا بعد أن ينادي: «يا منتن بن منتن»، والعربي قادر على فرز اليهودي من غيره مهما حاول اليهودي أن يتذكر، وقد تحققت ذلك حين قدر لي الاشتراك في مؤتمر من الأوربيين عُقد في الجزائر حيث كان أناس من العرب يدللونني على يهود من المتعذر

تمييزهم بسخناتهم.

ويعامل اليهودي في البلاد العربية المستقلة عن نفوذ الأوروبيين بأسوأ مما يعامل به الحيوان، وإليك كيف وصف مسيو كوت في سنة ١٨٥٥ حال اليهود في مراكش: «يحرم على اليهودي أن يلبس غير الثياب السود التي هي رمز اللعنة والشقاء، ويحظر عليه ركوب الخيل، وإذا مر أمام مسجد أو زاوية أو ملي أو مرابط أو شريف — وجب عليه خلع نعليه وحملهما بيده، ويمتنع على اليهودي أن يدخل مقابر المسلمين، وتجلد العريفة المسلمة اليهودية في الأماكن العامة لأنفه الأسباب، وإذا ما ضرب مسلم يهودياً وجبر على اليهودي ألا يدافع عن نفسه بغير الفرار أو الاستعطاف، وإلا أمكن قتله، وما أكثر ما يرجم صبيان العرب شباب اليهود، ويضربونهم بالعصي ويفضونهم ويعضونهم ويخذلوكنهم، وشباب اليهود يركعون ويتلوكون ويتمسون الخلاص، ويرجون النجاة من غير أن يقدروا على ضرب أحد من أولئك الصبيان أو جرمه».

وما تقدم، وإن كان يقع في داخل مراكش، لا يحدث مثله في طنجة حيث يقيم كثير من قناصل الدول الأوربية الذين يحتمي اليهود بهم على العموم، ولما أتت تلك المدينة العجيبة، وزرت واليها، وصحبني ترجمان القنصلية البلجيكية اليهودي لاقى هذا الترجمان من الوالي كل رعاية.

(٨) الخلاسي: الولد من أبوين أبيض وأسود.

(٩) الأسفع: من لفحته الشمس لفحاً يسيراً فغيّرت لون بشرته.

(١٠) الخروت: جمع خرت، وهو ثقب الأذن.

(١١) الأئلة: بتثبيت الهمزة والميم، رأس الإصبع، وقيل المفصل الأعلى الذي فيه الظفر.

(١٢) يرى مسيو كارتيز أن عدد العرب المحض في الجزائر مئتا ألف من ٢٥٠٠٠٠ مسلم (عربي وتركي وبربري)، وعنه أن البربر أكثر سكان الجزائر عدداً، ويبلغون نحو مليون وأربعين ألف.

الفصل الثالث

العرب قبل ظهور محمد

(١) الوهم في همجية العرب قبل ظهور محمد

رأى الكثيرون أنه لا تاريخ للعرب قبل ظهور محمد، وحجّتهم في ذلك أن العرب قبل ظهور محمد، إذ كانوا مؤلفين من قبائل متقللة عاطلة من العَنْعَنَات، كانوا من الأجلاف الذين لم تَعِ ذاكرة الإنسان شيئاً عنهم.

وإلى مثل هذا الرأي ذهب بعض الأذكياء المعاصرين، ومنهم مؤلف تاريخ اللغات السامية الشهير، رينان، الذي قال: «لا مكان لبلاد العرب في تاريخ العالم السياسي والثقافي والديني قبل ذلك الانقلاب المفاجئ الخارق للعادة الذي صار به العرب أمّة فاتحةً مبدعةً، ولم يكن لجزيرة العرب شأنٌ في القرون الأولى من الميلاد حين كانت غارقة في دياجير ما قبل التاريخ، ولم يظهر بأسها وبسالتها إلا بعد القرن السادس من الميلاد». وعندنا أن هذا الرأي فاسدٌ أول وهلة، ولو لم نعلم شيئاً عن ماضي العرب، فإنّ أمكن ظهور حضارة أمّة ولغتها بغتةً على مسرح التاريخ لا يكون هذا إلا نتيجةً نُضج بطبيعة، فلا يتم تطور الأشخاص والأمم والنظم والمعتقدات إلا بالتدريج، ولا تُبلغ درجة التطور العالية التي تبدو للعيان إلا بعد الصمود في درجات أخرى.

وإذا ما ظهرت أمّة ذات حضارة راقية على مسرح التاريخ قلنا إن هذه الحضارة ثمرة ماض طويل، ولا يعني جهلنا لهذا الماضي الطويل عدم وجوده، وتؤدي مباحثات العلم في الغالب إلى عرض هذا الماضي للناظرين.

ولم يكن أمر حضارة العرب قبل ظهور محمد غير ذلك، وإن عُسر علينا أن نقول كيف كانت هذه الحضارة، فقد أثبتت الآثار والوثائق التي بأيدينا وجودها، وأنها لم تكن

— على ما يحتمل — دون حضارة الآشوريين وحضارة البابليين اللتين ظهر شأنهما حديثاً بفضل علم الآثار بعد أن كانتا مجهولتين. ولم ينشأ وهُم الناس في همجية العرب قبل ظهور محمد عن سكوت التاريخ فقط، بل نشاً، أيضاً، عن عدم التفريق بين أهل البدو وأهل الحضر من العرب. والأعراب، قبل محمد وبعده، أجلافٌ لأجلاف الأمم الأخرى الذين لم يكن لهم تاريخ ولا حضارة.

وليس الأعرابُ غَرِّ فرعٍ من فرعِي الأُرُومَةِ العربيةِ، فيوجَدُ بجانبِهم العربُ المتخضرون المقيمون بالمدن والماهرون في أمور الزراعة، ويُسْهَلُ علينا أن نُثْبِت وجود حضارة عظيمة لهؤلاء المتخضرين من العرب وإن كنا لا نعرف تفاصيلها. ولم يكن التاريخ صامتاً إزاء ثقافة العرب القديمة صمتَه إزاء الحضارات الأخرى التي رفع العلمُ الحديث عنها التراب، ولو كان التاريخ صامتاً إزاء حضارة العرب لقطعنا، مع ذلك، بوجودها قبل ظهور محمد بزمن طويل، ويكتفي لتمثيلها أن نذكر أنه كان للعرب قبل ظهور محمد آدَابٌ ناضجةٌ ولغةٌ راقية، وأنهم كانوا ذوي صلات تجارية بأرقى أمم العالم منذ القديم، فاستطاعوا في أقلَّ من مائة سنة أن يقيموا حضارةً من أنخر الحضارات التي عَرَفَها التاريخ.

والحقُّ أنَّ الآدابَ واللغةَ من الأمورِ التي لا تأتي عفواً، وهي تُتَّخذُ دليلاً على ماضٍ طويل، وينشأُ عن اتصالِ أمَّةٍ بأرقى الأمم اقتباسُها لِمَا عند هذه الأمم الراقية من التمدن إذا كانت أهلاً لذلك.

وقد أثبتت العرب أنهم أهل للاقتباس، ولا ريب في أنَّ العربَ، الذين استطاعوا في أقلَّ من قرنٍ أن يقيموا دولةً عظيمةً، ويبعدوا حضارةً عاليةً جديدةً، من ذوي القرائح التي لا تنتهي إلا بتناول الوراثة، وبثقافةً سابقةً مستمرةً، وبالعرب، لا بأصحابِ الجلوس الحمر أو الأوغستاليين، أنشأ خلفاءَ محمد تلك المدن الزاهرة التي ظلت ثمانيةَ قرونٍ مراكزاً للعلوم والآداب والفنون في آسيا وأوروبا.

أجل، استطاعت أمَّةٍ كثيرةٍ غيرُ العرب أن تهدم دولاً عظيمةً، ولكنها لم تقدر مثَلَّهم أن تبدع حضارة؛ لِمَا لم يكن عندها ما عند العرب من ثقافةً سابقةً كافيةً، وكل ما قدرت عليه هو أنها استفادت، بعد زمنٍ طويل، من حضارة الأمم التي قهرتها، ومن ذلك أنَّ البربرة، الذين قَوَّضُوا دعائِم الإمبراطورية الرومانية، قاموا بجهودٍ عظيمةٍ دامت

قرؤناً كثيرة قبل أن يقيموا حضارة على أنقاض الحضارة اللاتينية، ويخرجوا من ظُلمات القرون الوسطى.

ونحن، قبل أن نوضح — بما لدينا من الوثائق والآثار الضئيلة — ما كانت عليه حضارة العرب قبل ظهور محمد، نرى تلخيصاً ما نعرفه عن تاريخهم القديم بما يأتي.

(٢) تاريخُ العرب قبل ظهور محمد

للعرب ما قبلَ تاريخهم مثلُ ما للأمم الأخرى.

أثبتت البحث فيما تركه الأجداد في طبقات الأرض من بقايا الأسلحة والأدوات والمساكن أنه وُجد قبل الزمن القصير الذي يبحث التاريخ في حوادث ملايين السنين التي جهل الإنسان فيها أمر المعادن والزراعة وفن ترويض الحيوان، والتي لم يكن له فيها غير الصوان سلاحاً، ويسمى ذلك الدور الكبير بالعصر الحجري، وعَثَر علماء الآثار القديمة في جزيرة العرب وأوروبا وأمريكا، وفي كل مكانٍ على آثار لذلك العصر الحجري. وذَلِّلت تلك البقايا التي وُجدت في طبقات الأرض على تماثل الأمم في العصر الحجري؛ وبذلك البقايا يسهل تصوير طرق المعايشة والتفكير عند أجدادنا الأقدمين، وقد أَفْضَت في درس هذا الموضوع في كتابي الأخير، فلا أرى الآن فائدةً في العودة إليه.

ولا ترجع أقدم روايات جزيرة العرب إلى ما قبل إبراهيم، ولكن علم اللغات يثبت أن أمماً ذات لغة واحدة كانت تسكن البقاء الواقع بين القفقاس وجنوب جزيرة العرب، وإن لم يكن عرق هذه الأمم واحداً، ودلل درس اللغات السامية على أن لغات تلك الأمم، وهي العربية والفينيقية والسريانية الآشورية والكلDaniّة والعربية، وثيقةُ القربي متعددة الأصل.

ونحن نجهل درجة تأثير البيئات وطرق المعايش في اختلاف تلك الأمم مع اتحاد عرقها الذي تكلمنا عنه، ولا نستطيع غير تقرير قربتها من العرب، والعرب وحدتهم هم الذين نبحث الآن في شؤونهم.

ومصادرُ تاريخ العرب قبل ظهور محمد هي كتبُ العربين، وروايات العرب والنصوص القليلة التي وردت في كتب بعض مؤرخي اليونان واللاتين، وما جاء في الخطوط الآشورية، وما أسفرت عنه الاكتشافات التي تَمَّت في موقع الصفا القريب من دمشق.

وتعترف كتبُ العبريين بقرابة العرب من العبريين، وتَعُدُّ العرب أقدم من العبريين، وتقصُّ علينا الشيءُ الكثير من أنباء نزاع العرب الدائم، وتکاد تطفح من أخبار العمالقة، ومديانني جزيرة سيناء، وأهل سبأ الذين كانوا يقيمون بجنوب جزيرة العرب. ويروي العربُ وكتبُ اليهود مصدرُ روایتهم، أن قحطان وإسماعيل ابن هاجر، جارية إبراهيم المصرية، هما والدا العرقين اللذين عَمِراً جزيرةَ العرب في الأصل، أي والدا أهل الحضر في الجنوب والأعراب في الشمال، ويروون أنبني قحطان أقاموا دولة سبأً والدولة الحميرية باليمن، وأنبني إسماعيل سكنوا الحجاز القريبة من فلسطين، وأنبني إسماعيل كانوا أصحاب مكة التي تنازعـت هي وصنعاء اليمن عنوان عاصمة جزيرة العرب.

وعلى ذلك يكون الأنباط والأدوميون والموءابيون والعمونيون والعمالقة والمديانيون وغيرهم من القبائل التي تردد اسمها كثيراً في التوراة منبني إسماعيل، ويُظنُّ أن هذه القبائل من العمالقة تحالفوا هم وأعراب سوريا، واستولوا على مصر سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد، وعرفوا بالرُّعاة ودام سلطانُهم قرونًا كثيرة.

وتجمَّع العمالقة والأدوميون والموءابيون والعمونيون في بلاد الحجر العربية (بطرا) وفي جزيرة العرب الصحراوية، وصار من دأبهم محاربة العبريين، وحالوا دون دخول العبريين أرض كنعان زمناً طويلاً، ولم يتمَّ إخضاعهم نهائياً، ولو قِتِّ قصير، إلا في زمن داود وسليمان.

ولم تُحدِّثنا التوراة عن غير أعراب حدود فلسطين، ولم تخبرنا بشيء عن عرب اليمن المتحضرين خلا ما جاء فيها عن زيارة ملكة سبأ للملك سليمان.

وتحدثنا آثارُ الآشوريين عن عرب الشمال فقط، أي عرب سوريا وماجاورها، وذكرَ العربُ قبل الميلاد بتسعمائة سنة في بلاغ سلما نصر الثاني، وأدَّت ملكتان عربستان فروض الطاعة إلى تيغلاتفا نصر قبل الميلاد بنحو ثمانمائة سنة، ورفع أسر حدون أميرةً عربية نشأت في بلاد نينوى على أحد العروش، واستعان أخو آشور بانيبال بجيوش عربية عندما رفع راية العصيان.

وعلى ما في توارييخ العرب من غموضٍ ومبالغٍ تجعل الاعتماد عليها أمراً صعباً نراها وحدَها قد قصَّت علينا أنباء جزيرة العرب الماضية، وأيدَت ما رواه مؤلفو اليونان واللاتين عن عظمة اليمن، ومما جاء في هذه الأنباء العربية أن اليمن كانت مقراً لأقوى دول الأرض، وأن حُكْم ملوكيها دام ثلاثة آلاف سنة، وأنها غزت بلاد الهند والصين من المشرق، وبلغت بغزوتها مراكش من المغرب.

ولا يرجع ما علمناه من مؤلفات اليونان واللاتين من الأنباء الصحيحة عن تاريخ بعض جزيرة العرب إلى ما قبل الإسكندر، ويمكن تلخيصه فيما يأتي: عزم الإسكندر على فتح جزيرة العرب التي كان الأغارقة يعرفون *غنى* سكانها قبل الميلاد بأربعة قرون، وكانت الغزوة التي قام بها نيارك حول جزيرة العرب نذير تصميم الإسكندر على غزوها، ونَجَتْ جزيرةُ العرب من غزو الإسكندر بسبب موته، وأضحت البقاع القرية من حدود مصر وفلسطين، والتي كان العرب يسكنونها، من نصيب بطليموس حين فُسِّمت دولة الإسكندر، وشائع الأنباط بطليموس على أنتيغون الذي فتح أحد قُوَاده الماهرين بلاد الحِجر (بطرا) بعثةً بعد أن أصبح سيد سورياً وفينيقية، وأباد الأنباط بعدئِي جيش أنتيغون المؤلَّف من ٤٦٠٠ جندي فساق إليهم جيشاً آخر بقيادة ابنه ديميتريوس، وخاطب عرب بلاد الحِجر (بطرا) – كما روى بيودرس الصقليُّ – الأمير ديميتريوس عند بلوغه ديارهم بما يأتي: «لماذا تحاربنا أيها الملك ديميتريوس، ونحن من سكان الصحاري التي لا تُسْدِّ فيها حَلَّةٌ، ترانا نقطَنَ في هذه البقاع القاحلة فراراً من العبودية، أقبل هديتنا وارجع إلى حيث كنت، سنكون من أولى الأصدقاء لك، ولكنك إذا رغبت في حصرنا حُرمت كل هناء، ورأيت عجزك عن إكراهنا على تبدل طرق حياتنا التي تعودناها منذ نعومة أظفارنا، وإذا قدرت على أسر بعضنا أيقنت أنك لن تجد واحداً من أسرت يستطيع أن يألف حياةً غير التي أَلفناها».

هناك رأى ديميتريوسُ أن يقبل هدية الأنباط، وأن يرضي بالملأ خاتماً بالسلسلة حربياً أبصرها مملوءة بالمصاعب.

وكانت قبائل البدو، حتى التاريخ الميلادي، تنضمُ في الحروب الكثيرة، التي تهلك الحروث والنسل في تلك البقاع، إلى المصريين تارة وإلى السوريين تارة أخرى، ثم أثارت غاراتهم وقطفهم للسوابيل غضب قياصرة الرومان الذين كان سلطانهم يمتدُ إلى الفرات، فجرَّدوا على عرب بلاد الحِجر (بطرا) حَمَلاتٍ كثيرةً لم تُتَّجِ غير حملهم على دفع الجزية أو وقف العداء إلى حين، وكانت طريقة أولئك الأعراب في الغزو مثلَ ما يفعلون اليوم، أي كانوا يُغيرون على العدو بعثةً ثم يُغزون إلى الباباية عند المطاردة.

وإذ كانت خيالات الأغارقة والرومان تتَّاجَحُ طمَعاً في ثروة جزيرة العرب ساق أغسطس إلى اليمن جيشاً لم يُلاقِ غيرَ البحوط التام، وفي عهد طيباريوس وحده استطاع الرومان أن يفتحوا من بلاد العرب جزيرةَ سيناء التي كان سكانها من الأعراب تقريباً، فأضحت مدينة الحِجر (بطرا) بذلك بلدةً رومانيةً زاهيةً كما تدلُّ عليه بقاياها.



شكل ١-٣: أعراب من بادية الشام (من صورة فوتوغرافية).

وكان للعرب أثرٌ في الحروب التي تقع بين الرومان والفرس، وبلغ نفوذ العرب في الدولة الرومانية شأوا بعيداً، حتى إن أحدهم فليب العربي نصب قيصر رومانياً في سنة ٢٤٤ م، وكان العرب يهددون سلامة آسية الصغرى ذات حين، ولم يُقصَّ العرب عن مجاورة آسية الصغرى إلا بهدم تدمر في عهد أوريليانوس سنة ٢٧٢ م، وتحويل سوريا إلى ولاية رومانية، واتّباع بعض سكانها ملوك الغساسنة العرب الذين كانوا تحت حماية القياصرة.

ولما صارت القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية نازع العرب الفرس والأغارقة سيادة الفرات، وسبق ذلك أن توطّنت قبائل من عرب اليمن تلك البقاع وأنشأت، سنة ١٩٥ م، في جنوبها، وعلى ضفّتي الفرات وبالقرب من المكان الذي أقيمت عليه مدينة الكوفة فيما بعد، مدينة الحيرة الشهيرة التي انقلب ملوكها العرب ينافسون أكاسرة الفرس وقياصرة الروم في الترف والعظمة، وكانت قصور الحيرة مؤثثة بأثمن الأثاث، وكانت حدائقها مكسوّة بأعْزَّ الأزهار، وكانت قواربها الأنique الساطعة الأنوار تشقّ الفرات ليلاً حاملةً أغنى الأمراء وأمهر الموسيقيين، وأطلق العرب لأنفسهم عُنّْ الخيال؛ فقصُّوا علينا أنباء القصور الساحرة العجيبة التي أصبحت، لا ريب، أجمل مساكن الشرق وأطبيها».

وعاشت دولة الحيرة أربعمائة سنة، أي مدةً تُعد طويلاً لدولة، ولم ينته إلينا من أبنائها إلا الشيء القليل، وحضرت في سنة ٦٠٥ م للدولة الساسانية، وظلت مرتبةً فارسيةً إلى أن جاء محمدٌ بعد قليلٍ زمن، وَذَكَّ خلفاؤه دولة الأكاسرة، واستولوا على بلاد فارس. ظهر مما تقدم أن جزيرة العرب نجت من غزو الأجنبي خلا ما أصاب حدودها الشمالية، وأن عظماء الفاتحين من مصريين وأغارقة ورومانيون وفرس وغيرهم ممن انتبهوا العالم لم ينالوا شيئاً من جزيرة العرب التي أوصدت دونهم أبوابها.

نعم، إن جزيرة العرب كانت حين ظهور محمد تحت خطر الغزو الأجنبي المرهوب، وإن الأحباش استولوا في سنة ٥٢٥ على اليمن التي لم تدين لغير ملوك العرب فيما مضى، وإن الأحباش حاولوا أن يحملوا العرب على التنصُّر؛ فاستطاعوا تنصير بعض القبائل العربية، وإن الفرس طردوا الأحباش من اليمن في سنة ٥٩٧م، أي قبل ظهور محمد بقليل؛ فأضحت الفرس مَرَازِبَةً في اليمن وحضرموت وعمان، غير أن ذلك كله كان لأجل قصير، ولم يُصْبِح بلاد نجد والجَازِ الواسعة منه شيء.

إذن، من الصواب قولنا: إن القسم الأكبر من جزيرة العرب هو القسم الوحيد الذي لم تطأه أرجل الفاتحين من بلاد العالم المتمدن على ما يحتمل.

(٣) حضارة حزيرة العرب قبل ظهور محمد

يقصُّ علينا بنو إسرائيل بعضَ الأخبار عن تجارة العرب ومدنهم، ولا سيما مدينة سبا في اليمن، ولكن قصصهم خالية من الأسانيد، وإن دلت على وجود مدن عربية عظيمة في أقدم العصور.

ووصف هيرودتس، قبل المسيح بنحو أربع مائة سنة، بلاد العرب السعيدة بأنها من أغنى بقاع العالم، وأنه كان في مأرب، أو سباء التي ورد ذكرها في التوراة، قصورٌ نَّصِرَة ذاتُ أبواب عسْحَدِية، وأنية من ذهبٍ وفضةٍ، وسُررٌ من المعادن الثمينة.

ولم يرو إسترابون غير ما رواه هيرودتس، واستند إسترابون في روایته عن مدينة مأرب إلى أرتيميدور، وقال: «إن قصورها ذات سقوف مزخرفة بالذهب واللؤلؤ والحجارة الثمينة، وذات أثاث فاخر وأنية منقوشة»، ورأى إراتوستين أن بيوتها تشبه بيوت مصر في مجموعها.

وهناك مطابقةٌ بين ما رواه قدماء المؤلفين وما جاء في تاريخ العرب التي أجمعـت على امتداح غـنـيـ الـيـمـنـ، واسمعـ ما قالـهـ المـسـعـودـيـ حينـ تـكـلمـ عنـ مـأـربـ:

ذَكَرُ أَصْحَابُ التَّارِيخِ الْقَدِيمِ أَنَّ أَرْضَ سَبَأً كَانَتْ مِنْ أَخْصَبِ أَرْضِ الْيَمَنِ، وَأَثْرَاهَا وَأَغْدَقَهَا، وَأَكْثَرَهَا جَنَانًا وَغَيْطَانًا، وَأَفْسَحَهَا مَرْوَجًا، بَيْنَ بُنْيَانٍ وَجَسْرٍ مَقِيمٍ، وَشَجَرٍ مَوْصُوفٍ، وَمَسَاكِبَ لِلْمَاءِ مَتَكَافِفةً، وَأَنْهَارٍ مُتَفَرِّقةً، وَكَانَتْ مَسِيرَةً أَكْثَرَ مِنْ شَهْرٍ لِلراَكِبِ الْمَجَدِ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ وَفِي الْعَرْضِ مُثَلُّ ذَلِكَ، وَأَنَّ الراَكِبَ أَوَّلَ الْمَارِّ كَانَ يَسِيرُ فِي تِلْكَ الْجَنَانِ مِنْ أَوْلِهَا إِلَى أَنْ يَنْتَهِي إِلَى آخِرِهَا لَا يَرَى جَهَةَ الشَّمْسِ، وَلَا يَفَارِقُهُ الظَّلِّ؛ لِاستِنَارَةِ الْأَرْضِ بِالْعِمَارَةِ وَالشَّجَرِ، وَاسْتِيلَائِهَا عَلَيْهَا، وَإِحْاطَتِهَا بِهَا، فَكَانَ أَهْلَهَا فِي أَطْيَبِ عِيشٍ وَأَرْفَهِهِ وَأَهْنَأَ حَالَ وَأَرْغَدَهُ، وَفِي نِهايَةِ الْخَصْبِ وَطَيْبِ الْهَوَاءِ، وَصَفَاءِ الْفَضَاءِ، وَتَدْفُقِ الْمَيَاهِ، وَقُوَّةِ الشَّوْكَةِ، وَاجْتِمَاعِ الْكَلْمَةِ، وَنِهايَةِ الْمُلْكَةِ، فَكَانَتْ بِلَادَهُمْ فِي الْأَرْضِ مَثَلًاً، وَكَانُوا عَلَى طَرِيقِ حَسْنٍ مِنْ اتِّبَاعِ شَرِيفِ الْأَخْلَاقِ وَطَلْبِ الْفَضَائِلِ عَلَى الْقَاعِدِ وَالْمَسَافِرِ بِحَسْبِ الْإِمْكَانِ، وَمَا تَوَجَّدَهُ الْقَدْرَةُ مِنِ الْحَالِ، فَمَضُوا عَلَى ذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْأَعْصَارِ لَا يَعِنْهُمْ مَلِكٌ إِلَّا قَضَمُوهُ، وَلَا يَوَافِيهِمْ جَبَارٌ فِي جَيْشٍ، فَذَلِكُلَّ لَهُمُ الْبَلَادُ، وَأَذْعَنُ لَطَاعَتِهِمُ الْعِبَادُ؛ فَصَارُوا تَاجَ الْأَرْضِ.

ويُظَهِرُ أَنَّ أَسَدَادَ مَأْرُبٍ كَانَتْ سَبِبَ ثَرَاءِ بَلَادِ الْيَمَنِ، وَالْأَسَدَادَ جَدَرَانُ خَيْنَةٍ قَائِمَةٍ فِي عَرْضِ الْأَوْدِيَةِ لِحِجَزِ السَّيْولِ، حَتَّى إِنَّا امْتَلَأْنَا مَا بَيْنَهَا تَكَوَّنَتْ بَحِيرَةً وَاسِعَةً ذَاتَّ مَنَادِفٍ تَجْرِي مِنْهَا الْمَيَاهُ لِرَيْيِ الْأَرْضِيِّ، وَيَرْوِي مَؤْرُخُ الْعَرَبِ أَنَّ الْمُلْكَةَ بِلْقَيْسَ الَّتِي زَارَتْ سَلِيمَانَ، عَلَى زَعْمِهِمْ، هِيَ الَّتِي أَشَأَتْ تِلْكَ الْأَسَدَادَ، وَنَشَأَ عَنْ خَرَابِ أَسَدَادِ مَأْرُبٍ فِي الْقَرْنِ الْأَوَّلِ مِنَ الْمِيلَادِ فَقَرَ بَلَادُ الْيَمَنِ وَتَفَرَّقَ سَكَانُهَا.

وَيَكْفِي تَطَابِقُ تِلْكَ الرَّوَايَاتِ لِإِثْبَاتِ مَمَاثِلَةِ مَدَنِ الْيَمَنِ فِي نَضَارَتِهَا لِمَدَنِ مَصْرِ وَتَقْدِيمِهَا الْكَبِيرِ فِي مَيْدَانِ الْحَضَارَةِ، وَلَا تَزَالْ بَقَايَاها مَطْمُورَةً تَحْتَ التَّرَابِ، وَهِيَ تَنْتَظِرُ الْبَحَاثَةَ الَّذِي يَزِيلُهُ عَنْهَا كَمَا أَزَيلَ عَنْ نَبِيِّنَا وَبَابِلِ.

وَمِنَ الْأَدَلَّةِ عَلَى ازْدِهَارِ مَدَنِ الْيَمَنِ فِي الْقَرْنِ الْقَدِيمَةِ مَا كَانَ لَهَا مِنَ الْصَّلَاتِ التَّجَارِيَّةِ الْوَاسِعَةِ بِالْبَلَادِ الْأُخْرَى، وَبِمَا أَنَّ الصَّعْبَ أَنْ نَعْثَرَ فِي التَّارِيخِ عَلَى أُمَّةٍ ذَاتٍ شَأنَ كَبِيرٍ فِي التَّجَارَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَكُونَ مُتَمَدِّنةً، وَبِمَا أَنَّ عَلَاقَاتَ الْعَرَبِ التَّجَارِيَّةِ الْعَالَمِيَّةِ اسْتَمْرَتْ أَلْفَيْ سَنَةٍ، وَقَدْ وَرَدَ ذَكْرُهَا فِي التَّوْرَاةِ، فَإِنَّا نَقُولُ: إِنَّ الْعَرَبَ ضَرَبُوا بِسَهْمٍ وَافِرٍ فِي مَيْدَانِ الْحَضَارَةِ، وَإِنَّهُ كَانَ لِخَازِنِهِمْ مِنَ الْأَهْمَيَّةِ مَا لِخَازِنِ الْبَنِديْقِيَّةِ فِي إِبَانِ عَظِيمَتِهَا. وَكَانَ الْعَرَبُ وَاسِطَةً بَيْنَ قَدَمَيِّ الْأُورَبِيِّينَ وَبَقَاعِ الشَّرْقِ الْقَاسِيَّةِ، وَلَمْ تَقْتَصِ تِجَارَةُ الْعَرَبُ عَلَى مَنْتَجَاتِ بِلَادِهِمْ، بَلْ كَانَتْ تَشْمَلُ السَّلْعَ الَّتِي كَانُوا يَجْلِبُونَهَا مِنْ إِفْرِيقِيَّةِ

والهند أيضاً، وكانت النفائس، كالعاج والعطور والأفواه والجارة الكريمة والتبر والأرقاء ... إلخ، أهم ما يتاجر به العرب.

واستuhan العرب بالفنقيين، القربيين منهم لغة، زمناً طويلاً لبيع سلعهم، وكان الفنقيون يخزنون سلعاً العرب في مدنهم الكبيرة كمدينة صور، ثم يبعثون بها إلى الخارج لبيعها.

وكان العرب والبابليون يتنافسون في الاتجار مع الهند، وكان البابليون يصلون إلى الهند بطريق البر أو بطريق البحر من خليج فارس، وكانت قوافل البابليين تتنقل السلع إلى سوريا؛ لتوزعها على العالم، مارة في طريقها إلى دمشق من تدمر وهليوبوليس (بعلبك) المهمتين اللتين لا تزال بقائيهما الماثلة في الصحراء تثير عجب السياح.

فيتمثل تلك العلاقات التجارية التي دامت مئات السنين نتصور ما كانت عليه مدن جزيرة العرب، ولا سيما مدن اليمن النضرية التي اغتنمت بالتجارة وألفت أطيب النفائس، وندرك سرّ إجماع مؤلفي اليونان واللاتين والعرب على امتناع ازدهار تلك المدن العجيبة. ولم يسعط نجم حضارة العرب قبل محمد في اليمن وحدها، فما جاء في أقدم روايات التاريخ عن حضارة الحيرة والغساسنة يثبت، أيضاً، درجة استعداد أتباع محمد للقيام برسالتهم في عالم المدينة.

وقد تحدثنا عن الحيرة التي مجدها العرب، وقلنا إنها كانت تنافس القسطنطينية وعاصمة الفرس، ولم تقلّ عنها أهمية مملكة غسان التي أسسها عرب اليمن بعد ظهور المسيح بزمن قليل، والتي دام سلطانها نحو خمسمئة سنة، واشتملت على ستين مدينة محصّنة كما جاء في كتب التاريخ.

وظهرت عظمة حضارة مملكة غسان من حل الكتابات الحميرية المنقوشة على آثارها التي اكتُشفت بالقرب من عاصمتها القديمة بصرى الواقعة على حدود سوريا، ومن بقايا قنواتها التي تشهد بما كان عند سكانها من الاستعداد الكبير للقيام بالأعمال العظيمة.

وإذ كان عرب الحيرة وغسان متصلين بالفرس والرومان كان تأثيرُ هؤلاء في حضارة أولئك كبيراً، وغير ذلك أمرٌ حضارة اليمن العربية التي هي أقدم من حضارة الرومان، والتي يجب أن يُبحث فيها عن بقايا حضارة العرب القديمة، والتي نأسف على بقائها بعيدةً من يد البحث والتنقيب حتى الآن، فيظلُّ اطلاعنا على أمر مدن اليمن القديمة ناقصاً نقصاناً اطلاعنا السابق على آثار الآشوريين التي كانت مطمورة تحت رمال الصحراء.

وتدلُّ جميع الدلائل على أن كل تنقيبٍ في بلاد اليمن يأتي بأحسن النتائج، فقد حدَّث مسيو هاليقي، الذي جاب بلاد اليمن منذ بضع سنين، ولم يسْطِعْ أن يقوم بأي حفر كان، أن العرب يعثرون أحياناً على تُحَفٌ ذهبيةٌ وفضيةٌ بين خرائب اليمن، وأنه وُجدَ بجوار الحرم غير بعيدٍ من صنعاء مسلاتٌ ذات كتاباتٍ كثيرة، وأنه اكتُشف باُمِّ حميري منقوشةٌ على حجارته صور حيواناتٍ ونباتاتٍ.

واشتري مسيو شلونبرجر في القسطنطينية حديثاً مئتي قطعةٍ من نقود ملوك اليمن التي اكتشفها عربيٌ في صنعاء فترجع في قِدَمِها إلى ما قبل الميلاد، وهذه النقود، التي لم يُوجَد منها قبل ذلك سوى قطعتين أو ثلاثة قطع في جميع المتحف الأوربيّة، أهميَّة خاصة، فعلَ أحد وجهيها صورةً جانبيةً لملك مُتوَّجٍ يذكُرنا شعره المضفور بصفائر ملوك الرُّعَاة الذين خرجوا من بلاد العرب وملكو مصر زمناً طويلاً، والذين اكتشف مسيو مارييت بعض تماثيلهم المعروضةاليوم في متحف بولاق، وعلى الوجه الآخر صورة يومية، ويظهر أن رسام تلك النقود اقتبس رسومها من النقود الإغريقية التي كانت تداولها أمم البحر المتوسط ذات العلاقات التجارية الكثيرة بالعرب.

ومهما تكن الآثارُ التي أمعنا إليها آنفًا ناقصةً فإنها مما تتمُّ به روایات قدماء المؤلفين، وما نُبصِرُ من خلاله ازدهار حضارة العرب الغابرة التي نسيها الناس في الوقت الحاضر فتنتظر من يكشف الغطاء عنها، والتي نرتدع، بما نعرف عنها من العلم القليل، عن عَدِّ العرب هَمَّجاً، والعرب هؤلاء قد ظهروا على مسرح التاريخ قبل الرومان بقرون كثيرة، وأنشأوا المدن العظيمة، وكانت علاقاتهم بأرقى شعوب الأرض وثيقةً.

(٤) أديان جزيرة العرب القديمة

كانت عبادات القبائل العربية قبل ظهور محمد كثيرةً إلى الغاية، وكانت عبادة الشمس وأهم النجوم أكثرها انتشاراً، وأخذت القبائل العربية عن الأمم التي كانت تتصل بها كثيراً من آلهتها، فكان زُونُها^١ جامعاً لشتى الأصنام كالأنبياء الإغريقية الرومانية.

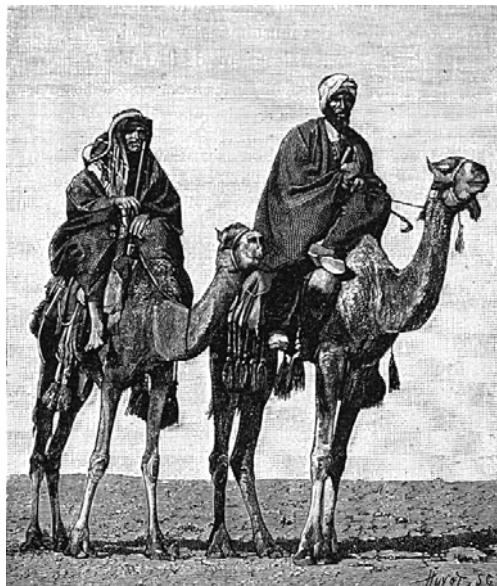
وتدل كتابات الآشوريين التي رُسمت قبل ظهور المسيح بسبعيناً سنة أو ثمانينات سنة، وما اكتُشف في الصفا، على أن العرب كانوا مشركين، وأنهم كانوا يقيمون لآلهتهم تماثيل، وإليك، مثلًا، ما جاء في إحدى الكتابات الآشورية التي تشير إلى عودة أُسرُّ حدون من غزوهم لجزيرة العرب الصحراوية:



شكل ٢-٣: أعرابيات من بادية الشام (من صورة فوتوغرافية).

أتى الملك العربيُّ فلانُ إلى عاصمتِي نينوى وَمَعْهُ هدايا كثيرة، وَقَبَّلَ قدمي طالبًا أن أعيده إلى تماثيل آلهته، فرق له قلبي، وأعدتها إلىه بعد أن أمرت بإصلاحها ونقش تمجيد ربي آشور عليها وتوقيعها، وجعلت الأميرة العربية طبّوّة التي نشأت في بلادي ملكةً، وأعدتها إلى بلادها مع آلهتها.

وُجِدَ في ثنايا تلك العبادات المختلفة بذور توحيد مما تعهَّدَ محمد إِنماهه فيما بعد، وقد بَنَى إبراهيم الكعبة في جزيرة العرب كما روى العرب، وجعل العرب منها موضع تكريم وحج منذ القديم، وكان فيها حين ظهور محمد ٣٦٠ صنَّماً وصورة، وكانت صورة المسيح ومريم العذراء من هذه الصور — كما جاء في توارييخ العرب — وكان من دواعي الفخر عند العرب تزيينُ الكعبة التي كان اليهود شديدي التعظيم لها أيضًا، وكانت سُدانتها بيد قبيلة قريش التي نالت بذلك نوعًا من السيادة الدينية بين العرب. وُجِدَ بين العرب، فضلًا عن النصارى واليهود الذين لم يكن عددهم قليلاً في جزيرة العرب، من يعبدون إلَّا واحدًا، وسُمِّيَ هؤلاء بالحنفاء، وكان محمد يحب هذا الاسم، ولنست عقيدة التوحيد، التي هي من أهم مبادئ القرآن، كل ما عند الحنفاء، بل قالوا أيضًا، كما قال القرآن فيما بعد، إن على الإنسان أن يُسلِّم بقضاء الله وقدره تسليم إبراهيم حينما رأى ذبح ابنه إسحاق، ولذا لم يكن من الخطأ إخبار محمد في القرآن بوجود مسلمين قبل ظهوره.



شكل ٣-٣: جمالان من بلاد الحجر العربية (بطرا).

ونشأ عن وحدة لغة العرب وحشر آلهتهم في الكعبة إمكان صهر عبادات هذه الآلهة وتحويلها إلى عبادة إله واحد، ومما يسر هذا الصهر تكلُّم عباد هذه الآلهة الكثيرة بلغة واحدة.

والحق أن وقت جمع العرب على دين واحد كان قد حلَّ، وهذا ما عرَفَهُ محمد، وفي الوجه الذي عرفه فيه سر قوته، وهو الذي لم يفكر قط في إقامة دين جديد خلافاً لما يقال أحياناً، وهو الذي أنشأ الناس بأن الإله الواحد هو إله باني الكعبة، أي إله إبراهيم الذي كان العرب يُجلُّونه ويُعظِّمونه.

وعلائم اتجاه العرب أيام ظهور محمد إلى الوحدة السياسية والدينية كثيرة، وما حدث من الثورة على الأوثان في عهد قياصرة الرومان حدث مثلُه في جزيرة العرب حيث ضعفت العتقدات القديمة، وفقدت الأصنام نفوذها، ودبَّ الهرم في آلهتها، والآلهة مما يجب ألا يَهْرَم.

(١) الزون: الموضع تجمع فيه الأصنام.

الباب الثاني

مصادر قوة العرب

الفصل الأول

محمد: نشوء الدولة العربية

(١) فُتُوَّةُ مُحَمَّدٍ

وُلدَ مُحَمَّدٌ فِي مَكَّةَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ وَالْعَشْرِينَ مِنْ شَهْرِ أَغْسَطْسَ سَنَةِ ٥٧٠ م، وَكَانَ أَبُوهُ عَبْدُ اللَّهِ، الَّذِي تُوْفِيَ قَبْلَ مِيلَادِهِ بِشَهْرَيْنِ، ابْنَ قَطْبٍ مِنْ أَقْطَابِ الْكَعْبَةِ الشَّهِيرَةِ، وَكَانَ أَمَّهُ آمَّةً بْنَتَ زَعِيمٍ إِحْدَى الْقَبَائِلِ.

وَرَأَى الْعَرَبُ أَنْ يَقْرِنُوا مِيلَادَ زَعِيمِهِمُ الْأَعْظَمِ بِالآيَاتِ، فَرَوُوا أَنَّ الْعَالَمَ اهْتَزَّ لِولَادَتِهِ، وَأَنَّ نَارَ الْمَجُوسِ الْمَقْدَسَةَ حَبَّتْ، وَأَنَّ شَيَاطِينَ الشَّرِّ دُحِرْتَ مِنْ أَعْلَى الشُّهُبِ، وَأَنَّهُ تَصْدَعُ مِنْ أَبْرَاجِ إِيَّوْنَ كَسْرَى «مَلِكُ الْمَلُوكِ» أَرْبَعَةَ عَشَرَ بَرْجًا إِيَّادَانَا بِقَرْبِ اِنْهِيَارِ دُولَةِ الْفَرْسِ الْعَظِيمِ.

وَرَضَحَ مُحَمَّدٌ أَمَّهُ فِي الْبَدَاءَةِ، ثُمَّ دَفَعَتْ بِهِ إِلَى قَبِيلَةِ الْبَادِيَةِ وَفَقَ عَادَةٌ لَا تَزَالُ تُصَاحَافُ حَتَّى الْيَوْمِ، فَلَمَّا بَلَغَ التَّالِثَةَ مِنْ سَنِّهِ، وَرَأَى أَبُوهُ مِنَ الرَّضَاعَةِ مَا رَأَيَا مِنَ الْخَوَارِقِ الَّتِي كَانَتْ تَلَازِمُهُ، عَلَى زَعْمِ كُتُبِ السِّيَرَةِ، خَافَا مَغْبَةُ الْأَمْرِ، وَلَمْ يَرِيدَا بِقَاءَهُ عِنْدَهُمَا.

وَلَمْ تَلْبِثْ أَمَّهُ أَنْ مَاتَتْ وَهُوَ صَبِّيُّ تَارِكَةً أَمْرِ رَعَايَتِهِ لِجَدِّهِ عَبْدِ الْمَطَلَّبِ، فَغَالَ جُدُّهُ هَذَا فِي الْإِهْتَمَامِ بِهِ.

وَلَكِنَّ مَلَائِكَةَ الرَّحْمَةِ، الَّتِي أَرَادَتْ مُضِيًّا مُحَمَّدَ قُدُّمًا، صَبَّتْ عَلَيْهِ، وَهُوَ صَغِيرٌ، أَنْوَاعَ الْمَصَائِبِ الَّتِي يُصَابُ بِهَا إِنْسَانٌ عَادَةً درْجَةً درْجَةً، فَقَدْ مَاتَ جَدُّهُ بَعْدَ وَفَاهَةِ آمَّةَ بِسْنَتَيْنِ، وَكَفَلَهُ عَمَهُ التَّاجِرُ الَّذِي كَانَ يَسَافِرُ، وَلَمْ يَجِدْ مُحَمَّدَ لِهِ غَيْرَ نَفْسِهِ حَامِيًّا بَعْدَ قَلِيلٍ.

وتقول القصة إن محمدًا سافر مع عمه إلى سوريا مرّة، وتعرّف في بُصرى براهب نسطوري في دير نصرياني، وتلقى منه علم التوراة. ولما بلغ محمد العشرين من عمره اشتراك في حربٍ بين قريش وقبيلة أخرى، فأظهر فيها، كما قيل بصيغة التأكيد، براعة حربية تجلّت فيه بعد زمن. ونال محمد شهرةً فائقة، وُعِرِفَ بِرفقه وصدقه، فلقبته قريش بالأمين.



شكل ١-١: منظر المدينة (من صورة فوتوغرافية).

وإذا أضيف إلى شهرته حُسن صحتِه علِّمنا السر في عطف خديجة، التي كانت أرملة غنّيٌّ، عليه وتفويضها أمور تجارتها إليه، وتهيأ له السفر إلى سوريا بذلك، والاجتماع مرة ثانية بالراهب الذي أطلعه على علم التوراة سابقًا، وتزوج بعد رجوعه من سوريا، وكان عمره خمساً وعشرين سنة، خديجة الأيم المثيرة البالغة من العمر أربعين سنة، وخديجة هي أولى زوجاته، ولم يتزوج امرأة أخرى في حياتها.

ولم يخبرنا التاريخ عن سيرة محمد في السنين الخمس عشرة التي انقضت بعد زواجه بخديجة، ويفترض، وإن لم يقُم دليل على ذلك، أنه كان يفكِّر في أثناَئها في مبادئ دينه الذي سيكون زعيمه، ولم يَبْدُ منه في تلك السنين أي نفور من عبادات العرب مع ذلك، كما أنه لم يقع فيها ما يدلُّ على تفكيره في قلب تلك العبادات رأسًا على عقب.

(٢) رسالة محمد

لم يتكلم محمد عن بعثته إلا بعد بلوغه الأربعين من عمره، فبعد أن كان قائماً يتحنث على جبل حراء، الذي يبعد ثلاثة أميال من مكة، مثل ما كان يفعل في كل سنة، جاء خديجة ممتقعاً وأخبرها، كما روى مؤرخو العرب، بأنه بينما كان تائهاً في الجبل إذ سمع جبريل يقرع أذنيه بقوله: «اَقْرَا بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اَقْرَا وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَمَ بِالْقَلْمَ عَلَمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» يا محمد! أنت رسول الله وأنا جبريل، كما أخبرها بأن هذا كلام إلهي، وبأنه يشعر في نفسه بقوّة نبوية. ولم تتردد المرأة المطيبة، خديجة، في تصديق بعثة زوجها النبوية، وانطلقت إلى ابن عمها ورقّة، وكان على جانب من العلم، وقصّت عليه ما سمعت، فقال: «قدُوس، والذي نفس ورقة بيده لئن صدّقْتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى بن عمران، وإنه لنبي هذه الأمة.»

ورجعت خديجة إلى محمد، وأخبرته بقول ورقة، واطمأنّت نفسه، فطاف بالكعبة سبع مرات، ثم انصرف إلى منزله، ثم تواتر الوحي عليه كما ذكر أبو الفداء. ولم يُنذر محمد، في السنين الثلاث الأولى من بعثته، غير عشراته للأقربين الذين كانوا، على العموم، من ذوي النفوذ والواجهة بسبب مقامهم وأعمارهم، فلما اطمأنَّ إلى جوارهم جَهَرَ بدعوته، وأخذ يحمل على الإشراك الذي كان مرتكزه في بيت آلهة جزيرة العرب المقدّس، الكعبة، كما ذكرنا ذلك.

ولم يُكتب له التوفيق في بدء الأمر، وكان الناس يسخرون منه، ولكن سخرية سَدَنَة الكعبة، قريش، لم تثبت أن انقلبَتْ إلى غضبٍ على محمد، وتهديدَ له ولن والاه بالقتل. ولم يُفْلِ ذلك من عزم محمد، وقد قال، كما ذكر أبو الفداء: «لو وضعوا الشمس في يميّني والقمر في شمالي ما تركت هذا الأمر.»

هناك فَكَرَتْ قريش في اضطهاد محمد، ولم يمنعها من القضاء عليه غيرُ ما تعودَتْه الأسر العربية من إجارة أبنائها، وما كانت تراه من تعريض قريش لأثار عشيرة محمد للأقربين الكثريين.

ولذلك أمكن محمداً أن يواصل دعوته، وأن يزيد عدد أصحابه من غير أن يصيّبه أذى كبير، ثم هاجر هؤلاء الأصحاب إلى الحبشة، لما لم يلاقوا من حوارٍ كما لاقى محمد. وروى مؤرخو العرب أن ملك الحبشة سأله هؤلاء المهاجرين عن دينهم الجديد، فأجابه جعفر ابن عم محمد بما يأتي:

كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأكل الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي من الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً مَنْ تَعْرِفُ نسْبَهُ وصَدْقَهُ وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباءُنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقدف المحسنات، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلة والزكاة والصيام، فصدقناه وأمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده لا نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حُرِّمَ علينا وأحللنا ما أُحلَّ لنا.

وكان محمد يقابل ضروب الأذى والتعذيب بالصبر وسعة الصدر، وكان في كل يوم يجتذب أصحاباً آخرين ببلاغته، والتجأ محمد إلى عمه أبي طالب ذي الجah الكبير راغباً في السلامة.

ومضت عشر سنين ومحمد لم يفتر ثانيةً عن الدعوة إلى دينه، فلما بلغ الخمسين من عمره أصيب بفصيبيتين كبيرتين: وفاة عمه أبي طالب الذي كان يحميه، ووفاة زوجته خديجة التي كان أقرباؤها من الأعيان النافذين.

وتترك النبي مكة حين أضحت غير قادر على مقاومة أعدائه، وذهب إلى الطائف القرية، ودافع أمام أهليها عن صدق بعثته، ولم يصغوا إليه، فاضطرب إلى العودة.

ولم يلبث الأمر أن تبدل، ولم يلبث الزمن أن تبسم لمحمد بعد عبوس، فقد اغتنم محمد موسم الحج، ودعا إلى دينه أنساً من اليمن كانوا ينظرون إلى مكة بعين الغيرة، وكانتوا ينتظرون، كما شاع بينهم، ظهور النبي، وقد استهواهم حديث النبي، واعتقدوا أنه هو النبي المنتظر، وقد حدثوا بذلك أهل يثرب التي كانت تأكلها الغيرة من مكة أيضاً، وقد جاءه من هؤلاء رجالٌ كثيرٌ؛ ليستمعوا إلى دينه البسيط الواضح، فلم يطلب منهم غير الإيمان باليه واحد وبالآخرة حيث يجازى الأشرار ويكافأ الأبرار، وغير إطاعة أمر الله، والصلة صباح مساء مع الطهارة بالوضوء والتحلل بجميع الفضائل، والإقرار بأن محمداً رسول الله وإطاعته، وقد أخذ هذا الدين بمجامع قلوبهم؛ فآمنوا به وصدقواه وباياعوه، ثم انصرفوا للدعوة إلى دينه.

ولما علمت قريش ما أصاب محمد من النجاح غضبوا وسخطوا، وهم الذين لم يستطيعوا أن يُغضِّوا على دين جديد قد يضرُّ بمصالحهم، فأتمروا بمحمد ليقتلواه.

ولم يعلم محمد بالأمر إلا بعد أن حاصر المؤتمرون منزله، واستطاع محمد، مع ذلك أن يتسلل ليلاً من بين المؤتمرين، وأن يتفقد من مطاردة قريش له، وأن يصل هو وصديقه أبو بكر إلى يثرب التي سُميَت بالمدينة بعدها. وكانت هذه الهجرة في سنة ٦٢٢م، واتخذها العرب مبدأً لتاريخهم.

(٣) محمد بعد الهجرة

دخل محمد المدينة دخول الظافرين، وأظل أصحابه رأسه بسُعوف النخل، وصارت الجموع ترتمي على قدميه.

وشرع محمد، منذ وصوله إلى المدينة، ينظم شؤون دينه، وأخذ القرآن، الذي كان في دور التكوين، يكتمل بفضل تواتر نزول الوحي على محمد في جميع الأحوال الصعبة خلا مبادئه الأساسية التي كانت قد عُرِضت.

ووُضِعَت شعائر الإسلام بالتعاقب، فُسِّنَ الأذان لدعوة المؤمنين إلى الصلوات الخمس، وفرض صوم شهر رمضان، أي الامتناع عن الطعام من الفجر إلى غروب الشمس شهراً كاملاً، وفرضت الزكاة التي يُعين المسلم بها الدين الذي أقيمت.

وصار محمد، بعد وصوله إلى المدينة، يقود الغزوات بنفسه، أو بواسطة أحد أصحابه، وغزوة بدر التي وقعت في السنة الثانية من الهجرة هي أولى الغزوات المهمة؛ ففيها هزم جنود محمد، الذين لم يزيدوا على ٣١٤ مقاتلاً، والذين لم يكن بينهم سوى ثلاثة فرسان، أعداءهم كانوا ألفي مقاتل، فكانت هزيمة أعداء النبي التامة في بدر فاتحة شهرته الحربية.

وتواترت الوقائع بين محمد وجيرانه، وكانت كل مصيبة تصيبه يعقبها انتصار له في الغالب، وكان يبدو رابط الجأش إذا ما هُزم، ومعتدلاً إذا ما نُصر، وهو لم يقُسْ على أعدائه إلا مرة واحدة حين أمر بأن تُضرب رقاب سبعمائة معتقل يهودي خانوه.

وعظم شأن محمد في عدة سنين، وأصبح لا بد له من فتح مكة حتى يُعمَّ نفوذه، ورأى أن يقاوض قبل امتشاق الحُسَام وصولاً إلى هذا الغرض، فجاء إلى هذا البلد المقدس ومعه ١٤٠٠ من أصحابه، ولم يُكتب له دخوله، وقد دُهش رسل قريش من تعظيم أصحابه له، فقال أحدهم: «إني جئت كسرى وقيصر في ملكهما فواه ما رأيت ملِكًا في قومه مثلَ محمد في أصحابه...»

ورأى محمد بعد ذلك الإخفاق أن يُرُوح أصحابه، فخفَّ بهم إلى مدينة خير المحسنة المهمة الواقعة في شمال المدينة الغربي، والبعيدة منها مسيرة خمسة أيام، والتي كانت تقطن فيها قبائل يهودية، والتي كانت مقرًّا لتجارة اليهود، ففتحها عَنْوَة، وشعر محمد بدنوِّ أجله بعد خير، وذلك أن زينَت اليهودية أهدت إليه شاةً مسمومةً، فأخذ منها قطعة ولاكها، ثم لفظها بعد أن ذاق طعمًا غريباً فيها، وقال: «تخبرني هذه الشاة أنها مسمومة»، ثم دعا بزینب الإسرائيليية فاعترفت اعترافاً دقيقاً، ونجت من العقاب حين قالت: «لقد بلغت من قومي ما لم يخفَ عليك، فقلتُ: إن كان ملِكًا استرحتُ منه، وإن كاننبياً فسيُخَبِّر»، ولم تزل أكلة خير تعاوده مع حماية الله له، فتوفيَّ بتأثيرها بعد ثلاثة سنين كما روى المؤرخون.



شكل ٢-١: مخيَّم حجاج بالقرب من المدينة (من صورة فوتografية).

ولما أحسَّ محمد نموًّ سلطانه عَزَمَ على فتح مكة، وألَّفَ جيشاً من عشرة آلاف محارب، أيَّالَفَ جيشاً لم يسبق أن جمع مثله، وبلغ محمد أسوار مكة، وفتحها به من غير قتال، وذلك بقوه ما تم له من النفوذ.
وعامل محمد قريشاً، الذين ظلوا أعداءً أشداءً له عشرين سنة، بلطف وحلم، وأنقذهم من سَوْرة أصحابه بشقةٍ، مكتفيًّا بمسح صُور الكعبة وتطهيرها من الأصنام (الـ ٣٦٠).

التي أمر بكتابتها على وجوهها وظهورها، وبجعل الكعبة معبدًا إسلاميًّا، وما انفكَ هذا المعبد يكون بيت الإسلام.

ودخل أكثر القبائل المجاورة في الدين الإسلامي على أثر فتح مكة، وحاولت بعض القبائل أن تقاوم، فهزمت شر هزيمة.

وهنالك بلغ محمد أوج مجده، فعزم على غزو سوريا التي كان يعتقد أن أصحابها الروم يهددون حدوده.

واستطاع محمد أن يجمع جيشًا مؤلفًا من ثلاثين ألف مقاتل، وُوُجِد عشرة آلاف فارس بين هؤلاء المقاتلين، ولما وصل إلى تبوك الواقعة في منتصف الطريق بين المدينة ودمشق علم أن الروم أغلقوا عن غرضهم، فلم يتبع سيره، ولم يخلُ زحفه هذا من فائدة، إذ نتج عنه أن خضع للنبي أمراءُ البلاد العربية المجاورة لمصر وسوريا.

ورغب محمد في زيادة نفوذه حتى قبل فتح مكة، فأرسل كتبًا إلى جميع الجهات، وإلى أقوى ملوك الأرض أيضًا، يدعو فيها إلى الإسلام، وساق إلى ملك غسان الذي كان من عمال ملوك الروم جيشًا صغيرًا لم يكتب له غير الفرار، وكانت هذه الغزوة، وهي الوحيدة التي وقعت خارج جزيرة العرب في أثناء حياته، ذات نفع، فلم يلبث العرب الذين وُكل إليهم أمر حفظ الحدود أن انحازوا إلى النبي حين أخر هرقلُ عنهم رواتبهم. ولم تُثمر كتب محمد إلى الملوك، وقد قص التاريخ علينا أن رسول محمد وصل إلى كسرى حين كان السفراء يمضون معااهدة السُّلْم بين كسرى وهرقل، وأنه عندما ألقى كتاب محمد إلى كسرى، ورأى فيه اسم محمد قبل اسمه ووجاد، وهو ملك الملوك، أن هذا يتضمن أفضلية محمد عليه — وفُقِّر رأي الشرقيين — مرق الكتاب غاضبًا قبل أن يقرأه، وداسه تحت قدميه، وقال: «يكاتبني بهذا وهو عبدي»، وأن النبي لما بلغه ذلك قال: «مزق الله ملكه كما مزق كتابي».

وقد قبلت دعوة النبي، فمرق خلافه ملك كسرى كلَّ ممزق من فورهم. ولم يكتفي كسرى بتمزيق كتاب محمد، بل بعث إلى عامله باليمن: «أن ابعث إلى هذا الرجل الذي يزعم في الحجاز أنهنبي»، ولكن ابن كسرى قتل أباه هذا قبل أن يقوم عامل اليمن بتنفيذ ذلك الأمر الصعب.

ومضى على الهجرة عشر سنين، فخرج النبي حاجًا إلى مكة، وكان هذا آخر حج قام به، قال أبو الفداء: «ثم رجع إلى المدينة، وبدأ به مرضه وهو في بيت زينب بنت جحش، وكان يدور على نسائه حتى اشتَدَّ مرضه وهو في بيت ميمونة بنت الحارث، فجمع نسائه

واستأذنهم في أن يُمْرَض في بيت إحداهم، فـأَذِنَ له في أن يُمْرَض في بيت عائشة، فانتقل إليه».

وَشَعَرَ مُحَمَّدٌ بِدُنُو أَجْلِهِ، وَأَرَادَ أَنْ يَوْدُعَ قَوْمَهُ فَجَمَعُهُمْ وَشَكَرَ اللَّهَ تَوْفِيقَهُ لِإِكْمَالِ رِسَالَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ كُنْتُ جَلَدْتُ لَهُ ظَهِيرًا فَهَذَا ظَهْرِي فَلِيُسْتَقْدِمْ مِنِّي، وَمَنْ كُنْتُ شَتَمْتُ لَهُ عِرْضًا فَهَذَا عِرْضِي فَلِيُسْتَقْدِمْ مِنْهُ، وَمَنْ أَخْذَتُ لَهُ مَالًا فَهَذَا مَالٌ فَلِيُأْخُذْ مِنْهُ، وَلَا يَخْشَى الشَّحْنَاءَ مِنْ قِبَلِي؛ فَإِنَّهَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِي».

فَأَدَّعَى عَلَيْهِ رَجُلٌ ثَلَاثَةَ دِرَاهِمْ، فَأَعْطَاهُمْ عَوْضَهَا، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا إِنْ فُضُوحَ الدُّنْيَا أَهُونُ مِنْ فُضُوحِ الْآخِرَةِ»، ثُمَّ صَلَى عَلَى الَّذِينَ قَاتَلُوا مَعَهُ، ثُمَّ أُعْيَدَ إِلَى بَيْتِ عَائِشَةَ.



شكل ٣-٣: الوضوء من بئر زمزم المقدسة في موسم الحج بمكة (من صورة فوتografية).

وَأَرَادَ مُحَمَّدٌ، قَبْلَ وفَاتِهِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، أَنْ يُنْقَلَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْيَصِيلِيِّ، وَلَمْ يَحْتَمِلْ مُحَمَّدٌ هَذَا النَّقْلَ، فَأَمْرَأَ بْنَ يَقْوَمَ أَبُو بَكْرَ مَقَامَهُ، فَعَدَّ الْمُسْلِمُونَ هَذَا دَلِيلًا عَلَى أَنَّ الْخِلَافَةَ لِأَبِي بَكْرِ بْنِ النَّبِيِّ.

وَتُوْفَيَّ مُحَمَّدٌ بَعْدَ مَرْضٍ دَامَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا، وَكَانَتْ وفَاتِهِ فِي السَّنَةِ الْحَادِيَةِ عَشَرَةً مِنَ الْهِجْرَةِ حِينَ كَانَ عَمْرَهُ ثَلَاثًا وَسَتِينَ سَنَةً.

وَكَانَتْ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ، حَتَّى عُمَانَ، قَدْ صَبَّاتُ قَبْلَ وفَاتِهِ مُحَمَّدٌ إِلَى الإِسْلَامِ، وَقَدْ رَضِيَّ بِالإِسْلَامِ مُشْرِكُو الْعَرَبِ وَمُسْيِحِيُّوْهُمْ وَيَهُودُهُمْ، وَأَصْبَحُوا بِذَلِكَ أُمَّةً وَاحِدَةً أَلْهَبَتْهَا الْمُعْقَدَاتُ الْجَدِيدَةُ، وَغَدَتْ مُسْتَعِدَةً لِفَتْحِ الْعَالَمِ بَعْدِ زَمِنٍ قَلِيلٍ بِقِيَادَةِ زُعمَائِهَا الْمَاهِرِينَ.

(٤) حياة محمد وأخلاقه

تكلمنا عن حياة محمد العامة فيما تقدم، والآن نبحث في أخلاقه وحياته الخاصة، مستعينين بأسانيد العرب وأثارهم، قال المؤرخ العربي أبو الفداء في وصف محمد مستنداً إلى ما رُوي عن أصحابه: «وَصَفَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَقَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَيْسَ بِالطَّوِيلِ وَلَا بِالْقَصِيرِ، ضَخْمَ الرَّأْسِ كَثُرَ الْلَّحِيَةِ شَتْنَ الْكَفَنِ وَالْقَدَمِينِ ضَخْمَ الْكَرَادِيسِ مُشْرَبًا وَجْهَهُ حَمْرَةً، وَقِيلَ: كَانَ أَدْعَجَ الْعَيْنَيْنِ سَبْطَ الشِّعْرِ سَهْلَ الْخَدِينِ كَانَ عُنْقَهُ إِبْرِيقُ فَضْةً، وَقَالَ أَنْسٌ: لَمْ يَشْنَهُ اللَّهُ بِالشَّيْبِ، كَانَ فِي مُقْدَمَ لَحِيَتِهِ عَشْرَوْنَ شَعْرَةً بِيَضَاءٍ، وَفِي مُفْرَقِ رَأْسِهِ شَعْرَاتٍ بِيَضْنِ ...

وكان ﷺ أرجح الناس عقلًا، وأفضلهم رأياً، يُكثِرُ الذكر، ويُقلُّ اللغو، دائم البشر، مطيل الصمت، لِّينُ الجانب، سَهْلُ الْخُلُقِ، وكان عنده القريب والبعيد والقوى والضعف في الحق سواء، وكان يُحبُّ المساكين، ولا يُحَقِّرُ فقيراً لفقره، ولا يهاب ملِكًا لملكه، وكان يؤلف قلوب أهل الشرف، وكان يؤلِّف أصحابه، ولا يُنَفِّرُهم، ويصادِرُ من جالسه ولا يَحِيدُ عنه حتى يكون الرجل هو المنصرف، وما صافحه أحد فيتَرَكَ يده حتى يكون ذلك الرجل هو الذي يتَرَكَ يده، وكذلك من قاومه لحاجةٍ يقف رسول الله ﷺ معه حتى يكون الرجل هو المنصرف، وكان يتَفَقَّدُ أصحابه، ويُسَأَلُ الناس عما في الناس، وكان يُحِبُّ العُنْزَ، ويجلس على الأرض، وكان يَخْصِفُ النَّعْلَ ويَرْقَعُ الثَّوْبَ وَيُلْبِسُ المَخْصُوفَ والمَرْقُوعَ، عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يَشْبَعْ من خبز الشعير، وكان يأتي على آل محمد الشهْرُ والشهران لا يُوَدِّقُ في بيته نارٌ، وكان قوتهم التمر والماء، وكان رسول الله ﷺ يَعِصِّبُ على بطنه الحجر من الجوع».

ويضاف إلى الوصف السابق ما رواه مؤرخو العرب الآخرون من أنَّ محمداً كان شديد الضبط لنفسه، كثير التفكير، صموتاً حازماً، سليم الطوية، عظيم العناية بنفسه مواظباً على خدمتها بالذات حتى بعد اغتنائه.

وكان محمد صبوراً قادرًا على احتمال المشاق ثابتًا بعيد الهمة لِّين الطبيع وديعاً، فذكر أحد خدمه أنه ظل عنده ثمانية عشرة سنة وأنه لم يُعَزِّرْهُ قط في هذه المدة ولو مرة واحدة.

وكان محمد مقاتلاً ماهراً، وكان لا يَهرب أمام المخاطر، ولا يُلْقِي بيده إلى التهلكة، وكان يعمل ما في الطاقة؛ لإنماء خلق الشجاعة والإقدام فيبني قومه.

ويقال: إن محمدًا كان قليل التعليم ونُرِجح ذلك، وإنَّ لوجَدَتْ في تأليف القرآن ترتيبًا أكثر مما فيه، ونُرِجح أيضًا أنَّ محمدًا لو كان عالِمًا ما أقام دينًا جديًّا، فالآمِيون وحدهم هم الذين يعرفون كيف يُدرِك أمرَ الأميين.

وكان محمد عظيم الفطنة سواءً أكان متعلِّمًا أم غير متعلم، وتدُرِكنا حكمته بما عَزَّته كتب اليهود إلى سليمان.

شاءت الأقدار أن يكون محمد، وقد كان شابًا، حكمًا بين أقطاب قريش الذين كادوا يقتتلون، حين اختلفوا في من يضع في أحد جوانب الكعبة ذلك الحجر الأسود الشهير الذي كان العرب يعتقدون أنَّ ملَكًا جاء به من السماء إلى إبراهيم، فقال محمد الشاب أمام الخصوم الذين أُوشكوا أن يلْجأوا إلى السلاح: «هَلْمَ إِلَيْ ثُوبًا»، فأتى به فنشره، وأخذ الحجر الأسود، ووضعه بيده فيه، ثم قال: «لِيأخذ كَبِيرٌ كُلَّ قَبْيلَةٍ بِطَرْفٍ مِنْ أَطْرافِ هَذَا الثُّوب»، فحملوه جميًعاً إلى ما يحاذِي موضع الحجر من البناء، ثم تناوله محمد من الثوب ووضعه في موضعه، وانحسم الخلاف.

وضُعْفُ محمد الوَحِيد هو حبسه الطارئ للنساء، وهو الذي اقتصر على زوجته الأولى حتى بلغ الخمسين من عمره، ولم يُخفِ محمد حُبَّه للنساء فقد قال: «حُبُّ إِلَيْيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ: الطَّيِّبُ، وَالنِّسَاءُ، وَجُعْلَتْ قَرْفَةُ عَيْنِي فِي الصَّلَادَةِ».

ولم يبالِ محمد بِسِنِّ المرأة التي يتزوجها، فتزوج عائشة وهي بنت عشر سنين، وتزوج ميمونة وهي في الحادية والخمسين من سنها.

وأطلق محمد العنان لهذا الحب، حتى إنه رأى اتفاقًا زوجة ابنه بالتبني وهي عارية، فوقع في قلبه منها شيء، فسرَّحها بعُلُمًا ليتزوجها محمد، فاغتَمَّ المسلمين، فأوحى إلى محمد، بواسطة جبريل الذي كان يتصل به يوميًّا، آياتٌ تُسُوغ ذلك، وانقلب الانتقاد إلى سكتة.

وتزوج محمد أربع نِسَوةً في سنة واحدة، وبلغ عدد من تزوجهنَّ خمس عشرة امرأة، واجتمع منهن إحدى عشرة في وقت واحد، وقد يرى الأوربي أن هذا العدد كبير، ولكن الشرقيين لا يرون إفراطًا فيه ما رأوا أنه يمكن النبي أن يتزوج نساءً أكثر من أولئك لو سمح لنفسه أن يسير على غرار الملك سليمان العظيم الذي هو أكثر ملوك التوراة حكمة. ولم يثبت، تماماً، وفاء زوجات محمد الكامل له، ويظهر أنَّ محمدًا لاقى من المكاره الزوجية ما ينذر وجوده عند الشرقيين ويكثر وقوعه لدى الأوربيين، وكانت عائشة موضوع قلق له على الخصوص، وأصبحت ذات مرة موضع حالة سوء فشهد بعصمتها

جبريل المحب للخير دائمًا، ودُوّنت شهادته في هذه المسألة الحساسة في القرآن، وحظر الشك.

وعرف محمد في آخر الأمر، ما ينجم عن زيادة عدد الزوجات من المفاسد والشرور، وحرّم محمد على المسلم أن يجمع أكثر من أربع زوجات، ولم يكن محمد هو الذي أباح تعدد الزوجات بين العرب، فتعدد الزوجات مما عرفته أمم آسية على اختلاف ملتها ونحلها قبل النبي، ولا يزال تعدد الزوجات شائعاً بين هذه الأمم.

وكان محمد قليلاً المسامحة نحو النساء مع ميئه الشديد إلينهن، ومع أن محمدًا لم يبلغ في شدّته درجة رجال التوراة وصفهنَّ في القرآن بأنهن يُيشأن في الخلية ويُخاصمن من غير سبب، وقال: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للبِّ الرجل الحازم من إحداكنَّ»، وروى أبو الفداء أن محمدًا ذكر أنه كُمل من الرجال كثير، ولم يكُل من النساء سوى أربع: امرأة فرعون: آسية، وأم عيسى: مريم، وزوجة النبي: خديجة، وبنت النبي: فاطمة.

وأولاد محمد هم من زوجته الأولى خديجة التي هي ثالثة نساء العالم الأربع الكاملات، وثلاثة ذكور من أولاده السبعة ماتوا صغاراً، ولم يبق له سوى أربع بنات تدعى أشهرهنَّ فاطمة.

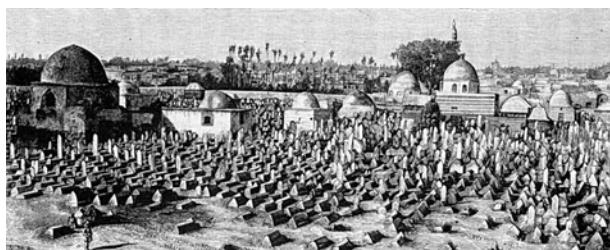
ومات محمد عن تسع أيام، وحرّم عليهنَّ الزواج بعد وفاته احتراماً لحظره مهما كان عزاؤهن.

ولم يقل محمد إنه يأتي بالخوارق مع إيمانه برسالته، وعوا المسلمين إليه خوارق كثيرة مجازاً للعنونات الشائعة القائلة إنه لا نبوة بغير خوارق، وإليك قول مسيو كاز يميرسكي الوجيز:

انشق القمر بطلبه فرقتين على مشهدٍ من الملأ، ووقفت الشمس بدعوته على الجبال والأرض حتى يؤدي على صلاة العصر بعد أن أفاق النبي من غفوته ورأسه على ركبتي علي الذي أخبره بأنه لم يؤدها حرصاً على راحته، وكان يظهر، وهو المعتمل القامة، أطول من كل شخص يسير بجانبه، وكان النور يسطع من وجهه، ويشع من بين أصابعه حين يضع يده على وجهه، وكانت الحجارة والأشجار والنباتات تسلم عليه وتنحنني أمامه، وكانت الحيوانات، كالظباء والذئاب والضباب، تكلمه، وكانت الجديان تخاطبه وهي مشوية، وكان الجن يخافونه ويؤمنون برسالته لما له من السلطان المطلق عليهم، وكان

يَرُد البَصْر لِلْعُمَى وَيُشْفِي الْمَرْضِي وَيُحْيِي الْمَوْتَى، وَأَنْزَل مِنَ السَّمَاء مَائِدَةً لِعَلِيٍّ
وَأَسْرَتْهُ حِين جَاءُوا، وَأَنْبَأَ بِأَن ذَرِيَّةَ فَاطِمَة سِينَالَهَا جُورٌ وَعُدُوانٌ، وَبِأَن مُلْكَ
بَنِي أَمِيَّة سِيدُومَ الْفَ شَهْرٍ، فَحَدَثَ كَمَا أَخْبَرَ ... إِلَخ.

وفضلاً عن ذلك فإنه أثبت لل المسلمين الصالحين أنه أسرى بـ محمد ليلاً على ظهر
حيوان خيالي يسمى البراق، والبراق دابة مُجنحة لها وجه المرأة وجسم الفرس وذنب
الطاوس، ويعتقد المسلمون أن محمدًا اخترق السماوات السبع في معراجه حتى بلغ
عرش الإله.



شكل ٤-٤: ضريح فاطمة بنت محمد في المقبرة الكبرى بدمشق (من صورة فوتوغرافية
التقطها المؤلف).

وقيل: إن محمدًا كان مصاباً بالصرع، ولم أجده في تواریخ العرب ما يبيح القطع
في هذا الرأي، وكل ما في الأمر هو ما رواه معاصره محمد، وعائشة منهم، من أنه كان
إذا نزل الوحي عليه اعتراه احتقانٌ وجهٌ فغطٍّ فغطٍّ فغشيان، وإذا عدلت هوس محمد،^٢
كل مفتون، وجده حصيفاً سليم الفكر.

ويجب عذر محمد من فصيلة المتهوسيين من الناحية العلمية كما هو واضح، وذلك
لأكثر مؤسسي الديانات، ولا كبير أهمية لذلك، فأولوا الهوس وحدهم، لا ذوق المزاج
البارد من المفكرين، هم الذين ينشئون الديانات ويقودون الناس، ومتى يبحث في عمل
المفتونين في العالم يُعترف بأنه عظيم، وهم الذين أقاموا الأديان وهدموا الدول وأثاروا
الجموع وقادوا البشر، ولو كان العقل، لا الهوس، هو الذي يسود العالم؛ لكان للتاريخ
مجرى آخر.

ولا يقف أُي قولٍ بخداع محمد ثانية أمام سلطان النقد كما يلوح لي، ومحمد كان يجد في هوسه ما يحفظه إلى اقتحام كل عائق، ويجب على من يود أن يفرض إيمانه على الآخرين أن يؤمن بنفسه قبل كل شيء، ومحمد كان يعتقد أنه مؤيد من الله، فيتقوى، ولا يرتد أمام أي مانع.

وجمع محمد قبل وفاته كلمة العرب، وخلق منهم أمَّةً واحدة خاضعة لدین واحد مطيبةً لزعيم واحد، فكانت في ذلك آيتها الكبيرة.

ومن العبث أن نبحث في: هل كانت هذه النتائج التي يبلغها محمد مما تواхَهَ قَبْلًا؟ ونحن إذ لم نؤتْ سوي علمٍ قليل عن علل ارتباط الحوادث التي نُذعن لحكمها طوعًا أو كرهاً ترانا مضطربين إلى مجازاة المؤرخين في رأيهم أن ما بلغه أعاظم الرجال، ومنهم محمد، من النتائج هو مما كانوا يسعون إلى تحقيقه، ورأيٌ مثل هذا، وإن كان لا يُسلِّم به على علاته، لا نخوض في نقشه؛ لما في ذلك من الخروج عن موضوع هذا الكتاب.

ومهما يكن من أمر فإن مما لا ريب فيه أن محمدًا أصاب في بلاد العرب نتائج لم تُصبِّ مثلها جميعُ الديانات التي ظهرت قبل الإسلام، ومنها اليهودية والنصرانية، ولذلك كان فضل محمد على العرب عظيماً، ويتجلّ هذا الفضل العظيم في جواب رسول عمر بن الخطاب إلى كسرى حين سأله عن أعمال النبي، قال هؤلاء الرسل:

فأما ما ذكرتَ من سوء حالنا فما كان أحد أسوأ حالاً منا، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع، كما تأكل الخنافس والجُعلان والعقارب والحيات، فكان نرى ذلك طعامنا، وأما المنازل فكانت ظهير الأرض، ولم نلبس إلا ما غَرَلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم، كان ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً ويُغير بعضنا على بعض، وكان أحدهُنا يدفن ابنته وهي حيَّةً كراهيةً أن تأكل من طعامنا، وكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرنا لك، فبعث الله إلينا رجلاً معروفاً نعرف نسبته ونعرف وجهه ومولده، فأرضعه خير أرضنا، وحسَّبُه خير أحسابنا، وببيته أعظم بيوتنا، وقبيلته خير قبائلنا، فقدف الله في قلوبنا التصديق له، واتباعه، فما قال لنا فهو قول الله، وما أمرنا فهو أمر الله، فقال لنا: «إن ربكم يقول: إنِّي أنا الله وحدي لا شريك لي، كنتُ إذ لم يكن شيءٌ وكل شيءٌ هالك إلا وجهي، وأنا خلقت كل شيءٍ وإليَّ يصير كلُّ شيءٍ، وإن رحمتي أدركتكم فبعثتُ إليكم هذا الرجل لأدُّلكم على السبيل التي بها أنجيكم بعد الموت من عذابي، ولأحلُّكم داري دار السلام، فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق».

وإذا ما قيست قيمة الرجال بجليل أعمالهم كان محمد من أعظم من عرفهم التاريخ، وأخذ بعض علماء الغرب يُنصفونه مُحَمَّداً مع أن التّعصب الديني أعمى بصائر مؤرخين كثريين عن الاعتراف بفضله. قال العلامة بارتلمي سنت هيلر: «كان محمد أكثر عرب زمانه ذكاء وأشدّهم تديناً وأعظمهم رأفة، ونال محمد سلطانه الكبير بفضل تفوّقه عليهم، ونَعْدُ دينه الذي دعا الناس إلى اعتقاده جزيل النَّعْمَ على جميع الشعوب التي اعتنقته».»

فما سر هذا الدين الذي خضع لحكمه ملايين من الناس؟ وما الحقائق التي أرشد العالم إليها؟ ذلك ما نبحث فيه عما قليل.

هوامش

- (١) يتحنث: يتبع.
- (٢) هذه العبارت من نبذات المستشرقين، ولا تتفق مع كرامة النبي محمد، ولا شاهد لها من الواقع.

الفصل الثاني

القرآن

(١) خلاصة القرآن

القرآن هو كتاب المسلمين المقدس، ودستورهم الديني والمدني والسياسي الناظم لسيرهم، وهذا الكتاب المقدس قليل الارتباط مع أنه أنزل وحيًا من الله على محمد، وأسلوب هذا الكتاب، وإن كان جديراً بالذكر أحياناً، خالٍ من الترتيب فاقد السياق كثيراً، ويُسهُل تفسير هذا عند النظر إلى كيفية تأليفه، فهو قد كتب تبعًا لمقتضيات الزمان بالحقيقة، فإذا ما اعترضت محمداً معضلة أتاه جبريل بوعي جديد حلاً لها، ودون ذلك في القرآن. ولم يُجمع القرآن نهائياً إلا بعد وفاة محمد، وبيان الأمر أن محمداً كان يتلقى في حياته عدة نصوص عن الأمر الواحد، فلما انقضت عدة سنين على وفاته حمل خليفته الرابع^١ على قبول نص نهائي للقرآن مقابلاً بين ما جمعه أصحاب الرسول. والقرآن مؤلف من مائة وأربع عشرة سورة، وكل سورة مؤلفة من آيات، ومحمد هو الذي يتحدث فيها باسم الله على الدوام. ويَعْدُ العرب القرآن أفصح كتاب عَرَفَهُ الإنسان، ومع ما في هذا من مبالغة شرقية نعرف بأن في القرآن آيات موزونة رائعة لم يسبقها إليها كتاب ديني آخر. وتقرب فكرة الكون الفلسفية في القرآن مما في الديانتين الساميتين العظيمتين اللتين ظهرتا قبل الإسلام، أي اليهودية والنصرانية، ورُغم أن العنوانات الآرية الفارسية أو الهندية ذات نصيبي ظاهر في النصرانية والإسلام، ونحن نرى النفوذ الآري في الإسلام ضعيفاً جدًا.

ولم يكن محمد فيلسوفاً كبيراً، أي من المفكرين المتحررين الذين يقايسون بمؤسسي البرهنية والبدئية، فهو لم يُذكر سبب الأسباب كما أنكره البدئيون، ولم يُقلِّ مثلكم بأن

الكون موجود بالضرورة ذو انحلال وتركيب دائمين، ولم يتصف بنصف ما عند مؤلفي كتب البراهمة المقدسة من الشك، ولم يدخل إلى القرآن مثل التأملات الآتية التي تجدها في كتب الوديدا: «من أين أتى هذا الكون؟ فهو من صنع خالق أم لا؟ يَعْلَمُ ذلك من ينظر من فوق الفلك، وقد لا يعلم».٢

ولكن أقوالاً مجردة مثل هذه لا تنفع غير الفلسفه، ومحمد لم يزعم أنه يكتب من أجل الفلسفه، وكان من مقاصد محمد أن يقيم دينًا سهلاً يستمرئه قومه، وقد وُفق لذلك حين أخذ من الأديان الأخرى ما يلائمهم، ولم يفُكّر محمد في إبداع دين جديد قط، وهو الذي أعلن أنه يسير على غرار من تقدمه من أنبياءبني إسرائيل من إبراهيم إلى عيسى قائلاً إن ما أوحى إليهم صحيح، والحق أن اليهودية والنصرانية والإسلام فروع ثلاثة لأصل واحد، وأنها ذات قربى وشيعة.

والدين الذي دعا النبيُّ إليه الناس سهل جدًا، وقد عَرَفَهُ محمد بالكلمات القليلة الآتية حين أتاه جبريل بزِيّ العرب وسأله عنه، وهي: «أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحجج البيت لمن استطاع إليه سبِيلًا»، وهذا التعريف الذي قبله جبريل تامٌ كما هو واضح. ويُلخص المسلم الإسلام في هاتين الكلمتين لا يُنكر إيجازهما، وهما: «لا إله إلا الله محمد رسول الله».«

وإنني أنقل من القرآن بعض آيات في كل موضوع مهم، وأرتب ما نقلته من آياته على حسب الموضوعات نظراً إلى أن ما ورد من الآيات في الموضوع الواحد مبعثر فيه اتفاقاً.

وإنني أبدأ بما جاء في القرآن عن مصدره وعن قرباه الوشيعة بالكتب المقدسة التي أنت قبله:

﴿لِكُلِّ أَجْلِ كِتَابٍ﴾

(من سورة الرعد)

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَبِّ لَهُ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

(من سورة البقرة)

القرآن

﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيًّا مُّبِينٍ * وَإِنَّهُ لِفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾

(من سورة الشعراء)

﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكُرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحْفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَّةٍ﴾

(من سورة عبس)

﴿فَلَا أُقْسُمُ بِالْخُنَسِ۝ * الْجَوَارِ الْكُنَسِ۝ * وَاللَّيْلُ إِذَا عَسَّعَ۝ * وَالصِّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ۝ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثُمَّ أَمِينٍ﴾

(من سورة التكوير)

﴿وَمَنْ قَيْلَهُ كِتَابٌ مُّوسَىٰ إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدَّقٌ لِسَانًا عَرِيبًا لَّيْلَذَرَ الَّذِينَ ظَلَّمُوا وَبُشَّرَ إِلَيْهِمُ الْمُحْسِنِينَ﴾

(من سورة الأحقاف)

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾

(من سورة الشورى)

وإله محمد واحد في السماء، واسمع تعريف النبي له:

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِذَا فَحَصَّ أَمْرًا فَإِنَّهَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

(من سورة البقرة)

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾

(من سورة البقرة)

﴿شَهَدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

(من سورة آل عمران)

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاحْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ ذَابَةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَكَيَّاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

(من سورة البقرة)

وإِلَهُ الْقُرْآنِ الْوَاحِدُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ شَدِيدًا شَدَّةً إِلَهُ التُّورَاةِ، جَبَّارٌ عَزِيزٌ ذُو انتقامٍ يَفْعُلُ مَا يَشَاءُ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعُلُ، جَاءَ فِي الْقُرْآنِ:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

(من سورة الرعد)

﴿وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالوَوْنِ^٦ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِيرٌ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسْمٌ لِذِي حِجْرٍ^٧ * أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلِقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَتَئْمُودَ الَّذِينَ جَابُوا^٨ الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفَرَّعُونَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لِيَأْمُرُ صَارِ﴾

(من سورة الفجر)

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتقامٍ﴾

(من سورة آل عمران)

القرآن

﴿وَكَذِلِكَ أَخْذُ رَبُّكَ إِذَا أَخْذَ الْقُرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾

(من سورة هود)

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ حَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ التَّقَالَ * وَيُسَيِّحُ الرَّاعِدَ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةِ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرِسِّلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾

(من سورة الرعد)

وما جاء في القرآن من نص على خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وخلق آدم والجنة، وهبوط آدم منها، ويوم الحساب مقتبسٌ من التوراة.
وإليك وصف محمد ليوم الحساب:

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ * يَوْمَ يَغْرُبُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾

(من سورة عبس)

﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَرَتْ * وَإِذَا الْبَحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخْرَتْ﴾

(من سورة الانفطار)

﴿وَالشَّمْسِ وَضَحاها * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا * وَاللَّيلِ إِذَا يَغْشَاها * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاها ۚ * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَاللَّهُمَّاهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۖ﴾

(من سورة الشمس)

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا إِلَهُ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ۖ﴾

(من سورة إبراهيم)

﴿وَنُفْخَ فِي الصُّورِ^{١٣} فَصَعَقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ
 ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورٍ رَبِّهَا
 وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَيَءَ بِالنَّبِيِّنَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ
 * وَوَفَّيْتُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا
 إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا^٤ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتَحْتُ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ حَزَنَتْهَا اللَّهُمْ يَا تُكْمِمُ
 رُسُلُّنَا مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمَكُمْ هَذَا^٥ قَالُوا بَلَى
 وَلِكُنْ حَقْتَ كَلِمَةَ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ حَالِدِينَ
 فِيهَا فَيَسِّسْ مَئْوِيَ الْمُتَكَبِّرِينَ * وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْ رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا^٦ حَتَّى
 إِذَا جَاءُوهَا وَفُتَحْتُ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ حَزَنَتْهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طَبِيعَمْ فَادْخُلُوهَا
 حَالِدِينَ﴾

(من سورة الزمر)

وفي النار ضروب العذاب كما يرى محمد، ومن ذلك:

﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا^{١٤} فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾

(من سورة محمد)

﴿وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظَلَّ مِنْ
 يَحْمُومٍ^{١٥}﴾

(من سورة الواقعة)

﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ * إِنَّهَا لِإِحْدَى الْكُبِرِ﴾

(من سورة المدثر)

وفي الجنة ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، ومن ذلك:

القرآن

﴿مَثُلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَقَوْنَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ^{١٦} وَأَنْهَارٌ مِّنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ حَمْرٍ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ﴾

(من سورة محمد)

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسْأَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلَنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبُرُّ الرَّحِيمُ﴾

(من سورة الطور)

﴿إِنَّ الْمُتَقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾

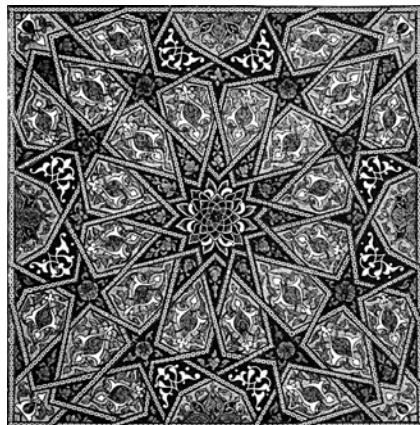
(من سورة القمر)

﴿مُتَكَبِّئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرِقٍ^{١٧} وَجَنَى الْجَنَّاتِ دَانَ * فَبِأَيِّ الْأَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الْطَّرِيفِ لَمْ يَطْمَئِنَّ إِنْسٌ قَبْلُهُمْ وَلَا جَانُ * فَبِأَيِّ الْأَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَانُهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ الْأَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ * فَبِأَيِّ الْأَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ * فَبِأَيِّ الْأَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَامَاتٍ^{١٩} * فَبِأَيِّ الْأَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَاحَتَانِ^{٢٠} * فَبِأَيِّ الْأَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَانٌ * فَبِأَيِّ الْأَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ حَيْرَاتٌ حِسَانٌ * فَبِأَيِّ الْأَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

(من سورة الرحمن)

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَحْضُودٍ^{٢١} * وَطَلْحٌ مَنْضُودٌ * وَظِيلٌ مَمْدُودٌ * وَمَاءٌ مَسْكُوبٌ * وَفَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ * لَا مَقْطُوعَةٌ وَلَا مَمْنُوعَةٌ * وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾

(من سورة الواقعة)



شكل ١-٢: من زخارف مصحف قديم في القاهرة (من إبر).

وكان محمد كثير المسامحة لليهود والنصارى خلافاً لما يُظن، لا للملحدين ولا للمشركين الذين يُوصي بمقاتلتهم، وإليك قوله عنهم:

﴿إِنَّ شَرَ الدُّوَابِ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

(من سورة الأنفال)

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَا وَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

(من سورة يونس)

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾

(من سورة البقرة)

﴿وَقَفَّيْنَا ٢٢ عَلَى آتَارِهِمْ يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى

القرآن

وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُنْقَذِينَ * وَلِيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا
أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٣﴾

(من سورة المائدة)

﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾

(من سورة المزمل)

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ
لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾

(من سورة الحج)



شكل ٢-٢: اسم محمد كما جاء في كتابة قديمة بجامع ابن طولون أظهرها مسيو مارسل.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئَينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

(من سورة البقرة)

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزَلَ إِلَيْهِمْ خَاتِمُ
اللَّهِ لَا يَشْرُكُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثُمَّاً قَبِيلًاٰ أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ
الْحِسَابِ﴾

(من سورة آل عمران)

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا
آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾

(من سورة العنكبوت)

ولم أجِد في القرآن ما يُعبَّر به الشرقيون، وما يمكن أن يُعبَّر به كذلك، كثير من العلماء المعاصرین من الجبرية المزعومة فيُجَوِّزُ أن يُعد به محمد أكثر جبريةً مما في التوراة، وإليك، مع ذلك، ما استطعت أن أجده جوهريًّا في القرآن حول هذه المسألة:

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

(من سورة التكوير)

﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَاٰ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ
الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقُتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾

(من سورة آل عمران)

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمَّىٰ عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ
تَمْرُونَ﴾

(من سورة الأنعام)

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجْلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾

(من سورة الأعراف)

القرآن

﴿مَا تَسْقِيْقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾

(من سورة المؤمنون)

﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾

(من سورة سباء)

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُثْنَى وَلَا تَضْعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنَقْصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾

(من سورة فاطر)

﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخْرُطَ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

(من سورة نوح)

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾

(من سورة التغابن)

﴿وَمَنْ أَحْسَنْ دِيَنًا مِّمْنَ أَسْلَمَ وَجْهَهُ اللَّهُ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةً إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾

(من سورة النساء)

(٢) فلسفة القرآن — انتشاره في العالم

إنما رَجَعْنا القرآن إلى عقائده الرئيسية أمكننا عُدُّ الإسلام صورةً مبسطةً عن النصرانية، ومع ذلك فإن الإسلام يختلف عن النصرانية في كثير من الأصول، ولا سيما في التوحيد المطلق الذي هو أصل أساسى، وذلك أن الإله الواحد، الذي دعا إليه الإسلام، مهيمنٌ على كل شيء، ولا تحفُّ به الملائكة والقديسون وغيرهم من يفرض تقديرهم، وللإسلام وحده أن يباهـي بأنه أول دين أدخل التوحيد إلى العالم.

وتُشَتِّق سهولة الإسلام العظيمة من التوحيد المحمض، وفي هذه السهولة سُر قوة الإسلام، والإسلام، وإدراكه سهلٌ، خالٍ مما نراه في الأديان الأخرى ويأبه الذوق السليم، غالباً، من المتناقضات والغوامض، ولا شيء أكثر وضوحاً وأقل غموضاً من أصول الإسلام القائلة بوجود إله واحد، وبمساواة جميع الناس أمام الله، وببعضة فروض يدخل الجنة من يقوم بها، ويدخل النار من يعرض عنها، وإنك إذا ما اجتمعت بأي مسلم من أية طبقة، رأيته يعرف ما يجب عليه أن يعتقد ويسردُ لك أصول الإسلام في بعض كلمات بسهولة، وهو بذلك على عكس النصراني الذي لا يستطيع حديثاً عن التثليث والاستحالة وما ماثلها من الغوامض من غير أن يكون من علماء الالهوت الواقفين على دقائق الجدل.

وساعد وضوح الإسلام البالغ، وما أمر به من العدل والإحسان كل المساعدة على انتشاره في العالم، وتفسّر بهذه المزايا سبب اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للإسلام، كالمصريين الذين كانوا نصارى أيام حكم قياصرة القسطنطينية فأصبحوا مسلمين حين عرفوا أصول الإسلام، كما نفسّر السبب في عدم تنصر أية أمّة بعد أن رضيت بالإسلام دينًا، سواء كانت هذه الأمّة غالبة أم مغلوبة.

ويجب على من يرغب في الحكم بفائدة كتاب ديني لا ينظر إلى قواعده الفلسفية الضعيفة على العموم، بل إلى مدى تأثير عقائده، والإسلام إذا ما نظر إليه من هذه الناحية وجد من أشد الأديان تأثيراً في الناس، وهو، مع مماثلته لأكثر الأديان في الأمر بالعدل والإحسان والصلة ... إلخ، يعلم هذه الأمور بسهولة يستمرئها الجميع، وهو يعرف، فضلاً عن ذلك، أن يصب في النفوس إيماناً ثابتاً لا تزعزعه الشبهات.

ولا ريب في أن نفوذ الإسلام السياسي والمدني كان عظيماً إلى الغاية، فقد كانت بلاد العرب قبل محمد مؤلفةً من إمارات مستقلة وقبائل متقاتلة دائمًا، فلما ظهر محمد ومضى على ظهوره قرنٌ واحد كانت دولة العرب ممتدة من الهند إلى إسبانيا، وكانت الحضارة تستطع بنورها الوهاج في جميع المدن التي حفقت راية النبي فوقها.

والإسلام من أكثر الديانات ملائمة لاكتشافات العلم، ومن أعظمها تهذيباً للنفوس وحملًا على العدل والإحسان والتسامح، والبدھية، وإن فاقت جميع الأديان السامية فلسفةً، تراها مضطرة أن تحول تحولاً تاماً لاستمرئها الجموع، وهي لا شك، دون الإسلام في شكلها المعذّل هذا.

وأجرت حضارةُ العرب، التي أوجدها أتباع محمد، على سنة جميع الحضارات التي ظهرت في الدنيا: نشوء فاعتلاء فهبوط فموت، ومع ما أصاب حضارة العرب من الدُّثور،

كالحضارات التي ظهرت قبلها، لم يَمْسِّ الزَّمْنُ دِينَ النَّبِيِّ الَّذِي لَهُ مِنَ النَّفَوذِ مَا لَهُ فِي الْمَاضِيِّ، وَالَّذِي لَا يَزَالُ ذَا سُلْطَانًا كَبِيرًا عَلَى النُّفُوسِ، مَعَ أَنَّ الْأَدِيَانَ الْأُخْرَى الَّتِي هِيَ أَقْدَمُ مِنْهُ تَخْسِرُ كُلَّ يَوْمٍ شَيْئًا مِنْ قُوَّتها.

ويدين بالإسلام في الوقت الحاضر أكثر من مائة مليون شخص، واعتنقته جزيرة العرب ومصر وسوريا وفلسطين وأسية الصغرى وجاء كجزء كبير من الهند وروسية والصين، ثم جميع إفريقيا إلى ما تحت خط الاستواء تقريبًا.

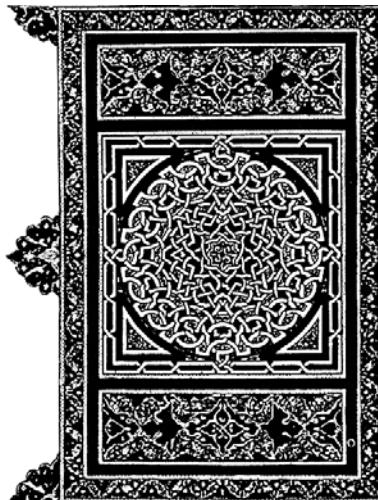
وتَجْمَعُ بَيْنَ مُخْتَلَفِ الشَّعُوبِ الَّتِي اتَّخَذَتِ الْقُرْآنَ دُسْتُورًا لَهَا وَحْدَةً لِلْلُّغَةِ وَالصَّلَاتِ الَّتِي يُسْفِرُ عَنْهَا مَجِيءُ الْحَجَّاجِ إِلَى مَكَةَ مِنْ جَمِيعِ بَلَادِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ.

وَتَجْبُ عَلَى جَمِيعِ أَتَبَاعِ مُحَمَّدٍ تَلَوُّهُ الْقُرْآنَ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بَقْدَرِ الْإِمْكَانِ، وَاللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ هِيَ، لِذَلِكَ، أَكْثَرُ لِغَاتِ الْعَالَمِ اِنْتَشَارًا عَلَى مَا يُحْتَمَلُ، وَعَلَى مَا بَيْنَ الشَّعُوبِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنَ الْفَروُقِ الْعَنْصُرِيَّةِ تَرَى بَيْنَهَا مِنَ التَّضَامِنِ الْكَبِيرِ مَا يُمْكِنُ جَمْعُهَا بِهِ تَحْتَ عَلَمَ وَاحِدٍ فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ.

وَقَضَى أَعْدَاءُ إِلْسَامٍ مِنَ الْمُؤْرِخِينَ الْعَجَبَ مِنْ سُرْعَةِ اِنْتَشَارِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ فَعَزَّزُوهَا إِلَى مَا زَعَمُوهُ مِنْ تَحَلُّلِ مُحَمَّدٍ وَبَطْشِهِ، وَيُسْهِلُ عَلَيْنَا أَنْ نُثْبِتَ أَنَّ هَذِهِ الْمَزَاعِمُ لَا تَقْوِمُ عَلَى أَسَاسٍ، فَنَقُولُ: إِنَّ مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ يَجِدُ فِيهِ مَا فِي الْأَدِيَانِ الْأُخْرَى مِنَ الْصَّرَامةِ، وَإِنَّ مَا أَبَاهَ الْقُرْآنَ مِنْ تَعْدِيدِ الْزَّوْجَاتِ لَمْ يَكُنْ غَرِيبًا عَلَى الشَّعُوبِ الْمُسْلِمَةِ الَّتِي عَرَفَتْهُ قَبْلَ ظَهُورِ مُحَمَّدٍ، وَإِنَّ هَذِهِ الشَّعُوبَ لَمْ تَجِدْ نَفْعًا جَدِيدًا فِي الْقُرْآنِ لِهَذَا السَّبَبِ.

وَمَا قِيلَ مِنْ دَلِيلٍ حَوْلَ تَحَلُّلِ مُحَمَّدٍ نَفْضَهُ الْعَالَمَةُ الْفَιلِسُوفُ بِيْلُ مِنْذَ زَمِنِ طَوِيلٍ، وَقَالَ بِيْلُ، بَعْدَ أَنْ أَثْبَتَ أَنَّ مَا أَمْرَ النَّبِيِّ بِالْتَّزَامِ مِنْ قِيُودِ الصَّيَامِ وَتَحْرِيمِ الْخَمْرِ وَمِبَادِئِ الْأَخْلَاقِ هُوَ أَشَدُ مَا أَمْرَ بِهِ النَّصَارَى:

إِنَّ مِنَ الضَّلَالِ، إِذْنَ، أَنْ يُعَزِّي اِنْتَشَارَ إِلْسَامِ السَّرِيعِ فِي أَنْحَاءِ الدِّنِيَا إِلَى أَنَّهُ يُلْقِي عَنْ كَاهِلِ الْإِنْسَانِ مَا شَقَّ مِنَ التَّكَالِيفِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحةِ، وَأَنَّهُ يُبَيِّحُ لِهِ الْبَقَاءَ عَلَى سَيِّئِ الْأَخْلَاقِ، وَقَدْ دُونَ هُوَنَجَرْ قَائِمَةً طَوِيلَةً بِالْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ وَالْأَدَابِ الْحَمِيدَةِ عَنْ الْمُسْلِمِينَ، فَأَرَى، مَعَ الْقَصْدِ فِي مَدْحِ إِلْسَامٍ، أَنَّ هَذِهِ الْقَائِمَةَ تَحْتَوِي أَقْصَى مَا يُمْكِنُ أَنْ يُؤْمِرَ بِهِ إِنْسَانٌ مِنَ التَّحْلِي بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَالابْتِعَادِ عَنِ الْعَيُوبِ وَالْأَثَمَاتِ.



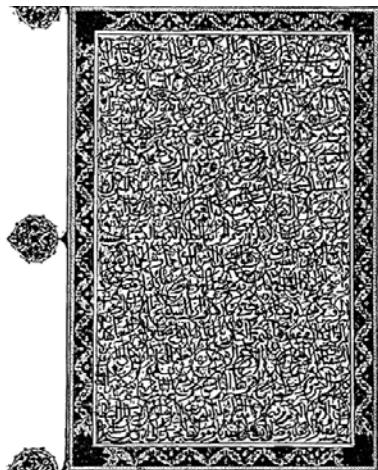
شكل ٣-٢: صوان مصحف قديم في مكتبة الإسکوريال (المتحف الإسباني).

ومما نبَّهَ إليه العلامة بيل أن ملاد الجنة التي وُعِدَ بها المسلمين لا تزيد على ما وُعد به النصارى في الإنجيل، جاء في الإنجيل: «لم تَرَ عِنْنِي ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب إنسان ما أُعده الله للذين يُحِبُّونَهُ».»

وسيرى القارئ، حين نبحث في فتوح العرب وأسباب انتصاراتهم، أن القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن، فقد ترك العرب المغلوبين أحراً في أديانهم، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النصرانية الإسلام، واتخذوا العربية لغة لهم؛ فذلك لما رأوا من عدل العرب الغالبين ما لم يروا مثله من سادتهم السابقين، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل.^{٢٣}

وقد أثبت التاريخ أن الأديان لا تُفرض بالقوة، فلما قهر النصارى عرب الأندلس فضَّل هؤلاء القتل والطرد عن آخرهم على ترك الإسلام.

ولم ينتشر القرآن بالسيف إذن، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدتها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخراً كالترك والمغول، وبلغ القرآن من الانتشار في الهند، التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل، ما زاد معه عدد المسلمين على خمسين مليون



شكل ٤-٢: آخر صفحة من مصحف قديم في مكتبة الإسكوريال (المتحف الإسباني).

نفس فيها، ويزيد عدد مسلمي الهند يوماً في يوماً مع أن الإنكليز، الذين هم سادة الهند في الوقت الحاضر، يجهّزون البعثات التبشيرية ويرسلونها تباعاً إلى الهند لتنصير مسلميها على غير جدوى.

ولم يكن القرآن أقل انتشاراً في الصين التي لم يفتح العرب أيّ جزء منها قط، وسترى في فصل آخر سرعة الدعوة الإسلامية فيها، ويزيد عدد مسلميها على عشرين مليوناً في الوقت الحاضر.

وليس فيما يوصم به الإسلام من الجبرية ما يزيد خطراً على ما رددنا عليه، وليس في آي القرآن التي ذكرناها آنفاً من الجبرية ما ليس في كتب الأديان الأخرى كالتوراة مثلاً، وهناك فلاسفة وعلماء لا هم يعترفون بأن مجرى الحوادث تابع لسنة لا تتبدل، قال المصلح الديني القدير لوثر: «يُحتاج على اختيار الإنسان وإرادته بنصوص الكتاب المقدس التي لا تُحصى، وإن شئت فقل بكل ما ورد في الكتاب المقدس.»

وكتب جميع الأمم الدينية مفعمه بالجبرية التي يسميهما القدماء بالقدر، ووضع القدماء القدر، الذي لا رادًّ لحكمه، على رأس كل أمر عاديين إياه سلطةً مطلقةً لا مناص

للناس والآلهة من إطاعتها، وحاول إديب، غير جدوى، أن يُصرّع إلى هاتف الغيب الذي أخبره بأنه سيقتل أبياه ويتزوج أمه فلم يستطع رداً لحكم القدر الجبار.

ولم يكن محمد، إذن جبرياً أكثر من مؤسسي الأديان الذين ظهروا قبله، ولم يسبق محمد في جبريته علماء الوقت الحاضر الذين أيدوا مع العلامة لاپلاس رأي الفيلسوف ليينتر في القول: «إنه إذا وُجد ذكاءً يَعرف، لوقتٍ، جميع قوى العالم وموضع ما فيه من الموجودات، ويستطيع أن يحلها، ويحيط بمحركات أعظم أجرام العالم وأصغر ذرّاته، فإنه لا يبقى عنده شيء غير مُعيّن، ويصبح الماضي والمستقبل حالاً في نظره».

والجبريةُ الشرقية التي قامت عليها فلسفة العرب، ويستند إليها كثير من مفكري العصر الحاضر هي نوع من التسليم الهادئ الذي يعلم به الإنسان كيف يخضع لِحُكم القدر من غير تبُّرٍ وملأومة، وتسلیم مثل هذا هو وليد مزاج أكثر من أن يكون وليد عقيدة، وقد كان العرب جبريين بمزاجهم قبل ظهور محمد، فلم يكن لجبريتهم تأثيرٌ في ارتقاءهم كما أنها لم تؤدِّ إلى انحطاطهم.

هوماش

- (١) الصحيح أن الخليفة الثالث هو الذي فعل ذلك، فكان عزوه إلى الخليفة الرابع سهواً من المؤلف (المترجم).
- (٢) أحيل القارئ الذي يرغب في الوقوف على فلسفة بدھة، وتاريخ تطور الأديان إلى المجلد الثاني من كتابي: «الإنسان والمجتمعات»، فيه يجد أن البدھية، التي لها من الأتباع ما للأديان الأخرى مجتمعة، قائمة على إنكار كل الوهية إنكاراً تاماً، وأنها تدعى الناس، مع ذلك، إلى التحلي بأطيب الأخلاق، كما اعترف به أحد علماء النصرانية المتشددين المشهورين مكس مولر الذي قال: «دعا إلى الأخلاق الفاضلة، قبل ظهور المسيح، أناساً اعتقدوا أن الآلهة أشباح باطلة فلم يقيموا هيكلًا حتى للرب غير المعروف». [لقد رجع المؤلف عن رأيه هذا في كتابه «حضارات الهند» الذي ترجمناه إلى العربية، فقال بعد أن ساح في الهند: إن البدھية تقول بتعدد الآلهة] (المترجم).
- (٣) الخنس: الكواكب السيارة التي ترجع إلى أول البرج، وسميت خنساً لتأخرها.
- (٤) الجوار الكنس: الكواكب السيارة الغيب؛ لأنها تجري مع الشمس والقمر، وترجع إلى أول البرج حتى تخفي تحت ضوء الشمس.
- (٥) عسعس: أقبل بظلماته أو أدب، وهو المناسب لقوله: «إذا تنفس».

- (٦) الشفع: ليالي ذي الحجة العشر، ووترها عرفة، والشفع هو الزوج، والوتر هو الفرد.
- (٧) الحجر: العقل.
- (٨) جابوا الصخر: قطعوه.
- (٩) الصاحبة: القيامة، لأنها تصح الآذان أي تصمها.
- (١٠) طحاهما: بسطها.
- (١١) دساهما: أخفاها.
- (١٢) مقرنinin في الأصفاد: مشدودين في القيود.
- (١٣) الصور: البوق.
- (١٤) الحمييم: الماء الحار لا يستساغ شربه.
- (١٥) يحموم: أسود، أي دخان مكفره.
- (١٦) غير آسن: غير متغير الرائحة والطعم.
- (١٧) إستبرق: الدبياج الثixin النسيج، والدبياج ما كان سداه ولحمته حريراً.
- (١٨) لم يطمئنون: لم يمسسهن.
- (١٩) مدهامتان: سوداوان.
- (٢٠) نضاختان: فوارتان.
- (٢١) مخصوص: لا شوك فيه.
- (٢٢) قفينا على آثارهم: أتبعنا وأرسلنا.

(٢٢) رأينا من آي القرآن التي ذكرناها آنفاً أن مسامحة محمد لليهود والنصارى كانت عظيمة إلى الغاية، وأنه لم يقل بمثلها مؤسسو الأديان التي ظهرت قبله كاليهودية والنصرانية على الخصوص، وسنرى كيف سار خلافه على سنته، وقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء أوربة المرتابون أو المؤمنون القليلون الذين أنعموا النظر في تاريخ العرب، والعبارات الآتية التي أقتطفها من كتب الكثirين منهم تثبت أن رأينا في هذه المسألة ليس خاصاً بنا، قال روبرتسون في كتابه «تاريخ شارلوك»: «إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وإنهم، مع امتشاقهم الحسام نشراً لدينهم، تركوا من لم يرغبو فيه أحرازاً في التمسك بتعاليمهم الدينية». وقال ميشود في كتابه «تاريخ الحروب الصليبية»: «إن القرآن الذي أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وقد ألغى البطاركة والرهبان وخدمهم

من الضرائب، وحرَّمَ محمد قتل الرهبان؛ لعكوفهم على العبادات، ولم يمس عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس، فذبح الصليبيون المسلمين وحرقوا اليهود بلا رحمة وقتما دخلوها»، وقال الراهب ميشود في كتابه «رحلة دينية في الشرق»: «ومن المؤسف أن تقتبس الشعوب النصرانية من المسلمين التسامح الذي هو آية الإحسان بين الأمم، واحترام عقائد الآخرين، وعدم فرض أي معتقد عليهم بالقوة..».

الفصل الثالث

فتواحُّ العرب

(١) حال العالم في زمن محمد

كان يتنازع سيادة العالم حين وفاة محمد دولتان عظيمتان: إحداهما: دولة الروم التي كانت عاصمتها القسطنطينية، وكانت صاحبة السلطان على جنوب أوربة والشرق الأدنى وشمال إفريقيا المتند من البحر الأحمر إلى المحيط الأطللنطي، والأخرى: دولة الفرس التي كان سلطانها ممتدًا إلى مكان بعيد من آسيا، وكان شمال أوربة وغربها فريسة للبرابرة الذين كانت أمرهم فوضى، وكانوا يتقاتلون على أسلاب الرومان وغذائهم. وكانت دولة الروم التي نهكتها محارباتها لدولة الفرس، والتي كانت تعاني عوامل الانحلال الكثيرة، في دور الانحطاط، ولم تكن غير هيكلٍ نَخِرٍ يكفي أقلًّ صدمةً لتداعيه. وكذلك كانت علائم الانقضاض باديةً على دولة الفرس التي أوهنتها تلك الحروب أيضًا.

وأثقل الحكم الروماني كاهل مصر وإفريقيا، وكانت القسطنطينية تستغل شعوبها من غير أن تحسن سياستهما، وكانت الاختلافات الدينية ومظالم الحكام تقوض دعائهما.

ولم تكن أوربة أحسنَ حالًا، فكان الحكم في إسبانيا، التي ستتصبح مقراً لدولة زاهرة تحت الحكم العربي، بيد القوط المسيحيين الذين لم يستطعوا أن يتمدنا، والذين أكلتهم الانقسامات الدينية فاستغاثوا بقيصر الروم، فلم يُعْتَمْ حلفاؤهم أن صاروا أعداء يجب محاربتهم، وفقدت روما الإيطالية نفوذها القديم، وأصبح اسم الروماني محترقاً في كل مكان، وصار البرابرة يتناوبون السيطرة عليها.

ولم تكن الفوضى ظاهرةً في مكان ظهورها في سوريا التي هي أول قطر استولى عليه العرب، وكان هُم المدن السورية، التي لم تنلها أيدي التخريب في الحروب الرومية الفارسية الدائمة، والتي لم تزل على شيء من النضارة، مقتصرًا على المعاملات التجارية والمجادلات الدينية، ولم تبال بما كان يقع خارج أبوابها، وكانت تُهَجِّر أريافها، ولم يكترث أهلوها لشيء من المبادئ القومية، وكانوا مستعدين لتلبية نداء أي فاتح يُعْدُ بإطعامهم، وكان الأристوocratesيون من سلالة فاتحي سوريا، الذين أفسدهم تواليهم والأمم الآسيوية، قد انحدروا إلى الحضيض فخسروا قيمتهم ونفوذهم.



شكل ١-٣: ثلات قطع من نقود الخلفاء الأولين (أخذت صور هذه النقود والنقوش التي تليها من مجموعة مسيو مارسيل).

ونحن، عندما بحثنا في كتابنا السابق عن مختلف العوامل التي تؤثّر في تطور المجتمعات، قلنا: إن المثل الأعلى هو من أهمها، وذكرنا أن عبادة الوطن والمعتقد الديني وحب الاستقلال والمجد والأمة والمدنية ... وغيرها من المثل العليا هي من الخيالات من

الناحية الفلسفية، وأن مثل هذه الخيالات هي التي تقود الناس دائمًا، وأن أمر النُّظم السياسية والاجتماعية التي وَقَتَ البشر حتى الآن قد استقام بفضلاها، وأن عظمة الرومان قامت على عبادة روما على الخصوص، وأن روما كانت سيدة العالم حين كان الروماني يُضَحِّي بنفسه في سبيل زيادة سلطانها.

وكانت الأمم الإغريقية الرومانية والآسيوية، وقت ظهور محمدٍ، قد فَقَدَتْ مُثُلَّها العليا منذ زمن طويل، فلم يبقَ لحبِّ الوطن، وعبادة الآلهة أثرٌ في نفوس أبنائها، وكانت الآلة كلَّ ما في قلوب هؤلاء الأبناء، والأثرُ إذا كانت دليلَ قومٍ عجزوا عن مقاومة قوم آخرين مستعدين للتضحية بأنفسهم في سبيل معتقداتهم.

وقد استطاع محمدٌ أن يُبْدِعَ مثلاً عاليًا قويًا للشعوب العربية التي لا عهد لها بالمثل العليا، وفي ذلك الإبداع تجلَّى عظمة محمد على الخصوص، وذلك المثلُ الأعلى الجديد هو من الخيالات لا ريب، شأنُ المثل العليا التي ظهرت قبله، ولكنك لا تَجِدُ من الحقائق ما هو قويٌّ قوَّةً هذه الخيالات، ولم يتردَّ أتباع النبي في التضحية بأنفسهم في سبيل هذا المثل الأعلى طامعين في الجنة التي لا يَعْدِلُها شيءٌ من متعة هذه الحياة الدنيا.

ولم يلبَّث الإسلام أن منَّ على جميع الشعوب التي خضعت لسلطانه مثلَ ما منَّ به عظمةُ روما على الرومان، فمنح تلك الشعوب مصالح مشتركةً، وأمامًا مشتركةً موجَّهاً بذلك جهودها نحو غرض واحد مع أنها كانت ذات مصالح مختلفةٍ قبل ذلك.



شكل ٢-٣: قطعة من نقود الخليفة الأموي هشام، بدمشق (٧٢٥ / هـ ١٠٨).

وإن وحدة المصالح والمعتقدات، وإن كانت تؤدي إلى تجانس الأمة، لا تعطيها من الوسائل ما تقدر به على الفتح العالميّ، ولو كانت أركان العالم متداعيةً كالدولة الإغريقية الرومانية والدولة الفارسية في زمن ظهور محمد، فقد كانت تانك الدولتان مرهوبتين



شكل ٣-٣: قطعة من نقود الخليفة المهدى (١٦٢ هـ / ٧٧٩ م).



شكل ٣-٤: قطعة من نقود الخليفة المأمون (٢١٨ هـ / ٨٣٣ م).

مع ما كان يbedo من وهنهم، فكان لا بد للآمة التي تريد محاربتهم من أن تكون ذات صفاتٍ حربية عظيمة، فضلاً عن معتقداتها التي توجّه جهودها إلى غرض واحد، ولم يتحجّر العرب إلى ما يتطلبه مثلُ هذا العمل الجليل من الشجاعة وحبّ القتال ما ورثهما العرب أباً عن جدّ، مضافاً ذلك إلى ما نشأ عن إيمان العرب الجديد من حرصهم على الشهادة حبّاً للجنة التي وُعدوا بها.

ولكن العرب كانوا يجهلون فنَّ الحرب جهلاً تاماً، ولا تقوم الشجاعة مقام هذا الفن، وكان اقتتال العرب فيما بينهم من نوع اقتتال البربرية الذين ينتقضون على أعدائهم بلا نظام، ولا يحارب كلُّ واحد إلا من أجل نفسه، وكان غير هذا أمرُ الفرس والروم الذين كانت معرفتهم لفنَّ الحرب عظيمةً جدًا كما ظهر من اشتباكهم الأول بالعرب، ولم يلبث العرب أنْ علِمُوا من الهزائم التي أصابتهم في سوريا ما كان يُعوزُهم، وأنْ اقتبسوا من قاهريهم كثيراً من شؤون الحرب، وأخذوا عن التحق بهم من الرجال الذين اجتبذبهم

الإيمان الجديد ما كانوا يجهلون من فنون تعبئة الجيش والنظام وأعدة الحرب، وقد تم استعدادهم في بضع سنين، وقد بعثت الروم حين حاصر العرب دمشق، ورأواهم مجهزين بمثل ما كان عندهم من الآلات الحربية الكاملة الجيدة.

(٢) طبيعة فتوح العرب

لم تقل براءة الخلفاء الأولين السياسية عن براعتهم الحربية التي اكتسبوها على عجل، وذلك أنهم اتصلوا منذ الواقع الأولى بسكان البلاد المجاورة الأصليين الذين كان يبغي عليهم قاهرهم منذ قرون كثيرة، والذين كانوا مستعدين لأن يستقبلوا بترحاب وحبور أي فاتح يخفف وطأة الحياة عنهم، وكانت الطريق التي يجب على الخلفاء أن يسلكوها واضحة، فعرفوا كيف يحِّمِّون عن حمل أحد بالقوة على ترك دينه، وعرفوا كيف يبتعدون عن إعمال السيف فيمن لم يُسْلِم، وأعلنوا في كل مكان أنهم يحترمون عقائد الشعوب وعُرْفَها وعاداتها، مكتفين بأخذهم، في مقابل حمايتها، جزية زهيدة تقل عما كانت تدفعه إلى سادتها السابقين من الضرائب.

وكان العرب، قبل أن يَسْكُعوا إلى فتح بلد، يرسلون رُسُلاً حاملين إليه شروطاً للوفاق، وتکاد هذه الشروط تكون مماثلةً للشروط التي عرضها عمرو بن العاص على أهالي غزة حين حصاره لها في السنة السابعة عشرة من الهجرة، وللشروط التي عُرِضت على المصريين وأهل فارس، وتلك الشروط التي عرضها عمرو بن العاص هي — كما رواه المؤرخ العربي — المكين، ما يأتي: «أمرنا صاحبنا أن نقاتلكم إلى أن تكونوا في ديننا فتكونوا إخوتنا، ويلزمكم ما يلزمنا فلا نتعرّض إليكم، فإن أبيتم أعطيتكم الجزية في كل عام أبداً ما بقينا وبقيتم، ونقاتل عنكم من ناوأكم إن تعرّض إليكم في وجه من الوجوه، ويكون لكم عهْد علينا، فإن أبيتم فليس بيتنا وبينكم إلا السيف فنقاتلكم حتى تفيتوا إلى أمر الله».

ويُثْبِت لنا سلوك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في مدينة القدس مقدار الرفق العظيم الذي كان يعامل به العرب الفاتحون الأمم المغلوبة، والذي ناقشه ما اقترفه الصليبيون في القدس بعد بضعة قرون مناقضةً تامة، فلم يُرِد عمر أن يدخل مدينة القدس معه غير عدد قليل من أصحابه، وطلب من البطريرك صفرونيوس أن يرافقه في زيارته لجميع الأماكن المقدسة، وأعطى الأهلين الأمان، وقطع لهم عهداً باحترام كنائسهم وأموالهم، وبتحريم العبادة على المسلمين في بِيعهم.^١



شكل ٣-٥: قطعة من نقود ابن طولون (١٥٧٠ هـ / ٨٧٠ م).



شكل ٣-٦: قطعة من نقود الخليفة الرضي (٩٣٣ هـ / ٥٢٧ م).

ولم يكن سلوك عمرو بن العاص بمصر أقلَّ رفْقاً من ذلك فقد عَرَض على المصريين حرية دينية تامة، وعدلاً مطلقاً واحتراماً للأموال وجزيءاً سنوية ثابتة لا تزيد على خمسة عشر فرنغاً عن كلِّ رأس بدلاً من ضرائب قياصرة الروم الباهظة، فرضيَّ المصريون طائعين شاكرين بهذه الشروط دافعين للجزية سلفاً، وقد بالغ العرب في الوقف عند حد هذه الشروط، والتقييد بها؛ فأحببهم المصريون الذين ذاقوا الأمرَّين من ظلم عمال قياصرة القسطنطينية النصارى، وأقبلوا على اعتناق دين العرب ولغتهم أيمَّا إقبالاً. ونتائج مثل هذه لا تُنال بالقوة كما قلت غير مرَّة، ولم يَظْفِر بمثلها من ملَك مصر من الفاتحين قبل العرب.

والفتوح العربية طابُّ خاص لا تجد مثَلَه لدى الفاتحين الذين جاءوا بعد العرب، وبيانُ ذلك أنَّ البابرة الذين استولوا على العالم الروماني والتركَ وغيرَهم، وإن استطاعوا أن يقيموا دولَّاً عظيمة، لم يؤسِّسوا حضارة، وكانت غاية جهودهم أن يستفيدوا بمشقةٍ من حضارة الأمم التي قهروها، وعكُسُ ذلك أمرَّ العرب الذين أنشأوا بسرعةٍ حضارةً جديدةً كثيرةً الاختلاف عن الحضارات التي ظهرت قبلها، والذين تمكنا من اجتذاب



شكل ٧-٣: قطعتان من نقود الخليفة الفاطمي المستنصر (٤٤٢ و ٥٤٦ هـ / ١٠٥٠ و ١٠٧٢ م).



شكل ٨-٣: قطعة من نقود صلاح الدين ضربت بدمشق سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م وعلى أحد وجهيها اسم الخليفة العباسي ببغداد.

أمم كثيرة إلى دينهم ولغتهم فضلاً عن حضارتهم الجديدة، واتصلت بالعرب أمم قديمة، كشعوب مصر والهند، واعتنقت معتقدات العرب وعاداتهم وطبائعهم وفنّ عمارتهم، واستولت بعد ذلك الدور أمم كثيرة على الأقطار التي فتحها العرب فظلّ نفوذ العرب فيها ثابتاً، ويلوح لنا رسمٌ هذا النفوذ إلى الأبد في جميع البقاع الآسيوية والإفريقية التي دخلوها، والتي تمتد من مراكش إلى الهند، والإسبان وحدهم هم الذين استطاعوا أن

يتخلصوا من الحضارة العربية، ولكنهم لم يصنعوا هذا إلا ليقعوا في الانحطاط العُضال كما يأتي بيانه.

(٣) خلفاء محمد الأولون

لم يكن عمل محمد حين وفاته في سنة ٦٣٢ م في غير دور التكوين، وكانت ضرورة الأخطار تندِّر بزواله إلى الأبد، وكانت وحدة بلاد العرب السياسية التي تَمَّت على يده نتيجةً الوحدة الدينية التي أنشأها، وكان من الممكن أن تنقضِّ هذه الوحدة الدينية بانقاضِّه موجدها.

أجل، استطاع العرب أن يدينوا لرسولِ الله، ولكن لم يدلَّ شيءٌ على وجوب نصب خليفةٍ بعده، وهناك قبائل كثيرة، ضحَّت بحريتها ونزعَت ما فيها من حقد على أي سلطان إجابةً لدعوة رسول الله، لم تَرَ أن تخضع لحكم خلفاء لم يُحدِّث عنهم حتى يَدعُوا ممارسةً مثلِ سلطانه.



شكل ٩-٣: قطعة أخرى من نقود صلاح الدين.

وكانت هناك أخطارٌ أخرى أعظمٌ من تلك تُهدِّدُ بخنقِ عمل محمد في مهده، فقد ظهر متهوسون كثيرون هُزِّهم ما نال محمد من التوفيق، ورأوا أن يَدعُوا النبوة أيضًا، فاستطاع أحدهم أي يجعل سكان نصف اليمن من أتباعه، ولو لا قتل بعض المؤمنين إياه لخسر الإسلام أحسن ولاياته، واقتصر متهوسٌ آخر على إضافة بعض السُّور إلى القرآن، وبلغ من النفوذ، لزمَّ معين، ما يقرب من نفوذ الخلفاء الأولين.

إذن، كانت أمم دين محمد عوائق كثيرة اقتُحمت بفضل عبقرية أصحابه الذين اختاروا خلفاء لم يفكروا في غير تنفيذ شريعة القرآن واحترامها، ولم يُطعهم العرب في الظاهر، بل أطاعوا شريعة ذات مصدر إلهي لم يجادلوا فيه.



شكل ٣: قطعتان من نقود الملك الكامل ضربتا في أوائل القرن الثالث عشر من الميلاد، وعلى أحد وجهيهما اسم الخليفة العباسي ببغداد.

وكان الخلفاء الأولون، وهم أبو بكر (٦٣٢ م-٥٣٤ م) وعثمان (٦٤٤ م-٦٥٣ م) وعلي (٦٥٥ م-٦٦٠ م)، من صحبة محمد، وقد اقتدى هؤلاء الخلفاء بمحمد في رُزْده وبسيط عاداته، فلم يترك أبو بكر حين وفاته غير ثوبه الذي كان يلبسُه، وبغيره الذي كان يرَكِّبه، ومولاه الذي كان يخُدُّمه، ولم يأخذ من بيته المال في حياته سوى خمسة دراهم مُبَاوِمةً ليعيش بها، وكان عمر يلبس ثوباً مُرْقَعاً، وينام على درج المسجد بين المساكين مع اقتسامه هو وجندوه مغامن كثيرة.

ولم ينتقل العرب من النظام الديمقرطي إلى النظام الملكي إلا بالتدريج، وكانت المساواة تامةً في عهد الخلفاء الأولين، وكانت الشريعة للجميع على السواء، فمَثَّلَ عليُّ بين يدي القاضي لمقاضاة من اعتقد أنه سارق سلاحه، وأتى ملك غسان وقومه الذين اعتنقوا الإسلام مكة للجتماع بعمر، ولطم عربياً وطئ إزاره واشتكى العربيُّ إلى عمر، ورأى عمرُ العمل بما تأمر به الشريعة من إقامة الحد، فقال الملك: «كيف ذلك يا أمير المؤمنين،



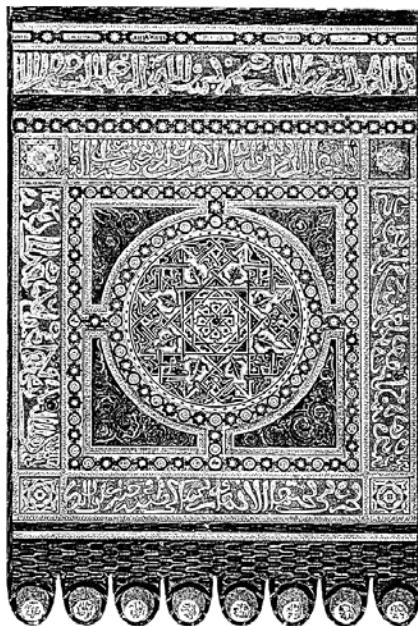
شكل ١١-٣: قطعة من نقود السلطان بيبرس.

وأنا مَلِكٌ وهو سوقَة؟» فقال عمر: «إن الإسلام جمعكما، وسوَى بين الملك والسوقة في الحد.»



شكل ١٢-٣: تسع قطع من نقود عرب الأندلس (متحف العاديات الإسباني).

ولم يَدُم ذلك العدل زمناً طويلاً، فقد صار الخلفاء ملوّغاً مستبدّين، وإنما بقي العرب متساوين أمام القرآن حتى الزمان الحاضر. وأبو بكر هو خليفة النبي الأول، وكان محمد قد أمره، ذات مرّة، أن يقوم مقامه في الصلاة فكان هذا عاملاً في انتخابه خليفةً، وصار الانتخاب عاملاً شقاق، وأخذ هذا الشقاق يحدث عند نصب الخلفاء، وروى مؤرخو العرب أن أول خطبة لأبي بكر، بعد مبايعته بالخلافة، كانت ما يأتي:



شكل ١٣-٣: شعار الموحدين العربي (متحف العاديات الإسباني).

أيها الناس، قد وليتُ عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعيبوني وإن أساءت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعف فيكم قويٌّ عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوى منكم ضعيف عندي حتى آخذ الحقَّ منه إن شاء الله ... أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ...

وكان أبو بكر مضطراً إلى مقاومة الطامعين في الخلافة، وإلى محاربة القبائل التي امتنعت عن أداء ما فرض القرآنُ من الزكاة، ولم يلبث أبو بكر أن رأى أن أحسن وسيلة لمعالجة انقسام العرب هو أن يوجه العرب إلى البلاد الأخرى كيما يمارسون عاداتهم في



شكل ١٤-٣: مفاتيح عربية لبعض المدن والقصور (متحف العاديات الإسباني).

الحرب والقتال، وسار الخلفاء الذين أتوا بعده على هذه السياسة الرشيدة التي انتشرت بها الإسلام.

وأخذ العرب يتقاولون بعد أن خلا العالم من بلد يفتحونه، وحلّت ساعة تفرق كلمتهم، ودخلوا دور الانحطاط، وقوّضوا كيانهم بسلاхهم أكثر مما قوّض بسلاح الأمم التي خضعت لسلطانهم.

وبدأت الفتوحات الكبيرة في زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب فقط، أجل، إن العرب نالوا عدّة انتصاراتٍ في سوريا في خلافة أبي بكر، ولكن مهارتهم الحربية كانت

ضعيفة مع شجاعتهم العظيمة — كما قلنا — فكان يتخلّل تلك الانتصارات نوازلٌ إلى أن حذقوا صنع السلاح كأعدائهم.

وكان عمر بن الخطاب قائداً بارعاً وسياسياً ماهراً، وكان عنوان العدل والإنصاف، وقد روى مؤرخو العرب أنه علا المنبر بالمدينة حينما أفضت إليه الخلافة وقال: «يا أيها الناس، والله ما فيكم أحد أقوى مني من الضعيف حتى آخذ الحق له، ولا أضعفُ عندي من القوي حتى آخذ الحق منه».

والحق أن الدولة العربية العظمى بدأت في خلافة عمر بن الخطاب، وأمّا القيسير هرقل الذي أكره على مغادرة سوريا والالتجاء إلى عاصمة القسطنطينية فقد أدرك أن العالم سيكون له سادة جدد.

(٤) خلاصة تاريخ العرب

نلخص فيما يأتي تاريخ وقائع العرب الحربية المهمة في القرون الثمانية التي دامت فيها حضارتهم:

القرن الأول من الهجرة: كانت فتوحات خلفاء محمد الأولي في بلاد العراق الخاضعة لدولة الفرس، وفي بلاد سوريا الخاضعة لقيصر القسطنطينية هرقل، وكان بدء فتح هذين القطرين في زمن الخليفة الأول الذي لم يثبت أن تُؤْكِي فوَاصَله عمر الذي دخل القدس بنفسه فخسِر الروم، في سبع سنين، بلاد سوريا التي ظلوا حاكمين لها سبعمائة سنة.

ودوَّخ جنود عمر بلاد العراق وفارس من فورهم، أي كفى لثلاثهم عرش بني ساسان وهدمهم الدولة الفارسية العريقة في القدم حروب شهرین.

ونالت كثائب عمر، التي كان يقودها المجاهد الشاعر عمرو بن العاص، في الغرب انتصاراتٍ سريعةً، واستولت على بلاد مصر والنوبة، وكانت الدولة العربية التي ولدت منذ عشرين سنة على جانب كبير من الاتساع حين وفاة عمر في سنة ٦٤٤ م.

وداوم الخليفة الثالث عثمان، الذي بلغ الثمانين من عمره، على الفتوح، وأتم قُواده فتح بلاد فارس، ووصلت جيوشه إلى بلاد القفقاس، وأخذت ترتاد الهند.

وكان الخليفة الرابع عليٌّ، وهو صهر النبي (٦٥٥ م)، هدفاً للدسائس التي كادت الدولة العربية تنهار بسببها، وُقتل عليٌّ بعد خلافة دامت خمس سنين، فخُتم بوفاته دور الخلفاء الأولين الذين كانوا من أصحاب محمد السابقيين المعدودين آباء الإسلام.



شكل ١٥-٣: دبوس أمير عربي في مصر على الطراز الفارسي العربي (هذا السلاح والسلاح الآتي من تصوير برييس الأقيني).

وُفتح دور خلفاء بنى أمية بمعاوية (٦٦٠م)، ونقل هؤلاء مَقْرَر الخلافة إلى دمشق، وصاروا يسيرون على نمط ملوك آسية. وأرسل الخليفة الجديد كتائب إلى شمال إفريقيا الذي جعل منه حكومة منفصلة، ولم يَعُق زحفها غير المحيط الأطلنطي، و Jab البحر المتوسط أسطولٌ مؤلفٌ من ١٢٠٠ قطعة، فاستولى على جُزرٍ وأغار على صقلية. وحوصلت القسطنطينية سبع سنين على غير جدوى، وعبر نهر جيحون، ورَفع قُوَّادُ الخليفة رايته حتى سمرقند. ومات معاوية (٦٨٠م) بعد حُكمِ دام عشرين سنة.

وثابر بنو أمية على الفتح، وبلغت جيوشهم حدود الصين من الشرق والمحيط الأطلنطي من الغرب، وجاءوا العرب مضيق جبل طارق في سنة ٧١٢م، ودخلوا إسبانيا، ووفقاً لزعها من مملكة القوط النصرانية، وأقاموا فيها مملكة حَضَّعت سلطان العرب نحو ثمانية قرون.

ولم ينقضِ القرن الأول من الهجرة حتى كانت راية النبي تخفق من الهند إلى المحيط الأطلنطي، ومن القفقاس إلى الخليج الفارسي، وغدت إسبانيا، التي هي إحدى المالك النصرانية الكبرى في أوربة، خاضعةً لشريعة محمد.

القرن الثاني من الهجرة: اتسع نطاقُ الفتوح العربية قليلاً في القرن الثاني من الهجرة، وأصبح هم العرب مصروفًا إلى تنظيم دولتهم العظمى على الخصوص، وتوجلت جيوشهم في بلاد الغول حتى اللوار حيث دحرها شارل مارتل، واستقروا بجنوب فرنسة إلى أن طردتهم شارلماן منه نهائياً.

ونُقلَ، في القرن الثاني من الهجرة، مقرُّ الخلافة من دمشق إلى بغداد التي أنشأها المنصور في سنة ٧٦٢م، بعد أن تمتُّ الخلافة فيه لبني العباس (عم النبي) الذين هدموا دولة الأمويين في سنة ٧٥٢م، وقتلوا هم خلا طريبيًّا منهم استطاع أن يفرُّ اتفاقاً، وأن يقيم دولة مستقلة في إسبانيا سنة ٧٥٦م.

وانتَسَعَ رقعة الدولة العربية منذ أوائل القرن الثاني من الهجرة، وبلغت من الحدود ما لم تقدر على مجاوزته باستطاعة حكمها من جبال البرنات وجبل طارق إلى الهند، ومن شواطئ البحر المتوسط إلى رمال الصحراء.

وصار معظم آسية خاضعاً لسلطان الخلفاء المتمدد من جزيرة العرب إلى التركستان، ومن وادي كشمير إلى جبال طوروس، وعُبَّدت بلاد فارس، وصار ملوك كابل وجميع أمراء وادي السند يُعطون الجزيمة، وأضحى العرب في أوربة مالكين لإسبانيا ولجزر البحر المتوسط، وأضَحَّوا في إفريقيا مالكين لشمالها ولنصر.

وانتهي دور الفتوح، وبدأ دور التنظيم، وحوَّل الفاتحون نشاطهم إلى ميدان الحضارة، وكان عهْدُ بني العباس الأولين عهد ازدهار لحضارة العرب في الشرق، وكان عهداً اقتبس العرب فيه ثقافة اليونان، فلم يُعْتَمِّوا أن أبدعوا حضارة ساطعةً ازدهرت فيها الآداب والعلوم والفنون.

ونهضت الفنون والعلوم والصناعة والتجارة بسرعة في زمن هارون الرشيد (٨٠٩-٧٨٦) على الخصوص، وصار الشعراء والعلماء وأرباب الفن يُشيدون بذلك



شكل ١٦-٣: خنجر أمير عربي في مصر.

بطل ألف ليلة وليلة في أفاصي العالم، وأعطته القسطنطينية جزية، وأرسل إليه إمبراطور الغرب، شارلماן، وفداً، ولم يَقِلَّ عصر المأمون عن عصر سلفه الرشيد نضارةً.

ولم تكن الروابط بين الأمم التي اجتمعت تحت راية الدولة العربية العظمى متينةً، ولم تثبت هذه الروابط أن انحلت، ولم تثبت هذه الأمم أنأخذت تستقل تباعًا مع دوام الحضارة على سيرها زمنًا طويلاً، وسيكون القرنُ الثالث من الهجرة شاهدًا على هذا الانقسام الذي أخذ يبدو منذ أواخر القرن الثاني.

القرن الثالث من الهجرة: كان قيام خلافة قرطبة في الغرب قبل ذلك نذير انقسام دولة العرب، فظهرت في بلاد فارس والهند بشرق بغداد إماراتٌ كثيرة، ولم تنشب هذه العاصمة أن أحاط بها أمراء مستقلون.

ويشتري ابنُ طولون استقلاله السياسي بمصر، ويقيم فيها مملكة، ويُلْقَى حبل إفريقياً على غاربها، ويملك إسبانية خلفاء مستقلون استقلالاً تاماً.

القرن الرابع من الهجرة: استمرت الدولة العربية على الانقسام في القرن الرابع من الهجرة، وقامت دولٌ مستقلة في كثير من ولاياتها، وخسرت بغداد ما للعواصم من المزايا، وصارت القاهرة قاعدة الإسلام الحقيقة، وأصبحت إسبانياً أنضر مقر للحضارة العربية مع دوام عاصمة الخلفاء القديمة على إلقاء أشعتها الساطعة، ويقصد طالبو العلم من جميع أقطار الأرض، ومنها أوربة النصرانية، جامعات العرب الكبيرة في طليطلة وغرناطة وقرطبة.

القرن الخامس من الهجرة: شهد القرن الخامس من الهجرة أمرين مهمين؛ وهما: الحروب الصليبية، وظهور الأتراك السلاجوقيين في العالم العربي، وكان قد جيء بهؤلاء السلاجوقيين البرابرة من التركستان كأسرى حرب في بدء الأمر، ثم تألف منهم حرسُ الخلفاء ببغداد، فابتاعوا السلطة الحقيقة شيئاً فشيئاً غير تاركين للخلفاء من السلطة سوى المظاهر.

وجعل السلاجوقيون مقرهم أمام القدسية بعد أن ملكوا جميع الولايات المجاورة لبغداد، واستولوا على سوريا، وأحلوا تعصباً محل تسامح العرب، ونهوا النصارى عن القيام بشعائر دينهم، وجاروا على حجيجهم، فاضطربت أوربة وثارت، بعد أن كانت تخشى تقدم المسلمين منذ زمن طويل.

ونشأ عن مواعظ بطرس الراهب ودعوة البابا أوبيان الثاني أن جرَّد الأوربيون حملتهم الصليبية الأولى في سنة ١٠٩٥ م وانقضوا على فلسطين، واستولوا عليها، وأنشأ غودفروي البويوني مملكة القدس النصرانية الهزيلة.

ومما حدث في القرن الخامس من الهجرة أن طُرد العرب من صقلية، وأن حالف نصارى إسبانيا بعض التوفيق، فاستولى الأذفونش القشتالي على طليطلة، فكان هذا بدأة الفتح الذي لم يتم إلا بعد جهود أربعة قرون.

القرن السادس من الهجرة: أدى انتصار النصارى الأول في الشرق إلى زيادة الحماسة في أوربة، فجرَّدت أوربة حملةً صليبيةً ثانية على الإسلام في سنة ١١٤٧ م، فكانت



شكل ١٧-٣: حربة أمير عربي في مصر.

نتيجة هذه الحملة وبالاً على الصليبيين كأية حملة جردتها أوربة بعدها على العالم الإسلامي، فقد استولى سلطان مصر الشهير صلاح الدين الأيوبي على بلاد فلسطين، وطرد منها النصارى، وبقي سيد المدينة المقدمة على الرغم من الحملة الصليبية الثالثة التي جردتها أوربة في سنة ١١٨٩ م بقيادة فردرريك بار باروس وفليب أوغست وقلب الأسد: ريكاردس.

القرن السابع من الهجرة: جَرَّدَ الْأُورَبِيُّونَ عَلَى الإِسْلَامِ عدة حملات صليبية كان نصيبها الحبوط الذريع، واكتسح الصليبيون في حملتهم الرابعة التي جردوها في سنة ١٢٠٢ م مدينة القدس الميسحية بدلاً من مقاتلة المسلمين، وأقاموا فيها دولة لاتينية شرقية لم يُكتب لها البقاء أكثر مما كُتب لدولة القدس، ولم تكن الحملات



شكل ١٨-٣: فأساً أمير عربي في مصر.

الصلبية الأربع الأخيرة أوفر حظاً مما تقدمها، وأسر الملك سان لويس في الحملة السابعة، وافتدى نفسه بفدية عظيمة، ومات هذا الملك في الحملة الثامنة بالطاعون حين اقترب من أسوار تونس طامعاً في تنصير أمرها.



شكل ١٩-٣: خوذة أمير عربي في مصر (على الطراز الفارسي العربي).

وكانت هذه الحملة الثامنة آخر الحملات الصليبية، وأدرك العالم النصرانيُّ بها أنه لا يزال عاجزاً عن قهر المسلمين، وعدل عن فتح فلسطين، وظلت الرأيَّة الإسلامية تُخْفِقُ فوقها حتى الآن.

وبينما كان العرب يدفعون نصارى الغرب في أثناء الحروب الصليبية، ويخرجون منها ظافرين – ظهر في الشرق الأقصى عدوٌ مخيف، فقد قذفت نجود التتر تيار المغول الذي انقض على آسية بقيادة جنكيزخان، واكتسح بلاد الصين وفارس والهند، ثم استولى المغول على بغداد في سنة ١٢٥٨م، وقضوا على العباسيين الذين كان لهم السلطان منذ خمسمائة سنة.

وعلى ما بين الترك والمغول من شَبَّهُ في الهمجية كان المغول أكثر استعداداً للثقافة، فالمغول وإن لم يكونوا أهلاً لإبداع حضارة جديدة كما أبدع العرب، استطاعوا أن ينتفعوا بحضارة العرب الذين، وإن زال ملكهم في الشرق، ظلت حضارتهم تُهيمن عليه.

وانحصر سلطان العرب في مصر وإسبانيا بعد أن تكمّش أمام أولئك الفاتحين.

القرن الثامن من الهجرة: كان القرن الثامن من الهجرة حافلاً باقتتال الترك والمغول على ميراث العرب في الشرق، وقد دَقَّت ساعة انحطاط هؤلاء الآخرين.

القرن التاسع من الهجرة: قُبِّي على دولة العرب وحضارتها في إسبانيا التي ملوكها نحو ثمانمائة سنة، وذلك أن فردياند استولى على عاصمة العرب الأخيرة غرناطة في سنة ١٤٩٢م، وأنه أخذ يمعن في قتلهم وتشريدهم جماعات جماعات، وأن خلفاءه ساروا على سُنَّته، وأنه قُتِّل من العرب وُشِرد ثلاثة ملايين نفس، فخبت إلى الأبد شعلة حضارة العرب التي كانت تنير أوربة منذ ثمانية قرون.

وكانت خاتمة دولة العرب في القرن التاسع من الهجرة، ولم يبق للعرب في الشرق من الشأن الكبير في غير دينهم ولغتهم وحضارتهم، وحاولت الأمم التي قهرت العرب أن تسير على نحو العرب كما صنع البرابرة الذين قهروا الرومان، فأحَلَّت الهلال باسم القرآن محلَّ الصليب في القسطنطينية التي كانت عاصمة الروم، فارتعدت فرائص العالم النصراني فرقاً من ذلك.

ولكن الترك، وإن كانوا أهل حرب وقتال، لم يكونوا أهلاً ليصعدوا في سلم الحضارة، ولم يقدروا على الانتفاع بتراث العرب المغلوبين الثقافي، فضلاً عن إنماءه، ويقول العرب: «لا يَنْبُتُ العشب على أرض يطأها الترك»، والحق أنه لم ينجب، فاسترى

فتوح العرب

في فصل آخر دركة الانحطاط التي هبطت إليها دولة العرب القديمة بسرعة بين أيدي سادتها الجدد.

هوامش

(١) البيع: جمع البيعة، وهي المعبد للنصارى.

الباب الثالث

دوله العرب

الفصل الأول

العرب في سوريا

(١) اختلاف البيئات التي لاقاها العرب

وقفنا هذا الفصل وما يليه في فصول هذا الباب على البحث في شأن العرب في مختلف البلدان التي استولوا عليها، وغايتنا من ذلك بيان حضارة العرب ببياناً مجملأً، وإيضاح تأثيرهم في الأمم التي عاشروها، وتتأثير هذه الأمم فيهم، ونرى أن نقدر حضارة العرب بالبحث في آثارهم في كل بلد افتحوه، فإذا تيسر لنا ذلك أمكننا أن ندرس، في فصول هذا الكتاب، مختلف العناصر التي تتتألف من مجموعها حضارة العرب.

كانت أمم البلاد التي استولى العرب عليها في آسية وإفريقيا وأوربة وأقاموا عليها دولتهم العظمى متباعدة أشد التباين حين الفتح العربي، فأنت، إذ كنت ترى بينها أمماً من أنصاف البربرة، كالتي في بعض أجزاء إفريقيا، كنت ترى منها أمماً بلغت الذروة من الحضارة اليونانية والحضارة اللاتينية كالتي في سوريا.

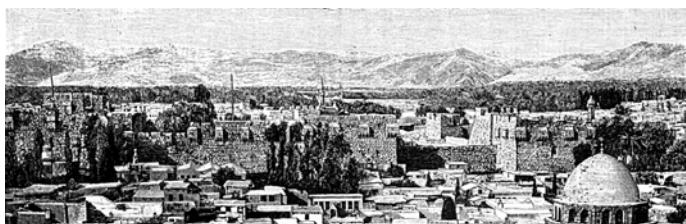
إذن، كانت الأحوال التي صابت العرب مختلفة باختلاف الأماكن، وكان من الحق أن يجد الإنسان تفاوتاً في درجات حضارتهم تبعاً لتفاوت البيئات.

ذلك ما يتجلّى لنا في تاريخ حضارة العرب كلما توغلنا في تفصيلاته، وتشتمل حضارة العرب التي دامت ثمانية قرون على درجات كثيرة خلافاً لما ذهب إليه المؤرخون الذين تعودوا، حين البحث في حضارة العرب، أن ينظروا إليها من خلال أمة واحدة ودور واحد، وكان للعمارة والأداب والعلوم والفلسفة والدين درجاتٌ تطوّر مختلطة باختلاف الأقطار التي خضعت لسلطان العرب، ولم يمنع ذلك من أن يكون للعرب تراث مشترك من الناحية الدينية والناحية اللغوية ما دام الإسلام دينهم والعربية لغتهم، ولكن وحدة اللغة والدين لا تعني وحدة حضارة العرب في مختلف البلدان التي خضعت

لشريعة محمد، كما أنك لا تستطيع أن تخلِّ حضارة الأمم النصرانية في القرون الوسطى بحضارتهم في عصر النهضة أو في الوقت الحاضر.

(٢) استقرار العرب بسوريا

كان البلد الغني، سوريا، قد أصبح رومانياً قبل الفتح العربي بنحو سبعة قرون، ويوجد ارتباك وغموض في أخبار المارك الأولى التي أدت إلى فتح العرب لسوريا، فأما مؤرخو العرب، وعلى رأسهم الواقدي الذي يُرجع إليه على العموم، فإنهم مَرْجَعوا الحقائق بالخيال، فحط ذلك من قيمةَ تصصهم، فأنت إذا أنعمت النظر في روایات الواقدي رأيته يُذَكِّر، حين بحثه في وقائع العرب الحربية، بأبطال أو ميراث مع رفع لقيمة المرأة في تلك الواقائع، وأما مؤرخو الروم فقد التزموا جانب الصمت عن فتح سوريا الذي كان كله عاراً على دولة بزنطة القوية.



شكل ١-١: أسوار دمشق (من صورة فوتografية).

ومهما تكن دقائق الفتح العربي لسوريا فإن سوريا خضعت لحكم العرب بعد حرب سجالٍ بين العرب والروم. وفتح دمشق من أهم فتوح العرب في سوريا، ولم تلبث دمشق الشهيرة أن أصبحت في العهد الأموي عاصمةً الدولة العربية بدلاً من المدينة. وتم فتح دمشق يوم وفاة الخليفة الأول أبي بكر في السنة الثالثة عشرة من الهجرة (٦٣٤م)، وصرخ هرقل حين أتاه خبرُ سقوط دمشق قائلاً: «وداعاً يا سوريا!» حقاً لقد خسر الروم سورياً، فقد استولى العرب بعد معركة اليرموك الشهيرة، التي دامت ثلاثة أيام وانتهت بانتصار العرب، على جميع مدن سوريا، وفتحوا عنواناً تدمر

وبعلبك وأنطاكية وطبرية ونابلس والقدس وطرابلس وغيرها، وأكّره القيسار على مغادرة سوريا إلى الأبد بعد أن ملكها أسلافه منذ سبعة قرون.

وكان لفتح القدس دويٌّ عظيمٌ بين المدن التي استولى عليها المسلمين، وكان المسلمين يعلقون أهميّة كبيرةً على فتح هذه المدينة التي كانوا يقدسونها تقديس النصارى لها، وفيها توفي المسيح الذي هو عند المسلمين من أعظم الأنبياء، وفيها الصخرة الشهيرة التي عَرَجَ منها محمد في السماء.

هجم العرب على القدس بشدةً كالتى أبديت للذبّ عنها، وحثّ البطريرك صفرونيوس الحماة النصارى على الدفاع عن قبر الرب فلم يُجد ذلك نفعاً تجاه القدر الذي قضى بأن تحلّ راية الإسلام محلَّ الصليب فوق قبر يسوع، ورأى صفرونيوس أن يُذْعِنَ بعد حصارِ دام أربعة أشهر، واشترط أن يتسلّم الخليفة عمر القدس بنفسه فُقِيلَ ذلك، فركب عمر بعيراً، وغادر المدينة وحده تقريباً، ولم يأخذ معه من الزاد سوى قربة ماء وجراب شعير وأرز وتمر، وأعدَّ عمر في السير ليل نهار؛ ليصل إلى القدس في وقت قصير، فلما دخل القدس أبدي من التسامح العظيم نحو أهلها ما أمنوا به على دينهم وأموالهم وعاداتهم، ولم يفرض سوى ذهبية زهيدة عليهم.

وأبدي العرب تسامحاً مثل هذا تجاه المدن السورية الأخرى كلّها، ولم يلبث جميع سكانها أن رضوا بسيادة العرب، واعتنق أكثر أولئك السكان الإسلام بدلاً من النصرانية، وأقبلوا على تعلم اللغة العربية، وظللت سوريا بلدًا عربيًّا إسلاميًّا كما كانت في أوائل الفتح العربي مع تداول كثيرٍ من الفاتحين لسيادتها بعد ذلك.

ولما توالّت هزائم الروم في سوريا استحوذ عليهم خوف عظيم من العرب الذين أمعنوا في ازدرائهم.

ومن الأدلة على ذلك الكتابُ الآتي الذي أرسله عمر بن الخطاب إلى هرقل يطالبه فيه بإطلاق قائدٍ عربيٍّ أسره الروم في إحدى الوقائع:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على رسوله، من عبد الله عمر بن الخطاب إلى هرقل ملك الروم، أطلقوا الأسير المسلم، عبد الله بن حذافة، حين وصول كتابي هذا إليكم، فإن فعلتم ذلك رجوت من الله أن يهديكم الصراط المستقيم، وإن لم تفعلوا فإبني أبعث إليكم رجالاً لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن الجهاد في سبيل الله، والسلام على من اتبع الهدى.

ولم يكن القيصر هرقل ليغصب من هذا الكتاب الشديد، فقد أطلق الأسير مصحوباً بهدية ثمينة إلى الخليفة، وهرقل هذا هو وارث عرش القياصرة الجبارين الذين دُوّخوا العالم، فخلف من بعدهم خلف فقدوا المشاعر التي كان فيها سُرّ عظمتهم. وعاد عمر إلى المدينة بعد أن تم فتح سوريا، ونظم شؤون الدولة الفتية موصيًا قواده بتوسيع رُقعتها، ووزع عمر الغنائم العظيمة التي أخذها المسلمون من الروم والفرس على أصحابه، وجعل لهم، على حسب قِدَمِهِمْ، رواتب سنوية تتراوح بين ألف درهم وخمسة آلاف درهم.

(٣) حضارة سورية أيام سلطان العرب

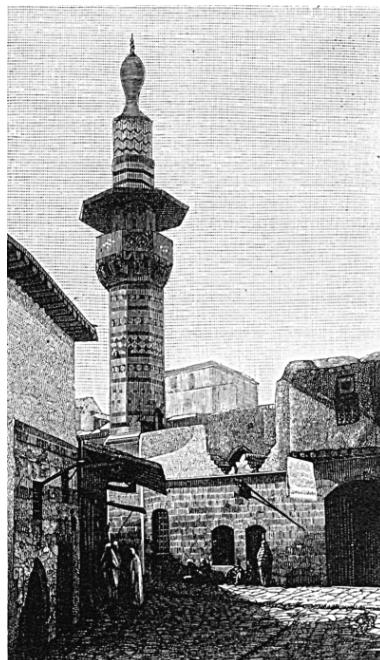
استردت سورية أيام الحكم العربي ما أضاعتة من الرَّخاء منذ زمن طويل، وبلغت درجة رفيعة من الرقي في العهد الأموي والصدر الأول من العهد العباسي، وكان العدل بين الرعية دستور العرب السياسي، وترك العرب الناس أحراراً في أمور دينهم، وأظلَّ العرب أساقفة الروم ومطارنة الالاتين بحمايتهم، فنان هؤلاء ما لم يعرفوه سابقاً من الدعوة والطمأنينة، وبلغت الصناعة والزراعة درجة رفيعة في سورية، وازدهرت بسرعةٍ كبريات المدن السورية كالقدس وصور وصيدا ودمشق.



شكل ٢-١: حي الميدان بدمشق (من صورة فوتografية التقطها المؤلف).

وكانت سورية من أغنى أقطار العالم دائمًا ما لم تَنْلَها أيدي التحريب، فهي ذات أرض كانت تُنبت البرُّ والقطن والشعير والأرزُ والتوت والزيتون والليمون والبرتقال من غير عناء، وكانت جبال لبنان مستورةً بأعز الأشجار، كشجر البلوط والدُّلْبُ^١ والجمَيْزُ ... إلخ، ولو لا الإنسان لكان هذا البلد القديم جنة الأرض، واستحقَّ تسمية العربين له بأرض

الميعاد، ذلك البلد العجيب الذي وَصَفَ شعراء العرب كل جبل فيه بأنه يحمل الشتاء على رأسه، والربيع على كتفيه، والخريف على صدره على حين يَرْقُد الصيفُ متذاقاً على قدميه.



شكل ٣-١: شارع في دمشق (من صورة فوتوغرافية).

ويُسْتَدِلُّ على حضارة سورية أيام سلطان العرب بما رواه الكُتَّاب، وبما لا يزال قائماً فيها من المباني.

وروى المؤرخون أن سوريا لم تثبت أن ازدهرت بعد أن فتحها العرب، فقد جَدَّ العرب في دراسة كتب اليونان والرومان مثلما جَدُوا في ميادين القتال، وأنشأوا المدارس في كل مكان، وصاروا أستاذين من فورهم بعد أن كانوا تلاميذ، وأنهضوا العلوم والشعر والفنون الجميلة أيماء إنهاض.

ودام رخاء سوريا حتى دور الانقسام الذي زلزل دولة الخلافة، وأخذ ينقص، ولم يتم زواله إلا حين غدت سوريا تابعة لدولة الترك، فصحت لا ترى فيها شيئاً مما كان في أيام الحكم العربي من النفائس والفنون والصناعة، وأصبحت المدن الكبيرة القديمة، كصيدا وصور، قرّى حقيقة، وتعودت الجبال تماماً، وهجر الناس الحقول الغنية بعد ازدهارها فيما مضى، وأضحت هذه الأماكن الخصبة لا تُنبت عشبًا ما ثقلت عليها وطأة الترك، قال مسيو دافيد في تاريخه عن سوريا:

كأن من العبث أن أددت حضارة الخلفاء في قرنين، كما أدى الأغارقة والرومان، إلى إنشاء المباني الرائعة، وصنع النفائس الفاخرة، ونشر اللغة الراقيّة، ووضع طرائف نحوها المنطقية، وقول أشعارها البليغة، وكأنّ من العبث أن سقط دمشق الفولاذ، وغَزَلت حلْبُ الحرير اللامع، وكأن من العبث أن ازَّيَنتْ رُبَا حوران وهضابها بالزرع وأشجار الفاكهة الذهبية، وأن أبدى أهلواها نشاطاً فائقاً، فقد حَرَّقَ، عن عمد، أجلاف القفقاس، الذين بُرُوا جميعاً قدماء الفاتحين جهلاً وقسوة وطمعاً، آثار الفن والعلوم، وهدموا المصانع، وقتلوا العمال، وسحقوا كل شيء لم يستطعوا نقله.

وعادت سوريا لا تكون غير بلاد جديبة خربة في الوقت الحاضر، واستوقفت نُدرة نباتاتها نظري حين طُفت فيها، ولاج لي أنها ببلغت من الفقر ما لا تأتي معه بغير كلام قليل، ومررتُ من الطريق الواقعة بين بيروت ودمشق فلم أجد أثراً للنبات في غير ما قرب من أبواب المدن، وعاد لبنان وما وراء لبنان لا يكوان سوى صخور عارية، وليس الجدب في أبواب القدس أقلَّ من ذلك، ولا ترى في كل مكان سوى الحجارة والصخور، ولا تجد شيئاً من الكلأ.^٢

(٤) المباني التي تركها العرب في سوريا

لم تكن المباني التي تركها العرب في سوريا كثيرة، وإنما يفيد درسها كثيراً لقدمها وروعتها.

ذكرنا آنفًا أنه كان للعرب مُدُنٌ مهمة قبل ظهور محمد، وأنه كان في الكعبة الشهيرة أكثر من ثلاثة صنم، وإننا نجهل، مع الأسف، كيف كان فن العمارة العربية قبل الإسلام، وأن ما حدث في الحرم المكي، وهو البناء العربي القديم الوحيد المعروف، من



شكل ٤-٤: ساحة المسجد الكبير في دمشق (من صورة فوتوغرافية).

الترميم المتصل يجعل وصف ما كان عليه أيام الجاهلية أمراً صعباً، وكلُّ ما نتصوره هو أن المسلمين حافظوا على ترتيبه الأول.

ومهما يكن من أمرٍ فإن مما لا ريب فيه أن مباني الدّور الإسلامي الأول لم تكن من صنع العرب، وأن عمال البلد التي دانت لهم هم الذين غيرّوا معالم الكنائس؛ لتكون موافقة لعبادة المسلمين، وأنهم أقاموا مباني العرب بأنقاض الكنائس، وأن عمال الفرس والروم هم الذين أتيح للعرب، على الأكثـر، أن يستخدموهم في سوريا ريثما يكونون أهلاً لذلك.

وكان شأن العرب بالنسبة إلى المهندسين الأجانب الذين استخدموهم في دور الفتح كشأن الرجل الغني الذي يقيم لنفسه بيتاً، فكما أن المهندس الذي يرسم بيت ذلك الغني يراعي فيه، لا ريب، ذوقَه نرى مهندسي الروم قد رأعوا ذوق العرب فيما أقاموا لهم من المباني الأولى، فتجلّت عبقرية العرب فيها.

ولم يلبث العرب، بعد أن تحرروا من المؤثرات الأجنبية، أن أصبح لعمارتهم من الأشكال والنقوش الخاصة ما صار يتذرع معه خلطها بغيرها، وإن أمكن أن يُرى شيء من الأثر البيزنطي أو الفارسي أو الهندي في بعض زخارفها مع محافظة البناء في مجموعة على طابعه العربي.

ولنبحث الآن في بعض المباني المهمة التي تركها العرب في سوريا:

(٤-١) جامع عمر

جامع عمر الشهير القائم في القدس هو عند المسلمين أقدس مكان في الأرض بعد الحرم المكي والحرم المدني، وقد كان دخوله، حتى السنين الأخيرة، مُحرّماً على كل أوربي، وإلا قُتل، وقد قضى الصليبيون منه أعظم العجب حين اقتحموا القدس، وقد عُدوه معبد سليمان، وقد نال شهرةً عظيمةً في أوربة فأقيمت فيها كنائسٌ كثيرةً على طرازه، وقد يكون جامع عمر البناء الديني العالمي الوحيد المقدس عند المسلمين واليهود والنصارى على السواء.

بنيَ جامع عمر على مكان هيكل سليمان الشهير الذي جَدَّه هيرودس، وأعجب بأبهته تيطس، ذات ساعة، حين حاول إنقاذه من اللهب، وعلى الصخرة التي أراد إبراهيم ذبح ابنه عليها امتناعاً لأمر الله كما تقول القصة، والأماكن التي تجمع في العالم من الذكريات مثلُ هذا المكان قليلة إلى الغاية ولا تجدُ مكاناً اتفق له من التقديس ما اتفق لهذا المكان لا ريب، ففيه كان سليمان يعبد رب اليهود القادر، وعليه كان الرومان يسبّحون بحمد ملِك الألهة والناس جو بيتر العظيم، وفيه وضع الصليبيون صورة المسيح، والآن يعبد المسلمون فيه إله النبي محمد.

ولم تكن قيمة جامع عمر بما يثير من الذكريات فقط، بل هو من أهم ما شاده الإنسان أيضاً، وهو أعظم بناء يستوقف النظر في فلسطين بالحقيقة.

ويقوم جامع عمر في وَسْط ساحة فسيحة يبلغ طولها خمسمائة متر، وتَعْدِل مساحتها بِعَدَ مساحة القدس تقريباً، ويحيط بها سورٌ يُطلق العرب عليه اسم الحرم الشريف، وتشتمل على مبانٍ مهمة كثيرة ذكر منها المسجد الأقصى على الخصوص.

وأثبتت مباحثات علم الآثار الحديثة أن ساحة الحرم القديسي هي ذرْوة جبل مُرِيَّة التي مَهَدها سليمان وسوَّها وأنشأ عليها هيكله، ووسَع ملوك اليهودية، ولا سيما هيرودس، نطاقها مرَّةً بعد مرَّة، ونُرِجح أن الصخرة المقدسة الواقعة في وسط جامع عمر كانت أعلى نقطة في ذرْوة جبل مُرِيَّة؛ فاحترمتها سليمان في أثناء تلك التسوية.

وبُنيَ جامع عمر على رُقْعَة من الرخام قائمة الزوايا مرتفعة ثلاثة أمتار من أرض الحرم، وقام جامع عمر على المكان الذي كان فيه هيكل إسرائيل على التحقيق، ويرقى إليه بمراقِ كثيرة قليلة الدرج تعلوها حنایا مصنوعة على رسم البيكارين قائمة على أعمدة رُخامية ذات تأثيرٍ حسن جدًا.



شكل ١-٥: مئذنة عيسى في المسجد الكبير بدمشق.

ويُرِيَّن تلك الرقعة من الحرم منابرً للوعظ ومحاريب للصلوة ... إلخ، ويُرى بعض هذه الآثار طریقاً إلى الغایة.

ويخطئُ الأوربيون حين يُسمون ذلك المسجد جامع عمر، فهذا البناء ليس مسجداً في الحقيقة، ولم يُنشئه عمر، وإنما وأشار عمر، الذي لم يمكث في القدس سوى زمن قصير، إلى المكان الذي رغب في إقامة مسجد عليه، ويرى مسييو دوقوغويه أن بناء هذا الجامع تم بعد وفاة عمر بمدة طويلة، أي في السنة الثانية والسبعين من الهجرة (٦٩١م)، ولا يُسمّيه العرب بغير اسم قبة الصخرة؛ لاشتماله، بالحقيقة، على الصخرة المقدسة التي تكلمنا عنها.



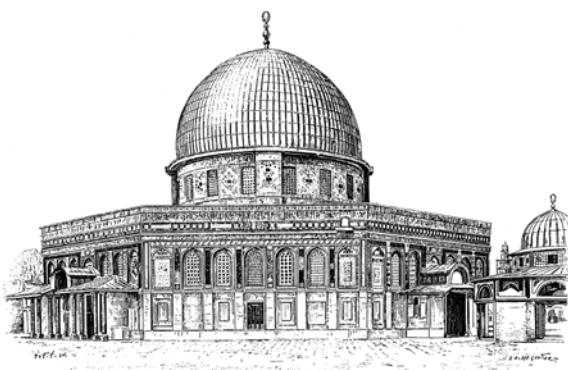
شكل ٦-١: مدرسة وأساتذتها وتلاميذها في دمشق (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

ويُذَكِّرُنا ذلك البناء الإسلامي القديم في مجموعة بالطراز البزنطي، ولكن ملوك المسلمين أصلحوه وأتموه في مختلف الأدوار، فاشتمل على نماذج مهمة لفن العربي في تلك الأدوار.^٣

وجامع عمر مُثمن الزوايا، ويدخل من أربعة أبواب مقابلة للجهات الأربع، ويكسو الرخام جوانبه السفلية، ويستر المينا الفارسي الجميل جوانبه العليا التي تم تصفيفها به بعد إنشائه بزمن طويل، أي في زمن السلطان سليمان القانوني (سنة ١٥٦١).
ويتلاًّأ ذلك المينا الجميل كالحجارة الكريمة حين تلقي الشمس أشعتها على جامع عمر فيكتسب خارج هذا الجامع منظراً سحرياً خيالياً لا عهد لجوانب المباني الأوربية الدُّكن بمثله، والمرء قد يفكر في تلك القصور السحرية التي يبصرها بخياله أحياناً، ولكن الخيال دون الحقيقة في أمر جامع عمر.

وليس داخل جامع عمر شيء من التعقيد، ففيه نطاقان متناظران ذوا مركز واحد، ويحاط هذان النطاقان بسياج مدور حول الصخرة الشريفة التي هي في وسط هذا الجامع.

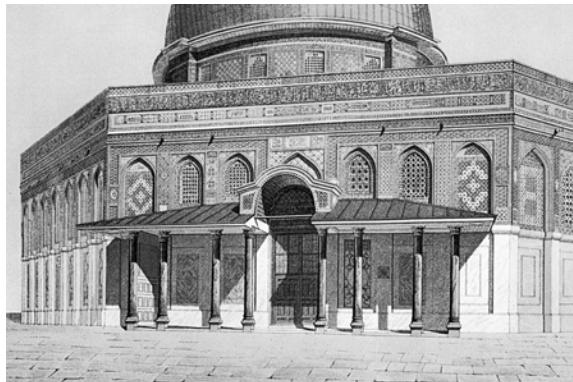
وزينة داخل جامع عمر غنية إلى الغاية، وسيقان أعمدة نطاقه الأول من الرخام المأخوذ من المبني القديمة والمختلف شكلًا وارتفاعًا، وتحتاجن هذه الأعمدة في الشكل أيضًا، ويرجع أكثرها إلى أوائل العصر البزنطي، ويستر أعلى جدران هذا الجامع فسيفساء باهرة ترجع إلى القرن العاشر من الميلاد كما يُظنُّ، ويحيط بقاعدة قبة عصابة عريضة مزينة بآيات قرآنية عن المسيح مكتوبة بخطوط كوفية ذهبية.



شكل ٧-١: مسجد عمر في القدس (من صورة فوتوغرافية التقاطها المؤلف).

وجددت قبة جامع عمر في سنة ١٠٢١م، أي في زمن ازدهار الفن العربي، وهي ذات زخرف داخلي رائع، أي مكسوّة بالفسيفساء والنقوش والرسوم العربية الجميلة المتشابكة المعقدة إلى الغاية.

وداخل المسجد باهر جميـعـهـ، فـحوـاجـزـهـ مـسـتـورـةـ بـالـمـيـنـاءـ وـالـفـسـيـفـسـاءـ وـالـرـسـوـمـ الـذـهـبـيـةـ وـصـحـائـفـ الـبـرـونـزـ الـمـطـرـقـةـ، وـنـوـافـدـهـ مـزـينـةـ بـقـطـعـ زـجاـجـيـةـ مـلـوـنـةـ فيـ الـقـرـنـ السـادـسـ عـشـرـ، مـوـصـوـلـ بـعـضـهـ بـعـضـ وـصـلـاـ مـنـسـجـمـاـ بـالـجـصـ، لـاـ بـالـرـاصـاصـ كـمـاـ فيـ أـوـرـيـةـ، وـيـنـشـأـ عـنـ هـذـاـ الـوـصـلـ الـمـنـسـجـ مـاـ لـاـ نـرـاهـ فـيـ كـنـائـسـناـ مـنـ الـظـلـ وـالـنـورـ.

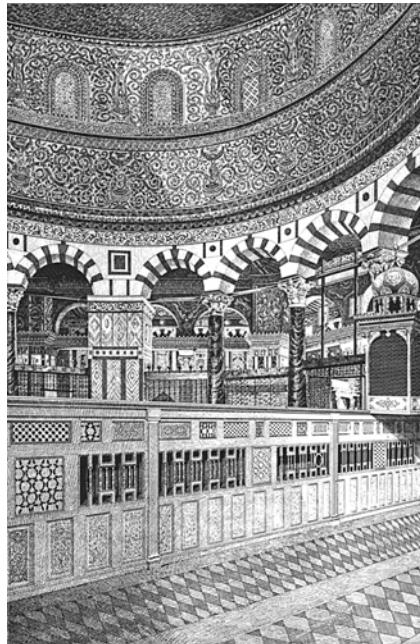


شكل ٨-١: جامع عمر بالقدس (من تصوير المؤلف الفوتوغرافي).

وتُرِى في وسط جامع عمر تلك الصخرة الشريفة التي يقال: إن ملِكِصَادَقَ وَإِبْرَاهِيمَ وَدَاوَدَ وَسَلِيمَانَ كَانُوا يُضْحِيُونَ بِقَرَابِيهِنَّ عَلَيْهَا، وَنَرِى مَعَ ذَلِكَ، أَنَّ تَلَكَ الصَّخْرَةَ هِيَ ذُرْوَةُ جَبَلِ مَرِيَّةِ الَّتِي احْتَرَمَهَا سَلِيمَانَ حِينَ تَوَطَّنَتْ لَهُذَا الْجَبَلِ، كَمَا ذَكَرْنَا آنَفًا، فَاتَّخَذَهَا مَذْبَحًا فِي هِيَكَلِهِ لَا رِبِّ.

ويبلغ طول تلك الصخرة المقدسة سبعة عشر متراً، ويبلغ ارتفاعها مترين، ويحيط بها سياج حديدي مصنوعٌ في زمن الصليبيين، ويُشار في الغار الذي تحت تلك الصخرة إلى المكان الذي رُوِيَ أن داود وسليمان صَلَيا فيه.

وتقول القصة العربية: إن مُحَمَّداً ذَهَبَ عَلَى الدَّابَّةِ الْخَيَالِيَّةِ الَّتِي تَكَلَّمَنَا عَنْهَا آنَفًا مِنْ ذُرْوَةِ تَلَكَ الصَّخْرَةِ لِيَكْلُمَ اللَّهَ، وَتَؤَيِّدُ هَذِهِ الْقَصَّةُ بِوُجُودِ سَرْجِ رُخَامِيِّ لِتَلَكَ الدَّابَّةِ لَا يَزَالُ مَرْصُعًا فِي قَبَّةِ الصَّخْرَةِ، وَتَنْهَبُ هَذِهِ الْقَصَّةُ إِلَى أَنْ جَبَرِيلَ هُوَ الَّذِي مَنَعَ تَلَكَ الصَّخْرَةَ مِنْ مَصَاحِبَةِ مُحَمَّدٍ فِي رَحْلَتِهِ بَعْدَ أَنْ ارْتَفَعَتْ مِنَ الْأَرْضِ بِضَعْفَةِ أَمْتَارٍ، وَأَنَّ تَلَكَ الصَّخْرَةَ بَقَيَتْ مَعْلَقَةً فِي الْهَوَاءِ مِنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ رَاغِبَةً عَنِ الْعُودَةِ إِلَى حِيثُ كَانَتْ، وَهَذَا مَا يَرْدَدُهُ سَدَنَةُ جامعِ عمرِ لِلزَّائِرِينَ بِإِخْلَاصٍ، وَمَعَ ذَلِكَ، فَقَدْ أَتَيْحَ لِي فِي أَثْنَاءِ دراستِي الطَّوْلِيَّةِ لِجَامِعِ عمرِ وَحْدِيَّيِّ الْكَثِيرِ مَعَ قَيْمِهِ أَنْ أَسْأَلَ هَذَا الْقَيْمَ عَنْ رَأْيِهِ فِي ذَلِكَ فَرَأَيْتُهُ ضَعِيفَ الإِيمَانِ بِصَحَّتِهِ، وَظَهَرَ لِي أَنَّ حَاكِمَ الْقَدِيسِ الْعُثْمَانِيِّ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ حَظَرَ عَلَى سَدَنَةِ ذَلِكَ الْجَامِعِ رَوَايَةَ هَذِهِ الْأَسْطُورَةِ لِلنَّصَارَى.



شكل ٩-١: داخل مسجد عمر (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

ويعلو قبة جامع عمر هلاً عظيم.
ويُرى في الحرم، أمام جامع عمر، منبر عربي جميل مصنوع من الرخام الأبيض
وتعلوه قبة صغيرة قائمة على حنایا مصنوعة على شكل نعل الفرس، ويسمى هذا المنبر
منبر عمر وإن أُنشئ بعد عمر بزمن طويل، أي في القرن الخامس عشر من الميلاد.
ونذكر من بين الأبنية المهمة القائمة في الحرم البناء المعروف بقبة السلسلة أو
محكمة داود، وهذا البناء جَوْسُقُ حجري أنيق مبني على الطراز البزنطي ومستورٌ
بالمينا الفارسي، وتقول القصة: إن محكمة داود كانت قائمة هناك.

(٤-٢) المسجد الأقصى

بني المسجد الأقصى في الحرم القدسي، وهو قديم أيضًا، وأصل المسجد الأقصى كنيسة بناها القيصر جوستينيان تجلياً للعذراء، وحولها العرب إلى مسجد بأمر الخليفة عمر، ثم هدم الزفال المسجد الأقصى، وجدد بناؤه في سنة ٧٨٥هـ، ثم نالته يد الإصلاح وأكسيته مسحة عربية مع الزمن، ولو في الجزئيات على الأقل، ثم رممّه صلاح الدين في سنة (١١٨٧هـ / ٥٨٣م)، ثم جدد في القرن الخامس عشر من الميلاد، بعض أجزائه، كرواقه مثلًا.

ويشتمل المسجد الأقصى على أعمدة أخذت من مبانٍ كثيرة، ونرجح أن صحوته المركزية، التي هي على الطراز البيزنطي، أنشئت في القرن السابع. وأقواسُ المسجد الأقصى مصنوعة على رسم البيكاريين على العموم، وسكن الصالبيون المسجد الأقصى، واتخذوا دهليزه مستودعاً لأسلحة فرسان الهيكل.

ويحتوي المسجد الأقصى على محرابٍ أنيقٍ مزین بالفسيفساء، وتدل كتابته على أن صلاح الدين هو الذي أنشأه في سنة (١١٨٧هـ / ٥٨٣م)، وأقيم متربه العجيب المصنوع من الخشب المنقوش المرصّع بالجاج والصدف في سنة (١٦٨هـ / ١١٦٤م) ويعود زجاج نوافذه التي تعلو محرابه إلى القرن السادس عشر من الميلاد.

ويرى في جانبي المسجد الأقصى گوتان طريقتان للصلوة؛ إحدهما: ذات أعمدة مبرومة، وحنايا مصنوعة على رسم البيكاريين، وتدعى محراب عمر على رغم أن عمر صلٌ فيه، وتدعى الأخرى: محراب زكرياء عادةً.^٤

(٤-٣) المباني العربية الأخرى في القدس

مباني العرب الأخرى في القدس أقل أهمية مما ذكرناه آنفًا، ونكتفي بأن نذكر منها: باب دمشق الجميل الذي جدد السلطان سليمان بناءً، وإن شئت فقل رممّه، في سنة (٩٤٤-١٥٣٧م).

ونحن إذا استثنينا المباني الأثرية الأخرى القليلة، ككنيسة القيامة، لم تَر في القدس غير المباني العصرية، وللنفوذ الأوروبي في القدس أثرٌ ظاهر مؤدٌ إلى نزع طابعها الشرقي بالتدريج، والماء حينما يقترب من القدس عن طريق يافا، يشعر بتبدل أحلامه، فهو يرى أدبار الرهبان والمشافي والقنصليات الكثيرة في ضاحية إحدى المدن الكبيرة،

ومن يرحب في احتلاء عظمة القدس وجلالها فليصعد في جبل الزيتون على الخصوص، ثم ليرجع البصر ليرى القدس الراخة بالقباب والماذن والأسوار والبروج ذات الشرفات والبيوت ذات الbahas.

وما في القدس من الذكريات يكفي وحده؛ لجعلها موضع تمجيد، ولاجتناب الحاجاج إليها من أقصى أقطار الأرض، ويَا لسحر تلك الذكريات ويا لروعتها في قلوب المؤمنين الذين يزورون القبر المقدس وجبل الزيتون ووادي قدرون ووادي يهو شافاط وضرير العذراء وتربة ملوك اليهودية والطريق المقدس وجبل صهيون ... وما إلى ذلك من الأمكنة التي تكُن في الحوار!

ومهما يكن المرء ملحداً فإنه لا يستطيع ألا يكتثر للقدس التي هي مَبْنِي إحدى الديانات الكبرى، ويُخَيَّلُ إلى الإنسان أن ظِلَّ المسيح يُشَرِّف على القدس التي شهدت وفاته، ولا يزال اسمه يَطِنُ فيها، وليس بجاز أن يُبحَث بحثاً عميقاً في أمر هذه الأماكن المقدسة؛ لما في هذا من حُطٌ لنفوذها، والخيال الذي أملأه الإيمان المتين هو الذي دل عليها مع ضياع أثرها منذ زمن طويل، فهل تلك الحديقة هي حديقة الزيتون التي ندب المسيح فيها حَظَّه؟ وهل تلك الطريق هي الطريق التي مشى عليها المسيح ليُصلِّب؟ وهل ذلك القبر الذي يُعْظِمُه النصارى هو القبر الذي ضَمَ جُثمان المسيح بعد موته؟

إن علم الآثار الحديث شديد في أجوبته عن هذه الأسئلة، فهو يقول: إن القدس الحاضرة قائمة، عدة أمتار، على أنقاض القدس الماضية التي أمر بهدمها تيطس، فيتعذر رسم خططها القديمة، ولكن الإيمان وحده يكفي المؤمن، ولا غرو، فالإنسان لا يقدّس غير الخيالات، والقديم منها أكثر ما يُكِرِّمُ؛ لأنه أكثر ما أُكِرِّمَ.

(٤-٤) برج الرملة العربي

أذكر برج الرملة من بين مباني العرب القديمة القليلة في سوريا، ويقوم هذا البرج بالقرب من مدينة الرملة الصغيرة الواقعة بين القدس ويافا.

ويُسَمِّي العرب برج الرملة ببرج الشهداء الأربعين، ويؤكد العرب أنه دُفن فيه أربعون شهيداً من المسلمين.

وبرج الرملة مثالٌ جميل لفن العمارة العربية، وهو مربع الشكل، ويدخله النور من نوافذ مصنوعة على رسم البيكارين، وتُبلغ ذروته بمِرْقاً مَوْلَفة من ١٢٠ درجة لا تزال في حالة جيدة خلا الدرجات الأخيرة منها.



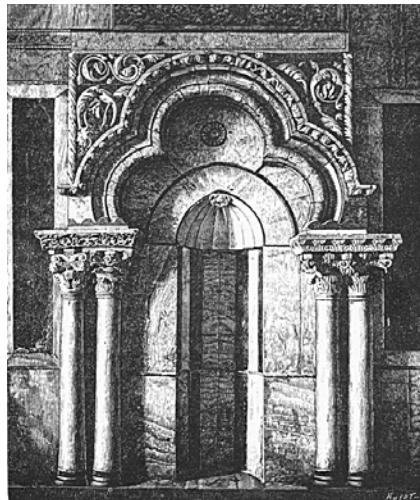
شكل ١٠-١: سقف الرواق الأول الداخلي في جامع عمر (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

وعدّ بعضهم برج الرملة أثراً صليبياً، وهو يُذَكِّرنا بالطراز الذي نقله الصليبيون إلى أوربة في الحقيقة، ولكنه لا ينبعي الشك في أصله العربي الثابت بدقاته وفنّ بنائه، وبالكتابة التي تدل على أنه أُنسٍي في سنة (١٢١٠ هـ / ١٧٥٠ م)، والتي تتطابق ما رواه أحد مؤرخي العرب من أن ابن السلطان قلاون هو الذي بناه، وتَنْفي الحالة التي عليها الحجر المنقوشة عليه تلك الكتابة كلّ احتمال بإضافة هذا الحجر مؤخراً إلى برج الرملة.

(٤-٥) مباني العرب في دمشق

ذكرنا، حين بحثنا في أحوال العرب قبل ظهور محمد، أن دمشق كانت مستودع تجارة الشرق في فجر التاريخ، وكان العرب يعرفون دمشق قبل ظهور محمد بعده قرون لجلبهم محاصيل بلادهم إليها، وكانت دمشق جنة الدنيا في نظرهم، وكانت دمشق من

أروع مدن العالم في غابر القرون كما هي الآن، ودمشق هي التي قال القيصر جوستينيان إنها «نور الشرق».

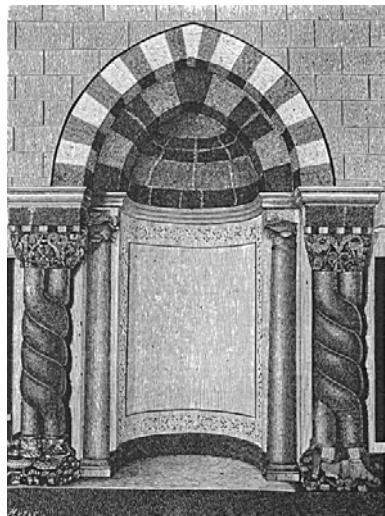


شكل ١١-١: محراب زكريا في المسجد الأقصى (من صورة فوتوغرافية التقاطها المؤلف).

وكانت دمشق من الأهمية ما اتخذها العرب معه عاصمة لدولتهم بدلاً من المدينة، كما قامت بغداد مقام دمشق بعد زمن طويل. وظلت دمشق مركزاً كبيراً للتجارة والعلوم والصناعة في الشرق حتى بعد أن عادت لا تكون عاصمةً لدولة العرب، وكانت لدرستها الطبية ومرصدتها الفلكي وقصورها ومساجدها شهرة عالمية.

وظلت دمشق، التي كانت معاصرةً لدور الأهرام، موجودةً مع استيلاء الآشوريين والميديين والمصريين والفرس والأغارقة والرومانيين والعرب والترك عليها بالتتابع، ولكن انتهابها وإحراقها مما أتى على قصورها تقربياً.

والعرب، وإن زالت سيادتهم عن دمشق، يملكونها بدينهם وعاداتهم ولغتهم، وقد تكون دمشق من أكثر مدن العالم اصطفاً بصبغة العرب، وقد نجت دمشق من النفوذ



شكل ١٢-١: محراب عمر في المسجد الأقصى (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

الأوربي تماماً؛ لعطاها من مكان للأوربي إلا نادراً، وذلك خلافاً لبقية سورية، وليس دمشق كالقاهرة التي تتفرنج كل يوم مع أن العرب هم الذين أنشأوا القاهرة، وثبت ملكهم فيها عدة قرون، ومع أن القاهرة تشتمل على أبنية عربية أعظم قيمةً مما في دمشق.

وعلى من يريد أن يطلع على طبائع الشرق، وأن يرجع إلى منبع التاريخ، ويعيش في الماضي، أن يزور دمشق.

وتبدو دمشق ذات المآذن الجميلة، وغوطتها للناظر من بعيد ذات منظر ساحر أجمع السياح على امتداده وإن لم أره يعدل منظر القاهرة الفتان من فوق قلعتها، قال مسيو داقيق:

يرى السائح الذي يقترب من دمشق أنه لا شيء يُعد عظمتها وروعتها وسحرها، فلدمشق غوطتها النَّسِرَة التي تقع بين سهل واسع، والتي تتخللها منازلُ القوم وحدائقهم، والتي تحيط بأغرب ما في الدنيا وأسطع ما فيها

من أسوار خلأً لمعاقل الغرب الشاحبة الكامدة القذرة، وتبدو هذه الأسوار، المؤلفة من حجارة صُفر وسُود مدورٍ ومربعة ومثلثة على ألف شكل مع الانسجام، حَمْلَةً مُوشَّحةً بالزبارج كما وصفها شعراء الشرق.

وليس ذلك النطاقُ كل ما يبدو للأعين، فهناك أسوارٌ في داخل المدينة تفصل بين أحياها، وهناككُ أسوار ذات أبراج مربعة قائمٍ على جوانبها، وهناككُ أسوار تعلوها زخارف على شكل عوائِم.

ولكن هذا ليس سوى المرحلة الأولى من المنظر، فصميم المدينة أنسى وأبهى، وهو يتَّألف من أشجار تَالْفَهُ من بيوت، وذلك أن هنا صَفَّا من شجر السَّرو، وهنا محلًا للنَّزَهَة، وهناك أقواسًا عربية، وهناك سوقًا للأخذ والعطاء، وهناككُ نخلًا تَهُرُّ رعوتها الجميلة فوق حوض على شكل نصف دائرة لعين عظيمة، وهناككُ أشجارًا مثمرة مصفوفة على شكل رقاع الشطرنج داخل قصرٍ إسلامي، ثم هناك أكثر من ألف قبة تعلوها الأهلة النحاسية والمآذن الرفيعة القائمة على جوانبها.

ولتلك الروضة المزهرة أشجارٌ عالية وحدائق جميلة ذات وَقْعٍ في النفوس كأشعة الشمس الوَهَاجَة، ولها شَعْبٌ بَرَدَى السبع المُتَلَوِّيَّة الفضية التي تَهَبْ دمشق سحر الألوان أيضًا؛ تلك هي دمشق التي يُسمّيها العرب بالشام، والشام ما يُسمّى به العرب بلادًّا سورية.

والأوريبي، حين يدخل دمشق التي يُسمّيها العرب دُرَةَ الشرق، لا تستهويه أول وهلة، وإنما تؤثر فيه طُرُقٌ مُعَوَّجةٌ قَدِيرَةٌ تقوم على طَرَفِيهَا بيوت خَرِبَةٌ ذات جدران مصنوعة من طين وتبن، وتتوَّرُّ فيه أَعْفَارٌ تُعمي الأبصار بما لا يتصوره الإنسان، ولا يزول هذا التأثير السيئ عن الأوريبي إلا بعد تَالْفَهَا.

وتجارة دمشق الواسعة القائمة بينها وبين بقية الشرق تمنحها حياة عظيمة وتطابقًا شرقيًّا خاصًّا، والقوافل التي تأتي من بغداد تُوصِّلُ إليها منتجات فارس والهند، وتحمِّلُ القوافل إلى ذيتك البلدين نسائجها الحريرية المشهورة وبُزُورَها وجلودها المدبوعة ونحاسها المكَفَّت بالفضة.

وأقول، مكرّراً: إنه يجب على من يرغب في اجتلاء الشرق وألوانه اللامعة أن يزور دمشق، وأهمُّ ما يستوقف النظر في هذه المدينة القديمة ويبدو متنوّعاً هو طُرُقُها

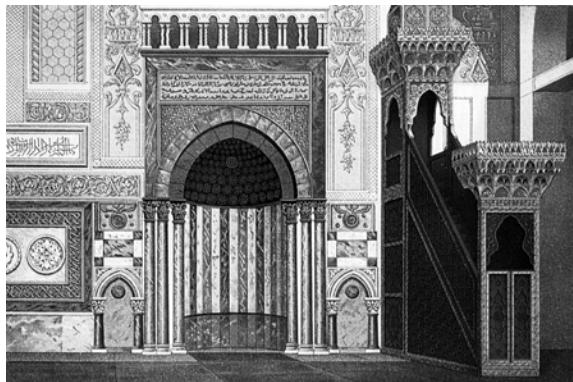
وأسواقها التجارية الطريفة، واستجلاء أمثلة مختلف أمم الشرق في بضع ساعات، ففيها يُرى الفرس ذوو القلنس الفُرْقَنِية والخناجر الزُّنَارِيَّة، ويُرى السوريون ذوو الـحُلُل المخططة والكوفيات والعُقُولِ الـوَبَرِيَّة، وتُرى النساء العربيات ذوات المأزر البيض التي تلمع عيونهن المتقدة من خلالها، ويُرى الدمشقيون ذوو الطرابيش الحُمُر أو العمامات البيض والألبسة الحريرية المخططة بخطوط بيض وسود المشدودة بزنانير، ويُرى حاجي البيت الحرام ذوو الثياب الرَّثَّة، ويُرى قَوَاسِو القناصل ذوو السياط والملابس المُلْوَّثَة الزُّرْق والـخَطَّوَات الموزونة، ويُرى الموظفون العثمانيون ذوو الأَرْدِيَّة الرسمية القاتمة، ويُرى فرسان الدروز ذوو العُجُب المُنْطَقُون بالسلاح والراكيبيون عتاق الخيل التي تعلوها سروج جلدية قِرْمِزَيَّة مزيينة بقطع لامعة من الذهب والفضة، وتُرى قُطْرُ الجمال يحرسها تجار آتون من كرمان والأناضول وشواطئ الفرات، ويُرى الأكراد والأعراب والأرمين والموارنة واليهود وروم الأرخيبل، ويُرى في هذه الأختلاف في الألوان كالذى يُرى في قوس قُرَح، ويُرى فيها ذوو البياض الناصع ذوو السواد الحالك ذوو الألوان التي بين اللونين.

وقد خُلِّيَّ إلى، حينما كنت جالساً على متاكاً في إحدى القهوات العربية بدمشق، وكانت أتأمل أولئك الناس من خلال دُخان نارجيلتي، أي من خلال هذا المنظار السحري الغريب، أن قدرة ساحرة نقلتني من فوري، ولساعة، إلى بيته حاوية لألم آسي في غابر الأزمان.

أجل، رأيت، على ما يحتمل، منظراً مُنوِعاً كذلك على الجسر الممتد من غَلَطةَ إلى الضفة الأخرى من القرن الذهبي في الآستانة، ولكن العنصر الأوربي هو الغالب هناك مقداراً فمقداراً، ومن ثم أرى أن الشرق عاد لا يتجلَّ وحده في الآستانة مع ما فيها من الأمثلة المتباعدة لختلف شعوب العالم.

ويستعد علماء الآثار وهواء التحف ورجال الفن طول الإقامة بدمشق؛ لما يجدون فيها من بقايا المباني ما يتطلب وصفه مجلداً ضخماً، وما يُخشى أن يزول بعد زمن قليل لداعيه يوماً بعد يوم، ويُرى في كل خطوة من ضاحية الميدان الواقعة على مدخل طريق مكة أنقاض مساجد وعيون وأبنية أخرى ترجع إلى ما قبل مئتي سنة أو ثلاثة مائة سنة، وتشتمل على ضروب من الزينة القديمة وفُوق تقاليد العرب، ويشاهد في تلك الآثار أثر للفن الفارسي غير قليل.

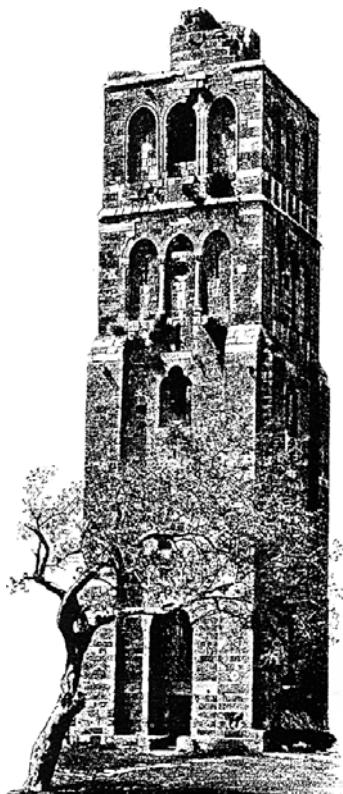
ويمكن الباحث أن يلاحظ في دمشق وحدها قصوراً على الطراز العربي القديم مشتملاً على وسائل للراحة والرفاهية مع الذوق لا يُرى مثلها في أرقى مساكن أوربة، ومن دواعي الأسف أن نرى سنة الكون تُجري حكمها على هذه القصور فتزول.



شكل ١٣-١: محراب المسجد الأقصى ومنبره بالقدس (من تصوير المؤلف الفوتوغرافي).

وبما أنني سأتكلم في فصل آخر عن أحد هذه القصور فإنني أكتفي الآن بذكر الجامع الكبير الذي هو أقدم مباني دمشق. بُني الجامع الكبير، الذي يرجع قسم منه، على الأقل، إلى ما بعد الهجرة بزمن قليل، على أنقاض معبد وَثَبَّيْ حَوْلَه النصارى إلى كنيسة، ثم التهمته النيران في سنة (١٠٦٩ هـ / ١٦٥١ م) فجُدِّد بناؤه، وهو دون ما كانت عليه حالته الأولى، وأقل أهمية من مساجد القاهرة على الخصوص.

وأقيم جامع دمشق الكبير على هيئة المساجد الإسلامية الأولى، فهو يتألف مثلاً من ساحة كبيرة قائمة الزوايا ذات أروقةٍ خُصّص بعضها للصلوة، وأقيمت على أركانها مآذن، وسنصف في الفصل الذي نتكلم فيه عن عرب مصر مساجد كثيرة من هذا الطراز. وروى مؤرخو العرب أن الرخام النادر كان يستر أسفل جدران ذلك المسجد الجامع، وأن الفسيفساء كانت تستر أعلىها كما تستر قبته، وأن سقفه كان مصنوعاً من الخشب



شكل ١٤-١: برج الرملة (من صورة فوتوغرافية).

المُمَوَّه بالذهب، وأن مصابيحه، وعدها ستمائة، كانت من الإبريز، وأن محاريبه كانت مرصعةً بالحجارة الثمينة.

ولم يبقَ من تلك الزينة سوى الشيء القليل، وتُرْيَنْ جدرانه الآن خطوطٌ جميلة، وبيزَّينْ نوافذه زجاج ذو ألوان كثيرة، ويشاهد في مواضع منه أثرُ الفسيفساء القديمة. ويشتمل ذلك الجامع الكبير على مئذنتين مربَّعَتَيِ الشكل، وعلى مئذنة ثالثة أنيقة مُثمنَةِ الشكل ذات أروقة مُنْضَدَّة ومتَّهِيَّة بُكْرَة وهلال، ومئذنة العروس أقدم هذه المآذن

الثلاث، وتَرْجِعُ في قِدْمَهَا إِلَى الْقَرْنِ الْأَوَّلِ مِنَ الْهِجْرَةِ كَمَا يُعْتَقَدُ، وَمَئِذَنَةُ عِيسَى، وَهِيَ إِحْدَى هَذِهِ الْمَآذِنِ، مُرَبَّعَةُ الشَّكْلِ، وَتَقُولُ الْقَصَّةُ الْعَرَبِيَّةُ: إِنْ عِيسَى سَيَنْزَلُ عَلَى ذَرْوَتِهَا يَوْمَ الْحِسَابِ لَا رِيبَ.

ظَهَرَ مَا تَقْدِيمَهُ أَنَّ الْعَرَبَ احْتَرَمُوا مِنْذُ دُورِ الْفَتْحِ الْأَوَّلِ، آثارُ الْأَمَمِ الَّتِي مَلَكُوهَا وَلَمْ يَفْكِرُوا فِي غَيْرِ الانتِفَاعِ بِحُضَارَتِهَا وَتَرْقِيَتِهَا، وَذَلِكَ خَلَافًا لِكَثِيرٍ مِنَ الْأَمَمِ الْفَاتِحَةِ الَّتِي جَاءَتْ بَعْدَهُمْ، وَأَنَّ الْعَرَبَ الَّذِينَ كَانُوا أَمِينِينَ فِي بَدْءِ الْأَمْرِ لَمْ يَلْبِسُوا أَنْفَاسَهُمْ، وَأَنَّهُمْ تَعْلَمُوا بِسُرْعَةٍ مَا كَانُوا يَجْهَلُونَ مِنْ فَنَّوْنَ الْحَرْبِ، وَاسْتِعْمَالِ آلاتِ الْحَصَارِ الرُّومِيَّةِ؛ فَسَبَقُوا أَعْدَاءَهُمْ فِي ذَلِكَ، وَأَنَّهُمْ بَعْدَ أَنْ كَانُوا مُبْتَدِئِينَ فِي الْعِلُومِ وَالْفَنَّوْنِ مَا تَلَوُهُ الْأَمَمُ الْأُخْرَى فِيهَا بِفَضْلِ مَا أَنْشَأُوا مِنْ الْمَدَارِسِ ثُمَّ تَقْدُمُوهَا، وَأَنَّهُمْ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا غَيْرَ عَالَمِينَ بِفَنَّوْنَ الْعَمَارَةِ، وَبَعْدَ أَنْ اسْتَخْدِمُوا مُهَنْدِسِينَ مِنَ الرُّومِ وَالْفَرَسِ فِي تَشْيِيدِ مَبَانِيهِمْ، اسْتَطَاعُوا بِالْتَّدْرِيجِ أَنْ يَتَخَلَّصُوا كُلَّ الْخَلَاصِ مِنْ كُلِّ مُؤْتَرٍ أَجْنبِيٍّ بِمَا أَحْدَثُوا مِنَ التَّغْيِيرِ وَالْتَّبَدِيلِ فِي فَنَّوْنَ الْعَمَارَةِ وَفَقَدْ ذُوقُهُمُ الْفَنِّيِّ كَمَا نَرَى ذَلِكَ عَمَّا قَلِيلٌ.

هُوَامِش

- (١) الدلب: شجر عظيم عريض الورق لا زهر له ولا ثمرة.
- (٢) يعود انحطاط الزراعة في سوريا إلى عدة أسباب، ومنها الجفاف الناشئ عن قطع غابتها، ومنها غارات الأعداء، ومنها ظلم الباشوات؛ فالفللاح، الذي يعلم أن ما يذخره يكون عرضة للنهب لا محالة، يتყادع عن العمل. ولو قدر لسوريا نوع من الإدارة الرشيدة التي تحمي رعوس الأموال؛ لبلغت زراعتها ما بلغه أغنى بلاد أوربة، ففي سوريا ينبع القمح ويربى شجر التوت وينمو الزيتون من غير عناء وبما يثير العجب، ويستدل على ما يمكن أراضي سوريا أن تنتجه بالمعلومات الآتية التي جمعتها في أمكنتها، وهي: فكر بعض سكان يافا وصيفاً منذ أربعين سنة في زراعة البرتقال، فأصبحت هذه الزراعة من أهم موارد البلاد، ففي يافا وحدها ٣٥٠ حديقة بررتقال تشمل كل واحدة منها على ٢٠٠٠-٣٠٠٠ شجرة، ويترجح ثمن الواحدة منها بين أربعين ألف فرنك وخمسين ألف فرنك، ويترجح دخلها السنوي بين أربعة آلاف فرنك وخمسة آلاف فرنك، وتتابع ثمار هذه الحدائق في مصر وتركية وأوربة، ويبلغ ثمن كل ألف حبة بررتقال أربعين فرنكاً، ويمكنك أن تقدر المدى الذي قد تبلغه زراعة البرتقال في تلك البلاد إذا علمت أن ثمن الفدان الأملاس الواحد (نحو أربعة آلاف متر مربع) الصالح

لزراعة البرتقال في جوار يافا ١٢٠٠٠ فرنك، وأنه لا يزيد على بضعة فرنكات في الأرضي التي تبعد منها ساعتين أو ثلاث ساعات، وينتظر أن تعد لزراعة البرتقال الأرضي التي يسهل ريها من نهر العوجة، والتي لا قيمة لها في الوقت الحاضر.

(٣) إن وصفنا لجامع عمر وغيره من المباني العربية مختصر عن ضرورة، وهو مع اختصاره يكفي لإتمام صور هذا الكتاب الصادقة، ويطلب وصف كل واحد من أكثر المباني العربية المهمة، التي ذكرها في هذا السفر وصفاً جاماً، ما لا يقل عن مجلد واحد، فقد خصص مسيو دوقوفييه مجلداً واحداً لوصف جامع عمر، وخصص أوبين جونس مجلدين مصورين ضخمين لوصف الحمراء وحدها، وخصص برييس الأقيني ثلاثة مجلدات لوصف مباني القاهرة، وهناك أبنية عربية كثيرة لم توصف مفصلاً بعد، واكتفى المؤرخون بذكرها من غير أن ينشروا صورها في الغالب، وإن في نشر صورة لكل واحد منها ما يعني عن بيان مائة صفحة، ونحن، والحالة هذه، نأمل أن تكون لدى القارئ فكرة جامعة صائبة في مباني العرب بعد إنعامه النظر في الصور التي عرضناها في هذا الكتاب، ونرى أن صورنا الفوتوغرافية، التي هي الأولى من نوعها عن داخل جامع عمر على الخصوص، أصدق من أي رسم جاء عنه في أي كتاب نُشر حتى الآن، فبهذه الصورة الفوتوغرافية ظهر ما في داخل هذا الجامع من الدقائق، وذلك مع ما اعترضنا حين التقاط هذه الصور من المصاعب بسبب تفاوت نور داخل هذا الجامع، وتعذر دفع آلة التصوير إلى الوراء عند الاقتضاء، وليس من غير مصاعب كبيرة ما وفقنا لنيله من الصور التي يشتمل عليها هذا الكتاب.

(٤) رسمت جميع الصور والألواح التي عرضنا بها مختلف أقسام المسجد الأقصى وجامع عمر من الداخل وفق صورنا الفوتوغرافية، ولم تظهر في أي كتاب آخر بعد، وكان لنا بمسيو مالپرتوي عون نافع في تلوين صورنا الفوتوغرافية عن زجاج النوافذ والحراب حيث هما.

(٥) مقدم كنيسة القيامة العجيب ذو رسوم هندسية وحتاها قوطية قريبة من الحنایا المصنوعة على شكل نعل الفرس، فأعده مختاراً من المباني العربية، أو من المباني التي أثر فيها الطراز العربي على الأقل.

الفصل الثاني

العرب في بغداد

(١) حضارة العرب في الشرق في دور الخلافة ببغداد

دور الخلافة في بغداد بأسية ودورها في قرطبة بإسبانية أنسرا أدوار الحكم العربي، ولما استقلّت تلك الدولتان بسرعة، وفصلت بينهما مساوف عظيمة، كان لهما أصل واحد ودين واحد ولغة واحدة، تقدّمتا تقدماً متوازياً عدة قرون، وكانت المدينتان الكبيرتان، بغداد وقرطبة، وهما القاعدتان اللتان كان السلطان فيهما للإسلام من مراكز الحضارة التي أضاءت العالم بنورها الوهاج أيام كانت أوربة غارقة في دياجير الهمجية. ولم يلبث دور ازدهار حضارة العرب أن بدأ بعد أن فرغوا من فتوحهم، وما بذلوا من الجهد في الواقع الحربي في البداءة وجّهوا مثله إلى الآداب والعلوم والصناعة، فتقدّموا في الفنون السلمية مثل تقدمهم في الفنون الحربية.

ورأينا أن دمشق أصبحت عاصمة دولة الأمويين العربية بعد المدينة، فلما قبض العباسيون على زمام الخلافة في سنة (١٣٢ هـ / ٧٤٠ م) عزموا على تبديل العاصمة، فأقاموا بالقرب من بابل وعلى شاطئ دجلة، مدينة بغداد التي لم تثبت أن صارت أشهر مدن الشرق.

ولم يبق من المباني التي شادها الخلفاء في بغداد مثل ما بقي في سوريا، ولكن ما انتهى إلينا من آثار العرب في العلم والأدب في ذلك الدور وما ورد في كتب مؤرخيهم يكفي لتمثل حضارتهم في القرن التاسع من الميلاد، وما نذكره الآن، وما ندرس في الفصول الآتية من تاريخ العلوم والفنون، يُلقي نوراً على ناحية مهمة من نواحي الحضارة العربية لم نوضحه في الفصل السابق.

بلغت بغداد ذروة الرخاء في عصر بطل رواية ألف ليلة وليلة هارون الرشيد الشهير بم٨٠٩-٧٨٦ م وابنه المأمون (٨١٣-٨٣٢ م) وصارت أهم مدن الشرق، وذاع صيت

الرشيد، وطبق الآفاق، فأرسلت بلاد التتر والهند والصين رسلاً إلى بلاده، وأرسل عاهل الغرب الحقيقي وصاحب الحُول والشُوكَة، الإمبراطور شارلمان، الذي كان يملك ما بين المحيط الأطلنطي ونهر الإلب، وهو الذي لم يملك غير أناس من الهمَج — وفداً ليُبلغ الرشيد أطيب تحياته، ويلتمس منه الحماية لحجيج القدس، فأجابه الرشيد إلى سؤاله، ورَدَّ إليه وفده مع هدايا عظيمة، ومن بينها فيلٌ مجهَّز بأفخر جهاز، والغيل كانت تجهله أوربة تماماً، ولائلٌ وجواهر وحليٌّ وعاج وعطور ونسائج حريرية وساعةً دقاقة تدل على الوقت، وقد قضى إمبراطور الغرب شارلمان العجب من هذه الساعة هو وحاشيته المتبربون الذين لم يكن بينهم من قدر على إدراك كُنهِها، والذين حاول شارلمان عبثاً أن يحملهم على إحياء حضارة الرومان.

وجلس الرشيد على عرش الخلافة في الثالثة والعشرين من سنِيه، وكان تنظيم شؤون دولته الواسعة أول ما فكر فيه، فوصلت ولايات الدولة بوسائل نقل منظمة، وأنشئت مراقبة؛ لتتمكن البرُد بها من قطع المسافوف الكبيرة على عجل، وعني بحمام الزاجل لربط ما بين المدن بالرسائل كما هو واقع بين بعض المدن في الوقت الحاضر، وكانت إدارة البريد ببغداد من أهم وظائف الدولة كما في أوربة الحديثة. وكان الولاية على رأس الولايات، وكانوا يمتنون أوامر الخليفة، وكان يقوم مقام الخليفة في الولايات الثانية، كشمال إفريقيا، أمراء وراثيون استقلوا مع الزمن استقلالاً تاماً.

وكانت مالية الدولة دقِيقَة الضبط، وكان دخل الدولة قائماً على الجزية والخراج والمكوس وإحياء الموات واستخراج المعادن، ورَوَى مؤرخو العرب أن دخل الخلافة السنوي بلغ مئتي مليون فرنك، أي مبلغاً عظيماً في ذلك الزمان.

وكان يقوم بأعمال الجباية لجنة تدعى الديوان، قال ابن خلدون: «إن ديوان الأعمال والجبايات من الوظائف الضرورية للملُك، وهي: القيام على أعمال الجبايات، وحفظ حقوق الدولة في الدُّخْل والخُرْج، وإحصاء العساكر بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم في إباناتها، والرجوع في ذلك إلى القوانين التي يرتتبها قوَّمة تلك الأعمال وقَهَارَمَة الدولة، وهي كلها مسطورة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك في الدخل والخرج مبنيٌ على جزء كبير من الحساب لا يقوم به إلا المهرة من أهل تلك الأعمال، ويسمى ذلك الكتاب بالديوان، وكذلك مكان جلوس العُمَال المباشرين لها.»

وكانت إدارة الدولة موزعةً بين أربعة دواوين مماثلة لدواوين الزمن الحاضر: وهو ديوان الغنائم ونفقات الجند، وديوان الضرائب، وديوان الجباية، وديوان رقابة الدخل والخارج.

وكانت جميع أوامر الخلفاء تُكتب في سجل مَصْون؛ ليرجع إليها فيه من يأتون بعدهم.

وكان الوزير مرجع شؤون الدولة الأعلى، وكان أكثر الخلفاء يتكون له مقاليد الحكم تماماً، ويُشابه منصبه في عصر الخلفاء منصب رئيس الوزراء في أيامنا.

ولم تكن الشرطة في عهد الخلفاء أقلَّ انتظاماً من البريد والمالية، وكانت للتجار نقابة مسؤولةٌ لرقابة أمور البيع والشراء ومنع الغش والتلبيس.

وكانت انتظام مالية الخلفاء سبباً في القيام بأعمال عظيمة تعود على الناس بالخير، كتعبيد الطرق وإنشاء الفنادق والمساجد والمشافي والمدارس في جميع نواحي الدولة، ولا سيما بغداد والبصرة والمُوصل ... إلخ.

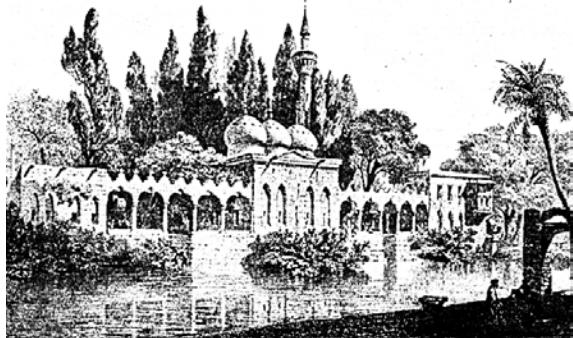
واتسع نطاق الزراعة والصناعة، واشتهر نبيذُ شيراز وأصبغان، وصار يصدر إلى البلاد البعيدة، وأنشئت مصانعُ للنساج الحريرية في الموصل وحلب ودمشق، وصار العرب يستغلون الممالح ومناجم الكبريت والرخام وال الحديد والرصاص ... إلخ، بطرق فنية.

ووُسعت دائرة التعليم العام، واستُدعي الأساتذة من مختلف أقطار العالم، وبلغ علم الفلك درجة رفيعة من التقدم، وانتهى إلى نتائج لم يَنْتَهِ إليها الأوروبيون إلا في العصر الحاضر، كقياس دائرة نصف النهار، ونُقلت إلى اللغة العربية كتبُ علماء اليونان واللاتين، ولا سيما كتب الفلسفة والرياضيات، وصارت تدرَّس في جميع المدارس، وباحث العرب في آثار القدماء، فسبقو الأوربيين إلى ذلك ببضعة قرون.

وأَقَدَّمَ العرب على تلك المباحث، التي لم يكن لهم عهد بها، بشوق ونشاط، وأكثروا من إنشاء المكتبات العامة والمدارس والمخابر في كل مكان، وكانت لهم اكتشافات مهمة في أكثر العلوم كما سترى ذلك في الفصول التي ندرس فيها تفاصيل حضارتهم.

وترى من الخلاصة السابقة أنَّ العرب بلغوا درجةً رفيعة من الثقافة بعد أن أتموا فتوحهم بزمن قصير، ولكن الإدارة الرشيدة والفنون المعقّدة كالتعدين وطراز العمارة، والعلوم كعلم الفلك؛ إذ كانت مما لا يأْتِي عَفْوًا لم يفعل العرب غير مواصلة الحضارات التي ظهرت قبلهم، كالحضارة اليونانية اللاتينية، فكانت لهم مبتكرات فيما ورثوه من

علومها وفنونها وطرق حُكمها، وكانوا بذلك على نقىض الروم الذين سلموا إلى العرب تُراث تلك الحضارات من غير أن ينتفعوا به، والذين سقطوا في أسفل دَرَكات الانحطاط.



شكل ١-٢: مسجد أورفة (العراق، من تصوير فلاندان).

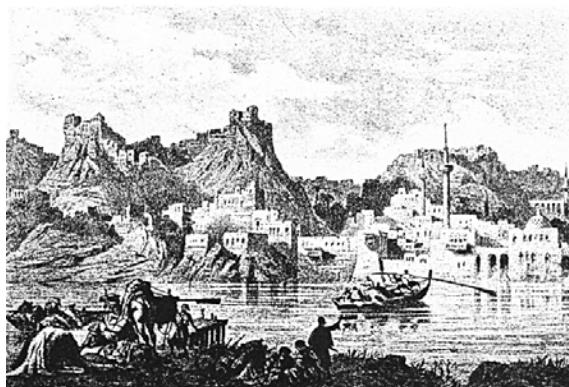
وكان حب العرب للعلم عظيماً، ولم يترك الخلفاء في بغداد طريقاً لاجتناب أشهر العلماء ورجال الفن في العالم إلا سلوكها، ومن ذلك أن شَهَر أحد أولئك الخلفاء الحرب على قيصر الروم؛ ليأذن لأحد الرياضيين المشهورين في التدريس ببغداد.

وكان العلماء ورجال الفن والأدباء من جميع الملل والنحل، من يونان وفرس وأقباط وكلدان، يتقارطون إلى بغداد، ويجعلون منها مركزاً للثقافة في الدنيا، وقال أبو الفرج عن المؤمن إنه «كان يخلو بالحكماء، ويأنس بمناظرهم، ويلتذ بمذاكرتهم علمًا منه بأن أهل العلم هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده ... فلهذا السبب كان أهل العلم مصابيح الدجى وسادة البشر، وأوحشت الدنيا لفقدتهم».

وكان أولئك يحيطون بخلفاء بغداد، وكان يمكن هؤلاء الخلفاء أن يُعُذُّوا قصراًهم أول قصور العالم وأنضرها، وتتجلى لنا أبهة بغداد الشرقية بالقول الآتي الذي وصف به المؤرخ العربي، أبو الفداء، استقبال أحد الخلفاء العباسيين لسفير قيصر الروم في سنة ٣٠٥هـ.

قال أبو الفداء:

قدِمْ رُسُل ملك الروم إلى بغداد، فلما استُحْضِرُوا عُبِّيَتْ لهم العساكر وصُفَّتْ الدار بالأسلحة وأنواع الزينة، وكان العساكر المصفوفون حينئذ مائة ألف وستين ألفاً ما بين راكب وواقف، ووقف الغلمان ذوو الزينة الحجرية والمناطق المُحَلَّة، ووقف الخدام الخصيان كذلك، وكانوا سبعة آلاف، أربعة آلاف خادم أبيض وثلاثة آلاف خادم أسود، ووقف الحجَّاب كذلك، وهم حينئذ سبعمائة حاجب، وألقيت المراكب والزوارق في دجلة بأعظم زينة، وزُينت دار الخلافة، فكانت السُّتُور المعلقة عليها ثمانية وثلاثين ألف ستر، منها اثنا عشر ألفاً وخمسمائة ستر من الدبياج المذهب، وكانت البُسط اثنين وعشرين ألفاً، وكان هناك مائة سبْعٍ مع مائة سبَّاع، وكان في جملة الزينة شجرة من ذهب وفضة تشمل على ثمانية عشر غصناً، وعلى الأغصان والقضبان الطيور والعصافير من الذهب والفضة، وكذلك أوراق الشجرة من الذهب والفضة، والأغصان تماثيل بحركاتٍ موضوعة، والطيور تُصَفِّر بحركاتٍ مرتبة، وشاهدَ الرسل من العظمة ما يطول شرحة، وأَهْضَرُوا بين يدي المقدَّر، وصار الوزير يبلغ كلامهم إلى الخليفة، ويُرْدُ الجواب عن الخليفة.



شكل ٢-٢: عبور الفرات عند بيره جك (من تصوير فلاندان).

وكانت قوة الخلفاء الحربية في بغداد تُناسب أهمية دولتهم، ويمكننا اجتناء ما كانت عليه من الهيبة في الخارج بما أكره عليه قيسار بزنطة الوارث لعظمة اليونان والرومان من دفع الجزية حين تَمْنَع عن إعطائهما عبئاً، فلما رفض خليفة الإمبراطورة إيرين، القيصر نيقفور، إعطاء الجزية في كتاب أرسله إلى الخليفة هارون الرشيد أجابه هارون الرشيد بالكتاب الموجز العنيف الدال على درجة الاحتقار الذي أضحي عُرْضاً له أبناء اليونان والروم الضعفاء، وإليّكَ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ هَارُونَ الرَّشِيدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى نِيقَفُورَ كَلْبِ الرُّومِ، قَدْ قَرَأْتَ كِتَابَكَ يَا ابْنَ الْكَافِرِ، وَالْجَوَابُ مَا تَرَاهُ، لَا مَا تَسْمَعُهُ.

رأى «كلب الروم» الجوابَ، فقد خَرَبَ هارون الرشيد بلاده تماماً، وأرغم قيسار القسطنطينية النصراني على دفع الجزية إلى أمير المؤمنين. ومن الإنصاف أنْ عُدُّ سلطان العرب السياسي في عصر الرشيد وابنه المأمون أقصى ما انتهى إليه سلطان العرب في الشرق، فقد كانت بلاد الصين حداً لدولة العرب في آسيا، ودَحَرَ العرب قبائل إفريقية المتوحشة إلى حدود بلاد الحبشة، ودحرروا الروم إلى البُسفور، ولم يقفوا في الغرب إلا عند المحيط الأطلسي، والحق أنْ هؤلاء القوم الشجعان الذين لبُوا دعوة محمد، وغَدُوا أمةً واحدةً، أقاموا دولةً بلغت ما بلغته دولة الرمان من الاتساع في أقلَّ من قرنين، وأن هذه الدولة بدت أكثر دول الأرض هيبةً وتمدنًا. بيد أن مصير الدول العربية العظمى المطلقة تابعٌ لاقتدارٍ وُلادةً أمرها، فإذا كان هؤلاء الولادة من العباءقة، كهارون الرشيد وابنه المأمون، أينعت تلك الدول وتقدَّمت، وإذا لم يكونوا أبناء بَجْدَتها هبطت بسرعةٍ أعظم من التي قامت بها.

ولم يكن كثيراً على أعاذه الرجال أن يحفظوا للخلافة هيبيتها تجاه ما كان يبدو من تَفَرُّقٍ لكلمة العرب في أنحاء الدولة، وتتجاه الأمم التي دحروها حيناً من الزمن من غير أن يُقْوِّضوا أركانها، وقد استقل البربر بعِيْدَ استقلال الأندلس، وقد أخذ الترك يَقْبِضُون بدسائهم على السلطة التي سينالونها كاملاً بسلاхهم ذاتَ يوم.

ولم تَخُبْ شُعلة الخلفاء العباسيين إلا في القرن العاشر من الميلاد، ولكن الخلافة العباسية كانت قد حَسِرَت سلطانها منذ زمن طويٍّ حينما غابت عن التاريخ.

لم يكن الترك الذين جيء بهم إلى بغداد من غير الأسرى أو الموالي الذين أعجبت الخلافة قُدوُدهم ففَوَّضُوا الخلفاء إليهم أمر حِراستهم، ولم يلبث هؤلاء الموالي أن صنعوا

كما صنع المالكين بمصر، فانفردوا بالأمر غير تاركين لسادتهم الخلفاء سوى سُلطة اسمية.

ولم يقدر الخلفاء على مقاومة جميع المطامع التي كانت تَحْيِق بهم، فانقسمت دولتهم إلى إمارات مستقلة، فلما توارى آخر العباسيين عادت بغداد لا تستطيع الادعاء بلقب آخر غير كونها الملاجأ الأول لعلوم الشرق وأدابه.

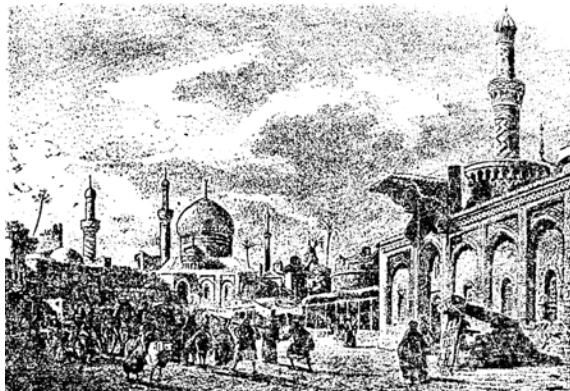


شكل ٣-٢: منظر في بغداد بالقرب من مسجد أحمد كهيا (من تصوير فلاندان).

والملوک هم الذين قَضَوا على الخلافة العباسية، والملوک جيلٌ من الأئمَّة البدويين يؤلِّف مع الترك عروقاً مختلفاً نَعْدُ منها أجلافاً هضبة آسية الوسطى الواسعة التي تَحُدُّها الجبال الفاصلة لها عن سiberia من الشمال، والتي تحدها الصين والتبتُ وبحر قزوين من الجنوب، ويرى علماء وصف الإنسان ولا سيما صديقي العالم الأستاذ دالي، أن الترك والملوک والمالكين، وأهل التبت على ما يحتمل، من أصل واحد يُدعى الأرومة المغولية، وظاهرهُ هذه الأرومة هي هيئةُ وجهها الخاصة وجلوُّها المُصفرَة الكامدة وشعورها المسنَّدَة^١ ... إلخ، ولا نزال نجد شبهًا بين التركمان والملوک، ومثل هذا الشبه كان موجوداً في غابر القرون بين الترك الخُلُّص والمغول لا ريب، فقد ذكر رشيد الدين في تاريخه عن المغول، الذي ألهه في القرن الثالث عشر، أن المغول والترك متشاركون تشابهَا يستوقف النظر، وأن اسم هذين الجيلين كان واحداً في غابر الأزمان.

ومن المستحيل أن ترى اليوم قرابةً بين المغول وترك أورية، ويرجع ذلك، لا ريب، إلى تزوجهما في قرون كثيرة بنساء من العرق القفقاسي كالكُرجيّات والشركسيات، والفارسيّات على الخصوص.

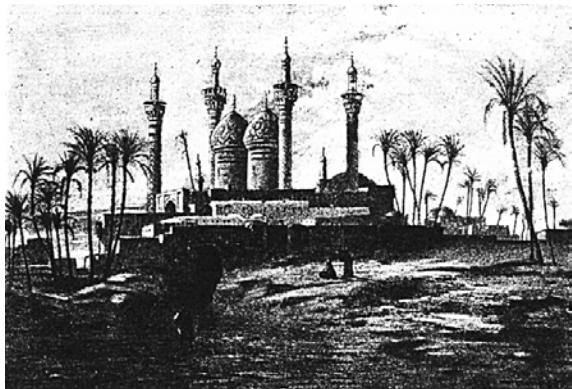
واستولى المغول على بغداد سنة (١٢٥٦هـ / ١٢٥٨م) وخرّبوا تماماً، وخنقوا آخر العباسيين، المستعصم بالله، بأمر رئيس الغالبين «هولاكو» ونهبوا ما في بغداد من الأموال، وحرّقوا كتبها التي جمعها قبل هذه الكارثة الهائلة محبو العلم وألقواها إلى نهر دجلة، فتألف منها جسر كان يمكن الناس أن يمروا عليه رجالاً ورُكباناً، وأصبح ماء دجلة أسود من مدادها، كما روى قطب الدين الحنفي.



شكل ٤-٢: منظر في بغداد (من تصوير فلاندان).

ولكن أولئك الوحش الضاربة الذين أضرموا النار في المباني، وأحرقوا الكتب، وخربوا كل شيء نالته أيديهم خضعوا لسلطان حصار المغلوبين بدورهم، حتى إن «هولاكو» الذي خرب بغداد وأمر بحرق جثة آخر العباسيين تحت أسوارها بهرته عجائبهُ حضارة العرب الجديدة في نظره، فلم يلبث أن صار من حماتها، وفي المدرسة العربية تمدّن المغول، واعتنقوا دين العرب وحضارتهم، وشملوا متذمّنني العرب وعلماءهم برعايتهم، وأقاموا في بلاد الهند دولةً قويةً عربيةً من فورهم كما يمكن أن يقال، وذلك

لأنهم أحلوا حضارة العرب محل الحضارة القديمة، ولأن سلطان حضارة العرب لا يزال مسيطراً هناك حتى اليوم.



شكل ٥-٢: منظر في بغداد (من تصوير فلاندان).

أجل، قامت بغداد من تحت الأنقاض، ولكن الترك استولوا عليها بعد ثلاثة قرون فأصيّبت بانحطاط تامٌ، فغابت عنها المكتبات ورجال الفن والعلماء إلى الأبد. واليوم لا تزال بغداد مركزاً مهمّاً بفضل موقعها التجاري، ولكنها مدينة عصرية لا تجد فيها غير الأنقاض من مباني الخلفاء، وما يصادف فيها اليوم من الأبنية، المتداعية على العموم، حديثٌ نسبياً، وهو فارسيٌ أكثر منه عربياً، قال مسيو فلاندان: «تتوارد تحت طبقة كثيفة من الغبار أسس المباني، ولا تكاد تجد فيها أثر هارون الرشيد وزبيدة، وهنا وهناك يُكتَشَفُ في بعض زوايا الأسواق وعلى الشاطئ وبين أنقاض أضاعت اسمها وحوه جدرانٍ يُقرأ عليها بصعوبة قطع من خطوط كوفية، ومئذنةٌ يشهد خرابها على قدمها، وبقايا رتاجٍ ذي ميناً وذي فسيفساء لامعةٍ تنفصلُ على أساس البناء المَحْطم». ولم يبال الترك بضياع هذه الأدلة على حضارة منافسة لحضارة بزنطة، ونحن إذا ما استثنينا تلك البقايا النادرة المجرّدة من الفائدة معاً كان من العبث إزالة الغبار المترافق ببغداد، فالحق أن هذه المدينة العظيمة لم يبق فيها ما يذكر بخلفائها الأعزاء كما يمكن أن يقال».

هذه هي حال بغداد اليوم، وقد لَحِقَت بِغَدَادُ الْخَلْفَاءِ، في أُعْفَارِ الْمَاضِيِّ، بِطِبِّيَّةٍ وَبِابَلَ وَمَنْفِيَّسَ وَكُلَّ عَاصِمَةٍ كَبِيرَةٍ كَانَتْ سَيِّدَ الدُّنْيَا، وَلَكِنْ هَذِهِ الْمَدِنُ لَمْ تُسْيِطِرْ عَلَى الْعَالَمَ بِغَيْرِ السَّلَاحِ، وَخَلْفَاءِ بَغْدَادَ مُلْكُوْا الْعَالَمَ بِحَضَارَتِهِمْ عَلَى الْخَصُوصِ.

وَيَجِبُ، لِنُحْسِنَ تَقْدِيرَ تَلْكَ الْحَضَارَةِ، أَنْ نَخْرُجَ مِنْ دَائِرَةِ الْإِجْمَالِ، الَّتِي التَّزَمَّنَاهَا فِي هَذَا الْجَزْءِ مِنْ كِتَابِنَا، وَأَنْ نَدْخُلَ دَائِرَةَ التَّفْصِيلِ، فَنَدْرِسَ مَا أَسْفَرَتْ عَنْهُ مِنَ الْعِلُومِ وَالآدَابِ وَالْفَنُونِ وَالصَّنَاعَةِ، وَهَذَا مَا نَفَعَلُهُ فِي فَصُولِ أُخْرَى بَعْدَ أَنْ نَتَمَّ دراستنا المختصرة لِتَارِيخِ الْعَرَبِ فِي مُخْتَلِفِ الْأَقْطَارِ الَّتِي اسْتَولَوْا عَلَيْهَا.

وَكَلَّما تَقْدَمْنَا فِي الْكِتَابِ بَدَا لَنَا، بِوْضُوحِ، أَمْرَانِ جَوَهْرِيَّانِ لَمْ نَفْعِلْ غَيْرَ الإِشَارَةِ إِلَيْهِمَا حَتَّى الْآنِ، وَهُمَا: أَنَّ الْعَرَبَ اسْتَطَاعُوا أَنْ يَبْدُوْا حَضَارَةً جَدِيدَةً مُسْتَعِينِيْنَ بِمَا اسْتَعَارُوا مِنَ الْفَرْسِ وَالْيُونَانِ وَالْرُّومَانِ، وَأَنَّ حَضَارَةَ الْعَرَبِ كَانَ لَهَا مِنَ الْمَنَاعَةِ مَا اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَهْيِمَ بِهِ عَلَى الْبَرَابِرِ الَّذِينَ حَاوَلُوا هَدْمِهَا، وَقَدْ ظَهَرَ لَنَا أَنَّ جَمِيعَ أَمَمِ الشَّرْقِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي سَاعَدَتْ عَلَى قَهْرِ الْعَرَبِ، وَمِنْهَا الْتُّرْكُ، أَعْنَتْ بِلَا إِسْتِثْنَاءِ عَلَى نَشَرِ نَفْوَذِ الْعَرَبِ، وَأَنَّ أَمْمًا قَدِيمَةً قَدَمَ الْعَالَمَ، كَالْمَصْرِيِّينَ وَالْهَنْدُوِّينَ، اعْتَنَقَتْ مَا جَاءَهَا بِالْعَرَبِ أَوْ وَرَثَتْهُمْ مِنَ الْحَضَارَةِ وَالْدِينِ وَالْلِّغَةِ.

هوامش

- (١) المسندرة: المنسدطة.
- (٢) الرتاج: الباب العظيم.

الفصل الثالث

العرب في بلاد فارس والهند

(١) العرب في بلاد فارس

تختلف بقایا حضارة العرب باختلاف البلدان التي استولوا عليها، وإذا كان درس هذه الحضارة يقوم على البحث في آثار العرب العلمية أو الأدبية أو الفنية أو الصناعية، فإننا لا نستطيع أن نسير في فصول هذا الكتاب على نهج واحد، وقد رأيت أننا اعتمدنا في كلامنا عن سورية على الآثار الماثلة، وأننا سلكنا طريقاً آخر حينما بحثنا في أمر بغداد التي لا تجد فيها آثاراً شاخصة، فاقتصرنا حين الكلام عنها على التنويم بتنظيم العرب السياسي والمالي والإداري وما إلى ذلك، فإذا ما وصلنا تلك العناصر المختلفة بعضها بعض أمكنا أن نرسم صورةً جامعةً لحضارة العرب في مختلف الأزمنة.

ولا نعرف إلا القليل عن آثار العرب في بعض البلدان التي دانت لهم، كبلاد فارس على الخصوص، فترانا مضطربين إلى الإيجاز في ذلك، ومع ذلك يثبت علمنا القليل عنها أن ذلك الشأن كان عظيماً جداً.

رأى العرب أنفسهم، حين هدموا دولةبني ساسان الفارسية، تجاه حضارة قديمة قوية، فاقتبسو الشيء الكثير من فنونها على الخصوص.

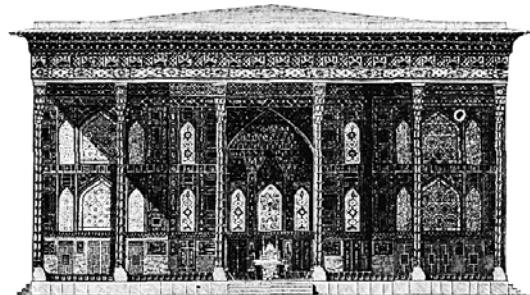
وتمَ النصر للعرب على بلاد فارس في الدور الأول من الإسلام، كما اتفق لهم في سورية، واستولوا على أصبahan في خلافة عمر بن الخطاب (٦٤٥م)، ودام السلطان للخلفاء في بلاد فارس مدة ثلاثة قرون، وكان تاريخ بلاد فارس مرتبطاً في تاريخ بغداد بعض الارتباط، ثم تداولت حُكم بلاد فارس دولٌ مستقلةٌ مؤقتةٌ كان يُدالُ منها، ونَعْدُ من تلك الدول دولة الترك السلاجوقيين الذين قضى المغول على سلطانهم في القرن الثالث عشر، ثم دولة التركمان الذين طردوا المغول من بلاد فارس في سنة ١٤٠٣م.

ونشأ عن تتابع الغزو هدم المباني القديمة التي شادها العرب وبنو ساسان في بلاد الفرس وزوال ما كان منها في مدينة أصبهان، على الخصوص، زوالاً تاماً، وما نراه الآن في أصبهان هو من صنع الشاه الفارسي الشهير عباس الذي اتخذها قاعدة ملكه في سنة (٩٩٨هـ / ١٥٨٩م) والذي استردَّ من الترك معظم بلاد فارس، ويظهر أن ذلك القطر استرد رخاءه القديم لمدة قرن، فقد قاتل الفرس منتصرين دولة المغول في الهند سنة ١٥٣٩م، وانتزعوا منها ولاياتٍ كثيرةً واقعةٍ غرب نهر السند، ثم سادت الفوضى والانحطاط بلاد فارس، ونرى اليوم بلاد فارس، الواقعة بين الروس الذين يرغبون في التقدم نحو بلاد الهند وإنكلترا الذين يمانعون في ذلك، مهددةً بأن تكون ميدان قتال لهذين الفريقين، وأن تقع فريسةً للغالب منهما، فكأنه كُتب على بلاد فارس أن تكون مسرح حروب تمهدًا لإقامة الأجنبي الغالب دولةً عالميةً كما تمَّ في القرون الغابرة.

وثبتَ تأثير العرب في الفرس من اعتناق الفرس لدين العرب ونظامهم، ومن شيوع اللغة العربية بينهم شيوع اللغة اللاتينية في أوربة في القرون الوسطى، وذلك من غير أن تكون لغة البلاد الدارجة كما ثبتَ من استمرار الفرس إلى الوقت الحاضر على تلقّي علم التوحيد والتاريخ والعلوم الأخرى من كتب العرب.

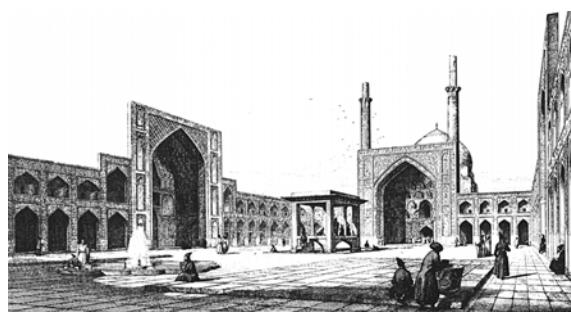
وتبدو بقایا ما تركه العرب من الآثار المثلثة في بلاد فارس من القِلَّة ما لا تكفي معه لبيان تأثير هاتين الأمتين إدحاماً في الأخرى، ولا نعرف حال فن العمارة الفارسي قبل الإسلام بالضبط وفي ظل العرب، وما بحث فيه بعض الرواد من المباني لم يخرج عن حد الأنماض التي يصعب معها بيان الحالة التي كانت عليها فيما مضى، ونقول مع ذلك، وبعد إنعام النظر في تلك البقايا وفيما رواه المؤرخون: إن قصور أكاسرة الفرس قبل الفتح العربي كانت على جانب عظيم من الزخرف والزينة، وإن الفرس كانوا يعرفون إقامة القباب، وإنهم كانوا يعلمون كيف يكسون المباني بالليناء، وإن العرب رَضُوا في دور الفتح بفن العمارة الفارسي مع قليل من التبديل، وإن أهمَّ ما اقتبسه العرب من مُتَفَنِّني الفرس في ذلك الدور الأول هو جزئيات الزخرف واستعمال المينا على الخصوص، لا طراز البناء الذي استعاروه في البداءة، من البيزنطيين في سوريا ومصر على الأقل.

ثم تغيرت الأوضاع مع الزمن، فصار العرب يُؤثرون في الفرس، فاقتبس الفرس من العرب شكل قبابهم والنقوش المتدلية (المقرنصات) وضروب الزينة كالكتابات، وسنعود إلى هذه المسائل في الفصول التي خصصناها للبحث في فنون العرب.

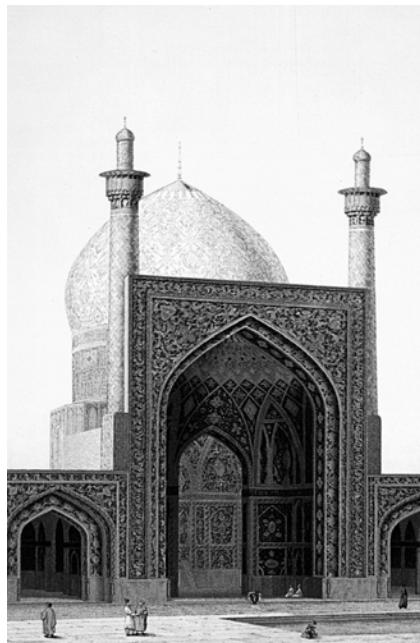


شكل ١-٣: جوسم چهل ستون في أصفهان (من تصوير كوست).

ولم يبق في بلاد فارس من مباني دور خلفاء العرب الأولين سوى عدد قليل، بقياها مسجد همدان التي نشرنا صورتها في فصل آخر، ويظهر أن في مدينة مشهد بقايا من مباني ذلك الدور امتزج فيها الطراز العربي بالطراز الفارسي، وهي التي تكلم عنها مسيو دوكانيكوف، فتجلى الطراز الفارسي في أقواسها ومينائها وماذنها المخروطة الشكل التي لا رُواق لها في غير رأسها، وتجلى الطراز العربي في خطوطها المزخرفة وأعمدتها الهيفِ ومُتدلياتها ... إلخ.



شكل ٢-٣: داخل مسجد في أصفهان (من تصوير كوست).



شكل ٣-٣: جامع أصفهان الكبير (من تصوير كوست).

وما بين بقايا مباني عصر الخلفاء في بلاد فارس والمباني التي أقامها الشاه عباس في أصفهان مؤخراً من التقارب يُثبت لنا سير المهندسين على نمط قديم واحد، وسنرى في الفصل الذي ندرس فيه تاريخ فن العمارة العربية، أنه طرأ على ذلك النمط القديم بعض التغيير في الجزئيات المهمة مع الزمن ولا سيما في شكل القباب، فبعد أن كانت القباب منخفضة، ثم ذات نصف كُرة، صارت مخَصَّرةً بصلبةِ الشكل.

ومهما يكن من أمر فإن فن العمارة الفارسي طابعاً خاصاً، ونَعْدُ المآذن المخروطة

الشكل

والآبواب العظيمة المفرطحة القناطر والجدران المزينة بالمياء الملؤن من أهم ما اختص به فن العمارة الفارسي ذو التأثير في مباني الهند كما نقطع في ذلك.

وانتحل المغول، بعد أن قهروا العرب، دين العرب وحضارتهم، واستخدموها في بلاد فارس والهند التي استولوا عليها مهندسين من الهندوس والفرس، فمزج هؤلاء المهندسون مختلف الفنون في المباني التي أقاموها كما تراه بعد قليل، وتدلل بقايا الآثار في مدينة سمرقند العظيمة، التي اتخذها تيمورلنك عاصمةً لدولته سنة ١٤٠٤م، فأصبحت نصف متداعيةً اليوم — على المؤثرات الفارسية في فن العمارة، وأعظم من ذلك ما كان للعرب من التأثير في الهند في بدء الأمر على الأقل.

ويظهر أنه صار للمغول فن عمارة خاص، مع أنهم لم يُدعوا أَيْ عنصر في هذا الفن الخاص، وقد قام هذا الفن على مزج فنون مختلف الأمم التي خضعت لحكمهم فيما شادوا من المباني كما تدل عليه الصور التي نشرناها.

والخلاصة هي أن تأثير العرب في بلاد فارس كان كبيراً في أمور الدين والعلوم واللغة، وأنه كان ضعيفاً بعض الضعف في العادات وفن العمارة، وأن الفرس، خلافاً للمصريين، حافظوا على أقسام حضارتهم القديمة الأساسية مع صلتها بحضارة الغالبين، وذلك خلافاً للمصريين.

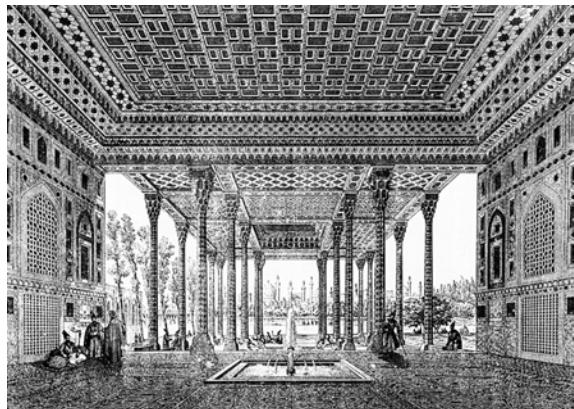
(٢) العرب في بلاد الهند

لم يتفق للعرب في بلاد الهند شأنٌ سياسي أعظم مما كان لهم في بلاد فارس، وللعرب، مع ذلك، تأثير ديني قوي ونفوذ مدني كبير في بلاد الهند منذ القديم، ففي الهند يخضع نحو خمسين مليون نفسٍ لشريعة النبي في الوقت الحاضر.

وببدأ ظهور العرب في الهند منذ السنة الأولى من الهجرة (٦٣٧م)، فقد خرجت أساطيل عربية من عُمان والبحرين، وتقدمت إلى مصاًبِ السند، ثم أدى ملك كابل الجزية إلى العرب في سنة ٦٦٤م، وفتح جيش العرب في سنة ٧١١م مملكة السند التي كانت تمتد إلى كشمير من الشرق ونهر السند والبحر من الغرب.

ولم يكن لاستقرار العرب هناك أهمية كبيرة، فقد انتهت في سنة ٧٥٠م، فالحكْم فيها إلى ملوكٍ من الهندوس، فإلى الترك والمغول الذين اعتنقوا الإسلام.

وملوكٌ غَزْنةً أَهْمُ أولئك وأقدمهم. والغزنويون أخذوا يفتحون بلاد الهند حوالي سنة ١٠٠٠م، وانتهت قتالهم في هذه السبيل بعد إحدى عشرة معركة قاموا بها في خمس وعشرين سنة، واستولوا نهائياً على ضفَّة السند الشرقية وعلى كشمير والپنجاب ولاهور وأجمير، وأعلن الغزنويون عن أنفسهم في كل مكان أنهم دعاة دين العرب وحضارتهم،



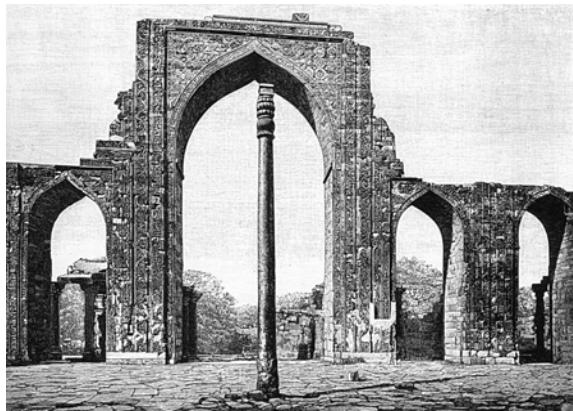
شكل ٣-٤: جوست المرايا في أصفهان (من تصوير كوست).

ومنهم خلفاء بغداد لقب أيام المؤمنين، وهكذا خضعت الهند للفاتحين من الأجانب للمرة الأولى منذ زمن الإسكندر.

وكان سلطان الإسلام السياسي والديني قوياً في بلاد الهند، ورسخ فيها ثمانية قرون بفضل ملوك الإسلام الذين تداولوا حكمها، ولا يزال سلطان الإسلام الديني قائماً في بلاد الهند، وإن توارى سلطانه السياسي عنها، وهو يمضي قدماً نحو الاتساع. ووُجد المسلمين، حين أُوغّلوا في الهند، حضارةً قديمةً أرقى من حضارتهم، وعرفوا كيف يمزجونها بها، ومما يستوقف النظر ما استطاعوه في زمن قصير من نشرهم لمعتقداتهم في قسم كبير من هذا القطر الواسع.

وأعجبَ غُزَاة المسلمين بمباني الهنود المغلوبين، واسمع ما قاله محمود الغزنوبي في كتاب أرسله إلى أحد قواده عن مدينة متراء، التي كانت مشهورة أيضاً في القرن الخامس عشر قبل الميلاد:

تحتوي مدينة متراء العجيبة على أكثر من ألف من المباني المتينة متانة أهل الإيمان، والمصنوع أكثرها من الرخام، ولا يشتمل هذا العدد على معابد الكافرين، وإذا عدَ المال الذي أنفق على إنشاء هذه المباني بلغ ألوف الألوف



شكل ٣-٥: باب مسجد قطب وعمود الملك دهاؤا المصنوع من الحديد «بالقرب من دهلي» (من تصوير فريث الفوتوغرافي).

من الدناني، فضلاً عن أنه لن يقام مثل هذه المدينة في أقلَّ من قرنين، ووَجَد جنودي في معابد المشركين خمسة أصنام من الذهب ذات عيونٍ من ياقوت أحمر تساوي قيمتها خمسين ألف دينار، ووَجَدوا فيها صنماً آخر من الذهب ممزخرفاً بما زنته أربعمائة مثقال من الياقوت الأزرق، وذا نَصَمةٍ بلغ وزنها عند الصهر ثمانية وتسعين مثقالاً من الذهب الخالص، ووَجَدوا فيها، فضلاً عن ذلك، نحو مائة صنم من الفضة يعدل وزنها حمل مائة بعير.

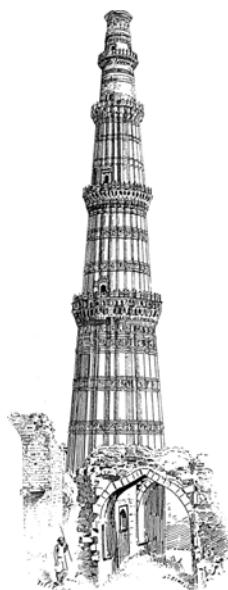
وقام ملوكُ جُودُّ مقام أصحاب غزنة، ثم جاء المغول فحلُّوا محلَّهم، وهنا نرى تنبيه القارئ إلى أن الذين تم لهم السلطان على الهند لم يكونوا عرباً بدمائهم، وإنما كانوا من دُعاة دين العرب وحضارتهم.

ويصلُّ الباحث، حين يدرس تأثير العرب في الأمم التي احتلطوا بها، إلى إحدى النتائجين الآتيتين، وهما: إما أن تكون حضارة العرب قد حلَّت محلَّ حضارة الأمة المقهورة كما حدث في مصر، وإما أن تكون قد امتنعت بحضارة الأمة المغلوبة كما حدث في بلاد فارس والهند، وفي بلاد الهند بلغ امتناع حضارة العرب بحضارة الهند مبلغاً

بدت علائمه حتى على المذاهب الدينية، ثم حدث أن أتى بعده عنصر الحضارة الفارسية، فاشترك هذا العنصر أيضاً في ذلك الامتزاج.

ويدلُّ درس المباني في بلاد الهند على درجة تأثير العرب فيها في مختلف الأدوار، وعلى درجة تمازج تلك العناصر الثلاثة، وكان تأثير العرب سائداً لمباني الدور الأول، كتاب علاء الدين الذي يكاد يكون أثراً الفن الفارسي فيه غير موجود، والذي لا يبدو أثر الفن الهندي في غير تفرعاته؛ لعدم ملاممة معابد الهند القديمة لمناهي الحضارة الجديدة، فاقتصر أتباع النبي على الانتفاع ببعض أجزاء هذه المعابد.

وظل تأثير الفن العربي في تلك المباني واضحًا بضعة قرون أخرى وإن توارى العرب عن مسرح العالم بالتدرج، ثم أخذ المجال يتسع للفن الفارسي فتَّم له النفوذ على حساب الفن العربي والفن الهندي اللذين أخذ نطاقهما يضيق.



شكل ٦-٣: منارة قطب بالقرب من دهلي (من صورة فوتografية).

وكان دور تحول مباني الهند بعد الإسلام طويلاً، وتأخر زمن ظهور المباني التي كان للعصرية العربية أثراً فيها، ويرجع سبب هذا إلى أن دعوة شريعة الرسول لم يكونوا من العرب، بل من الترك والمغول المشابهين للبابرة الذين استولوا على العالم الروماني، والذين لم يهضموا حضارة المغلوبين إلا بعد انقضاء زمن طويل.

حَقّا إنهم لم يهضموها إلا بعد زمن طويل، وبهذا البطل يبدو لنا الفرق الأساسي بين الأمم التي تكون على جانبٍ كبير من الذكاء فتتطور بسرعة، كالآمة العربية، والأمم المنحطة التي تتتطور ببطء كبرابرة القرون الوسطى الذين قضوا على دولة الرومان، وكأجلاف الآسيويين الذين غمر طوفانُهم دولة محمد.

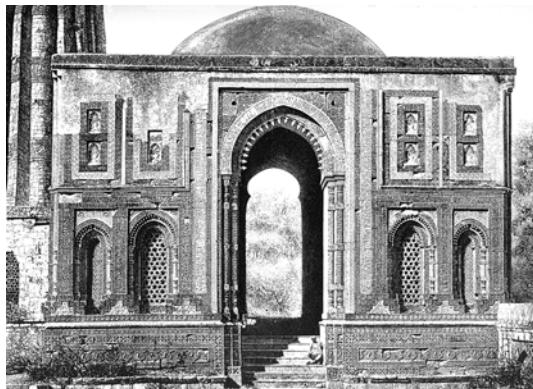
ولقد أبدع العرب من فورهم تقريباً، حضارةً جديدةً أفضل من الحضارات التي جاءت قبلها، وذلك بعد أن استعنوا بحضارة اليونان وحضارة الرومان وحضارة الفرس، وكانت عقولُ البابرة عاجزةً عن إدراك كنه الحضارة التي قهروا أهلها، وكان انتفاعهم بها ممسوحاً في بدء الأمر، وهم لم يسيروا بها نحو الرقي إلا بعد أن صُقلَتْ أدمعتهم، وصارت قادرةً على إدراك معانيها بعد زمن طويل.

والواقعُ أن تقدم أولئك البابرة الذين هدموا الدولة الرومانية لم يحدث إلا بتوالي الأجيال، وأنهم، لبطء تقدُّمهم، لم يستطعوا إقامة حضارة جديدة على أنقاض حضارة العالم السابق إلا بعد جهود استمرت قروناً كثيرة.

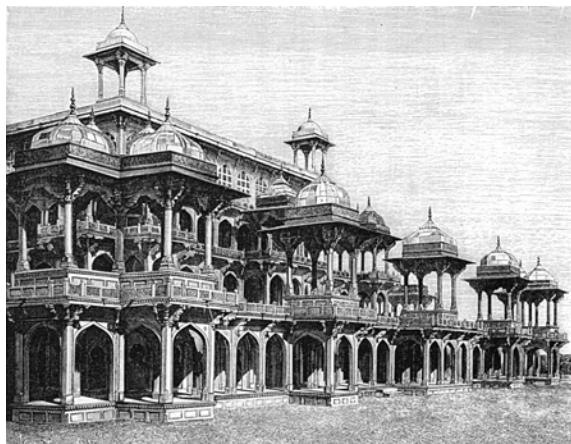
ودام سلطان أصحاب غزنة حتى سنة ١١٨٦ م وحل الغوريون، الذين هم من التركمان، محلهم، وذكر من ملوكهم المشهورين قطب الدين الذي تُوفي سنة ١٢١٠ م، والذي أقام في بلاد الهند مباني ذات قيمة كما سيأتي بيان ذلك.

وأصبحت مدينة دهلي، في سنة ١٢٥٠ م، ملجاً لرجال العلم والفن من الغرباء، وصارت تحدب عليهم حَدَبَ بغداد فيما مضى، ثم أتى المغول، وصاروا يغزون الدولة الجديدة، ونازلهم علاء الدين تحت أسوار دهلي في سنة ١٢٩٧ م فوجَأ أمامة خمسمائة ألف رجل، على ما يُروى، فدَحَرُهم.

وفتح تيمور لنك مدينة دهلي عَنَّوةً في سنة ١٣٧٨ م، ولم يكن أمره غير عابر سبيلاً، فقد نشأ عن الفوضى التي أسفرت عنها فتوحه قيام دولة مستقلة مؤقتة هنا وهناك، ولما حلَّتْ سنة ١٥١٧ م استولى ملك كابل، الذي هو من ذرية تيمور لنك، على مدينة دهلي، وأسس دولة المغول الكبرى التي كُتب لها البقاء مدة ثلاثة قرون، ثم قضى عليها الإنكليز. والآن ندرس على طريقتنا أهم ما في الهند من المباني العربية أو المباني التي كان للفن العربي أثراً واضح فيها، فما نُقش على الحجارة أفصحت مما جاء في الكتب.



شكل ٣-٧: باب علاء الدين بالقرب من دهلي (من تصوير فريث الفوتوغرافي).



شكل ٣-٨: مزار أكبر في سكندرا (من صورة فوتوغرافية).

(١-٢) منارة قطب

يرجع أقدم ما انتهى إلينا من المباني العربية في الهند إلى أواخر القرن الثاني عشر من الميلاد، ونَعُدُّ مسجد قطب – الذي أقيم في سنة ١١٩٠ م بالقرب من دهلي – ومنارة قطب من أهم تلك المباني.

ومنارة قطب، ذات الشرف الكثيرة المُحَرَّمة، برج طويلاً مخطط ذو نقوش عربية مخروط الشكل مشدود بِنُطُقٍ مُزينة بالكتابية.

ولا نرى ما هو عربي في منارة قطب سوى زخارفها وأروقتها، وقد أقامها، أو أتم إنشاءها، قطب الدين، فأضيف اسمها إلى اسمه مع الاختصار، فُعرفت في أوربة باسم منارة قطب.

ويidel شكل منارة قطب الخاص على أن مهندسيها من الهندوس، ويعدونها في الهند من العجائب، قال السيد أحمد خان، الذي عَرَفَ عنه مسيو غراسين دوتاسي مخطوطاً هندوسيّاً مهماً خاصاً بدلهي: «إن عظمة هذه المنارة وجمالها مما لا يمكن وصفه كما يجب، فهي مما لا نظير له على وجه الأرض»، ويرى ذلك المؤلف أن الملك الهنديوسي بي ثوره هو الذي بدأ بإنشائها في سنة ١١٤٣ م فأتمها قطب الدين.

ويشاهد بالقرب من منارة قطب الدين أنقاض معبد هندوسي قديم حُول إلى مسجد، ويرجع تاريخ إنشائه إلى (سنة ١١٩١ / ٥٨٧ هـ).

(٢-٢) باب علاء الدين

يشتمل ذلك النطاق الذي يحيي مسجد قطب ومنارته على كثير من الآثار المهمة الأخرى كمعبد بي ثوره، وأهم تلك الآثار الباب العظيم الشهير الذي أنشأه علاء الدين في سنة ١٣١٠ م، والذي يستوقف النظر بجماله الرائع من حيث تاريخ الفن عند المسلمين، والذي هو من أهم آثار الفن العربي التي انتهت إلينا، ولم أشاهد بين الأبواب ما يماثله سوى بعض أبواب الحمراء الداخلية مع ما بينها وبينه من التفاوت في الاتساع كالذى بين الفسطاط والكتدرائية.

وإن القارئ الذي يتأمل صورة ذلك الباب الصادقة التي نشرناها في هذا الكتاب ليُعْجَب من عبقرية المهندسين الذين استطاعوا أن يمزجوا مختلف الفنون، فأقاموا باب علاء الدين المبتكر المنسجم الذي تبدو أعمدة أطره هندوسيةً، وتبدو قناطره ومعظم

دقائق زخارفه عربية، ويکاد باب علاء الدين يذکرنا في مجموعه بالأبواب الفارسية الضخمة.



شكل ٩-٣: معبد بندرابن بالقرب من متره (من صورة فوتوغرافية).

وتُناسب متانة باب علاء الدين ضخامتَه، فقد قامت حجارته مقام الآجر الذي شِيدت به قصور العرب في الأندلس، وحلَّت نقوش حجارته محل نقوش قولاب الحمراء السهلة.

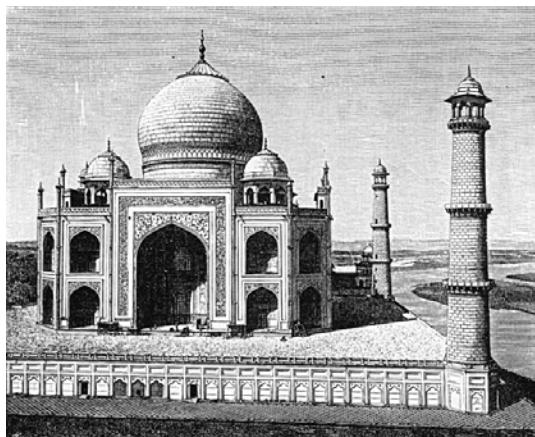
(٣-٢) مزار التمش

نجد بالقرب من مسجد قطب مزار الملك التمش الذي أُنشئ في سنة (٦٣٣هـ / ١٢٣٥م) على طراز البناء المذكور آنفًا، فيُعد من أقدم المباني العربية في الهند.

(٤-٢) معبد بندرابن

كان أول ما تجلّى به تأثير العرب في الهند تعليم مبانيها القديمة بالفن العربي. وأقتصر، لبيان ذلك، على نشر صورة لقسم من معبد بندرابن الذي بُني على طراز شمال الهند، وأقيمت قنطرة بابه على الطراز الفارسي العربي.

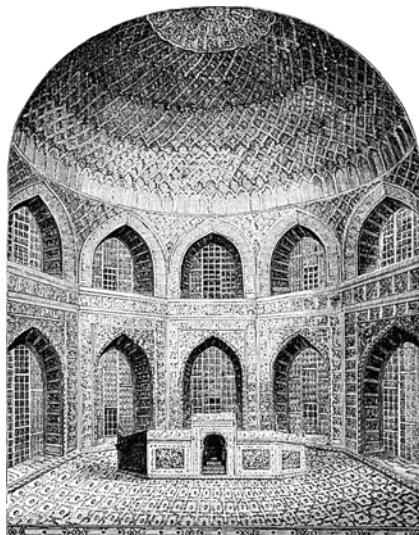
(٥-٢) مزار أكبر في سكندرا



شكل ٣: تاج محل في أغرا (من صورة فوتوغرافية).

قامت المباني التي نذكرها الآن أيام سلطان المغول، وكان قد انتهى شأن العرب السياسي في الهند، فحصر نفوذهم في العلوم والفنون والدين، وقد أشال نفوذ الفرس والهندوس كفةً في العرب، فنشأ عن ذلك امتزاجه بالفنون الأخرى، فصربت لا ترى التأثير البالغ لطراز العرب في مباني الهند كما كان مع بقائه حيًّا فيها.

ويعد مزار الملك أكبر — الذي أقيم حوالي سنة ١٦٠٠ م في سكندرا الواقعة بالقرب من دلهي — من أهم مباني ذلك الدور الجديد، وهذا المزار شُرع بناؤه في زمن الملك أكبر، وانتهى في زمن شاهجهان.



شكل ١١-٣: قاعة تاج محل المثمنة الكبرى وقبتها من الداخل.

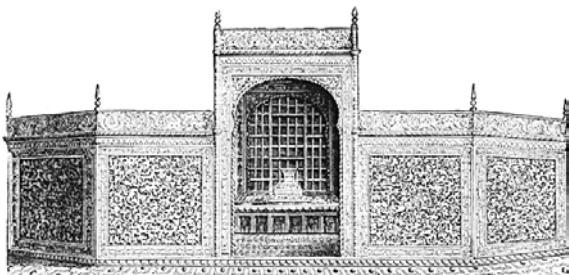
وكان أكبر – الذي هو من حَفَدةِ تيمورلنك – من أعظم من عَرَفَتهم بلاد الهند، فقد بلغت بلاد الهند في عهده، الذي دام من سنة ١٥٥٠ م إلى سنة ١٦٠٥ م، ما لم تعرفه من الرخاء قبله، وكان عصره عصر فن العمارة الذهبي في الهند.

حَقًا لقد كان أكبر راغبًا في شِيد المباني، فقد أقام في عشر سنين، بدأت من سنة ١٥٦٠ م، وعلى الصحراه القريبة من أغرا، مدينة فتح پور وقصورها التي تُذكّرنا أنقااضها العجيبة بمدن رواية ألف ليلة وليلة البائدة، ولما أعياه جُوًّ هذه المدينة بعد قليل، وهي التي يتمنى بعض الدول الأوروبية العظمى أن تكون عاصمة لها، ارتحل عنها هو وسكنها هاجرًا لها ولقصورها ومساجدها التي أصبحت مأوى للنمر وبعض الزُّهاد بعده.

ولم يقتصر أكبر على إقامة المباني، بل كان يُعنى بشؤون الفلسفة أيضًا، فقد عَنَّ له ذات يوم وهو الذي كان متسامحًا غير متين العقيدة، أن يصهر جميع الأديان في دين واحد، فعقد مؤتمراً من رجال الأديان المعروفة، ومنها النصرانية؛ ليُبسط لهم خطته.

ومن دواعي الأسف أن نسي أكابرُ أن كل واحد من مستمعيه كان يعتقد أنه على الحق الواضح وأن الآخرين على الضلال المبين، وأن التوفيق بين المؤتمرين من المستحيل، فلم يُسِفِر ذلك المؤتمر عن غير تشاتم هؤلاء وتلاعنهن. وأيقَنْ أكابر بذلك أن الملوك، وإن قدروا مثله على بناء المدن والقصور في الصحراء، لأعجزُ من أن يُبَدِّلوا الأوهام القوية التي تسسيطر على قلوب الناس، فالتأريخ لم يعرف ديانةً قامت على مناقشات باردةً أملاها العقل.

٦-٢) تاج محل في أغرا



شكل ١٢-٣: حاجز من الرخام الأبيض المنقوش المحيط بقبر شاهجهان وزوجه في تاج محل.

يُرى في مدينة أغرا عدّة أبنية مهمّة قامت على الطراز الهندي الفارسي العربي، ولا سيما مزارُ تاج محل الشهير الذي يتطلّب وصفه الكامل أكثر من مجلد. بدأ الملك شاهجهان ببناء تاج محل في سنة ١٦٣١ ليكون ضريحاً لزوجة التي لم يقدر على سلّوها، فعزم على إقامة أثر لها أجمل من كلّ ما عرَفَهُ بُنُوِّ الإنسان، ودعا الملك شاهجهان مهندسي الشرق إلى التسابق في وضع رسمه، وحمل أقصى البلاد على جلب أغلى الحجارة وأعزها لرفعه، وأنفق، على ما يقال، ستين مليوناً في سبيل إنشاء ذلك الأثر العظيم، خلا عوض أعمال الفعلة الذين كانوا يُسخرون، ورأى تافرنيه أن إقامة تاج محل اقتضت جهود عشرين ألفاً من العمال في اثنتين وعشرين سنة، فبناء مثل تاج محل لا يقام في أوربة ثلاثة أمثال هذا المبلغ.

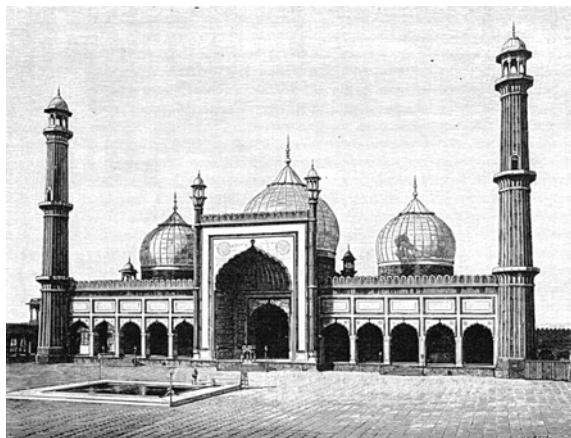
بُنِي تاج محل الذي نشرنا بعض صوره الصادقة في هذا الكتاب، مع عدم كفايتها لإظهار جماله، من المرمر الأبيض في وَسْط قاعدة فسيحةٍ رخامية تعلو خمسة أمتار عن وجه الأرض، وتمتد مائة متر من كل جانب، ويقوم على زوايا تلك القاعدة الأربع أربع مَنَاؤِر، ويلمس ماء النهر أسفل إحدى جنباتها، وتحيط الحدائق ذات النبات الجميل بجنباتها الثلاث الأخرى إحاطةً تأخذ بمجامع القلوب، ويفح حول تلك الحدائق سور ذو شرفات، وتُدخل من باب كبير أنشئ على الطراز الفارسي.

ولتاج محل أبعادٌ كبيرة، فترتفع قبته عن سطح الأرض أكثر من ثمانين متراً، ويدخل من أربعة أبواب يبلغ ارتفاع كل واحد منها عشرين متراً، ويرى في وسط تاج محل ضريح شاهجهان وضريح زوجته المحبوبة.

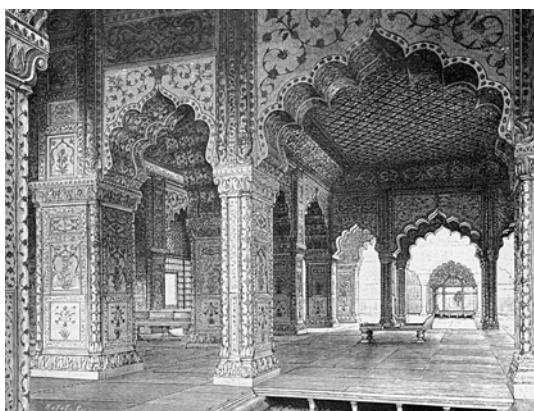
ويُعدُّ السياح تاج محل من عجائب الدنيا، وإليك ما قاله كاتبٌ لم يصرح باسمه في مجلة المصوّر مع صورة مقتبسة من ميناء هندي صحيحةٍ صحةً الصور الفوتوغرافية تقريباً:

إن تاج محل مصنوع من المرمر الناصع المصقول، ويکاد البصر يخطف من نور هذا البناء العجيب حينما تلقي الشمس أشعتها عليه، ولذا تجد نور القمر الشاحب أليق بتاج محل الأنبيق، وإن كلَّ ما يمكن الفن أن يوجد به من الكمال صُبَّه في تاج محل الساحر، فترى فيه الجدران المرمرية المنقوشة بما لا يتصوره الإنسان من الأزهار والأوراق والورد والزخارف العربية الزاهية، وترى فيه الأعمدة الصغيرة الهيفَ والأطْر الغانية والأورقة الْثَّيَّرة والنقوش المتدرّلة والفصيقات المتقنة الشنية الباهرة، تَرَى فيه كتاباتٍ جميلة من الرُّخام الأسود، وترى في ذلك المكان الساحر جميع ما يسمح به الفن على الوجه الفيّاض الأكمل.

وإذا نظرت إلى الضريحين المصنوعين من المرمر الناصع رأيتهما مُثقلَين بالكتابات والزينة الغنية مع عظيم إتقان وظَرْف، وعلمت أن أزهارهما المرصعة بالفصيقات، والتي تطفح بها من الأسفل إلى الأعلى، من أجمل ما صنع الإنسان، فتتألف كلُّ زهرة من مائة من الحجارة الصقيلة الملونة المتنوعة التي جَمَعَ ما بينها صانع ماهر فأكسبها الصورة التي أرادها، وتلك الحجارة الملونة هي من اللَّازَوْرُد والزبرجد والعقيق واليصبُّ والرُّخام السُّمَاقِي والممر الأصفر الذهبي ... إلخ، وزُيِّنَ أسفل الإطار المثمن والغرفُ القريبة منه بما



شكل ١٣-٣: المسجد الكبير في دلهي (من صورة فوتوغرافية).



شكل ١٤-٣: داخل ردهة في قصر ملوك المغول بدملي (من صورة فوتوغرافية).

ارتفاعه متّر و ٣٠ سنتيمترًا من الألواح الرخامية الناصعة الكبيرة ذات النقوش البارزة من الفسيفساء على شكل الأزهار وأواني الأزهار، ومثل تلك الألواح مما يشاهد أيضًا في أسفل القباب التي تعلو مداخل تاج محل المزيّنة بالخطوط العربية المكتوبة بالرخام الأسود.

وتاج محل هو من المباني الإسلامية النادرة التي تَفَلَّت من يد التخريب الإنكليزية المنظمة، والمصادفة هي التي أنقذت تاج محل من عدوان الإنكليز، فقد رأى الحاكم الإنكليزي لورد بِنْتِنِك أن تاج محل لا يُدْرِّ شيئاً، فاقتصر أن يُهدم وتتنزع فضته وتتباع قطعه في الأسواق، ولو لا ما لتابع محل، الذي هو من أعظم المباني التي شادها الإنسان، من الأهمية العالمية الكبرى التي تكفي وحدها لزيارة الهند لنُكِب العالم بهدهم، والحق أن الذوق الفني مما لا يلائم الطبائع التجارية التي قد يؤدي طغيتها على العالم إلى دخوله في دور يُسْتَباح فيه تحطيم تمثال كتمثال أفروديت (فينوس دوميلو) لتُصنَّع منه أجران وهواوين!

(٧-٢) مسجد المعطي أو مسجد اللؤلؤ في أغرا

ومن بين مباني أغرا المهمة ذكر أيضًا «مسجد المعطي» الذي أمر بإنشائه شاهجهان في سنة ١٦٥٨ م وَفَق طراز عهده، وهذا هو المسجد الذي صاح الأَسْقُفُ إبرت حين رأه قائلاً: إن الخزي ليعتبريه وقتما يفكر في عجز أبناء دينه عن إقامة مثل بيت الله هذا.

(٨-٢) المسجد الكبير في دهلي

تشتمل مدينة دهلي على كثيرٍ من المباني التي أقيمت على الطراز الإسلامي في زمن المغول، والتي نَعَدُ بعضها باختصار، والمسجد الكبير الذي أقيم في سنة (١٤٥٠ هـ / ١٦٥٠ م)، هو أول ما نذكر منها.

بُني هذا المسجد الضخم على ذُرْوَة ساحة فسيحة يُوصَل إليها بدرجات عظيمة مؤدية إلى مدخل هائل أُنشئ على الطّراز الفارسي، وبُني من حجارة رملية حُمر، ويستر مقدّمه رخام أبيض ورخام أسود متداخلان تداخلاً بدليًا، ولم يَشَدَّ عن طراز تلك المباني التي تمازج فيها الفن العربي والفن الفارسي والفن الهندي، وتتجدد في الصورة التي نشرناها ما يكفي للوقوف على شكله الخاص.

(٩-٢) قصر المغول في دهلي (أو قلعة شاهجهان)

تم بناء هذا القصر، الذي أنشأه شاهجهان، في سنة (١٦٤٨ هـ / ١٧٠٥ م) وهذا القصر هو أجمل القصور الإسلامية التي أقيمت في بلاد الهند وفارس، وما في رِدَاهه من الفسيفساء يجعلها قطعاً من الحلي.

ولم يبن هذا القصر الشهير (الذي هو من أعجب ما شاده البشر، والذي ضُنَّ به البربرة الذين دَوَّخوا دهلي غير مرة ونهبوا فلم يُخْرِبُوه) من الإنكليز ما يستحق من العناية، فقد هدموا جميع أجزاءه التي رأوا أنهم لا ينتفعون بها، وأقاموا في مكانها ومن أنقاضها ثُكنَّا، ولم يحترموا سوى الرِّدَاه التي رأوا فيها بعض النفع لهم، وذلك مع علمنا أن الإنكليز، الذين حَسَبُوا مقدماً نفقة تنظيف تلك الرِّدَاه من فسيفسائتها وزخارفها الجميلة عند تحويلها إلى إسطبلات ومرآقد للجنود، لم يَرَوا للخلاص من تلك النفقة ما هو أسهل من تكليسها، فسَخَطَ العالم على هذا العمل الهمجي الذي تحرَّمَ منه وجوه وحوش البربرة خجلاً، فاضطُرَّ الإنكليز إلى كَشْطِ ما جَنَّتْ أيديهم من عمل حقير، وما أبقاه الإنكليز من ذلك القصر يكفي، مع ذلك، لبيان ما كانت عليه حاله قبل أن تُصْبِيَه يُدُهم الْهَدَامَة، ويمكن القارئ أن يتمثله بسهولة عند نظره إلى الصورة التي نشرناها في هذا الكتاب عن إحدى رِدَاهه.

قال مسيو رولسله: «إن أَبْهَة داخِل ذلك القصر مما لم تسمعه أذن، فقد زُيَّنتْ أَساطينه وحنایاه وأُطْرُقْبَتْه بالنقوش العربية العجيبة التي رُسِّمت بالحجارة الكريمة المرصعة في الرُّخام، وتَهَبَ الشَّمْس وقتما تُلْقِي أَشْعَتَها على فُسِيفَسَاء ذلك القصر من خلَل حنایاه، الحِيَاة لطاقيات زهوره المصنوعة من الْلَّازَوَرْد والْعَقِيق واليَصْبُ، وما لا يُحْصَى من أنواع الحجارة الثمينة».

وزار هذا القصر الشهير في إبان عظمته فرنسيان، أحدهما: طبيب اسمه بيرنييه، والآخر: صائغ اسمه تاشرنيه، ووصفا دقائقَ كنوزه في سنة ١٦٧٧ م وسنة ١٦٧٠ م، وأذن للصائغ تاشرنيه في فحص حجارته الكريمة ورسمها، وتتجد في كتابه تقديرًا ورسومًا لأهمها، ومما جاء فيه أن في القصر سبعة تيجانٍ مُرصعة بالألماس، وأن ثمن أَهْمَّ هذه التيجان السبعة يُقدَّر بـ ١٦٠٥٠٠٠٠ فرنك.

وليس من الصعب أن نستعين بما ذكرناه آنفًا، وبما جاء في كتب المتقدمين من الوصف، فنتصور الحال التي كان عليها بلاط ملوك الهند المعاصرين لملك فرنسة لويس الثالث عشر تقريرًا، فالسائح الذي يقترب من دهلي يُشاهد في الأفق غابة من القباب

والمناور التي تناطح السماء، ثم يمْتَع — بعد أن يدخل دهلي — نظره بمئات القصور والمباني الساحرة المكسوة بالميناء الملون الذي لا يقدر على الإعراب عن جماله غير التصوير، ويجب عليه، إذا ما رَغِب في اجتلاء طلة سيد تلك العجائب، أن يسأل عن الساعة التي يذهب فيها إلى المسجد، وهو يشاهد، في أثناء انتظاره صابرًا أُزوفَ تلك الساعة، الرِّياضُ الْغُنْن ذات الجواSQC المحرَّمة المغطاة بالفسيفساء والمعكس رُخامها في مياه الفسقى والحياض العميقه والبارزة من بين أزهار الجلول^١ والياسمين وشجر البرتقال والليمون والأشجار العَطِرَة الطيبة الرائحة التي لا تَعْرُف بلادنا مثلها.

وبينما يقضي السائح العَجَب من تلك العجائب، فيقول في نفسه: إن ملائكة رواية ألف ليلة وليلة لا تستطيع أن تُتَبع ما هو أروع منها، يسمُّ ألف الصُّنُوج تدُّق إيدانًا بجميء الملك، ويرى أنه يَخْرُج من باب القصر الهائل جمُّ كبير من الخَدَم المتسربيين بسراويل برَاقَة، ومن الجنود المدججين بالسلاح اللامع، ومن العبيد السُّمْر ذوي الخلخل الفِضَّية، والحاملين للمحامِل الزاهية ذات المِظَلَّات المخملية، ويرى، في وسط موكيٍ من فرسان الهندوس والفرس والتركمان الحاملين سيوف الهند المرهفة، ومن أكبر الأمراء والأعيان البايسين أَفْخَر الثياب المُطَرَّزة بالذهب والفضة والحجارة الكريمة، صاحب الجلالة الملك الراكب فيلاً ضخماً مُتَنَّزِّلَ الخطا، والذي تُظَلِّله مَظَلَّةً من الحرير المطرز بالألماس والزمرد، ويرى الجمهور وهو يخُرُّ ساجداً لذلك الملك المطلق الذي هو سيد الهند، وظلُّ الله الحي المرهوب في الأرض، والملك لخمس عشرة مملكة، والذي هو مَلِك أغرا ودهلي وكابل ولاهور وكجرات ومالوا وبنغال وأجمير، ويرى على جوانبه فريقاً من حاشية الملك يُحَرِّك مراوح من ريش الطاووس ذات أَهَادِب مرصعة بالحجارة الكريمة على حين تُلْقِي الشمس أشعاتها الذهبية على ذلك الموكب الملكي الشرقي الباهر.

هـوامش

(١) الجلول: جمع الجل، وهو الورد أبيضه وأحمره وأصفره.

الفصل الرابع

العربُ في مصر

(١) حال مصر حين الفتح العربي

درس شأن العرب في مصر ذو فائدة عظيمة، فمصر من البلدان التي طالت إقامة العرب بها، وهي من البلدان التي أنشأوا فيها دولة مهمة، وهي من البلدان التي كان تأثيرهم فيها أعظم مما في أي بلد آخر، ولا شيء يستوقف النظر كحَفَدة قدماء المصريين الذين قاوموا نفوذ الأغارقة والرومان على الخصوص، ثم اعتنقوا دين العرب ولغة العرب وحضارة العرب الغالبين، وصاروا عربًا خالصي العروبة، وفي فارس والهند امتنجت حضارة العرب بالحضارة السابقة، وفي مصر توارت أمام حضارة أتباع النبي الجديدة حضارة الفراعنة القديمة وحضارة اليونان والرومان التي تنحدرت فوقها في قليل من المدن.

وتشتت دراسة آثار العرب المائلة في مصر أن ذلك الاستبدال كان تاماً، والعرب لم يقتبسوا شيئاً من المباني القديمة الكثيرة التي وجدوها في أنحاء القطر المصري. وتتطوّي دراسة العرب في مصر على فائدة عظيمة من الناحية الإثنوغرافية، وقد ذكرنا في فصل سابق أنه لم ينشأ عن توالد العرب والمصريين عرقٌ جديدٌ وَسَطٌ بين العرقين، وأن المصريين الذين صاروا عرباً باللغة والدين والحضارة لم يصيروا عرباً بدمائهم، فالشبه الوثيق بين فلاحي شواطئ النيل المعاصرين ووجوه أجدادهم المنقوشة على آثار العصر الفرعوني يدل على أن دم القدماء لا يزال يجري في عروق أهل مصر. ورأى العرب حينما استولوا على مصر أنهم في بلاد تختلف بطرق معايشها وبيئتها عن جزيرة العرب وسوريا، وكان كلُّ شيء في مصر، من حضارة وسكان وأرض وجُوُّ، جديداً غير مألوف لديهم.



شكل ٤-٤: من عرب وادي النيل (مصر العليا، من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

ولا بدُّ لنا من النظر إلى تاريخ مصر وأحوال العيش الخاصة فيها لإدراك أسباب السرعة في استيلاء العرب على مصر، ولفهم سرّ تأثيرهم فيها. وترجع بعض الآثار المصرية القديمة إلى ما قبل سبعة آلاف سنة أو ثمانية آلاف سنة، كما دلت عليه المباحث الحديثة، ومهمماً بعُدُّنا في الرجوع إلى عصور التاريخ وجدنا المصريين أصحاب حضارة راقية.

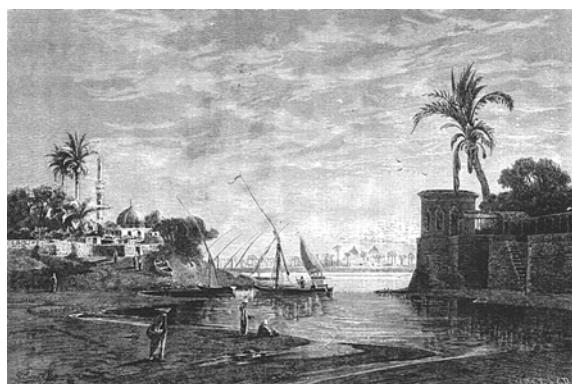
ونجهل مصدر حضارة قدماء المصريين تماماً، وإن كنا نعلم أنها أقدم من جميع الحضارات التي أينعت على شواطئ البحر المتوسط، وأنها قامت على صفيحي النيل قبل أن تقتبس الشعوب الإغريقية منها فنونها ومعتقداتها بقرون كثيرة. وظنَّ العلماء المعاصرون، حين أحياوا بمحاذاة مصر الغابرة، أنها لم تتبدل مع الزمن، ولكن إنعام النظر في آثارها التي تَمَّت في مختلف الأدوار يدل على أنها لم تتشذ عن سُنة التطور العامة، وإن سارت حضارتها ببطء فيما مضى.

ويظهر أن كل شيء ثابتُ خالد في معبودها ذات الأبواب الهائلة، وفي أهرامها التي تتحدى الدهر، وفي تحنيطها الذي يُزري بسُنة الزمن، ونظمها التي تحرّم كل تغيير وتبدل.

ولم يسهل، والحالة هذه، على الفاتحين أن يؤثّروا في أمّة تلك حضارتها، فلقد تتابع غزوُ الأجنبي لمصر فظلَّت ثابتة على قدّيمها، واستولى الأغارقة والرومان على مصر من



شكل ٤-٤: نخيل الجيزة (من صورة فوتوغرافية).



شكل ٤-٣: جزيرة الروضة في القاهرة (من تصوير إير).

غير أن يؤثروا فيها، ونرى في المباني التي شادها البطالمة والقياصرة في مصر على طراز

فن العمارة المصري القديم من الأدلة ما يكفي لإثبات ثبات الحضارة المصرية القديمة بتوالي القرون.

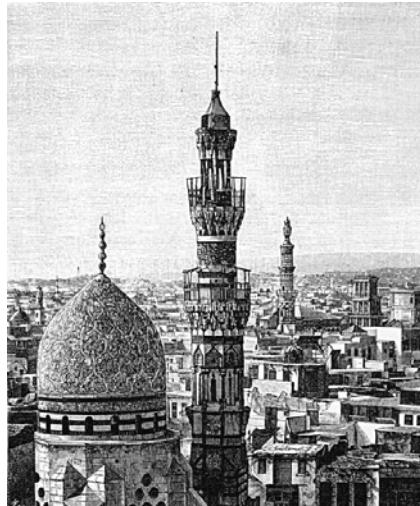
وكانت مصر، حين ظهور العرب على مسرح التاريخ طعمةً للغزاة الفاتحين منذ قرون كثيرة، فقد استولى الإسكندر عليها في سنة ٣٢٢ق.م، وطرد الفرس منها وأقام مدينة الإسكندرية فيها، ثم نادى أحد قواده، بطليموس سوتر، بنفسه ملِّكاً عليها في سنة ٤٣٠ق.م، وملكت أسرة البطالمة مصر مدة ٢٧٤ سنة، وكان آخر من تَوَلَّوا أمور مصر من تلك الأسرة الملكة كليوباترة الشهير، ولما هزم أكتافيوس كليوباترة وأنطونيوس في معركة أكسيوم في سنة ٣٠ق.م، أصبحت مصر ولاية رومانية، ولما قُسمت الدولة الرومانية على أثر وفاة ثيودوز في سنة ٣٩٥ كانت مصر من نصيب دولة الشرق الرومانية، وظلت مصر تابعة لهذه الدولة حتى سنة ٦٤٠م، أي السنة التي فتحها العرب فيها.

وداومت مصر في زمن البطالمة على تقاليدتها القديمة، وعاشت فيه عيش رَغْدٍ ورَخاءً، وصارت الإسكندرية فيه مركزاً تجاريًّا مهمًا وملجاً ثقافيًّا، وأقيمت فيه أبنية عظيمة على الطراز الفرعوني، كما تشهد بذلك بعض تلك الأبنية التي لا تزال قائمة في جزيرة الفيلة، فتُعدُّ مُصدقةً لما قلناه من انتحال جميع الفاتحين الجدد لتقاليد المصريين، وأنت إذا ما استثنيت المدن الإغريقية الرومانية التي أقيمت في مصر، كالإسكندرية مثلاً، لم تكن تشعر بأي تأثير كان لأولئك الغُزاة في مصر.

وعندما أصبحت النصرانية دين دولة القسطنطينية الرسمي أمر القيصر ثيودوز، في سنة ٣٨٩م، بهدم جميع تماثيل الآلهة المصرية القديمة ومعابدها وجميع ما يُذَكَّر الناس بها، وأكفى بتشويه كتابات المعابد المصرية التي كانت من المثانة بحيث لم يقدر على هدمها بسهولة.

ولا تزال مصر ملائى بأنقاض ذلك التخريب الذي أملأه التعصب، وتُعدُّ تلك الأعمال من أفعى ما عرفه التاريخ من أثر عدم التسامح والبربرية، ومن دواعي الأسف أن كان من بوادر أعمال ناشري الدين الجديد، الذي حل محل دين الأغارقة والرومان، هدم المباني التي احترمتها أكثر الفاتحين منذ خمسة آلاف سنة.

وأدَّت هذه الأعمال الوحشية بسرعة إلى إمحاء الحضارة المصرية، وزوال دور الخط الهيروغليفى الذي حُلت رموزه في الزمن الحاضر، وأكرهت مصر على انتقال النصرانية، وهبطت بذلك إلى دركات الانحطاط مقداراً فمقداراً إلى أن جاء العرب.



شكل ٤-٤: منظر القاهرة، ويرى مسجد قاغباني في أول الصورة (من صورة فوتوغرافية).

وكان قيصر الروم هرقلُ سيد مصر حينما حاول العرب فتح مصر بقيادة أحد رجال الخليفة الثاني، وكان أشد الboss والشقاء مما تعانبه مصر التي عَدَت ميدان قتال المذاهبنصرانية، وكانت هذه المذاهب تكثُر في ذلك الزمن وتتلiven وتتقاول.

وكانت مصر التي أكلتها الانقسامات الدينية، ونهكتها مظالم الحاكم تحقد أشد الحقد على سادتها الكثيبيين، وكانت تَعُدَّ من يُحرِّرونها من أيدي قياصرة القسطنطينية مُنقذين، فحفوظ هذا الشأن للعرب.

ذلك هي حال مصر عند ظهور أتباع النبي، ولنتكلم عن طرق حياتها الخاصة في ذلك الزمن:

يجب أن ننتقل إلى وادي النيل؛ لكي نَطَّلع على أخلاق قدماء المصريين، وطرق حياتهم، ولأرض مصر وجُوهاً من الخواص الثابتة بتقاديم الزمن ما جعل الحياة فيها غير متحولة، ووصف مصر الحاضرة وسكانها المعاصرين يتضمن تمثل ما كان عليه وادي النيل وأهلوه عندما ظهر العرب في هذا القطر.

من المعلوم أن مصر هي الوادي الضيق الذي أوجده النيل في سواء الصحراء، ويبلغ طول هذا الوادي مستقيماً من الشلال الأول الواقع على حدود بلاد النوبة إلى البحر نحو مئتي فرسخ، ويبلغ طوله معيقاً من ذلك الشلال إلى البحر أكثر من ثلاثة فراسخ. ويختلف وادي النيل عرضاً، فبينما تراه لا يزيد على خمسة كيلو مترات في مصر العليا تراه يزيد على عشرين كيلو متراً في مصر الوسطى، وهو لا يكون عظيم الاتساع إلا بالقرب من مصب نهر النيل حيث ينقسم إلى ضلعيه اللذين يتتألف من ابتعاد إحداهما عن الأخرى شكل ٧، فيسمى السهل الواقع بينهما بالدللة؛ لتشابهه الحرف اليوناني الذي يحمل هذا الاسم، ويبلغ أكبر طول في المثلث الذي يتتألف على هذا الوجه نحو أربعين فرسخاً، ويبلغ أكبر عرض في هذا المثلث، أي من ناحية البحر، ستين فرسخاً.
والغرينُ^١ الذي تتتألف منه مصر حَصْبُ جَدًا، وهو لا يحتاج إلى أكثر من نَضْحَه بالماء ليُخْرِج زَرْعَه، والنيل هو الذي يقوم بذلك حين فيضانه، وفي مصر نظام للري، كالذي كان في زمن الفراعنة لا ريب، يؤدي إلى توزيع المياه بين أقسام الأرض التي لا يصل إليها النيل بنفسه.

وبنَأَتْ أقسام كثيرة من تلك الأرضين العجيبة من الخشب مبلغاً تُخرج معه في كل سنة ثلاثة زروع في كثير من الجهات، ويتم زرع تلك الأرضين من غير عناء تقريباً، أي أنها لا تحتاج في الغالب إلى من يُثْرِيْها لبذارها، وهي تُغلُّ أكثر من أراضي البلدان الأخرى مع ذلك، وبينما تُعطِي البُرَّة ما يتَرَجَّح بين خمسة أمثالها وعشرة أمثالها في أخصب أراضي فرنسة تراها تُعطِي خمسة عشر مثلاً في أراضي مصر.^٢

ولا يحتاج سكان مصر، بسبب جوها الحار،^٣ إلى وفرة القوت، ولا إلى ثقيل الثياب، ولا إلى مُحْكَم المنازل،^٤ فالفلاح المصري يقتصر في طعامه على كسر يابسة من الخبز وقليل من الفواكه والبقول، ويُسْكِن كوكحاً حقيرَاً من تراب النيل المجبول بالتين والماء، ويُكَبِّس جلباباً أزرق، وإذا ما كان عمره أقل من أربع عشرة سنة كان من العُراة، وقد رأيْتُ في مصر العليا وبالقرب من حدود النوبة، على الخصوص، عملاً كثريين لا يكاد يزيد ثوب كل واحد منهم على زُنَارَ عَرْضِه بضعة سنتيمترات مشدود على وَسَطِه، وتترجم جميع نفقات الفلاح المصري السنوية في زماننا، الذي كثُرت فيه نفقات الإنسان، بين سبعين فرنكًا و ١٢٠ فرنكًا، ويَدُرُّ أن تزيد أجرته اليومية على خمسين سنتيمًا، وأبنائي دليلي في الأقصر، أحمد، وهو لم يكن من سِفَلَة الناس، أن نفقاته السنوية، هو وزوجه وأولاده الأربع، نحو أربع مائة فرنك، وأنه يعيش بهذا المبلغ عيشاً لائقاً كثيراً.

ولم تتقدم طرق الزراعة والاستغلال في مصر ما كانت عليه في زمن الفراعنة، ولا نرى من الفوائد ما يحفِّزها إلى تغييرها ما دام النيل والشمس يُغْنِيان فيها عن الأسمدة والحرث.



شكل ٤-٥: منظر القلعة ومسجد محمد علي في القاهرة (من صورة فوتografية).

وتنظيمُ شؤون الرّي مقداراً بمقدارِ بزيادة القنوات والترع هو كل ما يمكن إصلاحه وما تقضي المصلحة بإصلاحه، فبهذا يمكن إنقاذ أجزاء مصر التي يصل إليها ماء النيل من الصحراء، وتحويلُها إلى حقول خصبة.

ولا بد من أن تكون مصر الغنية قد أثرت تأثيراً حسناً في العرب الفاتحين الذين جاءوا من صحاري بلادهم، فالكتابان الآتيان اللذان تبادلهما عمر بن الخطاب وعامله عمرو بن العاص يُثبتان درجة تقديرهما لفتح مصر.

كتب خليفة أبي بكر، عمر بن الخطاب، إلى عامله عمرو بن العاص يقول له: «أطلبه منك يا عمرو أن تَصُف لي مصر وصُفْها دقِيقاً عند أخذك كتابي هذا؛ لأنَّمَثَّل ذلك البلد الجميل والسلام عليك».

واسمع جواب عمرو بن العاص:

ورد إلى كتاب أمير المؤمنين، أطال الله بقاءه، يسألني عن مصر، أعلم يا أمير المؤمنين، أن مصر تربة غراء، وشجرة خضراء، طولها شهر، وعرضها عشر، يكتنفها جبل أغرب، ورمل أعفر، يخطُّ وسطها نهرٌ مبارك الغدوات، ميمون الرؤحات، يجري بالزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر له أوان، يدرُّ حلابه، ويكتُرُ عجاجه، وتتعظمُ أمواجه، فتفيضُ على الجانبين، فلا يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا في صغار المراكب، وخفاف القوارب، وزوارق كأنهن المخايل،^٥ أو ورق^٦ الأسائل، فإذا تكامل في زيادته تَكَبَّسَ على عقبه كأول ما بدأ في جزيئه وطما^٧ في درتة، فعد ذلك تَخْرُج ملة محقرة يحرثون بطون الأرض، ويبدرون بها الحب، يرجون بذلك النماء من رب، ألقِيَهم ما سعوا من كدهم، فنانه عنهم أناس بغير جدهم، فإذا أشرف الزرع وأشرف، سقاهم الندا، وغذاه من تحته الثرى، في بينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء، فإذا هي عنبرة سوداء، فإذا هي زمرة خضراء، فإذا هي ديباجة رقشاء، فتبارك الله الخالق لما يشاء، والذي يصلح هذه البلاد ويُقرُّ قاطلها فيها لا يُقبل قول خسيسها في رئيسها، وألا يستأند خراج ثمرة إلا في أوانها، وأن يُصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها، فإذا تَقَرَّرَ الحال مع العمال على هذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال، والله يُوْفِقُ إلى حسن الحال.

وقد يكون نهر النيل الذي فيه سرٌّ غنى مصر سبب بؤسها، فإذا ما كان فيضانه دون الدرجة الكافية ضربت الماجاعة أطنابها في مصر، وإذا دام القحط في مصر عدّة سنين لم يبقَ أمام الكثيرين من الفلاحين سوى الموت جوعاً، ومن ذلك القحط الهائل الذي نُكِبَت به مصر سنة (١٠٦٩ هـ / ١٤٦٢ م) أيام الحكم العربي، فقد روى مؤرخو العرب أنه حين نَّقصَ فيضان النيل عن درجة الكفاية خمس سنين متتابعة، وتَعَدَّرَ جلب القمح من الخارج بسبب الحروب الكثيرة التي كانت تقع في تلك السنين بلغت الماجاعة في مصر مبلغاً صارت تُبَاعُ معه الببيضة الواحدة بخمسة عشر فرنگاً والهرة الواحدة بخمسة وأربعين فرنگاً، وأن الناس أكلوا في أثناء تلك الماجاعة جمال الخليفة وأفراسه التي كان عددها عشرة آلاف، وأنهم رمموا في إبانها وزير الخليفة عن ظهر بغلته حينما كان ذاهباً إلى الصلاة في المسجد فذبحوها وأكلوها على مرأى منه، ثم أكلوا جُثث الذين قُتِلُوا بسبب

هذا الاعتداء، ودامت تلك المجاعة، وكانت كلما دامت أكل الناس بعضهم بعضاً، فكان يُذبح من يخرج من البيوت من الأولاد والنساء ويُؤكل لحمه مع عويله، ومما حدث أن نجت امرأة وكتب لها حظُّ البقاء حيَّة بعد أن أكل بعضها في تلك الأيام، فكان الناس يشيرون إليها لطويل زمن بعد انتهاء المجاعة.

(٢) استيلاء العرب على مصر

فتح القائد عمرو بن العاص، الذي هو من عمال الخليفة الثاني، عمر، بلاد مصر في السنة الثامنة عشرة من الهجرة (٦٣٩م)، وقد ذكرنا ما كان عليه عمرو بن العاص من الحِنْقَنَة والمهارة نحو سكان مصر، فهو لم يتعرّض إلى ديانتهم، ولا إلى نظمهم ولا عاداتهم، ولم يطالبهم بغير جزية سنوية قدرُها خمسة عشر فرنكاً عن كل رأس مقابل حمايتهم، فرضي المصريون بذلك شاكرين، ولم يَنْدِّسوَ الرُّوم، أي الجنود والموظفين ورجال الدين الذين أبوا أن يخضعوا للغُزَاة فالتجأوا إلى الإسكندرية، فحاصرها العرب حصاراً دام أربعة عشر شهراً، وقتل في أثناءه ثلاثة وعشرون ألفاً من العرب.

وكان عمرو بن العاص سمحاً رحيمًا نحو أهل الإسكندرية مع تلك الخسارة التي أُصيب بها العرب، ولم يَقُسْ عليهم، وصَنَعَ ما يكُسب به قلوبهم، وأجابهم إلى مطالبيهم، وأصلاح أسدادهم وترعّهم، وأنفق الأموال الطائلة على شؤونهم العامة.

وأما إحراق مكتبة الإسكندرية المزعوم؛ فمن الأعمال الهمجية التي تأباهَا عادات العرب، والتي يجعل المرء يسأل: كيف جازت هذه القصة على بعض العلماء الأعلام زمناً طويلاً؟ وهذه القصة دُحِضت في زماننا فلا نرى أن نعود إلى البحث فيها، ولا شيء أسهل من أن نُثبت بما لدينا من الأدلة الواضحة أن النصارى هم الذين أحرقوا كتب المشركين في الإسكندرية قبل الفتح العربي بعانياة كالتي هدموا بها التماشيل ولم يبق منها ما يُحرق. وكان فتح الإسكندرية مُهِماً لدى العرب كفتح القدس، فقد أسفروا عن فتحهم لصر فتحاً نهائياً، وكان لهم به مصدر شراء قوي، ونقطة ارتکاز يَقِرُّون أن يَسْتَندُوا إليها لقيامهم بفتح جديدة أخرى.

ونحن، لكي نُقدِّر أهمية فتح العرب للإسكندرية ومقدار تأثيره في العالم، نرى أن نوجز ما كانت عليه حين دخول العرب بلاد مصر.

كانت الإسكندرية من أهم مدن العالم منذ إنشائها الإسكندر (سنة ٣٣٢ق.م.) إلى أن فتحها عمرو بن العاص، أي في مدة ألف سنة، وكان يمكن عدها، وهي مركز

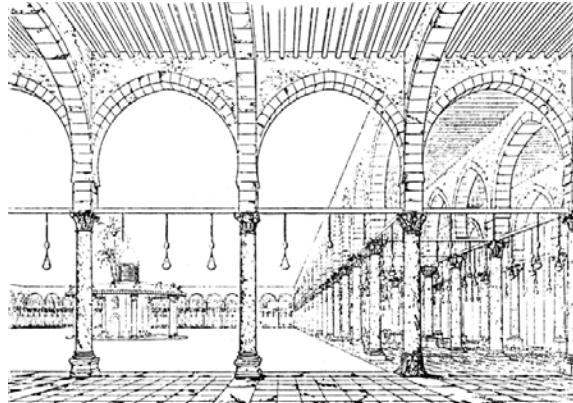
لتجارة البحر المتوسط بأسره، ثانية مُدْن الإمبراطورية الشرقية، أي المدينة التي تأتي بعد القسطنطينية، وكان البطالم قد اجتذبوا إليها أشهر علماء العالم وفلاسفته، وكانت تشمل على أشهر المكتبات والمدارس.

بَيْدَ أَنْ ذَلِكَ الرَّقِيَّ الْعَلْمِيَّ لَمْ يَدُمْ، فَكَانَتْ، حِينَ فَتَحَهَا الرُّومَانُ بِقِيَادَةِ قِيَصَرِ (سَنَة٤٨ق.م) قَدْ أَخْذَتِ فِي الدِّبَولِ مِنْذَ زَمْنٍ طَوِيلٍ.

وَلَمْ يَكُدْ فَتَحُ الرُّومَانُ لَهَا يَتَمْ حَتَّى أَخْذَتِ تَنَاهُضَ وَتَنَعْشَ، وَصَارَتْ ثَانِيَةُ الْمَدْنِ فِي الدُّولَةِ الرُّومَانِيَّةِ، وَلَكِنْ هَذَا الرَّخَاءُ كَانَ مَؤْقَتاً، فَهِيَ لَمْ تَلْبِثْ أَنْ صَارَتْ مَسْرَحًا لِلَاخْتِلَافَاتِ الْدِينِيَّةِ، وَتَوَالَّتْ فِيهَا الثُّورَاتُ وَالْفَتَنُ مِنْذَ الْقَرْنِ الْثَالِثِ مَعَ مَا قَامَ بِهِ الْقِيَاسِرَةُ مِنْ أَعْمَالِ الْقَعْمِ، وَلَا أَصْبَحَتِ النَّصَارَى بَيْنَ الدُّولَةِ الرَّسْمِيَّةِ أَمْرَ الْقِيَصَرِ النَّصَارَانِيِّ ثِيُودُورُزَ، لَا الْخَلِيفَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَابِ، بِإِبَادَةِ مَعَابِدِهَا وَتَمَاثِيلِهَا وَكُتُبِهَا الْوَثِيَّةِ كَمَا ذَكَرْنَا ذَلِكَ آنَفًا.

وَحَافَظَتِ الإِسْكَنْدَرِيَّةُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ مَكَانِتِهَا التِّجَارِيَّةِ مَعَ مَا أَصَابَهَا مِنَ النَّقْصِ فِي عَهْدِ قِيَاصَرِ الرُّومِ، وَكَانَ فِيهَا مِنَ الْبَقَايَا الْمَهْمَةِ مَا أَدْهَشَ عَامِلَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَابِ. وَلَمْ يَشَاهِدْ الْعَرَبُ مَدِينَةً مَنْتَظَمَّةً اِنْتَطَامَ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ، وَنَحْنُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَّمْ يَكُنْ عَنَّا نَعْلَمْ يَقْاطِعُ بِالحَالِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا حِينَ الْفَتْحِ الْعَرَبِيِّ، نَعْرُفُ بِالْبَضْطِيلَ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ فِي الْقَرْنِ الْثَانِي مِنَ الْمِيلَادِ، وَنَحْنُ، إِذَا مَا أَغْضَيْنَا عَمَّا أَصَابَ مَبَانِيَهَا مِنَ الْهَدْمِ، رَجَحْنَا أَنَّهُ لَمْ يَطْرُأْ عَلَى رَسْمِهَا تَبْدِيلٌ كَبِيرٌ مِنْذَ ذَلِكَ الْقَرْنِ.

كَانَتِ الإِسْكَنْدَرِيَّةُ مَسْطَطِيَّةُ الشَّكْلِ ذَاتِ طُولٍ ٥٠٠٠ مَتْرٍ وَذَاتِ عَرْضٍ ١٨٠٠ مَتْرٍ، وَكَانَتْ تَقْطَعُهَا طُرُقٌ مُسْتَقِيمَةٌ طَوِيلًا وَعَرْضًا، فَتَفَصِّلُهَا إِحْدَى هَذِهِ الْطُرُقِ إِلَى قَسْمَيْنِ. وَتَنْعُدُ مِنَ الْأَثَارِ الْمَهْمَةِ، الَّتِي كَانَتِ فِي الإِسْكَنْدَرِيَّةِ: دَارُ الصَّنَاعَةِ الْكَبْرِيِّ، وَالْقَصُورُ الْفَخْمَةُ، وَمَعْبُدُ نِيَّتونَ الَّذِي كَانَ أَسْاطِينِهِ تَسْتَوْقَفُ نَظَرَ الْمَلَاحِينَ مِنْ بَعْدِهِ، وَالْتِيمُونِيَّوْمُ الَّذِي رَأَى أَنْطَوْنِيوسَ أَنْ يَقْضِي بِقِيَةِ عُمْرِهِ فِيهِ مَعْتَزِلًا بَعْدِ هَزِيمَتِهِ فِي أَكْسِيُومِ، وَالسِّيَازِارُومُ الَّذِي أَقَامَ بِهِ قِيَصَرُ مِنْذَ قِيَامِهِ بِالْحَصَارِ، وَالْمِسْلَتَيْنِ، وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْأَثَارِ الْكَثِيرَةِ، وَالْأَمْپُورِيَّوْمُ الْقَائِمُ عَلَى طُولِ الْأَرْصَفَةِ حِيثُ كَانَتْ تَبَاعُ السَّلْعُ الْعَالَمِيَّةُ، وَالْمَوزِيَّوْمُ حِيثُ كَانَتْ الْمَكْتَبَةُ الشَّهِيرَةُ الَّتِي هِي أَعْظَمُ مَكْتَبَةٍ فِي ذَلِكَ الْحَينِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ الدُّورِ الْمَنْحَطِ مِنَ الْعُلَمَاءِ غَيْرِ أَصْحَابِ الْكَرَامَاتِ وَالنُّحَادَةِ وَاللُّغُوْنِيَّيِّينَ وَرِجَالِ الدِّينِ، وَكَانَ يَقْوِمُ عَلَى تَلٍّ، حِيثُ يَنْتَصِبُ عَمُودُ بُونِيَّوْسِ الْيَوْمِ، مَعْبُدُ السَّرَّاپِيُّوْمِ ذُو الْأَبْوَابِ الْضَّخْمَةِ وَالْتَّمَاثِيلِ الْهَائِلَةِ الْمَصْنُوعَةِ مِنَ الْغَرَانِيَّتِ.



شكل ٤-٦: داخل مسجد عمرو بن العاص (من تصوير كوست).

وكانت جزيرة فاروس تواجه الإسكندرية، وتقوم عليها المئارة الشهيرة التي صُنعت من الرخام الناصع، والتي كان نورها يُرى من مسافة عشرة فراسخ من البحر، فتُعدُّ من عجائب الدنيا السبع، وكانت تتصل تلك الجزيرة بالبر بطريقٍ مُعَبَّدٍ طولها ١٢٠٠ متر. أقام عمرو بن العاص حاميةً في الإسكندرية بعد الاستيلاء عليها، وأرسل كتابيه إلى داخل مصر، فاختارت مكاناً على شاطئ النيل حيث نصب فُسطاطه، وأنشأت أكواخاً مؤقتةً لم تثبت أن بُدِّلت، بعد مدة قصيرة، بيوتاً للجنود وقصوراً للقادة، وكانت هذه الأبنية نواةً لمدينة القاهرة المنافسة القادمة لبغداد، وسُمِّيت بالفسطاط، نسبةً إلى الفسطاط الذي نُصبت عليه.

ورأق مكان الفسطاط عمرو بن العاص، فعزم على جعله عاصمةً له فحصَّنه بالأسوار مقيناً عليه بيته، وقد ظلَّ ذلك المكان عاصمةً لمصر من زمن عمرو، أي منذ أكثر من اثني عشر قرناً.

ودل ما قام به عمرو بن العاص من تنظيم مصر على عظيم حكمته، وعامل عمرو بن العاص الفلاحين بما لم يعرفوه من العدل والإنصاف منذ زمن طويل، وأنشأ لل المسلمين وحدهم محاكم منظمة دائمة ومحاكم استئناف، فإذا كان أحد الخصوم مصرياً

حق للسلطات القبطية أن تتدخل، واحترم عمرو بن العاص نُظم المصريين وعاداتهم ومعتقداتهم.

ولم يمنع عمرو بن العاص من عادات المصريين سوى عادة اختطاف إحدى العذارى الحسان من أبوتها في كل سنة، وقدفها في النيل؛ لكي يُمْنَن إله النيل على مصر بما تحتاج إليه من ارتفاع الماء وقت الفيضان، وقد استبدل عمرو بن العاص بتلك العادة العادة التي لا تزال موجودة إلى يومنا، وهي قذف تمثال حَزَفي، يُدعى العروس، في النيل في يوم معين من كل سنة، وإنني أرى من المحتمل أن تكون هذه العادة، التي ترجع في القدم إلى ستة آلاف سنة، قد أتت من عادة تقريب القرابين البشرية في الديانة المصرية الأولى.

وسار عمرو بن العاص في مصر على غرار عمر بن الخطاب في القدس، فشمل الديانة النصرانية بحمايته، وسمح للأقباط بأن يستمروا على اختيار بطريك لهم كما في الماضي، ومن تسامحه أن أذن للنصارى في إنشاء الكنائس في المدينة الإسلامية التي أسسها.



شكل ٤: ساحة مسجد ابن طولون وحوضه ومئذنته (من تصوير إير).

وإذ لم يكن لل المسلمين مساجد في مصر، وإذ زاد عدد من أسلم من النصارى، أقام عمرو بن العاص مسجداً جميلاً على طراز الحرم المكي، ولا يزال المسجد الشهير الذي أنشأه قائماً مع عدم اكتثار الحكومة المصرية لتصدّعه.

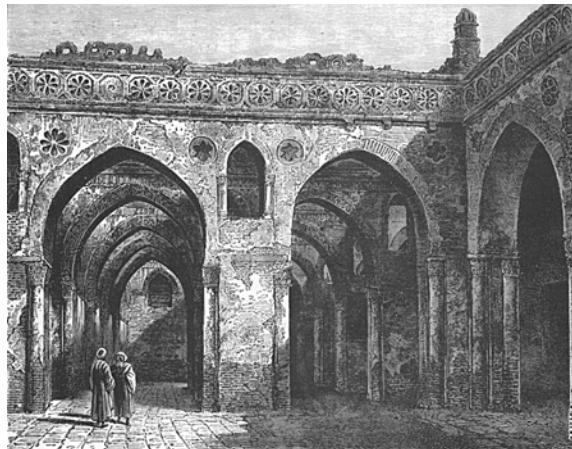
ولم يكتفي عمرو بن العاص بفتح مصر الدنيا، بل زحف بجيشه إلى بلاد النوبة، أي أوغل في إثيوبية الرومان القديمة على رأس عشرين ألف جندي، ولم تخرج هذه الحملة عن صفة الغزوات التي لا تؤدي إلى تنظيم جديٍ ما دام العرب لم يستقروا ببلاد النوبة استقراراً ثابتاً، بل اقتصرت على غزوها بين وقت وآخر، ومع ذلك فقد اعتنق النوبيون دين العرب ولغتهم كما اعتنقهما المصريون، واليوم إذا نظرت إلى النوبيين، وقد أتيح لي أن ألتقط صوراً فوتوغرافية لهم،رأيتهم قوماً مختلفي الألوان واللامح، فمنهم البيض الذين ينتسبون إلى عرب الحجاز، ومنهم سود الجلود، ومنهم من هم حسنون الخلفة، ومن النوبيات من يشبههن مصرات العصر الفرعوني مشابهةً عظيمة.

وغزا العرب، غير مرةٍ بلاد الحبشة، أو القسم المجاور منها للبحر الأحمر على الأقل، فكان تأثيرهم فيها دون تأثيرهم في بلاد النوبة، فقد حافظ الأحباش، الذين انتلوا النصرانية منذ القرن الرابع، على دينهم، وإن شاعت اللغة العربية بينهم وصاروا أخلاقاً من الآدميين.

والمرة بين فتح العرب لمصر في سنة ٦٣٩ م وفتح الترك لها سنة ١٥١٧ م نحو تسعين سنة تداولت حكم مصر في أثنائها تسع دول:

خضعت مصر لخلفاء المشرق (٦٣٩-٨٧٠ م)، ثم استقلَّ ولاتها فأسسوا الدولة الطولونية (٨٧٠-٩٠٥ م)، ثم استردَّ خلفاء بني العباس سلطانهم عليها لمدة قصيرة (٩٢٤-٩٤٠ م)، ثم قامت فيها الدولة الأخشيدية القليلة الأهمية (٩٤٠-٩٧٢ م)، ثم استولى عليها الفاطميون (٩٧٢-١١٧١ م) الذين اشتغلوا دولتهم على شمال إفريقيا وجزيرة سردينيا وجزيرة صقلية وجزر البحر المتوسط وسوريا فبلغت مصر في عهدهم ذروة الرقي والرخاء.

ثم أصاب خلفاء مصر مثل ما أصاب خلفاء بغداد، فقد استحوذ عليهم صنف من المرتزقة الذين عُرِفوا في التاريخ باسم المالكية، والذين تألف منهم حرسهم، والذين كانوا ينتسبون إلى الشعب الذي ينسب إليه مرتزقة بغداد، ولم يتركوا لهم شيئاً من السلطة الحقيقة، فلما جاءت سنة ١٢٥٠ م استبدَّ المالكية بالحكم نهائياً، وقد دام سلطانهم ٢٦٧ سنة.



شكل ٤-٨: داخل مسجد ابن طولون (من تصوير إبر).

وأقام المماليك في مصر دولتين من أصلين مختلفين، فأما الدولة الأولى: فهي دولة التركمان المماليك (١٢٥٠-١٣٨١م) التي كان قوامها أناس من الترك، كما في بغداد، أسرموا في القفقاس، وفيما جاور بحر قزوين؛ فـيبيعوا كالآريقاء، فهؤلاء الناس هم من الملاح الأقوية الذين لاح أنه سيتألف منهم حرس مختار للخلفاء، والذين كانوا ذوي منظر رائع بملابسهم الزاهية، وأسلحتهم الجميلة المرصعة بالأشعة التي قلّدهم بها الفرسان الصليبيون فاخترعوا علائم الشرف، والذين تقلد رؤساؤهم أعلى المناصب بالتدريج؛ لـما نالوا من الحُظوة فانفردوا بالملك فأقاموا دولتهم.

وأما دولة المماليك الثانية فهي الدولة المعروفة في التاريخ بدولة الشراكسة المماليك الذين لم يكونوا من ترك آسية العلية؛ بل من بلاد الشركس (١٣٨٢-١٥١٦م)، والذين ظَمِع سلاطين دولة التركمان المماليك في قوتهم؛ ليدرأوا بهم كيد التركمان الأشرار الذين خان أسلافهم العرب فيما مضى، وقد خَيَّب هؤلاء الشراكسة ظُنُحَمْ، فاستبدوا بالحكم، وأقاموا دولتهم التي دامت إلى سنة ١٥١٦م حين قضى عليها السلطان سليم الأول، وحوَّل مصر إلى ولاية تركية.

هناك حانت ساعة انحطاط مصر، ثم شملها سلطان الأوربيين الحديث الحَفِيُّ فلم يزدها إلا انحطاطاً.

وصارت مصر ولايةً تركية، ولم يلبث المالكين الذين قُهروا في بدء الأمر أن عاد إليهم نفوذهم الحقيقي، وكان المالكين من أشد من حاربهم ناپليون، ولم تنج مصر منهم إلا بفضل الجبار الذي محمد علي الذي قتلهم على بكرة أبيهم.

وكان المالكين يُجتمعون بانضمام أناس إليهم من الخارج، أي كان شراکسة مصر يشترون الموالي من بلاد الشركس؛ لإتمام عددهم ما دام جُو مصر القَتَالُ لا يلائم تنازل الأجانب، وكان شراکسة مصر ينقادون لفريقي من بَكَوَاتِهم الذين ظلُوا يختارون أجمل غلامان الشركس لكتائبهم.

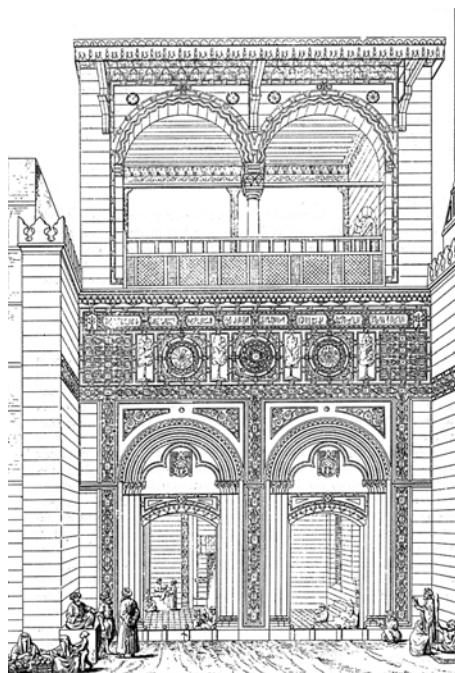
(٣) حضارة العرب في مصر

استَقْتَ حضارةُ العرب في مصر من اليَتَبُوع الذي استُقْتَ منه حضارتهم في سوريا وبغداد، وقامت حضارتهم في مصر بعناصر اقتبسوها من البيزنطيين على الخصوص، ودللت مبنيَّ العرب الأولى في مصر على ذلك المصدر، ولم يلبث العرب أن تحرروا من المؤثرات الأجنبية كما تدلُّ عليه مبنيَّهم التي أقيمت بعد مبنيَّ الزمن الأول.

ويتصف عصر الفاطميين، الذي بلغت حضارة العرب فيه بمصر ذروة الرقي، بنُضُج الفنون، وما تؤدي إليه الفنون من الصناعات، وبارت القاهرةُ بغدادُ في الفنون لا العلوم، فمدارس القاهرة لم تبلغ من الشهرة ما بلغته جامعات بغداد، وسنعود إلى هنا حينما نبحث في النواحي الثقافية من حضارة العرب التي لا نبحث في غير قسمها المادي الآن.

وزاد دخل خلفاء مصر على دخل خلفاء بغداد في نهاية الأمر، وذلك بفضل خصُبِ أَرْضِي مصر وصلاتها التجارية التي سنتكلم عنها في فصل آخر، وكان خلفاء مصر يقفون معظم ذلك الدخل على أمور الترف وبناء القصور، ولم تكن نفقات الإنشاء في ذلك العهد باهظةً في وادي النيل ما دامت أجراً البناء اليومية في أوائل القرن الحاضر ثمانين سنتيماً، وأجرة الحفار خمسة عشر سنتيماً، وثمن متر حجر البناء المكعب، ومنه أجراً قَلُّعه ونقله، فرنگاً واحداً وعشرين سنتيماً.

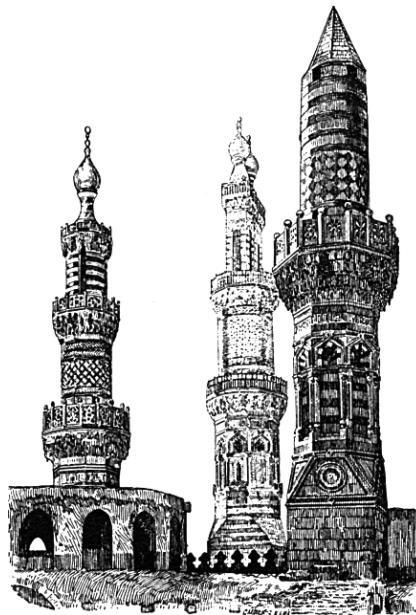
وضَرَبَت الصناعةُ والصياغةُ والحياةُ والنَّجَادَةُ والزخرفةُ بسهم كبير في الكمال في زمن الفاطميين (٩٧٢م - ١١٧١م) كما روى المؤرخ العربي المقريزي الذي جاء البحث



شكل ٤-٩: باب السيدة بالجامع الأزهر في القاهرة (من تصوير كوست).

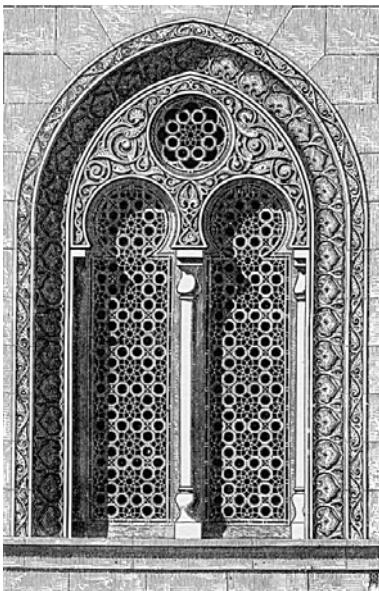
في آثار زمانه مصدقاً لروايته، فكانت جدران البيوت تُغطى بألواح القاشاني المطلية أو بالملاط الكلاسيكي الرخامي المزين بالزخارف الزاهية والنقش العربية كما نتمثله بسهولة من بعض القصور العربية الحاضرة في القاهرة، وكانت أرض تلك القصور تُفرش بالفسيفساء، أو البُسط الموشأة، وكان أثاثها يُصنع من الخشب الثمين المرصّع بالصدف أو العاج، وكانت متكاثتها ذات رياش مُزين في لحمته بصور الحيوان، وكانت نمارقها تُكسى بالنسائج الأرجوانية الرائعة.

وارتقت الصناعة المعدنية في زمن الفاطميين إلى حدٍ بعيد أيضاً، كما يشهد بذلك ما انتهى إلينا من الأواني والأكواب والأباريق والأطباق والمسابيح، وغيرها من ألواف المصنوعات التي نشرنا صور نماذج كثيرة لها في هذا الكتاب.



شكل ٤٠ - القسم الأعلى من مآذن الجامع الأزهر (من صورة فوتوغرافية التقاطها المؤلف).

وكانت قصور الخلفاء الفاطميين فخمةً، ويثبت ما نراه في المساجد المصرية القديمة، التي ظلت قائمة، من الزخرف أنه لم يكن في وصف الكتاب لها شيء من المبالغة. وقصَّ المؤرخون علينا نبأ القصر العربي القديم الذي بناه خمارويه ابن طولون سنة (٢٧١ هـ / ٨٨٤ م)، أي قبل ظهور الفاطميين، فقد كان يحيط بذلك القصر، على حسب ما جاء في الأخبار العربية، رياضٌ واسعة ذات زهور على شكل أيٍ من القرآن، وكان يُرى في رِدابه الذهبية المُقْهٌ^٨ تماثيل لذلك الأمير ونسائه ذات ثياب ثمينة، وكانت له حظيرة جميلة للحيوانات الكثيرة، وكان يوجد تحت أحد أروقةه الرخامية حوض زئبق عرضه ثلاثون متراً فينعكس عليه نور النهار وأشعة القمر والنجوم، وكان يُشاهد من جوْسقِ أنيق فيه منظرٌ جميلٌ لحدائقه وللنيل والريف.



شكل ١١-٤: نافذة في جامع السلطان قلاون.

ولا تحفي الأوصاف المختصرة التي جاءت في كتب العرب عن القصور العربية في مصر منذ ألف سنة، فترانا مضطرين إلى إتمامها بما رواه أوربى يُدعى غليوم الصوري في كتابه التاريخي عن حروب أمراء النصارى في فلسطين مستنداً إلى ما قَصَّه السفراء الذي أُرسلاوا إلى بلاط ملك مصرى، قال غليوم الصوري:

نعمت في وصف قصر الأمير الرائع الذي لم يكن له نظير في زماننا على ما قَصَّه أولئك السفراء الذين زاروه فرأوا فيه ما ليس في غيره من الجلال والنضارة والعظمة، فقد وصل أولئك السفراء، بعد أن مرروا من مسالك وقاعات كثيرة، إلى أروقة النزهة، والرياضية ذات العماد المرمرية، والسقوف الذهبية الدقيقة الصنعة والبلاط الزاهي الألوان، وبهـرـم جـمـالـ ما رأـواـ فـبـهـتوـاـ، ولـمـ تـشـبـعـ عـيـونـهـمـ مـنـ النـظـرـ إـلـىـ تـلـكـ الـبـدـائـعـ التـيـ لـمـ تـكـنـ لـتـخـطـرـ عـلـىـ قـلـوبـهـمـ، وـمـمـاـ

شاهدوه: حياض السمك الرخامية، وأنواع الطيور المغرّدة الملونة البراقة التي لم يسبق لنا علم بها، ثم طاف الخصيّان بهم في غُرف تفوق ما تقدم حسناً ورُواءاً، ومما رأوا هناك أنواع ذات القوائم الأربع العجيبة، التي لا يقدّر على تصوّيرها سوى ريشة رسامٍ تابع لهواه أو شاعر متخلٍ أو من يسبح روحه في أحلام الليل، والتي تنتّجها بلاد الجنوب والشرق لا بلاد الغرب التي لا تراها، والتي قلما تسمع عنها شيئاً.

ويمكن تصوّر ما كان عليه الخلفاء الفاطميون من الثراء عند النظر إلى قائمة الأموال التي روى المؤرخ المقرizi أن الخليفة المستنصر (١٠٣٧ / ٥٤٢٧ م) اضطُر إلى بيعها؛ إرضاء لأولئك المرتزقة الذين تكلمنا عنهم آنفاً، وقلنا: إنهم استبدوا بالملك تقريباً، ولا يُطعن في صحة رواية المقرizi الذي استند إلى محضر وكيل الوزير ناصر الدولة، فالماء حين يقرأها يرى أن ثروات العالم التفت وتكتَّست في مصر منذ قرون كثيرة؛ لكي تُنشر على أحطِّ الجنود في آخر الأمر كما قال مسيو مارسيل.
قال مسيو مارسيل نقلاً عن المقرizi:

ذُكر في تلك القائمة العجيبة ما لا حصر له من أمداد^٦ الزمرد والياقوت واللآلئ والمرجان، وما إلى ذلك من الحجارة الكريمة، وذُكر فيها ١٨٠٠٠ من آنية اليلور، ثمَّ بعضها ألف دينار (١٥٠٠٠ فرنك)، و٣٦٠٠٠ قطعة أخرى من اليلور، وبساط من الذهب وزنه ٥٤ أوقية، وأربعينات قفص كبير من الذهب، و٢٢٠٠٠ جلية من العنبر، وعمامة مرصعة بالجواهر قيمتها ١٣٠٠٠ دينار (١٩٥٠٠٠ فرنك) وديوك وطواويس وغزلان ذات حجم طبيعي مصنوعة من الذهب ومرصعة باللآلئ والياقوت، وموائد مصنوعة من اليصب كبيرة يستطيع أن يجلس حولها آكلون كثيرون معاً، ونخلة من الذهب في صوان من الذهب، وثمار وأزهار ذات حجم طبيعي من اللؤلؤ والياقوت، وحدائق ذات تراب من الفضة المذهبة، وأرض من العنبر، وأشجار من الفضة وثمرات من الذهب والحجارة الكريمة، وخيمة مصنوعة من المُخمل والديباج الموسى بالذهب، دائرتها خمسمائة ذراع (٦٢٥ قدم) وارتفاعها ٦٤ ذراعاً (٩٠ قدماً) وبُسطّها تعدل حمل مائة بعير، وخيمة أخرى مصنوعة من الإبريز قائمة على أعمدة من الفضة، وأخيّة وزنها ثلاثة قناطير، وألفان من الزرابي المزخرفة

بالذهب ثمنٌ إحداها ٢٢٠٠٠ دينار (٣٣٠٠٠ فرنك) وثمن أقْلُها ألف دينار (١٥٠٠٠ فرنك)، وخمسون ألف قطعة من النسائج الحريرية الملوشة بالذهب ... إلخ.

وذلك إلى أن أمين بيت المال ابن عبد العزيز ذكر في قائمه أكثر من مائة ألف سلعة ثمينةٍ ومئتي ألف قطعة من السلاح سُلمَتْ أمامه.



شكل ١٢-٤: شارع في القاهرة (من صورة فوتوغرافية).

ويسائل الإنسان، عندما يعلم مقدار تلك الثروات: من أين أنت؟ ومن أي ينبعون كان الخلفاء يأخذون دخلهم الذي استطاعوا أن يجمعوا من الكنوز ما لا يملك مثله أبي واحد من ملوك الزمان الحاضر؟

كانت ثروة الخلفاء الفاطميين تستند إلى مصادرين مختلفين: الحاصلات الزراعية والأعمال التجارية، والواقع أن مصر كانت مستودعاً للتجارة بين أوربة والهند وجزيرة العرب، وأن جميع سلع الشرق كانت تَمُرُّ، مُضطربةً، من طريق الإسكندرية إلى الغرب. وروى فريسكو بالدي الفلورنسي أنه كان يُرِي من السفن في ميناء القاهرة في زمانه، أي في سنة ١٢٨٤م، أكثر مما في جنوة أو البندقية، وأن عدد الزوارق في نهر

النيل كان ٣٦٠٠٠، فُتُستخدم في الوَسْق والتفريغ، ويرى من أثمان السلع التي ذُكِرت في رحلة أحد أصحاب قاسكودوغاما أن مكاسب خلفاء مصر منها كانت وافرة إلى الْغاية، وأن الأبازير والتوايل كانت تُباع في القاهرة بثمن أعلى مما عليه في كلكتة خمس مرات. ودام مصدر الثراء الواسع هذا إلى أن جاوز قاسكودوغاما، في سنة ١٤٩٧م، رأس الرجاء الصالح، وبلغ شاطئ ملبار الذي لم يرَه أوربي قبله، والذي لم يختلف إليه أحد غير العرب حتى ذلك التاريخ.

وكانت الضربة التي نَزَلت بثروة خلفاء مصر بسبب هذا الاكتشاف عظيمة جدًا، ولم يستطع الخلفاء أن يمنعوا بأساطيلهم البرتغاليين من الاستقرار بالهند، ومن القضاء على تجارة العرب في الشرق الأقصى، أي على المصدر الأصلي لثروة ملوك مصر.

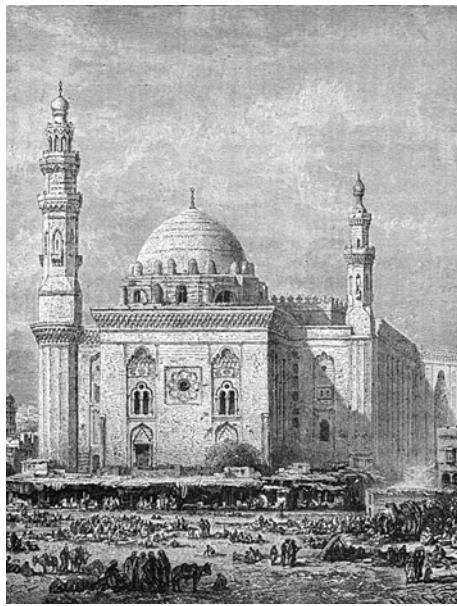
(٤) مبني العرب في مصر

مصر هي البلاد الوحيدة التي تُرى فيها المباني العربية القائمة منذ الدّور الإسلامي الأول، والتي يمكن الباحث أن يدرس فيها تحول فن العمارة العربي في مختلف الأدوار. وإن كان جميع تلك المباني العربية القديمة القائمة هو من المساجد على وجه التقريب، وكان أهمُّها في القاهرة، كان من السهل درسُها.

وخللت مدينة القاهرة، وإن شئت فقل أقسامها البعيدة من الأوربيين على الأقل، عربية تماماً، ولنا بحالها الحاضرة، فكرةً عما كانت عليه في عصر الخلفاء.

والناظر إلى القاهرة من بعيد يراها ذات طابع شرقي يستوقف النظر، أي يراها ذات طابع لا يشاهد مثله في أية مدينة أخرى على ما يحتمل، فهي مؤلفةً من بيوت بيض ذوات سقوف مستوية يُشرف عليها مئاتُ من المآذن الهيفِ منفصلة عن النخل ارتفاعاً، وتسرح القاهرة من ينظر إليها من أعلى القلعة، ولا أعلم مدينةً تسحر القلوب بمنظرها كالقاهرة.

وشارع القاهرة ضيقٌ متلوّيٌّ غير منتظمة كشارع كل مدينة شرقية، وتكاد أطناف نوافذ البيوت في أحياط مصر القديمة، على الخصوص، تتماس، والحكمة في ضيق تلك الشوارع هي الاستثناء من الظل واستبقاء الرطوبة، ومن يقطع شارع القاهرة وميادينها الكبيرة التي أنشئت على النطأ الأوربي تحت وهج الشمس يعلم بــ تفضيل الناس، في مثل ذلك الجو، للشارع الضيقة الملوء بالظل على الشارع الواسعة التي تلهبها نار الشمس على الدوام.



شكل ٤-١٣: منظر جامع السلطان حسن (من تصوير إبر).

ويستوقف تزاحم الأقدام في شوارع القاهرة نظر السياح في كل حين، ويُغري منظرها النقوس مع زيارة دمشق، فقد قضينا ساعات كثيرة في تأملها.

قال الدكتور إيزانبر: «يرى، في الجمهور الأنمر^١ المتزاحم، الفلاح المتواضع، والبدوي المتبخر، والقبطي أو اليهودي العبوس، واليوناني النشيط البقظ، والقواس الألباني الثقيل المترَدِّد، وأصناف الزنوج الذين تترجم ألوانهم بين الأنبوسي الخاص بالسوداني والمعان الخاص بالبربر، ويتألف منظر لا يملُّ منه الأجنبي من القوافل الآتية من نواحي إفريقية وجزيرة العرب، ومن الجمال الوئيدة المشي المتزنة الخطأ، ومن الحمير السريعة الخطو التي يركبها صغار السادة من الشرقيين أو النساء المتحجبات بأزرق قاتمة، ومن الباشوات الذين يمتطون بملابسهم الرسمية صهوة الخيل، ومن السَّقائين الذين يحملون أsecية جلدية لزجة، ومن أنواع الحمالين، ومن السُّوَاس الصخابين الذين يضربون العربي البليد بسياطهم، ومن الفلاحات البائسات المتباطئات».

أُنشئت مدينة القاهرة الجديدة سنة (١٩٧٠ هـ / ٣٥٩ م)، وهي تضم مدينة الفسطاط القديمة التي أقامها عمرو بن العاص فقامت مقامها، وعادت مدينة الفسطاط لا تكون اليوم إلا ضاحيةً لتلك المدينة تُعرف الآن باسم مصر القديمة، وإن كانت مدينة عمرو بن العاص هذه لم تحمل سابقاً هذا الاسم غير المطابق للأصل.

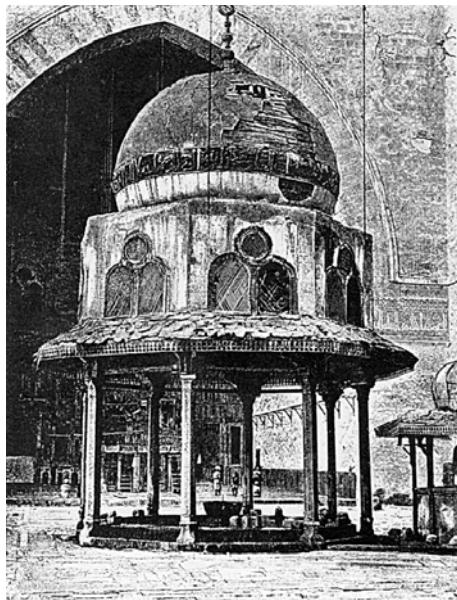
وتم إنشاء القاهرة بعد أن وضع حجرها الأول بثلاث سنين، وأنفق الفاطميين جزءاً كبيراً من دخلهم الواسع على تجميلها وزخرفتها، ولم يأْلِ كُلّ عاَهِ جُهْداً في أن يسبق سلفه في ذلك، ثم سار الملاليك الذين حلوا محل الخلفاء العرب على غرار هؤلاء في تزيين القاهرة، ولم ينقطع أمر عمرانها إلا بعد أن أصبحت مركز ولاية تركية، فقد أهملها الترك، فضلاً عن عدم زخرفتهم لها، واليوم تتدرج مبانيها المهمة إلى الخراب، وصار يخشى زوالها في المستقبل القريب لعدم إصلاحها، وقد قال لي أحد علية القوم في مصر: إنني أصبت في زيارتِي لتلك المباني، فقد لا يبقى منها شيء يستحق المشاهدة بعد سنين قليلة.

والآن ندرس، على عجل، أهم مباني القاهرة وفق قدمها، وقد اخترنا من مساجد القاهرة، التي تترجح بين أربع مائة مسجد وخمس مائة مسجد، ما هو أدل على تطور فن العمارة في جميع أدوارها، أي منذ إنشائها حتى الأزمنة الأخيرة:

(٤) جامع عمرو بن العاص (٥٢١ / ١٩٦٢ م)

جامع عمرو بن العاص من أقدم معابد المسلمين وأقدسها، وقد شهد بناءه ثمانون صهابياً.

وأنشأ هذا المسجد فاتح مصر عمرو بن العاص فحمل اسمه، وكان المسجد الجامع الوحيد الذي اشتغلت عليه مدينة الفسطاط في عهد الخلفاء الأربع الأولين وفي زمن الدولة الأموية، ثم اتُخذ رسمه نموذجاً زماناً طويلاً ما بدا مثال المساجد الأولى. ورسم المساجد الإسلامية الأولى بسيط، ومن ينعم النظر في أحدها يُميّزها كلها، ويتألف كل واحد من هذه المساجد من ساحة مستطيلة محاطة بأربوقة واسعة ذات سقوف مستندة إلى صفوف كثيرة من الأعمدة، ويُخصص أكبر هذه الأروقة الأربع مکاناً للعبادة، ويقع في وسط هذه الساحة بركة للوضوء، وتقوم على أركان المسجد أبراج مرتفعة تُسمى مآذن.

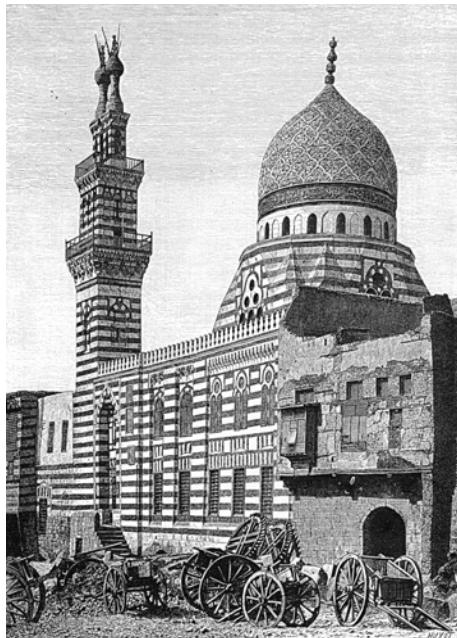


شكل ١٤-٤: بركة وضوء في جامع السلطان حسن كما هي في الوقت الحاضر (من صورة فوتوغرافية).

ويوجد أمام أكثر المساجد القديمة ساحة محاطة بمساكن للغرباء، وإصطبلات للخيول والجمال، وحمامات للعامة، ومناهل للشرب، وذلك أن المساجد الأولى ليست أماكن للعبادة وحدها، بل هي منازل للمسافرين أيضًا.

واستُعيرت أعمدة جامع عمرو بن العاص من مختلف المباني اليونانية والرومانية، وتعلوها أقواس لا تختلف عن الأقواس القديمة إلا بانكسار خفيف في أعلىها، وبأشكالها التي تتشابه نعل الفرس في أسفلها والتي أصبحت، بعد تعديل، من صفات فن العمارة العربي مع الزمن، ومنح شكلًّا نعل الفرس، بتطبيقه على قاطع القباب بعد ذلك، هذه القباب يَهِيأ وروعة أنسى مما تجده في قَطْس القباب البيزنطية.

ولم يبق لساحة جامع عمرو بن العاص المستطيلة التي تحيط بها الأروقة سوى أعمدة قائمة في جانبيين متقابلين منها، ويوجد في أحد هذين الجانبيين صَفٌ واحد من

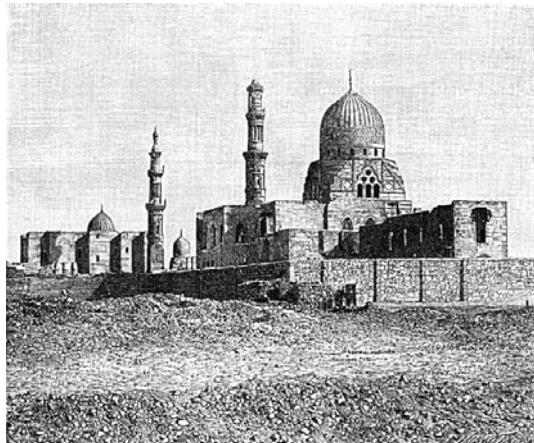


شكل ٤: مسجد آخر في القاهرة (من صورة فوتوغرافية).

الأعمدة، وفي الجانب الآخر المقابل الذي هو مكان للصلوة ستُ صفوف من الأعمدة، وتبليغ أقواس كل واحد من هذه الصفوف إحدى وعشرين قوساً، ويكون، بذلك، مجموع الأعمدة التي في مكان الصلاة ١٢٦ عموداً، وإذا نظرنا إلى الصف الأول من مكان الصلاة فرأيناه ذا أعمدة مُضَاعفة كان الحاصل الحقيقي لأعمدة مكان الصلاة ١٤٧ عموداً.

ويوجَد في جامع عمرو بن العاص، كما في كل جامع إسلامي، محراب مُقْنطرٌ يتَّجه نحو مكة، ويقيم المسلمون أمامه صلواتِهم، وفيه مِنبر للوعظ، والمحراب والمِنبر المذكوران بسيطان إلى الغاية.

ومثُلُهما بساطة مِئَذَنَتَاهُ القليلة الارتفاع، اللتان لم يكن لكل واحدةٍ منها سوى رُواقٍ واحدٍ ورَأْسٍ دقيق.



شكل ٤: مسجد برقوق المشتمل على قبور الخلفاء (من صورة فوتografية).

ولا ترى في جامع عمرو بن العاص شيئاً من الزينة والنقوش البارزة والدقائق التي اتصف بها فن العمارة العربي في المستقبل، ويوجّد لجامع عمرو بن العاص روعةً مع بساطته وغابة أعمدته وأقواسه، ومن المحزن حقاً أن يُعتبرَ الوهن كما يعتري أكثر المساجد القديمة في القاهرة.^{١١}

(٤) جامع ابن طولون (٩٨٧٦ / ٥٢٤٣)

قام جامع ابن طولون على الطراز البسيط، وإن كان أكثر زخرفاً من جامع عمرو، فرسمه العام مثل رسم جامع عمرو، وهو، كجامع عمرو، مؤلف من ساحة مربعة تحيط بها الأقواس من كل جانب، وتقوم هذه الأقواس، المصنوع أعلاها على رسم البيكارين، والمصنوع أسفلها على شكل نعل الفرس بما هو أبرز مما في جامع عمرو، على أركان قوية تتلتصق بزواياها أعمدة ذات تيجان منقوشة على الطراز البزنطي، وذلك بدلاً من أن تقوم على أعمدة كما في جامع عمرو، ويظهر أن هذه الأركان هي المصدر الذي اقتبس منه طراز الأعمدة المُنحَصَّة التي تُرى في كنائسنا القوطية كثيراً.

وباطن سقف جامع ابن طولون، المستند إلى تلك الأقواس، مصنوع من الخشب كما في جامع عمرو أيضاً، ولا ترى فيه زخارف ونقوش متولدة، وما في أطناقه ونواوذه وأسفل حنایاه من الأزهار والأغصان المصنوعة يذكرنا بالطراز البزنطي مُبشاراً بظهور فن الزينة العربي.

وتُقرأ على أطنااف باطن ذلك السقف خطوطٌ كوفية منقورة في الخشب.

وتعلو جدران ذلك الجامع شرف ذات منافذ للضياء.

وبُني ذلك الجامع من الآجر المكسو بملاطٍ من الكلس والرخام، وصنعت نقوشه وزخارفه من هذا الملاط أيضاً.

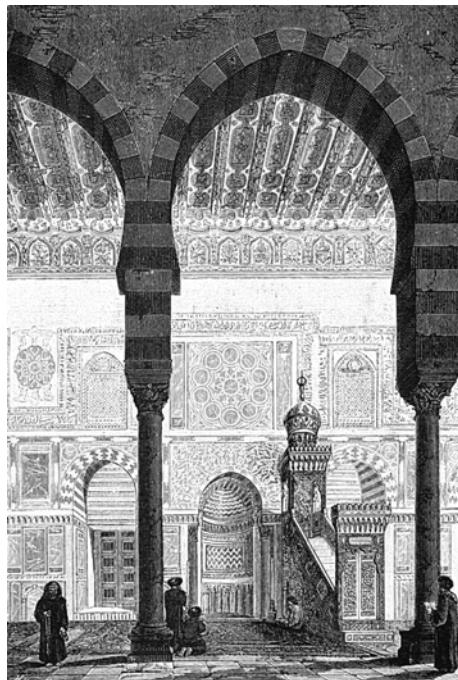
ولم يبق لذلك الجامع سوى مئذنة واحدة، وهي برج مدرج مربع في أسفله، أسطواني في وسطه مممن الزوايا في أعلى.



شكل ٤: سهل القبور في أسفل القلعة وجامع محمد علي (من صورة فوتوغرافية).

ويرى في ساحة ذلك الجامع حوض جميل مغطى ذو نوافذ مثلثة في أعلى بابه. وأصاب الوهن جامع ابن طولون، ولم تُبال حكومة مصر بهذا الأثر الفني العربي القديم، كما أنها لم تُبال بغيره من الآثار العربية، ويرى الناظر سقفه وجدرانه وكل شيء فيه على شفا الانهيار، ولن تمضي سنون قليلة حتى يُصبح أنقاضاً، وقد اضطررنا لدخوله إلى كسر أحد أبوابه المسماة؛ منعاً للناس من زيارته.

(٣-٤) الجامع الأزهر (١٩٧٠ / ٥٣٥٩ م)



شكل ١٨-٤: داخل جامع المؤيد (من تصوير كوست).

الجامع الأزهر أرقى زخرفاً من جامع ابن طولون، ولكنه يجب على من يدرسه أن يذكر أن كثيراً من دقائقه تم بعد إنشائه بزمن طويل. ويتمتع الجامع الأزهر، الذي بدأ بعمله مثلً جامعة منذ سنة ٣٧٥ هـ، بشهرة واسعة بين المساجد الإسلامية. وللجامع الأزهر الآن تأثيرٌ كبيرٌ في بلاد الإسلام، والطلاب يقصدونه أفراداً وأرسلاً من أنحاء العالم الإسلامي، وكيف لا وهو الملجأ الأخير لعلوم العرب في الشرق. وفي الجامع الأزهر أساتذة يقيضون رواتبهم من دخله، ويُدرّسون فيه العلوم



شكل ١٩-٤: جامع قايتباي (من صورة فوتوغرافية).

والآداب والتوحيد والفقه والطب والفلك والرياضيات والتاريخ، وكان عدد طلابه اثنى عشر ألفاً فيما مضى، ولا يقل الآن عن هذا العدد كثيراً، ويقوم بنفقات طلابه الفقراء، ويشابة رسم الجامع الأزهر رسم المساجد السابقة، وما يحيط به من مختلف المساكن يفسد رسمه القديم بعض الفساد.

وعلى من يريد أن يتمثل طراز الجامع الأزهر القديم أن يدرس صحنه الكبير، فأقواسه الحادة تقوم على ٣٨٠ عموداً من الرخام السماسي والممرن والغرانيت، وقواعد هذه الأعمدة وتيجانها أخذت من أبنية قديمة، وقوس القنطر حادة أكثر مما في المساجد الأولى، وما زنته الرائعة أنشئت بعد إقامته بزمن، وقد نشرنا في هذا الكتاب صورةً فوتوغرافية التقاطناها لها من أحد أرصفته، كما نشرنا أيضاً صورةً لحراب فيه مُزین بشتى الألوان، وذلك في ردهة اتخذت ضريحاً لرجل عظيم.

(٤-٤) جامع قلاوون (١٢٨٣ هـ / م)

جامع قلاوون مثالٌ لما كاد يَبْلُغه فن العمارة في أرقى أدواره، ومن دواعي الأسف أن لطّخ الدّهانون بعض أجزاء جُدرانه وباطن سُقفه بحجة الإصلاح والترميم. ويندّرنا جامع قلاوون في مجموعه بالمباني القوطية الأولى، وقد استوقفت هذه المشابهة أنظار العلماء الذين زاروه كـ«كوسٌت» وـ«إيربر»، قال إيربر:

ومما يستحقُ الذكر في مُقدَّم جامع قلاوون ومزاره مشابهٌ لِمُقدَّم الكنائس القوطية الأوّرية، وما فيه من أقواس الدّعم الطويلة التي تقوم بينها أقواس صغيرة مستندة إلى أعمدة، وما كان من عدم وجود أفاريز فيه، وما فيه من الأساطين العاطلة من السطوح، وما فيه من الرِّتاج^{١٢} الذي يزيد المدخلَ زخرفاً وزينةً، والذي يُرى فيه كثير من الحنایا المتداخلة المرتكزة على أعمدة صغيرة متقاوطة، يُذكّرنا في مجموعه الفاقد النظام والانسجام بالمباني التي أقيمت في ذلك الدور في فرنسة وألمانية وشمال إيطالية، وإننا — مع إضافتنا إلى ذلك الطراز العربي ما تطلّبه جُو أوربة البارد الماطر وعاداتها الدينية ونقاشة تماثيلها وسقوفها المرتفعة وسطوحها الحادة الزوايا ومزاربيها الناتئة وقباب أجراسها وتماثيلها — وجدنا أن النقوش البارزة هي زخرف فن العمارة العربي الذي نُقل إلى إحدى الأمم النصرانية في الشمال: وذلك الطراز هو الذي نسميه الطراز القوطي؛ فنرى مثلاً الجميل في سنت شانيل الباريسية التي أقيمت في القرن الثالث عشر، أي في القرن الذي بُني فيه جامع قلاوون.

ويُرى في جامع قلاوون مزارٌ مُقَبَّب يضم قبر بانيه، وتقوم قناطر هذا المزار الرائع الطويلة على أركان ذات أعمدة متصلة بزواياها، ويندّرنا هذا المزار، ونذكّرنا نوافذه المصنوعة على رسم البيكاريين، بمباني أوربة التي أقيمت على الطراز القوطي كما يذكّرنا جامع قلاوون نفسه بها.

وكان يلحق بجامع قلاوون مشفى، وليس هذا المشفى موجوداً في الوقت الحاضر مع وصفه مطولاً في دليل نُشر حديثاً في الشرق.

(٤-٥) جامع السلطان حسن (١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م)

بلغنا أنصر أ悼ار فن العمارة العربي بالتدريج، وهو ما أقيم فيه جامع السلطان حسن الذي هو أجمل مباني القاهرة.

وتندرّنا سعة جامع السلطان حسن العظيمة بأكبر كنائسنا، وهو يزيد على كنيسة نوتردام الباريسية حجماً، ويبلغ ارتفاع قبته العظيمة ٥٥ متراً، ويبلغ ارتفاع أعلى مآذنه ٨٦ متراً، أي ضعف ارتفاع عمود قندوم في باريس، ويبلغ طوله ١٤٠ متراً وعرضه ٧٥ متراً، ويبلغ ثخان جدرانه ثمانية أمتار، وقد بُنيت هذه الجدران من الحجارة المنحوتة خلافاً لجدران المساجد القديمة التي بُنيت من الأجر والرخام.



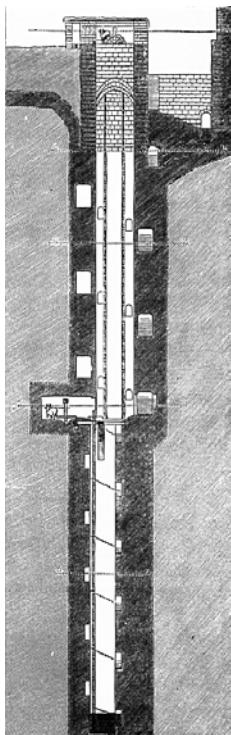
شكل ٤-٥: محراب جامع قايتباي ومنبره (من صورة فوتوغرافية).

ولجامع السلطان حسن في مجموعه منظر رائع لا نجد مثله في مساجد الهند الكبيرة التي تكلمنا عنها آنفًا.



شكل ٤: باب الفتوح (من تصوير إبر). .

ويختلف رسم جامع السلطان حسن العام بعض الاختلاف عن الرسم المعتاد الذي تكلمنا عنه، فهو قائم على شكل الصليب الإغريقي بدلاً من أن يكون مُربعاً، وهو، بدلاً من أن يكون محاطاً بالقناطر كما في المساجد السابقة، تجد في كل واحدة من جهات ساحتة الداخلية مدخل بهو فسيح ذي قنطرة عظيمة مصنوعة على رسم البيكارين نافذ إلىها، وتُقام الصلاة في أكبر أبهائه ذي القبة التي يبلغ ارتفاعها ٢١ متراً، ويشتمل هذا البهو الكبير على محراب ومنبر للوعظ كما تراه في جميع المساجد، وتستر قواطع الجدران كتاباتً ونقوش عربية، وتقوم في وسط تلك الساحة بركة رائعة متاءدية مع الأسف. ويشتمل جامع السلطان حسن على قبر بانيه، وهذا القبر في بهو يبلغ عرض قبته ٢١ متراً مع نقوش متداولة في القاعدة.



شكل ٤-٢٢: بئر يوسف التي صنعتها العرب في القاهرة (من تصوير كوست).

وتحيط بالبهو كتابات جميلة منقورة في خشب ارتفاعه متراً واحداً تقريباً. ونرى أقواسه مُخَصَّرَةً قليلاً كما في أكثر المساجد السابقة، ولم تُعمَّ الأقواس المصنوعة على شكل نعل الفرس إلا في المباني التي شادها العرب في الأندلس على العموم. ويبلغ ارتفاع الرِّتاج الشمالي لجامع السلطان حسن عشرين متراً، وهو مجوف على شكل نصف الدائرة، ويرتكز نصف القبة التي تعلوه على حجارة متدرية، وتغطي قواطعه نقوش عربية كثيرة.

ولم يتأل جامع السلطان حسن من العناية أكثر مما نالته مساجد القاهرة الأخرى، فما فيه من الفسيفساء والنقوش والرواوف^{١٣} يندثر شيئاً فشيئاً، وقد لا يبقى من هذا الأثر الرائع سوى الجدران بعد سنين قليلة.

وجميع مساجد ذلك الدور تستحق الذكر، فتُمثل، هي والمباني التي أقيمت في القرن الذي جاء بعدها، عصر فن العمارة العربي الذهبي بمصر. ومن مباني ذلك الدور أذكر، على الخصوص، جامع الأمير آخرور ذا القبة الرائعة، والمباني الآتية.

(٦-٤) جامع برقوق (١٣٨٤ هـ / ١٢٨٤ م)

بني هذا الجامع من مداميك منظمة حجرية بيض وحمر، وهو من المباني التي نسميتها مزارات الخلفاء، وتعبر مئذنته، مع مئذنة جامع قايتباي، عن المآذن العربية أحسن تعبير، ولقبايه المخصوصة قليلاً هيئ يشمل النظر، وللقبة التي هي فوق ضريح برقوق منظر داخلي ذو روعة وجلال، وتمسك أركان البهو المربع هذه القبة بمدليلات رائعة. ويشتمل جامع برقوق على منبر عجيب من الرخام المنقوش، ويعُد هذا المنبر، الذي هو تخريم حجرية بالحقيقة، من روائع الفن العربي، فإهمال مثل هذا المنبر وتعريضه للنهب من الجرائم الوحشية التي لا تُغتفر.

(٧-٤) جامع المؤيد (١٤١٥ هـ / ١٨١٨ م)

جامع المؤيد في مجموعه أقل أهمية من أكثر المساجد التي ذكرناها مع ما فيه من فيض الزخارف، وهو إذا ما نظر إليه من ناحية زخارفه عَدَّ من أغنى مساجد القاهرة، وسيصبح أنقاضاً بعد قليل من الزمن لإهمال أمره كما سيصير إليه أكثر المباني التي ذكرناها، وفي هذا الجامع شاهدت سقوفاً ذات رقاع منقورة مدهونة ملونة يندر وجودها في القاهرة الآن، وشاهدت أبواباً عظيمة ذات أعمدة تعلوها أقواس مُختصرة قليلاً في قاعدتها مصنوعة على رسم البيكارين، وشاهدت نوافذ جميلة مصنوعة أيضاً على رسم البيكارين تُحيط بها كتابات وفسيفساء أنيقة.

(٤-٨) جامع قايتباي (١٤٦٨هـ / ١٩٧٢م)

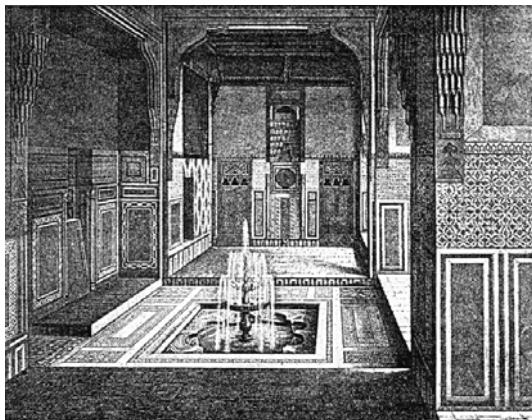
يشتهر هذا الجامع بقبته الكاسية بالزينة العربية البارزة النقوش، وبمئذنته الرائعة المثلثة الطبقات المغطاة بالنقوش، والمعدودة عنوان فن العمارة العربي الأخير على ما يحتمل، والناظر إلى هذه المئذنة يشاهد درجة ذوق العرب الفني في الزخرف البارز على الحجارة التي تُصنَّع منها المساند والأطnav والأروقة الناتئة عن مستوى جدران المآذن، والتي تكتسب بها المآذن منظراً رائعاً لا ترى مثيله في البرج المربع أو البرج الأسطواني.

ويعد جامع قايتباي كما يُعد جامع برقوق، من المباني المتصدعة التي يُسمّيها الناس مزارات الخلفاء، وأقيم أكثر هذه المباني في زمن المماليك الشراكسة، وذلك في سهل رملي قريب من القاهرة، ويتألف من مجموع هذه المباني منظر من أجمل مارأيت، ويرى في الناحية الأخرى من القاهرة، وبالقرب من القلعة، سهل آخر ذو مزارات مهمة ممتعة كثيراً ببيت في مختلف الأدوار، ويعلو هذه المزارات متتنوع المآذن والقباب، ولا أرى أن أفصل أمراًها لما في ذلك من الخروج عن نطاق هذا الفصل، ومع ذلك فقد نشرنا صورةً فوتوغرافية لهذه المقبرة في هذا الكتاب.

(٥-٩) المساجد التركية في القاهرة

لا أرى بين المساجد والقصور القليلة التي أنشئت منذ أوائل القرن السادس عشر، أي منذ استيلاء الترك على مصر، مسجداً واحداً أو قصراً واحداً يستحق الذكر، ولو نظرت إلى أهم المباني التركية في مصر، أي إلى جامع محمد علي الضخم ذي القبة الفطسية والمآذن الأسطوانية الهزيلة التي تنتهي بما يشبه المطفأة، لرأيت الهُوَّة العميقة التي تفصل بين ذوق العرب الفني وذوق الترك.

نعم، لم يكن العرب حين فتحوا مصر من رجال الفن المتضلعين، ولكن ما فُطروا عليه من الذوق الفني العالي حفظهم إلى ابتداع طراز عمارة جديد من عناصر الفن البزنطي، وغير ذلك أمر أولئك الترك الذين لم يكونوا أهلاً للانتفاع بمواهب أساتذة الفن وأمثاله، والذين لم يروا، حين أرادوا إنشاء جامع في القاهرة، غير نسخ عمارة أيا صوفية الثقيلة التي كانت كنيسةً بزنطية، والتي هي عنوان مرحلة فنية جاوزها العرب منذ زمن طويل، فعند تلك المرحلة وقف الترك، ولم يستطيعوا قطعها.



شكل ٤-٢٣: ردهة استقبال عربية في القاهرة (من تصوير بريس الأفيني).

(٤) الآثار العربية الأخرى في القاهرة

أبواب المدينة، القلعة، بئر يوسف ... إلخ: أذكر، من بين الآثار العربية التي أقيمت في عصر الخلفاء والتي يَتَجَلَّ فيها فن العمارة العربي، بابين من أبواب القاهرة، وهما: باب النصر وباب الفتوح اللذان أنشأهما الخليفة الفاطمي المستنصر في القرن الحادى عشر من الميلاد.

وأذكر كذلك قلعة القاهرة التي أنشأها السلطان صلاح الدين في القرن الثاني عشر، وتستقي هذه القلعة ماءها من بئر منقرورة في الصخر نقرًا يدل على مهارة مهندسي ذلك الزمن، وبلغ عمق هذه البئر ٨٨ متراً، ويبلغ مدخلها ثمانية أمتار، وتُقْسَم إلى طبقتين، ويرفع ماؤها بقوة الثيران التي تحرك دولابها ذا السُّبَح والقُلُل، ويمكن النزول حتى الطبقة الأولى من هذه البئر بطريق مستديرة سهلة الانحدار ذات قُصْفَانٍ^{١٤} واطئة إلى حد يسهل معه نزول الثيران إليها وصعودها منها.

ونشاهد في القاهرة آثاراً كثيرة للحضارة العربية، كالمنازل والأسلحة ومختلف المصنوعات وغيرها من الأشياء التي سندرسها في فصول أخرى، فإذا أضاف القارئ

درس هذه الأشياء إلى درس الآثار التي ذكرناها آنفًا اتضح له أمر الحضارة التي أقامها رجال القرآن في مصر.

هوما مش

- (١) الغرين: الطين الذي حمله السيل فيبقى على وجه الأرض رطباً كان أو يابساً.
- (٢) ظهر من محادثى لكثير من التجار في مصر العليا أن متوسط ما تعطيه الأرضون هناك هو ١٢٪ بعد النفقات، ومع ذلك فإن ثمن الحبوب يكون من الانخفاض ما تقضى المصلحة معه بإصدارها إلى إنكلترة، وإن زادت نفقات النقل على ٣٠٪ من قيمتها.
- (٣) قلما ينزل المطر في مصر العليا، وتكون درجة الحرارة فيها مرتفعة حتى في الشتاء، وكانت تختلف وقت الظهر من شهر نوفمبر وشهر ديسمبر سنة ١٨٨٢ بين ١٩ درجة و ٢٧ درجة، وذلك في أثناء سياحتي في أسيوط وطيبة.
- (٤) ذلك إلى حين انقضاض الترك، والأوربيين مؤخراً، على الفلاح المصري على الأقل. والترك والأوربيون الذين لم يتركوا للصلاح المصري من غلته غير ما يمسك رقمه، قد جاؤوا الحدود فأخذوا يسلبونه حتى هذا المقدار الضوري، فاضطروه إلى الاقتنيات بالعشب غالباً، ولا يتمتع الفلاح المصري من نعم الحضارة بغير ما يسمع عما في مدينة القاهرة النائية من الشوارع الجميلة والأغاني، ولذلك ومع ما اتصف به الفلاح المصري من الدعة والخصوص بالبالغين، كاد يطير من الحماسة حين بلغه نباء الثورة التي اعتقاد أنها ستسفر عن طرد جميع الأجانب من وادي النيل، وللصلاح المصري الذي يُساق بالسياط إلى العمل بلا انقطاع في سبيل اغتناء المضاربين من الترك والأوربيين الكثيري الطمع والشره، وللهندي الذي يقاسي ضروب البوس والشقاء في سبيل سعادته الجدد أن يقول، أحياناً، إن الشعوب المتمدنة الحديثة لم تفتح البلدان إلا ل تستغل سكانها استغلاً يثير حسد طغاة الفاتحين الذين يصب التاريخ عليهم غضبه.
- (٥) المخايل من السحب: المُذنرة بالمطر.
- (٦) الورق: جمع الورقاء، أي التي لونها لون الرماد.
- (٧) طما الماء: ارتفع وملأ النهر، وطما البحر: امتلأ.
- (٨) المقهاء: مؤنث الأمقه، وهو ما به مقه، وهو بياض في زرقة.

- (٩) الأمداد: جمع المد، وهو مكial، والمد رطلان عند أهل العراق ورطل وثلث عند أهل الحجاز، وقيل: المد هو ملء كفي الإنسان المعتدل إذا ملأهما ومدىيه بهما، وبه سمي مداً، قاله الفيروزآبادي، وقال: قد جربت ذلك فوجده صحيحًا.
- (١٠) الجمهور الأنمر: فيه الأبيض وفيه الأسود.
- (١١) ينقل بعض المؤلفين **الحققين** كـ«باتيسية» ما رواه مؤرخو العرب من أنه كان يوقد في مسجد عمرو بن العاص في كل ليلة ١٨٠٠٠ مصباح، وأنه كان يستنفد لهذا الغرض ١١٠٠٠ قنطرار من الزيت الصافي يومياً، فأرأى أن أقل نظرة تكتفي لبيان فساد هذه الرواية، فمن المستحيل أن يستنفد كل مصباح ٦١ كيلو غرام زيت في كل ليلة، كما أن نقل تلك القنطرير من الزيت إلى الجامع في كل يوم يستلزم جحفلًّا من الجمال.
- (١٢) الرتاج: الباب العظيم، الباب المغلق وفيه باب صغير.
- (١٣) الروافد: جمع الرافدة وهي خشبة السقف التي فوق الجسر، والعامنة تسميتها الوصلة.
- (١٤) القصفان: جمع القصفة، وهي مرقة الدرجة.

الفصل الخامس

العرب في إفريقيا الشمالية

(١) إفريقيا الشمالية قبل الفتح العربي

نقصد بإفريقيا الشمالية البلاد التي تشمل على مراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب، وتمتد إفريقيا الشمالية من المحيط الأطلسي إلى غرب مصر الملحة بالشرق على العموم، وتُحدِّد إفريقيا الشمالية بالبحر المتوسط في الشمال وبأقسام الصحراء المجاورة للسودان من الجنوب.
وكان الرومان يُقسّمون إفريقيا الشمالية إلى خمسة أقسام:

- (١) بلاد برقة الواقعة في غرب مصر.
- (٢) بلاد إفريقيا القنصلية (طرابلس الغرب وتونس).
- (٣) بلاد نوميدية (ولاية قسنطينة).
- (٤) موريتانية القيصرية (قسم من الجزائر الحاضرة).
- (٥) موريتانية الطنجية (مراكش)، وكانت روما تمارس سلطانها على هذه الولايات بما ترسله إليها من الولاية والمندوبيين والحكام.

وسُمِّيَ العرب إفريقيا الشمالية والأندلس بالمغرب في البداءة، وأطلق اسم إفريقيا على تونس وطرابلس الغرب حين استقر العرب بالقيروان وتونس، وصارت كلمة المغرب لا تدل على غير بلاد إفريقيا الغربية في نهاية الأمر.
وصار العرب يُسمون البلاد التي تحتوي الآن على الجزائر، تقربيًا، بالمغرب الأوسط، والبلاد التي تحتوي الآن على مراكش بالغرب الأقصى.
واستولت شعوب كثيرة على شمال إفريقيا، وكانت لها آثارٌ متفاوتة فيها، وملكتها قبل العرب كل من القرطاجيين والرومان والوندال والقوط والبزنطيين.

ولم يتبدل أهل شمال إفريقيا مع كثرة فتوح الأجانب لها، وهؤلاء الأهلون هم البربر الذين حافظوا على دينهم ولغتهم وعاداتهم خارج المدن على الأقل. وينطوي تاريخ استقرار العرب بإفريقيا على النزاع الذي دام طويلاً بينهم وبين البربر، وكان للبربر من الشأن في إفريقيا والأندلس ما يجب درسه؛ لفهم ذلك التاريخ، وتزيد ضرورة ذلك الدرس كلما أمعن العلماء في الغلط حين يتكلمون عن البربر بسبب بلاد الجزائر.

وجميع أمم إفريقيا الشمالية التي سَمَّاها الرومان بالنوميديين واللوبيين والإفريقيين والمغاربة والجيتو ... إلخ، من عرق البربر، ويمكن القول بأن من لم يكن زنجياً في شمال إفريقيا كان بربرياً، وذلك قبل العرب.

ولا يقلُّ جهلنا للأصل البربري عن جهلنا لأصول أكثر العروق. بيد أن ما نراه في شواطئ إفريقيا العليا من البيض بين الزنوج يدلنا على أن البربر نتيجة اختلاط مختلف الشعوب التي هاجرت إلى شمال إفريقيا في أقدم القرون، وقد قلنا «أقدم القرون» لما ليس لدينا من الروايات والتاريخ ما يُؤْكِدُ ذلك، وقد قلنا «مختلف الشعوب» لما نشاهد بين سود الشعور من زُرْق العيون شُقر الشعور.

ويمكننا أن نأتي بافتراضات معقولة عن الأمكانات التي صدرت عنها تلك الهجرة فنقول: إن أولئك المهاجرين لم يأتوا من الجنوب الذي لا يرى فيه غير الزنوج، ولا من الشمال الذي لم يكن إلا بحراً خَضْمَاً لم يفكر الأقدمون في عبوره، وإنما جاء أولئك المهاجرين من الشرق، أي من آسيا، مارين من الأرض الضيقية التي تصلها بإفريقيا، أو جاءوا من الغرب، أي من مضيق جبل طارق.

والحق أن المهاجرين السود الشعور أتوا من شواطئ الفرات ومن شمال جزيرة العرب، أو من مكان أبعد منها على ما يحتمل، وأن المهاجرين الشقر الشعور الزرق العيون أتوا من شمال أوربة، ولا ريب في مجيء هؤلاء من شمال أوربة مارين، على الأرجح، من أقصى طرفٍ غربيٍ بإفريقيا، وذلك بدليل ما بين آثارهم الحجرية في إفريقيا وما بين الآثار الحجرية التي اكتُشِفت في شمال أوربة من المطابقة التي لا ترى مثيلها عند مقاييسة تلك الآثار بآثار الوندان الذين أُوْغَلُوا في إفريقيا بعد الميلاد بزمن طويل.

وهنالك بعض الأدلة على هجرة شُقر الشعور إلى إفريقيا، ففي مصر من المباني التي أقيمت منذ أكثر من أربعة عشر قرناً، أو خمسة عشر قرناً، قبل الميلاد ما رُسمت عليه صور إفريقيين شقر الشعور زرق العيون، وأخبر الجغرافي سلاكس في رحلته التي

قام بها في أطراف البحر المتوسط قبل الميلاد بقرنين بوجود شعب من شقر الشعور قاطن في الولاية التي تُعرف اليوم بتونس، وعدد هؤلاء قليل في الوقت الحاضر، وتراءهم الآن شرذم مبعثرة في إفريقيا، وترى منهم أشخاصاً بين الطوارق في الصحراء.



شكل ١-٥: منظر تونس (من صورة فوتوغرافية).

وتفوق سُود الشعور على شقر الشعور يدل على أهمية تلك الهجرة من آسية وتغلبها.

وَدَّهَرَ العرب البربر من الشواطئ، وكان البربر يقطنون قبل ذلك فيما بين البحر المتوسط وبلاد السودان من البقاع الواسعة، وتمازج سكان الجنوب من البربر والزنوج، فنشأت عن ذلك أمثلة من البربر مختلفة يراها من يطوف في مدن إفريقيا، ولا سيما مدن مراكش.

ويَقْسِمُ العرق البربرى من الناحية السياسية إلى عدة فروع لعرق واحد، ومن هذه الفروع القبائل في الجزائر، والطوارق في الصحراء، والشلوح في مراكش. ونقول، مع ما نجد من صعوبة في وصف البربر وصفاً دقيقاً من الناحية الإثنوغرافية: إذا بحثت عن البربر الخُلُص وجدهم يسكنون الجبال الوعرة، وأما في المدن وفي المناطق القريبة من الساحل فقد تَحَوَّلوا بفعل توالدهم هم والرومان والأغارقة

والوندال وغيرهم، ولا سيما العرب الذين عادلوا لهم في بعض الأزمان كما ثبّت ذلك عما قليل.



شكل ٢-٥: قرية بربرية في الجزائر (من صورة فوتوغرافية التقاطها جايزر).

ويصعب على الباحث، إذن، أن يبصر المثال البربرى الخالص بعد ذلك التوالد، ونقترب من الصواب إذا قلنا إن المثال الذى نراه غالباً بين البربر يختلف عن المثال العربى بثخنه وثقله ووجهه المسطح العريض الوجنتين الضيق فى أسفله، وبشفتيه الغليظتين وأنفه القصير مع قليل فطسٍ وغالب حنٍسٍ^١ وبعينيه الصغيرتين الدجناوين وبسواد شعره، وهذا إلى أى أننى شاهدت من أمثلة البربر ما يصعب تمييزه من المثال العربى بسبب ما حدث بين الجيلين من التوالد لا ريب، وذلك كما ذكرت.

للبربر لغة عريقة في القدم يتحمل أن تكون مشتقة من الفينيقية، وبهذه اللغة حرض جوغورته جنوده على ماريوس، وبها تكلم الجيتول.

وإذا استثنينا ما يُسمع في إفريقيبة الشمالية من اللغات الأوربية علمت أن العربية والبربرية هما اللتان يتكلّم بها سكان إفريقيبة الشمالية، ولكن اللغة العربية هي الأوسع انتشاراً، ولا يتكلّم أحدٌ بالبربرية في غير الجبال أو البقاع البعيدة جداً من المدن، وللبربرية لهجات كثيرة مختلفة فيما بينها اختلاف ما بين الفرنسية والإسبانية

أو بينهما وبين الإيطالية، وتعرب البربر أنفسهم، نتيجةً لاتصالها باللغة العربية، ويتألف نحو ثلث البربرية التي يتكلّم بها سكان منطقة القبائل الكبرى من كلماتٍ عربية، وأمر طريف مثل هذا يثبت لنا مرة أخرى مقدار تأثير العرب العظيم الذي لم يُكتب مثله لآيةً أمةً أخرى، ومن هذه الأمم اليونان والرومان الذين دام سلطانهم في شمال إفريقيا دوام سلطان العرب من غير أن يتطرق لغتهم أي أثر في اللغة البربرية. ويقطنُ أهل الحضر من البربر بقُرُّ تقويم في أعلى الجبال على العموم، ويختلف منظرها قليلاً عن منظر القرى الأوروبية، والبربر صُرُّ على العمل الشاق فلا يرتدون عنه، ويثنّون ما يملكون من الأراضي الضعيفة بجدٍ ونشاط، ويكتفون بما يُمسك الرّمق لاحتياجاتهم القليلة، وهم ذوو استعداد صناعي يكفي لصنع ما يحتاجون إليه من مختلف الأدوات والنسائج والأسلحة والحلي ... إلخ، وهم يرسلون إلى الخارج ما يزيد من مصنوعاتهم، ورأيتُ بين ما يصنعون من الحلي ما لا يقل دقةً مما تراه في مخازن أكثر الصاغة الباريسienne أناقةً.

ولدراسة طبائع البربر المعروفين بالقبائل وعاداتهم التي تبنت مع تعاقب الفاتحين أهمية خاصة: تشمل كلُّ قرية بربرية على أسر كثيرة مؤلفة من أناس منحدرين من أصل واحد، ومن أناس انضموا إليهم بالولاء، وتعد كل واحدة من تلك الأسر وحدة سياسية شرعية قادرة على التملك والبيع والشراء.

وتتألف القبيلة من اجتماع عدَّة قرَّى، والقرية، لا القبيلة، هي عنوان الوحيدة السياسية البربرية خلافاً لما هو عند العرب، والقرية البربرية هي جمهوريةٌ صغيرة مستقلة يدير شؤونها رئيسٌ منتخب يُسمونه الأمين، وأهم وظائف هذا الأمين أن يرأس جمعية البالغين من أهل قريته، وتتمتع هذه الجمعية بالسلطة الاشتراكية والسلطة القضائية وتقرر شؤون السلم وال الحرب، وسلطة أمين القرية مقيدة جداً، والوكيل هو الذي يرقبه، والوكيل هو الذي يشكوه إلى تلك الجمعية إذا أتى عملًا يستحق اللوم والتعنيف، ومن ذلك ترى أن الاستقلال البلدي الذي يحلم به بعض الاشتراكيين تأمُّ عند البربر الذين حرموا بسببه تأليف أمةٍ في كل زمان.

والامتلاك أمرٌ فرديٌ عند البربر، ولكن للأسرة البربرية وللقرية البربرية أملاكاً هما الماثلة لأملاك بلداتنا، والأسرة البربرية هي الوراثة حين لا يكون للمورث ورثة أو حين يكون ورثته بعيدين.

وقانون العقوبات عند البربر بسيط، وعقوبات البربر فاضحةٌ على الخصوص، ولا يعرف البربر أمر السجون، وتندرون عليهم الجرائم، ولا سيما السرقة، ويعيش البربر في

غير معزٍ عن عشيرته؛ فيخشى مَغْبَة الإِجْرَام، وُيُرَى للرأي العام سلطان عظيم في تلك الجمهوريات البربرية المكرسكونية التي يُعرف فيها كل واحد من أفرادها.



شكل ٥-٣: بَرْبَريٌّ من الجَزَائِرِ (من صورة فوتوغرافية).

ويدين البربر في الوقت الحاضر بالإسلام مع فتوحه، وكان البربر قبل الفتح العربي يعبدون آلهة قرطاجة كـ«غُرْزِيل وَمَسْتِبْمان» وغيرهما من الآلهة الْقُسَّاء، وروى ترثوليان أن البربر كانوا يُصْحُّون بعض الأولاد تقرباً إلى إله الزمن كيوان؛ وكانوا يعبدون النار أيضاً، وانتقل النصرانية كثيراً من قبائل البربر المجاورة للمستعمرات اليونانية أيام الحكم المسيحي.

ويقتصر البربri على زوجة واحدة، ولا تتمتع المرأة البربرية بأكثر مما تتمتع به الأوربيات من الحقوق، وإن كانت في وصاية أقل مما هي فيه.

والمرأة البربرية على جانب كبير من الحمّيَّة، وهي تحارب بجانب زوجها أحياناً، وخلَّدَ أوْمِيرُس ذكرَها حين تغنى بخبر تلك الملكة والنسوة المترجلات اللائي فَتَحْنَّ بلاد لوبيَّة وبعض آسية الصغرى.



شكل ٤-٥: امرأة بربرية تصنع الكسكسو (من صورة فوتografية).

ومن النساء البربريات من جَلَسَنَ على عرش الْمُلْك، ويدل هذا الأمر، الذي ينفر منه العرب كثيراً، على تباينهما في النظر إلى بعض الشؤون.

ولقي العرب الْأَمْرَيْن في دور فتوحهم، وذلك من مقاومة الملكة البربرية الكاهنة التي أَلْفَت بين كثير من قبائل البربر، وتسلّمت القيادة، وقاتلت العرب، وكتب لها النصر في المعركة الأولى وهزمت العرب، واستولت على جميع شمال إفريقيا، ولما عاود العرب الكرة بجيش عَرْمَرَم عزمت الكاهنة على تخريب البلاد؛ لنعمهم من فتحها ثانية، فهدمت جميع القرى التي كانت بين طرابلس الغرب وطنجة، وكاد مصر شعب هذه السيدة، التي أَلْقَت الرعب في قلوب العرب والروم، يكن غَيْرَ ما حدث لو لم تُقتل في إحدى المعارك.

وانتهى العلماء الذين بحثوا في أمر البربر إلى نتائج متناقضة كثيرة، ويمكن توفيق ما بين هذه النتائج المتناقضة عند تدبُّر ما قلناه عن أخلاق العرب التي تختلف باختلاف

طُرُق حياتهم، فما قلناه عن العرب يصح أن يقال عن البربر الذين تبادلت فروعهم فتبادلت طبائعهم، وصار ما يقال عن الطوارق البدويين ^{النَّهَابِينَ} الغدارين لا يقال مثله عن سكان الجبال من البربر.

وقد تعد روح البربر قريبةً جدًا من روح العرب على أن يقاس حضريو أولئك وبدوهم بحضريي هؤلاء وبدوهم.



شكل ٥-٥: أحد أبواب مسجد سيدي عقبة في القيروان (من صورة فوتوفغرافية).

ولطرق الحياة تأثيرٌ كبير في أخلاق جميع الأمم، فإذا تمثلت طرق حياة الأمم تمثلت هذه الأمم في التفكير والسير في الغالب.

والبربري الحضري، كالعربي الحضري، جَلَدُ على العمل صبور حازم ماهر، والبريري البدوي، كالعربي البدوي، طليقٌ محراب قنوع خفيف طَوَاق للماشأة ختارٌ للأعداء، ولا يختلف البريري عن العربي إلا في أنه أقل من العربي ذكاءً وأشد منه حقداً وطغياناً.

وتجلى غدر البربر منذ أوائل الفتح العربي، فلما سأله الخليفة في دمشق فاتح إسبانية موسى بن نصیر عن البربر، أجابه بقوله: «هم أشبه العجم بالعرب لقاءً ونجدة وصبراً وفروسيّة، غير أنهم أغدر الناس، ولا وفاء لهم ولا عهد».

واشتهر البربر قبل الفتح العربي بطول زمانٍ بأنهم من لا يوثق بكلامهم، وقد كان عددهم كبيراً في جيوش قرطاجة، فأوجبوا اشتئار الحروب اليونانية بسوء السمعة لا ريب.

ولم يكن تقسيم البربر إلى أهل بدو وأهل حضر أقلَّ أهميَّةً من تقسيم العرب إلى مثل هذا كما يُرى، وإلى هذا انتبه ابن خلدون في القرن الرابع عشر الميلادي فقال: «هذا الجيل من الآدميين هم سكان المغرب القديم ملأوا البسائط والجبال من تلوله وأريافه وضواحيه وأمصاره، ويَتَخَذُونَ البيوت من الحجارة والطين ومن الخُوص والشجر ومن الشعر والوبر، ويَظْعَنُ أهل العَزْ منهن والغلبة لانتجاج المراعي فيما قَرُبَ من الرحلة لا يجاوزون فيها الريف إلى الصحراء والقفار المُلس، ومكاسبهم الشاء والبقر، والخيول في الغالب للركوب والنتائج، وربما كانت الإبل من مكاسب أهل النجعة منهم، شأن العرب، ومعاش المستضعفين منهم بالفالح ودواجن السائمة، ومعاش المعذرين أهل الانتجاج والإطعان في نتاج الإبل وظلال الرماح وقطع السابقة».

وظهر مما تقدم خطأً كثير من المؤلفين المعاصرين الذين رأوا أن يُفرَّقوا بين العرب والبربر، فزعموا أن البربر أهل حَضَر وزراعة وأن العرب أهل بدو، وانتهوا إلى قولهم: إن البربر أهل للتمدن، وإن العرب غير أهل له؛ وذلك عندما تكلموا عن سكان بلاد الجزائر. ولكن نتيجةً مثل هذه تقوم على أساس باطل، وذلك أن العرب والبربر أهل حضر وأهل بدو على سواء، وأن هذين الطرازيْن يصدران عن البيئة التي يكونون فيها بالحقيقة، فترى العربي حضريًّا دائمًا في البقاع الخصيبة من جزيرة العرب ومصر والجزائر، وتراه بدويًّا، وبدويًّا دائمًا، في الصحاري الرملية من تلك الأقطار.

ومن يسكن الصحراء الكبرى من عرب أو ببر أو من أية أمة أخرى لا يكون إلا بدويًّا، ومن ذلك أنك تبصر الطوارق الذين هم ببر حُلُصٌ من النوميديين عريقين في البداوة، فيقوم معاشهم على الحرب والسلب والنهب خاصةً، كأعراب جزيرة العرب، وأنك تُبحِرُ البربر من سكان الجبال، التي تتعدَّر معيشة أهل البدو فيها، يبنون البيوت ويزاولون أمور الزراعة.

وذلك هو شأن البربر قبل فتح العرب لإفريقيا وبعده، ويتعذر حمل بدوييهم، الذين تأسلت فيهم البداوة بفعل القرون حتى صارت فيهم طبيعة ثانية، على الحضارة



شكل ٦-٥: مئذنة مسجد سيدي عقبة الكبير في القیروان (من صورة فوتوغرافية).

والاستقرار ومزاولة الزراعة كما يتغدر منع كلب الصيد من تعقب الطرائد، وقد يتُم ذلك، ولكن بعد قرون، لا في يوم واحد.

وإذا ما قيس البربر الحضريون بالعرب الحضريين لم يُرَ ما يُسْوِغ الادعاء بأن البربر أكثر استعداداً للتمدن من العرب، وعكس ذلك ما تثبته حوادث التاريخ، فلقد بلغ العرب، لا البربر، درجة رفيعة من الحضارة.

وأرى العرب والبربر غير مستعددين في الوقت الحاضر، لهضم طرق حياة الأوربيين ومشاعرهم ونظرهم إلى الأمور، وذلك أن الحضارة عند أكثر الأوربيين هي قضاوهم لمعظم أوقاتهم، وإن شئت فقل عشر ساعات أو اثننتي عشرة ساعة، في المعامل أو المكاتب أو الحقول؛ لنَيْلَ عيْشِهم اليومي على أن يستأنفوا العمل في الغد، وأن عيَّشاً مثل هذا مما لا يرضاه العربي والبربري اللذان ليس لديهما من الاحتياجات المصنوعة ما عند الأوربي، واللذان يأبiano أن يكون لهما مثل تلك الاحتياجات.

والآوريبي في نظر العربي أو البربرى سيد يعانيه ما ظلّ مغلوبًا على أمره، فإذا سنت الفرصة للتحرر منه لم يُحجم عن اهتمالها.

(٢) استقرار العرب بإفريقيا

لأقى العرب في فتح إفريقيا من المصاعب ما لم يلاقوه في فتح مصر، ولم يستقرّ أمرهم بها إلا ببطء شديد، أي أن البربر لم يتوانوا عن مقاتلة العرب، وإنهم استردوا استقلالهم غير مرّة.

وخلصت إفريقيا الشمالية للوندال، الذين أتوا من إسبانيا، أكثر من مائة سنة (٤٢٩-٥٤٥م) بعد أن خضعت للرومانيين عدّة قرون، ثم طردتهم منها جيش جوستينيان الذي أرسله بقيادة بيلازير، ثم استولى قوط إسبانية عليها، وكان القوط مالكين لبعضها حين ظهور العرب على مسرح التاريخ.

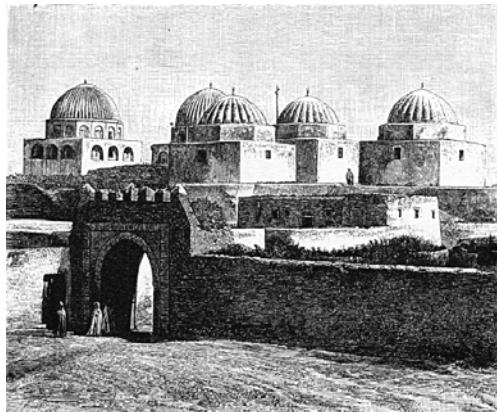
ويحيط بتاريخ ولايات إفريقيا شيءٌ من الغموض أيام الفتح العربي، ونعلمُ مع ذلك، أن إفريقيا كانت على شيءٍ من الطمأنينة والهدوء وقتما أراد القيصر هرقل أن يمنع تقدم العرب، فكان هذا القيصر يفكّر في السفر بحراً إلى قرطاجة؛ ليتخذها عاصمةً له بدلاً من القسطنطينية التي كانت تأكلها الفتنة.

ولم يكن سكون إفريقيا غير مؤقت، والواقع أن إفريقيا كانت ميداناً لختلف المذاهب الدينية التي تقيّمها وتقدّعها فضلاً عن غزو الأجنبي.

نعم، أصبحت إفريقيا نصرانيةً كمصر، ولكن انتقالها للنصرانية لم يتمَّ إلا بعد أن أريقت سيلٌ من الدماء، وذلك أن قسطنطين، لما جلس على العرش، رأى تلك المذاهب الدينية سبب كل اضطراب وهيجان فلم يرَ غير قهرها بالأسنة والسيوف.

وأنشأ الرومان والبزنطيون مدنًا مهمّة في إفريقيا، وزينوها بمختلف المباني التي لا تزال خرائطها باقية، وكان نفوذهم محلّيًّا، ولم يعُدْ هذا النفوذ حدود المدن، فبدؤوا فاتحين لإفريقيا أكثر من أن يكونوا مستعمرين لها.

وكانت مقاومة الروم للعرب في شمال إفريقيا ضعيفةً كما في مصر، ولو لا البربر لتمَّ للعرب فتحُها بسرعة، ونشأ عن استبسال البربر في مقاومة العرب أن اضطرّ العرب إلى خوض خمس معارك هائلة، وقعت في نحو نصف قرن؛ ليكونوا سادة شمال إفريقيا. وكانت غزوة العرب الأولى في السنة الثالثة والعشرين من الهجرة (٦٤٤م)، وكانت ولاية برقة القريبة من مصر أول ما استولوا عليه، ثم فتحوا ولاية طرابلس الغرب،

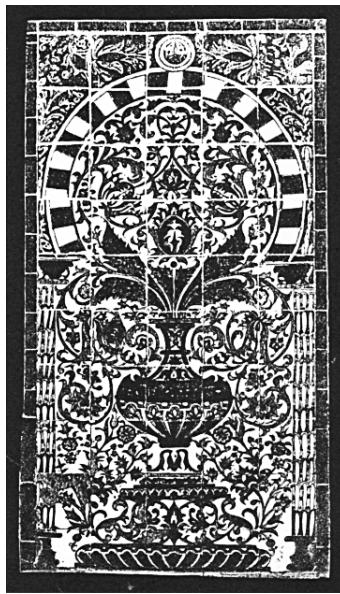


شكل ٧-٥: مسجد القيروان القديم (من صورة فوتوغرافية).

واستولوا على مدن كثيرة في سنة ٦٤٦هـ، ثم جلوا عن البلاد بعد أن أعطوا فديةًّا، ولم يظهروا ثانيةً إلا بعد عشرين سنة حينما امتشقوا الحُسام، وأوغلو في البلاد حتى المحيط الأطلنطي.

وبَيَّنَ العرب عاصمة إفريقيَّة العَرَبِيَّةِ الْقَادِمَةِ، القيروان، في سنة ٦٧٥هـ، واستولوا على قرطاجة في سنة (٦٩١هـ / ١٠٩١م)، وهزموا الجيش الكبير الذي جمعته مملكة البربر الكاهنة لِمَا قاتلُوهُمْ، وصار لهم في سنة ٧١١هـ من القوة ما فتحوا به بلاد إسبانيا. وكان يقوم بأمور الحكومة في إفريقيَّة، حتى أوائل القرن التاسع من الميلاد، أمراء بالنيابة عن الخلفاء، فلما صار سلطان الخلفاء هنالك اسْمِيًّاً منذ عهد هارون الرشيد، انفرد الأمراء بالحكم، واتخذوا القيروان عاصمة لهم.

وتداول الحكم في إفريقيَّة من سنة ٨٠٠م إلى سنة ٩٠٩م أحد عشر أميرًا من الأغالبة متذين القيروان عاصمةً لهم، وكان هُمْ هؤلاء الأغالبة مصروفًا إلى مزج العرب بالبربر؛ فتمتعت إفريقيَّة في أيامهم بطمأنينة عظيمة، ثم قَلَّبَ البربر دولتهم، ونصبوا أميرًا فاطميًّا من أصل ببرسي خليفةً، فغدت إفريقيَّة مستقلةً عن العباسيين الذين لم تكن إفريقيَّة تابعةً لهم إلا بالاسم منذ زمن طويل.

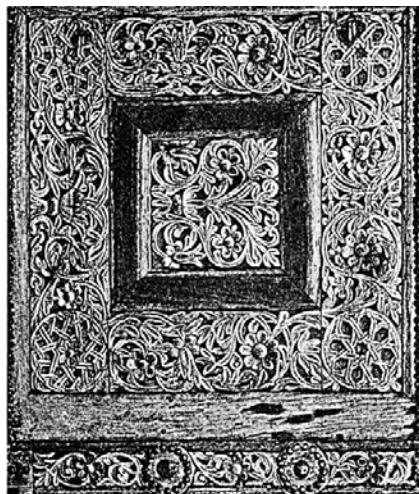


شكل ٨-٥: زخارف من القاشاني المطلي بالليناء في مسجد القيروان (من صورة فوتوغرافية).

وقد أتت بأمور إفريقيا دولٌ ببربرية مستقلة حتى الفتح التركي الذي وقع في القرن السادس عشر من الميلاد، ولم يلبث ذلك الاستقلال البرברי أن صار شوئماً على إفريقيا، فقد انقسم البربر إلى زُمرٍ لا تحصى تبعاً لغريزتهم التي كانت تمنعهم من تأليف أمة كبيرة، وكانت في إفريقيا دوليات كثيرة مستقلة مقاتلة قياماً لم تر إفريقيا معه سوى بصيصٍ من الحضارة.

ولا يمكننا أن نُقدّر طبيعة تأثير العرب في إفريقيا إلا إذا تذكّرنا أن لفتحهم دورين مختلفين كل الاختلاف، وأن لهذين الدورين نتائج إثنوغرافية مختلفة كثيراً. والدور الأول هو دور الفتوح الأولى التي تمت في القرن السابع من الميلاد، ولم تخرج عن كونها احتلالاً عسكرياً محدوداً جداً.

ولو اقتصر العرب في إفريقيا على ذلك الاحتلال؛ لاستغرقتهم جموع البربر في بضعة أجيال كما حدث لهم في مصر، ولكن أثرُهم في التمدن لا في الدم.



شكل ٩-٥: خشب محفور في مسجد القيروان (من صورة فوتografية).

بيد أنه كان للغارة العظيمة الجديدة التي شنّها العرب شأن آخر، فلما حشر العرب جموعاً كثيرة في إفريقيا حَوَّلوا فريقاً كبيراً من البربر إلى عرب. وتدفق العرب كالسيل على إفريقيا في أواسط القرن الحادى عشر، أى في وقت كان البربر قد استردوا فيه استقلالهم تقربياً، واستقروا بشمالها، ودحروا البربر إلى جبال التل وإلى البقاع الجنوبية.

وقام بذلك الغزو أعرابُ الحجاز الذين كانوا يقطنون بمصر العليا في زمن الخلفاء الفاطميين، والذين بلغ ما قاموا به من أعمال السلب والنهب مبلغاً أصبحت الإقامةُ بها لا تطاق معه، فعزم الخليفة المستنصر على الخلاص منهم بحِضْهم على برب إفريقيا وإغرائهم بهم.

وكان الأمر غارةً أمة، لا غارةً عسكرية، فقد ظَعَن أولئك العرب رجالاً وأولاداً ونساءً وقطاعاً عن مصر، وروى بعض علماء العرب أن عدد الظاعنين كان مليوناً، وروى بعض آخر أن عددهم كان نحو ٢٥٠٠٠٠، والذي أراه أن الغارة الأولى لم تثبت أن ردفتها غاراتٌ كثيرة أخرى.



شكل ١٠-٥: محراب مسجد سيدي الحبيب في القيروان (من صورة فوتوغرافية).

وتَمَّت تلك الهجرة ببطء، ولم يملأ العرب شمال إفريقيا إلا بالتدريج، فقد جاوز العرب طرابلس الغرب بعد أن مكثوا بها سنتين، وزحفوا خطوة خطوةً، وولجوا في الأودية جماعات على مُهُل، واختلطوا بالسكان رويدًا رويدًا، وزاد عددهم شيئاً فشيئاً، وفرضوا، بفضل كثرتهم، على البربر عاداتهم ودينهم ولغتهم بعد بضعة أجيال، ولم يتركوا لأمراء البربر سوى سلطة وهمية، ولم يتفلَّت من نفوذهم غير القبائل التي دُحرت إلى جبال التلّ وبعض البقاع الجنوبية.

ولم تؤدّ تلك الغارات إلى نتائج مدنية عمرانية؛ ففي إفريقيا حافظ أعراب جزيرة العرب أولئك على جَلْفهم الذي هو نقىض كل ثقافة جِدِّية، وأخذت تلك الحضارة، التي كانت تلمع، تَذُوَّي بسرعة.

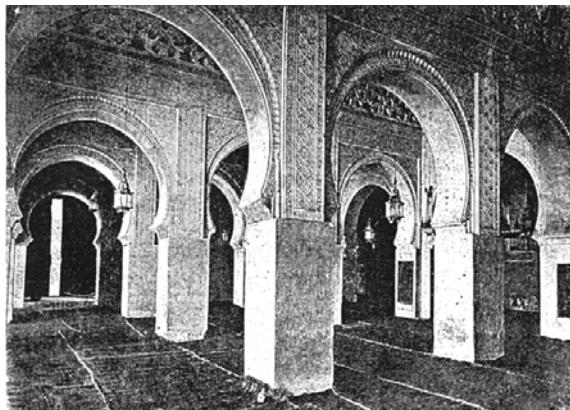
ولم يؤدّ ما كان يقع بين القبائل من الفتن والفساد، وما كان يقع بين الدوليات المستقلة المتناهزة من القتال، إلى غير الانحطاط السريع، فلما ظهر الترك في القرن السادس عشر أمام الجزائر لم يَصُبْ عليهم فتحُ شمال إفريقيا بسرعة.

ومراكش وحدها هي التي حافظت على استقلالها العربي حتى الوقت الحاضر، ولكن مراكش لم تصُن نفسها من الانحطاط الذي عمَّ جميع ولاياتها شيئاً فشيئاً، فقد أصاب الوهن مدينة فاس التي كانت منافسة لبغداد في القرن العاشر، والتي روى مؤرخو العرب أن عدد نفوسها كان خمسماة ألف، وأنها كانت تشتمل على ثمانمائة مسجد ومكتبة عامة زاخرة بالخطوطات اليونانية واللاتينية، وأضحت سكان مراكش الذين قُدِّر عددهم الآن بستة ملايين شخص، أو سبعة ملايين شخص، من مولدي العرب والبربر والزنوج.

(٣) مباني العرب في شمال إفريقيا

لم تُصب حضارة العرب في إفريقيا ما أصابته من الإزدهار في مصر والأندلس، وكان للعرب في إفريقيا، مع ذلك، مدنٌ مهمة وبعض مبانٍ ذات قيمة، ولا سيما في زمن الأغالبة، وأنشأ العرب في إفريقيا مدنًا كالقريوان وتونس وفاس، وجَدَّدوا مدنًا قديمة كتلمسان وبجاية والجزائر ... إلخ، ولم تكن نضارة تلك المدن غير مؤقتة، ولم يكن تنافس البربر وقلة استعدادهم للتمدن، وغارات أعراب العرب، وفقدان المراكز المهمة كبغداد في المشرق والقاهرة في مصر — مساعدًا على تقدم الحضارة في إفريقيا، ولا ينتظرنَ القارئ، إذن، بيانًا عن مبانٍ عربية مبتكرة ثمينة في إفريقيا الشمالية كالتي في الأندلس ومصر، وسيرى القارئ في الفصل الذي خصصناه للبحث في تاريخ فن العمارة العربي أن عرب إفريقيا لم يُوفُّوا في فنهم للتحرر من النفوذ البيزنطي.

والآن نكتفي بذكر أهم مباني العرب الأثرية مختارين من مبانيهم الدينية ما سمح الدهر ببقائه في شمال إفريقيا كما صنعناه سابقًا.



شكل ١١-٥: داخل مسجد سيدي أبي مذين في تلمسان (من صورة فوتوغرافية).

(٣) جامع القريوان

أنشأ فاتح إفريقيا الشهير عقبة بن نافع مدينة القريوان، وبَنَى فيها، في سنة (٥٥٥ هـ / ٦٧٥ م) جامعها الكبير المربع الذي جُدد بناؤه عدة مرات فيما بعد، ولا سيما في سنة (٢٠٥ هـ / ٨٢٠ م) والذي تعلوه قببٌ منخفضة، ويحيط به سورٌ، وتُشرف عليه مئذنة كبيرة مربعة عريضة القاعدة ذات ثلاثة طبقات متفاوتة الارتفاع، وذاع طراز هذه المئذنة المربعة في إفريقيا الشمالية، وكان شائعاً في الأندلس على الأرجح.

ولجامع القريوان الكبير وأثارها الدينية الأخرى قيمة أثرية كبيرة مع ما نالته من التجديد والترميم غير مرة كما نذكر ذلك في فصل آخر، ولم تنشر صور هذه المباني، التي لم يزورها الأوروبيون إلا في الزمن الأخير، في أي كتاب حتى الآن.

وُدُفن عقبة بن نافع، الذي أنشأ القريوان، بالقرب من بسكرة، ويُعد مسجد «سيدي عقبة» الذي يضم قبره، أقدم المباني الإسلامية في إفريقيا، ولهذا المسجد مئذنة مربعة.



شكل ١٢-٥: مقدم الجامع الكبير في الجزائر.

(٢-٣) مسجد سيدى أبي مدين في تلمسان

كانت تلمسان عاصمة المغرب الأوسط فيما مضى، وبنى مسجدها في سنة (١٣٨٨هـ / ١٧٣٩م) وتم إنشاء المدرسة التابعة لهذا المسجد في سنة ١٧٤٧هـ، وتُعدُّ هذه المدرسة من أهم المباني التي من نوعها في إفريقيا حتى الآن، وكانت تدرس العلوم والتاريخ فيها أيام ارتفاع العرب، ويمكن القارئ أن يتمثل فنَّ عماراتها من الصورة التي نشرناها في هذا الكتاب.

(٣-٣) مساجد الجزائر

تكاد مساجد الجزائر تكون عصرية، ولذا فليس فيها ما يستحق البحث، وأهم ما فيها مسجدها الجامع الكبير الذي أقيم في القرن العاشر من الميلاد، والذي أصابته يد التغيير في مختلف الأزمنة، فبنيت مئذنته المربعة في القرن الرابع عشر من الميلاد.



شكل ١٣-٥: مئذنة المسجد الكبير في طنجة (من صورة فوتوغرافية).

وليس في داخل هذا المسجد الجامع الكبير الذي كُلّس في الوقت الحاضر شيء من الزينة، وتقوم أقواسه التي يستند إليها سقفه على أعمدة مربعة، وأنشئت هذه الأقواس المفترض كثیر منها على شكل نعل الفرس ورسم البيكارين.

ويحيط بأحد وجوه هذا المسجد الجامع الكبير رواق جميل مؤلف من أقواس محرزّة، وصنعت هذه الأقواس على شكل نعل الفرس، ورسم البيكارين كالأقواس

السابقة، وتقوم هذه الأقواس على أعمدة من الرخام؛ ويدركنا ذلك الرواق، الذي أقيم بعد بناء ذلك المسجد الجامع بزمن طويل، بأعمدة رواقات القصر الداخلية في أشبيلية. وإذا ما استثنى ذلك المسجد الجامع لم تَرْ في الجزائر من المباني ما يجدر ذكره سوى المزار الذي يضم رُفات عبد الرحمن والسمى باسمه، والذي بُني في القرن الخامس عشر من غير أن يكون على شيء من الإبداع مع هَيْفَه.

(٤-٣) مساجد مراكش

يرى الإنسان في مراكش مساجد جميلة كثيرة، ولا سيما مسجد مولاي إدريس ومسجد القرويين في فاس، ولهذا المسجد شهرة عظيمة في تلك الديار، وهو يشتمل على ٢٧٠ عموداً و١٦ صحنًا، ويشتمل كلُّ واحد من هذه الصحنون على عشرين قوساً، ولا يستطيع الأوروبي أن يدخله من غير أن يُعرِّض نفسه للقتل.

وأقيمت أكثر مساجد مراكش على طراز مساجد إفريقيبة الشمالية، وهي مثلها ذات مآذن مربعةٍ يُنذر نظيرتها في مصر، وعلى هذا الطراز رُفعت في طنجة متذنة الجامع الكبير، والتي نشر صورةً لها في هذا الكتاب؛ فيمكن القارئ أن يتمثل بها ما أقيمت على طرازها.

ولا يُرى في مراكش من المباني العربية المهمة سوى عدد قليل من المساجد، وإنما يُرى فيها من العادات والأزياء والمظاهر الشرقية ما يندر مِثُله في بلد آخر، ويجب على من يَرْغب في اجتلاع حياة العرب في عصر الخلفاء أن يزورها؛ ففيها يرى السائح ما لا يراه في بلادالجزائر وسوريا المائة إلى التفرنج خلا دمشق.

وإنني أُنصح لرجال الفن أن يطوفوا في بلاد مراكش التي لا تَصُعب السياحة فيها، والسائح المحب للفن الذي يقلُّه القطار فيقطع فرنسة وإسبانية في بضعة أيام، ثم تستقلُّه الباخرة من مَالَقَةٍ يصل إلى مدينة جبل طارق الإنكليزية الغبراء الكالحة، ولا يأس لبعد إنكلترة من هنالك؛ لما يراه بعد رحلة بحرية تدوم بضع ساعات من الفرق في مدينة طنجة المراكشية حيث يقضي العجَب.

حَقًا إن مدينة جبل طارق عنوان الحياة المدنية العصرية، وإن مدينة طنجة ذات المساكن البيضاء والأهلين البُلْقُ^٣ والحكام الحَرَّمة عنوان الحياة العربية منذ ألف سنة، وتشير مناظرُ مساجد مدينة طنجة العجيبة وما زانها وأبراجها المشرفة، وأسوق نخاستها ونسائها المتحجبات وعربها المُدَثَّرين بأبهى الملابس في السائح بعض ما جاء في رواية



شكل ١٤-٥: منظر مدينة طنجة العام (من صورة فوتوغرافية).

ألف ليلة وليلة كما لو وَقَعَ هذا بقدرة ساحر، وتتجلى للسائح حقيقة تلك الرواية كلما سار في مدينة طنجة القديمة التي تقول الأساطير: إن هِرْكُول بانيها، وكانت شهيرةً في عهد أمير المؤمنين هارون الرشيد، أي في عهد هذا المعاصر الشهير للقيصر شارلaman الكبير.

هوامش

- (١) الخنس: تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع في الأنفية.
- (٢)رأيت في مجموعة المصنوعات التي أحضرها مسيو دوويفالفي من آسية الوسطى أشياء مماثلة لما يصنعه البربر المعروفون بالقبائل، فمن المحتمل أن تكون قد اقتبست حين كانت بلاد الهند ذات صلات بإفريقيا أيام دولة العرب.
- (٣)الأبلق: من كان في لونه بياض وسود.

الفصل السادس

العرب في إسبانيا

(١) إسبانيا قبل العرب

فَكَرَ الْعَرَبُ فِي فَتْحِ إِسْپَانِيَّةِ بَعْدَ أَنْ طَرَدُوا الرُّومَ مِنْ شَمَالِ إِفْرِيقِيَّةِ، وَرَدُوا جِمَاحَ الْبَرِّ، وَتَمَّ لَهُمْ، بِصُعُوبَةٍ، فَتْحُ الْأَقْطَارِ الإِفْرِيقِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ مَسْرَحًا لِحَرُوبِ رُومَةِ وَقَرْطاجَةِ وَلِغَازِيِّ مَاسِينِيَّسِهِ وَجُوْغُورَتِهِ ... وَغَيْرَهُمَا مِنَ الْقَادِهِ الْمَشْهُورِيْنِ.

وَلَمْ يَكُنْ حُبُّ التَّوْسُعِ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي حَفَزَ الْعَرَبَ، الَّذِينَ تَرَأَتْ أَطْرَافُ دُولَتِهِمْ، إِلَى فَتْحِ إِسْپَانِيَّةِ، وَإِنَّمَا دَفَعَهُمْ إِلَى ذَلِكَ رَغْبَتُهُمْ فِي إِلَهَاءِ الْبَرِّ الَّذِينَ كَانُوا أَشَدَّ مِنْ حَارِبِهِمُ الْعَرَبُ مِنَ الْأَعْدَاءِ، وَالَّذِينَ ظَلَّوْ مَرْهُوبِيْنِ؛ لِشَجَاعَتِهِمْ، وَمِيلَهُمْ إِلَى الْاسْتِقْلَالِ، وَحِبِّهِمُ الْقَتْلَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ قَهْرِ الْعَرَبِ لَهُمْ، فَكَانَ مِنَ السِّيَاسَةِ الرَّشِيدَةِ إِرْوَاءُ غَرَائِزِهِمْ الْحَرَبِيَّةِ فِي الْغَارَةِ عَلَى الْبَلَدَانِ الْأَجْنبِيَّاتِ.

وَرَوَى ابْنُ خَلْدُونَ أَنَّ الْجَيْشَ الْأَوَّلَ الَّذِي عَبَرَ مُضِيقَ جَبَلِ طَارِقَ، وَدَخَلَ بَلَادَ إِسْپَانِيَّةَ كَانَ مَؤْلَفًا مِنَ الثَّنِي عَشَرَ أَلْفَ مَقَاتِلَ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْبَرِّ تَقْرِيبًا. وَنُرِى قَبْلَ أَنْ نَقُصَّ خَبْرَ ذَلِكَ الْفَتْحِ الْإِسْلَامِيِّ، أَنْ نُوْجِزَ تَارِيَخَ إِسْپَانِيَّةَ قَبْلَهُ؛ فَفِي مَاضِيِّ الْأَمْمِ سُرُّ حَوَادِثِهَا الْحَاضِرَةِ، وَبِمَاضِيِّ إِسْپَانِيَّةِ يُفْسَرُ سَبَبُ السُّرْعَةِ فِي فَتْحِ أَتَابِعِ الرَّسُولِ لَهَا.

كَانَ لِلْفَنِيقِيِّينَ وَالْأَغْارِقَةِ وَالْقَرْطَاجِيِّينَ مُسْتَعْمِرَاتٌ فِي إِسْپَانِيَّةِ الَّتِي يَسْكُنُهَا السُّلْطَانُ الْغُولَيُّونَ، وَمَنْ لَمْ يُعْلَمْ أَصْلُهُمْ جِيدًا مِنَ الإِبِرِيِّينَ وَاللَّيْغُورِيِّينَ، وَأَنْشَأُوا الْقَرْطَاجِيِّينَ مَدِيْنَةَ قَرْطَاجَةَ فِي إِسْپَانِيَّةِ بَعْدَ أَنْ فَتَحُوهُمْ؛ لِتَكُونَ تَابِعَةً لِقَرْطاجَةِ، ثُمَّ فَتْحِ الرُّومَانِيِّينَ بِلَادَ إِسْپَانِيَّةِ عَلَى أَثْرِ الْحَرُوبِ الْيُونَانِيِّةِ، وَذَلِكَ قَبْلِ الْمِيلَادِ بِقَرْنَيْنِ.

وملك الرومان بلاد إسبانيا حتى القرن الخامس من الميلاد، وازدهرت مدنٌ فيها أيام حكمهم، ووهبت لرومة رجالاً مشهورين مثل سينيك ولوكن ومرسيا، ووهبت لها قياصرةً مثل تراجان وأدريان ومَرْكُ أوريل وثِيُودُوز ... إلخ.

وكان لإسبانيا نصيبٌ من إبار روما بعد أن كان لها حظٌ من إقبالها، فقد انقض الوندال والألين والسويف الذين هم من برابرة الشمال على إسبانيا بعد أن خربوا بلاد الغول، ولم يلبث القوط، الذين هم من البرابرة أيضاً، أن قهروهم، واستولوا على إسبانيا في القرن السادس من الميلاد، وظلوا سادة لها تماماً إلى أن جاء العرب.



شكل ٦-١: ذراعاً صليبي ذهبي قوطي طليطي مرصع بالحجارة الثمينة (القرن السابع، من صورة فوتografية).

ولسرعان ما احتلط القوط البرابرةُ باللاتين في إسبانيا، فاتخذوا اللاتينية لغةً لهم، وانتحلوا النصرانية التي كانت دين الدولة الرسمي بدلاً من عبادة الأصنام، وخضعوا بذلك لسلطان الحضارة اللاتينية، وحاولوا كغيرهم من قاهري الدولة الرومانية أن يهضموها على قدر عقولهم.

وبقيت شريعة القوط دستور إسبانيا النصرانية إلى منتصف القرن الثالث عشر، ودللت الحوادث على أنهم امتزجوا بالعنصر اللاتيني الذي كان مالغاً لقسم من البلاد، وتم اختلاطهم بنصارى الشمال بعد أن دحرهم المسلمون إلى جبال أشتورش، وظلّ لقب «ابن القوطى» من ألقاب الشرف حتى بعد أن استردوا إسبانيا بزمن طويل، وعندئذ أن من مظاهر الدم القوطى ما نجد الآن في إسبانيا من أصحاب الشعور الشُّفَقُ الكثيرين.

وكان احتلال القوط باللاتين، قبل الفتح العربي، مقتضراً على علية القوم، وكان سكان البلاد الأصليون من الأرقاء الذين ليس لديهم شيء يدافعون عنه، والذين كانوا مستعدّين لقبول أي سلطان عليهم، فلم يكن الجيش المؤلف من أمثال هؤلاء مما يعتمد عليه.

ومن سوء حظ المملكة القوطية أن كان النظام الملكي القوطى قائماً على الانتخاب، وأن كان المرشحون للعرش كثيرين، فيقتل أنصار هؤلاء المرشحين على الدوام، ويُمْزَقون باقتتالهم المملكة القوطية، ولذا لم يكن الأشراف من يُرْكَن إليهم. نزاع اجتماعي، وفتنه داخلية، وفقدان للروح العسكرية، وفتور عن الدفاع بين الأهلين المستعبدين، هذه هي الحال التي كانت عليها مملكة القوط حين ظهور العرب، وكان من المنافسات التي تُمْرِّق الدولة القوطية أن سَهَّلَ الأمير يُليان ورئيس أساقفة أشبيلية، وهما من علية الإسبان، فتح إسبانيا على العرب.

(٢) استقرار العرب بإسبانيا

دخل جيش إسلامي مؤلف من اثنى عشر ألف جندي بلاد إسبانيا في سنة ٧١١م، أي في زمن الخليفة العاشر الذي كانت دمشق عاصمتة.

ومن يقطع القسم الجنوبي الخصب من بلاد إسبانيا يعلم مقدار التأثير الذي أثَّر به في نفوس العرب حينما استولوا عليه؛ فقد بهرتهم تربته وهواؤه ومدنها ومبانيه. ووُصفت إسبانيا في كتاب أرسله قائد الجيش العربي إلى الخليفة الأموي بأنها: «شامية في طيبها وهوائها، يَمِنِيَّة في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، أَهْوازِيَّة في عظم جبارياتها، صينية في معادن جواهرها، عَدَنِيَّة في منافع سواحلها». واستولى المسلمون على ساحل إسبانيا مبتدئين بجبل طارق الذي اقتُبس اسمه من اسم طارق بن زياد البربري الذي هو من رجال القائد العربي موسى بن نصیر. وكان العرب قد قَضَوا خمسين سنة في فتح إفريقيـة البربرـية، ولم يَقْضُوا سوي بضعة أشهر في فتح جميع إسبانية النصرانية، وتَقَرَّرَ مصير مملكة القوط في المعركة الأولى المهمة التي خاض المسلمون غمارها، والتي كان رئيس أساقفة أشبيلية حليفاً لهم فيها، والتي حَسِرَ القوط فيها مُلْكَهُم وخسروا إسبانيا.

وعَجِبَ موسى بن نصیر من ذلك النصر السريع الذي لم يتوقعه، ولا غَرَّ، فقد كان يتصور ما لاقاه من الشدائـد في فتح إفريقيـة، وكان يعتقد أنه سَيُلْقَى في أوربة من الشجاعة وحب الاستقلال ما لقيه في البربرـ، فلما تَبَيَّنَ له خطأه أراد أن يشارك طارق بن زياد في مجد الفتح؛ فعبر البحر بجيش مؤلف من اثنى عشر ألف جندي عربي وثمانينية آلاف جندي ببرـي؛ ليواصل فتح إسبانيا.

أتَمَّ العرب فتح إسپانية بسرعة مدهشة، وذلك أن المدن الكبيرة سارعت إلى فتح أبوابها للغزاة، فدخل الغزاة قرطبة ومالقة وغرناطة وطليطلة صلحاً تقريباً، ووجد العرب في طليطلة التي كانت عاصمة النصارى تيجان خمسة وعشرين ملكاً قوطياً، وأسْرُوا أرملة للملك القوطى، رودريك، التي تزوجها ابن القائد موسى بن نصیر فيما بعد.



شكل ٢-٦: داخل جامع قرطبة.

وأحسن العرب سياسة سكان إسپانية كما أحسنوا سياسة أهل سوريا ومصر، فقد تركوا لهم أموالهم وكنائسهم وقوانينهم وحقّ المقاومة إلى قضاة منهم، ولم يفرضوا سوى جزية سنوية تبلغ ديناً (١٥ فرنكًا) عن كل شريف ونصف دينار عن كل مملوك، فرَضَي سكان إسپانية بذلك طائعين، وخضعوا للعرب من غير مقاومة، ولم يبق على العرب إلا أن يقاتلوا الطبقة الأرستقراطية المالكة للأرضين.

ولم يَدُم القتال طويلاً، وذلك أن العرب كسروا كلّ مقاومة، ودانت لهم جميع إسپانية في سنتين، ولكن لا إلى الأبد، فقد استرد النصارى ما حسِروه بعد جهاد ثمانية قرون.

ويُروي، مع التوكيد، أن موسى بن نصیر فَكَرَ، بعد فتح إسپانية، في العودة إلى سوريا من بلاد الغول وألمانيا، وفي الاستيلاء على القسطنطينية، وفي إخضاع العالم

القديم لأحكام القرآن، وأنه لم يُعْقِه عن ذلك العمل العظيم سوى أمر الخليفة إياه بأن يعود إلى دمشق، فلو وفَّقَ موسى بن نصیر لذلِك؛ لجعل أوربة مسلمةً، ولحقَّ للأمم المتقدمة وحدتها الدينية، ولأنقذَ أوربة، على ما يحتمل، من دَورِ القرون الوسطى الذي لم تعرَفْه إسپانية بفضل العرب.

ولنتكلَّم، أولاً، عن امتزاجِ أهلِ البلاد بساادتهم الجُدد قبل أن نُقُصَّ عليك ماذا تم للعرب في إسپانية: كان أوائل الغزاة لإسپانية من العرب والبربر، وكان يوجد بضمٍ قبائل سوريَّة في الجيوش التي استولت عليها بعدهُنَّ، ولم يكن عدُّ ما اشتغلت عليه هذه القبائل كثيراً، ولم يظهر أمرُها إلا في دور الفتح الأول، فماذا كان شأنَ العرب والبربر وأهل إسپانية بعد ما دانت إسپانية للعرب؟

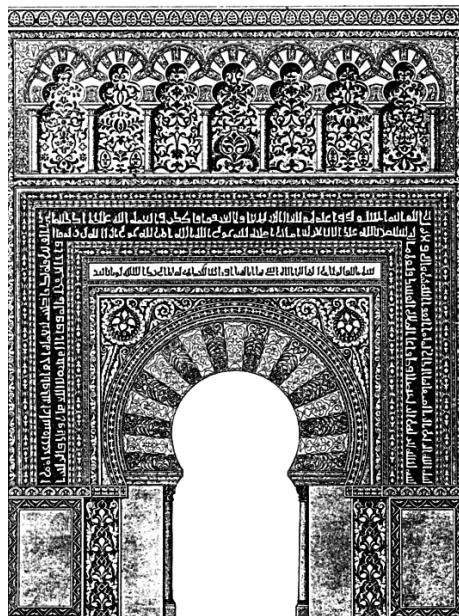
يرى الحق البصير في تاريخ المسلمين بإسپانية أن الإمامة الثقافية ورسالة التمدن كان يقوم بها العرب، وأن البربر اخْتَلَطُوا بطبقات الأهلين الوسطى والدنيا، وأن العرب حافظوا على شرفهم الثقافي حتى بعد أن قَبَضَ البربر على زمام الحكم.

وليس لدينا من الوثائق ما نتمكن به من تقدير نسبة العرب والبربر في مئات السنين الثمانية التي دام فيها سلطانُ الإسلام بإسپانية، ولكنَّ سير الأمور يدل على أن العنصر البربري أخذ يزيد بعد انفصال إسپانية عن خلافة المشرق، ولا سيما بعد توالي غاراتِ ببر مراكش التي كانوا يشنونها عليها.

والحق أن العرب، بعد ذلك الانفصال، كانوا يعتمدون في بقائِهم في إسپانية على تناسُلِهم، وأن البربر كانوا يزيدون فيها بمن يَعْبُرُ جبل طارق من إخوانهم المراكشيين طلباً للثراء.

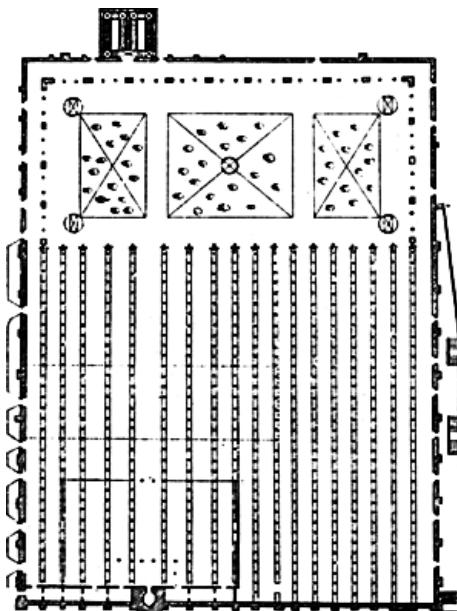
ويظهر أن التوالي لم يقتصر على العرب والبربر وحدهم، بل توالي العرب والبربر وسكان إسپانية الأصليون أيضًا، فكان العرب يتزوجون النصارى على الخصوص، فَيُمْدُدون بذلك دوائر حريرهم ويدِّيمون بذلك نسلهم.

وروى مؤرخو العرب أن العرب تزوَّجوا في بدء الفتح ثلاثين ألف نصرانية، ولا يزال يُرى في قصر أشبيلية رَدْهَةٌ تُدعى رَدْهَةُ الصَّبَايَا الْلَّاتِي كان النصارى يُلزمون بتقديم مائةٍ منهنَّ إلى أحد ملوك العرب في كل سنة كجزية، فنحن إذا ما رأينا أن هؤلاء النصارىيات كُنَّ من مختلف الأجناس، وأنه كان يجري في عروقهن الدم الإيبري واللاتيني واليوناني والقططي ... وغير ذلك، علمنا أنه نشأ عن توالي النصارى والبربر والعرب، الذي دام في بيئَةٍ واحدةٍ قرُوناً كثيرة، عرُقٌ جديدٌ مختلفٌ عن العروق التي فتحت إسپانية



شكل ٦-٣: محراب جامع قرطبة (من تصوير مورفي).

اختلافاً بيّناً، وأن العناصر الكثيرة التي أدى تمازجها إلى ظهور ذلك العرق كانت في أحوال تؤدي إلى تكوينه مطابقاً لما ذكرناه في فصل سابق عن فعل البيئة والتواجد. ولا أبحث هنا في تاريخ ملوك العرب أو البربر الذين ملكوا إسبانيا ثمانمائة سنة، وإنما أوجز أهم الحوادث السياسية التي وقعت في تلك المدة الطويلة إيجاراً يكفي لفهم هذا الفصل: كانت إسبانية، التي تم فتحها في سنة ٧١١م، تابعة لخلفاء دمشق حتى سنة ٧٥٦م، وكان ينوب عن هؤلاء الخلفاء أمراء في شؤون حكمها، فلما كانت سنة ٧٥٦م انفصلت إسبانية عن خلافة المشرق، وقامت فيها دولة مستقلة عُرِفت في التاريخ بخلافة قرطبة التي أصبحت عاصمةً لها.



شكل ٦-٤: رسم جامع قرطبة (كما جاء في كتب العرب القديمة).

وأخذ نجم العرب السياسي في إسبانيا يأْفُل بعد أن مضى على سلطانهم ثلاثة قرون بلغت الحضارة العربية فيها ذُروتها، وشرع النصارى الذين دحرهم العرب إلى الشمال يستفيدون مما كان يقع بين المسلمين من الفساد والفتن، وصاروا يُغيرون عليهم. واستغاث عرب إسبانيا ببربر مراكش في سنة ١٠٨٥م، ليَحُولوا دون توالي انتصارات ملك قشتالة وليون: الأدفونش السادس، ولم يلبث هؤلاء البربر الذين جاءوا إلى إسبانيا حلفاء للعرب أن ظهروا لهم بمظهر السيد، وأسفر تنازع العرب والبربر عن انقسام دولة العرب إلى عشرين دُوَيْلة، وعن قبض المرابطين والموحدين وغيرهم من البربر على زمام الأمور، وعن تكمُّل العرب إزاء البربر، وعن تدرُّج الحضارة العربية إلى الانزواء. واهتب النصارى تلك الْفُرْصَة، فوسّعوا دائِرَتهم على حساب المسلمين، وأقاموا دُوَيْلاتٍ كثيرةً كبلنسية وقشتالة ومُرسية وغيرها مما انتهى إلى أربع دول، وهي: البرتغال ونَبَّرَة وأرغونة وقشتالة.



شكل ٦-٥: باب الشمس في طليطلة (من صورة فوتوغرافية).

ولم يبق للعرب في أواخر القرن الثالث عشر سوى مملكة غرناطة، ولما تزوج ملك أرغونة فرديناند الكاثوليكي ملكة قشتالة إيزابلا، وتمت بذلك وحدة تينك الدولتين، حاصل في سنة ١٤٩٢ غرناطة، التي كانت آخر معقل للإسلام في إسبانيا، وفتحها، ثم ضم إليه مملكة نَبْرَة، فأصبحت جميع إسبانيا، خلا البرتغال، تابعةً لعرش واحد.

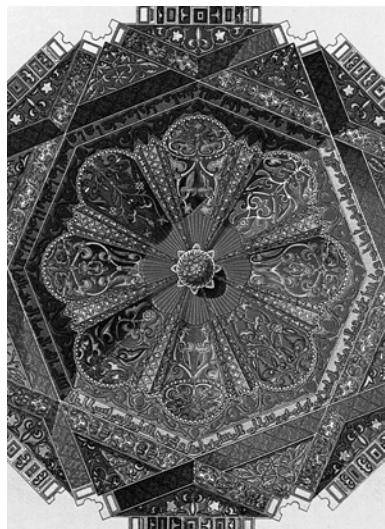
ودامت دولة العرب في إسبانيا نحو ثمانية قرون، أي ما يقرب من مدة سلطان الروم، وأدى انقسامها إلى زوالها أكثر مما أدت إليه الغارات الأجنبية، فالعرب، وإن كانت عبقريتهم الثقافية من الطراز الأول، لم يبدُّ نبوغهم السياسي غير ضعيف.

وعاهد فرديناند العرب على منحهم حرية الدين واللغة، ولكن سنة ١٤٩٩ لم تكن تَحْلُ حتى حلَّ بالعرب دور الاضطهاد والتعذيب الذي دام قروناً، والذي لم ينتهِ إلا بطرد العرب من إسبانيا، وكان تعميد العرب كُرْهَا فاتحةً ذلك الدور، ثم صارت محاكماً



شكل ٦-٦: مقدم القصر في أشبيلية (من صورة فوتوغرافية).

التفتيش تأمر بإحراق كثير من المُعَدِّين على أنهم من النصارى، ولم تَتَمَّ عملية التطهير بالنار إلا بالتدريج؛ لتعذر إحراق الملائين من العرب دفعة واحدة، ونصح كريدينال طليطلة التقىُّ، الذي كان رئيساً لحاكم التفتيش، بقطع رءوس جميع من لم يتَّصَّر من العرب رجالاً ونساء وشيوخاً وولداناً، ولم يَرَ الراهب الدومينيكي، بليداً، الكفاية في ذلك؛ فأشار بضرب رقاب من تَنَصَّرَ من العرب ومن بَقَى على دينه منهم، وحْجَتْهُ في ذلك أنَّ من المستحيل معرفة صدق إيمان من تَنَصَّرَ من العرب، فمن المستحب، إذن، قتلُ جميع العرب بحد السيف؛ لكي يَحُكُمَ الرب بينهم في الحياة الأخرى، ويُدْخِلَ النار من لم يكن صادق النصرانية منهم، ولم تَرَ الحكومة الإسبانية أن تَعْمل بما أشار به هذا الدومينيكي الذي أَيَّدَهُ الإكليروس في رأيه لما قد يُبَدِّيهُ الضحايا من مقاومة، وإنما أمرت، في سنة ١٦١٠ م، بإجلاء العرب عن إسبانيا، فُقْتُلَ أكثر مهاجري العرب في الطريق، وأبْدَى ذلك الراهب البارع، بليداً، ارتياحَه لقتل ثلاثة أربع هؤلاء المهاجرين في أثناء هجرتهم، وهو الذي قَتَلَ مائة ألف مهاجر من قافلة واحدة كانت مؤلَّفة من ١٤٠٠٠ مهاجر مسلم حينما كانت مُتَّجِهًةً إلى إفريقيَّة.



شكل ٦-٧: سقف محراب جامع قرطبة القديم (طراز بزنطي عربي، آثار إسبانية المعمارية).

وَخَسِرت إِسْپَانِيَّة بِذَلِك مَلِيُون مُسْلِمٍ مِن رُعَايَاهَا فِي بَضْعَة أَشْهُر، وَيُقَدَّر كثِيرٌ مِن الْعُلَمَاءِ، وَمِنْهُمْ سِيدِيُو، عَدَدُ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ خَسِرُتُهُمْ إِسْپَانِيَّة، مِنْذُ أَنْ فَتَحَ فَرِيدِيَّنَادْ غَرَنَاطَة حَتَّى إِجْلَائِهِمُ الْأُخْرَى، بِثَلَاثَةِ مَلِيُونٍ، وَلَا تُعْدُ مَلْحَمَةُ سَانْ بَارْتَلَمَى إِذَاء تَلَكَ الْمَذَابِحُ سَوْيَ حَادِثِ تَافَهٍ لَا يُؤْبَهُ لَهُ، وَلَا يَسْعَنَا سَوْيَ الاعْتِرَافِ بِأَنَّا لَمْ نَجِدْ بَيْنَ وَحْشِ الْفَاتِحِينَ مَنْ يُؤَاخِذُ عَلَى اقْتِرَافِهِ مَظَالِمُ قَتْلِ كُلُّكُ الَّتِي اقْتُرِفَتْ ضَدَّ الْمُسْلِمِينَ.

وَمِمَّا يُرْشِى لَهُ أَنْ حُرِمتْ إِسْپَانِيَّة عَدَمًا هُؤُلَاءِ الْمَلِيُونِ الْثَلَاثَةِ الَّذِينَ كَانُوا لَهُمْ إِمَامَة السَّكَانِ التَّقَافِيَّةِ وَالصَّنَاعِيَّةِ.

ثُمَّ رَأَتْ مَحاكمُ التَّفْتِيشِ أَنْ تُبَيِّدَ كُلَّ نَصْرَانِيٍّ تُرِى فِيهِ شَيْئًا مِنَ النِّبَاةِ وَالْفَضْلِ، فَكَانَ مِنْ نَتَائِجِ هَذِهِ الْمَظَالِمِ الْمَزِدُوجَةِ أَنْ هَبَطَتْ إِسْپَانِيَّةٌ إِلَى أَسْفَلِ دَرَكَاتِ الْانْحِطَاطِ بَعْدَ أَنْ بَلَغَتْ قَمَةَ الْمَجَدِ، وَأَنْ انْهَارَ مَعًا كُلُّ مَا كَانَ فِيهَا مِنَ الزَّرَاعَةِ وَالصَّنَاعَةِ وَالتجَارَةِ وَالْعِلُومِ وَالآدَابِ وَالسَّكَانِ.

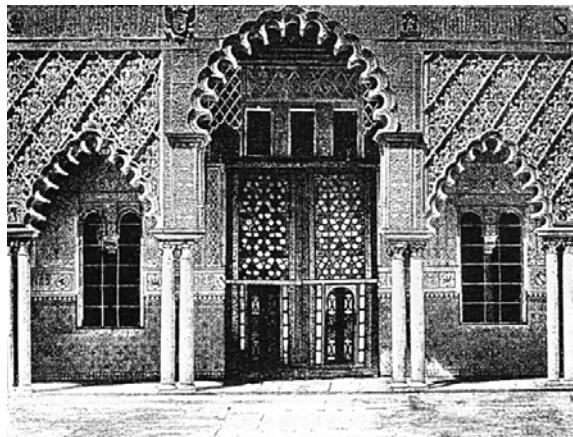
وها هي ذي عِدَّة قرون مضت على ذلك الدور من غير أن تستطيع إسبانيا أن تنهض من هبوطها مع ما بُذِلَ من الجهد، وقد صار عدد سكان طليطلة في الوقت الحاضر ١٧٠٠٠ بعد أن كان ٢٠٠٠٠ أيام الحكم العربي، وقد أصبح عدد سكان قرطبة في الوقت الحاضر ٤٢٠٠٠ بعد أن كان مليوناً أيام الحكم العربي؛ ولم يبقَ من مدن ولاية شَلَمَنْفَة، التي كان عددها أيام الحكم العربي ١٢٥ مدينة، سوى ١٣ مدينة. وسيرى القارئ في الفصل الذي خَصَّصناه للبحث في وارثي العرب مقدار الانحطاط الذي أسفَرَ عن إبادة العرب، وإذا كنت قد أشرت إلى هذا هنا فلأن شأن العرب المدني لم يَبُدُّ في قطر ملكوه كما بدا في إسبانيا التي لم تكن ذات حضارة تُذكر قبل الفتح العربي؛ فصارت ذات حضارة ناضرة في زمن العرب، ثم هَبَطَت إلى الدَّرَك الأسفَل من الانحطاط بعد جلاء العرب، وهذا مثالٌ بارزٌ على ما يمكن أن يتفق لِعرقٍ من التأثير.

(٣) حضارة العرب في إسبانيا

كانت إسبانيا النصرانية ذات رَخاءٍ قليلٍ وثقافة لا تلائم غير الأجلاف في زمن ملوك القوط، ولم يَكُنَّ العرب يُتَمِّمون فتح إسبانيا حتى بدأوا يقومون برسالة الحضارة فيها، فاستطاعوا في أقل من قرن أن يحيوا ميت الأرضين، ويُعْمِلُوا خَرَبَ المدن، ويقيموا فَحْمَ اللبناني، ويوطّدوا وثيق الصلات التجارية بالأمم الأخرى، ثم شرعوا يتفرغون لدراسة العلوم والأداب، ويترجمون كتب اليونان واللاتين، وينشئون الجامعات التي ظلَّت وحدها ملجاً للثقافة في أوربة زمناً طويلاً.

وأخذت حضارة العرب تنهض منذ ارتقاء عبد الرحمن إلى العرش على الخصوص، أي منذ انفصال إسبانيا عن المشرق بإعلان خلافة قرطبة في سنة ٧٥٦م، فَعَدَتْ قرطبة، بالحقيقة، أرقى مُدُن العالم القديم مُدَّةً ثلاثة قرون.

ولم يَكُنَّ عبد الرحمن يَقْبض على زمام الحكم في إسبانيا حتى أخذ يسعى في حمل العرب على عِدَّ إسبانيا وطنًا حقيقىًّا لهم، فأنشأ جامع قرطبة الشهير الذي هو من عجائب الدنيا؛ لتحويل أنظار العرب عن مكة، وصار يُنفق دخلَ بيت المال في إصلاح البلاد وعمارتها بدلًا من إنفاقه في الغزوَات البعيدة، ثم سار خلفاؤه على سنته في ذلك. وامتازت حضارة العرب في إسبانيا في ذلك الدور بميل العرب الشديد إلى الفنون والأداب والعلوم على الخصوص، وأنشأ العرب في كل ناحية مدارس ومكتبات ومختبرات،



شكل ٦-٨: داخل ردهة في القصر بإشبيلية (من صورة فوتوغرافية).

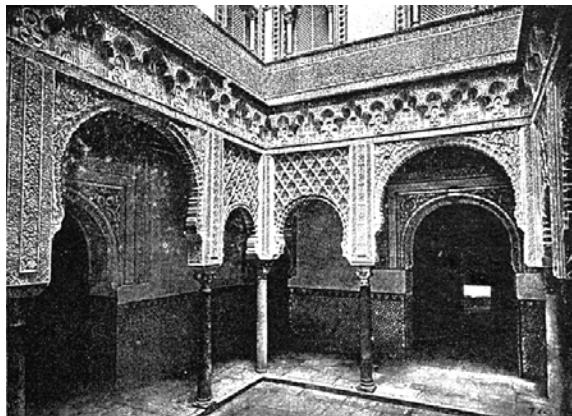
وتلجموا كتب اليونان، ودرسو العلوم الرياضية والفلكلورية والطبيعية والكيماوية والطبية بنجاح، وسُنّر في فصول أخرى أهمية اكتشافاتهم في هذه العلوم المختلفة. ولم يكن نشاطهم في الصناعة والتجارة أقل من ذلك، فكانوا يصدرون منتجات المناجم ومعامل الأسلحة ومصانع النسائج والجلود والسكر إلى إفريقيا والشرق بواسطة تجار من اليهود والبربر.

ويرعى العرب في الزراعة برعاتهم في العلوم والصناعات، ولا يوجد في إسبانيا الحاضرة من أعمال الري خلا ما أتَمَّهُ العرب، وأدخل العرب إلى حقول الأنديلس الخصبة زراعة قصب السكر والتوت والأرز والقطن والموتز ... إلخ، وأصبحت إسبانيا، التي هي صحراء حقيقة في الوقت الحاضر، عدا بعض أقسامٍ في جنوبها، جنةً واسعة بفضل أساليب العرب الزراعية الفنية.

ووجهَ العرب نشاطهم إلى كل فرع من فروع العلوم والصناعة والفنون، ولم تقلَّ أشغالهم العامة عن أشغال الرومان أهميةً، فأكثروا من إنشاء الطرق والجسور والفنادق والمشافي والمساجد في كل مكان.

وظن رئيس الأساقفة الإسباني أكزيمينيس أنه، بإحراقه مؤخراً ما قَدِرَ على جمعه من مخطوطات أعداء دينه العرب (أي ثمانين ألف كتاب)، مما ذكرهم من صفحات التاريخ إلى الأبد، وما دَرَى أن ما تركه العرب من الآثار التي تملأ بلاد إسبانيا، خلا مؤلفاتهم، يكفي لتخليد اسمهم إلى الأبد.

وكانت عاصمة الخلافة، قرطبة، داراً للعلوم والفنون والصناعة والتجارة، و تستطيع أن تقابلها بعواصم دول أوربة العظمى الحديثة، وهي على خلاف قرطبة الحاضرة التي أضحت مقرّاً للأمميات، ومن المؤلم أن كنتُ أُسِيرُ عدّة ساعات في هذه المدينة الواسعة، التي كان يقُمُ بها مليون شخص، قبل أن أصادف مارّاً نشيطاً ...



شكل ٩-٦: داخل ردهة في منصر بأشبيلية (من صورة فوتografية).

أجل، كان من النصر العظيم أن أحَلَ النصارى الصليب محل الهلال في قرطبة، ولكن الهلال كان يُهيمِن على أغنى مدن العالم وأجملها وأكثرها أهلاً، فيُشرف الصليبَ اليوم على بقایا تلك الحضارة القوية التي قَوَّضَها عُبادُه من غير أن يقيموا حضارةً أخرى مقامها.

وكان نظام الحكم العربي في إسبانيا مشابهاً لنظام الحكم الذي تكلمنا عنه في فصل «العرب في بغداد» أي كان الخليفة، وهو وكيل الله في الأرض، حاكماً مطلقاً جامعاً

لجميع السلطات المدنية والدينية والجوبية مع اختياره مجلساً لإصداء النصائح إليه في جميع أمور الدولة.

وكان يقوم بحكم الولايات ولاة ينصبهم الخليفة جامعون مثل سلطاته كلها. وكان قانون الدولة المدني يستند في نصوصه إلى القرآن وتفسير القرآن، كما نوضح ذلك في فصل آخر؛ فيت忤د القضاة القرآن دستوراً في أحكامهم، وكانت المحاكم على درجتين؛ فتقوم محاكم الدرجة الثانية (الاستئناف) بإصلاح ما تصدره محاكم الدرجة الأولى من الأحكام.

وكان الخليفة، كملوك ذلك العصر، غير ذي جيش دائم، وكانت الكتيبة الوحيدة المسلحة على الدوام مؤلفة من حرس ولـي الأمر الشخصي الذي يبلغ عدده عشرة رجال أو اثنى عشر رجلاً، وإن كان يستطيع أن يجند كلّ شخص قادرٍ على حمل السلاح من أبناء الدولة.

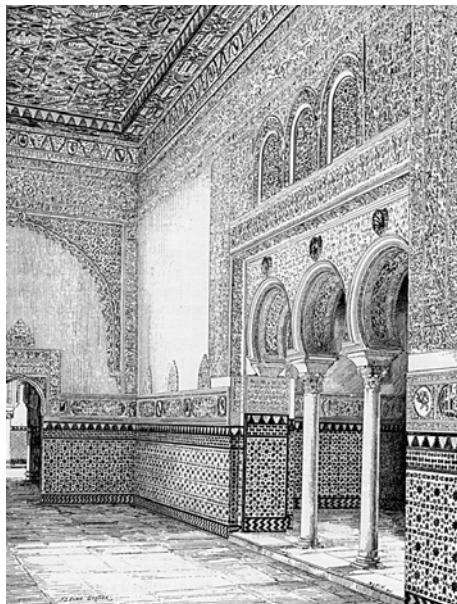
وكانت البحرية قوية جدًا، وكانت تَتَمُّ بفضلها صلات العرب التجارية بجميع مراقيع أوربية وأسية وإفريقية، وظل العرب وحدهم سادة البحر المتوسط زمناً طويلاً.

وكان دخل بيت المال يقوم على الضرائب والمناجم، كما في بغداد، وكانت مناجم الفضة والذهب والرثيق غنيةً في ذلك الزمن، وكانت الضرائب تتتألف من العشر العيني لمحاصيل أراضي المسلمين، ومن الجزية التي يعطيها النصارى واليهود، ومن الجمارك والمكوس، فبلغ دخل دولة الخلافة في إسبانيا ثلاثة مليون في إبان عظمتها، أي في عهد الحكم الثاني.

وقلنا: إن الإمامة الثقافية كانت للعرب في البلاد، وأما العوامُ فكانوا من البربر، ومن سكان البلاد القدماء على الخصوص، وكان باب المناصب مفتوحاً للنصارى، وكان النصارى يستخدمون في الجيش غالباً، ولم يكن توالد المسلمين والنصارى غير قليل، وكانت أم الخليفة عبد الرحمن الثالث نصرانية.

واستطاع العرب أن يحولوا إسبانياً مادياً وثقافياً في بضعة قرون، وأن يجعلوها على رأس جميع المالك الأوربية، ولم يقتصر تحويل العرب لإسبانيا على هذين الأمرين؛ بل أثروا في أخلاق الناس أيضاً، فهم الذين علّموا الشعوب النصرانية، وإن شئت فقل حاولوا أن يعلّموها، التسامح الذي هو أثمن صفات الإنسان، وبلغ حلم عرب إسبانيا نحو الأهلين المغلوبين مبلغاً كانوا يسمحون به لأساقفهم أن يعقدوا مؤتمراتهم الدينية، كمؤتمر أشبيلية النصراني، الذي عُقد في سنة ٧٨٢م ومؤتمر قرطبة النصراني الذي عُقد

في سنة ٨٥٢م، وتنعد كنائس النصارى الكثيرة التي بَنَوْهَا أيام الحكم العربي من الأدلة على احترام العرب لمعتقدات الأمم التي خضعت لسلطانهم.



شكل ٦: بهو ملوك المغاربة في القصر بأشبيلية (من صورة فوتografية).

وأسلم كثيرون من النصارى، ولكنهم لم يُسلموا طمئناً في كبير شيء، وهم الذين استعربوا فغدوا هم واليهود مساوين للمسلمين قادرين مثليهم على تقلد مناصب الدولة، وكانت إسبانية العربيةُ بلد أوربة الوحيد الذي تمنع اليهود فيه بحماية الدولة ورعايتها، فصار عددهم فيه كثيراً جدّاً.

وكان عرب إسبانية يتصرفون بالفروسيّة المتألية خلا تسامحهم العظيم، وكانوا يرحمون الضعفاء، ويرفقون بالغلوبين، ويقفون عند شروطهم ... وما إلى هذا من الخلال التي اقتبسها الأمم النصرانية بأوربة منهم مؤخراً، فتؤثّر في نفوس الناس تأثيراً لا تؤثّره الديانة.

وللفروسية العربية شروطها كما للفروسية الأوروبية التي ظهرت بعدها، فلم يكن المرء ليصير فارسًا إلا إذا تحلى بهذه الخصال العشر: «الصلاح، والكرامة، ورقة الشمائل، والقريحة الشعرية، والفصاحة، والقوة، والمهارة في ركوب الخيل، والقدرة على استعمال السيف، والرمح، والنَّشَابِ».

ونرى تاريخ العرب في إسبانيا حافلاً بالأئباء الدالة على كثرة انتشار تلك الخصال، ومن ذلك أنَّ والي قربطة لما حاصر، في سنة ١١٣٩ م مدينة طبلة التي كانت بيد النصارى أرسلت إليه الملكة بِرِنْجِر التي كانت فيها من بلغه أنه لا يليق بفارس بطلٍ شهِمْ كريمٍ أن يحاصر امرأةً، فارتدى القائدُ العربيُّ من فوره محييًّا الملكة. وزاعت خصال الفروسية تلك بين النصارى، ولكن ببطء، ويمكننا أن نتمثل ما كانت عليه الفروسية النصرانية في القرن الحادى عشر عند النظر إلى أمر السيد الكنيطور رودريك الثيقاري.

لم يكن هذا البطل الشهير الذي تَعَنَّى به الشعراء كثيًراً سوى رئيس عصابة بالحقيقة، أي كان محل مزايدة، فيبيع نفسه من العرب تارة ويبيعها من النصارى تارة أخرى، ومما حدث أن دخل مدينة بلنسية صلحاً فلم يُحجم عن شيءٍ حاكمها الهرم على النار؛ ليُكرهه على كشف ما كان يَظْنُ وجوده في القصر من الكنوز.

قال مسيو فياريُدو: إن ذلك الفارس الشهير الذي يُثير اسمه ذكريات البطولة هو البطل الشعبي الذي اقتحم المخاطر والأهوال أكثر مما اقتضمه هركول وثيزيه وقدماء أنصاف الآلهة مجتمعين.

بيد أنه، وإن كان من المؤلم تجريدُ اسم عظيمٍ من بعض ما أسبَغَته القرون عليه، لم يُوضع التاريخ ليؤيد بأحكامه أقاصيص الأدباء وخيات الشعراء.

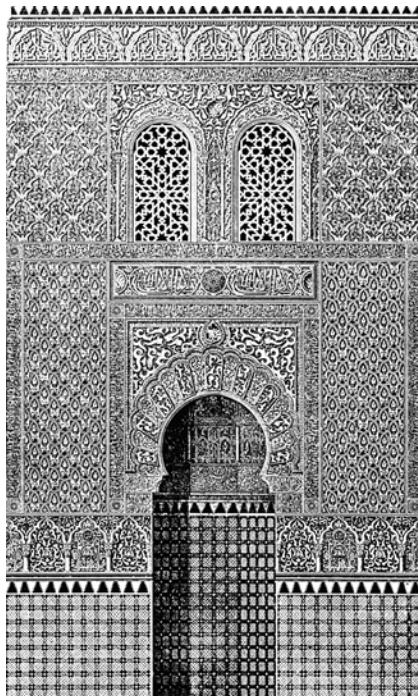
لم يُحُرِّز رودريك، أو روبي ديال الثيقاري، غير صفات الجندي، أي كان رئيس عصابة من المرتزقة قاسيًا جشعًا حقوًدا شديداً في قوله وعمله كثير الجلف مستخفًا بالعدل والإنصاف.

وكان نصارى أرغونة أولَ من أعمل السلاح فيهم لحساب المسلمين الذين منحوه لقب «السيد» فُعِرِّفَ به، ثم باع سيفه من شانشه القوي؛ ليساعده على تجريد ما لإخوته وأخواته من المقاطعات، ثم حالف هذا وذاك ماحالفة الغاردين، ولم يُبالي بعهد الأمان الذي قطَّعَه لمدينة ساغونتة ومدينة بلنسية؛ فأطعم الكلاب بعضَ الأسرى، ونَكَلَ ببعضهم، وحرَّقَ بعضًا آخرَ منهم إكراهاً لهم على كشف كنوزهم.



شكل ١١-٦: برج لاجيرالد (برج لعبة الهواء) في أشبيلية (من تصوير جيرول دوپرانجيه).

«حقاً إنه أطفأ ما تم له من مجد النصر بما قام به من أعمال الخنزير والخسنة والإجرام، وإنني أحيل القارئ الذي يريد التثبت في مصداق قوله إلى ما قاله مسيو دوزي في مباحثة عن تاريخ عرب إسبانية السياسي والأدبي في القرون الوسطى.» وليس من الإنصاف أن ننكسو على السيد الذي لم يعمّل بغير ما كانت تُبيحه طبائع زمانه، ولكن من الواجب أن نشير إلى تلك الطبائع؛ ليتجلى لنا مقدار ما أسدت به الأمة التي عملت على زوال تلك الطبائع من خدمة عظيمة بتأثير تعاليمها التي لا مؤيد لها سوى الرأي.



شكل ١٢-٦: محراب مسجد قصر الحمراء (من تصوير جونس).

ويقولون: إن الدين يهذب الطبائع، وأنذهب إلى هذا الرأي أحياناً وإن لم يكن في التاريخ سوى أدلة قليلة على ذلك، وإنما الذي لا ريب فيه هو أن قواعد الفروسية التي جاء بها العرب أَدَّت إلى إصلاح تلك الطبائع أكثر من جميع التعاليم الدينية. نعم، إن إحراق السيد شيخاً ليُسلِّب ماله يُبديه لنا وحشاً، غير أن طبائع أهل ذلك الزمن كانت تُبيح ذلك، وأن كل أمير نصراني كان يقترب مثل ذلك. ومن ذلك أن دعا الطاغية بطره ملك غرناطة، أبا سعيد، إلى قصره فأعجبه ما كان يَتَحَلَّ به الملك أبو سعيد من الجوافر، فلم يَرَ غير سلبه إياها بقتله غدرًا.^٢

فأثَّامُ مثل هذه مما لم يقتربه العرب قط. والعرب أحسنوا كثيراً إلى الحضارة بنشرهم من المشاعر في أنحاء العالم ما يحول دون ارتكابها. واعترف الكتَّابُ القليلون الذين درسوا تاريخ العرب بفضلهم الخُلُقِي، وإليك ما قاله العالم التَّبْتُ مسيو سيدُيو: «كان العرب يفوقون النصارى كثيراً في الأخلاق والعلوم والصناعات، وكان من طبائع العرب ما لا تراه في غيرهم من الكرم والإخلاص والرحمة، وكان من طبائعهم التي امتازوا بها في المحافظة على الكرامة ما يؤدي الإفراط فيه إلى البارزة والشحناة».

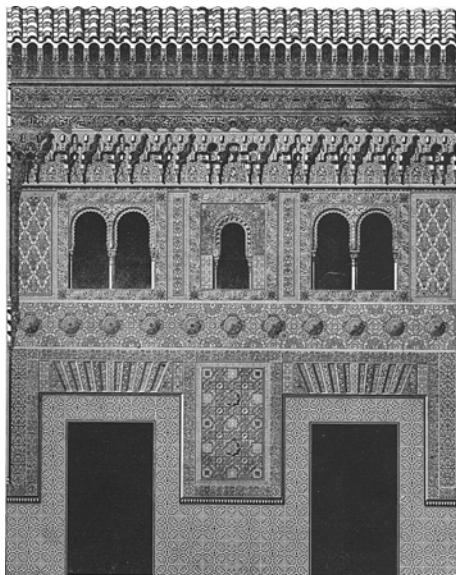
وكان ملوك قشتالة ونَبَرَة على علم من صدق العرب وقرَاهم، ولم يتعدد الكثير منهم في المجيء إلى قرطبة؛ ليعالجهم أطباؤها المشهورون. وكان أفقُ المسلمين يحافظ على شَرَفِ أسرته محافظاً أشد الرؤساء صَلَفاً».

(٤) مباني العرب في إسبانيا

استخدم العرب، في بدء إقامتهم بإسبانيا، مهندسين من الروم، ولكن العرب لم يلبثوا أن أثروا بعcreاتهم الفنية في أولئك المهندسين، وبَلَغَ إيماؤهم في أمور الزيينة مبلغاً صار يتعدُّر معه على أقل الناس دقةً أن يخلط مبانيهم بالمباني البزنطية.

ولم يلبث العرب في إسبانيا أن تحرروا من التفозд البزنطي كإخوانهم في مصر، فاستبدلوا النقوش العربية الممزوجة بالكتابة بالزخرفة الذهبية، وأكثروا، كما في المشرق، من المتدليات المؤلفة من الأقواس الصغيرة التي يعلو بعضُها بعضًا على شكل نخاريب النخل، فيكون منظرها ساحراً عجيباً حينما يُرَى فيها داخل إحدى القباب كما في الحمراء، وكانت هذه الأقواس على شكل نعل الفرس الظاهر في البداءة، ثم اختلطت بأنواع الأقواس الأخرى البسيطة المصنوعة على رسم البيكارين، والأقواس المفلوقة المصنوعة على رسم البيكارين، والأقواس المنقوشة على شكل الأزهار والأغصان المصنوعة على رسم البيكارين ... إلخ، وأما الأقواس المجاوزة فقد أهملها العرب تقريرياً.

ونَعْدُ جامعاً قرطبة الذي بُني في القرن الثامن من الميلاد وبعض المباني في طليطلة من آثار الدور الأول لفن العمارة العربي بإسبانيا، ونَعْدُ منارة لاجيرالدة (لعبة الهواء) الأشبيلية، التي أقيمت في القرن الثاني عشر من الميلاد، والقصر الأشبيلي من آثار الدور الأوسط لفن العمارة العربي، ونَعْدُ قصر الحمراء الغرناطي الذي شيد في القرن الرابع عشر من الميلاد عنواناً لما انتهى إليه فنُ العمارة العربي.



شكل ٦: مقدم مسجد قصر الحمراء في غرناطة.

وعلى ما في هذه المباني التي أُنشئت في إسبانيا في مختلف الأدوار من التباين في الطُّرُزِ نرى لها طابعًا خاصًا يدل على أصلها أول وهلة. ويرى مثل هذا الطابع الخاص في مختلف المباني التي شادها العرب في مختلف الأقطار، فقصر الحمراء في غرناطة أو جامع السلطان حسن في القاهرة أو باب علاء الدين في دهلي أو غيره، وإن بدا عليه تأثير البيئة التي كان يعيش فيها المهندسون الذين رسموه، جَمَعَت بينه وبين المباني الأخرى التي شادها العرب في الأقطار الأخرى صفاتٌ فنِّ العمارة العربي العامَّة، وتَقْرِبُ هذه على مهارة صانعيها في إبداع الآثار الجديدة بالمواد القديمة، ولا جَرَأَ أن باب علاء الدين الذي أَفْ فَ فيه بين عناصر الفن العربية والفارسية والهندوسية هو من الأمثلة المهمة لتأثير الفن العربي العجيب الذي طبع سماته على كل ما مَسَهُ، والذي ظل عريبيًّا مع ما اقتبسه من الهندوس في الهند ومن الفرس في بلاد فارس ومن البزنطيين في إسبانيا.

ولنتكلم الآن بإيجاز عن المباني المهمة التي تركها المسلمون في إسبانيا، وسنتبع طريقتنا في نشر صور صادقة عنها نشرًا يُغنينا عن الوصف المفصل، وذلك على أن نعود إلى الكثير منها في الفصل الذي ندرس فيه تاريخ فن العمارة العربي.

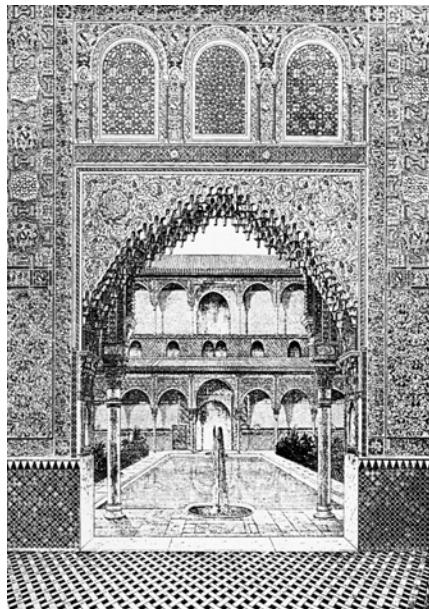
(٤) المباني العربية في قرطبة

إن جامع قرطبة الشهير الذي بدأ عبد الرحمن بإنشائه في سنة ٧٨٠ م، والذي يعده علماء المسلمين قبلة أنظار المغرب، من أجمل المباني التي شادها العرب في إسبانيا، قال كوندله: *بُيَّنَ ذَلِكَ الْمَسْجِدُ الْجَامِعُ فِي أَوَاخِرِ الْقَرْنِ الثَّانِيِّ مِنَ الْمِيلَادِ بِأَمْرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَوَّلِ* وإشرافه، وروي أن عبد الرحمن الأول هذا أراد أن يجعله مماثلاً لجامع دمشق على أوسع نطاق، ومذكراً الناس بفيض زخارفه، بعجائب هيكل سليمان القديسي المجيد الذي هدمه الرومان.

«وكان جامع قرطبة يفوق معابد الشرق قاطبة بعظمته وروعته، وترى ارتفاع مئذنته أربعين ذراعاً، وترى قبته الهيفاء تقوم على روافد من الخشب المحفور و تستند إلى ١٠٩٣ عموداً مصنوعاً من مختلف الرخام على شكل رقعة الشطرنج، فيتألف منها تسعه عشر صحنًا واسعاً طولاً وثمانية وثلاثون صحنًا ضيقاً عرضاً، وترى في وجهه الجنوبي المقابل للوادي الكبير تسعه عشر باباً مصفحاً بصفائح برونزية عجيبة الصنع خلا الباب المتوسط الذي كان مصفحاً بألواح من الذهب، وترى في كل من وجهه الشرقي الجناني ووجهه الغربي الجناني تسعه أبواب مشابهة لتلك الأبواب».

ولا يزال جامع قرطبة من المباني المهمة مع ما أحدثه الإسبان فيه من التلف والفساد، ومع تلك الكنيسة الواسعة التي أقاموها فيه لتطهيره، ومما صنعته الإسبان أن *كَلَّسُوا زخارف جُدُرِه وكتاباته، وزنعوا منه فسيفساء أرضه، وباعوا تحف سقفه الخشبية المحفورة المزَوَّقة*، فيجب على من يرغب في تمثيل شيء مما كان عليه جامع قرطبة أن ينظر إلى محاربه الذي *تَفَلَّتْ* وحده من التخريب.

ويقوم سقف جامع قرطبة على أعمدة، ويكون من اجتماع هذه الأعمدة صفوف من الصخون الكبيرة المتوازية المؤدية إلى باحته، وتتقاطع هذه الصخون وصخون أخرى كتقاطع الأضلاع الذي ينشأ عنه زوايا قائمة، ويتألف من مجموع تلك الأعمدة غابة من الرخام واليصبغ والغرانيت، وتعلو تلك الأعمدة أقواس رائعة مُنْضَدة مصنوعة على شكل نعل الفرس.



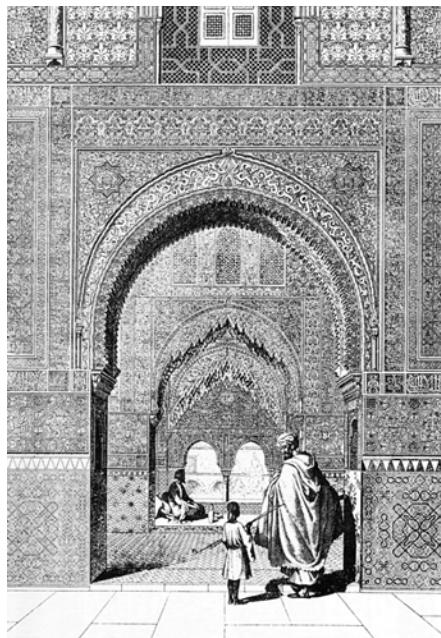
شكل ٦: قاعة البركة في قصر الحمراء (من تصوير جونس).

ولا يؤدي ارتفاع سقف جامع قرطبة الذي لا يزيد على عشرة أمتار إلى ما نراه في الكاتدرائيات القديمة، التي أقيمت على الطراز القوطي في القرون الوسطى، من الجلال والأدجن ككاتدرائية كولونية وستراسبرغ، وإنما ينشأ عن تناسب أقواسه وتتنوع زخارفه منظرٌ مبتكرٌ بديع قلما تجد مثله في مبانٍ أخرى.

وأما محراب جامع قرطبة فإننا، من غير أن نُجاري جيرو بول دوپرانجه في قوله: «إنك لا ترى أحسنَ من زُخرفه وسُنائهِ في أيٍ أثْرٍ قديم أو حديثٍ مماثلٍ»، نعرف بأنه من أجمل ما تقع عليه عَيْنُ بشَّرٍ.

وأقيم جامع قرطبة أيام كان الفنُ العربي في فجره، وتدرج الفن العربي إلى الكمال، فأقيمت على الطراز العربي الكامل مبانٌ عجيبةٌ كالحمراء تُخبر، بما لها من الروعة

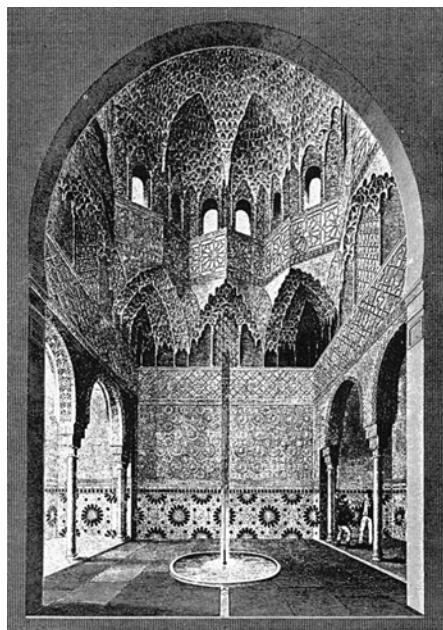
والجلال قادم الأجيال بما كان للقوم الذين شادوها من الذوق الفني وحب كل ما هو ساطع بديع عجيب.



شكل ٦-١٥: منظر التقط في قاعة الأخرين بقصر الحمراء (من تصوير جونس).

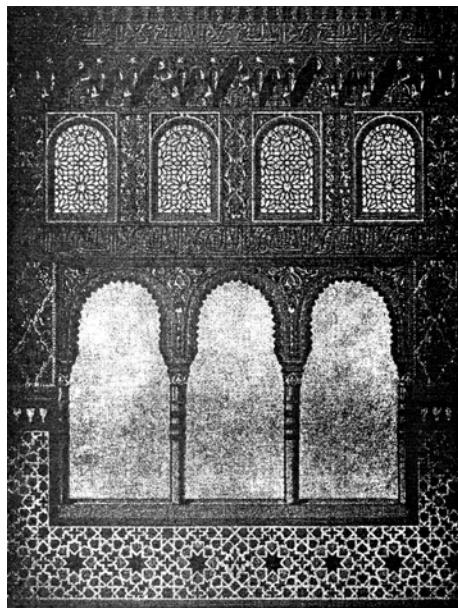
وأرى، قبل أن أغادر قرطبة، أن أذكر، أيضاً، قصر الزهراء الساحر الذي بناه عبد الرحمن في القرن العاشر بعيداً بضعة فراسخ من قرطبة، والذي درس رسمه وقصص التاريخ نبأه، وإن الضبط الذي وصف به كتاب العرب جامع قرطبة لدليل على صدق ما وصفوا به قصر الزهراء من الأوصاف التي أوجزها جيرول دوپرانجيه فيما يأتي:

كان يُزيّن ذلك القصر ٤٣٠٠ عمود من الرخام الثمين الكامل الصنع، وكانت رِدَائِه مبلطةً بقطع من الرخام المنقوش بمهارة على ألف شكل، وكانت حواجز هذه الرِّدَاء مغطاةً بالمرمر ومزخرفة بالأفاريز ذات الألوان الباهرة، وكانت



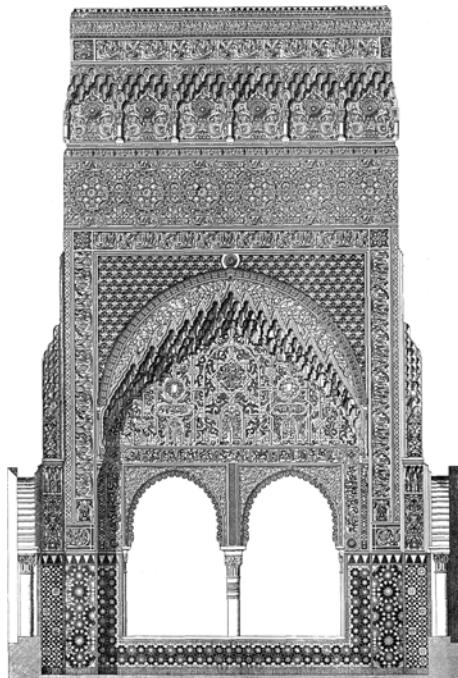
شكل ١٦-٦: قاعة بني سراج في قصر الحمراء (من تصوير مورفي).

سقوفه ذات نقوش ذهبية لازورديةً متشابكة، وكانت جسور هذه السقوف وترابيعها الأرزية دققةً متقنة الصنع، وكان في بعض ردهاته عيون عجيبة تصبُّ مياهها الصافية في صهاريج رخامية ذات أشكالٍ منوعةً أنيقة، وكان في ردهة الخليفة عين مصنوعة من اليصب ومزيينةً باوزةً عجيبةً من الذهب عملت في القسطنطينية، وكانت الدرة الشهيرة، التي أتحفَ قيسر الروم عبد الرحمن الناصر بها، تعلو هذه العين، وكانت الحدائق العظيمة ذات الأشجار المثمرة والرياحين قريبةً من القصر، وكان في وسط هذه الحدائق، وعلى مكان مشرف منها، قبة الخليفة القائمة على أعمدةٍ رخامية بيضاء ذات تيجان مذهبية، وكان في وسط هذه القبة حوض كبير من الرخام السماقي مملوء بالزېبق الذي كان يتَدَفقُ بشكل عجيب تدفقاً مستمراً، فكانت أشعة الشمس تنعكس



شكل ٦-١٧: ليوان في قصر الحمراء بغرناطة.

عليه بما يأخذ بمجامع القلوب، وكان في هذه الحدائق الجميلة حمامات ذات صهاريج رخامية وبُسْطٍ ورياشٍ حريمي ذهبي مُوشَّى بصور غريبة طبيعية من الأزهار والغاب والحيوانات، وجُلِبَ الرخام الأبيض إلى قصر الزهراء من المرية، والوردي والأخضر من قرطاجة وتونس، وصُنعت في سوريا، وفي القسطنطينية على رواية، عينه الذهبية المنقوشة، وكان يُرى هنالك ما جَلَبه أحمد الرومي من الصور البشرية المنقوشة، وأمر الخليفة بأن تُنصب هنالك صورٌ من الذهب والجحارة الثمينة لاثني عشر حيواناً مصنوعة في المعلم الملكي بقرطبة، فكانت المياه تتتدفق من أفواهها تدفقاً مستمراً، وكان سقف ردهة الخليفة مُذهباً مؤلفاً من قطع رخامية لامعة مختلفة الألوان، وكانت جُدره مزخرفةً مثل سقفه، وكان في وسط هذه الردهة حوضٌ رخاميٌّ عظيم مملوء بالزېق، وكان في كل جانب من هذه الردهة ثمانية أبواب معقودة على



شكل ١٨-٦: داخل قاعة لندرجة في قصر الحمراء.

حنایا من العاج والأبنوس مزينة بالذهب والجحارة الثمينة، قائمة على أعمدة من الرخام المنوع والبلور الصافي، وروى ابن حيان أن قصر الزهراء اشتمل على ٤٣٢ سارية مختلفة الحجوم، وأنه جُلب ١٠١٣ سارية منها من إفريقية و ١٩ سارية منها من رومة، وأن قيصر الروم أتحف عبد الرحمن بـ ١٤٠ سارية منها، وأن بقية السواري أخذت من مختلف بقاع الأندلس وطرائونة وغيرها، وصُنعت أبواب قصر الزهراء من الحديد أو من النحاس المموه بالذهب والفضة.

(٤-٢) المباني العربية في طليطلة

مدينة طليطلة القديمة الحاضرة صورةً صادقةً لما كانت عليه المدن الأوروبية في القرون الوسطى، وما هو ماثل فيها الآن من الكثدرائية الفخمة ودير سان جوان دولوس رئيس يكفي لشهرتها، فإذا استثنينا هذين الأثنين رأيت في كل خطوة منها ما يساعد على درس تأثير العرب في الأمم التي حلّت محلهم.

ولا يزال يحيط بطيطلة حصنُها وأبراجها العربية، ونذكر من أبوابها القديمة بابَ بيزاغرة (باب شقرة) الشهير الذي أنشئ في القرن التاسع من الميلاد، وباب الشمس الشهير الذي أنشأ في القرن العاشر من الميلاد فيصعب علىَّ أن أعدَّه، كما عدَّه غيري، من الآثار التي شيدت على الطراز البزنطي، وذلك لشكله العربي العام، ولما يرى فيه من الأقواس والزخارف العربية.

وأذكر من المباني العربية في طليطلة، أو المباني العربية اليهودية فيها، سنتا ماريا لا بلانكا، أي الكنيس القديم الذي بُني في القرن التاسع.

ويُعدُّ بالألاف ما تم في طليطلة من ضروب الزخارف على يد عمال من العرب كانوا من رعايا النصارى قبل إجلاء العرب العام الذي حدث بعد فتح النصارى لجميع بلاد إسبانيا، وإلى هؤلاء العمال العرب يعود الفضل فيما ترى من دقائق النقوش والزينة في مباني طليطلة التي شيدت على الطراز الرومني أو الطراز القوطي، وقد نشأ عن هذا المزج بين الطراز العربي والطراز النصري ذلك الطراز الذي يُسمى المدجن، والذي اتصل أمره في إسبانيا زمناً طويلاً، والذي لم يَعْفُ أثره فيها كما تشهد بذلك بعض الأبنية التي شيدت في أشبيلية حديثاً.

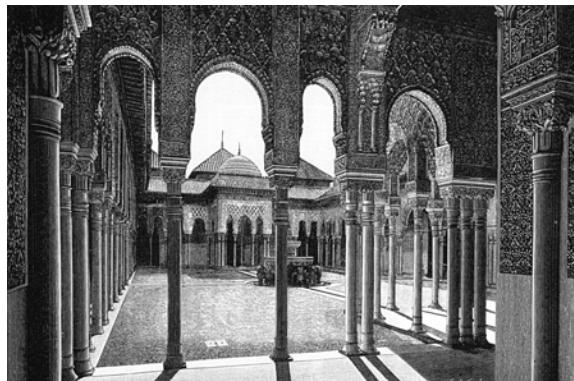
(٤-٣) المباني العربية في أشبيلية

يُرى في أشبيلية، كما يُرى في طليطلة، أثر للعرب في كل خطوة، وإن كان ذلك بمعنى آخر، فإذا نظرت إلى أكثر بيوت أشبيلية العربية العصرية رأيتها مبنيةً على الطراز العربي، وإذا نظرت إلى الرقص البلدي والموسيقا المحلية في أشبيلية رأيتها على النهج العربي، وإذا نظرت إلى نسوة أشبيلية، على الخصوص، رأيت الدم العربي يجري في عروقهنَّ. وإن البرج المسمى لاجيرالدة (برج لعبة الهواء) هو أقدم المباني العربية في أشبيلية، وهو بناء جميل مربعٌ مبنيٌّ من الأجر الوردي، وهو يشابه برج مار مرقس في البندقية

وأكثر مناور إفريقيـة، وإنـي أرجـح أنـ يكون قد بـنـي مـئـذـنة المسـجـد الجـامـع الـذـي أـقامـه المنـصـور في سـنة ١١٩٥ مـ.

ووجـوه بـرج لـاجـيرـالـدة الـخـارـجيـة مـسـتـورـة بـشـبـكـة مـنـ النـقـوشـ المـحـفـورـة، وـمـنـ النـوـافـذـ ذاتـ الأـقوـاسـ المـصـنـوعـ بـعـضـها عـلـى شـكـلـ نـعـلـ الفـرسـ، وـالـمـصـنـوعـ بـعـضـها الـآخـرـ عـلـى رـسـمـ الـبـيـكـارـيـنـ، وـكـانـ يـعـلـوـ ذـلـكـ الـبـرـجـ كـرـةـ مـعـدـنـيـةـ مـذـهـبـةـ فـأـزـالـهـاـ الإـسـپـانـ وـبـنـواـ فـيـ مـحـلـهـ بـرـجـاـ لـلـنـاقـوسـ، ثـمـ وـضـعـواـ فـوـقـ هـذـاـ الـبـرـجـ تـمـثـالـاـ؛ ليـكـونـ رـمـاـ لـلـإـيمـانـ.

والـقـصـرـ الـأـشـبـيلـيـ قـصـرـ عـرـبـيـ قـدـيمـ يـرـجـعـ إـنـشـاؤـهـ إـلـىـ أـدـوـارـ مـخـتـلـفـةـ، وـقـدـ بـُـدـئـ بـإـنـشـائـهـ فـيـ الـقـرـنـ الـحـادـيـ عـشـرـ، وـشـيـدـ مـعـظـمـهـ فـيـ الـقـرـنـ الـثـالـثـ عـشـرـ، وـبـنـىـ مـقـدـمـهـ عـمـالـ مـنـ الـعـربـ فـيـ عـهـدـ الـطـاغـيـةـ بـطـرـهـ، ثـمـ حـاـوـلـ شـارـلـكـنـ أـنـ يـزـوـقـهـ فـأـضـافـ إـلـيـهـ مـنـ الـزـخـارـفـ الـإـغـرـيقـيـةـ الـرـوـمـيـةـ مـاـ دـلـلـ عـلـىـ فـسـادـ ذـوقـ الصـانـعـ.



شكل ٦: قاعة الأسود في قصر الحمراء (من صورة فوتوغرافية).

واتـخذـ مـلـوكـ النـصـارـىـ قـصـرـ أـشـبـيلـيـةـ مـنـزـلـاـ لـهـمـ، وـيـعـدـ الـبـنـاءـ الـوـحـيدـ الـذـيـ حـفـظـ مـنـ نـوـعـهـ فـيـ إـسـپـانـيـةـ، إـنـ النـاظـرـ إـلـىـ رـدـاهـ هـذـاـ الـقـصـرـ المـزـخرـفـ بـشـتـىـ الـأـلوـانـ، وـالـتـيـ أـزـالـ الـكـلـسـ عـنـهـ دـوـكـ مـوـنـيـاـنـسـ بـعـدـ أـنـ كـلـسـهـاـ إـسـپـانـ وـقـقـ عـادـاتـهـمـ، لـيـمـتـلـ مـاـ كـانـ عـلـيـهـ رـدـاهـ الـحـمـرـاءـ قـبـلـ أـنـ يـكـلـسـهـاـ إـسـپـانـ أـيـضـاـ، إـنـ رـدـهـةـ الصـبـاـيـاـ الـلـائـيـ كـانـ النـصـارـىـ يـقـدـمـونـ مـائـةـ مـنـهـنـ كـجـزـيـةـ إـلـىـ مـلـوكـ الـمـغـارـبـةـ فـيـ أـشـبـيلـيـةـ فـيـ كـلـ سـنةـ، كـماـ رـوـيـ، وـكـذـلـكـ

رَدِهَةُ السُّفَرَاءِ، هَمَا مِنْ أَرْوَعِ رِدَاهِ الْقَصْرِ الْأَشْبِيلِيِّ، وَتُعْدُ رَدِهَةُ السُّفَرَاءِ هَذِهِ مِنْ الْعَجَائِبِ
بِغَيْرِ مَا أَضِيفَ إِلَيْهَا مِنْ الرُّخْرُفِ الرَّخِيْصِ، وَإِذَا اسْتَثْنَيْنَا مَبَانِي دَمْشَقَ الْعَرَبِيَّةِ وَبَعْضَ
مَسَاجِدِ الْقَاهِرَةِ الْعَرَبِيَّةِ لَمْ نَرَ فِي غَيْرِ الْقَصْرِ الْأَشْبِيلِيِّ تَلْكَ السَّقْوَفَ الْمَغَطَّاةَ بِالْحُشْبَانِ
الْمَحْفُورَةِ الْمَطْلِيَّةِ الْمَذْهَبِيَّةِ الَّتِي يَفْتَخِرُ أَثْمَنُ قَصْوَرَنَا بِاَسْتِهْمَالِهِ عَلَى مِثْلِهَا.
وَالْحَقُّ أَنَّ أَشْبِيلِيَّةً أَكْثَرَ مَدَنِ إِسْپَانِيَّةَ حَيَاً وَتَمَدَّنَّا، وَهِيَ نَقِيسُ غَرَنَاطَةِ الَّتِي
حَافَظَتْ عَلَى تَوْحِشِ الْقَرْوَنِ الْوَسْطَيِّ، وَعَلَى كَرْهِهَا الشَّدِيدِ لِلْأَجَانِبِ.

(٤) المَبَانِيُّ الْعَرَبِيَّةُ فِي غَرَنَاطَةٍ

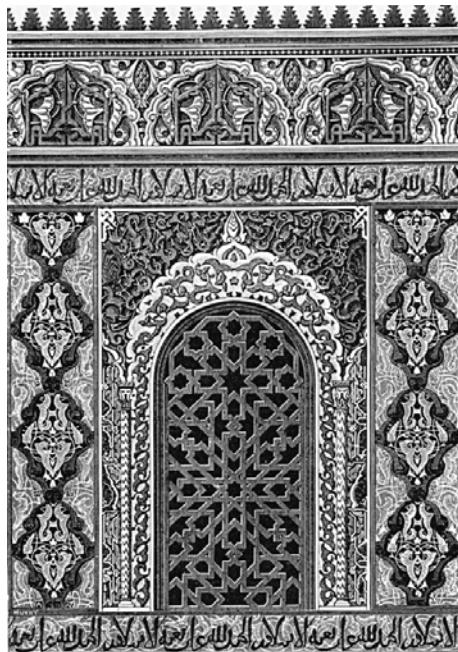
تَتَجَلِّي عَظَمَةُ فَنِ الْعَمَارَةِ الْعَرَبِيِّ الْأَنْدَلُسِيِّ فِي قَصْرِ الْحُمَرَاءِ الَّذِي أَنْشَئَ فِي الْقَرْنِ الْرَّابِعِ
عَشَرَ مِنَ الْمِيلَادِ.

أَقِيمَ قَصْرُ الْحُمَرَاءِ عَلَى مَنْهَدِ جَبَلِ شَلِيرِ الَّذِي يُشَرِّفُ عَلَى مَدِينَةِ غَرَنَاطَةِ وَعَلَى
الْمَرْوِجِ الْوَاسِعِ الْخَصِيبَيِّ، وَالَّذِي يُعْدُّ مِنْ أَجْمَلِ أَمْكَنَةِ الْعَالَمِ.
وَإِذَا مَا نَظَرَ الْمَرءُ إِلَى الْحُمَرَاءِ مِنْ أَسْفَلِ الصَّخْوَرِ الَّتِي تُتَوَجَّهُ رَآهَا أَبْرَاجًا مَرْبَعَةً
ذَاتَ الْأَلوَانِ قَرْمِزِيَّةٌ يَنَاطِحُ أَعْلَاهَا السَّحَابُ، وَيَسْفُرُ أَدَنَاهَا عَنْ نَبَاتِ أَخْضَرِ كَنْيِفٍ، وَإِذَا
مَا مَرَّ الْمَرءُ مِنْ تَحْتِ الْأَشْجَارِ الَّتِي تَحْفُّ بِهَا وَسَمِعَ تَغْرِيدَ الطَّيْوَرِ الَّتِي عَلَيْهَا وَخَرَرَ
الْمَاءُ الَّذِي يَجْرِي فِي السَّوَاقِيِّ وَالْقَنْوَاتِ الْقَرِيبَةِ مِنْهَا، فَدَخَلَ ذَلِكَ الْقَصْرَ الشَّهِيرَ رَأَى مَا
تَغَنَّى بِهِ الشُّعُرَاءُ، وَلَا سِيمَا صَاحِبَ الْمَشْرِقِيَّاتِ (فَكْتُورُهُوْغُوُّ) الَّذِي أَنْشَدَ قَائِلًا:

أَيْتَهَا الْحُمَرَاءِ! أَيْتَهَا الْقَصْرِ الَّذِي زَيَّنَتْكَ الْمَلَائِكَةُ كَمَا شَاءَ الْخَيَالِ، وَجَعَلْتَكَ
آيَةً الْإِنْسَاجَمِ! أَيْتَهَا الْقَلْعَةُ ذَاتُ الْشُّرْفِ الْمَزْخَرَفَةِ بِنَقْوَشِ كَالْزَهُورِ وَالْأَعْصَانِ
وَالْمَائِلَةُ إِلَى الْانْهَادَمِ! حِينَمَا تَنْعَكِسُ أَشْعَةُ الْقَمَرِ الْفَضِّيَّةِ عَلَى جُدُرِكَ مِنْ خَلَالِ
قَنَاطِرِكَ الْعَرَبِيَّةِ يُسْمَعُ لَكِ فِي الْلَّيلِ صَوْتُ يَسْحَرِ الْأَلْبَابِ.

وَيَتَعَذَّرُ وَصْفُ الْحُمَرَاءِ بِوَصْفِ دَقِيقٍ، وَقَلْمَ الرَّسْمِ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ،
وَهُوَ مَا نَسْتَعِنُ بِهِ، وَمَا نَشْرَنَا فِي هَذَا الْكِتَابِ مِنْ صُورَ لِلْحُمَرَاءِ يُغْنِي عَنْ كُلِّ مَا يُمْكِنُ
قُولَهُ.

وَكُلُّ مَا فِي قَصْرِ الْحُمَرَاءِ عَجِيبٌ، وَالْمَرءُ يَقْضِي الْعَجَبَ مِنْ جُدْرَانِهِ الْمَزَيَّنَةِ بِالْنَّقْوَشِ
الْعَرَبِيَّةِ الْأَيْقَنِيَّةِ الْمَحْفُورَةِ الْمُفَرَّضَةِ وَأَقْوَاسِهِ الْمَصْنُوعَةِ عَلَى رَسْمِ الْبَيْكَارِيَّنِ، وَقَبَابِهِ ذَاتِ
الْزَخَارَفِ السَّاحِرَةِ الْمَتَدَلِّيَّةِ (الْمَقْرَنِصَاتِ) الْمَطْلِيَّةِ فِيمَا مَضَى بِالْلَّازُورِدِ وَالْأَرْجُونِ وَالْإِبْرِيزِ.



شكل ٦: جزئيات نافذة في قصر الحمراء.

ولا تشبه الحمراء قصور أوربة مطلقاً، شأنُ كثيّرٍ من القصور العربية، فهي عاطلةٌ من المقدّم، وتتحصّر زخارفها في داخلها الذي نرى كل شيء فيه عجيباً، وإن كان صغيراً، وليس فيها رداء فخمةً مملأةً باردة مثل رداء قصورنا الأوربية رسمت ليعجب بها الزائرون، لا لتلائم ساكنيها.

ويمكّنا أن نتمثل حياة ملوك العرب عند النظر إلى الحمراء؛ فالعين لا ترى من نوافذها غير آفاقٍ لا نهاية لها، وهي تثير ذكريات ما كان يحدث في رياضها الغنّ التي كانت حظايا ملوك غرناطة، وقد كان من أجمل غوانى الغرب والشرق، يتفيّأ في غياضها ويتنسّم شذا أزاهراها النادرة.

وكان يحفُّ بصاحب تلك العجائب جمُّع من المتقنِين والعلماء والأدباء الذين كانوا أعلام ذلك العصر، وكان لذلك الصاحب أن يُعدَّ الملوك الآخرين من الحاسدين له، وكان له أن يكتب على باب قصره كما صنع ذلك الملك الهندي الذي حَكَّت عنه القصة: «إن كان في الأرض فردوسٌ فهو هذا!»

واشتهر أهمُّ أقسام قصر الحمراء بفضل الفوتوغرافية والرسم، فذاع صيت قاعة الأسود وغرفة الأخضرن وحجرة بنى سراج وردهة العدل، والقارئُ الذي يُنعم النظر في الصور التي نشرناها عن تلك الأقسام في هذا الكتاب يرى أنها ليست دون شهرتها، وانتهت الشهرة إلى قاعة الأسود على الخصوص، قال جِيُول دُوپِرانجيه: «يعجز الإنسان عن بيان ما يشعر به حين يمُرُّ من قاعة البركة، ويدخل قاعة الأسود فيرى فيها الأروقة التي تزيّنها الأقواس المُنوَعة المزخرفة بالنقوش المزهرة والزخارف المتدرية والخاريم التي كانت ذهبيةً ملؤنةً، وتقع عينه على غابة من الأعمدة الهيف التي وُضع بعضها منفردًا وبعضها مزدوجًا وبعضها مجتمعاً على شكلٍ بديع، فيُبصِّرُ من خلالها التماع مياهِ فسقِيَّة الأسود المتدفقة».

وتقول القصة: إن رقاب بنى سراج الستة والثلاثين ضربت على تلك الفسقية، وتقول العامة: إنه يُشاهد في كل ليلة طيفُ أولئك القتلى متهدداً. ولا تَمُتْ أسود تلك الفسقية إلى أيّ حيوان بوجه شبيهٍ حقيقيٍّ، فهي ناقصة الشكل نقاًضاً قصده المثالُون الذين أرادوا بها نوعاً من الزينة.

ويكاد زائرو الحمراء لا يُصدِّقون، أولَ وهلة، أن زخارف جُدرانها منقوشةٌ على الحِصْن، لا على الحجارة، كما هو الأمر في القاهرة والهند، ويرى أولئك الزائرون الذين يتأمِّلون قُرَن تلك الزخارف وسطها الأملس المقصوق أن المستحيل ألا تكون منقوشةً على الرخام، ولم أر أنها من الجصّ إلا بعد أن حلَّ لي أحد أعضاء المجمع العلمي، مسيو فريديل، قطعةً صغيرةً منها.

والجصُّ الممزوج بقليل من المواد العضوية هو، إذن، ما صُنِّفت منه جميعُ نقوش الحمراء، ولا نستطيع سوى الاعتراف بإتقان صُنْع ذلك الحِصْن الذي قاوم تقلبات الجو خمسةٌ ستةٌ سنةٌ من غير أن يُفسُد، ولا أعتقد أن مهندساً أو ربيباً في الوقت الحاضر يمكنه أن يعاوه على صنع نوعٍ من الجص يُسْتَطِعُ أن يدوم مثل هذا الزمن الطويل بلا عَطَّاب.

ولا يُستَدِّل على بقاء جُذُر الحمراء بملاءمة جُو إِسْپانِيَّة لها ما تطَرَّق الفساد إلى أجزائها التي رُمِّمت بعد إجلاء العرب بزمن طويـل، ويُعرف هذا الفساد، بسهولة، من انـتـلام تلك الأجزاء المرممة وانـخـفـاضـها وانـتـفاـخـها.

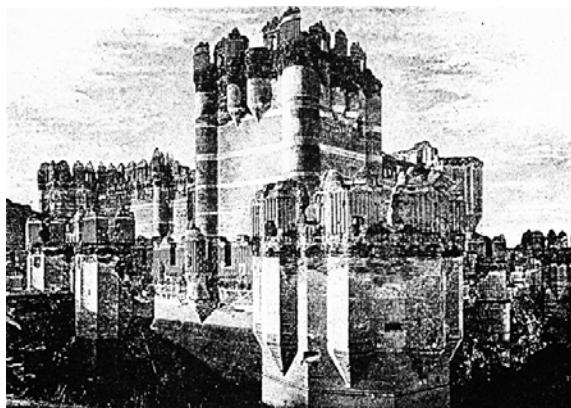
وقد جمـعـ رـجـالـ الفـنـ الذـيـ زـارـواـ قـصـرـ الـحـمـراءـ العـجـيبـ،ـ والـأـلـمـ مـلـءـ قـلـوبـهـ،ـ ما لا يـكـادـ العـقـلـ يـصـدـقـهـ منـ أـنـبـاءـ التـخـرـيـبـ الفـظـيـعـ الذـيـ أـحـدـهـ الإـسـپـانـ فـيـهـ،ـ فقدـ هـدـمـ شـارـلـكـنـ قـسـمـاـ مـهـمـاـ مـنـهـ لـيـنـشـئـ فـيـ مـكـانـهـ بـنـاءـ ثـقـيـلـاـ،ـ وـعـدـتـهـ جـمـعـ الـحـكـومـاتـ الإـسـپـانـيـّـةـ مـجـمـوعـةـ مـنـ الـخـرـائـبـ الـقـدـيمـةـ الـتـيـ لـاـ تـنـفـعـ لـغـيرـ الـاستـفـادـةـ مـنـ موـادـهـاـ،ـ قـالـ مـسـيـوـ تـقـلـيـهـ فـيـ كـتـابـهـ عـنـ إـسـپـانـيـّـةـ:ـ «ـلـقـدـ بـيـعـ أـلـوـاحـ الـمـيـانـ الـتـيـ كـانـتـ تـزـينـ رـدـاهـ الـحـمـراءـ مـنـذـ بـضـعـ سـنـينـ لـصـنـعـ الـمـلـاطـ،ـ وـبـيـعـ بـابـ مـسـجـدـهـ الـبـروـنـزيـ كـنـحـاسـ عـتـيقـ،ـ وـحـرـقـتـ مـنـهـ أـبـوابـ رـدـهـةـ بـنـيـ سـرـاجـ الـخـشـبـيـ الـأـنـيـقـةـ كـمـاـ يـحـرـقـ الـحـطـبـ،ـ ثـمـ اـتـخـذـ مـنـ رـدـاهـ الـجـمـيلـةـ سـجـونـ للـمـجـرـمـينـ وـمـخـازـنـ الـمـيـرـةـ بـعـدـ أـنـ بـيـعـ مـاـ أـمـكـنـ نـزـعـهـ مـنـهـ».ـ

وأـرـادـ الإـسـپـانـ تـطـهـيرـ جـدـرـانـ الـحـمـراءـ الـمـزـيـنةـ بـالـنـقـوشـ الـعـرـبـيـّـةـ الـجـمـيلـةـ،ـ فـكـسوـهـ طـبـقـةـ كـثـيـفـةـ مـنـ الـكـلـسـ،ـ وـيـظـهـرـ أـنـ التـكـلـيـسـ الـذـيـ تـسـاوـيـ فـيـ حـبـهـ الإـسـپـانـ وـالـإـنـكـلـيـزـ هوـ مـاـ يـرـغـبـ فـيـهـ بـعـضـ الـشـعـوبـ الـمـتـمـدـنـةـ الـتـيـ لـاـ تـرـىـ مـاـ هـوـ أـطـيـبـ مـنـ لـلـزـيـنـةـ،ـ وـهـوـ مـاـ يـرـوـقـ بـالـتـدـرـيـجـ أـولـكـ الأـورـبـيـيـنـ الـذـيـنـ يـرـوـونـ فـيـهـ مـظـهـرـاـ لـلـمـساـواـةـ وـوـحدـةـ الشـكـلـ الـبـذـلـةـ.ـ وـلـاـ يـمـضـ زـمـنـ طـوـيـلـ عـلـىـ تـذـمـرـ الـمـتـفـنـيـنـ مـنـ تـخـرـيـبـ قـصـرـ الـحـمـراءـ،ـ وـنـزـعـ أـولـوـ الـأـمـرـ مـنـ الإـسـپـانـ إـلـىـ الـمـحـافـظـةـ عـلـىـ مـاـ يـبـقـيـ مـنـ هـذـاـ القـصـرـ السـاحـرـ بـعـدـ أـنـ قـيـلـ لـأـهـلـ غـرـنـاطـةـ،ـ غـيرـ مـرـةـ،ـ إـنـهـ يـمـلـكـونـ بـهـ إـحـدـىـ الـعـجـائـبـ الـتـيـ تـجـلـبـ إـلـيـهـ السـيـاحـ مـنـ كـلـ جـانـبـ،ـ فـأـزـيلـ شـيـءـ مـنـ الـكـلـسـ الـذـيـ سـُـرـتـ بـهـ تـلـكـ النـقـوشـ الـعـرـبـيـّـةـ،ـ وـبـدـئـ بـالـتـرـمـيمـ،ـ وـالـإـسـپـانـ عـامـلـونـ عـلـىـ ذـلـكـ بـيـطـءـ لـعـدـمـ وـجـودـ عـمـالـ فـيـ إـسـپـانـيـّـةـ قـادـرـيـنـ عـلـىـ إـنـجـازـ هـذـاـ التـرـمـيمـ الـذـيـ يـسـهـلـ أـمـرـهـ عـنـدـ الـنـظـرـ إـلـىـ النـماـذـجـ.

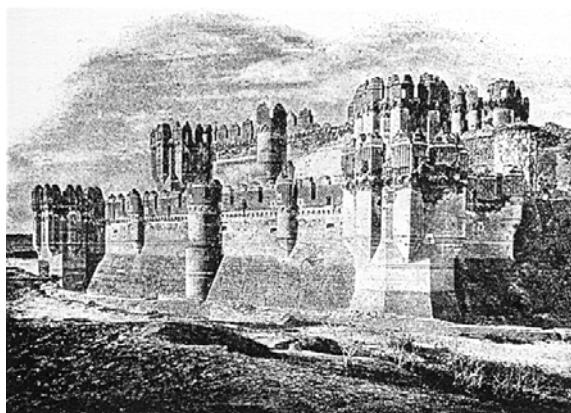
وـيـرـىـ بـجـانـبـ الـحـمـراءـ قـصـرـ عـرـبـيـّـ آخرـ يـسـمـيـ جـنـةـ الـعـرـيفـ،ـ وـقـدـ بـالـغـ الإـسـپـانـ فـيـ تـكـلـيـسـ جـدـرـانـ هـذـاـ القـصـرـ،ـ فـصـرـتـ لـاـ تـسـتـطـيـعـ أـنـ تـمـثـلـ حـالـتـهـ الـأـوـلـيـ،ـ وـصـارـ لـاـ يـسـتـحقـ الـحـمـاسـةـ الـتـيـ يـصـفـهـ بـهـ مـُـطـوـفـوـ السـيـاحـ خـلاـ روـضـتـهـ.

وـأـمـاـ مـدـيـنـةـ غـرـنـاطـةـ فـلـاـ أـنـصـحـ أـحـدـاـ بـأـنـ يـزـورـهـاـ بـعـدـ أـنـ وـصـفـهـ شـعـرـاءـ الـعـربـ بـأـنـهـ أـنـضـرـ مـدـيـنـةـ تـنـالـهـاـ أـشـعـةـ الـشـمـسـ وـبـأـنـهـ دـمـشـقـ الـأـنـدـلـسـ.

وـلـاـ أـقـدـرـ أـنـ أـصـفـ الـحـالـ الـتـيـ كـانـتـ عـلـيـهـ غـرـنـاطـةـ فـيـمـاـ مـضـيـ،ـ وـلـكـنـ غـرـنـاطـةـ الـحـدـيـثـةـ لـمـ تـكـنـ سـوـىـ قـرـيـةـ كـبـيـرـةـ كـثـيـبـةـ قـذـرـةـ لـيـسـ فـيـهـاـ مـاـ يـجـدـرـ ذـكـرـهـ غـيـرـ كـتـرـائـيـتـهـ



شكل ٢١-٦: قصر شقوبية (من صورة فوتوغرافية).



شكل ٢٢-٦: قصر شقوبية (من صورة فوتوغرافية).

الفخمة وحرائرها، فضلاً عن أنها قائمةٌ على مكان يُعد من أجمل أمكنة العالم، ولم تُبنَ بيتوتها الحديثة على طراز معروف، وأمعنتُ في البحث عن زخارفها التي قصَّ أدباء معاصرُون مشهورون علينا خبرها فلم أجد لها أثراً.

حَقًا لم تكن غرناطة الجديدة سوى مدينة ميتة، ويُعرَفُ أهلها بأنهم من الجهلة الثقلاء البعيدين من القرى، وهي نقىض مدينة أشبيلية التي تُشاهد فيها مسحةٌ من الحياة، والتي تجِدُ فيها من بائعي الكتب ما لا تجده في غرناطة.

أكتفي بذكر ما تقدَّمَ من مباني العرب، فإذا أضفنا إليه قصر شقوبية وبعض الأبنية التي نتكلَّم عنها في الفصل الذي خصَّصناه للبحث في تأثير العرب في أوربة كانت لدينا صورةٌ كافية للآثار العربية الماثلة الآن في إسبانية والتي هي بقايا عصر زاهر، والتي تكفي وحدتها للدلالة على عظمة العرب ولو لم يَنْتَهِ إلينا شيءٌ من علومهم وأدابهم.

هوامش

- (١) لعل المؤلف قصد عشرة آلاف أو اثنى عشر ألفاً؛ فسقطت كلمة «آلاف أو ألف» عند طبع الأصل الفرنسي (المترجم).
- (٢) ختره يختاره خترًا: غدره أصبح الغدر.
- (٣) أهدى ملك إسبانية إلى أحد أمراء الإنكليز ياقوتة حمراء من تلك الجوادر التي سُرقت من الملك العربي، وهي الآن من الجوادر التي يُزَين بها تاج ملكة إنكلترا المصنوع مع الجوادر الملكية الأخرى في «غرفة حل التاج» بلندن، فأتيح لي أن أشاهدها.
- (٤) من المفيد أن نذكر الفرق العظيم بين عدم اكتثار الإسبان لما في بلادهم من التحف الفنية وعبادة الإيطاليين لما احتوت بلادهم من نظائرها، فالسياح الذين زاروا فلورنسة يعلمون أن سكانها يحترمون ما اشتغلت عليه من التماضيل، كتمثال بيرسة وتمثال اختطاف بنات سabin وغيرهما من التماضيل الفريدة القائمة في أحد الميادين العامة. وشاهدت الناس في غرناطة يلتهون يوم الأحد بتكسير نقوش بقايا قصر شارلوكن بما كانوا يرمون عليها من الحجارة، ولما زرت قصر الإسكوريال القائم الذي بناه فليب الثاني، والذي تجلت فيه روح إسبان ذلك الزمن الكئيبة كتجلي روح العرب في الحمراء، استوقف نظري ما رأيت من الكشط في زخارف رواقه، وأنبني حارس القصر أن الناس يصنعون ذلك في كل يوم أحد بعصيهم ومدياهم. وأعتقد أن الذي يقترب مثل هذا العمل في قصر بيتي الفلورنسي يجازى بسلخ جلده حيًّا أو رجمه بلا رحمة مع ما اتصف به

أهل فلورنسة من دماثة الخلق. ومن دواعي السرور أن أصبحت طبقة الإسبان الراقية، على الأقل، تتذوق قليلاً ما في تحف الفن من المعاني، وذلك كما هو واضح من الكتابين المهمين اللذين نُشرا حديثاً في إسبانيا عمما فيها من الآثار القديمة، التي يمكن أن تثير حسد جميع الأمم، وقد أشرت إليهما في مقدمة هذا الكتاب.

الفصل السابع

العرب في صقلية وإيطالية وفرنسا

(١) العرب في صقلية وإيطالية

يدلُّنا درُسُ تاريخ العرب في مختلف الأقطار التي دخلوها على أن لغزواتهم مناحٍ مختلفةً، أي يدلُّنا على أنهم إما أن يكونوا قد أغروا عليها؛ ليستقرُّوا بها نهائًّا، وإما أن يكونوا قد اكتفوا بغزوهم الخاطف لها، فأمّا في الحالة الأولى فقد كان من سياستهم الثابتة أن يكونوا على وثامٍ مع الأهلين المغلوبين، وأن يحترموا دينهم وشرائعهم، وأن يكتفُّوا بأخذ جزية طفيفة منهم كما صنعوا في سوريا ومصر وإسبانيا، وذلك خلافًا لعادة جميع الفاتحين في زمانهم، وأمّا في الحالة الثانية فقد ساروا على سياسة كلٌّ فاتح، فعدُّوا البلاد التي أغروا عليها كإيطالية، وفرنسا على الخصوص، من الفرائس وانتهبوها بسرعةٍ ما وصلت إليه أيديهم منها، وخرَّبوا فيها ما لم يقدِّروا على حمله غير مبالين بسكنها.

وسار العرب على ذينك النجدين في صقلية، فيما أن عدد من أغروا منهم على صقلية وعلى قطعة من إيطالية كان قليلاً وقفوا عند الغزو المؤقت وما ينشأ عنه عادةً من التخريب والنهب وقتل من يقاوم من الأهلين ثم العودة السريعة، ولما تكررت غزواتهم لتلك البلاد وأصابهم فيها من النجاح والتوفيق ما أصابهم رأوا أن يستقرُّوا بها، وأن يُحسِّنُوا سياسة أهلها، ولما رسخت أقدامهم فيها كفُّوا عن عادة نهبها، وأنعموا عليها بنعيم الحضارة، وكان لهم فيها مثلُ ما كان لهم في إسبانيا من الأثر النافع البالغ.

ويمكننا، ببيان هذه الفروق الأساسية في سياسة العرب، إدراكُ تاريخ العرب في مختلف الأقطار التي استولوا عليها، وإيضاحٍ علة اختلاف سياسة العرب أنفسهم في البلدان المجاورة.

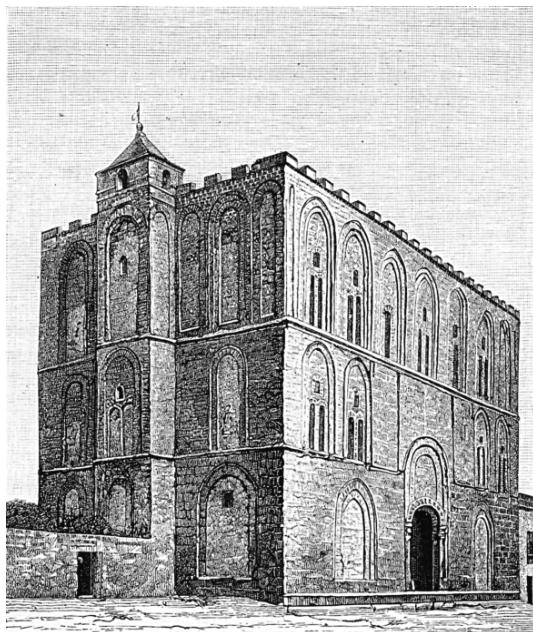
ومسلمو إفريقيية هم الذين غزوا صقلية وإيطالية، وأكثر هؤلاء المسلمين من البربر؛ لما كان من قلة عدد العرب في ذلك الدور، وهؤلاء البربر من أشد الشعوب التي دانت لشريعة الرسول بأساً، وأضعفهم تمدنًا كما ذكرنا.

وأغار العرب على صقلية وجزر البحر المتوسط بضع مرات منذ القرن الأول من الهجرة، ولم يحاول العرب الاستيلاء على صقلية جديًا إلا في أوائل القرن الثالث من الهجرة حين استقل شمال إفريقيية عن خلافة المشرق، وحين حدث ما شجّعهم على ذلك. وكانت جزيرة صقلية من أعمال حكومة بزنطة، وكانت حكومة بزنطة ترسل إليها حكامًا ليمارسو السلطة فيها، وما حدث أن عهد إلى أمير البحر أوفيميوس (فيمي) في الدفاع عنها، وأن علم أوفيميوس أن قيصر بزنطة أمر بقتله، وأن قتل أوفيميوس حاكم صقلية ونصب نفسه أميرًا عليها، وأن ثار أهلها عليه ففرَّ إلى إفريقيية طالبًا حماية المسلمين، وأن عاد إلى صقلية مع جيش من المسلمين لم يلبث أن سار على حساب نفسه، فأقامَ فتح صقلية بدخوله بِلَرْمَ بعد وقائع دامت بضع سنين (٢١٧ هـ / ٢١٧ م).).

ولم يقتصر العرب، بمقاتلتهم الروم، على غزو صقلية، فقد استولوا على جنوب إيطالية أيضًا، وبلغوا في تقدمهم ضواحي روما، وأحرقوا كنيسة القديس بطرس وكنيسة القديس بولس اللتين كانتا قائمتين خارج أسوار روما، ولم يرجعوا عنها إلا بعد أن وُعدُهم البابا يوحنا الثامن بدفع جزية إليهم، واستولى العرب على مدينة برنديزى الواقعَة على شاطئ البحر الأدرياتي ومدينة تارانت، وأغاروا على دوكية بِنِيقَتْنَتْ، وصاروا سادة البحر المطلين بفتحهم صقلية وأهم جزر إيطالية وقورسقة وقندية (الخندق) ومالطة وجميع جزر البحر المتوسط، ولم يسع البندقية إزاء ذلك إلا أن تعدل عن محاربتهم لتطويل زمن.

والنورمانُ هم الذين قضوا على سلطان العرب السياسي في صقلية في القرن الحادي عشر من الميلاد، وداومَ العرب، بعد زوال سيادتهم، على القيام برسالتهم الثقافية فيها كبير وقت، وذلك أن ملوك النورمان، إذ كانوا من الذكاء ما يستطيعون أن يدركوا به تفوقَ العرب العظيم استندوا إلى العرب؛ فظل نفوذ أتباع الرسول في أيامهم بالغاً.

وإذ كان لتاريخ النورمان صلة وثيقة بتاريخ العرب في صقليةرأيتُ أن أحدهُ عن وقائدهم بإيجاز لفهم تاريخ حضارة العرب فيها، ومن المفيد أيضًا أن أذكر أسلوب الحرب في ذلك الزمن، وأن أُبَيِّنَ أعمال التخريب، التي لام مؤرخو اللاتين العرب عليها، هي مما كان يستبيحه مقاتلو جميع الأمم.



شكل ٧-١: مقدم قصر العزيزة العربية في صقلية (من صورة فوتوغرافية).

نَوْءُ الأحوال التي ساقت النورمان من أمكنة بعيدة إلى فتح صقلية من غيرب
الحوادث، وذلك أن كَوْكبة من فرسان الفرنج والنورمان كانت قادمة، حوالي سنة
١٠١٥م، من بيت المقدس إلى جنوب إيطاليةلتزور، وفَقَ العادة، غار جبل غورغانو
الذى اشتهر بظهور الملك ميكائيل فيه، وأن كونت أقيلينو، روفريد، لما علم ذلك استتجد
بهم للدفاع عن ساليرم التي كان العرب يحاصرونها، وأنهم استطاعوا أن يدخلوها، وأن
يُشُدُّوا عزائم أهلها الذين لم يلبثوا أن فُكُوا الحصار وهزموا العرب، وأن أهل ساليرم
وأميرهم فرحوا بذلك، ودارت الحمية في رؤوسهم، فأجزلوا عطاء أولئك الغرباء، ودعوهם
إلى الإقامة بين ظهْرَائِيهِم.

ومع أن أولئك الحجاج لم يرضاوا بذلك لرغبتهم في رؤية وطنهم مرة ثانية وعدوا
بأن يبعثوا إليهم فتياناً منهم للدفاع عن النصرانية ببسالة، ثم توجهوا إلى وطنهم الذي

كانوا في أشد الشوق إليه، وأخذوا معهم من الهدايا نسائج ثمينةً وحُللاً فاخرة وسروجاً ذهبية وفضية زاهية، وما لم تعرفه فرنسة قبل ذلك الزمن من البرتقال الناضج، فاصدين بذلك أن يرى بنو قومهم تلك المنتجات، وأن يتشوّقوا إلى زيارة ذلك القطر الذي يُنْتج مثلاً.

ولم يكِد أولئك الفرسان النورمان يصلون إلى وطنهم حتى أخذوا يقصُّون على أهله من الأبناء ما ألهبوا به حميّتهم، وما دفعوا به عدداً كبيراً منهم إلى غزو صقلية.

ذلك هو سبب غارة النورمان الذين كان هُمُّهم مصروفًا إلى النهب على حسب عادة ذلك الزمان أكثر مما هو مصروف إلى الدفاع عن دينهم، والذين تساوى الأغارقة والإيطاليون والعرب في نظرهم فصاروا يسلّبون هؤلاء جميعاً بنشاط، والذين عدوا في خمسين سنة، أي حتى تم لهم الفتح، جزيرة صقلية وما جاورها من إيطالية بلادًا مباركةً يمكن الاغتناء فيها بسهولة.

ولم ينشأ عن أعمال حُمَّاة الدين من النورمان سوى تخريب تلك البلاد بسرعة، ولم يلبث أهلوها أن اعترفوا بأن صداقه فرسان النورمان أشدُّ وقراً من عداوة العرب، فاستغاثوا بالبابا لينقذهم من النورمان، ولم يُجد إنذار البابا للنورمان نفعاً، فأرسل إلى قيسر القسطنطينية كتاباً يدلّنا على سوء معاملة جيش نصراني في ذلك الزمان لبلاد صديقة استولى عليها.

وإليك كتاب البابا ليون التاسع الذي بعث به إلى قيسر القسطنطينية:

يكاد قلبي يتقطّر من الأخبار المحزنة التي أنبأني بها رُسُل أبني أرجيروس، فعزمتُ على تطهير إيطالية من ظلم هؤلاء الأجانب النورمان المردة الأشرار، الزنادقة الذين لا يحترمون شيئاً عند اندفاعهم، والذين يذبحون النصارى، ويسيّونهم أشد العذاب غير راحمين ولا مفرقوين بين الجنسين والأعمار، والذين ينهبون الكنائس ويحرقونها وبيهدمونها، والذين يعدون كلّ شيء فريسةً بِيُباح سلباً، والذين أكثروا من لومهم على فسادهم، ومن إنذارهم بسوء حكمي، وخوّفthem من سخط الرب، فلم يزدهم ذلك إلا عتواً، فكان أمرهم كقول الحكيم: إن من يتركه الربُّ يظل خبيثاً على الدوام، وإن من يكون مجنوناً لا يُصلحه الكلام، ولهذا فقد عزمت على شهر الحرب الدينية المشروعة على هؤلاء الغرباء الثقلاء الذين أمعنا في الظلم وصار أمرهم لا يُطاق، وهذا دفاعاً عن الشعوب والكنائس.

وإذ لم ينل البابا ليون التاسع أية مساعدة من قيصر الروم سعى إلى عقد حلف ضدّ النورمان، وخطب الألماَن في ذلك، ورأى الأسقفُ أيشتنات عاراً في قيادة البابا لجيش يحارب به النصارى، ومنع ملك جرمانية، هنري الثالث، من الانضمام إليه، هنالك جمع البابا جيشاً أكثر عدداً من الجيش النورماني، وهجم على النورمان بصولةٍ متوكلاً على الرب فكسر وأسر، وهنالك حاول البابا أن يستعطف قاهريه فاسترد حرماته إياهم ومنهم البركة، ولم يؤثِّر هذا في مشاعر النورمان، ولم يُسرِّحوه إلا بعد سنة، وبعد أن أخذوا عليه العهود والمواثيق الغليظة.

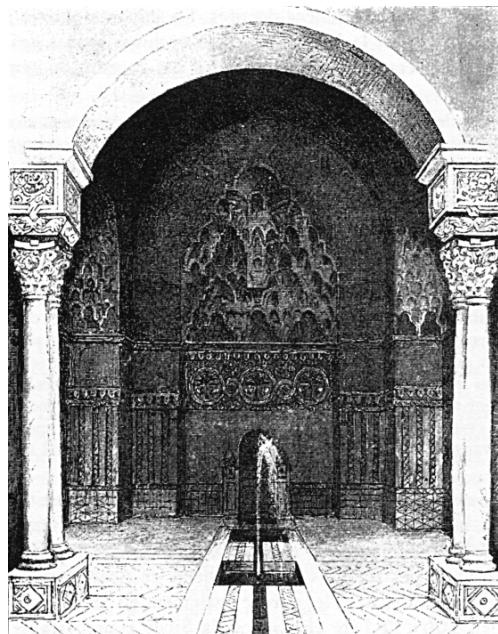
وداوم النورمان، الذين خلا لهم الجوًّ بذلك على اقتراف جرائم النهب عمدًا في صقلية وإيطالية، ودام النزاع بين الحاكمين والمُحْكَمِين زمناً طويلاً، وتعوده الأهلون، وصاروا يألفون ما يقع كل يوم من حوادث السلب والقتل التي قصَّ المؤرخون خبر كثير منها كما لو كان ذلك من الواقع اليومية التي لا أهمية لها، ومن ذلك أن فرسان النورمان كانوا يفاجئون الأديار السيدة التحسين، ويسلبون كل ما فيها، ويقررون بطون رهبانها على بكرة أبيهم خشية الفضيحة، وأن الرهبان من ناحيتهم كانوا يتغفلون بعض أولئك الفرسان بين حين وآخر فينتقمون منهم أشد الانتقام.

وتاريخ اللاتين حافل بوصف أنباء تلك المجاملات المقابلة، ومن بين ألف حادثة منها اختار الخبر الآتي الذي اطلع عليه مسيو دُولَپِريِّمُودِيرِي في وثائق رهبان جبل كاسينو للدلالة على طبائع أهل ذلك الزمن:

صَعِدَ الكونت رادُلفُ في جبل كاسينو ذات يوم، وكان معه خمسة عشر نورمانيًّا، فترك هؤلاء النورمان، على حسب العادة، أسلحتهم وخيوطهم عند باب الدير الذي دخلوه للصلوة، وبينما كان هؤلاء النورمان جُثِّيًّا أمام هيكل القديس «بنوا» أغلق الرهبان أبواب الدير من فورهم، وقبضوا على تلك الأسلحة والخيول، ودقوا التواقيس إيذاناً بالخطر، فتدفقَّ أنصار الدير كالسيل، وهجموا على هؤلاء النورمان الذين لم يبق لهم ما يدفعون به عن أنفسهم سوى السُّبُّحات التي كانت بأيديهم.

وذهب عبَّاً ما تضرَّعوا به لاحترام ذلك المكان المقدس الذي لم يحدث أن احترموا أمثاله، وذهب عبَّاً قسمُهم إنهم لم يدخلوا الدير إلا للعبادة وللاتفاق مع رئيسه، فقد جعل الرهبان أصحابهم في آذانهم، ولم يرضوا أن يُضيِّعوا ما سمح لهم من فرصة الانتقام، وقد قُتل أصحاب الكونت الخمسة عشر، ولم

ينجُ الكوٽة نفْسُه من القتل إلٰا بفضل شفاعة رئيس الدير الذي اهتبَ هذه الفرصة فأعاد إلى الدير ما كان هذا الكوٽة قد اغتصبَه من الأُملاك والأموال، وقصرُ القديس أندره وحده هو الذي حاول المقاومة.



شكل ٢-٧: داخل قصر العزيزة في صقلية (من تصوير جيرول دوبرانجا).

واستمر النورمان على نهب صقلية إلى أن فكر رئيس ماهر من رؤسائهم، اسمه روجر، في فتحها بحزم، والفرصة كانت سانحة لتحقيق ذلك. وكان الانقسام يأكل المسلمين، وكان ما بين العرب والبربر من المنافسة يقودهما إلى الهلاك في صقلية كما كان يقودهما إليه في إسبانيا، وكانت صقلية في ذلك الزمن، أي في سنة ١٠٦١م، مجزأة إلى إمارات الخمس: بلرم ومسينة وقطانية وأطربانش

وجريدة، وأطلق المؤرخون لقب ملك على أمير بلرم، ولكن هذا الملك كان يقتل هو والأمراء المسلمين الآخرون مع استيلاء النورمان على نصف جزيرة صقلية.

وجعل انقسام العرب في صقلية فتح النورمان لها من المكبات، وتم استيلاء النورمان عليها بدخولهم بلرم سنة ١٠٧٢م، فأفل نجم العرب السياسي عن صقلية في تلك السنة، وإن دام تأثيرهم الثقافي بعدها زمناً طويلاً بفضل دراية روجر وخلفائه.

وبدا روجر الأول، الذي نوّي به أميراً على صقلية، منظماً قديراً كما بد مقاتلاً شجاعاً، ويجب عده من أعظم رجال زمنه، ويستحق ابنه خلفه مثل هذا المديح.

وكانت حضارة العرب زاهرة في صقلية حين فتحها النورمان، وأدرك روجر وخلفاؤه أفضليّة أتباع النبي؛ فانتحلوا نُظُمهم، وشاملوهم برعايتهم، وتَمَّت صقلية برخاء دام إلى أن قبض ملوك من السُّوَّاب على زمامها في سنة ١١٩٤م فأجلوا العرب عنها.

وكان يسكن صقلية، بينما نَظَّمَ روجر أمورها، خمسة شعوب ذات لغات وعادات مختلفة، وهي: الفرنج (النورمان ولا سيما البريتان) والأغارة واللنبار واليهود والعرب، وكان لكلٍّ من هذه الشعوب شريعة خاصة، أي كان الأغارة يعملون بقانون جوستينيان، واللنبار يعملون بالفقه(lnbari)، والنورمان يعملون بالفقه الفرنجي، والعرب يعملون بالقرآن، وكان لا بد من يريد أن يُحسن سياسة هذه الشعوب المختلفة من التحليل بروح التسامح والعدل والإنصاف، وكان العرب يدركون ذلك فجاء روجر فأدركه أيضاً، وكانت إمامـة الثقافة والصناعة للمسلمين، فأخذ روجر يحافظ عليهم أحسن المحافظة، وكانت مراسيم روجر تُكتب بالعربية واليونانية واللاتينية، وكان نصف الكتابة في دائرة نقوده بالعربية والنصف الآخر باليونانية أو اللاتينية، وكان بعضها يشتمل على رمز المسيح، وبعض منها يشتمل على رمز محمد، وبعض آخر يشتمل على كلا الرمزيـن.

وسار خلفاء روجر على سُنته، ومنهم غليوم الثاني الذي درس لغة العرب، وكان يرجع إليهم في أهم شؤونه، وكانوا يقابلون عطفه بإخلاصهم له، فينضوون إليه ويساعدونه على إطفاء ما يقع من الفتـن.

وروى مؤرخو العرب أن عدد العرب في صقلية أصبح كثيراً في سنة ١١٨٤م، أي بعد قرن من ذلك الفتح، وأنه كان لهم في بلرم أحياً واسعة ومساجد كثيرة وأئمة وقاضٍ للفصل في خصوماتهم، وأزهـر بلاط ملوك النورمان في صقلية بفضل العرب، وبالـغ أبو الفداء في تقديره؛ فشبـهـه بـبـلاطـ الخـلـفـاءـ فيـ بـغـدارـ، وـبـبـلاطـ الخـلـفـاءـ فيـ القـاهـرـةـ.

(٢) حضارة العرب في صقلية

إن المصادر التي يُرجع إليها في تصوير حضارة العرب في صقلية قليلة، وليس لدينا منها غير ما هو مبعثر في كتب المؤرخين من الفقر، وقليل من المباني التي لم تزلها يد التخريب، وبعض النقود، وتكتفي هذه المصادر، مع ذلك، لإثبات أن حضارة العرب كانت في صقلية على شيء من التقدم، وإن لم تكن مثل ما كانت عليه في مصر وإسبانيا، وأن صقلية كانت حين جلاء العرب عنها أرقى ثقافةً وصناعةً واجتماعياً منها حين دخلوها، ونحن إذا علمنا أن قيمة تأثير إحدى الأمم في أمّة أخرى من ناحية الحضارة تُقدّر بمقدار نهوضها بها وإصلاحها لها رأينا أنه كان للعرب تأثير عظيم في صقلية.

وعقب دور تنظيم العرب لصقلية دور فتحهم لها، فقسمَ العرب صقلية إلى ثلاثة ولايات بعد أن كانت مقسومة، منذ زمن القرطاجيين إلى الولايات: بلزم وسرقوسة، فكان تقسيم العرب لها إلى ثلاثة ولايات أكثر ملائمةً لجغرافيتها، وكان على رأس كل واحدة من هذه الولايات الثالث والي، وكانت كل ولاية مقسمةً إلى عدة أعمال، وكان يقوم بشؤون كل واحد من هذه الأعمال قائداً تابع للولي، وكان يقيم بلزم مفتٍ، وكان يقيم بكل ناحية قاضٍ ومسجلٍ، وكان في كل مدينة جابٍ، وكان يُشرف على إدارة أمور المال والمحاسبة ديوانٌ كبير.

وتُرك لنصارى صقلية كلُّ ما لا يمسُّ النظام العام، فكان للنصارى، كما في زمن الروم، قوانينهم المدنية والدينية وحكامُ منهم للفصل في خصوماتهم وجباية الجزية السنوية التي فرضها العرب عليهم، وهي ٤٨ ديناراً عن كل غنيٍ، و٢٤ ديناراً عن كل موسر، و١٢ ديناراً عن كل من يكسب عيشه بنفسه، وكانت هذه الجزية، التي هي دون ما كان يأخذ الروم، لا تؤخذ من رجال الدين والنساء والأولاد.

وجعل العرب كلَّ ما له علاقة بالحقوق المدنية، كالملك والإرث وما إليهما، ملائماً لعادات صقلية، ولم يرغب النورمانُ عنه حين استولوا عليها.

وسمح العرب، في أيام سلطانهم، للنصارى بالمحافظة على قوانينهم وعاداتهم وحريتهم الدينية، وقد روى الدومينيكيُّ كواردين، وكان رئيساً لدير القدس كاترين في بلزم، أن القساوسة كانوا أحرازاً في الخروج لبسين حُلّهم الدينية ليناولوا المرضى القربان الأقدس، وقد روى الأب مورُّ كولي أنه كان يُنصب في الحفلات العامة بمَسْيَنة رايتان: إداهاما إسلامية وعليها صورة برجٍ أسود في حقل أخضر، والأخرى نصرانية وعليها صورة صليب مذهبٍ في حقل أحمر، ولم يمسَّ العرب الكنائس القائمة في صقلية



شكل ٣-٧: جزئيات إحدى وجهات قصر القبة العربي في صقلية (من صورة فوتوغرافية).

حين فتحهم لها، وإن لم يأذنوا لهم في بناء كنائس جديدة فيها كما كانوا يأذنون لنصارى إسبانيا.

ولم تكد أقدام العرب تَرْسُخ في صقلية حتى أقبلوا على الزراعة والصناعة، فانتسلوهما بسرعة من الانحطاط الذي كانتا فيه، وأدخلوا إلى صقلية زراعة القطن وقصب السكر والدردار^١ والزيتون، وحفروا فيها التُّرُع والقنوات التي لا تزال باقية، وأنشأوا فيها المجاري المعقوفة التي كانت مجهولة قبلهم.

وتقدمت الصناعة في صقلية بفضل العرب، واستغلّ عربُ صقلية ثروتها الطبيعية، واستخرجوا منها الفضة والحديد والنحاس والكبريت والرخام والغرانيت ... إلخ، بأساليب فنية، وأدخلوا إليها صنع الحرير، ومما يُرى في نور نبرغ رداءً من الحرير كان



شكل ٧-٤: نقود نصرانية عربية للملوك النورمان في صقلية.

يلبسه ملوك صقلية مُطَرَّزاً بكتابات كوفية مع تاريخ سنة ٥٢٠ هـ / ١١٣٣ م، ويحمل كل شيء على القول بانتشار فن صباغة المنسوجات في أوربة من صقلية.

وانتعشت التجارة، واتسع نطاقها أيام العرب بعد أن كانت صفرأً، تقربياً، قبلهم كما يدلُّ على ذلك ما انتهى إلينا من جداول مكوسهم التي أدرجت فيما نظمَه النورمان من القوائم في أوائل الفتح فتثبت درجة تَحْوُل تجارة صقلية حين هذا الفتح.

ولم يبقَ من المباني الإسلامية في صقلية سوى عدد قليل، وأشهرُ هذه المباني قصرُ العزيزة وقصرُ القبة القائمان بالقرب من بلرم، وللذان ثبت بهما أنه لم يكن من المبالغة ما رواه المؤرخون عن فخامة مباني العرب في صقلية، فعن هذه المباني المزينة بالرخام الثمين والفصيقات الزاهرة والمحاطة بأجمل الرياض تكلَّم الراهب ثيودوز والعالم الجغرافي الإدريسي مع الإعجاب، والراهب ثيودوز هذا أُسِرَ في أثناء حصار سرقوسة في سنة ٨٧٨ م، ونُقلَ إلى بلرم، وامتدح قصور هذه المدينة المهمة ومساجدها وضواحيها.

واسمع في وصف بلرم ما قاله العالم الجغرافيُّ العربيُّ الإدريسيُّ الذي أَلَّفَ كتاب رحلته الكبير في بلرم في عهد الملك روجر الثاني أي بعد الفتح النصراني بزمن قليل:

بلرم هي المدينة السَّنِيَّة العظمى، والملحة البهية الكبرى، والمِنْبَرُ الأعظمُ الأعلى، عَلَمُ بلادِ الدنيا، وإليها في المفاخر النهاية القصوى، ذاتُ المحسنِ الشَّرائِفِ، ودارُ الملك في الزمانِ المؤتفِ والسالِفِ، ومنها كانتُ الأساطيلُ والجيوشُ تغدو للغزو وتتروح كما هي عليه الآن من ذلك، وهي على ساحلِ البحرِ في الجانب الغربيِ والجبالِ الشواهدِ العظامِ محدقةً بها، وساحلُها بهجٌ مُشرقٌ فَرْجٌ، ولها حسنُ المباني التي سارتُ الركبانُ بنشرِ محسناتها في بناءِها ودقائقِ صناعاتها وبدائعِ مخترعاتها، وهي على قسمين: قصرٌ وربضٌ، فالقصرُ هو القصرُ القديم المشهورُ فخرُه في كل بلدٍ وإقليمٍ، وهو في ذاته على ثلاثة أسمطَة؛ السُّمَاطُ الأوسطُ يشتملُ على قصورٍ متيبةٍ، ومتنازلٍ شامخةٍ شريفةٍ، وكثيرٌ من المساجد والفنادق والحمامات وحوانيت التجار الكبار، والسماطان الباقيان فيهما أيضًا قصورٌ سامية، وبمبانٍ فاخرةٍ عاليةٍ، وبهما من الفنادق والحمامات كثيرٌ، وبهما الجامعُ الأعظمُ الذي كان بيعةً^٢ في الزَّمنِ الأقدمِ، وأعيدَ في هذه المرة على حالته في سالفِ الزمانِ، وصفته الآن تعزبُ عن الأذهانِ، لبديعِ ما فيه من الصنعةِ والغرائبِ المفعولةِ المنتخبةِ المختارةِ، ومن أصنافِ التصاویر وأجناسِ التزويقِ والكتاباتِ، وأما الرَّبضُ؛ فمدينةُ أخرى تُحِدِّقُ بالمدينةِ من جميعِ جهاتها، وبه المدينةُ القديمةُ المسماةُ بالخالصةِ التي كان بها سُكُنَى السلطانِ والخاصَةِ في أيامِ المسلمينِ، وبابُ البحرِ ودارُ الصناعةِ التي هي للإنساءِ، والمياهُ بجميعِ جهاتِ مدينةِ صقليةِ مختربةٍ، وعيونها جارية متداقةٌ، وفاوكيها كثيرةٌ، وبمبانيها ومتنزَّهاتها حسنةٌ، تُعْجزُ الواصفينِ، وتبهرُ عقولَ العارفينِ، وهي بالجملة فنطةُ للناظرينِ، والقصرُ المذكورُ من أكبرِ القصورِ منعةً وأعلاها رفعَةً، لا ينالُ بقتالِه، ولا يُطاقُ على حالِه، وبأعلاه حصنٌ محدثٌ للملك المعظم رجار مبنيٌ بالفصوصِ الجافيةِ والحجارةِ المنحوتةِ الضخمةِ، وقد أحكم نَسَقُه وأعليتْ رُقْعَهُ، وأوثقتْ مناورهِ ومحارسهِ، وأنقنتْ قصورهِ ومجالسهِ، وشيدتْ بنياناً ونمُّقتْ بأعجبِ المغترباتِ، وأودعتْ بدائعِ الصفاتِ، فشهدَ لها بالفضلِ المسافرونِ، وغلا في وصفها الم gioّلون، وقطعوا قَطْعاً أنَّ لا مباني أَعْجَبُ من مبانيِ المدينةِ، ولا مَكَانٌ أَشْرَفُ من مغانيها، وأنَّ قصورها مشارفَ

القصور، وأن دورها منازٌة الدور، والرَّبِيعُ المُحْدَق بالقصر القديم المتقدم ذِكره هو في ذاته كبير القطر كثير الفنادق والديار والحمامات والحوانيت والأسواق، وله سورٌ يحيط به وخندقٌ وفصيل، وله في داخله، بساتين كثيرة ومتنزهات عجيبة وسقيايات ماء عذبة جارية مجلوبة إليها من الجبال المحدقة ببقعاتها، وبخارج الربض من الجهة الجنوبية منها نهر عباس، وهو نهر جارٍ عليه جمل من الأرقاء الطاحنة لا يحتاج معها إلى غيرها.

وتفسر إمامه العرب في الفنون والصناعات والعلوم سبب حماية ملوك النورمان لهم، وكان الرهبان يعجبون بحق العرب وإن كانوا يعذون اكتشافاتهم إلى السحر، وإنني أنقل، العبارة الغربية الآتية التي وردت في كتاب تاريخي لاتيني، وذلك من بين العبارات الطريفة الكثيرة التي قيلت في العرب، وذلك للدلالة على رأي أعداء العرب في العرب، قال المؤرخ:

اكتشف الكونت روبرت ويسكارد في إحدى غزواته تمثلاً على عمود رخامٍ متوج بإطار من نحاس منقورة فيه هذه الكلمة: «أُسأكون عند طلوع الشمس من اليوم الأول من شهر مايو صاحبًا لتأج من ذهب»، فلم يستطع أحد أن يدرك مغزاها، ولكنَّه كان عند الكونت روبرت أسيِّرً من عرب صقلية عنده علم الجُّفر، كجميع أبناء هاجر فأخبر الكونت هذا بأنَّ لديه مفتاح ذلك اللغر وبأنَّه يقول له معنى تلك الكلمة إذا أطلق، فوعده الكونت بذلك، فأشار ذلك العربي عليه بأنَّ يحفر حين طلوع الشمس من اليوم الأول من شهر مايو المحلَّ الذي يدلُّ عليه منتهِي ظل ذلك التمثال، فصنع الكونت ما نصَّه به فوْجَدَ كنزاً كبيراً.

(٣) غزو العرب لفرنسا

شن العرب غارات كثيرة على فرنسة بعد فتحهم إسبانيا، ولم يقع ما يدل على أنهم كانوا ي يريدون الإقامة الجدّية بفرنسا، وفسّر هذا بعدم ملاءمة المناطق الباردة لهم.
والحق أن الرخاء كان يصبح حليف العرب في المناطق المعتدلة الجنوبية، وأن العرب استقروا بأقصى، حنوب فرنسة؛ منها طولًا.

وكان يملِكُ بلادَ فرنسة، حين ظهر فيها العربُ في القرن الثامن من الميلاد، أمراً يُعرفون بالملوك الكُسالي، وكانت تأكلها الفوضى الإقطاعية، وكانت مستعدةً لتكون غنيمة لغزاة العرب الذين استولوا على أكثر مدنها الجنوبية بسهولة، ودخل العربُ قرقشونة ونِيم ولِيون وماكون وأوتون ... إلخ، بالتتابع بعد أن فتحوا أربُونة من إقليم لندنوكه، وحاصروا في سنة ٧٢١ م مدينة طُلوشة التي كانت عاصمة أكيتانية على غير جدوى، وانتشر العربُ في جميع وادي الرون وفي دوفينية وبورغنونية.

واستولى العربُ بالتدرج على نصف فرنسة الحاضرة الذي يبدأ من ضفاف نهر اللوار وينتهي إلى مقاطعة فَرْنُش كُونْتُه، ولم يقصد العربُ الاستقرارَ بتلك البلاد، بل اكتفوا باحتلال بعض المراكز المهمة؛ لتكون قواعد يستطيعون أن يشنُوا منها غاراتٍ جديدةً على بعض البقاع حيث يأملُون أن يجدوا ما يغنمُون. وأهم تلك الغارات هي التي كانت بقيادة عبد الرحمن الغافقي فوقَّها شارل مارتل (قارلة) بالقرب من پواتيه سنة ٧٣٢ م.

جمع عبد الرحمن الغافقي جيشاً على شيء من الأهمية في إسبانيا وعبر نهر الغارون، واستولى على بوردو (برديل) على الرغم من دفاع الأكيتان والفالاسكون الذين كان يقودهم دوك أوديس، ثم توجَّه إلى پواتيه فاستغاث دوك أوديس بشارل مارتل الذي كان يُلقبُ بأمير القصر، ويمارس السلطة باسم ملkin ضعيفين من ملوك الميرونجيين في المقاطعتين: أسترازية ونُسْطِرية.

وروى أحد مؤرخي العرب أن كثيراً من سنيورات الفَرْنج اشتکوا إلى شارل مارتل من الأضرار التي أحدثها المسلمون، ومن الخزي الذي يمكن أن يصيب البلاد من جراء دحر أناس غير مدربين، وغير حاملين سلاحاً كافياً؛ لحاربين مجهَّزين بالدروع وبعدة الحرب الكاملة، فأجابهم شارل مارتل قائلاً: «دعوهם يصنعوا ما يشاءون، فهم الآن مستاؤدون، وهم كالسيل الذي يأتي على كل ما يعترضه، وما عندهم من الحماسة والشجاعة يقوم مقام الدروع واللحصون، ولكنهم إذا ما أثقلتهم الغنائم، وطاب لهم المقام بالبيوت الجميلة، وألفوا رفاهية العيش، واستحوذ الطمع على قادتهم، ودب الشقاق في صفوفهم - زحفنا عليهم واثقين من النصر».

أجل، كان رأي شارل مارتل صائباً، غير أن الرُّعب الذي ألقاه العربُ في القلوب كان من الشدة ما تُركوا معه ينهبون البلاد التي قطعواها بدلاً من محاولة وقفهم.



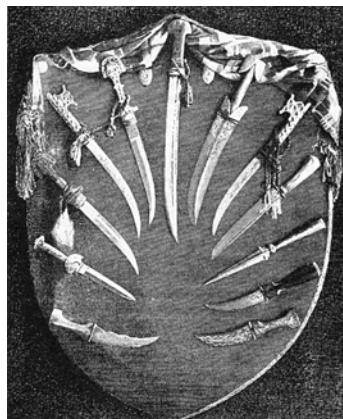
شكل ٥-٧: إبريق عربي مصنوع من البلور في القرن العاشر من الميلاد (متحف اللوفر، صورة أخذت من جريدة الفنون الجميلة).

واستطاع عبد الرحمن الغافقي أن يسير، إذن، متنحراً غير هَيَاب إلى الأمام، وأن يُخْرِبُ الحقول الخصبة الواقعة بين مدينة بوردو ومدينة تور، وأن يأخذ غنائم كثيرةً من المدن، ونحن إذا علمنا أنه لم يكن من عادة العرب أن ينهبوا البلدان التي يرغبون في استطيانها، كما ذكرنا ذلك غير مرة، رأينا أن سلوك عبد الرحمن الغافقي يدل على أنه، بدخوله فرنسة، لم يفكر في غير الغنائم، ويتجّل لنا ذلك عندما نعلم أن العرب، حينما وصلوا إلى مدينة تور، كانوا مُقلين بالغنائم وأنهم لم يستطيعوا التقدم إلا بمشقة، وأن عبد الرحمن الغافقي لما علم زحف شارل مارتل الذي جمع جيشاً من المالك المتحدة تحت لواء كلوفيس فيما سلف، فكر في الارتداد فنزل إلى بواتية واضطر إلى منازلة شارل مارتل الذي كان يَتَعَقَّبُه.

وكان جيش شارل مارتل مؤلفاً من البوغورن والألان والغول، وكان جيش عبد الرحمن الغافقي مؤلفاً من العرب والبربر، وظلت المعركة غير حاسمة بعض اليوم، فلما كان المساء انفصلت فرقاً من جيش الفرنج لتُغير على معسكر المسلمين، فترك المسلمون

ميدان القتال ليحافظوا على غنائمهم، فأسفرت هذه الحركة الخرقاء إلى خسارتهم، فاضطروا إلى القتال متقهقرین إلى الجنوب، وقد تتبعهم شارل مارتل من بعيد، وحاصر أربونة غير موفق، وأخذ ينهب البلاد المجاورة على حسب عادات ذلك الزمن، وحالف أمراء النصارى العرب؛ ليتخلصوا منه، وحملوه على القتال مرتداً.

ولم يلبث المسلمون، بعد أن أفاقوا من تلك الضربة التي أصابهم بها شارل مارتل، أن أخذوا يستردون مراكزهم السابقة، وقد أقاموا بفرنسا قرنين بعد ذلك، وقد سُلم حاكم مرسيلية مقاطعة البروفنس إليهم في سنة ٧٣٧م، واستولوا على الآرل، ودخلوا مقاطعة سان تروييز في سنة ٨٨٩م، ودامت إقامتهم بمقاطعة البروفنس إلى نهاية القرن العاشر من الميلاد، وأوغلوا في مقاطعة القالة وسويسرا سنة ٩٣٥م، وروى بعض المؤرخين أنهم بلغوا مدينة ميس.



شكل ٦-٧: أسلحة عربية صُنعت في مختلف الأزمنة (من صورة فوتografية التقاطها المؤلف).

وتثبت إقامة العرب بفرنسا مدةً تزيد على قرنين بعد شارل مارتل أن النصر الذي أحرزه في بواتييه لم يكن مهمًا كما زعم المؤرخون، ولم يقم إجماع هؤلاء المؤرخين الذين قصوا علينا أن شارل مارتل أنقذ أوربة والنصرانية من العرب على أساس متين كما يبدو لنا، فلم تكن غزوة عبد الرحمن الغافقي سوى حملة قام بها؛ ليُمْوَنْ جنوده، ويمكّنهم

من أخذ مغامن كثيرة، وما كان العرب ليفعلوا أكثر من نهب مدينة تور وبضع مدن أخرى، سواءً انتصر شارل مارتل أو لم ينتصر، وما كان هُم مصروفاً إلى غير العودة بما غنموه على أن يُعيدوا الكَرَّة في سنة أخرى إلى أن يجدوا أمامهم من التحالف ما يدحرهم.

ولم يستطع شارل مارتل أن يطرد العرب من أية مدينة احتلوها عسكرياً، وأضطر شارل مارتل إلى التقهر أمامهم تاركاً لهم ما استولوا عليه من البلدان، والنتيجة المهمة الوحيدة التي أسفرا عنها انتصاره هي أنه جعل العرب أقلَّ جرأةً على غزو شمال فرنسة، ونتيجةً مثل هذه، وإن كانت مفيدةً، لم تكفي لتكبير أهمية انتصار هذا القائد الفرنسي. ويرى المؤرخون الذين يُحسّمون قيمة انتصار شارل مارتل على العرب بالقرب من بواتية أنه لو لا هذا الانتصار؛ لاستمر العرب على غزواتهم، واستولوا على أوربة، ثم يسألون مذعورين عن مصير الشعوب النصرانية لو حَفِقَتْ فوقها راية النبي، قال مسيو هنري مارتني في كتابه عن تاريخ فرنسي الشعب: «لقد تقرر مصير العالم في تلك المعركة، ولو غُلِبَ الفَرَنجُ فيها وكانت الأرض قبضة محمد ... ولخسرت أوربة والدنيا مستقبلاًهما، فليس النشاط الذي يَحْفِزُ الناس إلى التقدم مما تَجِدُه في عقرية المسلمين التي تتلخص في فكرتهم عن الله، وإله المسلمين قد جنح إلى العزلة والسكنون بعد أن خلق العالم، وهو لا يَحْثُ الناس على العمل في سبيل الرقي».

والجواب عن ذلك هو أن النصر لو تمَّ للعرب ما طرأ تبديل على مقادير البلاد، فإذا ما كان العرب غالبين انتهوا بضمِّ مُدُنٍ، على ما يحتمل، زيادةً على المدن التي انتهبوها كما قلنا آنفًا، ثم ارتدوا حاملين غنائمهم إلى ملجاً أمنًّا، ثم عادوا في السنين القادمة إلى سيرتهم الأولى ريثما يلقاءهم عدوًّا قويًّا يدحرُهم كما وُفق له شارل مارتل.

ولكن لنفرض جدلاً أن النصارى عجزوا عن دحر العرب، وأن العرب وجدوا جُوًّا شمال فرنسة غير بارد ولا ماطر كجو إسبانية فطابت لهم الإقامة الدائمة به، فماذا كان يصيب أوربة؟ كان يصيب أوربة النصرانية المتبربرة مثل ما أصاب إسبانيا من الحضارة الظاهرة تحت راية النبي العربي، وكان لا يحدث في أوربة التي تكون قد هُدِّبت ما حدث فيها من الكبائر كالحروب الدينية، وملحمة سان بارتلمي، ومظالم محاكم التفتيش ... وكل ما لم يعرفه المسلمون من الواقع التي ضَرَّجَتْ أوربة بالدماء عدة قرون.

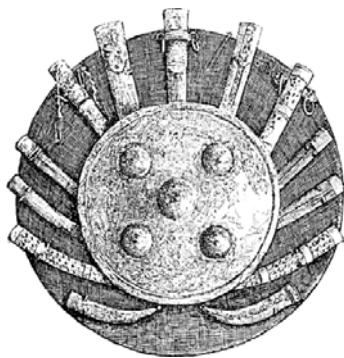
ويجب أن يكون المرء جاهلاً تاريخ حضارة العرب جهلاً مُطْبِقاً؛ ليوافق على ما زعمه ذلك المؤرخ العالم من «أن النشاط الذي يحفز الناس إلى التقدم ليس مما تجده

في عصرية المسلمين»، ومن «أن أوربة والدنيا كانتا تخسران مستقبلاهما»، فمما يعنى مثل هذه ليست مما يقف أمام سلطان النقد عندما يعلم أن التمدن الاعلامي حل بالبلاد التي خضعت لأتبع الرسول محل الهجمة، وأن النشاط الذي يحفز الإنسان إلى التقدم لم يكن قوياً في أمّة مثل قوته في العرب.

ولم يكن احتلال العرب لجنوب فرنسة عدة قرون غير ذي أثر ضعيف، فبما أن المدن التي استولوا عليها في جنوب فرنسة من القواعد الحربية التي كانوا يستندون إليها في غاراتهم لم يبالوا بتدميرها، ولم يكن لهم في جنوب فرنسة مراكز مهمة للحضارة كما اتفق لهم في إسبانيا وببلاد المشرق.

ومع أن إقامة العرب بفرنسا نشأت عن بعض السرايا نراهم قد تركوا أثرا عميقاً في اللغة وفي الدم كما نذكر ذلك في فصل آخر، وذلك أنه استقرَّ أنسُ كثيرون منهم بالأراضين القريبة من المدن التي استولوا عليها وتعاطوا فيها أمور الزراعة والصناعة، وأنهم أدخلوا صناعة البُسط إلى أبوسون، وأنهم أدخلوا كثيراً من أساليب الفلاحة كما عزى إليهم، وأنهم امتهنوا بسكان البلاد بسبب محالفاتهم الكثيرة لأمراء النصارى الإقطاعيين المتقاعدين على الدوام، وأنه وجد حفدةً للعرب في أماكن كثيرة من بلاد فرنسة كالمناطق: كروز والألب الأعلى ومونتمور (جبل المغاربة) وبينيو (شارانت) وبعض قرى لاند وروسيون ولندوكوه وبيارن كما أثبت ذلك علمُ وصف الإنسان، فيمكن الإنسان أن يعرفهم بجلودهم السمر وشعورهم السود وأنوفهم القُنُو وعيونهم الثاقبة اللامعة، ويمكن المرء أن يعرف نسائهم بألوانهن الزيتية ووجوههن الأسئلة وأعينهن التُّجل الدُّاعج وحواجبهن الزُّج وصدرهن الناهدة ... إلخ، وإذا كانت هذه الصفات قد ظلت باقية فلم تمح بغرتها في صفات السكان المجاورين، تبعاً للسنن الإنترنيولوجية التي بيناها، فلأن حفدة العرب أولئك أَفْلَوا جماعاتٍ صغيرةً منفصلةً عن بقية الأهلين غير متصلة بهم بصلات التوأد.

انتهينا من تاريخ العرب في مختلف الأقطار التي دانت للإسلام، وعلمنا درجة اختلاف هذا التاريخ باختلاف البيئات التي أقاموا بها وبحسب مقاصدهم من الاستيلاء عليها، ورأينا أنهم ذووا أثر بالغ في تمدين الأقطار التي خضعت لهم خلا فرنسة على ما يحتمل، وأن كل بلد حفَّت فوقه راية النبي تحول بسرعة، فازدهرت فيه العلوم والفنون والأدب والصناعة والزراعة أيماء ازدهار.



شكل ٧-٧: قرب عربية (من صورة فوتوغرافية التقاطها المؤلف).

ولندَع جانِبًا ببياننا المجمل الذي اقتصرنا عليه حتى الآن، ولنبذأ بتفصيل تاريخ حضارة العرب ودرس مبتكراتهم في مختلف المعارف البشرية التي زاولوها، فمهما يكن تاريخ إحدى الأمم السياسي مبهماً أو زاهراً، فإن شأن هذه الأمة الحقيقي في العالم يُقاس باكتشافاتها وتأثيرها في ميدان الحضارة.

هوامش

- (١) الدردار: شجر عظيم له زهر أصفر، وورق شائك، وثمر كقرون الدفل.
- (٢) البيعة: معبد النصارى.

الفصل الثامن

اصطراع النصرانية والإسلام

الحروب الصليبية

(١) منشأ الحروب الصليبية

كان سلطان العرب السياسي في أواخر القرن الحادى عشر من الميلاد، أي في الدور الأول من الحروب الصليبية، في طور الانحطاط، وإن لم يذُو نفوذ اسمهم في العالم، فقد كانت إفريقية وإسبانية قبضتهم، ولم يتقادم بعدُ الزمن الذي كانوا فيه سادة البحر المتوسط وسادة جزء من فرنسة وملوكًا لصقلية، والذي أوغلوا فيه حتى رومة فأكروا البابا على دفع جزية إليهم، ولم يصل قياصرة الرومان في إبان مجدهم إلى ما وصل إليه اسم محمد من إلقاء الرعب في برابرة أوربة، فهجوم أوربة النصرانية على الإسلام الذي كانت فرائص العالم ترتجف فرقًا منه منذ خمسة قرون، وذلك في عقر داره، من الأعمال العظيمة التي كانت تتطلب حماسة دينية بالغة، واعتمادًا كبيرًا على الله، وجيشًا مؤلفًا من مليون جندي.

وكلُّ يعلم كيف أجاب العالم النصراني دعوة ذلك المذوب، وكيف انقضت أمُّ على الشرق، وكيف أن سُوق تلك الجيوش الهائلة لم يؤدِّ إلى غير نصر وهبيٍّ، وكيف فُلت عزيمة مجاهدي النصارى الذين لم ينقطع سيلهم مُدَّةً قرنين من أجل فتح القدس، والمحافظة عليها أمام هلال الإسلام.

وأصطلاح الناس على تسمية ذلك الصراع بين النصرانية والإسلام بالحروب الصليبية، وكان لتلك الحروب نتائج مهمّة في تاريخ حضارة أوربة العامّ، وليس من الجائز أن

نصّمت عنها إذن في هذا الكتاب الذي لم نقتصر فيه على بيان حضارة العرب وحدها، بل عزمنا فيه على درس تأثيرهم في العالم أيضًا.

ولنُقل كلمة عن حال الغرب والشرق في زمن الحروب الصليبية.

كانت أوربة، ولا سيما فرنسة، في القرن الحادى عشر الذى جُرِدت فيه الحملة الصليبية الأولى في أشد أدوار التاريخ ظلامًا، وكان النظام الإقطاعي يأكل فرنسة، وكانت مملوءة بالحصون التي كان أصحابها، وهم من أنصار البرابة، يقتتلون دائمًا ولا يملكون سوى أناس من العبيد الجُهَّال، ولم يكن في ذلك الحين نفوذٌ شامل لسوى البابا، وكان الناس يخشون البابا أكثر من احترامهم له.

وكانت دولة الروم في الشرق قائمة، وكانت القسطنطينية، مع انحطاطها، عاصمة لدولة كبيرة، وكانت ميدانًا للمنازعات الدينية وأنواع المشاحنات، وكانت تخسر كلَّ يوم جزءًا من أملاكها، فضلًا عن انطفاء سلطانها في إيطالية، وكان كلُّ من بابا رومه وبطريرك بزنطة قد حَرَم الآخر فصار للنصارى كنيستان.

وكان قسمٌ من سوريا تابعًا للترك السلاجوقيين، وكان القسم الآخر تابعًا لسلطانين مصر، ولم يكن الخليفة بيغداد غير شبحٍ، وكانت دولة العرب السياسية في دور الانحلال مع محافظة حضارتهم على سلطانها، ولم يكن الصراع العظيم الذي كان يتمخض عنه العالم، إذن، غير نزاعٌ عظيم بين أقوام من الهمج وحضارٌ تُعد من أرقى الحضارات التي عرفها التاريخ.

وكانت الصلات بين أوربة والشرق مقصورةً على زيارة حجيج النصارى لفلسطين في ذلك الدور، وواظب النصارى على زيارة فلسطين مع زيادةٍ منذ زمن قسطنطين، ولا سيما منذ حَسْنَت العلاقات بين هارون الرشيد وشارلمان.

وزاد عدد زيات النصارى للفلسطين مع الزمن، وكان يتالف من بعض قوافل حجاج النصارى جيشٌ حقيقيٌّ، ومن ذلك أن استصحب الأُبُّ رишارد سبعمائة حاج في سنة ٤٥١٠م، ولم يستطع أن يصل إلى ما هو أبعد من قبرس، ومن ذلك أن رئيس أساقفة مايانس، سيفغروا، وأربعُّ أساقفةٍ يقودون قافلةً من سبعة آلاف حاج في سنة ٦٤٠م ومشتملة على بارونات وفرسان، فحاربت هذه القافلة الأعراب والتركمان.

وما كان يَعْتَدُ زيارات القدس من المصاعد والمطابر أوجب فرض الإيكليروس لها عاذِّين إياها مُكْفِرًا عن أسوأ الجرائم، وما كان عدد أكابر المجرمين قليلاً في ذلك الزمن، وما كان خوف جهنم والشيطان ضئيلاً في نفوس البرابة، فزاد عدد الحجيج

لهذا السبب، وأنت إذا ما عَدَوت بعض المغامرين والآتقياء الْحُمْسِ وجدت أولئك الحجاج مؤلفين، على العموم، من أسفل المجرمين المفظورين على أخطر الجرائم، والذين ما كان غيرُ الفزع من النار ليدفعهم إلى قصد تلك البلاد البعيدة.



شكل ١-٨: باب دمشق في القدس (من صورة فوتوغرافية).

وكان عدد حجيج النصارى يزيد كُلّ يوم، وكان ضجيجهم يزيد على ما كان عليه، وكان التركمان الذين قاموا مقام العرب في سوريا أقل تسامحاً من العرب، فجادل هؤلاء التركمان أولئك النصارى في حقّ المرور من وسط البلاد الإسلامية بلا إذنٍ إيفاءً لزيارة بيت المقدس، وأكرهوا حجيج النصارى على دخول القدس بخشوع بدلاً من أن يسمحوا لهم بدخولها ظافرين على صوت الصُّنُوج وضوء المشاعل كما كان العرب يسمحون به، وأخذوا يحملونهم على دفع الفدّى غير تاركين وسيلة لإيدائهم إلا أثوابها. وحدث أن جاء لزيارة بيت المقدس جندي قديم كان قد تَرَهَّبَ بعد أن طرأ على حياته الروحية ما كَدَرَ صفوه، وكان اسم هذا المجنوب المتعصب النشيط بطرس، فأضاف التاريخ إلى اسمه لقب «الناسك».

واشتاط بطرسُ الناسك غيظاً من سوء ما عومل به في فلسطين، وغاص بطرس الناسك في بحر من الأحلام فرأى أنه مرسل لدعوة أوربة إلى إنجاد الأرض المقدسة. وملكت هذه الأوهام مشاعره فتوجّه إلى روما ليستعين بالبابا، فأذن له البابا أوربان الثاني في دعوة النصارى إلى إنقاذ الأماكن المقدسة، فصار يجوب بلاد إيطالية وفرنسا، ويُلقى الخطب النارية ممزوجةً بالبكاء والعويل وصَبُّ اللعنات على الكافريين، وببعد

الرب للذين يزحفون لإنقاذ قبر المسيح باللغفرة، وتوثّر فصاحته التمثيلية الخيالية في قلوب الجموع، ويُعُدُّ الناس نبيًّا في كل مكان.

ولم تكن الجموع التي ألهبها بطرس الناسك ل تستطيع عمل شيء وحدها، وإنما حدث ما حفظ السنيورات الذين كانوا سادةً للجموع إلى دعم تلك الحركة، وذلك أن قيصر الروم، ألكسيس كومين، الذي كانت دولته تخسر كل يوم قطعةً من أملاكها، استغاث بالبابا وملوك أوربة حينما حاصر الترك القسطنطينية، فأقام ذلك العالم النصراني وأقعده بالإضافة إلى مواضع بطرس الناسك.

ورأى البابا أن يُشجّع تلك الحركة، فعقد في إيطالية مؤتمراً دينياً لم يُسفر عن نتيجة، ثم عقد في سنة ١٠٩٥ م مؤتمراً ثانياً في كليرمون بأوقيان، وحضر بطرس الناسك هذا المؤتمر الأخير، وتحالف المؤتمرون، تلبيةً لدعوه الصارمة وتردد الجموع الهائجة لكلمة: «الربُّ يريد ذلك!» على الزحف إلى فلسطين لإنقاذ قبر الرب مُلصقين الصليبان على أكتافهم، وأجمع المؤتمرون على أن يبدأ بالزحف في عيد انتقال العذراء من السنة القادمة حتى يَجْمَع أولياء الأمور جيشاً كبيراً قادرًا على القيام بذلك.

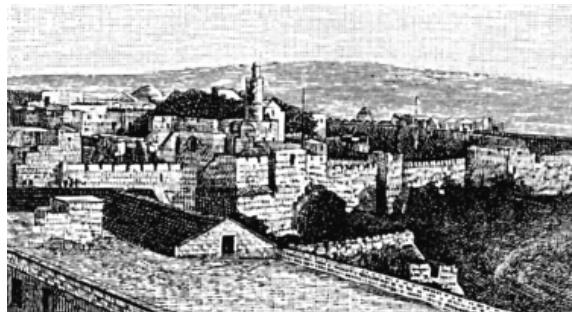
(٢) خلاصة الحروب الصليبية

نشأ عن عزم القوم على غزو فلسطين اشتعال النفوس حميًّا، وصار كل واحد يرجو إصلاح حاله، فضلاً عما يناله في ملوك السماوات، فغدا العبيد يطمعون في فك رقابهم، وغدا أبناء الأسر الذين حُرموا الميراث بسبب نظام البِكْرية والسنيورات الذين كانت قسمتهم ضئلَّاً يطمعون في الافتقاء، وغدا الرهبان الذين أضنتهم حياة الأديار وجميع المحرomin طيب العيش، وكان عددهم كبيراً يُعلّلون أنفسهم بأطيب الأماني.

حقاً لقد أصاب القوم نوبةً حادة من الجنون، فرغب السنيورات والعبيد والرهبان والنساء والأولاد وجميع الناس في الزحف، وأخذ كلُّ امرئ يبيع ما يملك ليتجهَّز، واستعد من الرجال ١٣٠٠٠ مقاتل لغزو فلسطين حالاً.

وكانت تلك النوبة تزيد حدة كلَّ يوم، ولم يرغب الذين يَگروا في انتظار تأليف جيش منظم، وما كاد ربيع سنة ١٠٩٦ م يحل حتى توجهت عصابات كبيرة من كل صوب وحرب إلى نهر الدانوب.

وكانت الحركة شاملةً ما بين بحر الشمال ونهر التَّيْر، وكانت تَجْرُف سكان بعض القرى آخذين ما عندهم من الأموال، وكانت أوربة كلُّها تَنْقَضُ على آسية.



شكل ٢-٨: قسم من أسوار القدس (من صورة فوتوغرافية التقاطها المؤلف).

وكما اقتربت تلك العصابات من هدفها المأمول زادت جنونًا، ودارت المغزاجُ والكرامات في أدمغتها المشتعلة التي طارت منها العقول إلى الأبد.

وكان بطرس الناسك والفارس الفقير غوتيه على رأس أهم العصابات الزاحفة إلى الشرق، وأكْرمت هذه العصابات في البلدان الأوربية التي كانت تمرُّ منها في بدء الأمر، ولكنها لم تَكَ تصل إلى بلغارية حتى التقت بآنس من ضعاف الإيمان أَبوا أن يُضيّقوهم مجانًا، وسأء هذا الرفض الصليبيين، ولم يُحجموا عن اغتصاب ما مُنِعوه، وعن نهب قُرى تلك البلاد وذبح أهلها، ولم يصِر الأهلون على ذلك فأخذوا ينتقمون ويقتلون فريقًا كبيرًا منهم أو يُعرقونه، وجَّدَ الصليبيون في طلب النجاة بسرعة، وببلغوا القسطنطينية ناقصي العدد، ووجدوا فيها عصابات من التوتون والطلابية والغَسْكون والغول والپروْنسيين كانت قد سبقتهم إليها، وهنالك انضمَّ هؤلاء إلى أولئك، وأخذوا يقتلون وينهبون، ويأتون ما يفوق الوصف من الأعمال الوحشية، ويَعِزِّمُ الbizنطيون على التخلص منهم، وينقلونهم بالسفن إلى ما وراء البُسْفور.

وبلغ عدد من سِيقَ من الصليبيين إلى آسية الصغرى على ذلك الوجه مائة ألف، واقترب هؤلاء من الجرائم نحو المسلمين والنصارى ما لا يصدر عن غير المجانين من الأفعال الوحشية، وكان من أحَبَّ ضروب اللهو إليهم قتلُ من يلاقون من الأطفال وقطيعيهم إرباً إرباً وشِيئُهم كما رَوَتْ آن كومنيُّ بنت قيصر الروم.

وكان من حقوق الترك أن يقابلواهم بالمثل، ولذا صار الترك يتصدّدون بهم كما يتصدّدون بالحيوانات المفترسة مقيمين من عظامهم هرماً عظيماً.

ولم يلبث جيش الصليبيين الأول المؤلّف من مئات الآلوف أن أُبْدَى، وإنما كانت تأتي من خلفه فيالق منظمة تامة العدة مؤلفة من سبعمائة ألف مقاتل بقيادة أقوى السنّوريات، أي كان يأتي من الفيالق ما لم يسبق للعرب أن جمعوا جيشاً لجباً مثله.

ومن هذه الفيالق نذكر الفيلق الذي كان يقوده دوك اللورين الـدُّنْيَا، غودوفروا الـبُّويُونِيُّ، والذي كان مؤلفاً من ثمانين ألف مقاتل من سكان اللورين وبافاريا وسكسونيا.

وحاصر الصليبيون مدينة إزنيق الواقعة في آسية الصغرى، وهزموا جيشاً تركياً، وقطعوا رؤوس جرحي الترك وربطوها بسروج خيولهم وعادوا إلى معسكرهم، ثم رموها إلى تلك المدينة التي كانت محاصرة.

ولم يكن ذلك مما يرضي الأهلين، فسلم الأهلون - الذين علموا ماذا كان ينتظرون - أمراً أنفسهم إلى القيسير بالقسطنطينية، فاضطرّ حلفاؤه الصليبيون إلى القتال مُرتدّين. وبقي على الصليبيين أن يقطعوا نحو مئتي فرسخ ليصلوا إلى سوريا، وكان همهم مصروفًا إلى الاغتناء، ولم يُحسنوا سياسة الأهلين، وخرّبوا البلاد، وكثّر الجوع لهم عن أنيابه، واضطرب حبل نظامهم، وتفرقوا، وتقاتل من قادتهم القائدان المهمّان: تانكرييد وبودوين، ثم انفصل بودوين عن رفقائه هو وفيله كي يسلّب ويحارب لحساب نفسه. وفتكت الأمراض والمجاعة بالصليبيين فتكاً ذريعاً، وقُنِطَ بطرس الناسك من النصر وفرَّ من المعسكر، وأُعيد إليه، فاستقبله تانكرييد بضرب العصيّ.

وبدأت الفوضى في مفاصل الجيش الصليبي، وشاع التجسس فيه، وأمر بوهيموند بقطيع الجواسيس وتطهيرهم وإطعامهم للجنود الجائعين، فتدابير كهذه تخبرنا عن حال جيش اضطر إلى اتخاذها.

ويدلُّ سلوك الصليبيين في جميع المعارك على أنهم من أشد الوحش حماقةً، فقد كانوا لا يُفرقون بين الحلفاء والأعداء، والأهلين العُزْل والمحاربين، والنساء والشيوخ والأطفال، وقد كانوا يقتلون وينهبون على غير هدى.

ونرى في كل صفحةٍ من الكتب التي ألفها مؤرخو النصارى في ذلك الزمن براهين على توحش الصليبيين، ويكتفي لبيان ذلك أن ننقل الخبر الآتي الذي رواه الشاهد الراهب

روبرت عن سلوك الصليبيين في مدينة مارات للدلالة على سياسة الصليبيين الحربية، وذلك بالإضافة إلى ما حدث حين الاستيلاء على القدس، قال المؤرخ الراهب التقى روبرت:

وكان قومنا يجوبون الشوارع والميادين وسطوح البيوت؛ ليرُوا غليلهم من التقتيل، وذلك كاللّبؤات التي حُفِفت صغارها، وكانوا يذبحون الأولاد والشبان والشيوخ ويقطعنهم إرباً إرباً، وكانوا لا يستيقنون إنساناً، وكانوا يشنقون أناساً كثريين بحبل واحد بُغية السرعة، فيا للعجب ويا للغرابة أن تُذبح تلك الجماعة الكبيرة المسلحة بأمضى سلاح من غير أن تقاوم! وكان قومنا يقبضون على كل شيء يجدونه؛ فيبقرنون بطون الموتى ليخرجوا منها قطعاً ذهبية، فيا للشره وحب الذهب! وكانت الدماء تسيل كالأنهار في طرق المدينة المغطاة بالجثث، فيا لتلك الشعوب العُمي المُعدّة للقتل! ولم يكن بين تلك الجماعة الكبرى واحدٌ ليرضى بالنصرانية دينًا، ثم أحضر بوهيموند جميع الذين اعتقلهم في برج القصر، وأمر بضرب رقاب عجائزهم وشيوخهم وضعافهم، وبسوق فتيانهم وكهولهم إلى أنطاكية لكي يبايعوا فيها، وحدث قتل الترك ذلك في يوم الأحد الموافق ۱۲ من ديسمبر، وإن لم يمكن إنجاز كل شيء في ذلك اليوم قُتّل قومنا ما بقي من أولئك في اليوم التالي.

وليس من العسير أن ندرك رأي الشرقيين المتمدّنين في أولئك، فتوارىخُهم مملوءةً بما كانوا يوحّون به إليهم من الاحتقار العظيم، قال الشاعر الفارسيُّ الكبير سعدي بعد زمن: «لا يستحقُ أولئكَ أَنْ يُسَمُّوا بِشَرًا».

وكان عدد الصليبيين مليون شخص حينما خرجن من أوربة، فأخذت الماجة والأوبئة والدعاية والوقائع والمنازعات تُبَيِّد هذا الجيش العظيم الذي كان يمكنه فتح العالم لو أُلْفَ من أنسٍ آخرين، ولم يبق منه عند بلوغه القدس سوى عشرين ألفاً.

وكانت القدس تابعة، في ذلك الحين، لسلطان مصر الذي استردها من الترك فاستولى عليها الصليبيون في ١٥ من يوليه سنة ١٠٩٩ م، وقد جاء في الأقاوصيص أن القدس جورج تراءى للصلبيين من جبل الزيتون، وأنه حَرَضَهم على القتال فانقضوا على أسوار القدس، واقتحموها.

وكان سلوك الصليبيين حين دخلوا القدس غير سلوك الخليفة الكريم عمر بن الخطاب نحو النصارى حين دخلها منذ بضعة قرون، قال كاهن مدينة لوپوي، ريموند داجيل:

حدث ما هو عجيب بين العرب (!) عندما استولى قومنا على أسوار القدس وبروجها، فقد قطعت رءوس بعضهم، فكان هذا أقل ما يمكن أن يصيّبهم (!) وبُقرت بطون بعضهم، فكانوا يُضطرون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار، وحرق بعضهم في النار فكان ذلك بعد عذاب طويل، وكان لا يُرى في شوارع القدس وميادينها سوى أكdas من رءوس العرب وأيديهم وأرجلهم، فلا يمرُّ المرء إلا على جثث قتلاهم، ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض ما نالوا

...



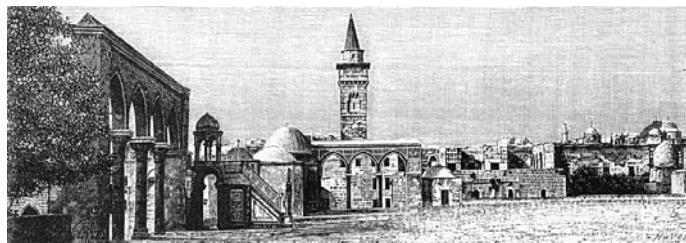
شكل ٣-٨: منظر القدس (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

وروى ذلك الكاهن الحليم خبر ذبح عشرة آلاف مسلم في مسجد عمر، فعرض الوصف اللطيف الآتي:

لقد أفرط قومنا في سفك الدماء في هيكل سليمان، وكانت جثث القتلى تعوم في الساحة هنا وهناك، وكانت الأيدي والأذرع المبتورة تسبح كأنها تريد أن تتصل بجثث غريبة عنها، فإذا ما اتصلت ذراع بجسم لم يُعرف أصلها، وكان الجنود الذين أحدثوا تلك الملحمة لا يُطيقون رائحة البخار المنبعثة من ذلك إلا بمشقة.

ولم يكتفُ الفرسان الصليبيون الأتقياء بذلك، فعقدوا مؤتمراً أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس، من المسلمين واليهود وخوارج النصارى، الذين كان عددهم نحو ستين ألفاً فأفْنُوْهم على بَكْرَة أبيهم في ثمانية أيام، ولم يستثنوا منهم امرأةً ولا ولداً ولا شيخاً.

وأراد الصليبيون أن يستريحوا من عناء تذبح أهل القدس قاتلهم، فانهمكوا في كل ما يستقدر به الإنسان من ضروب السُّكر والعربدة، واغتاظ مؤرخو النصارى أنفسهم من سلوك حمّة النصرانية مع اتصف هؤلاء المؤرخين بروح الإغضاء والتساهم، فنعتهم برنارد الخازن بالمجانين، وشَبَّهُهم بودان الذي كان رئيس أساقفة دُولَ، بالفُرُوس التي تتمرغ في الأقدار.



شكل ٤-٨: الحرم الشريف في القدس، وفيه ترى ساحة جامع عمر في الوقت الحاضر وساحة هيكل سليمان فيما مضى (من صورة فوتografية التقطها المؤلف).

وهاج العالم الإسلامي من استيلاء الصليبيين على القدس كما هاج العالم النصراني، ولاح، لوقت قصير، تضاعف نفوذ أتباع النبي الذي تأصل منذ خمسة قرون، وتناهى المسلمين جميع عوامل الانقسام الذي كان يُفْتَن في عصدهم مع ما أحدثه ذلك الاستيلاء من الدُّعر الكبير فيهم، وأغْضَى سلطان القاهرة عن منافسته ل الخليفة بغداد فتبادلا السفراء للبحث في عمل ما يجب لتلقي تلك المصيبة.

أجل، لقد خسر النصارى مليون رجل، وخَرِب بعض أوربة في سبيل فتح القدس، وكان النصارى يرجون أن يحتفظوا بشمرة هذا الفتح العزيز، غير أن أملهم خاب، فلم يلبث المسلمون أن استردوا القدس، وعادت القدس إلى حظيرة الإسلام إلى الأبد.

واختيرَ غودفروا ملِكًا على القدس لشجاعته التي أقام الدليل عليها، ولكن الشجاعة لا تكفي لتنظيم دولة، فقد كان غودفروا عاجزاً عن إدارة شؤون دولته الفتية مع شدة بأسه، ثم مات غودفروا بعد زمن قليل، ولم يكن خليفته بودوان أقدر منه على تدبير أمور الحكم.

وكان قد مضى على وجود الفَرنج في فلسطين عشرون سنة حينما توفي بودوان في سنة ١١١٩م، ولم ينشأ عن حكم الفَرنج لها سوى خرابها وإيقفارها، وكان من نتائج هذا الحكم أن عرفت البلاد نظام الإقطاع كما في أوربة، وأن قُسمت إلى الإمارات الإقطاعية المتناقلة على الدوام: طرابلس وعسقلان ويافا ... إلخ، ولم يلبث طغاتها الصُغراء الذين لم يكونوا ليفكروا في غير الاغتناء أن خربوها بعد أن كانت زاهرة أيام الحكم العربي الرشيد، وإليك ما قاله **أسقف عكا الصليبي جاك دوفيتري** عن أبناء الصليبيين الأولين، وذلك في تاريخه عن القدس:

خرج من الصليبيين الأولين الأتقياء المتدينين جيلٌ من الفَجرة الأشرار الفاسدين المنحليين الفاسقين كما يخرج الثقل من السُّلاف^٢ والدُّردي^٣ من الزيت والشَّيم^٤ من البر^٥ والصدأ من القُلُز^٦ ... وكان هؤلاء الأبناء يختصمون ويقتلون لأنفه الأسباب، حتى إن بعضهم كان يستعين على بعض بأعداء النصارى في الغالب ... وكان لا يُرى منهم في أرض الميعاد غير الزنادقة والملحدين واللصوص والزنادقة والقتلة والخائنين والمهرجين والرهبان الدُّعَار والراهبات العواهر.

ولم يكن غليوم الصوري أقل صراحةً من ذلك، فقد قال، بعد أن وصم أبناء الصليبيين بأنهم «من السفهاء الفاسدين واللاملاحة الفاسقين»: «تلك هي رذائلهم الوحشية التي لو أراد كاتب أن يصفها؛ لخرج من طور المؤرخ ليدخل في طور القادح الهاجي». وبينما كان النصارى يُحرّبون القدس كان المسلمين يستردون بالتدريج، ما حسروه، وقد أورث تقدمهم في سوريا واستيلاؤهم على الرُّها (أورفة) هَلَّغا في قلوب النصارى بفلسطين، فاستغاث النصارى بأوربة.

ونُظمت حملة صليبية ثانية لإمداد أولئك، ونجح سان برنارد في إيقاد نار التعصّب الديني، فقد توجّه ملك فرنسة لويس السابع على رأس الحملة الصليبية الجديدة إلى فلسطين، وتبعه الملك الألماني كونارد الثالث، غير أن جيش لويس السابع الذي كان عدده مائة ألف مقاتل لم يكدر يصل إلى آسية الصغرى حتى أُبيد على بُكرة أبيه، ففرّ لويس السابع بطريق البحر ليذهب إلى أنطاكية، ويتوّجه منها إلى القدس كحاج عادي، وما كان جيش كونارد الثالث أوفر حظاً من جيش لويس السابع.

ولم يَبْدِ سلوك الصليبيين في هذه الحملة الثانية أحسن من سلوك رجال الحملة الصليبية الأولى، قال الكاهن أنكتيل في تاريخه: «قَلَّما كَانَ يُوجَدُ صَلَبِيٌّ يَسِيرُ بِوْحِيٍّ

ديني، فلم يترك أولئك الصليبيون جرائم وحشيةً وضررًا من قطع الطرق وفضائح مُزرية إلا اقتروها، وعزا سان برنارد ذلك الحبوط إلى ما ارتكبه هؤلاء الصليبيون من تلك المظالم.

وتمَ طرد الصليبيين من القدس على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي الشهير، وذلك أن صلاح الدين دخل سوريا بعد أن أصبحت مصر وجزيرة العرب والعراق قبضته، وأنه غلب ملك القدس الأسيف غي دُولُوزِينِيان، وأسرَه، واسترد القدس في سنة ١١٨٧م. ولم يُشأ السلطان صلاح الدين أن يفعل في الصليبيين مثل ما فعله الصليبيون الأولون من ضروب التوحش فيُبَيِّد النصارى على بكرة أبيهم، فقد اكتفى بفرض جزية طفيفة عليهم مانعاً سلباً شيءً منهم.

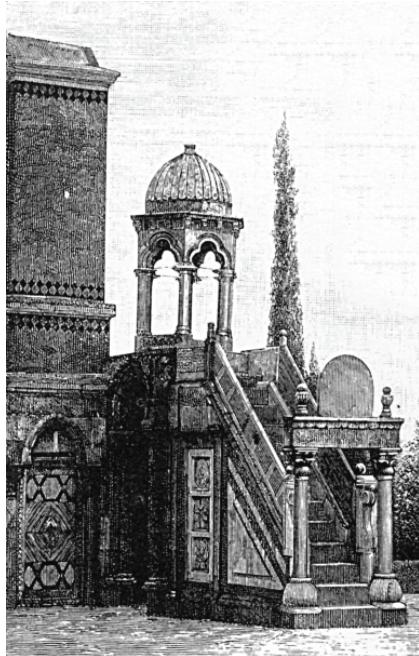
قُضيَ على مملكة القدس اللاتينية بعد أن عاشت ٨٨ سنة، ومررت سبعة قرون على تلك الحوادث من غير أن تَخْرُج هذه المدينة المقدسة من أيدي أتباع محمد على الرغم من جميع الجهود التي قام بها العالم النصراني منذ ذلك الحين.

ولا نرى فائدةً كبيرةً في تاريخ الجهود غير المُجْدِية التي قامت بها أوربة لاسترداد القدس، أي في تاريخ الحملات الصليبية الستُ الأخيرة، وإنما نكتفي بذكرها الخاطف. ورئيسُ أساقفة مدينة صور في فنيقية، غليمون، هو الذي حَرَض أوربة على تجريدة الحملة الصليبية الثالثة (١١٩٢-١١٨٩م)، وقد قاد هذه الحملة ملكُ فرنسة: فيليب أوغست، وملك إنكلترة: قلب الأسد ريكاردس، وقيصر ألمانيا: فريديريك بارباروس، أي أقوى ملوك أوربة.

فأما بارباروس: فقد مات في آسية الصغرى، حينما كان يغتسل في نهر البردان (قره صُو)، ولم يصل سوى بقايا جيشه إلى سوريا، وأما فيليب أوغست: فقد تَعبَ سريعاً، وأبحر إلى صور بعد إقامةٍ قصيرة بفلسطين تاركاً خلفه جيشاً مؤلَّفاً من عشرة آلاف مقاتل بقيادة أمير بورغنونية، ولذا ظلت القيادة العليا في يد قلب الأسد ريكاردس الذي اقترف جرائم وحشيةً كالتي اقترفها رجال الحملة الصليبية الأولى.

وكان أول ما بدأ به ريكاردس هو قتله، أمام معسكر المسلمين، ثلاثة آلاف أسيرٍ مسلم سَلَّموا أنفسهم إليه بعد ما قطع لهم عهداً بحقن دمائهم، ثم أطلق لنفسه العنوان في اقتناف أعمال القتل والسلب.

وليس من الصعب أن يتمثلَ المرء درجة تأثير تلك الكبائر في صلاح الدين النبيل الذي رَحِم نصارى القدس ولم يمسَّهم بأذى، والذي أَمَدَ فيليب أوغست وقلب الأسد



شكل ٥-٨: منبر من رخام في الحرم القدسي يُعرف بمنبر عمر (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

ريكاردس بالأزواد والمرطبات في أثناء مرضهما، فقد أبصر الْهُوَة العميقة بين تفكير الرجل المتمدن وعواطفه وتفكير الرجل المتواحش وزواجه، وأدرك أنه لا يجوز أن يعامل أولئك الحمقى بغير ما تعامل به الوحوش الضاربة.

وأكره ريكاردس من فوره على مغادرة فلسطين قبل أن يرى القدس، ولم يكن للحملة الصليبية الثالثة التي قادها ملوك أوربة الأقوياء الثلاثة المتحالفون نتيجةً غير بقاء النصارى مالكين لبعض مدن الساحل.

ثم نُظمت الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٤-١٢٠٢ م) بقيادة أمير الفلاندر: بُودوان، وعزم الصليبيون في هذه المرة على بلوغ فلسطين بحراً، لا براً كما في الماضي، وأبحروا من ميناء زاره متوجهين إلى عاصمة الدولة النصرانية: القدسية، ولما بلغوهارأى

بعضهم أن سوريا لا تزال بعيدةً، وأن الصليبيين السابقين نَهَكُوها غير تاركين فيها نهاباً، وأن كلَّ الصيد في جوف القدسية، فانضمَّ بقية الصليبيين إلى هذا الرأي الصائب، وأخذوا ينهبون ما فيها وإن دخلوها حلفاء.

وكانت القدسية تشمل في ذلك الحين على ما تركه الأغارقة والرومان من كنوز الفن والأدب، ولم يَرَ صليبيو أوائل القرن الثالث عشر في هذه الكنوز شيئاً نافعاً يمكن تقديمها إلى قبيلةٍ من أصحاب الجلود الحمر (الپوروج)، فصاروا يُحْطِمون كلَّ ما لم يكن من الذهب أو الفضة أو يُلْقِونه إلى البحر، وصاروا يَكْسِرون التماثيل الرحمنية التي صنعوا لِيزِيب وفيدياس وپِراکِزِيتيل، ويُتَلَفُون، في يوم واحد، تاليفَ ديموستين وديودورس، وبيوليب ... إلخ. المهمة.

ولم يُفْكِرْ بودوان وأصحابه في الزحف إلى فلسطين بعد أن شَبَعوا من الغنائم فنُصِبْ بودوان قيسراً؛ وأجاز البابا إينوسان الثالث ذلك مع بيانه أن الصليبيين افترقوا أفعى الجرائم.

ولا احتياج إلى ذكرنا أن سلطة هذا القيصر الجديد كانت مؤقتةً، فلم يكن الصليبيون من غير الهمج العاجزين عن إقامة دولة دائمة وعن غير التخريب، ولم ينشأ عن إقامتهم القصيرة بالقدسية غير إبادة كنوز العالم اليوناني الـلاتيني القديم.

ولم تكن الحملتان الصليبيتان، الخامسة والسادسة، من الحملات المهمة، ولم تبالياً بالجهاد في سبيل القدس، وإنما ذهب أكثر رجالهما إلى مصر طمعاً في الغنائم فاضطربوا إلى التقهقر بعد أن أوغلوا قليلاً فيها.

وتوجَّهَ جيُشُ صغير إلى القدس بقيادة فردريريك الثاني الألماني الذي تعاهد هو والمسلمون، فسمح له المسلمون بدخول القدس حلِيفاً، فعاد إلى أوربة مكتفياً بهذه المjamala الحقيقة.

ومع ذلك فإن الحملات الصليبية أخذت تَفْقِد صبغتها الأوروبية الشاملة التي اصطبعت بها في بدء الأمر، فقد قام مقام أخلاق الزُّمر الأولى، التي كانت تنقضُ على آسية، بعض السرايا الصغيرة التي ركبت كلَّ واحدةٍ منها مَتن هواها فلم تبحث عن غير ما فيه الثراء.

وظلت القدس، وفلسطين تقربياً، قبضة المسلمين على الرغم من الحملات الصليبية الخمس التي جُرِدت بعد الحملة الصليبية الأولى، ثم عزم ملك فرنسة، سان لويس، على العَوْد إلى الجهاد فجَرَّ حملة صليبية سابعة في سنة ١٢٤٨ م، وقد غادر إِيْغمُورْت على

رأس خمسين ألف مقاتل متوجهاً إلى مصر، وقد احتلَّ دمياط، وزحف إلى القاهرة التي كُسر جيشه قبل أن يبلغها، ووقع أسرىً، وافتدى نفسه، وذهب إلى سوريا، وأقام بها سنتين من غير أن يظفر بطالئل، ثم رجع إلى فرنسة قبل أن يرى القدس. ولم تَتَشَنَّ عزيمةٌ سان لويس مع هذا الانكسار، فقد جَهَّزَ حملةً صليبيةً جديدةً بعد ست عشرة سنة، وقد غادر إيمغمورت في ٤ من يوليه سنة ١٢٧٠ م على رأس جيش مؤلف من ثلاثين ألفاً من الماشية وستة آلاف من الفرسان، وقد تَوَجَّهَ إلى تونس طَمْعاً في حمل أميرها على انتقال النصرانية، فأصابه الطاعون حينما كان محاصراً لها، فمات في ٢٥ من أغسطس سنة ١٢٧٠ م.

وكانت تلك الحملة الثامنة أخرى الحملات الصليبية، فيها خُتمت تلك المغازي الكبيرة إلى الأبد، وبقيَ المشرق خاضعاً لأنباء النبي العربي. ولم يلبث النصارى أن خسروا ما كانوا يملكون من النواحي القليلة في فلسطين، وأراد البابوات أن يوقظوا حميَّة النصارى الدينية على غير جدوى، فقد فَتَّرت حرارة الإيمان في النفوس، وصار هم شعوب الغرب مصروفاً إلى أهداف أخرى.

ولا أحَاوِلُ، في خاتمة هذه الخلاصة القصيرة التي سردتها عن تاريخ الحروب الصليبية، تسويعَ ذلك الاعتداء الذي وجهته أوربة إلى المشرق أو ذمَّه، فأمُورٌ مثل هذه من نوع المجادلات التي ترُوِقُ شُبَّانَ المؤرخين ولا تستحقُ أن يُبَالَّ بها، ولا أعلم أن فاتحًا في القرون القديمة أو الحديثة فكر ثانية في عدل جهاده الحربي أو ظلمه ما لاءَمَ ذلك الجهاد مصالحة، وما رأى وصوله إلى مقصده من غير خطر كبير، فإذا كُتب له النجاح في جهاده كفاه نجاحُه ولم يبقَ ما يستلزم تسويفه، ولم يَعدَمْ، عند الضرورة، فرسانٌ بيانٌ لتمجيد ما صنع، وإذا ما هَاجَ بعض الكتابَ مظالم القوة قائلين: إن على القوة إلا تتغلب على الحق كان ذلك من قبيل ذمَّ الأمور الطبيعية غير المُجْدي، كشكوانا من السُّقم والهَرَم والموت.

حقاً إن مبادئ الحقوق النظرية المدونة في الكتب لم تكن دليلاً أمة في أي زمان، وإن المبادئ التي احترمتها الأمم هي التي أيدَّتها قوة السلاح كما أثبتته التاريخ، وإن البابوات لم يسيروا على غير سنن الفاتحين في الماضي والمستقبل، حينما حَرَضُوا النصارى على الحروب الصليبية الطاحنة المنافية لأبسط قواعد الإنصاف من الناحية النظرية، فلا يُفَيِّدُ لومهم على ما فعلوا، ولذلك، إذن، كلَّ بحثٍ من هذا النوع، ولندرس النتائج القريبة والبعيدة لذلك النزاع العظيم بين عالَمين.



شكل ٦-٨: باب يافا في القدس (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

(٣) نتائج الحروب الصليبية بين الغرب والشرق

آراء المؤرخين في نتائج الحروب الصليبية متناقضٌ إلى الغاية، وقد أسهب أكثرهم في مدحها، وعَدَّها بعضُهم ذات نتائج سيئة. وإن نظرنا إلى هدف الحروب الصليبية القريب الذي هو فتح فلسطين رأيناها لم تُسفر عن أية نتيجة مع ما حَسِرَتْه أوربة في قرنين من المال والرجال، فقد بقي المسلمون سادةً لتلك الأماكن التي أراد النصارى أن يستولوا عليها بأي ثمن كان. ولكننا إذا نظرنا إلى النتائج البعيدة التي أسفرت عنها الحروب الصليبية تجلت لنا أهمية تلك النتائج التي كان بعضُها نافعاً وبعضها ضاراً، وإن شال الميزان ورجحت كفة النافع منها، فقد كان اتصال الغرب بالشرق مُدَّة قرنين من أقوى العوامل على نموّ الحضارة في أوربة، وتكون الحروب الصليبية قد أدت بهذا إلى نتائج غير التي نَشَدَتها،

وليس التاريخ خالياً من الأمثلة على عدم المطابقة بين الضالة المنشودة والهدف المُدرك، بل هو حافلُ بهما، حتى يكاد البصیر يرى في ذلك قاعدةً مطردةً.
وإذا أراد المرء تصور تأثير الشرق في الغرب وَجَب عليه أن يتمثل حال الحضارة التي كانت عليها شعوبهما المتقابلة، فأما الشرق فكان يتمتع بحضارة زاهرة بفضل العرب، وأما الغرب فكان غارقاً في بحر من الهمجية، وقد ظهر من بياننا الوجيز عن الحروب الصليبية أن الصليبيين كانوا في سلوكهم وحشاً ضارياً، وأنهم كانوا ينهبون الأصدقاء والأعداء ويدبحونهم على السواء، وأنهم خرّبوا في القسطنطينية ما لا يُقدر بشمن من الكنوز القديمة الموروثة عن اليونان والروماني.

ولم يكن عند أولئك البرابرة ما يفيده الشرق، ولم ينتفع الشرق منهم بشيء في الحقيقة، ولم يكن للحروب الصليبية عند أهل الشرق من النتائج سوى بذرها في قلوبهم الازدراء للغربيين على مر الأجيال، ولم ينشأ عن جهالة الصليبيين وغلوظتهم وتوحشهم وسوء نيتهم غير حمل الشرقيين أسوأ الأفكار عن نصارى أوربة وعن النصرانية، وغير إيجاد هُوَّة عميقه لا يمكن سُدها بين أمم الشرق وأمم الغرب، وما إلى ذلك من النتائج الضارة التي أشرنا إليها آنفاً.

ولم تكن العداوة العادلة التي يحملها الشرقيون تجاه أمم الغرب كل ما صدر عن الحروب الصليبية من النتائج الضارة، فقد نشأ عنها، أيضاً، زيادة سلطة البابوات الذين كانوا رؤساء عاليين للصلبيين، وزيادة سلطة رجال الدين الذين افتُنوا بأرضين اضطر السنiorات إلى بيعها منهم ليقوموا بنفقات الغزو، وقد تَجَمَ عن نمو سلطة أولئك واغتناء هؤلاء أن رَغْبَ البابوات في السيطرة على الشعوب والملوك وأن عمَّ فساد الإكليروس، فلادي هذا الفساد بعد زمن إلى الإصلاح الدينيٍّ وما قاسته أوربة بسببه من المنازعات الدامية.
ومن أشأم نتائج الحروب الصليبية: أن ساد عدم التسامح العالَم عدَة قرون، وأن صَبَغَته بما لم تعرفه ديانةٌ، خلا اليهودية، بصبغة القسوة والجحود، أجل، كان العالم قبل الحروب الصليبية يعرف الشيء الكثير من عدم التسامح، ولكنه ندر أن كان عدم التسامح هذا يصل إلى حد الجَلْف والطغيان، وقد بلغ عدم التسامح هذا مبلغاً من الْحُمُّيَّة الشديدة في الحروب الصليبية ما لا يزال العالم يقاري أثره إلى زماننا تقريباً، فلم يلبث رجال الدين الذين تعودوا سفكَ الدماء أن صاروا ينشرون المعتقد ويُبيدون أصحاب البدع على الطريقة التي كانوا يُبيدون بها الكافرين، ويرون أنه يجب إخماد أقل انحراف بأفظع تعذيب، ومن نتائج ما نما في الحروب الصليبية من روح عدم التسامح المشوّومة:

ما حدث من ذبح اليهود والأليجوا وكل ذي بدعة، ومن إنشاء محاكم التفتيش، ومن الحروب الدينية، ومن الحروب الوحشية التي ضرّرت أوربة بالدماء زمناً طويلاً. ولنبحث الآن في نتائج الحروب الصليبية النافعة بعد أن ذكرنا نتائجها الضارة الثابتة: كان من النتائج السياسية التي نشأت عن الحروب الصليبية أن تَضَعُفَ النظام الإقطاعي في فرنسة وإيطالية على الأقل، وذلك أن السنيوريات لم يخسروا كثيراً من أراضيهم التي باعواها؛ لينفقوا على ما جهزوه من الحملات فقط، بل باعوا أيضاً ما كانت تصبو إليه المدن من الحرية والامتيازات، فصارت هذه المدن دُوَيلاتٍ مستقلة ضمن دول الإقطاع تابعةً للملك وحده، ثم أصبح اشتراء المدن لحرفيتها مبدأً عاماً، فقامت بلدية مستقلة في كل مدينة، فكانت نتيجة ذلك أن ضعف شأن الإمارات الإقطاعية الصغيرة لا الكبيرة التي مالت إلى التوسيع، وأن أضحى ملك فرنسة حَكَماً بين القَسَالات وسادتهم السابقين أكثر مما في الماضي، وأن زادت بذلك سلطة ملوك فرنسة، الضعيفة قبل الحروب الصليبية، على حساب سلطة قَسَالاتهم التي كادت تساوي سلطة الملك فيما مضى، والتي عادت لا تكون في غير الظواهر في بضعة قرون.



شكل ٧-٨: قدح عربي يُعرف بقدح شارلما، ويرجح أنه جاء به من الشرق أيام الحروب الصليبية (متحف شارتر).

ولم يتخلص النظام الإقطاعي بفعل الحروب الصليبية إلا في فرنسة وإيطالية، لا في إنكلترة وألمانيا اللتين لم يشترك سُنِيوراً تُهما في الحروب الصليبية الأولى إلا قليلاً، واللتين

حافظوا على إقطاعاتهم فيهما، وصاروا رقباء على ملوكهما الذين توَّرطوا فيها كثيراً، فاستفادوا من ذلك فقيدوا سلطة هؤلاء الملوك، ونحن إذا أنعمنا النظر فيما نشأ عن سير الحوادث من النتائج البعيدة بدا لنا أن أصول دستور إنكلترة السياسي المتن ترجع إلى حوادث الحروب الصليبية.

أجل، اشترك ثلاثة من قياصرة ألمانيا في الحروب الصليبية، فلما مات فردريك الثاني الذي هو آخرهم كانت السلطة القيصرية من الأوهام، واشترك ثلاثة من ملوك فرنسة في الحروب الصليبية، فأما رحلة فيليب أوغست فكانت قصيرة، وأما سلطة الأشرف في غياب لويس السابع ولويس التاسع فكانت غير خطرة لما ذكرنا، فسهُل على نائب الملك سوجر والملكة بلانش أن يُرِدَّا حِمَاحِها.

وكان لاصطراع أوربة وأسيبة تأثيرٌ كبير في التجارة أيضاً، فقد نشأ عن تجهيز الجيوش الكبيرة التي قدَّفت بها أوربة في الشرق في قرنين وتمويتها ونقلها حركة عظيمة في التجارة البحرية؛ فاغتنى بذلك أهل مرسيلية وبيزنطة وجنة والبنديقية على الخصوص، وبلغت بحرية مرسيلية درجةً عظيمةً من النمو استطاعت معه: في سنة ١١٩٠ م؛ أن تنقل إلى الأرض المقدسة جيشَ قلب الأسد ريكاردس.

ولم يقف نمو التجارة بعد طرد الصليبيين من آسيبة؛ فقد عقد أكثر جمهوريات إيطالية وأمراء المسلمين معاهداتٍ تجارية؛ وكانت صلات البنديقية التجارية الوثيقة بالشرق سبب عظمتها، واطرد تقدم هذه التجارة مع الزمن إلى أن اكتُشفت طرقُ بحرية جديدة، فانتقل زمامها إلى أيدي أخرى.

ولم يكن تأثيرُ الحروب الصليبية في الصناعة والفنون أقلَّ من ذلك، فقد استوقفت نفائسُ الشرق الباهرة أنظار السنيوريات الصليبيين مع جَلْفهم، فوجدوا في التجارة وسيلة تقليدها، فنرى اقتباس نفائس الشرق في أسلحة الغرب وثيابه ومساكنه في القرن الثاني عشر، والقرن الثالث عشر على الخصوص.

وكلما نمت النفائس أدت إلى تقديم الصناعة بحكم الضرورة، وتبحث الصناعة عن المنتجات التي تتطلُّبها التجارة منها بطبيعة الحال، فتحفظها الضرورة إلى القيام بذلك من فُورها.

وإذ كانت صنائع الخشب والمعادن والمباني والزجاج تتطلب معارفَ كثيرةً فقد اقتبسها الأوروبيون من آسيبة مع جلهِم لها قبل دُورِ الحروب الصليبية، وعمَّ أمرها بذلك في أوربة، فعن صور أخذت البنديقية نماذجَ صناعة الزجاج، وعن المسلمين أخذت أوربة



شكل ٨-٨: إناء عربي مصنوع من النحاس المكفت، ويُعرف بإناء معمودية سان لويس (متحف اللوفر).

صناعة النسائج الحريرية والصباغة المتقدة، وعن سورية أخذ عمال الحملات الصليبية التي دام أمرها قرنين وصانعوا أسلحتها ومهندسوها ونجاروها ومن إليهم ما كانوا يجهلون من المعارف الصناعية، وذلك في أثناء إقامتهم الطويلة بها.

وكان تأثير فنون الشرق في الغرب عظيماً أيضاً، فقد نشأ عن إيلاف الصليبيين ضروب منتجات الشرق المتدا من القسطنطينية إلى مصر تهذيباً أو زواهم الغليظة، ولم يلبث فن العمارة أن تحول في أوربة تحولاً تاماً، ولا يصعب علينا، والحالة هذه، أن نثبت في فصل آخر قوّة تأثير آثار حضارة العرب في أطواره الأولى.

وأما استفادة الصليبيين من علوم العرب الخالصة فكانت ضعيفةً إلى الغاية خلافاً لما ذهب إليه كثير من المؤرخين؛ فالجيوش الصليبية إذ كانت جاهلةً للعلماء لم تكن لتتأتى بالمعارف والأصول مبالياتها بشكل البناء أو الأسلوب الصناعي.

وإذا كنتُ لم أقل إن تأثير الصليبيين في تقدم أوربة العلمي صفرٌ فلما بين العلوم والصناعات من الصلة، ولما تجرّ إليه إدحاهما إلى بحثٍ قليلٍ في الأخرى غالباً.

ولا يُحتاجُ علينا بأن القرون الوسطى استنبطت معارفها العلمية والأدبية من مؤلفات الشرقيين، فالواقع أن تلك المعرفة لم تدخل أوربة بفضل الحروب الصليبية قطّ كما نبين ذلك في فصل آخر.

ولم يكن تأثير آداب العرب في الصليبيين صفرًا، بل كان كذلك، ضعيفاً جدًا، أي استوحاهما كثيراً من شعراً الغرب وكتابهم، فكان سحرُ مصر وعجائب الشرق وغودفروا



شكل ٨-٩: طبق عربي قديم مصنوع من النحاس.

وتانكرييد وغيرهما موضوع قصص مهم للشعراء المجلولين الذين كانوا ينشدونه بين قصر وقصر.

ظهر مما تقدم أن تأثير الشرق في تمدن الغرب كان عظيماً جدًا بفعل الحروب الصليبية، وأن ذلك التأثير كان في الفنون والصناعات والتجارة أشد منه في العلوم والآداب، وإذا ما نظرنا إلى تقدم العلاقات التجارية العظيم باطراد بين الغرب والشرق، وإلى ما نشأ عن تحالف الصليبيين والشرقيين من التفاهم في الفنون والصناعة — تجلى لنا أن الشرقيين هم الذين أخرجوا الغرب من التوحش، وأعدوا النفوس إلى التقدم بفضل علوم العرب وأدابهم التي أخذت جامعات أوربة تعلّم عليها؛ فانبثق عصر النهضة منها ذات يوم.

هوامش

- (١) ضئى: جائزة.
- (٢) السلاف: ما سال وتحب قبل العصر، وهو أفضل الخمر.
- (٣) الدردي من الزيت ونحوه: الكدر الراسب في أسفله.
- (٤) الشيلم: الرؤان يكون بين الحنطة.
- (٥) القلز: النحاس الذي لا يعمل فيه الحديد.

الباب الرابع

طبائع العرب ونظمهم

الفصل الأول

أهل البدو وأهل الأرياف من العرب

(١) تمثل حياة قدماء العرب

سنحاول أن نرسم بإيجاز، في هذا الفصل والفصل الذي يليه، حياة العرب بعد ظهور محمد وبضعة قرون، فبالبحث في طبائع العرب وعاداتهم نستطيع أن نقف على مصدر نظمهم السياسية والاجتماعية التي كانت سائدةً لدولتهم.

ونستنبط خطوط هذا الرسم الموجز الأساسية من التأمل في حال العرب المعاصرين، واستقراءً مثلًّا هذا لا يصلح لغير عدد قليل من الأمم، ولا سيما الأمم الشرقية التي ندرس تاريخها.

وسرعة التحول من أظهر ما تتصف به حضارة أمم الغرب، فإذا ما قابلنا بين عصر شارلaman وعصر لويس الرابع عشر مثلاً بدا لنا عالماً مختلفان أشدَّ الاختلاف في الفن والصناعة والعلم والحياة الاجتماعية واللغة.

ولكن التحولات التي تحدثُ بين دور وأخر لا تبدو بعيدةً الغور إلا لأن التاريخ لا يبالي بغير الطبقات الاجتماعية العليا، فإذا ما نظرنا إلى الطبقات الوسطى أو الدنيا التي هي ركُن كلّ أمةرأينا تحولها ضعيفاً إلى الغاية، فالعلوم والأداب والفنون والصناعات التي تتتألف من مجموعها حضارة أحد الأدوار لم تكن غير ذات تأثير ضئيل في المجموع مع انقضاء القرون؛ فالفرق بين صاحب لشارل مارتل وأحد حفته في زمن لويس الرابع عشر عظيمٌ لا ريب، وهو ضعيفٌ بين حدّاد أو تاجر أو فلاح في عصر الأول وبنيه في عصر الثاني، واليوم قلما نجد فرقاً بين الفلاح البريطاني الحاضر وأجداده الذين ظهروا منذ ألف سنة.



شكل ١-١: واحة بسكرة (الجزائر، من صورة فوتوغرافية).

ومهما يكن الفرق ضعيفاً فإنه موجود بفعل البيئة على كل حال، فالفللاح البريطاني، وإن لم يفق أجداده في مزاجه النفسي، نراه، وهو محافظ على لهجته الإقليمية الخاصة، وهو قابع في قريته الغامض أمرها، يعيش في بيئه تختلف عن البيئة التي كان أجداده يعيشون فيها، أي يرى وميضاً من حضارة تحول باستمرا.

وترى أوربة أن أمم الشرق لا تحول، ونحن نرى أن أمم الشرق تحول قليلاً في الوقت الحاضر لا ريب، وأن طبقاتها العليا، على الأقل، كانت تحول كثيراً في غابر الأzman، فالفرق عظيم بين أمير عربي من حاشية الملك أبي عبد الله الصغير وصاحب لعمر بن الخطاب، وهو أعظم من ذلك بين عالم في جامعة بغداد أو جامعة قرطبة وأحد رعاة بلاد العرب الأقدمين.

ولم يكن التحول ضعيفاً في غير طبقات المجتمع الدنيا كما يشاهد مثل ذلك في كل مكان كما ذكرنا، والفرق، إذن، قليلٌ بين سكان الأرياف من العرب في زمن محمد وبين ذراريهم في زماننا، وهو أقل بين أهل البدو في ذينك الدورين.

ولذا نرى فروقاً في تحول أمم الشرق كالتيرأيناها في أمم الغرب، ونرى ألا يخلط، عند البحث، بين تطور طبقات الشعب الواحد الاجتماعية لما بينها من تفاوت.

ومع ذلك، يجب أن يُعترف بأن العرب أقل تحولاً من الأوربيين بين قرن وقرن، ولم ينشأ استقرارهم العتيد عن زوال حضارتهم فقط، بل نشأ، أيضاً، عن كون القرآن دستور المسلمين الديني والسياسي والمدني على الخصوص، وعن أن ثبات أي أمر من هذه الأمور الثلاثة المتلائمة كان يُوجِّب ثبات الأمرين الآخرين بحكم الضرورة، وهكذا لم يلبث المسلمون أن رأوا أنفسهم مقيدين بسلسلة من التقاليد والعادات التي تأصلت بحكم الوراثة، فأصبحت من الرسوخ بحيث لا تؤثر فيها الزعزع، وهكذا كادت طبائع أكثر العرب وعاداتهم تكون ثابتة لا تتبدل منذ قرون، وهكذا أصبح من الممكن تمثل حياتهم الماضية بدرس حياتهم الحاضرة.

وكان تحول أهل الأرياف والبدو من العرب، على الخصوص، ضئيلاً، وكان تحول أهل المدن الذين انتابهم الفاتحون أظهر من ذلك، ولكن هؤلاء الفاتحون إذ اتخذوا القرآن دستوراً لهم، وكان القرآن نافذاً في أدق شؤون العرب لم تتغير طبائع العرب وعاداتهم إلا قليلاً، وحاضر العرب، وإن لم يكن، لذلك التحول القليل، صورةً تامة عن ماضيهم، يكفي لتمثيله مع ذلك.

وبما أنه يوجد لحياة العرب الاجتماعية صورٌ مختلفة باختلاف حياتهم البدوية أو الريفية أو الحضرية دائئماً، فقد رأينا أن ندرس كلَّ واحد من هذه الوجوه على حدةٍ.

(٢) حياة أهل البدو من العرب

لقد وصفنا سجايَا أهل البدو من العرب بما فيه الكفاية، ولا نرى أن نعود على ذلك مرة أخرى، وإنما نتُمُّ الآن ما قلناه في فصلٍ آخر بأن نصف معايشهم من الناحية المادية: إن بيان عادات أولئك الأعراب وطبائعهم أسهلٌ من بيان عادات سكان الأرياف والأمصار وطبائعهم، وذلك لأن حياة الأعراب بسيطة إلى الغاية، وأنها طلقة من تلك الزيادات المعقّدة التي أوجبها الاستقرار والتقطن، وفي الوصف الآتي الذي أقتطعه من كتابٍ لكوست تصويرٌ كافٍ لعادات الأعراب، أجل: إن كوست صوَّر بهذا الوصف قبائل صحاري وادي النيل العربية منذ خمسين سنة، ولكن ما تُسْفر عنه حياة الصحراء من تَبَدُّلٍ قليل في المعيش يجعل ذلك الوصف صالحًا لتمثل الأعراب المعاصرين لسليمان، أو المعاصرين لحمد، أو الذين سيولدون بتعاقب الأجيال إلى أن تَبَدُّل الأرض غير الأرض، وتكون آسية وإفريقية خاليتين من الصحاري، قال كوست: يمتنع الأعرابُ صهوة فرسه وقت الفجر، ولا يرجع إلى خيمته إلا وقت الغروب، ويغتنى الأعرابي في النهار

بالتمر وقليل من الذرة أو البر، ويُرْعِي فرسه بالكلأ الذي يجده في طريقه، فإذا دخل خيمته عشاء ناولته زوجه كوب لبن وقليل تمر وعسلًا.



شكل ٢-١: مخيم أعراب في الجزائر (من صورة فوتوغرافية).

ولا يتدد الأعرابُ إلى المدن إلا ليبيع ما تنتجه مواشيه وإبله وخيله، ولا ينام الأعرابي في المدن، وإذا ما نزل الأعرابي بأرض زرع في بضعة أفدنة منها ما يحتاج إليه من البر والشعير والذرة، ويبدو الأعرابي، على خلاف الفلاح الذليل، فخورًا بحريته ذا خطوط ثابت وعيين لامعتين ثاقبتين، ولا يُصاب الأعرابي بما يصاب به الفلاحون من الأمراض لقناعته وحياته المنظمة، ودم الأعرابي صافٍ صفاءً نسيم الصحراء الذي يتنسّمه.

ومن أهم ما تعتمي به الأعرابيات حلب الشياه والبقر، وصنع الدقيق بمطحنتين يدويتين صغيرتين، وصنع الخبز والطعام، وتربية الأطفال، وحوكُم الثياب الصفيقة والبسُط والخيام.

وإذا ما عَزمَت القبيلة على الرحيل رَكَبَت نساوها الهوادج اثنتين، والهوادج نوع من السُّلال التي توضع على ظهور الجِمال، وتصنع من أغصان الدَّفل،^١ وبيطَن



شكل ٣-١: سوق في مراكش (من صورة فوتوغرافية).

أسفلها بجلد الضأن، ويُسْتَرّ أعلاها بنسيج للوقاية من تقلب الريح ووهج الشمس، ويأخذ الأعربيات، بعد أن يَجْثُمُن في الهوادج، في طحن البرّ بمطاحنهم اليدوية الصغيرة، ويُهْيِئن العجين، ثم يَخْبِزُن الخبز في أول موقف على المَلَة^٢ أو على مَوْقِدٍ صغير أو على الرَّضْفِ^٣ ويستعملن بعْر الجمال وقودًا.

وتكون خيمة الرئيس في الوسط، وتليها خيامُ أبنائِه المتزوجين، فخيام الأقرباء، فخيامِ الخدم، وتكون الأفراس أمام الخيام؛ لتكون حاضرة عند أول إشارة، ثم تليها حظيرة البقر والإبل والضأن والمعز.

وتُصَفُّ الجمال، في الغالب، حول حَيْمة الحرس على شكل دائرة، وتُنْصب خيامُ الأرصاد الصغيرة بعيدةً من المَحِيَّم قليلاً للرقابة ليلاً.

وتكون تلك الخيامُ قليلة الارتفاع، ولا يستطيع المرء أن ينتصب في غير وسطها، وتظهر مربعة الشكل، ولا تكون مُدوَّرة مطلقاً، ويمكن إغلاقها من كل جانب، وإن كان شمالُها يُترك مفتوحاً لدخول النسيم، وتُصنَع تلك الخيام من المِرْعَزِ واللوبَر، وينحدر عنها ماء المطر من غير أن ينْفُذ منها، ولا تؤثِّر فيها العواصف والرياح والشمس.

وأضيف إلى ما تقدم عليه تلك الخيام من متعة بسيط ملائم للحياة البدوية، فكل خيمة تحتوي على أسلحة ورمح طوله ثلاثة أمتار أو أربعة أمتار ولوح حديدي للحَبْزِ وقدر للطبخ وإبريق للقهوة ومهراس لها وذلو وبضعة ثياب وما إلى ذلك، ولذلك ليس من العسير أن نعلم أن أنساً ذوي احتياجات ضئيلة، كأهل البدو، لم يعرفوا سادة لهم قط.

(٣) حياة أهل الأرياف من العرب

(١-٣) الحياة الاجتماعية

يسكن جزيرة العرب وما جاورها من البقاع، في كل زمان أنساً يعتمدون في معايشهم على الزراعة، ويسكنون الأرياف البعيدة من المدن، وي Pax;عون، دائمًا، لأحكام بيئته واحدة مشتملة على طبقة ضَيِّقة من التقاليد والعادات، ولا ي Pax;ون شيئًا من التحول المُهُمَّ غير ما يتحوّل به دينهم، وأولئك هم الذين يجب البحث في أحوالهم للوقوف على بعض ما جاء في القرآن من النُّظم.

إنني أتخذ، من مختلف السكان، عرب حوران مثلاً للبحث، وتقرَّب من بادية الشام بلاد عرب حوران الذين هم من أنصاف المستقلين، والذين أجاد مسيو لوپليه درس شؤونهم في كتابه المتع عن عمال الشرق، فنرى من المفيد أن نبحث في أحوالهم لنتمثّل كيف يعيش السكان الذين تختلف طبائعهم عن طبائع جيرانهم من أهل الحضر وأهل البدو، ولنعلم ما نشأ عن هذا الجوار من النُّظم.

يعد أهل حوران الذين أدرس حياتهم الاجتماعية من العِرق العربي وإن لم يقيموا بجزيرة العرب، فقد كان يسكن حوران بعد ظهور المسيح بزمن قصير قبائل عربية (من القحطانيين على رأي فترشتاين) كانت قد هاجرت من جنوب جزيرة العرب وأقامت دولة السليحيين ثم دولة الغساسنة التي كانت تحت رعاية الرومان، ونصب، فليب، الذي هو من عرب حوران، قيصرًا رومانياً في سنة ٢٤٤ م، وليس بمجهولٍ أن عاشت دولة الغساسنة خمسمائة سنة، ولم تنفرض إلا باستيلاء خلفاء محمد علي أملاكها، ويعود إلى الغساسنة فضلًّا إقامة الآثار العظيمة التي لا تزال ماثلةً في بلاد حوران، ولا سيما في عاصمتها القديمة بُصْرِي، ولا تزال تُرى هنالك كتاباتٌ بالخط الحِميري الذي سُمي باسم لغة بعض القبائل القديمة في جزيرة العرب.

ويتألف عرب حوران المجاورون لبصري من أعراب وحضريين، فاما الأعراب: فلا يظهرون في حوران إلا صيفاً، ويرحلون في الشتاء إلى العراق أو إلى وادي الأردن، أما الحضريون: فهم جمّع من الزُّمر التي تجمع بينها صلة القرابة، فتخضع لرئيسٍ أُسْرَةٍ خصوصاً تشابه به نظام القبيلة الفطري كما يرى.

وجميع تلك الزُّمر من الزمر الزراعية، وهي إذ كانت قليلة الأهلين بالنسبة إلى اتساع الأرضين الصالحة للفلاح لا تحرث كلُّ واحدٍ منها سوى قسم.

وأَرَضُوا كُلَّ قرية مُشاعةً بين أفرادها، ويستطيع كل واحد من هؤلاء أن يزدَع منها بنسبة ما عنده من البقر، وتبع الحبوب، التي تزيد على احتياجات بقر كل زُمرة وجماليها من الأعراب أو من تجار دمشق، أو أن القوافل تنقلها إلى سواحل سوريا لترسل إلى أوربة.

وتكون المنتجات مال الزُّمرة خلا الدَّخل القليل الذي يناله بعض الأفراد من بعض المصادر وينفقونه كما يشاءون.

وتُعد الصناعة، هناك، في حكم المعدوم تقريباً، وذلك أن الأهلين يصنعون قليلاً من النسائج، ويتعاونون ما يحتاجون إليه منها من تجار دمشق الذين يشترون حبوبهم.

وتتألف كل زمرة من أُسرٍ كثيرة، قال مسيو دِيلْبِلْ:

لا يدل اسم الزمرة التي تضم أنساً كثيرين يعيشون تحت سقف واحد على كل واحد من أفرادها دلالة واضحة، وإنما يضاف اسم ذلك الفرد إلى اسم أبيه فيقال: فلان بن فلان، وإذا ما كان للوالدين ولدٌ أضيف اسم كل منهما إلى اسمه فيقال: فلان أبو فلان أو فلانة أم فلان، وفي الغالب يُحذف اسم كل من الوالدين فيقال أبو فلان أو أم فلان، وإذا لم يكن للزوجين ولد لم يُكُنْيَا لما في التكيبة الوهمية من السُّبة، ويُسمى الناس باسم أُسرٍ حينما تكون أسماء هذه الأسر من أسماء ذوي المجد والجاه من الأجداد الذين تصلح أسماؤهم أن تكون مدار فخر للحَفَدة، وقد جَرَت العادة، مع هذا، على إطلاق اسم جد الأسرة المجيد على ربّها العتيق وحده، وإن كان ذلك من حقوق جميع أفراد تلك الأسرة.

ويبلغ عدد أفراد كل أسرة في الزمرة، ومنهم الخَدَم، نحو ثلاثين شخصاً تابعين لرئيسها الذي هو أكبر أفرادها سِنّاً، وتقوم النساء بتدبير منزل الأسرة حسراً، ويعاملن

برفق ولطف وإن كن يُرْقَبُن رقايةً وثيقة، وإذا حدث أن اقترفت إحدى الفتيات خطيئة، وهذا ما ينذر وقوعه، قتَّتها أقرباؤها.

ويُرجَع إلى القرآن والعادة في أحوال حَضَرِيَّيَّ العرب الشرعية، ويفصل شيخٌ في خصوماتهم، وقد يرْضَى أهل القتيل بالدِّيَة، ويُفَضِّلُون القِصاصَ علىَها في الغالب، ويؤَدِّي كلُّ قتْلٍ إلى تعاقب حوادث القتل بتعاقب الأجيال.



شكل ١-٤: مخيم أعراب بالقرب من طنجة (من صورة فوتوغرافية).

ولا تقع حوادث القتل إلا نادرًا لما ينشأ عنها من النتائج الخطرة، ويحترم الأعرابُ أنفسهم حيَاة الإنسان حين النهب خوفاً من التأر، وما يؤدي إليه التأر من تأصُّل العداوة وتأرُّثها.

ويكون التأر نافعاً عند من هم على الفطرة، وإن ظهر أول وهلة عملاً همجياً، فهو يمنع حوادث القتل التي تقع، لا محالة، عندما يكون القانون رحيمًا، وهم يرون أنه أحسن القوانين؛ لأنَّه الدواء الوحيد.

ولا نظام يُكرِه الأفراد على العيش ضمن الرُّمَر، وإنما الضرورة تُلْجئُهم إلى ذلك، ففي المجتمعات التي لا ير肯 الإنسان فيها إلى حماية الحكومة يكون، وهو منفرد، من الضعف ما يُعدُّ معه محكوماً عليه بالزوال، وبهذا أيضًا نُفَسِّر التناقض كل زمرة عربية

في كل مكان حول رئيس حفظاً لحياة أفرادها، والحق أن هذه الزمرة الصغيرة ليست غير شركاتٍ لا بد منها لحفظ حياة الأعضاء الذين تتتألف منهم، ويقوم نظام القبائل البدوية على مثل هذه الضرورة، ويتصف نظام القبائل هذا بعدم التحول اتصافها به. وليس بعيد أن كان عجز الفرد في كل مجتمع ضعيف النظام سبباً لظهور تلك الزمرة، فإذا ما قامت حكومةٌ مركبةٌ مقام الزمرة في حماية الأفراد زالت تلك الزمرة عن الوجود أو كادت.

ونذكر، بجانب أفراد الأسر التي تتتألف منها الزمرة وتقاسمها المنافع، فريق الخدم الذين إما أن يكونوا قد أتوا من الخارج طلباً للرزق، وإما أن يكونوا من زُمر أخرى لم يألفوا العيش فيها، وإما أن يكونوا من زمرة مُنحلة لنكبة حلت بها أو لعلة أخرى. وأمور الزراعة هي أكثر ما يمارسه هؤلاء الخدم الذين يصبحون بذلك من المزارعين، والذين يتلقّاضون ربع الغلة غالباً في مقابل أعمالهم، ثم يُعدُّ هؤلاء الخدم من الأسرة واياكلون من طعامها، وليس من القليل أن يتزوج خادم إحدى بناتها، ومما يحدث على العموم أن يُشرط على الخادم ألا يأخذ أجرة سوى طعامه وثيابه لسنين كثيرة، وعقدٌ مثل هذا يذكرنا بما صنعه يعقوب مع لبان ليتزوج راحيل، وعقدٌ مثل هذا يثبت لنا ضعف التحول في طبائع العرب وعاداتهم منذ العصر الإسرائيلي، وقد يحدث أحياناً، كما كان يحدث في ذلك العصر، أن يطالب الحمو بإطالة مدة الخدمة وإن لم يُشرط ذلك في العقد.

وسواءٌ على الخادم أن تزوج إحدى بنات سيده أم اقتضى مبلغاً من المال؛ ليتزوج، وليشتري بعض الأنعام، وليرسل أسرةً، وليرزع لحسابه الخاص، لا تكون الخدمة عند أولئك الناس الذين هم على الفطرة سوى مرحلة لبلوغ ما هو أعلى منها.

وجميع من ذكرنا من الأهلين هم من القائلين بمبدأ تعدد الزوجات، شأنُ جميع الشرقيين، والضروراتُ هي التي تبيح لهم تعدد الزوجات كما نُبّين ذلك في فصل آخر، والزوجات هن اللائي يحرضن أزواجهن قبل أي إنسان على تزوج نسوة أخرى.

ويوجد لحضريي حوران، ككل بلد مجاور للصحراء وكمعظم جزيرة العرب، صلاتٌ بالأعراب الذين يضطرون إلى السلب؛ لعدم كفاية ما تُنتجه مواشيهم وخيوطهم وجمالهم. ومصالح الأعراب والحضريين متناقضَةٌ تناقضَ مصالح الصائد والطائر، فالصائدُ يرغب في أكل الطائر، والطائر يسعى لكيلا يأكله الصائد، ولكن الضرورة التي هي أقوى مهيمن على الإنسان لم تثبت أن وفقت بين مصالح فريقِي العرب المتناقضة، وذلك أن

الحضريين يدفعون إلى الأعراب في كل سنةٍ من المال ما يقابل حمايتهم لهم، وأن الأعراب يذبون عن الحضريين طمعاً فيما يأخذون منهم، وهذا يعني أن الحضريين يتذكون بعضَ غلّاتهم ليُنقدوا بقيتها، وهذا لا يختلف، في غير الشكل، عما يدفعه الرجل المتمدن إلى إحدى شركات التأمين من المبالغ لتضمن له ماله، ولا عما يدفعه إلى الحكومة منضرائب؛ لتهدي منها رواتب الشرط والقضاء وسائر الموظفين الذين يكفون الأذى عنه. والحق أن أولئك العرب، الذين لم تكن لهم حكومة لتدفع رواتب إلى الشرط والجند ولتمتنع بذلك سلبهم، يُضطرون إلى مداراة قطاع الطرق، والنتيجة واحدة، وليس التفقات أشدّ وطاً.

وتصبح القبائل البدوية حلقةً للقرى المجاورة في مقابل ما تدفع إليها هذه القرى من الآتاوى، وتقوم بالدفاع عنها إزاء الأعراب الآخرين الذين يمكنهم أن يهاجموها، ولا يحُدث مثلُ هذا الهجوم إلا نادراً لقلة ما يظفرون به من الغنائم من غزوهم لقرية تحافظ عليها قبيلة أخرى.

وتتشابه مساكن حضريي حوران مساكن سورية، فيتتألف كلُّ بيت فيها من جناح للغرباء، ومن جناح للأسرة، ومن مراافق وساحات وأصاليٍ وما إليها، وتحيط الحاجز بِعماءٍ^٤ البيت، ويُصنع هيكله من الخشب وجُدرُه من الصَّلصال^٥، ويتألف أثاثه من الفُرش التي يُنام عليها.

(٢-٣) المساكن

لندع الآن جانباً حياة العرب الاجتماعية، وهم الذين اتخذُتهم مثلاً، ولنتكلّم قليلاً عن حياة العرب المنزلية في مختلف الأرياف فنتحدث عن منازلهم وطعامهم وأزيائهم: إن بيوت طبقات العرب الوسطى والدنيا على جانب كبير من البساطة، وهي تختلف عن بيوت أغنياء العرب الزاهية التي سنصفُها في الفصل الآتي.

وطرأت تلك البيوت العاُمُ واحدُ في الشرق كله، وهي تُفَقِّد كثيراً من مظاهرها الشرقية الأصلية في البلاد التي صار للأوربيين نفوذاً فيها، وليدنْه إلى بعض القرى في سوريا والجزائر ومراکش من يرغب في رؤية تلك البيوت المربعة البيضاء ذات السطوح ذات الشكل المكعب والفرج الضيق، والتي تكتسب منظراً عريقاً في شرقitiesه عندما يحيط النخل بها. وتختلف أنواع المواد التي تُبني بها تلك المنازل، كالحجارة واللُّطُّ وغيرها، باختلاف البلدان والبيئات، فإذا نظرت إلى منازل العرب القائمة على ضفاف النيل، مثلاً، رأيتها



شكل ١-٥: جمالة في مصر (من صورة فوتوغرافية).

مبنيّة من الآجر المصنوع من طين ذلك النهر الممزوج بالتبّن والمجفف بفعل الشمس، وأنه يَندر أن يزيد ارتفاع بعضها على ثلاثة أمتار، وأنها لا تُدخل إلا من باب ضيق جدًا، وأنه لا يوجد في منازل فقراء الفلاحين من المنافذ سوى أبوابها، وأن منازل ذوي اليسار منهم تتّألف من أقسام كثيرة مستقلة: من بيوت للسكن، وحظائر للأنعام، وأبراج للحمام ... إلخ، وأنه يحيط بتلك المنازل جدرٌ طينية مُكلسَة، وأن أثاثها يتّألف من فرش فقط، وأنه قلما يوجد فيها متكأً، وأن الثياب تُعلق على حيطانها، وأن الفُرش واللُّحاف تُطوى في كل صباح وتُوضع على الرِّفاف، وأنه يحيط بأغلبية البيوت حياطٌ على العموم. وهنا أنبئ القارئ إلى أن المنازل العربية وأبراج الحمام في مصر تُمثّل إلى المباني الفرعونية القديمة بصلة القرابة، وقد كانت تمثل لي من بعيد أبراج الحمام المصرية،



شكل ٦-٦: عرب معتقلون بالقرب من تونس (من صورة فوتوغرافية).

الكبيرة أحياناً كبعض البيوت الأوربية، وما يحيط بها من المرافق أطلالاً لبعض المعابد المصرية، فأبراج الحمام المصرية مقتبسةٌ من صروح قدماء المصريين، والمنازل المصرية تميل إلى الشكل الهرمي الذي يظهر أنه دستور فن العمارة الفرعونية، وبهذا وحده يبدو تأثيرُ الطراز المصري القديم في طراز البناء الإسلامي، ويزول العجب عندما نعلم أن سكان وادي النيل حفَّةٌ لقدماء المصريين أكثر من أن يكونوا عرباً.

(٣-٣) الطعام

يقتصر فقراء العرب في طعامهم على ^{الطُّلْم}^١ وبعض الخضر والفواكه كالملوز والتين والرطب، ويحتوي طعام الموسرين منهم على اللحم في الغالب، وتعد الفراريج المقطعة المحاطة في الصحن بالأرز أكلة المصريين الوطنية، ويعتمد أهل الجزائر في طعامهم على الكسكسو المصنوع من العجين المحبب المخلوط بأنواع اللحوم ولا سيما لحمُ الصان. ومهما يكن العربيُّ فقيراً، ومهما يكن العربي بدوياً، يبالغ في اقتداء الضيف، وينفق في هذا السبيل من سعة، ويُؤتى بصحون الطعام على طَبَقٍ كبير من النحاس، وينجلس

من حوله القرفصاء، ويتناول الطعام بالأيدي، لا بالملاعق والشوكات التي ليست موجودة، ويكون اللحم مقطعاً سلفاً، وتوخذ من مختلف الصحنون قطعاً من اللحم وتُخرج في الكف حتى تصبح كبةً، ومن أدب المائدة عند العرب: أن تقدم هذه الكبة إلى الضيف ليزدَرِّها، ومن سوء الأدب رفضها، فإذا ما كانت تلك الكبة من صنع أعرابي لم يَقُم بما أمر به القرآن من الوضوء كانت من نوع حبوب المرضى العسيرة الهضم، وإذا ما فرغ الضيوف من طعامهم أحضرت إليهم الطسُوت ليغسلوا أيديهم.

ولا تزال الطبخة العربية في المراحل الأولى، وقد أتيح لي، مع ذلك، أن أرى على الموائد العربية من أنواع الطعام ما تجهله الموائد الأوروبية، ولا سيما الحلويات الفاخرة والقدسيّات المتقدنة، وقد حَدَّقَ العرب عمل الحلاوة والمرببات كثيراً.

والماء هو ما يشربه المسلمون عادةً، ولكنهم في الشرق يشربون العرق المصنوع من البلح والمزروج بالمصطكاء، وذلك مع قليلٍ من الجهر.

وليس بمجهول أن موائد النساء العربيات مستقلة عن موائد الرجال، وأن أزواج رب العائلة وبيناته يُبالغن في خدمته ولا يأكلن إلا بعد أن يتم طعامه.

(٤-٣) الأزياء

يعجبُ المرأة، حين يتصفح إحدى المجالس التي صدرت منذ قرن والمشتملة على صور للأزياء التي شاعت في أوربة وحدها في غضونه من تحول آراء الأوربيين وأذواقهم في الأزياء ومحافظة العرب على أزيائهم التي ألغوها منذ اثنى عشر قرناً مما يدلُّ على ثبات تقاليدهم، أجل، لم تكن أزياء المسلمين واحدة في جميع أنحاء إفريقيا ومصر وسوريا وجزيرة العرب، ولكنه يسهل تبيين ما بينها من الشبه العظيم، وهي تُردد إلى جلباب وعباءة دائماً، والعباءة زرقاء أو سوداء في مصر، وببيضاء في الجزائر، ومختلطة بخطوط بيض وسود في سوريا ... إلخ.

وقد يكون غطاء الرأس أكثر ما يتحول من الأزياء العربية، ومع ذلك فإن غطاء الرأس قد تحول ضمن دائرة ضيقة، ففي مصر يلبسون الطربوش والعمامة، وفي سوريا يلبسون الكوفية، وهي منديلٌ زاهي الألوان يُلفُّ به الرأس، وهو مصنوع من وبر الإبل، وفي الجزائر يُستر الرأس بغطاء أبيض يستقر عليه بشطَّان^٧ مماثل للعقال.

وليس لأزياء النساء أنواع في غير الطبقات الموسرة، ويتألف لباس المرأة الفقيرة من حلقة طويلة مشدودة من الوسط بنطاق، ومن غطاء لا يترك من الوجه شيئاً ظاهراً سوى

العينين، ويتألف ثوب المرأة المصرية من جلبابٍ أزرق مصنوع من القطن، ولا تعرف المرأة المصرية، ولا الشرقية، المشد وما إلى المشد من وسائل التجميل المصنوعة، ومع ذلك فإن الفلاحة المصرية ذات بخترٍ تائهة تُذهب رجال الفن، وتذكرنا ببخترة إلهات قدماء الأغارقة، والإنسان، وقتما يرى الفلاحة المصرية الناهدة الضامرة الكتف الحاملة إناءً على رأسها تمشي باتزان، يقطع حقاً بأن أمهر الخياطين في أوربة لم يُوفّقوا لمنح المرأة الأوروبيّة مثل هذه المشيّة على الرغم مما يلجأون إليه من وسائل التجميل المصنوعة الغالية.

وأقول زيادهً على ما تقدم، وذلك لكيلاً أعود إلى دراسة الأزياء عندما أبحث في شؤون عرب المدن، إن ملابس أغنياء العرب معقدة، ولكنها أنيقة، وهي مؤلفة من قُمصٍ من الحرير أو الشفوف، ومن صدراتٍ مطرزة بالذهب، ومن سراويل واسعة ... إلخ، وإن النساء يلبسن، وقتما يخرجن من بيوتهن، مازرٍ ويسترن وجوههن ببراقع.



شكل ١-٧: أعربيتان من جوار بعلبك (سورية، من صورة فوتوغرافية).

وليس من المفيد أن نُسهب في بيان الذي عند العرب بأكثر مما تقدم، وما نشرنا في هذا السفر من الصور الكثيرة أفضل من كل إيضاح، فأرجو أن يتبنّى القارئ عالم الشرق، الذي يختلف عن عالمنا، من خلال صور الأزياء والأمثلة والمباني وما إليها أكثر

أهل البدو وأهل الأرياف من العرب

مما يوصف ذلك العالم الذي لا يتجلى من غير أن يُلقى في الروع باهر الصور وزاهي الألوان.

هوا مش

- (١) الدفل: نبت زهره كالورد وحمله كالخروب.
- (٢) الملة: الجمر، الرماد الحار.
- (٣) الرضف: الحجارة المحماة.
- (٤) الغماء: السقف.
- (٥) الصلصال: الطين اليابس يصل من يبسه.
- (٦) الظل: جمع الظلمة وهي الخبزة.
- (٧) الشطن: الحبل.

الفصل الثاني

عرب المدن: طبائعهم وعاداتهم

(١) المجتمع العربي

إن مما يستوقف النظر ما نراه من التضاد بين ثبات نظم الشرقيين، وتسليمهما بالأمر الواقع الذي ليس له دافع، والإخاء السائد لمختلف طبقاتهم من جهة وتراث الأوربيين الدائمة وهرجهم وتنافرهم الاجتماعي من جهة أخرى.

وأظهر ما يتصف به الشرقيون: هو أدبهم الجم، وحلّمهم الكبير، وتسامحهم العظيم نحو الناس والأموال، ودعّتهم وقارهم في جميع الأحوال، واعتدالهم الكبير في الاحتياج، وقد منحهم إذعانهم الهدى لمقتضيات الحياة طمأنينةً روحية قريبة من السعادة المنشودة على حين تورثنا أمانينا واحتياجاتنا المصنوعة قلقاً دائمًا بعيداً من تلك السعادة.

ومن السهل ذُم ذلك التسلیم الفلسفی وبيان محاذرته، ولا ينکر، مع ذلك، أن المفكرين الذين درسوا تقلبات الأمور لم يُوفّقوا بعد لاكتشاف ما هو أكثر ملاءمةً لحكمة الحياة، فلا يجوز، والحالة هذه، ازدراهُ مزاج نفسي يمنح المرء سعادة وطمأنينة وإن لم يساعد على تقدم الحضارة في كل وقت.

وليس من الصعب أن نتمثل الحال التي كان عليها المجتمع العربي أيام ازدهار حضارة أتباع النبي بطريق البحث في حالة المجتمع العربي الحاضرة وفي حوادث الماضي، فقد دل وصفنا لحاضر العرب في مختلف الأقطار التي كانوا سادة لها على أن ما يشاهد من أنفسهم وتسامحهم كان يشاهد أيام حضارتهم أيضاً، وقد وصفنا طبائعهم النبيلة وفروسيتهم، ورأينا أن أوربة المتبربة اقتبسنها منهم.

وإن ما نراه خاصاً بالطبقات الأوربية العليا من الأدب والوقار، هو من الأمور الشائعة بين مختلف طبقات الشرق كما أجمع عليه السياح، وإليك ما قاله الفيكتور ڤوغيه عندما تكلم عن تزاور أفراد طبقات العرب: «لا يسعني سوى الإعجاب بما يسود اجتماعات أولئك الفرسان من الود والآدب، وما أعظم الفرق بين اتزان أقوالهم ونبُل أوضاعهم ولَغَط بني قومنا ووقفاتهم!»

وأتيح لي، غير مرة، أن أتصل بكثير من العرب في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، فقضيت العجب في كل مرة من الود والتراحم اللذين كان يستقبلني بهما أنسٌ لا تعلو طبقتهم الاجتماعية طبقة فلاحي أوربة، لا فرق في ذلك بين أن يكون رب البيت فقيراً أو غنيّاً، وذلك أن الواحد منهم يتقدم نحوك لِيُحِيِّيك على الطريقة الشرقية، أي بوضع يده على صدره وجيئه، وليدعوك إلى الجلوس على متاكٍ في صدر البيت المقابل للباب، ثم يعرض عليك سيغارة أو نارجيلة للتدخين وقهوة للشرب، وينتظر منك بأدبٍ أن توضح له سبب زيارتك.

(٢) المدن العربية، البيوت، الأسواق ... إلخ

(١-٢) المدن العربية

يكفي كثير من المدن العربية الحاضرة، كدمشق وبعض الأحياء في القاهرة؛ لتصوُّر ما كانت عليه المدن العربية في سالف الأزمان، وقد تكلمتُ عن منظر شوارعها الملتوية المشوّشة غير مرة، ولا فائدة في الرجوع إلى ذلك الآن، وإذا ما أغضيْت عن المدن الشرقية التي تلمس فيها نفوذ الأوربيين، كالمدن الساحلية السورية مثلًا، رأيت شبهًا عظيمًا بين مدن الشرق قاطبة، فالسائح الذي ينتقل إليها فجأة بقوة ساحر يَعْلم من فوره حقيقة الجزء الذي هو فيه من الكرة الأرضية.

وتنقطع الحركة في شوارع جميع المدن العربية مع غروب الشمس، وتُغلق الحوانيت في ذلك الوقت، ويدخل الناس بيوتهم، ولا يخرج الإنسان من بيته ليلاً إلا حاملاً فانوساً لعدم الإنارة الصنوعة.

ولا عهد للشريين بما في مدن أوربة من الحركة الليلية ومن الحوانيت والقهوات المضاءة بأبهى الأنوار، ومع ذلك يجد الشرقيون في حياتهم المنزلية من الروعة ما يستغنوون به عن ملاهي الليل، فإذا قُيِّض لأتاس منهم أن يزوروا أوربة بهرتهم حركة مدنها الليلية، وقالوا: إن ملَل الغربين في بيوتهم يدفعهم إلى الخروج منها وملازمتهم الأندية أو القهوات، وقد قال لي تاجرٌ بغدادي وقورْ زار عواصم أوربة كثيراً: «إن ذلك من النتائج السيئة للاقتصار على زوجة واحدة لا ريب».



شكل ١-٢: شارع قديم في القاهرة (من صورة فوتوغرافية).

وليس شوارع الشرق موضوع عناية أحد، وترك أمر إزالة ما يُلقى فيها من الأقذار للكلاب، والكلاب لا تترك منها شيئاً، ولا صاحب لهذه الكلاب التي تشتمل كل مدينة على الآلاف منها فتعيش جماعات يكون في كل حي واحدة منها، ولا يخرج كلبٌ من حيٍ من

غير أن يمْزَق، ولذا ليس من الممكن أن يقتني رجلٌ كلبًا في الشرق، فإذا ما حدث أن كان له كلب وقطع معه شارعًا مزقته كلاب الأحياء التي يمرُّ منها حتمًا. ويتعامل الشرقيون الكلاب وجميع الحيوانات برفق عظيم، ولا ترى عربيًّا يؤذنِي حيوانًا، وإيذاء الحيوان من عادة سائقى العربات في أوربة، وليس من الضروري، إذن، أن يؤلِّف العرب جمعيات رفق بالحيوان.



شكل ٢-٢: شارع في طنجة (مراكش، من صورة فوتوغرافية).

والحق أن الشرق جنةُ الحيوانات، وفي الشرق تُراعى الكلاب والهرة والطيور ... إلخ، وتحلق الطيور في المساجد، وتتوگر في أطنافالها مطمئنة، وتأوي الكراكي إلى الحقول من غير أن تؤدي، ولا تجد صبيًّا يمسُّ وُكُنًا، وقد قيل لي في القاهرة بصيغة التوكيد، وهذا يؤيد ما ذكره بعض المؤلفين، إن في القاهرة مسجداً تأتيه الهرة في ساعاتٍ معينة؛ لتناول طعامها وفق شروط أحد الواقفين منذ زمن طويل.

وجزئياتُ كتلك تدل على طبائع الأمة، وتدل على درجة افتقار الأوربيين إلى تعلم الشيء الكثير من حلم الشرقيين وأنسِهم.

ولا يعرف الشرق من أمور العربات سوى الشيء اليسيير، ولا ترى في الشرق غير طُرق قليلة صالحة لسير العربات، ولا يعتمد الشرقيون في شؤون النقل إلا على الخيل والجمال والحمير، والناسُ في مصر يستخدمون الحمير على الخصوص، والناس في

القاهرة يركبون الحمير في جولاتهم اليومية، والحمير المصرية أجملُ من الحمير الأوروبية التي فقدت صيتها، ولا يرى عليه القوم في مصر ولا نسائهم غضاضةً في امتطائهما.



شكل ٢: دابة في القاهرة (من صورة فوتوغرافية التقاطها سباه).

ولكل حمارٍ في مصر سائقٌ يدفعه إلى العَدُو بصوته أكثر مما بعصاه، ولا يطيع الحمار المصري غير سائقه، ولا يأبه له لكلٍّ حتّى يقوم به أي سائق مؤقت آخر.

(٢-٢) المساكن

يميل سكان المدن من العرب إلى إنشاء مساكنهم على الطراز الأوروبي في الوقت الحاضر، ولذلك تصبح القصور العربية القديمة نادرة جدًا.

وتشاهد أجمل البيوت المبنية على الطراز العربي في دمشق، وليس في مناظر هذه البيوت الخارجية ما يستوقف النظر على العموم، وفي داخل المنازل، لا في خارجها، تتجلّ حياة الشرقيين الذين لا يضخون بشيء في سبيل المظاهر، وتدخل تلك البيوت، على العموم،

من مَسْلَكٍ ضيقٍ مُقْبَبٍ يجلس فيه الخدم، وإذا ما انتهيت منه دخلت ساحَّةً كبيرة، وإن شئت فَقُلْ حديقةً مُفْرَشَةً بالرخام ومشتملةً في وسطها على حَوْضٍ مُحاطٍ بأشجار الصفصاف والبرتقال والليمون والرمان وأنواع الرياحين التي تنشر شذاها داخل البيت، ويحيط بتلك الساحة أقسام البيت الصالحة للسكن، والتي يحتوي داخلها كُلَّ زخرف عجيب، والصورة التي التقناها عن داخل أجمل قصور دمشق فنشرناها في فصل آخر أَفْصَح دليل على ذلك، والوصف أَعْجَز من أن يُصوِّرَ لنا ما لِسُقْفِهِ من الرواقد الناتئة والأشكال الهندسية المجوَّفة التي نقَشَ المتقنون أَجْمَلَ النقوش العربية على خشبها الأَرْزِي والحماطي^١، والوصف أَعْجَز من أن يصوِّرَ لنا، كذلك، رسوم قطعه الزجاجية العجيبة، وجُدُرُه المكسوة خطوطًا وكتاباتٍ، وأفاريزه المتداة التي تربط السقف بجوانب حياته.

وتُقْسِمُ الردهة المهمة المرتفعة ارتفاع طبقتين في ذلك القصر إلى ثلاثة أقسام على العموم، وتحيط هذه الأقسام بساحة مُبْلطة، وتتوسط هذه الساحة فِسْقِيَّةً رُخاميَّةً منقوشةً مثمنَةً الزوايا فوَّارةً.

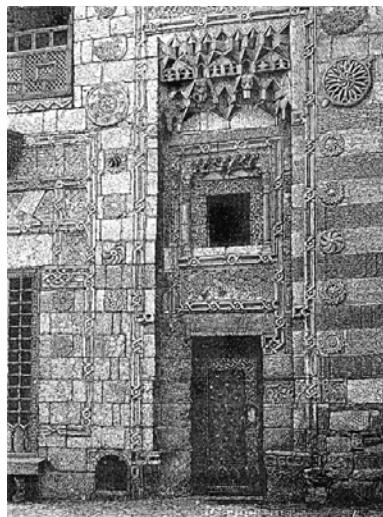
ويتألَّف رياش ذلك القصر من أَرْيَكَةٍ كبيرةٍ مغطاةٍ بالحرير المطرز بالذهب والفضة حول حيَاط رَدْهَتِهِ، وتشتمل بقيةِ أَمْتَعَتِهِ على مُتَكَّأَاتٍ ومقاعدٍ صَدَفِيَّةٍ وَمَشَاكِيٍّ مستورَةٍ بالرخام والخشب الثمين والزجاج والمينا الفارسي؛ لتوضع فيها الأواني الصينية والفضة وفناجين القهوة المستقرة بظروفٍ صَغِيرَةٍ مُخْرَمَةٍ والنارجيلات والمبادر ... إلخ.

ويَشُدُّ العربيُّ الراحة في تلك الملاجيء^٢ الهدائِةُ الساحرةُ العَطَرَةُ التي يَتَخلَّلُها الرُّخَاءُ لا يَنْفُذُ من نوافذها سوى ضياءً قليلًا، ولا يُعْگَرُ صفوها غيرُ خيرِ ماءِ الحياض الرموري، ويستطيع العربيُّ الذي تحيط نساؤه به هناك أن يطلق لخياله العنانَ فِيُخَيِّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ انْتَقَلَ إِلَى جَنَّةِ مُحَمَّدٍ مِنْ خَلَالِ دَخَانِ نَارِجِيلِتِهِ.

ويختلف طراز البيوت العربية في الجزائر ومراكش بعض الاختلاف عن طراز بيوت العرب في دمشق، فقد استُبدلَت القاعة فيها بالحدائق لضيق الاتساع، وتحيط بالقاعة أجزاء المسكن.

وإذا ما نظرَ الإنسان إلى تلك البيوت من الخارج رأَاهَا مُكَعَّباتٍ حجريةً بيضاءً كبيرةً تعلوها سطوح، وينفذ النورُ إلى أجزائها من قاعاتٍ محاطةً بأقواسٍ تقومُ عليها طبقاتٍ من الأروقة التي تدخل الغُرْفَ منها، وهي مُبلطةٌ بالآجرِ المطلي، ويغطي المينا جدرانها، ويُسْتَرُ الخشب المحفور سقوفها من الداخل، ويتألَّفُ أثاثها من الحُصْرِ والبُسْطِ ومن

مُتَّكِأً يوضع في أقصى الغرفة ويصلح للجلوس في النهار والنوم في الليل، ومن صناديق خشبية مدهونة لصيانته الثياب واللحى، ويسْتر أعلى تلك القاعات بنسُج ذات حبال مربوطة بكلاليب على السطوح منعاً لحرارة الشمس، والواقع أن البيوت القائمة على هذا الطراز تلائم البلاد الحارة، وأن الناس في المدن العربية القديمة في إسبانيا، ولا سيما في أشبيلية، يشيدون ببيوتهم على طرازها حتى الآن.



شكل ٤-٤: باب بيت قديم في القاهرة (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

وفنُ عمارة إحدى الأمم عنوان صادق لاحتياجاتها، وإذا ارتحلت أمّة عن قطر إلى آخر حَوَّلَتْ فن عمارتها إلى ما يلائم بيئتها الجديدة، ولهذا نرى اختلافاً بين البيوت العربية في القاهرة، مثلاً، والبيوت الموصوفة آنفًا؛ فهي المدن الكبيرة كالقاهرة، حيث تضيق المساحات، تقام البيوت على ثلاث طبقات في الغالب، ولا تكون رداها مرتفعة كما في دمشق، وتُفتح نوافذها على الشوارع لعدم كفاية قاعاتها الضيقة لتجديد هوائها، ولكن العرب إذ يرون أن تكون النوافذ مغلقة أمام الغرب لم يعتموا أن اخترعوا الشبابيك الخشبية ذات التخاريم وسموها المشربيات.

والآن لا يُرى في القاهرة غير عدد قليل من البيوت القديمة التي أنشئت على طراز العمارة في عصر الخلفاء والتي تنقلب إلى خرائب، وأذكر منها بيت مدير المساجد العام، ويرى أغنياؤها في الوقت الحاضر إنشاء بيوتهم على الطراز الأوروبي لما يجدون فيها من الـهـيـفـ! وتمتاز البيوت القديمة في القاهرة من بيوت كثيرة من المدن الشرقية بأبوابها المزخرفة إلى الغاية.

(٣-٢) الأسواق

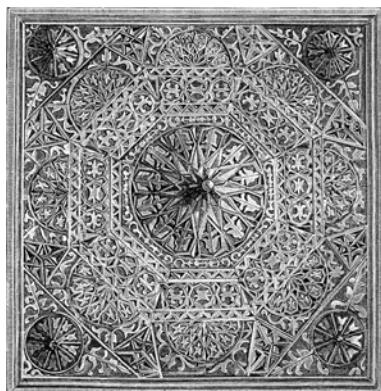
الأسواق من أهم أجزاء المدن في الشرق، فُيُرى في كل مدينة مهمة كثيراً من الأبنية التي يتَّأْلَفُ من مجموعها حي للتجارة وحدها يُسمى السوق، وتحتوي السوق على أروقة طويلة مغطاة بألواح أو حُصْر، وعلى دكاكين متجمعة على حسب أنواع السلع، ويضاف نوع السلع التي تباع في الرواق إلى كلمة السوق فتُعَنِّفَ بذلك فيقال، مثلاً، سوق الأسلحة وسوق الأزياء وسوق الأباizer ... إلخ، وإذا عَدَّتْ كُبُريات المدن لم تجد غير السوق مكاناً للبيع ولو كانت السلع مما يُسْتَهْلِك يومياً.

ولا شبه بين الدكاكين الشرقية المظلمة والحوانيت الأوروبية، ولا عهد للدكاكين الشرقية بفن العرض على الخصوص، وتبدو هذه الدكاكين مُجوفات مظلمة يترجم عُرضها بين مترين وثلاثة أمتار ولا تزيد على هذا طولاً، وتكون السلع مُنضَّدة فيها، ويجلس البائع أمامها، وتحتوي على ثروات واسعة أحياناً مع حقارة منظرها. والسوق ملْقَى الناس المفضل في الشرق، وهي المكان الوحيد الذي يكون فيه شيء من النسيم في الغالب، والنساء يقصدنه ليمكثن فيه مدة ساعات.

والرجال وحدهم هم الذين يقومون في الشرق بإدارة شؤون دكاكين الأسواق، ومنها دكاكين النصارى.

وينتظر التاجر المشتري أمام دكانه متزناً صابراً، ولا يزعج أحداً من المارين ما لم يكن التاجر يهودياً، فإذا كان التاجر يهودياً ألحf على المشتري بدناءة، فلم يستطع أن يتخلص منه إلا بعد عناء كبير.

ومن عادات التاجر الشرقي، مهما كان جنسه، أن يطلب، أول وهلة، خمسة أمثال ما تساويه سمعته، كما أن من العادات الثابتة ألا تتم الصفقة إلا بعد جدل طويل، وإذا كانت السلعة على شيء من القيمة استمرت المساومة أيامًا كثيرة، وقد اقتضى اشتراطي للنارجيلة النحاسية المكفتة بالفضة، والتي نشرت صورتها في هذا الكتاب، مساومةً دامت أسبوعاً كاملاً، فكان الشرقي لا يخرج عما يملِك إلا بعناء، فعلى من يرغب في ابتياع شيء من الشرقي أن يكون صبوراً مثله.



شكل ٢-٥: سقف بيت عربي قديم في القاهرة (من صورة فوتوغرافية التقاطها المؤلف).

(٣) الأعياد والاحتفالات: الولادة، والختان، والزواج، والدفن

(١-٣) الولادة والختان

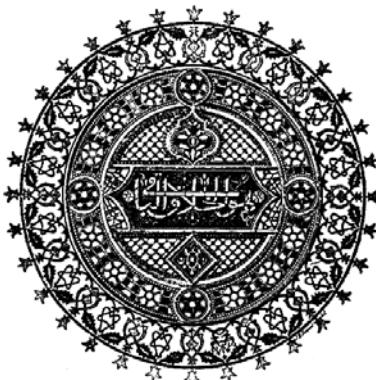
الولادة من أفراح العرب الخاصة، والختان من أفراحهم العامة، فإذا بلغ الصبي السنة السادسة أو السابعة من عمره خُتن، ويوم الختان يُسَار بالصبي في موكب عظيم في المدينة لابسًا أ finer الثياب، مبرقع الوجه، راكبًا حصاناً مجهزاً بأثمن عُدة، ومخفرًا بأولاد آخرين لابسين مثله، ويتقدم الموكب الحلاق الذي سيَخْتِنَه ورجال الموسيقا، ويعترض النساء بين الفينة والفينية للموكب مُزَغِّرات، ثم يصل الموكب إلى المسجد المُنَار بأبهى

الأنوار، ثم يسار منه إلى بيت الأبوين؛ ليتناول الناس الطعام من مائدهما، ثم يبدأ بالألعاب التمثيلية في الغالب، ويختن الحلاق الصبي عند الانتهاء من الأكل وعلى صوت الصنوج حنقاً لصوته، ويُحيي المدعوون الكثيرون ليلتهم بشرب المرطبات والقهوة والنارجيلات.

(٢-٣) الزواج

تُعد حفلات الزواج من الأفراح كحفلات الختان، وأقتصر الآن على بيان الأعراس دراساً في فصل آخر حال المرأة في الشرق: حينما يرغب الفتى في الزواج يُفوض إلى امرأة كبيرة في العمر أن تبحث له في الأسر عن الفتيات الصالحة للزواج، ويختار واحدة منهن وصف لها جمالهن وكمالهن، ثم يُفوض إلى شخص أمر خطبها، وتسأل المخطوبة عن رأيها صورةً، ولا يكون لديها ما يسوغ رفضها تزوجه ما دامت لا تراه إلا بعد عقد الزواج، ثم يفاوض الخطيب أباها في مقدار مهرها، وذلك لأن الرجل هنالك، لا المرأة كما في أوربة، هو الذي يدفع المهر، فإذا تمت المفاوضة جاء الخطيب ومعه أصدقاء له إلى بيت حمام حيث يكون منتظرًا إياه هو وبعض الأصدقاء والشهود وأحد الكتبة، وعندئذ يُلفظ بصيغة العقد الشرعية، ويُدون الكاتب ما وقع، وبهذا يكون عقد النكاح قد انتهى شرعاً، ومن هنا ترى أن ذلك الزواج عقد خاصٌ لا يتطلب تأييداً دينياً أو مراسيم مدنية، ولا تُزف العروس إلى زوجها إلا بعد أيام تقام فيها الحفلات، وتُرسل العروس المبرقعة في موكب مؤلف، من الأصحاب والموسيقيين إلى الحمام، ثم تعود إلى بيت أبيها حيث الموائد، وتُبعث مبرقعةً في اليوم التالي إلى بيت زوجها المعْدُ المُنَار بعنابة لاستقبالها، وذلك في وسط موكب تقدمه جماعةٌ من الموسيقيين والمهرجين والمصارعين، فإذا ما انصرف الناس أمكن الزوج أن يرفع النقاب عن زوجه وأن يتأملها لأول مرة.

ولا تقام تلك الحفلات إلا في الأحوال التي يكون فيها عقد نكاح، وعندما لا يُصار إلى طريقة عقد النكاح يذهب المرأة إلى أسواق النّخاسة الكثيرة التي لا تزال موجودة في الشرق، ولا سيما في القاهرة، مع إنكار وجودها في الكتب، ويأخذ واحدةً من الإمامات الشركسيات أو الـكـرجـيات الجـسانـ بمبلغ قد يصل أحـيانـاً إلى ستة آلاف فرنـكـ، وتكون هذه الأمة من الأسرة، وتكون لأولادها ما لأولاد الزوجات من الحقوق، ويعامل الإمام برفق ولا يُفـكـرـنـ في التـحرـرـ، وإن كان التـحرـرـ من الأمـورـ السـهـلةـ إلىـ الغـاـيـةـ، فـمـاـ عـلـيـهـنـ فيـ



شكل ٦-٢: نافذة في قاعة الحرير من قصر أسعد باشا بدمشق (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

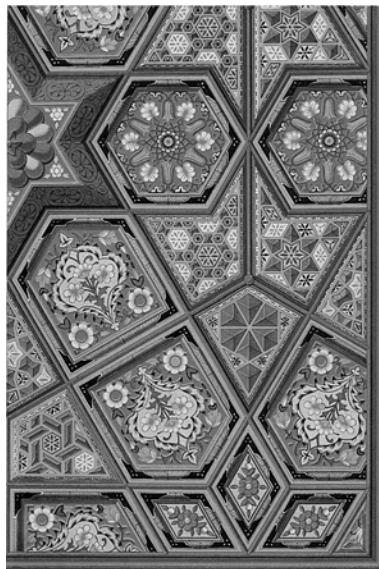
مدينة كالقاهرة، التي تعاني مناحي أوربة، إلا أن يذهبن إلى أولياء السلطة؛ ليُعرِّبن عن رغبتهن فيه.

(٣-٣) المآتم

مراسم الدفن عند المسلمين خamaة فخامة مراسم الزواج، فالمليت يوضع، بعد أن يُكفن، في تابوت ويغطى التابوت بشال كشميري، ويتناوبل حمله خمسة أو ستة من أصدقائه، ويتقدم الجنازة فريق من العُميان والمساكين مُرتلین بعض آي القرآن، ويأتي خلفها الأقرباء والأصحاب والنائحات، ويصلّى على الميت في المسجد، ثم يُدفن في المقبرة، ويُوجَّه وجهه إلى مكة، وإذا كان الميت عظيماً أقيم حول قبره بنيان مُكعب تعلوه قبة، وإذا حلّ الأعياد زُيّنت القبور بالأزهار، وقضى النساء أياماً حولها بالدعاء.

(٤) مختلف عادات العرب: الحمامات، القهوات، التدخين، تعاطي الحشيش

(١-٤) الحمّامات



شكل ٢: سقف بيت حديث بدمشق (من تصوير بورغوان).

حمامات الشرق أفضل من حمامات الغرب صحةً وراحةً، وهي، عدا ذلك، محلُّ للجتماع والمحادثة، ولا تقلُّ شأنًا عما كان لها عند قدماء الرومان. وتُنشأ حمامات الشرق على نمطٍ واحد، ولا يختلف بعضها عن بعض في غير الزينة والنفائس.

ويوجد متكأً كبيراً، في ردهة الحمام حيث يستريح المستحم ويخلع ثيابه وتحفظ، وتُترى فسقية من الرخام في الوسط، ويتألف المستحم بمنشفة، وينتعل نعلًا من الخشب، ويدخل غرفةٌ تبلغ حرارتها نحو خمسين درجة، ويستلقي على بلاطةٍ من الرخام ويُمسَد، ثم يدخل غرفةٌ ثالثة ويُدَلَّ جسمه، ويُغسَل بالصابون ويتوضاً، ويُصبُّ الماء

الفاتر والبارد عليه غير مرة، ثم يعود إلى تلك الرّدّهـة ويستلقي على ذلك المـٰتكـاً مشتملاً بالمناشف ويشرب النارجـيلاـة والقهـوة، ولا شيء يُـنـعـش الإـنـسـانـ، بـعـد نـصـبـ النـهـارـ، مـثـلـ ذلك الاستـحـمامـ، فـنـتـمـيـ أنـ يـشـتـمـلـ جـمـيعـ مـدـنـ أـورـبـةـ الـمـهـمـةـ عـلـىـ مـثـلـ تـلـكـ الـحـمـامـاتـ.

(٤-٢) القهـوـاتـ وـالـتـدـخـينـ وـتـعـاطـيـ الحـشـيشـ

يـَتـرـددـ النـاسـ هـنـالـكـ كـثـيرـاـ إـلـىـ الـقـهـوـاتـ، وـلـكـنـ لـاـ عـهـدـ لـتـلـكـ الـقـهـوـاتـ بـمـاـ فـيـ قـهـوـاتـ أـورـبـةـ منـ وـسـائـلـ التـرـفـ، وـذـلـكـ أـنـ مـتـاعـ تـلـكـ الـقـهـوـاتـ يـتـأـلـفـ مـنـ حـضـرـ وـأـكـوابـ وـنـارـجـيلـاتـ فـيـ الـغـالـبـ، وـمـعـ ذـلـكـ تـمـتـازـ الـقـهـوـةـ الـتـيـ تـعـرـضـ فـيـهـاـ بـحـسـنـ الصـنـعـ، وـالـأـورـبـيـ الـذـيـ يـتـعـوـدـهـاـ فـيـ الشـرـقـ لـاـ يـعـودـ إـلـىـ نـقـيـعـ الـقـهـوـةـ فـيـ بـلـادـهـ إـلـاـ عـلـىـ مـاضـ.



شكل ٢-٨: موكب عرس في القاهرة (من صورة فوتوغرافية التقطها سbah).

ولـيـسـ بـمـجـهـولـ أـنـ مـعـرـفـةـ الشـرـقـيـنـ لـلـقـهـوـةـ أـمـرـ حـدـيـثـ، وـأـنـهـ لـمـ يـعـرـفـوـهـاـ أـيـامـ اـزـهـارـ حـضـارـةـ الـعـرـبـ.

وـمـنـ الـعـادـةـ فـيـ الشـرـقـ أـنـ يـتـنـاـولـ الـمـرـءـ، فـيـ أـنـتـاءـ شـرـبـ الـقـهـوـةـ، التـبـغـ الأـشـقـرـ الـعـطـرـ الـلـذـيدـ الـذـيـ لـاـ يـعـرـفـ الـغـرـبـ غـيرـ نـوـعـ مـقـلـدـ مـنـهـ، وـفـيـ الشـرـقـ يـسـتـعـمـلـونـ ذـلـكـ التـبـغـ عـلـىـ الـعـمـومـ فـيـ نـارـجـيلـاتـ الطـوـيـلـةـ الـأـتـابـيـبـ وـذـاتـ النـماـنـجـ الـكـثـيـرـ، فـيـمـرـ الدـخـانـ مـنـ آـنـيـتـهـاـ.

الملوءة بماله متطهّراً بذلك من عناصره السامة قبل أن يصل إلى الأفواه، ويُبَلِّل التبغ، ويوضع في أعلى النargilas، وتُوضع عليه نُويَّاتٌ تحرق مع التنفس من أطراف تلك الأنابيب الأخرى، وتتجد السيغار شائعةً في الشرق، ويجهل الشرق السيغار.^٤

والحشيش، الذي هو مادةٌ مُسْكِرَة، من أهم وسائل اللهو والتسلية عند أمم الشرق منذ قرون، والفلاح الشرقيُّ الحقير يصبح وقتما يتعاطاه سعيداً حيناً فلا يَرْضَى بحظ أعظم ملوك الأرض بدلاً من حظه، والشرقيون قد حَلُوا بفضله مشكلة وضع السعادة في الزجاجة التي لا تَعْسُرُ حيازتها، وإذا لا يزال ذا شأن عظيم في حياتهم نرى من المفيد أن نقول كلمةً في خواصه: يُصنَّع الحشيش من القِنْب الهندي كما يَعْلَمُ العالم، وبياع في القاهرة والقسطنطينية على العموم كُمُرِّبٍ وحلوي ومعجون ومُلبَّس ... إلخ، ويُمْزَج، لتعديل خواصه، بجوز القيء والزنجبيل والقرنفل وما إلى ذلك، وكذلك بالذرّاح^٥ على ما يقال.

ويظهر أن الحشيش كان معروفاً في القرون القديمة ولم يُستَخْرُج التّرياق، الذي حكى عنه أوميرس والمادة التي رَوَى ديدورس الصّقليُّ أن نساء ديوسكونيوليس المصرية كانَ يُرْلَنْ بها هموم أزواجهنَّ وغضبهم، من غير القِنْب الهندي على ما يُظَنُّ، ومما لا ريب فيه أن أمر الحشيش كان شائعاً في سوريا أيام الحروب الصليبية.

وللأثر الذي ينشأ عن تناول الحشيش علاقةً بحال الإنسان الروحية، وأرى أن أثره النفسي يُلْحَصُ بأنه يُجْسِمُ الخيالات التي تجول في النفس، وأن هذه الخيالات تَشَتَّتُ وتتمزج بالحقائق، فإذا كانت النفس طيبة غَرَقت على العموم في بحر من الملادِ بما يلائم ما تبالي به من الأعمال عادةً، وعلى هذا الوجه يرى الشرقيون الذين يتناولون الحشيش بين حريمهم أنهم يُنْقلُون إلى ما في جنات محمد من حُور العِين مسحوري العيون برقص نسائهم مُشَنَّفِي الآذان بأغانيهنَّ.^٦

ولم يُدرس تأثير الحشيش، من الناحية العلمية، درساً كافياً مع ما يؤدي إليه درسه من النتائج الطريفة في علم النفس، وقد ذكرنا في كتاب نشرناه حديثاً عن تأثير الحشيش النفسي أنه ينشأ عن تعاطيه انفتاق شخصية الإنسان كما يحدث للسائر في النوم، فنقوم الذات غير الشاعرة التي تكون راقدةً في الأحوال العادية، والتي هي أساس حركة الإنسان بالحقيقة، مقام الذات الشاعرة، فيفقدُ الإنسان كيانه، ويُحَدِّث عن نفسه إلى شخص ثالث، ويبعد التغيير في قوله وسلوكه وأخلاقه، وتظهر حقيقة أمره، وهذا لك

يمكن حمله على إظهار سرائره، وقد يُستعان بالخشيش في الأحوال الخطرة؛ فيعترف به بعض الجرميين بذنبهم، ويُجتنب الخطأ القصائي بذلك.

(٥) الألعاب والتمثيل والراقصون والقاصرون ... إلخ

تختلف ألعاب العرب قليلاً عما نعرفه في أوربة، فلعبة الشطرنج ولعبة الفرد ولعبة الداما مما ألفه العرب، والمصارعة والرمادية ولعبة الكرة، والمسايفه ولعبة الصولجان مما هو شائع بين العرب، ولعبة الرمح، وسباق الخيل من أكثر ما يولع به الأعراب. والتمثيل من وسائل التسلية عند الشرقيين أيضاً، ولكن الممثلين في الشرق يكونون من اللُّعب في الغالب، أو، كمارأيُتُ بنفسي، من الأشخاص الذين لم يَحِدُّوا فن التمثيل أحياناً فـيُلْقِيُّون فصوَّلَهُم برصانة كالقارئ من غير أن تُمْتَأَّنْ أوضاعهم بصلةٍ إلى حقيقة ما يرغبون في الإعراب عنه من العواطف.

ويتندَّوُّقُ الشرقيون الموسيقا والأغاني كثيراً، وقلما تدخل قهوة شرقية من غير أن تسمع فيها ما لا يروق الأوربيين من ألحان الرباب والكمان والمزمار الحادة الحزنة. ويُعِدُّ الرقص في الشرق من الأمور التي يقوم بها أشخاص مأجورون، ويَحْمُرُ وجه العرب خجلًا من الرقص العلني الذي يشابه رقص الأوربيين في الرّداء العامة، وليس مما يلائم الذوق السليم عند العرب أن يرقص رجل مُتنز في المسرح على أنغام آلات الطرب. والنساء اللائي يُلْقِيُن بالعوالم هُن اللاتي يرقصن في الشرق، والرَّقصات التي رأيتها في مدن آسية وإفريقية ومصر العليا أقل من شهرتها، وتتألف هذه الرَّقصات من حركة البطن والخصير دون بقية البدن، ورقصة السيف التي شاهدتها ليلاً حول وقفة في أريحا من أروع تلك الرَّقصات، فقد اشتهرت فيها فلاحات شاهراتٍ سيوفاً رفيعةً كُنْ يُدْرِّبُنَّها حول رأسِي زاعقاتٍ في أُذُني على حين كانت الراقصات الأخرى يغنين أغانٍ يمتدحن فيها ما يُفترض وجوده في الضيف من الجاه والصيت والكرم، وكُنْ يقلن مثلاً: إنه قهر أعداء، وإن ذراعه لا تُنْتَنِي، وإن فرائص أقوى الشجعان ترتعد فرقاً حين سماع صوته ... إلخ، وتجلى مهارة الراقصات في مسْهَنَ بالسيوف رأس الضيف الكريم من غير أن يَجْرِحْه، وقد حاولتُ عَيْناً أن أحمل أولئك الفتَّيات الأعرابيات على إبداء ذلك الجُدُّ فوق رءوس أبناء قومهن، مع أن الشيخ المفوَّض إليه أمرُ حراستي أخبرني بأن من النادر إصابة أحدٍ من ذلك بأذى.



شكل ٩-٢: نارجيلة عربية مصنوعة من النحاس المكفت بالفضة (من صورة فوتوغرافية التقاطها المؤلف).

ولم يبقَ لعوالم مصر العليا ما كان لهن في غابر الأزمان من رُونق وبهاء، واللباس الذي يلبسنه أمام الجمهور هو جلبابٌ طويلاً يفتقدهن به كلَّ روعة، ولكنهن إذا ما كنَّ بين الخللَان خلعن بسهولةٍ، ورقصن لباساتٍ ثوبًا بسيطًا كالذي تَعزوه القصة إلى حواء. وأَعْدُّ قصص العجائب التي يتلوها القاصون المحترفون من أهم وسائل التسلية عند العرب، وهؤلاء القاصون منتشرون في أنحاء الشرق، ولهم حُظوة كبيرة في كل مكان، ويقص القاصون القصص ارتجاجاً في بعض الأحيان، ويقتصرن في الغالب على إنشاد قصيدةٍ أو تلاوة قصَّةٍ من رواية ألف ليلة وليلة، ولا أزال أذكر أنني زُرت حِيًّا من أحياء يafa الشعيبة ذات ليلة، فشاهدتُ فيه جمِعاً عربياً من الحمَالين والتَّوَاتِي والأجراء ... إلخ، يستمعون على نورِ مصباحٍ إلى قصة عنترة بعنایة، فتراني أشكُّ في نَيْلِ قاصٍ مثل ذلك النجاح لو أَنْشَدَ جماعةً من فلاحي فرنسة ما تَيَسَّرَ من شعر لامارتين أو شاتوبريان.



شكل ١٠-٢: نارجيلة فارسية عربية (من صورة فوتوغرافية التقاطها المؤلف).



شكل ١١-٢: دكان صانع أسلحة عربي في سوريا (من صورة فوتوغرافية).

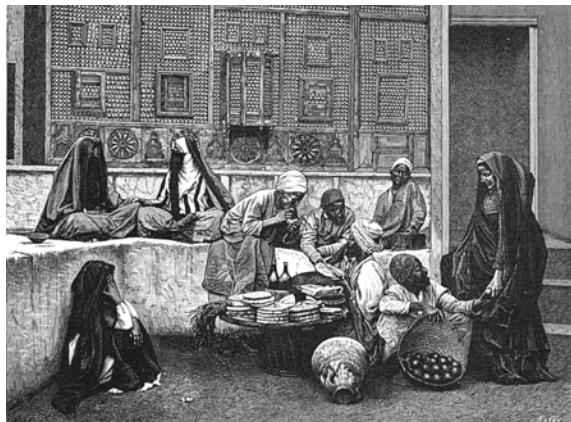
وندرك ناحيةً من أخلاق العرب بما نراه من تأثير القاصلين في الجمهور العربي الذي نعلم أنه ذو حيوية مع وقار، وقوة خيالٍ مع تمثيل، والذي يَبْدُو أنه يرى ما يَسْمِع، والذي يبلغ من فَرْطِ التأثر ما يَظْهِرُ أنه يَسْمَعُه حَقًا.

قال أحد السياح صارخًا: «لَيَنْظُرُ الْإِنْسَانُ إِلَى أَبْنَاءِ الصَّحْرَاءِ أَوْلَئِكَ حِينَما يَسْتَمْعُونَ إِلَى قصصِهِمُ الْمُفْضِلَةِ، فَهُوَ يَرَى كَيْفَ يَضْطَرِبُونَ وَكَيْفَ يَهْدَأُونَ، وَكَيْفَ تَلْمَعُ عَيْنَهُمْ فِي وُجُوهِهِمُ السُّمْرَ، وَكَيْفَ تَنْتَلِبُ دَعَتُهُمْ إِلَى غَضَبٍ وَبِكَارِهِمْ إِلَى ضَحْكٍ، وَكَيْفَ تَقْفِي أَنفَاسِهِمْ وَيَسْتَرِدُونَهَا، وَكَيْفَ يَقْاسِمُونَ الْأَبْطَالَ سَرَّاًهُمْ وَضَرَّاًهُمْ، حَقًا إِنْ تَلَكَ لِرَوَايَاتِ إِنَّ الْحَاضِرِينَ لَمْ يَتَلَوُنْ أَيْضًا، وَحَقًا إِنَّ الشَّعْرَاءَ فِي أُورَبَةَ، مَعَ نَفُوذِ أَشْعَارِهِمْ وَسُحرِ بَيَانِهِمْ وَجَمَالِ وَصْفِهِمْ، لَا يَؤْتُّونَ فِي نَفُوسِ الْغَرَبَيِّينَ الْفَاتِرَةَ عُشْرَ مَعْشَارَ مَا يَؤْتُّونَ بِهِ فِي نَفُوسِ سَامِعِيهِ ذَلِكَ الْقَاصُ الَّذِي هُوَ مِنَ الْأَجْلَافِ، إِنَّمَا أَحْيَطَ بِبَطْلِ الرَّوَايَةِ ارْتِجَافُ السَّامِعِينَ وَصَرَخُوا قَائِلِينَ: «لَا! لَا! حَفْظُهُ اللَّهُ!» وَإِنَّمَا كَانَ فِي حَوْمَةِ الْوَغْيِ مَحَارِبًا كَتَابِ أَعْدَاهُ بِسِيفِهِ أَمْسَكُوا سِيوفَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَرِيدُونَ إِنْجَادَهُ، وَإِنَّمَا كَادَ يَذْهَبُ فَرِيسَةَ الْغَدَرِ وَالْخِيَانَةِ قَطَّبُوا وَصَرَخُوا قَائِلِينَ: «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْخَائِنَيْنَ!»، وَإِنَّمَا قَضَى عَلَيْهِ أَعْدَاؤُهُمْ تَأَوَّهُوا وَقَالُوا: «تَعَمَّدَهُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ وَفَسَحَ لَهُ فِي دَارِ السَّلَامِ!» وَإِنَّمَا كَانَ الْعَكْسُ فَرَجَعَ ظَافِرًا مُنْصُورًا هَتَقُوا قَائِلِينَ: «الْمَجْدُ لِرَبِّ الْجَنْدِ!» وَيَكُونُ هَتَافُهُمْ وَقَوْمًا يَذْكُرُ الْقَاصُ مَحَاسِنَ الطَّبِيعَةِ وَلَا سِيمَا الرَّبِيعَ: طَيْبٌ! طَيْبٌ! وَلَا شَيْءٌ يَعْدُلُ السَّرُورَ الَّذِي يَبْدُو عَلَى مَلَامِحِهِمْ عِنْدَمَا يَصِفُّ الْقَاصُ امْرَأَةً جَمِيلَةً، فَتَرَاهُمْ يَنْصُوتُونَ لَهُ إِنْصَاتٍ مِنْ يَكَادُ لَبُهُ يَطِيرُ مِنَ الْوَجْدِ، وَإِنَّمَا أَتَمَّ وَصْفَهُ قَائِلًا: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ الْمَرْأَةَ! قَالُوا قَوْلُ الْمُعْجَبِ الشَاكِرِ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ الْمَرْأَةَ!

(٦) الرّقُ في الشرق

تثير كلمة «الرّق» في نفس الأوربي، القارئ للقصص الأمريكية منذ ثلاثين سنة، صورة أناس يائسين مُقرّنين في الأصفاد، مُقُودين بالسياط، رديئي الغذاء، مقيمين بمظلوم المحابس.

ولا أبحث هنا في صحة صورة الرق هذه عند الأنجلو أمريكيين منذ بضع سنين، ولا في صحة تفكير صاحب رقيق في إذاء مالٍ غالٍ كالزنجر والقضاء عليه، وإنما الذي أراه صدقًا هو أن الرق عند المسلمين غيره عند النصارى فيما مضى، وأن حال الأرقاء،



شكل ١٢-٢: بائعون جاثلون في القاهرة (من صورة فوتوغرافية التقاطها سباه).

في الشرق أفضل من حال الخدم في أوربة، فالأرقاء في الشرق يؤلفون جزءاً من الأسر، ويستطيعون الزواج ببنات سادتهم أحياناً كما رأينا ذلك سابقاً، ويقدرون أن يتسلّموا أعلى الرُّتب، وفي الشرق لا يرون في الرق عاراً، والرقيق فيه أكثر صلة بسيده من صلة الأجير في بلادنا.

قال مسيو أبو: «لا يكاد المسلمون ينظرون إلى الرّق بعين الاحتقار، فأمهات سلطان آل عثمان، وهم زعماء الإسلام المحترمون، من الإماء، ولا يرون في ذلك ما يُحطّ من قدرهم، وكانت أسر المماليك الذين ملكوا مصر زمناً طويلاً تلجلجاً، لتدوم، إلى اشتراء صغار الموالى من القفقاس وتتبناهم في سن البلوغ، وليس من القليل أن يربّي أمير مصر أحد صغار الأرقاء، ويعلمه ويدربه، ويزوجه ابنته، ويفوض إليه إدارة شؤونه، وترى في القاهرة أكابر من الوزراء والقادة والقضاة اشتريوا الواحد منهم في شبابه بما لا يزيد على ألف وخمسمائة فرنك.»

واعترف جميع السياح الذين درسوا الرق في الشرق درساً جدياً بأن الصفة المُفرضَة التي أحدها حوله بعض الأوربيين لا تقوم على أساس صحيح، وأحسن دليل يقال تأييدها لهذا هو أن المعاولي الذين يرغبون في التحرر بمصر ينالونه بإبداء رغبتهم فيه أمام أحد



شكل ٢: كاتب عرائض في القدس (من صورة فوتوغرافية).

القضاة، وأنهم لا يلتجأون إلى حقهم هذا، قال مسيو إير مشيراً إلى ذلك: «يجب عَد الرقيق في بلاد الإسلام مَبْخُوتاً على قدر الإمكان».

ومن السهل أن أكثر من اقتباس الشواهد على صحة ذلك، ولكنني أكتفي بذكر الأثر الذي أوجبه الرق في الشرق في نفوس المؤلفين الذين أتيح لهم درسه في مصر حديثاً، قال مسيو شارم: «يبدو الرق في مصر أمراً ليناً هيناً نافعاً منتجًا، ويعُد الغاؤه فيها مصيبة حقيقة، ففي اليوم الذي لا يستطيع وحوش إفريقيا الوسطى أن يبيعوا فيه أسرى الحرب، ولا يرون فيه إطعامهم، لا يُحِجِّمون عن أكلهم، فالرُّق، وإن كان لطخة عارٍ في جبين الإنسانية، أفضل من قتل الأسرى وأكل لحومهم إذا ما نُظر إليه من وجهة نظر هؤلاء الأسرى، وذلك على الرغم من رأي مُحبِّي الإنسانية من الإنكليز الذين يقولون: إنه أجرد بكرامة الزنوج أن يأكلهم أمثالهم من أن يسودهم أجنبي!»

وقال مدير مدرسة اللغات في القاهرة مسيو دو فوجانى: «ترى الأرقاء الذين يستفيدون من الحرية المنوحة لهم قليلاً إلى الغاية مع أن هذه الحرية تسمح لهم بأن يعيشوا كما يشاءون من غير إزعاج، فالأرقاء يُفضلون حال الرق السالم من الجور على حال القلق الذي يكون مصدر آلام ومتاعب لهم في الغالب.

«وترى الأرقاء في مصر أحسن حالاً مما كانوا عليه قبل استرقاقهم بدلًا من أن يكونوا من البائسين المناكيد، وبلغ الكثيرون منهم، ولا سيما البيض، أرقى المناصب في مصر، ويُعد ابن الأمة في مصر مساوياً لابن الزوجة في الحقوق، وإذا كان ابن الأمة هذا يُكرأ أبيه تمتع بكل ما تمنحه الـبِكْرية من الامتيازات، ولم تكن من غير الأرقاء زمرة المالكين التي ملَّكت مصر زمناً طويلاً. وفي أسواق النّخاسة اشتري علي بك وإبراهيم بك ومراد بك الجبار الذي هُزم في معركة الأهرام، وليس من النادر أن ترى اليوم قائداً أو موظفاً كبيراً في مصر لم يكن في شبابه غير رقيق، وليس من النادر أن ترى رجلاً في مصر كان سيداً المصري قد تبناه وأحسن تعليمه وزوجها ابنته». وليست مصر القطر الوحيد الذي يُعامل فيه الأرقاء برفق عظيم، أي أن ما تراه في مصر ترى مثله في كل بلد خاضع للإسلام، واسمع ما قالته السيدة الإنكليزية بلنت في كتاب رحلتها في بلاد نجد ذاكرةً محادثتها لعربي:

«إن مما لم يستطع أن يفهمه ذلك العربي هو وجود نفع للإنكليز في تقييد تجارة الرقيق في كل مكان، ولما قلت له إن مصلحة الإنسانية اقتضت ذلك» أجابني: «إن تجارة الرقيق لا تنطوي على جور، ومن ذا الذيرأى إيهاد زنجي؟» والحق أننا لا نزعم أننارأينا ذلك، ومن الأمور المشهورة أن الأرقاء عند العرب يكونون من الأبناء المدللين أكثر من أن يكونوا من الأجراء.

ولا شيء يستحق الذم واللوم كالرق، ولكن المبادئ التي صنعتها الإنسان ذات شأن ضعيف في سير الأمور، وإذا ما نظر المرء إلى الرق بمنظار الزنجي المخلوق المنحط وجده أمراً طيباً، فلا شيء أصلح لهؤلاء المخلوقات الضعيفة الفطرية القليلة الحذر والتبصر من أن يكون لها سيد يرى من مصالحه أن يقوم بشؤونها، ودليلنا على هذا ما أصاب أرقاء أمريكا من الانحطاط المُحزن الذي نشأ عن تحريرهم بعد حرب الانفصال، وإلقاء جبالهم على غواربهم.

ويتطلب منع النّخاسة منع البحث عن الأرقاء كما يزعم الإنكليز أنهم يفعلون، أي تبديل طبائع الشرق كله، وتغيير بقية العالم بعض التغيير، ولم ينشأ عن تدخل الأوروبيين القائم على الرياء والمداجاة فيما لا يَعنِيه سوى الفشل ومقت الشريقيين لهم. قال المؤلف الإنكليزي «ج. كُوپِر» في كتاب حديث دَرَسَ فيه أمر النّخاسة في إفريقيا: «لم تكن الحملات التي جُرِدت على تجار الرقيق في السودان إلا من نوع الغَزَوات التي



شكل ١٤-٢: سُقَاعَانِ في القاهرة (من صورة فوتوغرافية).

تُضيّفُ إلى المذايَح مذايَحَ أخرى، أَجَل، لَقَدْ قَضَتْ تَلْكَ الْحَمْلَاتُ عَلَى بَعْضِ مَرَاكِزِ أَولَئِكَ التَّجَارِ، وَلَكِنْ هَذِهِ الْمَرَاكِزُ لَمْ تَلْبِثْ أَنْ أَعِيدَ تَأْسِيسُهَا بَعْدِ اِنْصَارَافِ تَلْكَ الْحَمْلَاتِ، وَلَمْ يَنْجُمْ عَنِ النَّفَقَاتِ الْعَظِيمَةِ وَالدَّمَاءِ الْمَسْفُوكَةِ فِيهَا كَبِيرٌ طَائِلٌ، وَلَمْ تُؤَدِّ إِلَى تَقْيِيدِ النَّخَاسَةِ». «
وَلَا رِيبٌ فِي أَنَّ الْأَوْرَبِيِّينَ الَّذِينَ يَتَدَخَّلُونَ فِي أُمُورِ الشَّرْقِ لِمَنْعِ النَّخَاسَةِ قَسْرًا مِنْ مُحْبِيِّ الْإِنْسَانِيَّةِ الصَّالِحِينَ، وَمِنْ ذُوِّي النِّيَّاتِ الطَّيِّبَاتِ الْخَالِصَةِ، وَلَكِنَّ الشَّرِقيِّينَ لَا يَعْتَقِدونَ صَدَقَهُمْ، وَحْجَةُ الشَّرِقيِّينَ فِي ذَلِكَ هُوَ أَنَّ أَولَئِكَ الْمُحْبِينَ لِلْإِنْسَانِيَّةِ الصَّالِحِينَ وَالرَّاحِمِينَ لِلزَّنْوِجِ هُمُ الَّذِينَ أَكْرَهُوا الصَّينِيِّينَ بِقُوَّةِ الدَّافِعِ عَلَى أَنْ يُدْخِلُوا إِلَى بَلَادِهِمْ ذَلِكَ الْأَفْيَوْنِ الَّذِي أَهْلَكَ مِنَ النَّاسِ فِي سَنَةٍ وَاحِدَةٍ مَا لَمْ تُهْلِكْهُ تِجَارَةُ العَبْدِيِّ فِي عَشَرِ سَنِينَ.

هوامش

- (١) الحماطة: شجرة شبيهة بالتين، وقيل: هي الجمية.
- (٢) زالت تقريرًا القصور العجيبة التي كانت تشمل كل مدينة عربية على عدد كبير منها أيام ازدهار حضارة العرب، نعم، يقيم مرابو اليهود بيوتاً من نوعها في دمشق، ولكن ما فُطر عليه الشعب اليهودي من الذوق الفاسد والترف المزيف يدفع المرء إلى الأسف على ما ينفقون من المال في تقليد تلك القصور العربية التي هي في طريق الأفول

تقليدياً سيئاً، فالماء يرى في تلك البيوت اليهودية خلطاً كريهاً بين أحسن ما صنعه شرقي وأقبح ما أنتجه أوربي، ويشاهد فيها نقوشاً من أحط ما صنعه الرسامون، وتلك البيوت اليهودية وحدها هي التي يستطيع الأجانب أن يدخلوها، وهي التي لا يزورون غيرها، فيخطئون في عدها من أمثلة فن العمارة العربي، وقد أنعمت النظر في بيت اليهودي الذي نشر رسمه المؤلفان الفاضلان مسيو لوته ومسيو غيران والذي هو أشهر تلك البيوت اليهودية، فلم أجد فيه سوى فساد في ذوق صانعيه الذين حاولوا أن يوفقاً في شيء بين مختلف فنون البناء، فضلاً عما رأيت فيه من الأمتنعة الأوروبية المبتذلة، والشمعاد التي لا يساوي بدل الواحد منها سوى بضعة دوانق، والتماثيل الصغيرة لتابليون، والرسوم التي تعد أحط رسوم أيبنال الملونة بجانبها آية في الإبداع.

والقصر الذي نُشرت صورة ردهة الحرير منه هو القصر القديم الذي تملكه أسرة أحد ولاة الشام السابقين، أسعد باشا، وهذا القصر من أقدم ما في الشام، وهو أجمل قصورها، ومن دواعي الأسف أن يكون عرضة للخراب وألا يكون أصحابه، الذين هم على جانب قليل من الذوق الفني، من الغنى ما يستطيعون به إصلاحه، وقد رأيت، لعدة أسباب، أن أنشر لردهته صورة فزدت فيها ما ليس فيها الآن من الرياش مستنداً إلى الصحيح من الروايات، وغيرت موضع إحدى حواجزها؛ ليبدو للناظر زخرف ما يقابل مدخلها، وتدل تلك الصورة على ما هو أكثر من ثلث تلك الردهة، والماء حين يمر من العتبة وينظر إلى الفسقية الرخامية التي تكون أمامه ثم يتلفت يرى عن شعلاته قسم تلك الردهة القائم الزوايا، ويرى أمامه قسماً آخر مثله، ويرى عن يمينه قسماً ثالثاً مثله، ويتألف من مجموع هذا صليب إغريقي حل مدخل الردهة محل شعبته السفل.

والقطط أيضاً صورة فوتوغرافية لนาفذة في تلك الردهة فنشرتها.

(٢) الرخاء: الريح اللينة التي لا تحرك شيئاً.

(٤) لا يحتوي تبغ الشرق على النيكتوتين تقريباً، والماء لا يستطيع، مع ذلك، أن يتعاطاه كثيراً على شكل سغاير من غير أن يشعر بتعب، والتبع، إذ لا بد من أن يكون لذلك ذا مواد سامة أخرى غير مادة النيكتوتين التي ظن أنها المادة السامة الوحيدة فيه،رأيت منذ بضع سنين أن أدرسه، فاكتشفت في دخانة مادة الألكلالوئيد التي هي أشد سماً من مادة النيكتوتين، كما اكتشفت فيه مقداراً كبيراً من الحامض الپروسي، وقد دونت ذلك في كتابي «دخان التبغ ومباحث كيماوية وفيزيولوجية» الذي طبع ثانية مع إضافتي إليه مباحث جديدة في الحامض الپروسي، وأكسيد الفحم، وما في دخان التبغ من مختلف العلل السامة.

- (٥) **الذرّاح:** جنس من الحشرات الغمدية الجناح المتعددة المفاسيل.
- (٦) يحتاج وصف الخيالات التي تدور في رأس من يتعاطى الحشيش إلى قلم شاعر، وإليك ما قاله جيرار دو ثيرفال: «تحرر الروح من الجسم وتسبح طليقة جذلة في الفضاء والنور محادثة من تصادف من الملائكة، وبهيرها بوحية المفاجئ الساحر، فتقطع من فورها جوًّا من السعادة يعجز القلم واللسان عن وصفه، وذلك في دقيقة يلوح أنها أبدية ما تعاقبت هذه الأحسيس بسرعة، وقد رأيت حلماً كان يبدو لي ثابتاً متنوعاً عندما ركبت قاربي المتمايل تحت روعة أخيالي مغمضاً عيني على نهر جارِ دائم من العقيق والياقوت والزمرد، وما إلى ذلك مما يصور الحشيش عليه أعجب الخواطر، ورأيت في سوء الفضاء حورية، لا يرقى إليها خيال شاعر، قد ابتسمت لي بما أخذ بمجامع قلبي، وهبطت إلىَّ من عليائها، وهل كانت من الملائكة أو من الجن؟ ذلك ما لا أعرفه، وإنما استلقت بجانبي في ذلك القارب الذي تحولت ألوانه آنئذ إلى صدف ولؤلؤ وصار يجري في بحر فضي بقوة نسيم عَطْر».

الفصل الثالث

نظم العرب السياسية والاجتماعية

(١) مصدر نظم العرب

تختلف النُّظم السياسيّة والاجتماعيّة، لأكثَرِ الأُمُّمِ التي يُعْنِي بها التَّارِيخُ، اختلافاً عظيماً بين أمة وأخرى، ويدلُّ إنعام النَّظر على أنَّ قيمَة تلك النُّظم أمْرٌ نسبيٌّ، فما صلح منها لآمة لا يصلح لآمة أخرى في الغالب.

وتحتاج تلك الحقيقة إلى برهان، ولا تُسلِّمُ بها النفس حالاً، ويظهر العكس من الحقائق أول وهلة، أي أنه يُرى وجوب اتخاذ النُّظم التي عُزِّيزَتْ إِلَيْها عظمة إِحدى الأمم مثلاً للاقتداء، وأنَّ من الحكمة انتحالها وحملَ الناس عليها طوعاً أو كرهاً، وهذا ما اعتقاده أقطاب السياسة والمُؤرخون زماناً طويلاً، ولا يزالُ أكثُرُهم يراها.

والليوم فقط بدأنا نَعْلَمُ خطراً ذلك الرأي، فقد أثبتَ البحث العميق في حياة الأمم، أنَّ نُظمَ الأُمُّمِ عُنوانَ مشاعرها واحتياجاتها الموروثة التي هي وليدة ماضٍ طويلٍ، وأنَّها لا تتبدل كما يشاء الإنسان، حَقّاً رَوَى المؤرخون وجود مشترين، كموسى وليكورنخ ورسولون ونوما وغيرهم، فَرَضُوا على أممهم شرائع ابتدعواها، ولكن الواقع غير ذلك، فلم يكن لشرع مثلُ تلك القدرة التي لم تتفق لأقوى الفاتحين وأعنف الثورات إلا لوقت قصير، فإذا أُكِرِهَتْ أمة على قبول نظم تختلف عن نُظمها كان ذلك من قبيل إرغام حيوان على تبديل وضعه الطبيعي حيناً من الزمن، وإذا ما زال عامل القهر عاد الماضي إلى مجرى، وظهر أنَّ الأمر لم يَعُدْ حَدَّ تغيير بعض الكلمات.

وهنالك حوادث تاريخية كثيرة تظهر في بدءِ الأمْرِ مناقضة لما تقدم، فيجب درسُها درساً حقيقياً؛ لِيُرى زوالُ هذا التناقض، خُذُ العرب مثلاً ترَهم قد فرضاً نُظمهم على أمم مختلفة، ولكنك إذا ما بحثت في أمم آسية وإفريقيَّةٍ التي سارت على سُنَّةَ العرب

علمت أن النظم السابقة لأكثر هذه الأمم لا تختلف عن نُظم العرب إلا قليلاً، وأنه إذا كان بينها وبين نُظم العرب اختلافٌ في الأمور الجوهرية، كنظام البربر مثلاً، بدا لك ضعفُ أثر القرآن فيها، والعرب، وهم أعقل من كثير من أقطاب السياسة المعاصرین، كانوا يعلمون جيداً أن النظم الواحدة لا تلائم جميع الشعوب، فكان من سياستهم أن يتربّوا الأمم المغلوبة حرّةً في المحافظة على قوانينها وعاداتها ومعتقداتها.

ولا تتبدل النظم، وهي عنوان احتياجات الأمة ومساعرها التي نبتت فيها، إلا بتبديل تلك الاحتياجات والمشاعر، وقد أثبتت التاريخ أنها لا تتحول إلا بتعاقب الوراثة، ومن ثم ببطء عظيم، وقد اقتضى تحول البربرة الذين قضوا على العالم الروماني إلى ما صاروا إليه في دور النهضة مرورَ القرون الوسطى التي دامت ألف سنة.

وتسسيطر سُنّ تطور ذوات الحياة على تطور النُّظم الاجتماعية، وقد اكتسب، بتعاقب الأزمنة، بعض ذوات الحياة، التي كانت تعيش في البحر في الأدوار الجيولوجية، من الأعضاء ما تمكن به من العيش في الهواء، وليس بعيداً الزمنُ الذي كان علماء الطبيعة يجهلون فيه تطور ذوات الحياة والحالات التي تصل بين طرفيها، وليس بعيداً الزمن الذي كان علماء الطبيعة يعتقدون فيه أن قدرة علوية خلقت ذوات الحياة في أوقات مختلفة، فلما تقدم العلم أثبت أن هذه التحولات العظيمة لم تحدث فجأةً، بل هي وليدة تحولات غير محسوسة اكتسبها كلُّ جيل، وتراكمت بالوراثة في عدة قرون، وأسفرت عن تحولات عظيمة جداً.

ونَدُّ العرق والبيئة وطرق المعيش والعوامل المختلفة، التي نرى الضرورة أوَّلها وعزيمة الرجال أضعفها، أسباباً رئيسةً في نشوء النظم، والزمن وحده هو القادر على توطيدتها، وإذا رأينا أمّة ذات نُظم واحدة منذ زمنٍ طويٍّ أيقناً بأن هذه النظم خيرٌ ما يلائمها، وإذا كانت الحرية أمراً طيباً لدى بعض الشعوب كانت صرامة وليًّ الأمر المطلق أفضل للشعوب الأخرى، ولذا فإن من قصّر النظر أن نقف عند حد ثقافتنا الاجتماعية التقليدية الخطيرة، وأن نرى من الممكن تطبيق نُظمٍ لاءِت أمّة بتعاقب الأزمان على أمّة أخرى، وهذا لا يختلف كثيراً عن محاولة حمل السمك على التنفس في الهواء بحجّة أن جميع الحيوانات العليا تنفس في الهواء، فالسمك يموت حيث تحيا ذوات التّدّي.

وما تنشأ به نظم الأمم، وما تتحول به، من البطء العظيم يجعلنا لا نُبصِّر التحولات، على العموم، إلا إذا جَهَر بها مشرع عظيم، فنعزّو إلى هذا المشرع وضع القوانين مع أنها وليدة ماضٍ طويل، وليس شأنُ المشرعين الحقيقي سوى إثباتهم، بما لهم من سلطان،

عاداتٍ مستقرةً بالأذهان بعض الاستقرار، وإلّا هم العاداتِ غير الصالحة أو الضارةَ التي لولاهم لدام أمرها مدةً أخرى، أجل، إن تأثير المشرعين مُهمٌ، ولكن هذا التأثير لا يكون إلا إذا كانت التحولات التي هي وليدة استبانتهم ضئيلاً إلى الغاية، وهنالك يمكنهم أن يرددوا قول سولون: «إنني لم أمنح أهل أثينا أفضل ما يتصور الإنسان من القوانين، بل متحتمُّ أفضل القوانين التي يُطْلِقونها»، فسولون لم يختار القوانين التي جاء بها في الحقيقة من غير العادات السابقة التي رَسَخَت في أذهان القوم ومعتقداتهم.



شكل ٣-٣: داخل حوش في القاهرة (من صورة فوتوغرافية).

ومثل ذلك شأن مُحَمَّد الذي عَرَفَ كيف يختار من نظم العرب القديمة ما كان يبدو أقوماً لها، فَدَعَّمَها بنفوذه الديني العظيم، ولكن شريعة مُحَمَّد لم تُنسَخ جميع العادات التي قامت مقامها كما أن قانون الألواح الائتماني عشر لم يقض على قوانين الرومان القديمة، ومحمدٌ، حين رأى أن يُحرّم بعض العادات القديمة كاللواد، لم يفعل غير ما يلائم المشاعر المنتشرة بدرجة الكفاية وما تُقره هذه المشاعر.

وشريعة مُحَمَّد، في فصولها غير الدينية، هي خلاصة عادات قديمة إذن، وهي، كالشرائع الأخرى، تكشف بسهولة عن الحالة الاجتماعية للأمة التي ظهرت فيها، ولا

كتاب تاريخ يعدل دراسة قوانين إحدى الأمم في بعض الأحيان، فالقوانين تدل، بما تُبُصر من الاحتياجات، وبما تأمر به وما تنهي عنه، على أحوال المجتمع الذي نشأت فيه كما نُبِّئُ ذلك غير مرة.



شكل ٢-٣: كوب عربي قديم من البلور (من تصوير إير).

وليس من الضروري أن يعتمد على شريعة إحدى الأمم وحدها في استجلاء حالتها الاجتماعية إذا كان لهذه الأمة آثارٌ أخرى في التاريخ، وهي إذا كانت ذات حضارة وأنسابٍ كان أسهل على الباحث أن يدرس بقایا تلك الحضارة والأنسال للوقوف على حالتها الاجتماعية كما صنعنا ذلك في الفصول السابقة، ونحن حين وصفنا حياة العرب ورجعنا إلى الأزمنة التي نشأت فيها نظمهم أعدّنا القارئ، بما فيه الكفاية، ليتمثل النظم التي ندرسها الآن، وليدرك تأثير المشرعين الضئيل في تكوينها.

ومن الضروري أن يبحث على هذا النمط في شؤون الأمم التي يُراد وصفها واكتناه نظامها الاجتماعي عربيًّا كانت هذه الأمم أو غيرهم، ونرجو أن يحلل الوقت الذي يُدرك الفقهاء فيه أهمية هذا، فيصبح علم الحقوق غير قائم على سرد مواد القوانين المعقّدة والمناقشات البيزنطية.

(٢) نظم العرب الاجتماعية

حَصَّصَتْ مطالِبَ كثيرةً من هذا الكتاب للبحث في أهم نظم العرب الاجتماعية كنظام الأسرة والرق وتعدد الزوجات ... إلخ، فأقتصر هنا على بيان أهم ما جاء في القرآن من الأحكام التشريعية.

واختلط شرع العرب المدني بشرعهم الديني اختلاطًا وثيقاً، وتتألف منها علم قائم على تفسير القرآن.

وما كان القرآن ليُبَصِّرَ جميع ما يحدث في كل يوم، وهو لم يستدرك غير القليل من ذلك، وكان الناس منذ البداءة يرجعون مضطربين إلى النبي وخلفائه من بعده لحل المعضلات الشرعية اليومية، فتألف مما رُوي من أحكامهم المجموعة منذ القرون الأولى من الهجرة ما سُمِّي بالسُّنة.

ثم ظَهَرَ بعد زمِنٍ قصير أن القرآن والحديث غير كافيين، ورئي إتمامهما بوضع دستور مدني وديني مُشتق من تفسير القرآن، وقامت بذلك جماعة كبيرة من الأئمة في القرن الأول والقرن الثاني من الهجرة، واعترف بأربعة منهم، وهم: أبو حنيفة والشافعي ومالك وابن حنبل؛ وإلى هؤلاء تُنسب المذاهب الأربع التي يقتدي بها مختلف شعوب الإسلام، فأما المذهب المالكي فاتبع في إفريقية، وأما المذهب الحنفي فاتبع في تركية والهند، وأما المذهب الشافعي فاتبع في مصر وجزيرة العرب مع عمل المحاكم المصرية بالمذهب الحنفي، وأما المذهب الحنفي فمهجور في أيامنا (!).

ثم صار لكل واحد من هذه المذاهب الأربعة كثير من الشرائح، ومن ذلك أن كان خليل، المتوفى سنة ١٤٢٢م، شارحاً للمذهب المالكي المنتشر في بلاد الجزائر، فعد كتابه الذي تُرجم إلى الفرنسية مرتين، إحداهما بقلم الدكتور بيرون والثانية بقلم مسيو سغنت، أهم رسالة في الفقه المالكي.

وإذا عدْوْتَ هذه المصادر في علم الكلام الإسلامي وفي الفقه الإسلامي وجدت للأحوال التي لا تجد لها قاعدةً مقررة، والتي لا يمكن القياس في أمرها، مجموعة أحكام سلطانية تُعرف بالفتاوي.

وتَجَدْ بجانب الدساتير المدونة فقهًا قائماً على العادة مخالفًا باختلاف الأمكانة فدل هذا على أن الفقه الإسلامي غير مقيد بالقرآن خلافاً لما يُظَنُ أول وهلة، وقد يكون للعادات من الفعل ما ليس للقانون المدون، ومن هذا نَسْخُ القبائل البربرية لما جاء في القرآن من

الأحكام في حقوق النساء في الميراث، ومن هذا أنك لا ترى عند قبائل اليمن سوى فقه قائم على العادات متغير بتغير هذه القبائل مختلف عن تعاليم النبي غالباً. قال الرحالة مسيو هاليقي الذي ساح في اليمن حديثاً: «إن لكل قبيلة اشتراكاً خاصاً».



شكل ٣-٣: إناء عربي قديم مصنوع من النحاس.

والعقوباتُ تستند إلى القرآن وتفاسير القرآن أيضًا، أي تقوم على مبدأ القصاصات كما قامت عليه شريعة موسى، وبمبدأ القصاصات هذا هو المبدأ الممكن في جميع الشرائع الفطرية كما قلنا، ومما بيننا في كتابنا السابق أن حق المجازاة كان في البداية خاصاً بالمعتدى عليه، وأن الجزاء كان يفرض على المذنب أو على أسرته ما كانت الأسرة وحدها في جميع المجتمعات القديمة، وأن التأثر إذا لم يدرك من الوالد أدرك من ابنه أو حفيده ما نصّت التوراة على أن الرب ينتقم «من الأبناء حتى الجيل الثالث والجيل الرابع» لذنبِ افترفه الأباء.

ومن فوائد القصاصات أنه يقلل حوادث القتل كثيراً، ومن محاذيره أنه يؤدي إلى استمرار أعمال التأثر زمناً طويلاً غالباً، ولذا رئي أن تقوم الديمة التي تدفع إلى أهل المقتول مقامه أحياناً، ولذا دام هذا النظام إلى أن جاء الوقت الذي صار المجتمع يقوم فيه بمعاقبة المذنب بدلاً من أن يقوم بها المعتدى عليه أو أسرته، ولكن هذا الطور الجزائي

الأخير لا يكون في غير المجتمعات التي يقوم فيها نظامٌ مركزي قوي، ونظامٌ مركزيٌ مثل هذا إذ لم يُقم أيام محمد ظل نظام العقوبات الذي نَصَ عليه القرآن مستندًا إلى مبدأ القصاص ومبدأ الدية الفطريين، وبقي أمره سائِدًا ما خَضَع للدستور الديني بشكله القديم.

ومن ثم ترى أن ما جاء في شريعة موسى من حق القصاص القائل: إن العين بالعين والسن بالسن هو، مع مبدأ الدية الذي جاء مُلطفًا له، مبدأ الفقه الجزائري الأساسي في القرآن، ومع ذلك فقد أوصى القرآن بالعفو على أنه خيرٌ من الثأر، ونَعْدُ هذا تقدماً عظيماً ما عد الإنسان في الأدوار الفطرية عدم الانتقام عاراً، وإليك مبادئ القرآن الأساسية في الجرائم وما يقابلها من العقوبات:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۖ وَلَئِنْ صَرَبْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾

(من سورة النحل)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرُّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَحْفِيفٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

(من سورة البقرة)

﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَانَمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾

(من سورة المائدة)

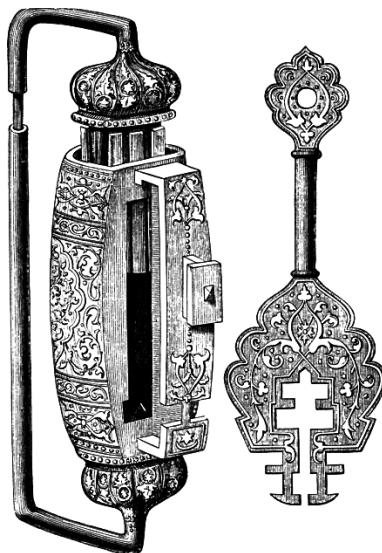
﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيهِمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبُوا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

(من سورة المائدة)

والمفسرون نصوا على أحكام الديمة، فإذا وقع القتل عمداً كان القصاص جزاء القاتل، ما لم يقبل أهل القتيل الديمة.

وإذا وقع القتل خطأً كانت الديمة مائة جَمْل، ولا تُرْدُ الديمة، ويختلف التعويض في حالة الجروح باختلاف أهميتها.

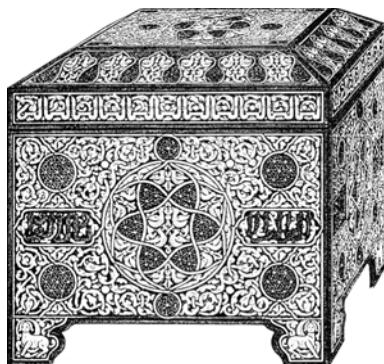
وأهل القاتل أو أفراد أسرته هم الذين يؤدون الديمة، وإذا كان القاتل مجهولاً دفعتها الزُّمرة التي ينتمي القاتل إليها، ومن هنا تُبصَر مقدار التضامن بين عرب الأسرة الواحدة أو الزمرة الواحدة.



شكل ٣-٤: قفل عربي.

وجرائم القتل والجَرْح وحدها هي التي يُمكِن العِوضُ منها كما جاء في القرآن وفي أكثر الشرائع القديمة، وأما العقوبات التي تُفرض على السارقين وقطع الطريق فمتعددة، فتقطع يد السارق اليمنى في المرة الأولى مثلاً، ثم تقطع رجله اليسرى في المرة الثانية، والحبس أو البتر أو القتل جزاء قطع الطريق، والرجم جزاء الزُّناة والزَّوَانِي من الأزواج على أن يَبْتُل الزنا بشهادة أربعة شهود أو بإقرار المذنب، والحد الذي يقام على شارب الخمر، أو الذي كان يُقام عليه فيما مضى، أربعون جَلْدًا.

وأحكام الحقوق المدنية كثيرة إلى الغاية في كتب الفقه التي أمعنا إليها آنفًا، وما ذكره عن حقوق التملك والميراث ... إلخ، يكفي لتتَّوَرُّ أقسامها المهمة. ليس في القرآن غير الإجمال لحق التملك، ولكن المفسرين أحاسنوا ترتيبه. وبالغ العرب في احترام حق التملك، حتى ما كان منه خاصًا بالملوبيين، ومن ذلك أن الأراضي التي أخذت من الملوبيين بالفتح أعيدت إليهم على أن يؤدوا خراجًا قلما يزيد على خمس مخصوصاتها. ويؤدي إحياء الموات عند العرب إلى حق التملك، فالعرب يرون أن إحياء الموات يتضمن منح الأرض قيمة، ومن ثم يتضمن حقاً لتملكها. وأكثر المفسرين من غير القائلين بمبأداً مرور الزمن، وحق الادعاء عندهم لا يسقط بمرور الزمن، ومع ذلك فإن من أحكام المذهب المالكي أن مدة مرور الزمن عشر سنين بين الغرباء وأربعون سنةً بين الأقارب.



شكل ٣-٥: صندوق للسلطان قلاوون (من تصوير بريس الأفيني).

ولا يستطيع الأجنبي أن يتملك أرضاً أو يشتري عبداً في دار الإسلام، ولكن كلمة الأجنبي لا تشتمل على غير الكافرين، أي ليس المسلمون أجانب في نظر بعضهم إلى بعض مهما اختلفت الشعوب التي ينتسبون إليها، ولا فرق في دار الإسلام بين الصيني المسلم والعربي المسلم في التمتع بجميع الحقوق، وبهذا تختلف الحقوق الإسلامية عن الحقوق الأوروبيَّة اختلافاً أساسياً.

وتعد مبادئ المواريث التي نصّ عليها القرآن باللغة العدل والإنصاف، ويمكن القارئ أن يدرك هذا من الآيات التي أنقلها منه، ولم يُنصر في القرآن جميع الأحوال التي عالجها المفسرون فيما بعد وإن أشير فيه بدرجة الكفاية إلى روحها العامة، ويظهر من مقابلتي بينها وبين الحقوق الفرنسية والإنكليزية أن الشريعة الإسلامية منحت الزوجات، اللائي يُزعم أن المسلمين لا يعاشرونهن بالمعروف، حقوقاً في المواريث لا تجد مثلاًها في قوانيننا. جاء في القرآن:

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾^١

(من سورة البقرة)

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِذَكْرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْتَيْنِ إِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوَقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلَّتَنِ مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النَّصْفُ وَلِأَبْوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُّسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتْهُ أَبْوَاهُ فَلَأُمُّهُ الْثُلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِحْوَةً فَلَأُمُّهُ السُّدُّسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ أَبَاوْكُمْ وَابْنَاؤْكُمْ لَا تَنْدِرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُّعُ مِمَّا تَرَكُنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُّعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُلُثُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَّا لَهُ أَمْرَأٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أَخْتٌ فَلَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُّسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءٌ فِي الْثُلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍ وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾^٢

(من سورة النساء)

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أُمْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أَخٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا

الثُّلَاثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِذَكْرٍ مِثْلُ حَظِّ الْأَنْتَيْنِ يَبْيَنُ
اللَّهُ أَكْمَنَ أَنْ تَضْلُلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾

(من سورة النساء)



شكل ٦-٣: حجر عربي منقوش (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف في القاهرة).

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّونَ مِنْكُمْ وَيَدْرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ عَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾

(من سورة البقرة)

ونظام القضاء والمرافق عند المسلمين بسيط إلى الغاية، أي أنه يقوم بالقضاء قاضٍ منفرد معينٍ من قبل ولي الأمر، ولا تستأنف أحكام القاضي، ويحضر الخصوم أمام القاضي بدعاوة، ويترافقون إليه مشافهة، ويعرضون عليه بيناتهم التي قد تكون قائمة

على الإقرار أو الشهادة أو التحريف، فينطبق بالحكم حالاً، وقد أُتيح لي في مراكمش أن أشاهد إصدار هذه الأحكام المختصرة، فرأيت القاضي جالساً في الساحة التي هي أمام قصر الوالي، والخصوم والشهود حوله جُثِّياً موجزين قضاياهم، وأحكام القاضي تُنفَّذ فوراً حينما يكون ذلك ممكناً كأن يأمر بجلد المذنب بضع جلدات.

أجل، قد لا تَضْمَن تلك الطرق البسيطة العدل كما تضمنه طرقنا الأوروبية العقدة، ولكنها لا تُضْعِف وقت المتراضين الثمين على كلّ حال، ولا تُثقلهم بالنفقات القضائية التي تُنْدَعَ عادة في العالم المتمدن فتُخْرِب بيئتهم غالباً.

وتكون أحكام أولئك القضاة عادلة على العموم مع بساطة تلك الطرق، فروح العدل والإنصاف نامية كثيراً في العرب، ويرجع نموها فيهم إلى أن العدل أساس الحياة في تلك المجتمعات التي لا تزال على الفطرة، لا إلى أمر القرآن وحده بالعدل على أن العدل من أحسن الفضائل.

ونختم قولنا في نظم العرب الاجتماعية بأن نذكر أن العرب يتَّصَفُون بروح المساواة المطلقة وفقاً لِنُظُمِّهم السياسية، وأن مبدأ المساواة الذي أُعلن في أوربة قولاً، لا فعلًا، راسخ في طبائع الشرق رسوحاً تاماً، وأنه لا عهد للمسلمين بتلك الطبقات الاجتماعية التي أدى وجودها إلى أعنف الثورات في الغرب ولا يزال يؤدي، وأنه ليس من الصعب أن ترى في الشرق خادماً زوجاً لابنة سيده، وأن ترى أجراء منهم قد أصبحوا من الأعيان.

والكتاب الأوربيون الذين بحثوا عن بعدي في شؤون أولئك الأقوام، وهم الذين لا يعلم الأوربيون من أمرهم سوى القليل، يستخفُّون بتلك النظم، ويقولون إنها أدنى من ظمنا كثيراً، ويتمكنون قرب الوقت الذي تستولي فيه أوربة الطامعة على تلك البقاع.

وغير ذلك ما يبديه الباحثون المحققون، وإليك، مثلاً، ما جاء في كتاب ثمين وضعه العالم المتدين مسيو لوپيه الذي هو من أجادوا درس أمور الشرق:

صان المسلمون أنفسهم حتى الآن من مثل خطايا الغرب الهائلة فيما يَمْسُّ رفاهية طبقات العمال، وتراهم يحافظون بإخلاص على النظم الباهرة التي يسود بها الإسلام بين الغني والفقير والسيد والأجير على العموم، وليس من المبالغة أن يُقال، إذن: إن الشعب الذي يزعم الأوربيون أنهم يرغبون في إصلاحه هو خير مثال في ذلك الأمر الجوهري.

(٣) نظم العرب السياسية

ذكرنا في الفصل الذي خصصناه للعرب في بغداد أهم عناصر دستورهم السياسي، وقلنا: إن إدارة الحكم العربية، ولا سيما المالية والضرائب والشرطة، كانت تسير سيراً رشيداً، ومن المؤسف أن كانت تلك الإدارة الرشيدة تستند إلى نظم سياسية ضعيفة إلى الغاية.

ولا شيء أكثر بساطة من نظم العرب السياسية، فقد قامت على مساواة الجميع التامة تحت سيد واحد، أي تحت وكيل الله في الأرض الذي كان الصاحب الوحيد لكل سلطة مدنية ودينية وحربية، والذي لم يكن في الدولة سلطة غير سلطته أو سلطة مندوبيه، ولم يعرف العرب قط نظام الإقطاع والأريستocratie والوظائف الوراثية.

وكان نظام العرب السياسي ديمقراطياً يديره سيد مطلق في الحقيقة، وساد مبدأ المساواة التامة في هذا النظام، ومن ذلك ما ذكرته من حكم عمر بن الخطاب في أمر لطمّة ملك الغساسنة، الذي أسلم بعد واقعة اليرموك، لذلك العربي، فقد قضى عمر بن الخطاب أن يفتدي ذلك الملك الغساني نفسه، وإلا أمر ذلك العربي بأن يلطممه، وقد قال عمر بن الخطاب لذلك الملك الغساني: «إن الإسلام جمعكم وسوّي بين الملك والسوق». وكانت خلافة الخلفاء الأولين أمراً انتخابياً، ثم أصبحت الخلافة وراثة، أي صار الخلفاء يختارون من بين أبناء أسرتهم الذكور أصلحهم، وأمر مثل هذا حسن لعدم استناده في منح السلطة إلى النسب وحده، ولكنه كان يؤدي إلى تنافس أولئك الأبناء وتتنازعهم تنازعاً شديداً يمكن تلافيه لو كان النسب وحده حكماً.

وإذ لم يكن الخلفاء قادرين على ممارسة سلطانهم في جميع أنحاء دولتهم كانوا مضطربين إلى إنباتة ولادة عنهم؛ ليقوموا مقامهم في القضاء والقيادة والإدارة، وكان ينشأ عمما يتمتع به هؤلاء الولاة من السلطة طمّعهم في الاستقلال فيجدون فيما لديهم من السلطان المطلق وسائل لبلوغ ذلك، فكان على خلفاء الشرق والمغرب أن يحاربوهم على الدوام.

ولم ينشأ ضعف الخلفاء عن فتن الولاية الدائمة وحدها، بل هنالك علل كانت تُفْتَ في ضد الدولة العربية أيضاً، ومن أهمها: اختلاف الشعوب التي خضعت لشريعة القرآن فيما بين مراكش والهند، فإذا كان القرآن ملائماً لاحتياجات بعض الأمم فإنه لم يلائم احتياجات بعضها الآخر، وإذا كان السوريون واليهود والبربر والنصارى ... إلخ، قد خضعوا لنظم قاهريهم حيناً من الزمن فإنهم لم يُقصّروا في التخلص منها بعد أن رأوها غير ملائمة لاحتياجاتهم بدرجة الكفاية.



شكل ٣: نيراس مسجد في القاهرة.

وكانت تلك النظم السياسية سبب عظمة العرب مع ما فيها من عوامل الضعف، لشيء أصوبٌ من جَمِيعِ مُحَمَّدٍ لِجَمِيعِ السُّلْطَاتِ الْمُدْنِيَّةِ وَالْحَرْبِيَّةِ وَالْدِينِيَّةِ فِي يَدِ وَاحِدَةِ أَيَّامٍ كَانَتْ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ مَجَازًاً، مَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نُقْدِرَ قِيمَةَ ذَلِكَ بِنَتَائِجِهِ، فَقَدْ فَتَحَ الْعَرَبُ الْعَالَمَ فِي قَرْنٍ وَاحِدٍ بَعْدَ أَنْ كَانُوا قَبَائِلَ مِنْ شِبَابِ الْبَرَابِرِ الْمُتَحَارِبِينَ قَبْلَ ظَهُورِ مُحَمَّدٍ. وقد يُؤْدِي مَثَلُ هَذِهِ النَّظَمِ إِلَى عَظَمَةِ الْأَمَّةِ أَوْ انْحِطَاطِهَا تَبَعًا لِلْزَّمْنِ، وَقَدْ أَوْضَحَتْ هَذِهِ التَّنَاقُصُ الظَّاهِرُ فِي الْفَصْلِ الَّذِي حَصَصَتْهُ فِي كِتَابِي السَّابِقِ لِدِرْسِ مَا لَاستِعْدَادِ الْمُجَمَعَاتِ مِنَ التَّأْثِيرِ الْمُتَقْلِبِ فِي تَطْوِرِهَا، فَبَعْدَ أَنْ بَيَّنَتْ فِيهِ أَنَّ الْأَمَّةِ الَّتِي خَضَعَتْ لِشَرَائِعِ ثَابِتَةٍ اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ طُورِ الْهُمْجِيَّةِ ذَكَرْتُ أَنَّ الْأَمَّةِ الْمُتَمَدِّنَةِ الَّتِي دَاوَمَتْ عَلَى التَّقْدِيمِ هِيَ الَّتِي تَخَلَّصَتْ مِنْ دَائِرَةِ تَلْكَ الشَّرَائِعِ بِالْتَّدْرِيجِ. وَالْعَرَبُ، الَّذِينَ اسْتَطَاعُوا بِفَضْلِ مُحَمَّدٍ أَنْ يَحْقِّقُوا أَحَدَ ذِينِكَ الشَّرْطَيْنِ فَيُخْرِجُوا مِنْ جَاهْلِيَّتِهِمْ، لَمْ يَعْرِفُوا كَيْفَ يَلَئُمُونَ الشَّرْطَ الثَّانِي فَدَخَلُوا دُورَ الْانْحِطَاطِ، وَالْعَرَبُ، بَعْدَ أَنْ جَاءَهُمْ رَجُلٌ عَظِيمٌ جَمِيعٌ

كلّمتهن المترفة بشرعيته، لم يظهر منهم رجلٌ عظيمٌ آخر ليخرجهم من دائرة تلك الشريعة.

وعاد القرآن، الذي لاءِ مشارع الأمة العربية واحتياجاتها أيام محمد ملائمةً تامةً، غير ما كان عليه بعد بضعة قرون، ولو كان القرآن دستوراً دينياً فقط ما كان هنالك كبير محذور، ولكن القرآن إذ كان دستوراً سياسياً ومدنياً أيضاً، وكان بطبعه ثابتًا، بدت عدم المطابقة بينه وبين الاحتياجات الدائمة التحول والأمم ونظامها الثابتة، وحالت هذه النظم دون تقدم تلك الأمم التي فُيئتَتْ بقيود الماضي.

ويبدو أكثر النظم المشتقة من القرآن على شيء من المرونة مع ثباتها، وإنما الذي هو ثابتٌ غيرٌ منْها هو النظام الإسلامي السياسي القائل بجمع جميع السلطات في يد سيدٍ عاليٍ مطلقٍ معدودٍ وكيل الله في الأرض.

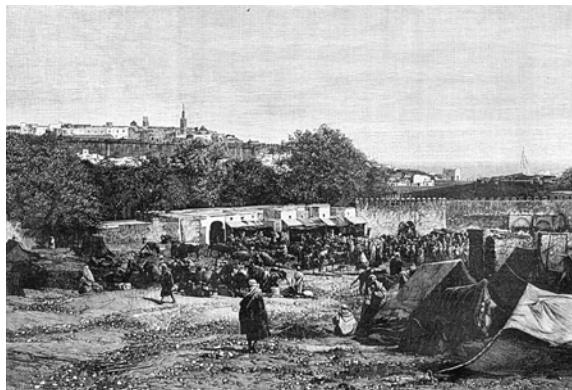
وإذا نظرت إلى العرب أيام سلطانهم، أو إلى مختلف الأمم التي داومت بعدهم على نشر القرآن،رأيت نظمها السياسية متجليّةً في شكل ملكيٍّ حربيٍ ودينيٍ مطلق، وإذا كانت هذه النظم قادرةً على إقامة الدول الكبيرة بسرعة لم تكفل بقاءها إلا نادرًا كما دلَّ على ذلك تاريخ العرب والمغول والترك الذين لم تتقدم دولتهم العظيمة، وهي التي كان عليها أن تكافح المصاعب الداخلية والخارجية المتنوعة، إلا عندما كان على رأسها رجالٌ عظماء.

من أجل ذلك ترى الدول الحربية الواسعة التي تقوم بسرعة تسقط بسرعة غالباً، ويُدِبُّ الانحطاط في مفاصلها عندما يخلفُ الرجل العبرى الذي قبض على زمامها رجلٌ أو اثنان من ذوي العقول المتوسطة، شأن الأندلس والمشرق، فبعد أن كان عصر هارون الرشيد وابنه المأمون أنضر ما رأته دولة الخلافة في بغداد جاء دور الانحطاط حالاً.

وكان عهد آخر الأمويين في إسبانيا أقوى ما وصل إليه العرب فيها بفضل وزيره الأكبر المنصور، فلما مات هذا الوزير في أوائل القرن الحادي عشر من الميلاد سقط ملوكهم معه، وأصبح البربر سادة البلاد، وصار كلُّ والٍ ينادي بنفسه ملكاً، ثم أفلَّ نجم العرب السياسي في إسبانيا بفعل هذا الانقسام أكثر مما كان بفعل أعدائهم في الخارج، وبهذا أثبت لنا العرب أن النظم التي تبلغ الأمة بها أعلى درجات العظمة يمكن أن تسقط بها في هُوَّة الانحطاط، وذلك كما قلنا آنفًا.



شكل ٨-٣: شارع في طنجة (من صورة فوتوغرافية).



شكل ٩-٣: سوق كبيرة في طنجة (مراكش) (من صورة فوتوغرافية).

هوما مش

- (١) الأولاد في فرنسة، ذكوراً كانوا أو إناثاً، يرثون جميع ما يتركه الوالدان.
- (٢) حصة البنت الإرثية في فرنسة مساوية لحصة الابن الإرثية. ولا يرث الأبوان شيئاً في فرنسة ما وجد للمورث أولاد أو ذرية آخرون، والأم في إنكلترا ترث كل شيء وتقاسمها زوجته التركة. والأصول في فرنسة متساوون في الميراث، ذكوراً كانوا أو إناثاً. وحصة الأم في تركة الابن في فرنسة هي الرابع إن كان له إخوة، ويقسم هؤلاء الإخوة بقيمة التركة، فإذا كان للمورث أبوان كان لكل منهما ربع التركة وكان نصفها للأخوة. ولا يرث الأزواج في فرنسة إلا عند عدم وجود من لهم حق الميراث، ويأخذون في إنكلترا، بالعكس، جميع التركة. ولا ترث الزوجات في فرنسة أزواجاً جهن إلا عند عدم وجود من لهم حق الميراث، ويأخذون في إنكلترا نصف التركة إن لم يكن لهم ورثة آخرون، ويأخذ بيت المال بقيمة التركة، وإذا كان للزوج المتوفى زوجة وأولاد أخذت الزوجة ثلث التركة وأخذ الأولاد أو الحفدة بقيتها.
- (٣) يكون للأخوة أو الأخوات في فرنسة، كما في إنكلترا جميع التركة عند عدم وجود وارث من الأصول أو الفروع، وإذا مات الولد عن أبيه أو أم وإخوة أو إخوات تقاسموا في فرنسة التركة على النسبة المذكورة آنفًا.

الفصل الرابع

المرأة في الشرق

(١) أسباب تعدد الزوجات في الشرق

لا يدرك المرء نظم أمة أجنبية إلا إذا تناهى، قليلاً، مبادئ البيئة التي يعيش فيها وفرض نفسه من أبناء تلك الأمة، ولا سيما إذا كانت تلك النظم من نوع مبدأ تعدد الزوجات الذي لما تعلم حقيقة أمره إلا قليلاً فأسيء الحكم فيه.

ولا نذكر نظاماً آنحى الأوربيون عليه بالائمة كمبدأ تعدد الزوجات، كما أنها لا نذكر نظاماً أخطأ الأوربيون في إدراكه كذلك المبدأ، وذلك أن أكثر مؤرخي أوربة اتّزانَا يرون أن مبدأ تعدد الزوجات حجر الزاوية في الإسلام، وأنه سبب انتشار القرآن، وأنه علة انحطاط الشرقيين، ونشأت عن هذه المزاعم الغربية، على العموم، أصوات سخطٍ رحمة بأولئك البائسات المكَدَسات في دواائر الحرير، واللائي يرقُبُهنْ خصيًانْ غلاظ، ويقتلن حينما يَكْرهنْ سادتهنْ.

ذلك الوصف مخالف للحق، وأرجو أن يتبَّعَ عند القارئ الذي يقرأ هذا الفصل، بعد أن يطرح عنه أوهامه الأوربية جانبًا، أن مبدأ تعدد الزوجات الشرقي نظام طيبٍ يرفع المستوى الأخلاقي في الأمم التي تقول به، ويزيد الأسرة ارتباطاً، ويعيّن المرأة احتراماً وسعادة لا تراهما في أوربة.

وأقول، قبل إثبات ذلك: إن مبدأ تعدد الزوجات ليس خاصاً بالإسلام، فقد عرَفَه اليهود والفرس والعرب وغيرهم من أمم الشرق قبل ظهور محمد، ولم تَرَ الأمم التي اعتنقت الإسلام فيه غُنْمًا جديداً إذن، ولا نعتقد، مع ذلك، وجود ديانة قوية تستطيع أن تُحَوِّلَ الطبائع فتبتدع، أو تمنع، مثل ذلك المبدأ الذي هو وليد جو الشرقيين وعروقهم وطُرُق حياتهم.

وتأثير الجو والعرق من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى إيضاح كبير، وبما أن تركيب المرأة الجثماني وأمومتها وأمراضها ... إلخ. مما يُكرهها على الابتعاد عن زوجها في الغالب، وبما أن التأييم المؤقت مما يتعدى في جو الشرق، ولا يلائم مزاج الشرقيين، كان مبدأ تعدد الزوجات ضرورةً لازبة.

وفي الغرب، حيث الجو والمزاج أقل هيمنةً، لم يكن مبدأ الاقتصار على زوجة واحدة في غير القوانين، لا في الطبائع حيث يندر.

ولا أرى سبباً لجعل مبدأ تعدد الزوجات الشرعي عند الشرقيين أدنى مرتبةً من مبدأ تعدد الزوجات السري عند الأوروبيين، وأبصراً العكس فأرى ما يجعله أنسني منه، وبهذا ندرك مغزى تعجب الشرقيين الذين يزورون مدننا الكبيرة من احتجاجنا عليهم ونظرهم إلى هذا الاحتجاج شرّاً.

ومن السهل أن ندرك علل إقرار الشرائع الشرقية لمبدأ تعدد الزوجات بعد أن نشأ عن العوامل الجثمانية المذكورة آنفًا، فحبُّ الشرقيين الجُّمُّ لكثره الأولاد، وميلهم الشديد إلى حياة الأسرة وخلق الإنفاق الذي يردعهم عن ترك المرأة غير الشرعية بعد أن يكرهوها، خلافاً لما يقع في أوربة، وغير ذلك من الأسباب الكثيرة التي أعود إليها عما قليل، كلها أمور تحفِّز الشرائع إلى تأييد العادات التي هي وليدة الطبائع، وإذا نظرنا إلى أن القوانين لا تثبت أن تطابق العادات كان لنا أن نقول: إن تعدد الزوجات غير الشرعي في أوربة لا يليث أن تؤيده القوانين.

ومن أسباب تعدد الزوجات التي لم أذكرها بعد ما هو خاص ببعض الطبقات، وما يفيده بيانه للدلالة على سيطرته في بعض البلدان، حتى إن أكثر الأوروبيين تدبّياً اضطروا إلى الاعتراف بضرورته حينما انعموا النظر في الشعوب التي ظهر فيها مبدأ تعدد الزوجات؛ ومن ذلك أن رأى مؤلف كتاب «عمال الشرق» العالم «مسيو لوپله» بيان الضرورة التي تدفع أرباب الأسر الزراعية في الشرق إلى زيادة عدد نسائهم، وكون النساء في هذه الأسر هن اللائي يحرّضن أزواجهن على البناء بزوجاتٍ أخرى من غير أن يتوجعن، قال مسيو لوپله:

يتزوج ربُّ الأسرة صغيراً على العموم، وتضعف زوجته الأولى بعد أن تكون ذات أولاد كثيرة على حين يبقى تامَّ القوة، فيُضطر إلى الزواج مرةً أخرى بتحريض الزوجة الأولى غالباً وبموافقتها تقريباً ... وقد يعجب المرء أول وهلة، من حمل امرأة زوجها على الزواج بامرأة أخرى، ولكن العجب يزول

المرأة في الشرق



شكل ٤-١: بائعة خزف في مصر العليا (صورة مأخوذة من إير).



شكل ٤-٢: فتاة قبطية (من تصوير إير).

حينما نعلم أن النساء في الأسر الإسلامية «الزراعية» هنَّ الائِي يُقْمن بشهون المنزل مهما كانت شاقةً، وذلك أن الفلاحين إذ كانوا يجهلون أمر اتخاذ الخوادم لم يبق للنساء غير الاستعانة بالإماء والقريبات الائِي يكنَّ في الزمرة نفسها، وقد لا يكون هنالك قريبات، وقد لا تسمح الأحوال باشتراء إماء، وقد تصبح الإماء عند اشتراهن جواري منافساتٍ للزوجة الأولى في الحظوة لدى رب الأسرة، فلا يكون لدى الزوجة الأولى ما يستلزم تفضيل الإماء هؤلاء على الزوجات الشرعيات الآخر، ومن ثم ترى أن الزوجة تشير في تلك الأحوال على زوجها بأن يبني بزوجة أخرى، ولا سيما إذا علمت أنها تصنع ذلك حينما تكون آخذةً في الهرم منهمكةً في واجبات الأمة.

ومن العوامل المهمة التي ذكرها ذلك المؤلف في تعدد الزوجات عند الشرقيين هو «حبُّهم للذرية الكثريين، ولا عَجَبٌ، فاللُّعُقم عند الشرقيين من أعظم ما يصاب به إنسان، والشرقي إذا ما رُزِقَ بضعة أولاد طمع في زيادة عددهم، وتزوج بنسَاءً أُخْرَ وصُولًا إلى هذا الغرض.»

ولاحظ ذلك الحق أن تعدد الزوجات عند الشرقيين لا يؤدي إلى تحاسدهن وتنافسهن، ويرى الأوروبيون استحالة ذلك لما يُساوِرُهم من مبتسراتٍ لا ريب، ورأيُ الأوروبيين هذا ناشئ عن نظرنا إلى الأمور من خلال مشاعرنا، لا من خلال مشاعر الآخرين، ويكتفي انقضاء بضعة أجيال لإطفاء مبتسراتٍ أو إحداثها، ويمكننا أن ندرك ضرورةً تبديل رأينا في هذا الأمر عند الرجوع إلى أدوار المجتمعات الفطرية الأولى حين كان النساء شيئاً مُشاًعاً بين رجال القبيلة الواحدة، أو إلى الأدوار التي هي أقرب من تلك حين كان النساء شيئاً مُشاًعاً بين أفراد الأسرة الواحدة، أو إلى أيامنا التي نرى فيها وجود هذه الطبائع في بعض أجزاء الهند.

(٢) تأثير الإسلام في أحوال النساء في الشرق

لم يقتصر الإسلام على إقرار مبدأ تعدد الزوجات الذي كان موجوداً قبل ظهوره، بل كان ذا تأثير عظيم في حال المرأة في الشرق، والإسلام قد رفع حال المرأة الاجتماعي و شأنها رفعاً عظيماً بدلاً من خفضها خلافاً للمذاهب المكررة على غير هدى، والقرآن قد منح المرأة حقوقاً إرثية أحسن مما في أكثر قوانيننا الأوروبية كما ثبت ذلك حينما بحثتُ في

حقوق الإرث عند العرب، أَجْلُ، أَبَاحَ القرآن الطلاق كما أَبَاحَتْهُ قوانين أوربة التي قالَتْ به، ولكنه اشترط أن يكون «للمطلقات مَنَاعٌ بالمعروف..» وأحسن طريقاً لإدراك تأثير الإسلام في أحوال النساء في الشرق هو أن نبحث في حالهنَّ قبل القرآن وبعده.

يمكننا استجلاء الحال التي كانت عليها النساء قبل ظهور النبي من التحرير الآتي الذي جاء في القرآن: ﴿ حَرَمْتُ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ الَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبِكُمُ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ الَّتِي دَحَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَحَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَّتْ أُبْنَاتُكُمُ الدِّينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمِعُوْنَ بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

وتحريم مثل هذا، وإن كان لا يدل على رقي عادات الأمة التي اقتضته، يهُونُ أمر دلالته عندما نعلم أن ما أشار إليه من العادات كان شائعاً بين جميع الأمم السَّابِقَة، فالتحريم الذي جاء في التوراة (الأصحاح الثامن عشر من سفر اللاويين ٦-١٨) مثل ما جاء في القرآن، ويشير إلى أمور أشد خطراً مما أشار إليه القرآن.

وكان الرجال قبل ظهور مُحَمَّد يَعْدُونَ منزلة النساء متوسطةً بين الأنعام والإنسان من بعض الوجوه، أي أدأة للاستيلاد والخدمة، وكانوا يَعْدُونَ ولادة البنات مصيبة، وشاءعت عادة الوأد، وصار لا يُجادل فيها كما لو كانت البنات جراءً يُقذف بها في الماء، ويمكننا أن نتمثل عادة الوأد عند العرب من المحاور الآتية التي وقعت بين رئيسبني تميم قيس و مُحَمَّد، حينما رأى قيسٌ محمداً يضع إحدى بناته على ركبتيه، والتي رواها كوسان دوپرسقال:

قيس: من هذه الشاة التي تشمُّها؟
مُحَمَّد: ابنتي.

قيس: والله كان لي بناتٌ كثيرون، فوأدتهنَّ من غير أن أشمَّ واحدةً منها.
مُحَمَّد (صارخاً): ويلُ لك، يظهر أن الله نزع الرحمة من قلبك، فلا تعرِف أطيبَ النُّعم التي مَنَّ الله بها على الإنسان.

وإذا أردنا أن نعلم درجة تأثير القرآن في أمر النساء وجب علينا أن ننظر إليهنَّ أيام ازدهار حضارة العرب، وقد ظهر مما قصَّه المؤرخون، فنذكره فيما بعد، أنه كان لهن



شكل ٤: امرأة ببرية من الجزائر (من صورة فوتوغرافية).

من الشأن ما اتفق لآحواتهن حديثاً في أوربة، وذلك حين انتشار فروسية عرب الأندلس وظرفهم.

وقد ذكرنا في فصل سابق أن الأوربيين أخذوا عن العرب مبادئ الفروسية وما اقتضته من احترام المرأة، والإسلام، إذن، لا النصرانية، هو الذي رفع المرأة من الدرك الأسفل الذي كانت فيه، وذلك خلافاً للاعتقاد الشائع، وإذا نظرت إلى سنيورات نصارى الدور الأول من القرون الوسطى رأيتهم لم يحملوا شيئاً من الحُرمة للنساء، وإذا تصفحت كُتب تاريخ ذلك الزمن وجدت ما يُزيل كلَّ شك في هذا الأمر، وعلمت أن رجال عصر الإقطاع كانوا غلاظاً نحو النساء قبل أن يتعلم النصارى من العرب أمر معاملتهم بالحسنى، ومن ذلك ما جاء في تاريخ غاران لولوهيران عن معاملة النساء في عصر شارلمان وعن معاملة شارلمان نفسه لهنَّ كما يأتي: «انقضَّ القيصر شارلمان على أخته في أثناء جدال، وأخذ بشعرها وضربها ضرباً مبرِّحاً، وكسر بقفازه الحديدي ثلاثة من أسنانها»، فلو حدث مثل هذا الجدل مع سائق عربةٍ في الوقت الحاضر لبدا هذا السائق أرقَّ منه لا ريب.

ومن الأدلة على أهمية النساء أيام نصارة حضارة العرب كثرة من اشتهر منهن بمعارفهم العلمية والأدبية، فقد ذاع صيتٌ عديٌ غير قليل منها في العصر العباسي في المشرق والعصر الأموي في إسبانيا، ونذكر منهاً بنتَ أحد الخلفاء، الذي كان جالساً على عرش الخلافة سنة ٨٦٠ (!) ولادة التي لُقِّبَتْ بسافو قرطبة، وقال كونده ملخصاً ما ذكره مؤرخو عبد الرحمن الثالث:

كان عبد الرحمن الثالث، وهو يتمتع بأطاييف مدينة الزهراء، يحب أن يستمع إلى أغاني جاريته وأمينة سرِّه العذبة مُزنَة وإلى فتاة قرطبة الكريمة عائشة، التي روى ابن حيان أنها كانت أعقل بنات عصرها وأجملهن وأعلمهن، وإلى صفية التي كانت شاعرةً باهرة الجمال ...، وأضاف مؤرخو الحكم الثاني إلى ذلك قولهم: «إن نساء ذلك الزمن — الذي كان للعلم والأدب شأنٌ عظيم فيه ببلاد الأندلس — كنَّ مُحِبَّاتٍ للدرس في خُدورهن، وكان الكثير منهن يتميَّزن بدماثهن ومعارفهم، وكان قصر الخليفة يضمُّ لبني، أي هذه الفتاة الجميلة العالمة بال نحو والشعر والحساب وسائر العلوم والكاتبة البارعة التي كان الخليفة يعتمد عليها في كتابة رسائله الخاصة، والتي لم يكن في القصر مثلها دقةً تفكيرٍ وعذوبةً قريضٍ، وكانت فاطمة تكتب بإتقان نادر، وتنسخ كتبًا لل الخليفة، ویُعجب جميع العلماء برسائلها، وتملك مجموعةً ثمينةً من كتب الفن والعلوم، وكانت خديجة تَنْظِمُ الأبيات الرائعة وتنشدها بصوتها الساحر، وكانت مريم تعلُّم بنات الأسر الراقية في أشبليية العلم والشعر مع شهرة عظيمة فتخرَّجت في مدرستها نساءً بارعات كثیرات، وكانت راضية، المعروفة بالكوكب السعيد والتي حرَّرها الخليفة عبد الرحمن وتَنَزَّلَ عنها لابنه الحكم، نابغة عصرها في القرىض ووضع القصص الرائعة فساحت في الشرق بعد موت الخليفة، وكانت محلَّ هُنْافِ العلماء في كل مكان.

وَحَبَّتْ حضارة قدماء الخلفاء الساطعة في عهد وارثي العرب، ولا سيما في عهد الترك، فنخص شأن النساء كثيراً، وسأبَّين في مكان آخر أن حاليهن الحاضرة أفضل من حالة أخواتهن في أوربة حتى عند الترك، وما تقدم يُثبت أن نقصان شأنهن حدث خلاً للقرآن، لا بسبب القرآن على كل حال.

وهنا نستطيع أن نكرر، إذن، قولنا: إن الإسلام، الذي رفع المرأة كثيراً، بعيدٌ من خفضها، ولم نكن أول من دافع عن هذا الرأي، فقد سبقنا إلى مثله كوسان دوپرسقال ثم مسيو بارثلمي سنت هيلر.



شكل ٤-٤: امرأة ببرية من جوار بسكرة (من صورة فوتوغرافية).

ولم يقتصر فضل الإسلام على رفع شأن المرأة، بل نُضيف إلى هذا أنه أول دين فعل ذلك، ويَسْهُل إثبات هذا ببياننا أن جميع الأديان والأمم التي جاءت قبل العرب أساءت إلى المرأة، وهذا ما أوضحتناه في كتابنا الأخير، فلا نرى غير تكرار ما ذكرناه فيه لإقناع القارئ: كان الأغارقة، على العموم، يَعْدُون النساء من المخلوقات المنحطة التي لا تنفع لغير دوام النسل وتدبير المنزل، فإذا وَضَعَت المرأة ولدًا دمِيًّا قَضَوا عليها، ومن ذلك قول مسيو تُروپُلونْج: كانت المرأة السيئة الحظ التي لا تضع في إسپارطة ولدًا قويًا صالحًا للجنديَّة تُقتل، وقال: كانت المرأة الولود تُؤخذ من زوجها بطريق العارية؛ لتأتِ اللوطن أولادًا من رجل آخر.

المرأة في الشرق

ولم يَنْلَ حُظْوَةً من نساء الإغريق في دور ازدهار الحضارة اليونانية سوى بنات الهوى اللاتي كنَّ وحدهن على شيء من التخرج. وكان جميع قدماء المشرعين يُبِدون مثل تلك القسوة على المرأة، ومن ذلك قول شرائع الهندوس: «ليس المصير المقدَّر والريح والموت والجحيم والسم والأفاعي والنار أسوأ من المرأة».

ولم تكن التوراة أرحم بالمرأة من شرائع الهند، ومن ذلك قول سِفر الجامعة: «إن المرأة أمرٌ من الموت»، وإن «الصالح أمام الله ينجو منها ... رجلاً واحداً بين ألف وجدٍ، أما امرأة فبين كل أولئك لم أحد».



شكل ٤-٥: فتاة مراكشية (من صورة فوتografية).

وليست أمثل مختلف الأمم أكثر اعتدالاً، فالمثل الصيني يقول: «أنصت لزوجتك ولا تصدقها»، والمثل الروسي يقول: «لا تجد في كل عشر نسوة غير روح واحدة»، والمثل

الإيطالي يقول: «المهمَّاُ لِلفرس الجواد والفرس الجموح، والعصا لِلمرأة الصالحة والمرأة الطالحة»، والمثل الإسباني يقول: «احذر المرأة الفاسدة ولا تركن إلى المرأة الفاضلة.»



شكل ٤-٦: فتاة عربية من الجزائر (من صورة فوتografية).

وتُعدُّ جميعُ الشرائع الهندوسية واليونانية والرومانية والحديثة المرأة من فصيلة الإمام أو الصبيان، ومن ذلك قول شريعة مَنُون: «تخضع المرأة في طفولتها لأبيها، وفي شبابها لزوجها، وفي تَأْمِيمها لأنبائها إذا كان لها أبناء، وإلا فإنها تخضع لأقرباء بَعْلَها، أي لا يجوز ترك أمرها لها»، ويقرُّب من هذا ما ورد في شرائع اليونان والرومان، فقد كان سلطان الرجل في روما على زوجته مطلقاً، وكانت تعد أمّة لا قيمة لها في المجتمع، ولم يكن لها قاض سوى زوجها الذي بيده حقُّ حياتها وحقُّ موتها، ولم تعامل الشريعة اليونانية المرأة بأحسن من هذا، وهي لم تعترف لها بأي حق، ولا بحق الميراث.

ومن غير أن نذهب بعيداً إلى أحكام القوانين والديانات القديمة في نقص المرأة عقلاً وأخلاقاً، أذكر أن بعض العلماء المعاصرين أثبتوا ذلك النقص مستندين إلى عوامل تشريحية ونفسية كثيرة، فحاولوا إقامة الدليل على أن الحضارات كلما تقدمت اختلفت المرأة عن الرجل ذكاء.^٢

ولا يظن القارئ أن العرب، الذين احترموا المرأة أكثر من أية أمّة ظهرت، لم يوافقوا على الرأي القديم القائل بنقص المرأة عقلاً وأخلاقاً، فشكوكهم في وفاء المرأة كبيرة إلى الغاية، وذلك أن المرأة في نظرهم من المخلوقات الصغيرة الجميلة الفاتنة العابثة اللاهية التي لا يُرُكَنُ إلى ثبات جنانها طرفة عين، وقديماً قال مشرع الهند الرزين مَنْوُ الذي ظهر قبل مُحَمَّدَ بأكثَرَ من ألفي سنة: «تُعدُّ المرأة زانِيَّةً إذا خلت بالرجل مُدَّةً تكفي لإِنْضاجِ بَيْضَةٍ».

أجل، إن المدة التي حددتها مَنْوُ لإصدار هذا الحكم الصارم قليلة، ولكنه نشأ عن اعتقاد الشرقيين صحة ذلك تقييدهم لحرية المرأة وإكراهها على العيش في دوائر الحرير، وهذا لا يعني أنهم يرون عصمة المرأة بين الجدر والخسيان، وإنما حملوها على العيش في هذه الدوائر لعدم اكتشافهم علاجاً أفضل منه، ومن يُنْعِمُ النظر في أفاصيصهم الشعبية يَرَ فيها أثراً لهذا الاعتقاد، فاقرأ رواية ألف ليلة وليلة العجيبة، مثلًا تجد أن فاتحتها الدقيقة تدور حول مَيْلِ المرأة إلى الخداع بطبيعتها، وأن المرأة لو حُبِست في قفص من زجاج ورافقها مَلْكُ مغيار لاستطاعت، في الغالب، أن تخادع كما تشاء، والشرقيون، إذ كانوا مُطْلِعين بغرائزهم على سرائر الأمور، يَرَون من طبيعة المرأة أن تكون غادرَةً غير وفيةً كما أن الطيران من طبيعة الطير، والشرقيون، إذ كانوا حريصين على صفاء نسلهم، اتخذوا ما يروقُهم من وسائل الحذر منعاً لحدوث ما يَخْشُون.

(٣) الزواج عند العرب

أباح القرآن للمسلم أن يتزوج أربع نسوة من الحرائر وما شاء من الإماء، ويُعَدُّ أولاد الإماء شرعيين كأولاد الحرائر.

وللزوج أن يُطلق زوجته، ولكنه يجب عليه أن يصنع ما يَكُفُّلُ به مصيرها. وفي بلد كالشرق، حيث يَسْهُلُ الزواج فيتزوج الرجال والنساء في ميَّة الشباب يُدْرك السر في إمكان صرامة الطبائع بأشد مما في أوربة، والحق أن الطبائع في الشرق صارمة، وأن من النادر أن ترى رجلاً يتملّق زوجة رجل آخر لخالفة ذلك للطبيعة عند الشرقيين

مع عَدِّه أَمْرًا طَبِيعيًّا لِدِي الْأُورَبِيْنِ، «فَلَا تَرَى هَنَالِكَ، كَمَا قَالَ الدَّكْتُورُ إِيْزَنْبُرْتُ، مَثَلًا مَا يُكَدِّرُ صَفُو الْحَيَاةِ الْزَّوْجِيَّةِ فِي أُورَبَةِ مِنَ الْخِيَانَةِ الَّتِي هِي أَعْظَمُ إِفْسَادًا لِلْأَخْلَاقِ مِنْ تَعْدِدِ الْزَّوْجَاتِ عَلَى مَا يَحْتَمِلُ».٢

وتحاط المرأة في الشرق برقة شديدة، ولا يزورها رجل، ولا تخرج من بيتها إلا مبرقعة، وإذا عَدَوْتَ الْأَسْتَانَةَ وَجَدَتِ النِّسَاءُ الشَّرْقِيَّاتِ مَصْحُوبَاتٍ عَلَى الْعُمُومِ، وَلَا يَتَعَرَّضُ أَحَدٌ لَهُنَّ إِلَّا نَادِرًا، وَلَا نَعْجَبُ كَثِيرًا، إِذْنَ، مِنْ قَوْلِ الشَّرْقِيِّينَ إِنَّ نِسَاءَهُمْ أَفْضَلُ مِنَ الْأُورَبِيَّاتِ.

وَلَا يَزَالُ رَبُّ الْأَسْرَةِ الشَّرْقِيَّةِ مَحَافِظًا عَلَى سُلْطَانِهِ خَلَافًا مَا هُوَ وَاقِعٌ فِي الْغَرْبِ، وَلَا تَكُلُّ النِّسَاءُ الشَّرْقِيَّاتِ أَزْوَاجَهُنَّ إِلَّا بِأَدْبٍ، وَيَقْنَدِي الْأَوْلَادَ بِهِنَّ بِطَبِيعَةِ الْحَالِ، وَيَتَمْتَعُ رَبُّ الْأَسْرَةِ الشَّرْقِيَّةِ، فِي الْحَقِيقَةِ، بِمَثَلِ مَا كَانَ يَتَمْتَعُ بِهِ رَبُّ الْأَسْرَةِ فِي رُومَةِ الْغَابِرَةِ مِنَ السُّلْطَانِ وَالْأَمْتِيَازَاتِ، وَلَا يَجِدُ الشَّرْقِيُّونَ فِيهَا مَا يُثِيرُ حُسْدَهُمْ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ.

وَيَنْظُرُ الْعَرَبُ شَزَرًا إِلَى الْعَزُوبَةِ، وَالْعَزُوبَةُ تَزِيدُ فِي الْغَرْبِ شَيْوِعًا كُلَّ يَوْمٍ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْإِحْصَاءُاتُ، وَمَتَى بَلَغَ الْعَرَبِيُّ الْعَشْرِينَ مِنْ عَمْرِهِ تَزُوَّجُ عَلَى الْعُمُومِ، وَمَتَى بَلَغَ الْعَرَبِيَّةَ مَا بَيْنَ السَّنَةِ الْعَاشِرَةِ وَالسَّنَةِ الثَّانِيَةِ عَشَرَةَ مِنْ عَمْرِهَا تَزُوَّجُتْ عَلَى الْعُمُومِ، وَقَدْ اعْتَرَفَ إِيْبِرُ بِفَائِدَةِ هَذِهِ الْعَادَةِ فَقَالَ: «لَا يَسْعُنَا إِلَّا الشَّهَادَةُ بِحُسْنِ تِلْكَ الرُّوحِ الْبَيْتِيَّةِ، وَصَلَاحِ تِلْكَ الْحَيَاةِ الْمَنْزِلِيَّةِ».

وَيَمْتَازُ الزَّوْجُ الشَّرْقِيُّ مِنَ الزَّوْجِ الْأُورَبِيِّ، فِيمَا عَدَا مِبْدَأَ تَعْدِدِ الْزَّوْجَاتِ، بِأَنَّ الزَّوْجَ فِي الشَّرْقِ هُوَ الَّذِي يَدْفَعُ إِلَى أَهْلِ الْزَّوْجَةِ مَهْرًا مَتْحُولًا بِحَسْبِ ثَرَوْتِيهِمَا، وَبِأَنَّ الْزَّوْجَةَ عِنْ أَكْثَرِ الْغَرَبِيِّينَ، وَلَا سِيمَا طَبَقَتُهُمُ الْمُوسَرَةُ، هِيَ الَّتِي تَدْفَعُ مَبْلُغاً مِنَ الْمَالِ يُعْرَفُ بِالْدُّوْتَةِ لِتَنَالُ زَوْجًا.

وَحَقْوقُ الْزَّوْجَةِ الَّتِي نَصَّ عَلَيْهَا الْقُرْآنُ وَمَفْسُرُوهُ أَفْضَلُ كَثِيرًا مِنْ حَقْوقِ الْزَّوْجَةِ الْأُورَبِيَّةِ، فَالْزَّوْجَةُ الْمُسْلِمَةُ تَتَمَتَّعُ بِأَمْوَالِهَا الْخَاصَّةِ فَضْلًا عَنْ مَهْرِهَا، وَعَنْ أَنَّهُ لَا يُطْلَبُ مِنَهَا أَنْ تَشْتَرِكَ فِي الْإِنْفَاقِ عَلَى أَمْوَالِ الْمَنْزِلِ، وَهِيَ إِذَا أَصْبَحَتْ طَالِقًا أَخْذَتْ نَفَقَةً، وَهِيَ إِذَا تَأَمَّتْ أَخْذَتْ نَفَقَةً سِنِّيَّةً وَاحِدَةً، وَنَالَتْ حَصَّةً مِنْ تِرْكَةِ زَوْجِهَا.

وَتَعَامَلُ الْمَرْأَةُ الْمُسْلِمَةُ بِاحْتِرَامٍ عَظِيمٍ فَضْلًا عَنْ تِلْكَ الْأَمْتِيَازَاتِ، وَتَنَالُ بِذَلِكَ حَالًا أَجْمَعُ الْبَاحِثُونَ الْمُنْصَفُونَ، وَمِنْهُمْ مَنْ نَاصِبُ بِعَاطِفَتِهِ مِبْدَأَ تَعْدِدِ الْزَّوْجَاتِ الْعِدَاءَ، عَلَى الْاعْتَرَافِ بِحُسْنِهَا، وَمِنْ هُؤُلَاءِ مَسِيوِ دُوِّ أمِيسِيسِ الَّذِي قَالَ فِي مَعْرِضِ الْحَدِيثِ عَنِ الْمَرْأَةِ فِي الشَّرْقِ، وَذَلِكَ أَنَّ أَنْجَى بِاللَّائِمَةِ عَلَى تَعْدِدِ الْزَّوْجَاتِ وَفَقْ وَجْهَةُ نَظَرِهِ الْأُورَبِيَّةِ: «إِنَّ



شكل ٤-٧: فتاة سورية (من صورة فوتوغرافية).

المرأة في الشرق تُحترم بُنبل وكرم على العموم، فلا أحد يستطيع أن يرفع يده عليها في الطريق، ولا يجرؤ جنديًّا أن يسيء إلى أوقح نساء الشعب حتى في أثناء الشغب، وفي الشرق يشمل البعل زوجته بعين رعايته، وفي الشرق يبلغ الاعتناء بالأم درجة العبادة، وفي الشرق لا تجد رجلاً يُقدم على إلزام زوجته بالعمل لاستفادة من كسبها، وفي الشرق يدفع الزوج مهراً إلى زوجته فلا تجيء الزوجة إلى بيت زوجها مصحوبةً بأكثر من جهازها ومن بضع إماء لها، وإذا طُلقت الزوجة في الشرق أو هُجرت أعطاها الرجل نفقةً لتعيش عن سعة، وحَمْلُ الزوج بعد الفراق على القيام بهذا الإنفاق يمنعه من إساءة معاملتها حَذَرَ مطالبه بالفارق».

والاعتراض الوحيد الظاهر الذي يوجه إلى مبدأ تعدد الزوجات هو أنه يجعل المرأة تعسة، وقد أجمع على فساد هذا الرعم الذي طال أمده جميع الأوربيين الذين درسوا أمره في الشرق عن كتب، فبعد أن ذكر مسيو إير، الذي بدا خصماً لمبدأ تعدد الزوجات مع ترددِه، أن المسلمات لا يتظلمن منه قال: «قد يظهر لأخواتهن الأوربيات أنهن من الذليلات، ولكنهن لا يشعرن بأنهن أسيرات مطلقاً، وهن يقلن — في الغالب — لنسائنا اللاتي يَزُرنَّهنَّ: إنهن لا يَقْبَلُنَّ استبدال حالنا بحالهن».



شكل ٤-٤: امرأة تركية بالزي البلدي (من صورة فوتوغرافية).

ولم يكن مدير مدرسة اللغات في القاهرة، مسيو دوقوجاني، أقلَّ صراحة من ذلك: فقد قال: «تُعدُّ المسلماتُ أنفسهن غير تعسات من حياة العُزلة التي يُفرضها عليهن نظام الحرير، فهن إذ يولدن في دوائر الحرير غالباً يتعرعن فيها جاهلاتٍ وجود حياة لبنات جنسهن أفضل من تلك الحياة مُعرضاتٍ عن الحرية التي تتمتع بها الأوربيات، ولا غرو، فدوائر الحرير كانت مسرح طفولتهنَّ ومسارتهنَّ الأولى وهواجسهنَّ الأولى». ويقال إن العادة طبيعة ثانية، فإذا صحَّ هذا القول كانت حياة الحرير طبيعة ثانية لبنات الشرق، فهن إذ يتَّبعُون السير في دائرةٍ يُعرفن حدودها لا يُفَكِّرن حتى في التحرر منها، وهن حين يتزوجن ينتقلن من دوائر آبائهن إلى دوائر أزواجهن حيث يتمتعن بأنْعَمْ جديدة ويفتحن قلوبهن، الخالية من تَرَحِّ ثُورِثه تربيةٌ دقيقة، لمعاني السعادة، وما يلاقينه من رعاية أزواجهن يجعل هذه السعادة أمراً ميسوراً، والمسلم يحبُّ بكل جميل وبكل ثمين، والمسلم يحب أن يعرض في دوائر حريمه كل ما ينْمُ على الترف والزخرف مع أنه يرضى لنفسه برقةٍ مُتَضَعَّةٍ إذا ما قيست بتلك». ونَقَصَ ذلك العالم الرأي القائل: «إن نساء الشرق جاهلاتٍ جهلاً عميقاً»، وذكر أنهن أعظم تعليماً من أكثر نساء أوربة، وأن منهن من ينتسبن إلى أرقى الطبقات، وقال:

«إن التعليم كثير الانتشار في دوائر الحريم، وليس من القليل أن تجد نساء متزوجاتٍ وغير متزوجاتٍ تجيد كل واحدة منهن العربية والفرنسية والإنجليزية والتركية تكلماً وكتابة، فإذا ما اجتمع عدد كبير من المسلمات الراقيات في دوائر الحريم تحدثن باللغة الفرنسية غالباً»، وأما أنا فلم أشاهد عدداً كبيراً من الباريسيات اللاتي يتكلمن بأربع لغاتٍ تكلماً صحيحاً أو غير صحيح.

ولا تُقل: إن طرق حياة النساء في الشرق مانعةٌ من تعليمهن في كل وقت، فقد رأيت مما تقدم أن عدد النساء اللاتي اشتهرن أيام ازدهار حضارة العرب بعلومهن كان كثيراً إلى الغاية، ولم يستند الكتابُ الذي تحدثوا عن جهل المرأة الشرقية إلا إلى حال الإماء الالاتي يُجلبن من أقصى الأقطار، ويُشترن من أسواق النّخاسة ويشاهدن في بعض دوائر الحريم، وما هؤلاء الكتاب إلا كمن يَسْتَنبِطُ رُقَيَّ السيدة الباريسية الفاضلة من حال خادمة غرفتها.

(٤) الحريم في الشرق

كلمة «الحريم» لفظٌ عام يدل عند العرب على كلّ ما هو مقدس، فإذا ما طُبِّقت هذه الكلمة على منزل ذلت على أمنع قسم منه وأشدّ حرمّة لدى المسلم، أي على المكان الذي تسكنه نساؤه.

ويُنسج الأوربيون، على العموم، أفسد الآراء حول دوائر الحريم في الشرق، ويُعدُون دوائر الحريم دُوراً فسقاً يسكنها نساء سجينات تُعسّات يُقضين أوقاتهن في البطالة ويَكْعَنَّ حظهنَّ.

وقد بيَّنا درجة بُعدِ هذه الأحكام من الصحة، ويقضي جميع الأوربيين الذين يدخلون دوائر الحريم كلّ العجب من حب النساء فيها لأزواجهن، ومن تربيتهم لأولادهن، وتديريهن لأمور منازلهم، ورضاهن بما قدر لهن، واعتقادهن تقهرهن إذا ما حُملن على تبديل حال الأوربيات بحالهن، وهن يتوجعن بإخلاص من إلزام الأوربيات بالأشغال وبالأعمال اليدوية مع أنهن لا يعتنن إلا بأسرهن وأزواجهن ذاهباتٍ إلى أن المرأة حُلِقت لهذا.

ويُنظر الشرقيون إلى الأوربيين الذين يُكْرهُون نسائهم على التجارة والصناعة والأشغال ... إلخ، كما ننظر إلى حسان أصيل يستخدمه صاحبه في جر عربة أو إدارة حجر رحى، فيجب ألا يكون على المرأة، عند الشرقيين، غير إدخال السرور إلى قلب الرجل

وتربية الأسرة، ولا يرى الشرقيون أن المرأة التي تزاول أعمالاً أخرى تستطيع أن تقوم بدورها هذا على الوجه اللائق.

وتترك الأمم بعض الأثر في نفس من يزورها، ولذا أشارك الشرقيين في رأيهم ذلك مشاركةً تامة، وأقول، مع ذلك: إن كل شيء في دوائر الحريم لا يسير كما يُرِّام، وإن دوائر الحريم في المدن التركية الكبيرة على الأقل، ولا سيما في الأستانة، تُورث فساداً كبيراً، وإن أخلاق الحريم في الأستانة هيئَةً في الوقت الحاضر كالتي تشاهد في عواصمنا الغربية الكبرى، وإن نفوذ الأمراء وزباده الترف والفقر الشائع، بعد الحرب الأخيرة على الخصوص، أمرٌ أدى إلى انحلال الأخلاق، وإنك تجد في الأستانة نساءً كثيراتٍ، ومنهن من ينتمي إلى بعض الأعيان، لا يصعب نيل الحُظوة لدِيهن بدراهم تُدفع إلى حرس الحريم من غير ضرورةٍ إلى كبيرٍ عناءٍ في الغالب.



شكل ٩-٤: داخل قصر أسعد باشا في دمشق (من صورة فوتوغرافية التقاطها المؤلف).

وروث زوجة محمد باشا القبرسي الذي كان رئيساً للوزارة العثمانية في كتابها «الإنكليزي» الحديث الذي اسمه «ثلاثون سنة في الحريم»، وذلك بعد أن قضت حياتها

في دواوين حريم أكابر الأعيان: أنه كان من عادة نساء السلطان عبد المجيد أن ينادين السَّابِلَةَ من نوافذ قصرهنَّ، وأنَّ من يلبِّي الدُّعْوَةَ من أولئك السَّابِلَةِ يُخْنَقُ في الغد كتماً للسر، وأنَّ خبر ما وقع من الفسق لا يشيع على العموم، وأنَّه كان من حَذَرَ نازلي هانم بنتِ عزيز مصر، محمد علي، أن تقتل جميع عشاقها من المارين، وأنَّها كانت مع ذلك شديدةَ الغَيْرَةِ كما يدلُّ عليه ما يأتي: «حدثَ أَنْ قَالَ الْمَرْحُومُ زَوْجُهَا، ذَاتَ مَرَّةٍ، لِلْجَارِيَةِ الَّتِي أَحْضَرَتْ إِلَيْهِ مَاءً: «كَفَىْ يَا حَمَلِي!»، فَلَمَّا وَصَلَ خَبْرُ هَذِهِ الْكَلْمَةِ إِلَى تَلْكَ الْأَمْرِيَةِ اضطربَتْ، وَأَمْرَتْ بِخْنَقِ تَلْكَ الْجَارِيَةِ التَّلْعَسَةَ، وَحَشَّوْ رَأْسَهَا بِالْأَرْزِ وَطَهُوهُ وَوَضَعَهُ فِي طَبَقٍ وَتَقْدِيمَهُ إِلَيْهِ، فَلَمَّا عُرِضَ عَلَيْهِ قَالَتْ لَهُ: «كُلْ قَطْعَةً مِنْ حَمَلَكَ إِذْنَ»، فَرَمَى هَنَالِكَ مِنْشَفَتَهُ وَتَوَارَى، وَلَمْ يَبْدُ مَلِيًّا كَارِهًا لَهَا بَعْدَ ذَلِكَ».



شكل ١٠-٤: كفة ميزان نحاسية مكففة بالفضة مصنوعة في دمشق (من صورة فوتوغرافية التقاطها المؤلف).

نقلتُ ما تقدم ليطلع القارئ على ما يقال في مدح مبدأ تعدد الزوجات، وعلى ما قد يقال في ذمة، وإنما أرى أن مساوئه تتجلّى، على الخصوص، في دواوين حريم أعيان الترك حيث تُحاك الدسائس التي هي سياسية أكثر منها غرامية، لا في دواوين حريم الطبقات الوسطى، وأرى أن مثلك من يحاول تقدير نظام الحريم بتلك الروايات كمثل من يُقدّر مبدأ الاقتصار على زوجة واحدة بالفضائح التي تُضيّع محاكمنا منها في كل يوم، أو

بالقضايا التي تُرْفَعُ على بعض رجال الدين النصرانيّ؛ لعدم قيامهم بما يجب عليهم من الطهُرُ والعفاف.

وإنني أطمع أن يعتقد القارئ، بعد وقوفه على ما تقدم، أن مبدأ تعدد الزوجات أمرٌ طيب، وأن حبَّ الأسرة وحسنَ الأدب وجميلَ الطبائع أكثرُ نموًّا في الأمم القائلة به مما في غيرها على العموم، وأن الإسلام حسَنَ حال المرأة كثيرًا، وأنه أولُ دينٍ رفع شأنها، وأن المرأة في الشرق أكثرُ احتراماً وثقافةً وسعادةً منها في أوربة على العموم تقريباً.

هوامش

- (١) الجراء: جمع الجرو، وهو ولد الكلب.
- (٢) لا أكتم أنني صاحب هذا الرأي الخصيّب النتائج، ففصلته في مذكرة نشرتها بعنوان: «المباحث التshireيحية والرياضية في ناموس تحولات حجم الجمجمة»، وفي هذه المذكرة حاولت أن أثبت أيضًا أن فروق الذكاء بين الرجال تبدو باطراد كلما تمدنوا، وأن الحضارة تقودنا باستمرار إلى التقاوت لا إلى المساواة.
- (٣) يمكن الدكتور إيزنبرت أن يقول، أيضًا: إن الخيانة الزوجية في الأمم القائلة بالاقتصار على زوجة واحدة تزيد باطراد، فقد دلت الإحصاءات الرسمية التي نُشرت حديثًا على أن عدد قضايا الزنا في فرنسة سنة ١٨٨٠ أصبح تسعة أمثال ما كان عليه في سنة ١٨٢٦.

الفصل الخامس

الدين والأخلاق

(١) تأثير الدين في المسلمين

تكلمنا فيما تقدم عن أحكام القرآن كما عَلِمَهُ مُحَمَّدٌ منذ ثلاثة عشر قرناً، ولكن القرآن دستورٌ مكتوب، ويوجَد فَرْقٌ بين التعاليم المكتوبة والعمل بها في الغالب، وإذا ما أراد الإنسان أن يَعْلَمَ أهمية هذه التعاليم وَجَبَ عليه أن يدرس درجة تأثيرها في الحياة، وحدودُ هذا التأثير هو الذي تُهُمُّ معرفته إذن، وهذا لا نستطيعه إلا بالدخول فيما لم نأْتِه حتى الآن من التفصيل: تأثيرُ دين محمد في النفوس أعظم من تأثير أي دين آخر، ولا تزال العروق المختلفة التي اتخذت القرآن مرشدًا لها تعمل بأحكامه كما كانت تفعل منذ ثلاثة عشر قرناً، أجل، قد تجد بين المسلمين عدداً قليلاً من الزناقة والأخلاقياء، ولكنك لن ترى من يجرؤُ منهم على انتهاك حرمة الإسلام في عدم الامتثال لتعاليمه الأساسية كالصلاوة في المساجد وصوم رمضان الذي يراعي جميع المسلمين أحكامه بدقة مع ما في هذه الأحكام من صرامةٍ لا تجد مثيلاً في صوم الأربعين الذي يقوم به بعض النصارى كما شاهدتُ ذلك في جميع الأقطار الإسلامية التي زرتها في آسيا وإفريقيا، ومن ذلك أن أتيح لي أن أركب سفينة نيلية كان فيها أفرادٌ عصابةٌ عربيةٌ مُقرَّنٌ في الأصفاد، ومُتهمين بأنواع الجرائم؛ فقضيتُ العجب حين رأيتهم، وهم الذي خرقوا حومةَ جميع القوانين الاجتماعية مستخفين بآقسى العقوبات، ولم يجرؤوا على انتهاك تعاليم النبي، وحين شاهدتهم يرتفعون تلك الأصفاد عنهم وقت الصلاة ليسجدوا لله القَهَّار ويعبدوه.. وعلى من يرغب في فهم حقيقة أمم الشرق، التي لم يُدِرِكَ الأوربيون أمرها إلا قليلاً، أن يتمثل سلطان الدين الكبير على نفوس أبنائهما، وللدين ذي التأثير الضئيل فيما نفوذٌ عظيمٌ فيهم، وبالدين يُؤثِّرُ في نفوسهم، ولو لا الدين ما حُرِّكَ ساكن مصريين منذ الثورة

ال الحديثة التي ضررت مصر بالدماء، وقد تجلّت لي صعوبة إدراك الناس لروح الأمم الأخرى من مطالعة الصحف الأوروبية التي ذكرت أن ثورة عرب مصر الأخيرة حدثت لينالوا من الحقوق السياسية ما يجهلونه بالحقيقة جهلاً تاماً، وذلك أن العرب إذ تعودوا الإذعان لأهواء ربّ، ولم يصعب عليهم الإذعان لوكالاته، وأن الرجل الذي يخاطب العرب باسم الله يُطاع لا محالة، ما علِمُوا أنه يتكلم باسم الله حقاً، فعلى الراصد المؤمن أو الملحّ أن يحترم هذا الإيمان العميق الذي استطاع العرب أن يفتحوا العالم به فيما مضى، وهم اليوم يصيرون به على قسوة المصير.

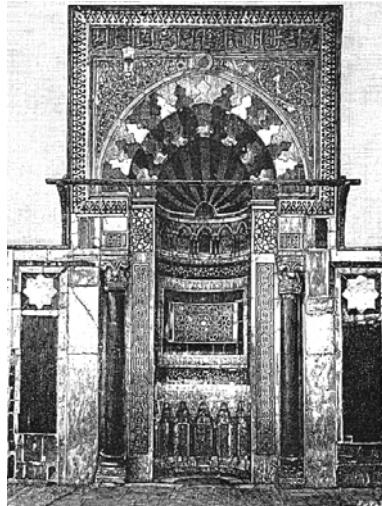
حقاً إن مثل تلك المعتقدات يُورثُ الجموع أوهاماً جميلةً تُعدُّ عنوان السعادة، والجماع تُبصر من خلالها نعيم الآخرة الذي لا ترى مثله في هذه الحياة الدنيا، وهي تصونها من الوقوع في اليأس وما يجرّ إليه اليأس من الفتن الشديدة، ويجب على من يستخف بتلك الأوهام أن يستخف بجميع الأوهام: ليكون منطقياً فيزدرى المجد والطموح والحب وجميع الخيالات الساحرة الجديرة بالاحترام التي نقضي حياتنا وراء تحقيقها، وهذه الأوهام أعظم عامل في سُير الإنسان حتى الآن، والمفكّر الذي يكتشف ما يُعني الناس عنها لم يولد بعد.

(٢) الطقوس الدينية في الإسلام

(١-٢) الفرق الإسلامية

أرى أن أقول بضع كلماتٍ عن الفرق الإسلامية قبل وصف طقوس العرب الدينية الأساسية: يشتمل الإسلام على عدة فرق كل دين، وبلغ عدد الفرق الإسلامية، منذ أوائل التاريخ الهجري، اثنين وسبعين فرقةً، وأكثر من هذا عدد الفرق البروتستانية وحدها. وفرقة أهل السنة وفرقة الشيعة أقدم الفرق الإسلامية وأهمها، فاما الشيعة: فيزعمون أن الخلافة لصهر النبي علي، ويعترضون على احترامهم لـ محمد تقريباً، وأما أهل السنة: فيزرون خلافة الخلفاء صحيحةً وفق ترتيبهم، ويمثل أهل السنة الفريق الصحيح.

وإذا ما استثنينا تينك الفرقتين رأينا فرقاً ثانوية في الإسلام، وأهمُها الوهابية التي ظهرت منذ قرن فأقامت دولةً قوية في وسط جزيرة العرب، وتزعم الوهابية أنها تُعيد إلى الإسلام صفاءه القديم، والوهابيون بروتستان الإسلام في الحقيقة.



شكل ١-٥: محراب في الجامع الأزهر بالقاهرة (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

والُّفُرُسُ من الشيعة، والعرب والتُرك من أهل السنة، وأهل نجد من الوهابيين. وينظر بعض تلك الفرق إلى بعض بعين التسامح، وتصلح الفرق في سوريا — على الخصوص — أن تكون قدوةً لختلف الفرق النصرانية، وأنت لا تجد في العالم الإسلامي محاكم مثل محاكم التفتيش ^{أُلْفَتْ} لحمل أنصار فرقٍ على انتحال مبادئ فرقٍ أخرى بالحديد والنار، وأنت تجد أساندَة منتبين إلى مختلف المذاهب يعيش بعضُهم بجانب بعض متفاهمين في الجامع الأزهر الذي هو أهم مؤثِّل للتعليم الديني في الشرق. ولنذكر الآن طقوس العرب الدينية المهمة:

الصلوة: الصلوة من أهم العبادات التي نصَّتُ عليها شريعة مُحَمَّد. المسلم لا يَفْرُّ من أدائها مهما كانت ^{أُمَّتَه} وطبقته.

ويجب أن تؤَدَّى الصلوة خمس مرات في أوقات معينة من كل يوم كما أمر النبي، ويدعو المؤذنون من المآذن، في بلاد الإسلام الواسعة، عشر المسلمين إلى الصلاة



شكل ٢-٥: ضريحولي عربي في غابة البليدة المقدسة (الجزائر، من صورة فوتوغرافية).

بأصواتهم الجهيرية وقت الفجر ووقت الظهر ووقت العصر ووقت المغرب ووقت العشاء، وصيغة الأذان هي:

الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة.

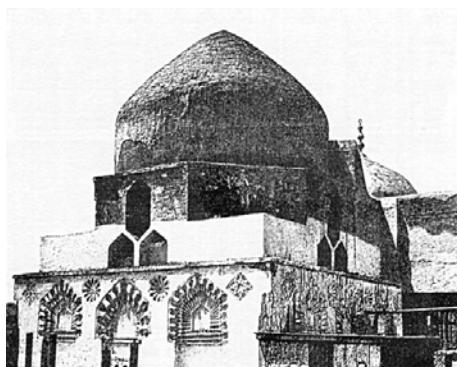
وإذا ما تم الأذان قام المسلمون إلى الصلاة رافعين أيديهم إلى آذانهم، ثم وضعوها تحت سُرّاتهم تالين ما تيسّر من القرآن، ثم ركعوا وسجدوا غير مرّة.

ويؤدي المسلمون صلاة الجمعة وقت الظهر في المساجد بعد أن يستمعوا إلى خطبة الإمام، ويدوم ذلك ثلاثة أربعاء الساعة.

وعلى المسلم أن يتوضأ قبل الصلاة، وتتجد في كل مسجد حوضاً للوضوء.

الصوم: الصوم من أهم عبادات الإسلام أيضاً، ويصوم المسلمون على اختلاف طبقاتهم، ويراعي المسلمون في صيامهم شروط الصوم الشديدة بدقة يصعب على الأوربي أن

يتصورها، ويقوم الصوم في شهر رمضان الذي يَحِلُّ في فصولٍ مختلطةٍ مع السنين، على الامتناع عن الأكل والشرب والتدخين من الفجر إلى غروب الشمس. ويتضمن امتناع المسلم عن الشرب والتدخين في النهار قهراً لنفسه، فإذا ما اقترب وقت الغروب رأيت المسلم حاملاً سيغارته أو ممسكاً أنبوب نارجيلته منتظراً، فارغ الصبر، إذان المؤذن بحلول وقت الإفطار، وإذا ما غربت الشمس استدرك المسلم ما فاته، وتناول طعاماً وافراً.



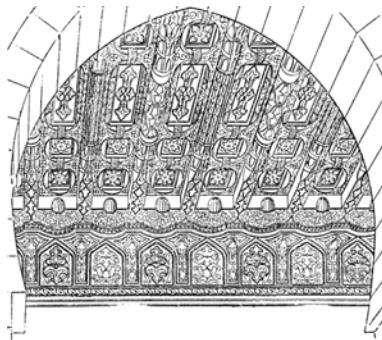
شكل ٣-٥: القسم الأعلى لمزار العباسين الذي اكتُشف حديثاً في القاهرة (من صورة فوتوغرافية).

وفي ليالي شهر رمضان تُنارُ القَهَّوَاتِ، وتُمَثَّلُ الروايات، وتشاهد الألعاب بعد الإفطار، وتُضاء المساجد.

الأعياد الدينية: أعياد المسلمين الدينية، خلا رمضان كثيرةً، وأنذر منها يوم مولد النبي، وليلة نصف شعبان المرهوبة التي تُوزَن فيها مصائر الناس وتُنَظَّم، وعيد الأضحى الذي يدوم أربعة أيام من آخر أشهر السنة ويرمُزُ إلى ضَحْيَة إبراهيم. وتدبح كلُّ أسرة خَرْوفاً أو حيواناً آخر في عيد الأضحى، ويَلَبِّسُ المسلمون أُفُخر الملابس، ويمشون في الأسواق، وتُضاء المساجد بال المصايبح ذات الألوان، وأُعْدُ الليلة التي نظرتُ فيها إلى ميناء رودس المُنَار ليلةً عيد الأضحى من أروع ما رأيت في حياتي.

وبلغ تأثير الإسلام في أدق شؤون العرب مبلغاً تكون معه جميع مراسمهم أعمالاً دينية، ومن تلك المراسم: أنكحُتهم وختناناتهم التي وصفناها في فصل سابق، والتي ليست، في الحقيقة، سوى أعمال دينية ومدنية معاً.

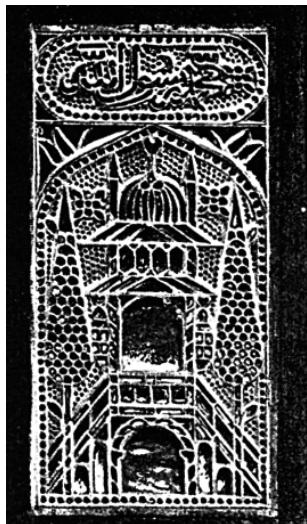
الحج: يُعد حجُّ المسلم لكة مرة في العُمر من أهم ما أَمْرَ به محمد من الأمور الدينية والسياسية.



شكل ٤-٥: سقف جامع المؤيد في القاهرة (من تصوير كوست).

ويَتَمُّ الحج بواسطة القواقل العظيمة التي يُعْدُ أهمها ما يخرج من القاهرة والشام، وتكون الرحلة طويلةً، ويَهُلُّك فيها حُجاجٌ كثير، وتهون المشقة في سبيل زيارة الكعبة المُشرفة الشهيرة أيام محمد، والتي يرجع أصلُها إلى أقدم قرون التاريخ. وإذا ما اقترب الحجاج من مكة حَلَّقوا، وخلعوا ثيابهم، وقاموا بضروب الوضوء، ولبسوا الأزر، ثم طافوا حول الكعبة سبع مرات، واستلموا الحجر الأسود الشهير الذي تكلمنا عنه في فصل آخر، ثم توجهوا إلى جبل عرفات القريب من مكة وسمعوا فيه خطبة الإمام، ثم أفضوا إلى حيث يَرِمون الشيطان بحصيات في الوادي الذي طرده منه إبراهيم، ثم نَحَرُوا الذبائح، ثم زار أكثرهم حميَّة المدينة التي تضمُّ قبر الرسول. وفي الغالب يبلغ عدد الذين يزورون مكة كلَّ سنة مئتي ألف حاج، وفي موسم الحج يتقابل المسلمين الذين يجتمعون من أنحاء العالم الإسلامي الممتد من مراكش إلى الهند وحدود الصين مارًّا بأفريقيبة الوسطى.

والحقُّ أنَّ المؤمنين إخوةٌ كما أمر القرآن، وأنَّ الحجُّ فرض لتوثيقِ عُرْواةِ الإخاءِ الإسلاميِّ كما ذهب إليه متكلمو العرب، فإذا ما عَقَدَ الحاجُ اجتماعاتِهم التي لا يستطيعُ نصرانيٌّ أن يلتجأ فيها من غير أنْ يُقتلَ استقصيًّا بعضَهم احتياجاتِ بعضٍ، وتفاهموا في شؤونِ الإسلام، ثم نشروا ذلك في جميعِ نواحيِ الإسلام، ولا نرى أنْ نُسَهِّبَ في بيانِ ما قد ينشأُ من النتائجِ السياسيةِ المهمةِ عن اجتماعِ الحجيجِ الذين يأتونَ مكةَ في موسمِ الحجِّ من الأقاصي فتُوحَّدُ بينَهم المصالحُ الدينيةُ المشتركة.



شكل ٥-٥: نافذة في مسجد عربي بالقاهرة (من صورة فوتوغرافية التقاطها المؤلف).

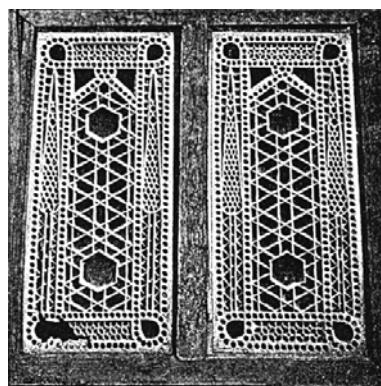
ولكمةُ أهميةٍ تجاريةٍ كبيرةٍ إلى الغايةِ عدا أهميتها الدينيةُ والسياسيةُ، فمكةُ من أعظمِ أسواقِ العالمِ، وفيها يُنْقايصُ بالسلعِ التي تَرُدُّها من أنحاءِ الدنيا.

أذكار الدراويش: عَرَفَ الإسلامُ الزهدَ والذِّكرَ كما عرفتهما الأديانُ الأخرى، وأدى الزهدُ والذكرُ إلى تأليفِ الطرقِ الدينيةِ التي تهدفُ إلى النجاةِ الأبديةِ، وتظهرُ الطرقُ الدينيةُ في الأديانِ التي تميلُ إلى التشاؤمِ عادةً، وليسُ القرآنُ أقلَّ تشاؤمًا من الإنجيل؛ فالقرآنُ،

كالإنجيل، يُعدُّ الحياة الدنيا طريق ابتلاء وامتحان للوصول إلى الآخرة، وأوجب هذا ميَّلَ ذوي الورع والقلق إلى التحرر من مفاسد الدنيا، ودخول ملکوت السماوات بالزهد.

وأذكر، من بين الطرق الدينية التي تُستوقف النظر، طريقة الدراويش الدُّوارين (المَلْوَوِيَّة) وطريقة الدراويش الصَّحَّابِين، ونُعْتَ هؤلاء بهذا الاسم؛ لِمَا يأتون من الأعمال والحركات التي يصلون بها إلى درجة الوجود والانجداب كما كان يصنع رهبان أد iarنا كثيراً.

وفي الاستانة شاهدتُ الدراويش الدُّوارين في أثناء أذكارهم فرأيت حالهم، بعد أن يدوروا كثيراً على أنفسهم، قريبةً من حال السائرين في النوم، ويقوم الدراويش الدُّوارون، قبل دورانهم على أنغام الناي والطلب والرَّباب، ببعض التراتيل التي تشبه تراتيل كنائسنا، وإن كانت أعنف وأشجع مع عدم طنيتها.

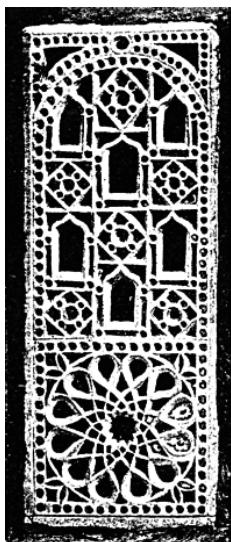


شكل ٦-٥: نافذتا مسجد في القاهرة (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

وَجَرَبْتُ تأثير تلك الموسيقا في المؤمنين بنفسي، وسَبَحْتُ في بحر من الرُّؤَى حين سمعتها، قال تِيوڤيل غُوتٍيه موضحاً هذا التأثير في الأسطر الآتية:

كان ذلك اللحن العجيب يُثير في قلبي ما لا يُعرف من الحنين إلى الأوطان، وكان يُثير فيه ما لا يُوصف من الوله والجدل، وكان يثير فيه ميلاً إلى

الانسياق مع التيار، وما أكثر ما كان يهيج في نفسي من الذكريات والمناظر الخيالية الجميلة الساحرة! وما أكثر ما كنت أتتمثل به ما نَسِيَتْ من الصور والرسوم المشاهد والأمانى اللطيفة فأترنح مُسَلِّماً أمرى إلى سحره! وهو المؤثر الذي يناقض ما تعودناه.



شكل ٧-٥: نافذة مسجد عربي (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

وإذا ما دام تأثير تلك الأنغام بعض الزمن خلع أولئك الدراويش أرْدِيتِهم، ولم يبق عليهم سوى قُمُصِهم، باسطين أذرعهم كالصلب، راقصين حول أنفسهم بانتظام، متدرجين ببطءٍ ماثلي الرؤوس، فاتحِي الأفواه مُغمضي العيون فاقدِي المشاعر، وما كان وَضُعْ ذرْعانِهم المُتَعَبُ، الذي لا يحتمله الإنسان في الأحوال العادية إلا لبعض دقائق؛ ليُزِعْجُهم في ربع ساعة، وما كنت لأجدَ في حركاتهم غير العذوبة والانتظام الرائع، فَيُخَيِّلُ إِلَيَّ أَنِّي تَهَتَ فيما لا حَدَّ له من الأخيلة التي يَعِزُّ عن وصف سحرها القلم، قال ذلك الكاتب:

ما يَرَوْنَ فِي تِلْكُ الرُّؤْيِ الَّتِي تُرْنَحُهُمْ؟ أَيْرَوْنَ فِيهَا جَنَّةً مُحَمَّدَ الَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَى غَابَاتٍ مِنَ الْيَاقُوتِ، وَجَبَالٍ مِنَ الْعَنْبَرِ، وَقَصُورٍ مِنَ الْأَلْمَاسِ، وَخِيَامٌ مِنَ الْلَّؤْلَؤِ؟ لَا رِيبٌ فِي أَنَّهُمْ، فِي تِلْكُ الرُّؤْيِ، يُقْبَلُونَ بِمَبَاسِمِهِمُ الْعَطِيرَةِ، الْحَوَرِ الْعَيْنِ الْبَيْضِ وَالْخَضْرِ وَالْحَمْرِ، وَيَشَاهِدُونَ نُورَ اللَّهِ السَّاطِعِ الَّذِي يُعْشِي الْأَبْصَارَ فَتَبْدِي الشَّمْسَ بِجَانِبِهِ مَظْلَمَةً، وَيَشَاهِدُونَ الْأَرْضَ، الَّتِي يُمْسِكُونَهَا بِطَرْفِ أَبَاهِمِهِمْ، تُطْوِي كُورْقَةَ دَفْتِرِ مَلْقَاهِ فِي كَانُونِ، وَيَتَمَالِيُونَ بِهُبُّيَامِ فِي صُورَتِي اللَّهِ، أَيِّ فِي الْخَلْوَةِ، وَفِيمَا لَا حَدَّ لَهُ.

وَمَتَى خَرَجَ الدَّرَاوِيشُ الدَّوَارُونَ مِنْ وَلَاهِمْ وَقَفُوا وَرَكَعُوا وَخَرَجُوا مِنَ الْقَاعَةِ. وَلَمْ أَشَاهِدْ أَذْكَارَ الدَّرَاوِيشِ الصَّخَابِينِ، وَلَكِنِي أَرَى، مَا وُصْفُوا بِهِ، أَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ فِي حَالٍ مِنَ التَّنْوِيمِ كَالْحَالِ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْهَا الدَّرَاوِيشُ الدَّوَارُونَ بِفَعْلِ الرَّقْصِ وَالْمُوسِيقَا، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَصِلُّونَ إِلَى دَرْجَةٍ مِنْ دُمْدُمَةِ الْإِحْسَاسِ مَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَتَّقْبِبُوا بِهِ أَعْضَاءِهِمْ بِآلَاتٍ مُدَرَّبَةٍ^١ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَشْعُرُوا بِشَيْءٍ كَمَا يَفْعُلُ الْعِيسَاوِيَّةُ.

(٢-٢) المباني الدينية

المساجد والزوايا والمدارس ... إلخ.

المسجد: مركز الحياة الحقيقي عند العرب؛ فالعرب يتذدون المسجد محلًا للجتماع والعبادة والتعليم، والسكن عند الاقتضاء، لا لعبادة الله فقط كبيع النصارى. وقد أوضحنا في فصل سابق رسم المساجد العام، فذكرنا أن المساجد القديمة بُنيت على نمط واحد، أي أنها مؤلفة من ساحات قائمة الزوايا محاطة بأروقة، وأن الصلاة تقام في أوسع تلك الأروقة، وتتجدد في وسط كل ساحة حوضاً للوضوء، وتتجدد في مكان الصلاة محراباً في الحائط متوجهاً نحو مكة، ومنبراً للوعظ، وقِمَطْرَا يُفْتَحُ عليه المصحف عند القيام بالأعمال الدينية، ومصابيح كثيرة معلقة بالسقف، وتتجدد الحُصر والبُسْطَ كل ما فيه من أثاث.

وتوجد بجانب مكان الصلاة، في الغالب، حجرة تضم ضريح مؤسس المسجد. وتقوم على أركان المساجد مآذن؛ ليدعى المؤمنون من فوقها إلى الصلاة. ومن توابع المساجد، على العموم: حماماتٌ وفنادق وأصابيل ومشافٍ ومدارس، وهكذا يتجلّ اختلاط الحياة المدنية بالحياة الدينية عند المسلمين في مساجدهم.



شكل ٨-٥: شمعدان للسلطان قلاوون (من تصوير بريس الأفيني).

تظل المساجد مفتوحة الأبواب من الفجر إلى العشاء، أي إلى نحو الساعة الثانية بعد الغروب.

وكل مسجد مستقل عن الآخر، وينفق على المسجد من ريع ما وقفه عليه مؤسسوه مع ما يُضاف إليه من الجُبُس، ويدير شؤونه قِيمٌ يساعدونه جماعة من الأئمة والhabib، والمؤذنين والمسكفين والخدَّم ... إلخ، ومن تجدهم حتى في أصغر المساجد، ويمارس أئمَّة المساجد، في الغالب، مهناً آخرى بالإضافة إلى أممَّهم المصلين في الأوقات المعينة.

وكما أن مساجد المسلمين مراكز للجتماع وملجأ للغرباء ومراجع للمرضى هي، كذلك، موائل للتعليم، وفي أصغر المساجد يُعلَّم الأولاد، وتُعد المساجد الكبيرة من الجامعات التي لا تَقْلُّ، أحياناً، عن جامعات أوربة أهمية، ونذكر منها: الجامع الأزهر الشهير القائم في القاهرة، والذي يضم ثلاثة أمتار، وأكثر من عشرة آلاف طالب يقصدونه من جميع نواحي العالم الإسلامي.

حقاً إن الجامع الأزهر مركز ديني وأدبي مهم إلى للغاية، وأنه يتخرج على أساتذته خلق كثير من الوعاظ والعلماء والقضاة والأعيان والنافذين ... إلخ، ومن دواعي الأسف أن يظل التعليم في الجامع الأزهر على الحال التي كان عليها عند بدء انحطاط العرب، وأن يسير على برنامج مماثل لبرنامج جامعاتنا في أواخر القرنين



شكل ٩-٥: شمعدان للسلطان قلاوون (من تصوير برييس الأفني).

الوسطى، ويدرسُ في الجامع الأزهر علم الحساب والهندسة والفالك والنحو والأدب والبيان والمنطق، وذلك عدا تلاوة القرآن وتفسيره.

وليس التدريس في المساجد مشابهاً لما في جامعاتنا السابقة من حيث البرامج وحدها؛ بل نرى شبهاً بينهما في المناهج، وفي حياة الطلاب أيضاً، فلما قُيض لي أن أجوب الجامع الأزهر في أثناء دروس أستاذته رأيتني قد انتقلت، بعضاً سحيراً، إلى إحدى جامعاتنا القديمة في القرن الثالث عشر، فتمثل لي ما كان فيها، كما في الجامع الأزهر، من التشویش في دروس علم الكلام ودروس الأدب، وتمثل لي ما كان فيها مثل ما في الجامع الأزهر من المناهج، ونظم جمعيات الطلاب، وتمتعهم بالحرية والإعفاء. ويجلس كلُّ أستاذ على حصیر في أكبر رواق من الجامع الأزهر، وهو المصلّى، وتحيط به حلقةٌ من التلاميذ الابسين الجبَابَ السُّودَ والعمائم البيضاء، والحاملين أقلاماً قصبية؛ ليكتبوا بها ما يُملي عليهم، والمدخلين محابر إلى زنانيتهم، وينفق الجامع الأزهر على الفقراء من تلاميذه ويسكنهم حُجراته.

وقد رأيت جميع أولئك الشبان جادين في أعمالهم مجتهدين في دروسهم، ومنهم من أتى لِنيل العلم من الهند ومن مراكش؛ فالعلم الذي استهانت به الأديان الأخرى

يُحِلُّهُ المسلمون حَقًّا، وإِلَى الْمُسْلِمِينَ يُعْزِّي الْقَوْلُ الصَّائبُ: «مِنَ الْبَشَرِ مَنْ يَتَعْلَمُ فَيَعْلَمُونَ، وَيُعَذَّبُ مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْحَشَراتِ أَوْ مَنْ لَا يَصْلُحُونَ لِشَيْءٍ وَلَا يَنْتَعِشُونَ». ولدى المسلمين أماكن دينية أخرى أقل أهمية من المساجد، كمزارات الأولياء التي هي أبنية صغيرة مكعبية تعلو كل واحدة منها قبة، والتي لا يخلو منها بلد إسلامي تقريباً، ويقع مزار الولي الذي نشرنا صورته في هذا الكتاب في الغابة المقدسة الرائعة الواقعة بالقرب من البلدة.

وأذكر، بجانب تلك المباني الدينية، الزوايا التي يقيم بها أصحاب الطرق من الدراويش، والتي أرى عددها قليلاً إذا ما قيست بعدد الأديار الواسعة الانتشار لدى الأمم النصرانية في أوربة، ولا تختلف الزوايا عن مباني المسلمين الأخرى إلا قليلاً، ولا ترى فيها منظر أديارنا الأدجن.

(٣) الأخلاق في الإسلام

أصول الأخلاق في القرآن طيبة؛ فالقرآن يأمر بالصدقة والإحسان والقرى والاقتصاد في الرغائب والوفاء بالعهد وحب الأقربين واحترام الوالدين وحماية الأيتامى واليتامى وبما نجده مكرراً فيه من درء السيئة بالحسنة، وتُطابق أصول الأخلاق في القرآن ما ورد في الإنجيل تقريباً.

بيد أنه لا أهمية كبيرة لدراسة ما في أحد الكتب من أصول الأخلاق ما كانت مبادئ الأخلاق في كل دين طيبة، وليس مكارم الأخلاق التي تؤمر بها الأمم، إذن، هي التي يجب معرفتها عند البحث في شؤونها؛ بل يُنظر إلى ما عملت به منها، ولا عجب، فقد دلت المشاهدة على أن مطابقة الأفعال للأقوال ضعيفة جدًا على العموم.

وقد حاولنا، في الفصل الذي خصصناه في كتابنا الأخير للبحث في نشوء الأخلاق، أن نثبت أن شأن الدين في تكوين الأخلاق أمر ثانوي على العموم، وأن الأخلاق وليدة المنفعة والبيئة والرأي وقواعد الحقوق والانتخاب الطبيعي والتربية والذكاء ... وما إلى ذلك، وقد ذكرنا فيه أن أقدم الديانات لم تتصد على أصول الأخلاق، وأن النص على مبادئ الأخلاق لم يكن في غير أديان الهندوس وأديان موسى ويعيسى ومحمد، وأن هذه الاديان لم تصنع أكثر من تأييدها لما كان معروفاً، وأن هذا التأييد قام على الأمل في الثواب والخوف من العقاب في اليوم الآخر، وأن خوف العقاب لم يكن مهيمناً على أكثر الناس ما جعلت تلك الاديان غفران الذنوب أمراً سهلاً.



شكل ١٠-٥: مسربة مسجد قديمة مصنوعة من البرونز (من صورة فوتوغرافية التقاطها المؤلف).

ومن يطُفْ قليلاً في العالم، ويدرس أحوال الناس في غير الكتب يَرَ الدين أمراً مستقلاً عن الأخلاق استقلالاً تاماً، ولو كان بين الدين والأخلاق سبب؛ لكان أكثر الأمم تدينَا أكثرها أخلاقاً مع أن العكس هو الواقع. وعندى أن إسبانية وروسية أكثر بلاد أوربة عملاً بالشعائر الدينية، وعندى أن مستوى الأخلاق فيها دونه في البلاد الأخرى كما ذهب إليه مَنْ درس أمرهما بعناية.

وليس في ديانة الأمة، إذن، ما يجب أن يُبَحث عن علل أخلاقها ما كان لجميع الأديان، كما قلتُ، أصولُ أخلاقية طيبة لو عمل بها لدخل العالم في دور ذهبي، وما اختلفت طريقة العمل بتلك المبادئ باختلاف البيئات والأزمات والشعوب والأحوال، وما تبأنت الأمم ذات الديانة الواحدة في مقاييسها الأخلاقية.

ويُطَبَّق ما تقدم على جميع الأديان، ومنها الإسلام، فمبادئ الأخلاق التي نص عليها القرآن، وإن كانت كاملةً، اختلف تأثيرُها باختلاف الشعوب والبيئات والأجيال.



شكل ١١-٥: مصباح عربي قديم كان في مسجد الحمراء (يبلغ ارتفاعه مترين و١٥ سنتيمتراً).
متحف العادات الإسباني.

وكانت أخلاق العرب في أدوار الإسلام الأولى أرقى كثيراً من أخلاق أمم الأرض قاطبة، ولا سيما الأمم النصرانية، وكان عددهم واعتدالهم ورأفتهم وتسامحهم نحو الأمم المغلوبة ووفاؤهم بعهودهم ونبُل طبائعهم مما يستوقف النظر ويناقض سلوك الأمم الأخرى، ولا سيما الأمم الأوروبية أيام الحروب الصليبية.

ولو صحَّ أن يكون للأديان ما يُعزَّى إليها من التأثير لوجب أن نقول: إن القرآن أفضلُ من الإنجيل ما بَدَتْ أممُ الإسلام أسمى أخلاقاً من أمم النصرانية فيما مضى، ولكن ما قلناه من استقلال الأديان على الأخلاق يدل على انتقاء صحة هذا الاستنتاج، فأخلاق المسلمين، كأخلاق النصارى، اختلفت باختلاف العوامل المذكورة صعوداً وهبوطاً.

ونشأ عن سيادة الترك الطويلة ونظمتهم السياسي انحطاطُ في أخلاق الشرقيين الذين خضعوا لحكمها، وإذا كانت مكارم الأخلاق تتبخَّر، ويغُمُّ الفساد في بلادِ كتركية، حيث يكون دين ولي الأمر وعمَاله أهواههم، وحيث يكون كل إنسان عرضةً لمظالم هؤلاء الطامعين في انتهاب ما في أيدي الناس ليغتتوا، وحيث يقتنط الناس من العدل فلا يبالون شيئاً إلا بالرشوة، فإنك ترى أخلاق الشرقيين الخاضعين لسلطان الترك قد انحطت بحكم الضرورة، ولكن القرآن بريءٌ من هذا الانحطاط براءةً الإنجيل من انحطاط النصارى الخاضعين مثل ذلك السلطان.



شكل ١٢-٥: دراويش دوارون (مولوية، من رسم إعدادي).

وما تقدّم يُثبت، بدرجة الكفاية، فساد الرأي الأوروبي القائل: «إن دين محمد هو سبب ما يشاهد في بعض أمم الشرق من الانحطاط»، ورأيًّا فاسد مثل هذا مصدره ما قيل من إبداعه لمبدأ تعدد الزوجات، وما زعم من أن جبريته تحمل الإنسان على الكسل، وما أذيع من أن محمداً لا يطالب أتباعه بغير الشعائر السهلة؛ فالقارئ الذي سار معنا إلى هنا يرى درجة بُعد هذه المزاعم من الصحة، وقد رأينا أن مبدأ تعدد الزوجات كان شائعاً في الشرق قبل ظهور محمد بقرون كثيرة، وأن جبرية القرآن ليست أشدَّ مما جاء في كتب الأديان الأخرى، وأن العرب، إذا كانوا جبريين بسجيتهم، ولم تؤدِّ جبريتهم إلى الخمول ما شادوا دولةً عظيمة، وأن أصول الأخلاق في القرآن ساميةٌ سموٌّ ما جاء في أي كتاب ديني آخر، وهذا إلى أن القرآن لو كان عاملاً في انحطاط مسلمي الشرق لوجب أن يَنْفَلَّ من ذلك الانحطاط الشرقيون الذين لا يقولون بمبدأ تعدد الزوجات ولا يَبْدُون جبريين كنصارى سوريا. ونصارى سوريا، كما أجمع كلُّ من بحث في أمور الشرق، أحطُّ أخلاقاً من المسلمين بدرجات.



شكل ١٣-٥: نوافذ زجاجية في مكان الصلاة من المسجد الأقصى بالقدس (من تصوير المؤلف الفوتوغرافي).

وكان يمكننا أن نختم هذا الفصل بقولنا: إن أصول الأخلاق في القرآن عاليّةٌ على ما جاء في كتب الديانات الأخرى جميعها، وإن أخلاق الأمم التي دانت له تحولت بتحول الأزمان والعروق مثل تحول الأمم الخاضعة لدين عيسى، وإن التحول نشأ عن عوامل لم يكن للمبادئ الدينية أثرٌ كبيرٌ فيها، غيرَ أن أهمَّ نتيجة يمكن استنباطُها من جميع ما تقدم: هي تأثير القرآن العظيم في الأمم التي أذعنَت لأحكامه، فالديانات التي لها ما للإسلام من السلطان على النفوس قليلة جدًّا، وقد لا تجد ديناً اتفق له ما اتفق للإسلام من الأثر الدائم، والقرآن هو قطب الحياة في الشرق، والقرآن هو ما نرى أثره في أدق شؤون الحياة.

أجل، دخلت دولة العرب في ذمة التاريخ، بيد أن الدين، الذي كان سببًا في قيامها لا يزال ينتشر، ويسطير ظلُّ النبي من قبره على ملايين المؤمنين الذين يسكنون أقطار إفريقيَّة وأسيا الواسعة الواقعة بين مراكش والصين والبحر المتوسط وخط الاستواء.

أجل، إن الإنسان العوبيُّ في يد كثير من السادة من غير أن يدرِّي، ولكن أشد هؤلاء السادة جبروتًا هم الذين يقضى الإنسان حياته مستغيثًا بهم خائفًا منهم، ويُسفِك الدماء ويذرف الدموع من أجلهم، ويُشَهِر أقسى الحروب، ويقترب أفعى الجرائم في سبيلهم، مع أنهم ليسوا غيرَ ظلَّلٍ عابرة مقيمة بعالم الرؤى والأوهام.

حًقا إنها لظلالٌ خفيفة، ولكنها مرهوبة، وحًقا أن فاتحين كثيرين سادوا العالم، وأخضعوا الناس لسلطانهم، ولكنك لا تَجِد واحداً منهم كان له من السلطان ما يساوي سلطان بعض الأموات.

هوامش

(١) مذرية: حادة قاطعة.

الباب الخامس

حضارة العرب

الفصل الأول

مصادر معارف العرب: تعليمهم ومناهجهم

(١) مصادر معارف العرب العلمية والأدبية

كانت حضارة الفرس وحضارة بزنطة العظيمتان تقدمان نيرانهما الأخيرة حينما بدأت فتوح العرب، وقد استوقف العالم الذي فَتَّحَهُ أتباع النبي خيالَهم المضطرب، فأخذوا يدرسون الآداب والفنون والعلوم بمثيل نشاطهم في فتوحهم، ولم يلبث الخلفاء، بعد أن شادوا دولتهم، وأن أنشأوا في جميع المدن المهمة مراكز للتعليم، وجمعوا حولهم كل عالم قادر على ترجمة أشهر الكتب، ولا سيما كتب اليونان.

وَحَدَّثَ ما جَعَلَ أَمْرَ تلك الترجمة سهلاً، فقد كانت معارف اليونان والرومان العلمية القديمة منتشرةً في بلاد الفرس وسوريا منذ زمن، وبيان ذلك أن النساطرة لما نُفِوا من دولة الروم أقاموا في مدينة الرُّها (أورفة) العراقية مدرسةً لنشر معارف اليونان في آسية، وأن تلك المدرسة لما هُدمت في عهد زِنُون الإيزوري احتضن أكاسرةً بني ساسان أسانذتها، وأنه كان من نتائج هذا القبول الحسن أن قَصَدَ علماء أثينية والإسكندرية بلاد فارس عندما أغلقها جوستينيان فنقلوا إلى أكثر لغات الشرق انتشاراً، كالسريانية والكلدانية ... إلخ، أهمَّ كتب علماء اليونان مثل أرسطو وجالينوس وذيسقوريدس.

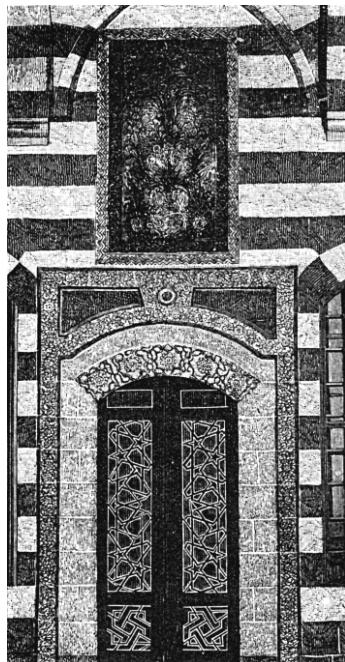
وَوَجَدَ العرب في بلاد فارس وسوريا، حينما استولوا عليها، خزائن من العلوم اليونانية، وأمرروا بنقل ما في اللغة السريانية منها إلى اللغة العربية، ولم يلبثوا أن أمروا بأن يُنقل إليها ما لم يكن قد نُقل، فأخذت دراسات العلوم والأداب تسير قُدُّماً إلى الأمام. ولم يَدُمَ اكتفاء العرب بما نُقلَ إلى لغتهم طويلاً، فقد تَعَلَّمَ عدد غير قليل منهم اللغة اليونانية، على الخصوص، ليستقوا منها علوم اليونان، ثم تَعَلَّمُوا اللغة اللاتينية

واللغة القشتالية في إسبانية، كما يشهد بذلك ما في مكتبة الإسکوريال من المُعجمات العربية اليونانية والعلية اللاتينية والعربية الإسبانية التي ألفها علماء من المسلمين. وكانت معارف اليونان واللاتين القديمة أساساً لثقافة متعلمِي العرب في الدور الأول، وكان هؤلاء كالطلاب الذين يتلقون في المدرسة ما ورثه الإنسان من علوم الأولين، وكان اليونان أستاذة العرب الأولين إذن، ولكن العرب المفطورين على قوة الإبداع والنشاط لم يكتفوا بحال الطلب الذي اكتفت به أوربة في القرون الوسطى؛ فلم يلبثوا أن تحرّروا من ذلك الدور الأول.

وإنسانٌ يقضي العجب من الهمة التي أقدم بها العرب على البحث، وإذا كانت هناك أممٌ تساوت هي والعرب في ذلك فإنك لا تجد أمة فاقت العرب على ما يحتمل، والعرب كانوا إذا ما استولوا على مدينة صرفوا هممَهم إلى إنشاء مسجد وإقامة مدرسة فيها، وإذا ما كانت تلك المدينة كبيرةً أسسوا فيها مدارس كثيرة، ومنها المدارس العشرون التي روى بنiamين التُطْبِيلُ المتوفى سنة ١١٧٣ م أنه شاهدها في الإسكندرية، وهذا عدًا اشتتمال المدن الكبرى بغداد والقاهرة وطنطا وقرطبة ... إلخ، على جامعات مشتملة على مختبراتٍ ومراصد ومكتباتٍ غنية، وكل ما يساعد على البحث العلمي، وكان للعرب في إسبانية وحدها سبعون مكتبة عامة، وكان في مكتبة الخليفة الحَمَّ الثاني بقرطبة ستمائة ألف كتاب منها أربعة وأربعون مجلداً من الفهارس كما روى مؤرخو العرب، وقد قيل، بسبب ذلك: «إن شارل الحكيم لم يستطع، بعد أربعين سنة، أن يجمع في مكتبة فرنسة المَلَكِية أكثر من تسعمائة مجلد يكاد ثلثها يكون خاصاً بعلم اللاهوت.

(٢) مناهج العرب العلمية

ليست المكتباتُ والمختبراتُ والآلاتُ غيرَ وسائلُ للدرسِ والبحثِ، وتكون قيمتها في معرفة الاستفادة منها، وقد يستطيع المرء أن يكون مطلعًا على علوم الآخرين، وقد يبقى عاجزاً عن التفكير وابتداع أي شيء مع ذلك، فيظلُ تلميذًا غير قادر على الارتقاء إلى درجة أستاذ، وسيبدو، من الاكتشافات التي نذكرها في الفصول الآتية مقدار ما اكتشفه العرب بما لديهم من وسائل الدرس، والآن أقتصر على ذكر المبادئ العامة التي وجّهت أبحاثهم: لم يلبث العرب، بعد أن كانوا تلاميذَ معتمدين على كتب اليونان، أن أدركوا أن التجربة والترصد خيرٌ من أفضل الكتب، وعلى ما يبدو من ابتدال هذه الحقيقة جد علامة القرون الوسطى في أوربة ألف سنة قبل أن يعلموها.



شكل ١-١: باب مسجد ومدرسة في دمشق (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

ويُعرَى إلى بيكن، على العموم، أنه أول من أقام التجربة والترصد، اللذين هما ركناً المنهاج العلمية الحديثة، مقام الأستاذ، ولكنه يجب أن يُعْتَرَفُ اليوم بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم، وقد أبدى هذا الرأي جميعُ العلماء الذين درسوا مؤلفات العرب، ولا سيما هنْبُولد، فبعد أن ذكر هذا العالم الشهير أن ما قام على التجربة والترصد هو أرفع درجةً في العلوم قال: «إن العرب ارتَّقوا في علومهم إلى هذه الدرجة التي كان يجهلها القدماء تقريباً».

وقال مسيو سيدِيو: «إن أهم ما اتصف به مدرسة بغداد في البداءة هو روحُها العلمية الصحيحة التي كانت سائدةً لأعمالها، وكان استخراجُ المجهول من المعلوم، والتدقيق في الحوادث تدقيقاً مُؤدياً إلى استنباط العلل من المعلولات، وعدمُ التسليم بما لا

يَثْبُتُ بِغَيْرِ التَّجْرِيبَةِ — مِبَادِئٌ قَالَ بِهَا أَساتِذَةٌ مِنَ الْعَرَبِ، وَكَانَ الْعَرَبُ، فِي الْقَرْنِ التَّاسِعِ مِنَ الْمِيلَادِ، حَائِزِينَ لِهَذَا الْمَنَاهِجَ الْمُجْدِيِّ الَّذِي اسْتَعْنَ بِهِ عُلَمَاءُ الْقَرْنِينِ الْحَدِيثَةِ بَعْدَ زَمْنِ طَوِيلٍ لِلْوُصُولِ إِلَى أَرْوَعِ الْاِكْتِشَافَاتِ.»



شكل ٢-١: زاوية قديمة للدراويش، وعين ومدرسة في القاهرة (من تصوير كوست).

قام منهاج العرب على التجربة والترصد، وسارط أوربة في القرون الوسطى على درس الكتب والاقتصار على تكرار رأي المعلم، والفرق بين النهجين أساسي، ولا يمكن تقدير قيمة العرب العلمية إلا بتحقيق هذا الفرق.

واختبر العرب الأمور وجربوها، وكانوا أول من أدرك أهمية هذا المنهاج في العالم، وظلوا عاملين به وحدهم زمناً طويلاً، قال دُو لَنْبَرُ في كتاب «تاريخ علم الفلك»: «تَعُدُّ رَاصِدِيْنَ أو ثَلَاثَةَ بَيْنَ الْأَغْارِقِ، وَتَعُدُّ عَدْدًا كَبِيرًا مِنَ الرُّصَادِ بَيْنَ الْعَرَبِ»، وأما في الكيمياء فلا تجد مجربياً يونانيًّا مع أن المجربيين من العرب يُعدُّون بالمثلات.

ومنح اعتماد العرب على التجربة مؤلفاتهم دقةً وإبداعاً لا يُنْتَظِرُ مثُلَّهُما من رجل تَعَوَّدَ درس الحوادث في الكتب، ولم يبتعد العرب عن الإبداع إلا في الفلسفة التي كان يتذرع قيامها على التجربة.

ونشأ عن منهاج العرب التجاري وصولهم إلى اكتشافات مهمة، وسُتِّرَ من مباحثتها في أعمال العرب العلمية أنهم أنجزوا في ثلاثة قرون أو أربعة قرون من الاكتشافات ما

يزيد على ما حقّقه الأنغارقة في زمن أطول من ذلك كثيراً، وكان تراث اليونان العلمي قد انتقل إلى البيزنطيين الذين عادوا لا يستفيدون منه منذ زمن طويل، ولما آل إلى العرب حَوَّلُوه إلى غير ما كان عليه فتَّلَّاه ورَتَّهُم مخلوقاً خلقاً آخر. ولم يقتصر شأن العرب على ترقية العلوم بما اكتشفوه، فالعرب قد نَسَرُوها، كذلك، بما أقاموا من الجامعات وما أَلَّفُوا من الكتب، فكان لهم الأثر البالغ في أوربة من هذه الناحية، وسترى في الفصل الذي ندرس فيه هذا التأثير أن العرب وحدهم كانوا أساتذة الأمم النصرانية عدة قرون، وأننا لم نطلع على علوم قدماء اليونان والرومان إلا بفضل العرب، وأن التعليم في جامعاتنا لم يستغنِ عما نُقل إلى لغاتنا من مؤلفات العرب إلا في الأزمنة الحاضرة.

الفصل الثاني

اللغة والفلسفة والأداب والتاريخ

(١) اللغة العربية

تُعد اللغة العربية من اللغات السامية، وتُشبه اللغة العبرية كثيراً، وتحتَّل في مخارجها عن أكثر اللغات الأوربية، فيجد الأجانب صعوبةً كبيرةً في النطق بها. ونجهل تاريخ نشوء اللغة العربية كما نعرفها الآن، ولكننا نعلم من الشعر العربي الذي قيل قبل ظهور محمدٍ بقرن واحد أن اللغة العربية كانت قد وصلت إلى درجة كمالها الحاضر.

حقاً، تشمل اللغة العربية على لهجاتٍ كثيرة، ولكن كتاب المسلمين أجمعوا على أن لهجة قبيلة محمد تمتاز بأنها أفسح لهجات العرب، وكان من تأثير القرآن أن جعل من اللهجة التي كتب بها لغة عامةً.

واللغة العربية من أكثر اللغات انسجاماً، وهي، لا ريب، مختلفة اللهجات في سوريا وجزيرة العرب ومصر والجزائر وغيرها، ولم يكن هذا الاختلاف في غير الأشكال، فترى المراكشي يفهم بسهولة لهجة المصريين أو لهجة سكان جزيرة العرب مثلاً، مع أن سكان القرى الشمالية الفرنسية لا يفهمون كلمةً من لهجات سكان القرى الجنوبية في فرنسة، واسمع ما قاله الرحالة بركهارد الذي يُعد حجّةً في هذا الموضوع:

تجد اختلافاً كبيراً، لا ريب، في لهجات اللغة العربية العالمية أكثر مما في أية لغة أخرى على ما يحتمل، ولكنه لا يصعب عليك أن تفهمها جميعها إذا ما تعلمت إحداها، وذلك على الرغم من اتساع البلدان التي يتكلّم أهلوها بها، وهي الواقعة بين مدينة مغار (الصويرة) ومدينة مسقط، وقد يكون لاختلاف طبيعة البلدان تأثيرٌ في اختلاف تلك اللهجات التي هي عذبةً في أودية مصر

والعراق الدنيا، وجافَّةً في سوريا وجبال بلاد البربر، وأعظم فرقٍ، كما أعلم، هو ما بين لهجة المغاربة في مراكش ولهجة الأعراب بالقرب من مكة في الحجاز، ولكن هذا الفرق بين تينك اللهجتين لا يزيد على اختلاف لهجة فلاحي سواب (جنوب ألمانيا) عن لهجة فلاحي سكسونية (شمال ألمانيا).



شكل ١-٢: دواة على الطراز الفارسي العربي مصنوعة من النحاس المكتف بالفضة (من صورة فوتوغرافية التقاطها المؤلف).

ولم تتحوّل اللغة العربية، إذن، إلا قليلاً منذ زمن مُحَمَّد، ولكنه طرأ تغييرٌ كبير على الخط، فالخط الأول المعروف بالخط الكوفي، الذي رُوي أنه اخترع في مدينة الكوفة، كان صعب القراءة لخلوه من حروف العلة، فتحوّل هذا الخط حوالي القرن الثامن من الميلاد بإدخال أصول الشكل والحركات إليه مع المواظبة على استعمال الخط الكوفي في الكتابات، فجعلَ هذا من العسير كثيراً أن يُستدل على قدم هذه الكتابات مما عليها من الحروف المنقوشة.

وما قلناه في فصل آخر عن الدين نقول مثله عن اللغة العربية، فمع أن الفاتحين الذين ظهروا قبل العرب لم يستطعوا أن يفرضوا على الأمم المغلوبة لغاتهم قدرَ العرب، بالعكس، على فرض لغتهم عليهم، ولما صارت اللغة العربية عامّةً في جميع البلاد التي استولوا عليها حلّ محلَّ ما كان فيها من اللغات، كالسريانية واليونانية والقبطية والبربرية ... إلخ، وكان للغة العرب مثل ذلك الحظ زمناً طويلاً، حتى في بلاد فارس على الرغم من يقظة الفرس، أي ظلت اللغة العربية في بلاد فارس لغةً أهل الأدب والعلم، وظل الفرس يكتبون لغتهم بالحروف العربية، وكتب ما عرفته بلاد فارس من علم الكلام والعلوم الأخرى بلغة العرب، وللغة العربية في هذا الجزء من آسية شأنٌ كالذى كان للغة اللاتينية في القرون الوسطى، وانتقل الترك أنفسهم، وهم الذين قهروا العرب،

الخط العربي، ولا تجد في تركيبة إنساناً على شيء من التعليم لا يستطيع أن يفهم لغة القرآن بسهولة.

ولم يَشِدَّ عن ذلك سوى الأمم اللاتينية والأوروبية التي لم تُقم اللغة العربية مقام لغاتها القديمة، ومع ذلك فإن اللغة العربية ذات أثر عميق في اللغات اللاتينية، وقد أَلَفَ دوزي وأَنْجِلْمَنْ مُعجمًا في الكلمات الإسبانية والبرتغالية المشتقة من اللغة العربية. وتركت لغة العرب أثراً مهماً في فرنسة نفسها، وذكر سيديو، والحق ما ذكر، «أن اللهجات السائدة لولاية أوفرن وولاية ليموزان الفرنسيتين محشوة بالكلمات العربية، وأن أسماء الأعلام فيها ذات مسحة عربية».

قال هذا المؤلف: ومن الطبيعي أن تقتبس فرنسة وإيطاليا من العرب، الذين كانوا سادة البحر المتوسط منذ القرن الثامن من الميلاد، أكثر الاصطلاحات البحرية مثل: Amiral و Escadre و Flotte و Frégate و Corvette و Caravelle و Estacade و Calfat و Darse و Chiourme و Barque و Sloop و Chaloupe و Boussole التي عزى أمرها إلى أهل الصين على غير حق، وأن تقتبس جيوشهما ألقاب ضباط جيوش المسلمين، وتعابير وغى الحرب، واستعمال بارود المدفع والقنابل والحرّاقات والقذائف، وأن تأخذ عن حكومة بغداد وحكومة قرطبة التعابير الإدارية مثل: Syndic و Tarif و Douane و Gabelle و Taille و Bazar و Aides و Syndicates و Syndicat و Syndicat des trois corps، وأن يُقلّد ملوك الأسرة الثالثة الفرنسية العرب في شيء فيأخذوا عنهم معظم اصطلاحات الصيد مثل: Chasse و Maute و Laisse و Curée و Hallali و Core de Chasse و Fanfares، وكذلك كلمة: Tourneamentium التي عدها علماء اللغة المعاصرون مشتقة من كلمة Torneamento، وأهم من ذلك كله اصطلاحات العلوم التي اقتبسناها من العرب، فعلم الفلك عندنا مملوء بالتعابير العربية مثل: Azimuts و Nadir و Zénith، وبالاصطلاحات العربية لأجزاء الأسطرلاب مثل: Alidade و Alancabuth و Aldebaran، وبأسماء الكواكب مثل: Rigel و Aldébaran و Althair و Wéga و Acarnar و Aghol، وكل مثل ذلك عن الرياضيات حيث أخذنا عن العرب الاصطلاحات: Chiffres و Algébre و Zéro، وكل مثله عن الكيمياء حيث أخذنا عنهم الاصطلاحات: Alchimie و Alcali و Alcool و Alambic، إلخ، وكل كذلك عن التاريخ الطبيعي والطب حيث أخذنا عنهم الاصطلاحات: Elixir و Bol و Sirops و Sorbet و Juleps و Mirobolans و Haschich، والكلمة: Assassins التي اشتُقَت منها الكلمة:

.Assassins

وزعم مؤلف أحد المعجمات الاشتقاقيّة الفرنسية الذي ألف حديثاً أن إقامة العرب بجنوب فرنسيّة لم تُسفر عن أثر، لا في اللهجات، ولا في اللغة، فقلة قيمة هذا الرأي تبدو مما قلناه آنفًا، ومن العجيب أن يكرر بعض المثقفين مثل هذا الزعم.

واللغة العربيّة غنيّة جدًا، وزاد غناها بما أضيف إليها، دائمًا، من التعبير الجديدة التي تسرّبت فيها من اللهجات التي اتصلت بها، وانظر إلى المعجم الذي أَلْفَه ابن سِيدِه المتوفى سنة ١٠٦٥ م تجده مشتملاً على عشرين مجلدًا.

(٢) فلسفة العرب

كانت فلسفة العرب، حينما شرعوا يدخلون ميدان الحضارة، مقتصرةً على مبادئ علم النفس العمليّة التي هي وليدة التجربة، لا الكتب، والتي ينتفع الإنسان بها وحدها في ضمصار الحياة.

واليونان هم أساتذة العرب الأوّلون في الفلسفة كما أنهم أساتذتهم في مختلف العلوم، ولم تثبت كتب أرسطو وثاليس وأبيذقليس وهرقليوس وسقراط وأبيقور وجميع أساتذة مدرسة الإسكندرية من الفلاسفة أن تُرجمَت.

وفاق العرب أساتذتهم بسرعة في جميع العلوم التي تقوم على التجربة، ولكن بما أن الفلسفة لم تقم حينئذ على التجربة وما إليها لم يتَّفق للعرب فيها تقدم محسوس.

وكانت الجماهير تَمُّقِّتُ الفلسفه مع ما تم لهم من المقام الأسمى في جامعات العرب، وكان الخلفاء يَرَوْن أن يَدْرَأُوا ما يَنْشأُ عن مذاهب الفلسفه من الفتنه الشعبيه فيُضطرون في الغالب إلى نفيهم لوقت معين.

والجماهير ما تعتذر به عن معارضتها للفلسفه، فقد نَبَّذَ الفلسفه أكثر أحكام الإسلام، ولم يُسلِّموا بغير العقائد الأساسية كوحданية الله ورسالة محمد، ثم كانوا ينشرون آراءهم علينا، ويهاجمون بها عقائد المؤمنين بدلاً من الاكتفاء بعرضها على المثقفين.

والحق يقضي بالاعتراف للعرب بأنهم أول من أغضى عما نُسِّمِيه حرية الفكر في الوقت الحاضر، فمع ما كان يُبديه الفلسفه من التحفظ الكبير في كتبهم كانت تَبْدُر منهم، في الغالب، تَأْمَلَاتٌ مشتملة على جانب كبير من الشك والارتياح، ومن ذلك قول أبي العلاء التَّنْوخي الذي عاش في القرن العاشر من الميلاد:

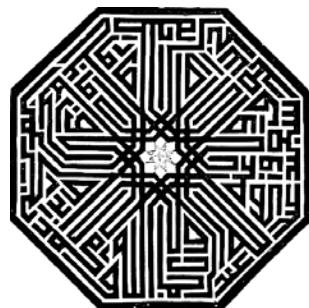
اثنان أهل الأرض: ذو عقل بلا دين وأخر دين لا عقل له



شكل ٢-٢: كتابات دفة مصحف قديمة (من تصوير إبر).

ثم رأى فلاسفة العرب أن يفصلوا الدين عن الفلسفة مراعاةً للجماهير، وأجمل الفيلسوف الغزالي، الذي كان يُدرّس في القرن الحادي عشر من الميلاد في بغداد، ما انتهوا إليه في الكلمة الآتية:

ليست الحقائق التي يؤيدها العقل كلَّ ما في الأمر، فهناك من الحقائق ما يعجز إدراكنا عن الوصول إليها، ونحن نقول بها وإن كنا لا نقدر على استخراجها بقواعد المنطق وبالأصول المعروفة، وليس مما يخالف الصواب وجود افتراض قائل بوجود دائرة أخرى فوق دائرة العقل، وإن شئت فقل دائرة التَّجْلِي الرَّبِّياني، ونحن إذ كنا نجهل سُنْن تلك الدائرة وننأيمسها جهلاً تماماً نجد الكفاية في قدرة العقل على الاعتراف بإمكانها.



شكل ٢-٢: كتابة زخرفية مؤلفة من تشابك حروف كوفية.



شكل ٢-٤: ختم الخلفاء الأربع الأولين.

وبعد فلاسفة العرب صيّتاً هو الفيلسوف الشهير ابن رشد الذي كان له أعظم تأثير في أوربة، أجل، يُعدُّ ابن رشد، عادةً، شارحاً لفلسفه أرسطو فقط، ولكنني أرى أن هذا الشارح سبق أستاذيه في بعض الأحيان سبقاً يثير العجب، وأن فلسفته مقبولةً في كثير من الأمور أكثر من تلك، وإذا لم يكن ابن رشد مفكراً حرّاً بالمعنى العصري

على ما يحتمل، فإنه فَكَرَ بحرية عظيمة في بعض الموضوعات: وتدل العبارة الآتية التي أنقلها من كتاب مسيو رينان حول خلود الروح وقواعد الأخلاق على عظيم استقلال ابن رشد، قال رينان:

يرى ابن رشد أن العقل العام المطلق باقٍ على الدهر قابل للانفصال عن الجسم، وأن العقل الفردي فان مع البدن

ويذكر ابن رشد الخلود والبعث ويصرّح بأن على المرء ألا ينتظر ثواباً غير ما يلاقي في هذه الحياة الدنيا بكماله الخاص.

وعند ابن رشد أن الأشخاص يتميزون مادةً ويتخدون صورة، وأن الخلود للصورة لا للمادة، وأن صورة الأشياء أساس تسميتها، وأن الفأس بلا حدٍ ليست فأساً بل حديد، وأن من التَّجُوز دعوة جسم الميت إنساناً، وأن الفتاء لمادة الشخص والبقاء لنوعه.

ويقول ابن رشد: إن روح الفرد لا تدرك شيئاً بغير تصور، فكما أن الحواس لا تشعر إلا إذا اتصلت بالأشياء لا تفَكِّرُ النفس إلا إذا وجدت صورةً أمامها، ومن ثم كان الفكر الشخصي غير خالد، وإلا وجَب أن تكون الصور خالدة أيضاً، وإذا كان الإدراك خالداً بذاته فإنه لا يكون كذلك عند المارسة.

ولم يُخِفِ ابن رشد نفوره من أقصاص العوام عن الحياة الآخرة، وهو يذهب إلى أنه يجب أن يُعدَّ من الأوهام الخاطرة نظرُ المرء إلى الفضيلة وسيلةً للسعادة؛ لما يتضمن ذلك من الإنكار للفضيلة نفسها، ومن معنى الامتناع عن الملاد رجاء الثواب المضاعف، ومن طلب العربي للموت اتقاءً لما هو أسوأ، ومن عدم احترام اليهودي ملأ الآخرين طمعاً في الكسب الزائد، وفي ذلك من الإفساد لروح القوم والأولاد، وعدم وجود نفع في إصلاحهم ما لا يخفى، ويعرف ابن رشد أناساً من ذوي الأخلاق يضربون بتلك الأوهام عرض الحائط، ولا يقولون بفضيلة من يتمسكون بها.

(٣) الأدب العربيُّ

(١-٣) الشعر عند العرب

لا يزال أمر الأدب القديم في اليمن وفي مختلف أجزاء جزيرة العرب المتمدنة مجھوًّا لدينا تماماً، وما علمناه من أشعار العرب قيل بعد المسيح وقيل ظهور مُحَمَّد، ولم تكن هذه الأشعار في غير الغزل وتمجيد الملحم، وكان العرب يحبون أن يسمعوا شعراءهم يُشيدون بمناقرهم كما كان الأغفارقة في عصر البطولة.

وتبدأ تلك الأشعار، في الغالب، بالتصوير والتشبيه، شأنُ شعر الأمم الفطرية التي تُحسُّ كثيراً وتفكر قليلاً، وتختلف تلك الأشعار عن الشعر الإسرائييلي كثيراً في خلُوها من التكهن والدُّجُون والتغني بسفك الدماء، ولا تجد فيها ذكرًا لمثل المجاز الوحشية والمذابح والإيذادات ولعنة رب الدائمة التي ملئت بها التوراة.

ونال الشعراء نفوذاً كبيراً بفضل حب العرب للشعر، فكان الشعراء يحركون المشاعر، ويرفعون أقواماً ويختفرون آخرين كما يشاون، وكان من نفوذهم أن منحت قريشُ الشاعر الأعلى مائة جملٍ حملاً له على عدم نشر قصيدة مَدح النبيَّ بها.

وكان من عبادة العرب للشعر ما أقاموا معه، قبل محمد بعده قرون، مؤتمرات أدبية يقصدونها من جميع نواحي جزيرة العرب، وكانت هذه المؤتمرات تقوم في مدينة عكاظ الصغيرة القرية من الطائف والبعيدة من مكة مسافة ثلاثة أيام، وكانت القصائد التي تناول الحُظْوة فيها تُكتب بحروف من ذهب على نساجٍ ثمينة وتعلق في الكعبة بمكة لتنقل إلى الأعقارب.

وبلغ الشعر العربي الذروة في القرن الذي سبق ظهور محمد، ونشأ عن ذلك أن صارت لغة الشعراء الفصحي عامَّة، وأن صُهرت لهجات بلاد العرب المختلفة في لغة واحدة.

وانتهت إلينا المعلقات السبع بفضل حفظ أهم أشعار العرب في الكعبة، ويرى في المعلقات السبع وصف لحروب العرب، ولحياة الباذية الجافية القاسية، ولغامرات الأعراب ... إلخ.

وإنني أقتطف الأبيات الآتية من معلقة طرفة التي وصف بها الحياة وصفاً لا أرى
أكثر الفلسفه ارتياها يضيف إليه شيئاً كبيراً، قال طرفة:

سَعْلَمْ إِنْ مِتْنَا غَدَّاً أَيْنَا الصَّدِيٰ
كَقْبَرَ غَوِيٍّ^٢ فِي الْبَطَالَةِ مُفْسَدٌ
صَفَّائِحَ صُمٌّ مِنْ صَفِيْحَ مُنَضَّدٍ
عَقِيلَةٌ^٦ مَالُ الْفَاحِشِ الْمُتَشَدِّدُ
وَمَا تَنْفُصُ الْأَيَامُ وَالدَّهَرُ يَنْفَدِ
لِكَالْطُّولُ^٧ الْمُرْخَى وَثَنْيَا^٨ بِالْيَدِ
وَمَنْ يَكُونَ فِي حَيْلِ الْمَنِيَّةِ يَنْقَدِ

كَرِيمُ يُرَوِّي نَفْسَهُ فِي حَيَاتِهِ
أَرَى قَبْرَ نَحَّامٍ^٩ بِخَيْلٍ بِمَالِهِ
أَرَى جُنُوتَيْنَ^{١٠} مِنْ تَرَابٍ عَلَيْهِمَا
أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الْكَرَامَ وَيَصْطَفِي
أَرَى الْعِيشَ كَنْزًا نَاقِصًا كُلَّ لَيْلَةٍ
لِعُمْرِكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَىَ
مَتَىً مَا يِشَأْ يِوْمًا يِقْدُهُ لَحْتِهِ

وتقربُ من تلك الأفكار الممتازة أنشودة حرب جاء بها بغربيق من نجد، ولم يعرف
زمن قرضاها، فمنها يبدو للقارئ بوضوح، كما يبدو له من القصيدة السابقة، ماذا كان
يَجُولُ فِي خاطرِ المُحَارِبِ الْعَرَبِيِّ، وَإِلَيْكَ تَلِكَ الْقُصِيدَةُ:

مِنَ الْأَبْطَالِ وَيُحَكِّ لَنْ تُرَاعِي
عَلَى الْأَجْلِ الَّذِي لَكِ لَنْ تُطَاعِي
فَمَا نَيْلُ الْخَلُودِ بِمُسْتَطَاعٍ
فَيُطْوِي عَنْ أَخِيِ الْخَنَعِ^٩ الْيَرَاعِ^{١٠}
فَدَاعِيَهُ لِأَهْلِ الْأَرْضِ دَاعِيَ
إِذَا مَا عَدَّ مِنْ سَقَطِ الْمَتَاعِ

أَقُولُ لَهَا وَقَدْ طَارَتْ شَعَاعًا
فِي إِنْكِ لَوْ سَأَلْتِ بِقَاءَ يَوْمٍ
فَصَبَرًا فِي مَجَالِ الْمَوْتِ صَبَرًا
وَلَا ثُوبَ الْبَقَاءِ بِثُوبِ عِزٍّ
سَبِيلِ الْمَوْتِ غَايَةُ كُلِّ حَيٍّ
وَمَا لِلْمَرْءِ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ

وداوم العرب على قرض الشعر دوام حضارتهم، وإن لم يُسبِّقوا المستوى الذي
وصل إليه قبل النبي، وكان يقرض الشعر كل رجل مثقف، سياسياً كان أو فلكياً أو
طبيباً، ولم يكن لغواً قول بعضهم: «إن العرب وحدهم قرضاوا من الشعر ما لم تقرضه
أمُ العالم مجتمعة»، وكان من حب العرب للشعر أن صاروا، في بعض الأحيان، يؤلفون
كتبَ التوحيد والفلسفة والجبر نظماً، ومن يطالع قصصهم يَرَى أكثرها ممزوجاً بِقطعٍ
شعرية.

ومما بلغ درجة الثبوت في أيامنا، كما يظهر، أن الأوربيين اقتبسوا فنَّ القافية من العرب، ودلَّت مباحث ثيابدو وغيره من الكتاب الكثرين على هذا الأمر الذي كان الأسفُفُ هُويَه قد بيَّنه منذ زمن طويل.

ويُعزَى مصدرُ الشعر الإسْپاني والشعر البروْقنسِي إلى ما كان لشُعُراء عرب الأندلس من التأثير، ويلوح لي هذا الرأيُ قويمًا كالرأيُ السابق، ولكنَّ إيضاح الأسباب التي يُستند إليها في هذا يتطلَّب إفاضةً لا يحتملها صدر هذا الكتاب.

(٢-٣) الروايات والأقصاص

زاول العرب جميعَ أنواعِ الأدب، فضلًا عن الشعر، ويُوجَدُ للعرب رواياتٌ في المخاطر والحبُّ والفروسيَّة ... إلخ، وترى في روايات العرب، مع قلة اعتمادهم بنفسيَّة الأشخاص، فوائدٌ كبيرة لاشتمالها على ضروب المغامرات العجيبة، وجَمَلُ العرب، بخيالهم الساطع، كل شيءٍ لَمْسُوه،^{١١} وهم الذين لا نظير لهم في الفن.

والعرب هم الذين ابتدعوا روايات الفروسيَّة، قال سيدِيو: «كان خيال الشُعُراء يتجلَّ في الروايات والأقصاص، وكان أتباعُ محمد من أكبرِ المحدثين دائمًا، وكانوا يجتمعون مساءً تحت خيامهم؛ ليسمعوا بعضَ الأقصاص العجيبة التي تتخللها الموسيقا والغناء كما في غُرَنَاطَة، ويُخبر ما في إسبانية من القصص المؤلفة من قطعٍ مترجمة، أو التي قُلَّدَ بها العرب، إخبارًا صحيحاً عن الأعياد وألعاب الخواتم وصراع الثيران وحروب النصارى والمسلمين، والتفاخر ورقص الفرسان والتشبيب والغزل ... وما إلى ذلك من الأمور التي اشتهر بها عرب الأندلس في أوربة».

ومن أشهرِ أقصاصِ العرب نذكر مقاماتِ الحريري، ومقاماتِ الهمذاني، ورواية ألف ليلة وليلة على الخصوص.

واشتهرت مقاماتُ الحريري في الشرق بأسره. وُلد الحريري سنة ١٠٥٤ م، وتوفي سنة ١١٢١ م في البصرة بعد أن ذاع صيته بأنه من علماء عصره، وتشتمل كلُّ من مكتبة باريس الوطنية ومكتبة مسيو شيفر على نسخةٍ خطيةٍ مصورة جميلة من مقاماته. وكان الهمذاني، المتوفى سنة ١٠٠٧ م، ذا شهرة واسعة في ذلك المضمار أيضًا، وكان الهمذاني ذا ذاكرة قوية فيحفظ القصيدة على ظهر القلب عندما يسمعها أولَ مرة، وكان الهمذاني مشهورًا، أيضًا، بصفاء لغته وانتقاء التعبير في ارتجالاته.

وتُعدُّ رواية ألف ليلة وليلة الباهرة أكثر القصص العربية شهرةً لا ريب، واحتلَّت كثيراً في مصدرها، ويظهر من الثابتاليوم أنها مجموعة قطعٌ وُضعت في أزمنة مختلفة جداً، وأن بعضها وُضع قبل القرن العاشر من الميلاد لذِكرها في كتاب مروج الذهب الذي أَلفَه المسعوديُّ في ذلك الزمان، وتجد في هذه الرواية قصصاً من أصل هندي وفارسي، ولكن أكثرها أَلفَه عرب مصر فيما بين القرن الثالث عشر والقرن الخامس عشر من الميلاد.

وذكر أستاذ اللغات الشرقية في هيدلبرغ، مسيو فيل، وذلك في مقدمة الطبعة الألمانية لرواية ألف ليلة وليلة وفق النص الشرقي، أنه لا يجوز الشك في أن أكثر القصص فيها عربيٌ، وأن ما فيها من أصلٍ عربي يختلف كثيراً عما فيها من أصل هندي بارز في المجموعة المعروفة بذلك الاسم، أيضاً، في القرون الأولى من الإسلام.

وتُعدُّ رواية ألف ليلة وليلة من أكثر كتب الأدب التي وضعها الإنسان إمتناعاً مع ما فيها من نفائص واضحةً جداً، وأضيف إلى ما فيها من مُتعةٍ ما في قراءتها من فائدة، فيها ينال القارئ معارف صحيحةً عن طبائع العرب ومشاعرهم ووجه تفكيرهم في بعض الأدوار.



شكل ٢-٥: إفريز كوب عربي ذي كتابة بتشويه القسم الأسفل من رسم الأشخاص.

وكل تاريخ يكون مدخلاً لها يشمل النظر، وذلك لما يُلقيه من نور قويٌّ على أحوال الشرقيين النفسية الصمية، ودواجهم الخلقيَّة، ورأيهم في المرأة ... إلخ، والحق أن أقاصيص الأمم وأساطيرها من الأدلة التي أهمل التاريخ أمرها زماناً طويلاً، والتي أخذ العلماء يدركون شأنها في الوقت الحاضر، ومن ذلك أن توصلنا، بتحليل الأغاني الشعبية والأساطير، وذلك في درسنا أمر تلك الأمة الغريبة التي أتيح لنا أن نزقُبُها في جبال نَّتْرَة، إلى معارف ثمينةٍ تمكناً بها من رسم المزاج النفسي لأجداد شعبٍ لم يُكتب له تاريخٌ قط.

(٣-٣) الحكايات والأمثال

الحكايات والرموز والأمثال من أكثر ما يعني به في الشرق، ومنها يتتألف نوعٌ من الأدب التي تلائم النفس، وتحفظ في الذاكرة بسهولة، مع أن الأفكار المجردة تتّعب وتُنسى سريعاً.

ويعد لقمان الأسطوري أشهر من جاء بالحكايات، وجعل محمد من لقمان، في القرآن، مثال الحكم، ويرى فريقٌ من العلماء أنه معاصر لداود، ويراه فريق ثانٍ معاصرًا لإبراهيم، ويرى فريق ثالث أن مؤلف الحكايات شخصٌ غير لقمان ظهر بعد محمد؛ ويidel ما بين حكايات لقمان وحكايات إيزوب من الشبه على أن ذلك اقتبس من هذا أو أن كليهما استقى من متبعٍ واحد على الأقل.

وأمثال العرب كثيرة إلى الغاية، ومن أمثال العرب اقتبَسَت إسبانيا وبقية أوروبا عدداً من الأمثال غير قليل، ومن يُدقّق في حكمة سانكتو پانسا يَرِقْسمها الكبير، الذي لا ينضب معينه من أصل إسلامي.

وإنني، تنويراً للقارئ، أنقل بعضها الآتي من كتاب مسيو پياس:

- العيش تحت جناح الذبابة خيرٌ من النوم في الجبانة.
- استقدُّ من شبابك فالعمر قصير.
- انس هُمومك في ليتك ما دمت جاهلاً ما في غِدك.
- عاشر حداداً تُضَرَّج بالسناج،^{١٢} وعاشر عطّاراً تَلَّ شَدَا الأزهار ...
- خشبة تُلهب الحبة.
- من يتزوج امرأة من أجل جمالها يُخدع، ومن يتزوجها من أجل مالها يَطْمَع، ومن يختارها من أجل رشارتها يُمْتنع.
- إذا ما أحبكم النساء فتَحَنَّ لكم الأسداد، وإذا ما گرْهُنَّكم أَفْمَنَّ أمامكم سوراً من خيط العنكبوت كأنه من صُنْع حَدَّاد.
- راحة بالي مع فقرٍ خيرٌ من همٍ مع يسرٍ.
- لا تدخل الذبابة فما يُسْتَطِيع السكوت.
- التدبير نصفُ المعيشة، وقد يكون به كل المعيشة.
- لا تلد الفأرة إلا فأرة.
- الشجرة التي تُخرج الورد تُخرج الشوك.

- شاور من يُبِكيك لا من يُضْحِيك.
- في الصلاح سر النجاح.
- ثلاثةٌ خير من ثلاثة: الجمال والتقوى وكتمان الهوى.
- منهومان^{١٣} لا يشعّان: طالب علم وطالب مال.



شكل ٢-٦: كتابة عربية حديثة وجدها المؤلف في بيت بدمشق.



شكل ٢-٧: كتابة عربية حديثة وجدها المؤلف في بيت عربي بدمشق.

(٤-٣) التاريخ

مؤرخو العرب كثيرون، وقد عَدَ حاجِي خليفة وحده في مكتبه الشرقية (كشف الظنون) ١٢٠٠ مؤرخٍ عربي، وكان يُعوِّزُ مؤرخي العرب روحَ النقد على العموم، كما كان يُعوِّزُ جميع مؤرخي القرون الوسطى، وكما يُعوِّزُ الكثريين من قلدهم من الكتابَ المعاصرين، وقد قَلَّتْ «على العموم» لوجود مؤرخين قليلين بلغوا درجةً عالية من تلك الروح المسيطرة كابن خدون.

ونذكر من قدماء مؤرخي العرب: الطبرى الذى أَلْفَ، فى أواخر القرن التاسع من الميلاد، تاريخاً عاماً عن الزمن الذى مر منذ بدء العالم إلى سنة ٩١٤م، ونذكر من مؤرخي العرب المشهورين: المسعوديُّ الذى عاش فى القرن العاشر من الميلاد فأَلَفَ عدة كتب فى التاريخ، ككتاب أخبار الزمان وكتاب مروج الذهب ... إلخ.

قال مسيو كاترمير عن المسعودي: «إذا ما نظر الإنسان إلى كُتبه بُهْتَ من تنوع المواد التي كتب فيها، ومن كثرة المسائل المهمة العويصة التي حلها، والحق أنه كان واسع الفضل في الزمن الذي نبغ فيه، لا لأنه قَرَأً جميع الكتب الخاصة بالعرب وتأمل فيها فقط، بل لإحاطة مباحثه الواسعة بتاريخ اليونان والرومان وجميع أمم الشرق حديثها وقديمها أيضاً».

وأَلَفَ مؤرخو العرب كتباً كثيرة في التاريخ العام، ونذكر منهم أبا الفرج الذي توفي سنة ١٢٨٦م.



شكل ٢-٨: جزء من كتابة صندوق فارسي مرصع بالصف (مجموعة شيفر، من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

ويتَّحِصَفُ ابن خلدون، الذي ولِدَ في سنة ١٣٢٢ م، بروح النقد التي تكلمنا عنها آنفًا، وألف ابن خلدون تاريخ البربر حيث عَرَضُهم بادئًا بمبادئ رائعةٍ في النقد التاريخي، وترجم كتابه هذا إلى الفرنسية.

وألف المقريزِيُّ، المعاصر لابن خلدون، تاريخًا عن مصر يُعدُّ أحسنَ مصدر للبحث فيها، ويظهر أنَّ هذا التاريخ قِسْمٌ من ثمانين مجلدًا له في التاريخ العام.

وألف النويريُّ، المتوفى في مصر سنة ١٣٣١ م، موسوعةً تاريخية كبيرة.

وألفَ صاحب حماة أبو الفداء، المتوفى سنة ١٣٣١ م، المشهورُ بأنه من علماء التاريخ والجغرافية ومن رجال الحرب معًا، كتابًا في أخبار البشر عظيم الفائدة في معرفة ما هو خاصٌ بالشرق.

وكتبُ التراجم عند العرب كثيرةً أيضًا، وأشهرُها كتابُ المكتبة الشرقية (كشف الظنون) الذي ألفه حاجي خليفة المتوفى سنة ١٦٥٨ م، والذي هو معجم لأسماء نحو ١٨٥٠٠ كتاب شرقي، والذي أَلْحَقَ فيه اسم كلٌّ كتاب منها باسم مؤلفه مع بيانٍ عنه.

(٥-٣) البيان والبلاغة

اهتم مؤلفو العرب بالأسلوب كثيراً، وكثُرت كتبهم في البلاغة والنحو، فأحصى الغزيريُّ في مكتبة الإسکوريال، وهي التي ليس فيها سوى القليل من كتب الأدب العربي، التي تَفَكَّلت من يد الإبادة والتخريب، أكثر من ثلاثة كتب في البلاغة، ولم تُنْقل هذه الكتب إلى اللغات الأخرى، ولا أرى كبيرَ فائدةٍ في نقلها إليها؛ لأنَّ من شأن علم النحو والبلاغة تهذيب الأسلوب، لا ابتداعه، ولأنَّ بدائعَ الفن، لا كتبَ النحو، هي التي يجب درسها للحكم في آداب الأمة، لأنَّ علم النحو وعلم البلاغة ولديها آداب الأمة.

ولا نستطيع أن نحكم في بلاغة العرب من رسائلهم في البيان وفي النحو، وما كان العرب ليُعْرِفُوا غيرَ البلاغة الدينية خارج التعليم الجامعي، وما كان نظامهم السياسي ليحتمل غيرَ هذا، والحق أنَّ البلاغة الدينية ذاتُ سلطان عظيم على النفوس في الشرق، ولكن ما أسفرت عنه قرائحُ خطبائهم لم يَتَّهِ إلينا.

وليس ما تقدم سوى خلاصةٍ لخلاصةٍ تاريخَ آداب اللغة العربية، ومع ذلك فإنه يكفي للإمام بأهمية آثارهم الأدبية وتنوعها، ولن يكون لنا هدفٌ غيرُ هذا في كتابٍ مُجمَلٍ لهذا الكتاب.

هوما مش

- (١) الصدي: العطشان.
- (٢) النحام: الحريص على الجمع والمنع.
- (٣) الغوي: الضال.
- (٤) الجثوة: الكومة من التراب وغيره.
- (٥) يعتام: يختار.
- (٦) العقائل: كرائم المال والنساء، الواحدة عقيلة.
- (٧) الطُّول: الحبل الذي يطول للدابة فترعى فيه.
- (٨) الثنبي: الطرف.
- (٩) الخنع: الذل
- (١٠) اليراع: الجبان.
- (١١) يتجلّي خيال العرب وميلهم إلى التجميل في كل شيء صغر أو أكبر، ويمكن القارئ أن يستدل على ذلك من بعض الكنایات التي ينادي بها الباائعون في شوارع دمشق لفتاً لأنظار المشترين كقول بائع الأزهار «هدئ حماتك»، وكقول بائع الخبزة: «خبزة طرية تأكلها العجوز ترجع صبية»، وكقول بائع اللوز المحمص: «لا تحمله الأسنان»، وكقول بائع الحلوي: «أكل السنونو» وكقول بائع التين: «ثمر العسل» ... إلخ.
- (١٢) السِّنَاج: أثر دخان السراج في الحائط.
- (١٣) المنهوم: ذو النهم، من نهم في الأكل: شره وحرص وأفرط فيه.

الفصل الثالث

الرياضيات وعلم الفلك

(١) الرياضيات

اتَّسَعَ الْبَحْثُ فِي الرِّياضِيَّاتِ، وَلَا سِيمَا عِلْمُ الْجَبْرِ، عِنْدَ الْعَرَبِ، وَعُزِّيَ إِلَى الْعَرَبِ اكْتِشافِ عِلْمِ الْجَبْرِ، وَلَكِنَّ أَصْوَلَهُ كَانَتْ مَعْرُوفَةً مِنْ زَمْنٍ طَوِيلٍ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ حَوَّلَ الْعَرَبُ عِلْمَ الْجَبْرِ تَحْوِيلًا تَامًا، وَإِلَيْهِمْ يَرْجِعُ الْفَضْلُ فِي تَطْبِيقِهِ عَلَى عِلْمِ الْهَنْدِسَةِ.

وَبَلَغَ عِلْمُ الْجَبْرِ مِنَ الْاِنْتِشَارِ بَيْنَ الْعَرَبِ مَا أَلَّفَ مَعَهُ مُحَمَّدُ بْنُ مُوسَى كَتَابًا مُوطَّدًا لِهِ بِأَمْرِ الْمَأْمُونِ فِي أَوَّلِيَّةِ الْقَرْنِ التَّاسِعِ مِنَ الْمِيلَادِ، وَمِنْ تَرْجِمَةِ هَذَا الْكِتَابِ افْتَبَسَ الْأَوْرَبِيُّونَ مَعَارِفَهُمُ الْأُولَى لِعِلْمِ الْجَبْرِ، بَعْدَ زَمْنٍ طَوِيلٍ.

وَأَقْتَصَرَ عَلَى ذَكْرِ أَعْمَالِ الْعَرَبِ الرِّياضِيَّةِ بِإِيْجَازٍ؛ لِمَا فِي بَيَانِهَا مَفْصَلًا مِنَ الدُّخُولِ فِي الدِّقَائِقِ الْفَنِيَّةِ، وَأَقُولُ: إِنَّ الْعَرَبَ هُمُ الَّذِينَ أَدْخَلُوا الْمَمَاسَ إِلَى عِلْمِ الْمَلْتَثَاتِ، وَأَقَامُوا الْجَيْبَوْنَ مَقَامَ الْأَوْتَارِ، وَطَبَّقُوا عِلْمَ الْجَبْرِ عَلَى الْهَنْدِسَةِ، وَحَلُّوا الْمَعَادِلَاتِ الْمَكْعُبَةِ، وَتَعَمَّقُوا فِي مَبَاحِثِ الْمَخْرُوطَاتِ، وَحَوَّلُوا عِلْمَ الْمَلْتَثَاتِ الْكُرْيَيَّةَ بِرَدْهُمْ حَلًّا مَلْتَثَاتِ الْأَضْلاعِ إِلَى بَعْضِ نَظَريَّاتِ أَسَاسِيَّةٍ تَكُونُ قَاعِدَةً لَهُ.

وَلِإِدْخَالِ الْمَمَاسِ إِلَى عِلْمِ الْمَلْتَثَاتِ أَهْمَيَّةٌ عَظِيمَةٌ، وَاسْمَعْ مَا قَالَهُ مُسِيُّو شَالُ فِي كَتَابِهِ «خَلَاصَةُ تَارِيخِ أَصْوَلِ الْهَنْدِسَةِ»:

لَمْ تُؤَثِّرْ تَلْكَ الثُّورَةُ الْعَلْمِيَّةُ الْمَبَارَكَةُ، الَّتِي أَدَتْ إِلَى طَرْحِ تَلْكَ الطَّرُقِ الْمَرْكَبَةِ التَّقْيِلَةِ فِي الْجَيْبِ، وَتَمَامِ الْجَيْبِ، فِي عَلَمَاءِ الْقَرْنِ الْحَدِيثَةِ إِلَّا بَعْدِ مَرْوَرِ خَمْسَمَائَةِ سَنَةٍ، وَذَلِكَ بِدِعَوَةِ رِيجِيُو مُونْتَانُوسَ، وَإِنْ جَاهَلَ تَلْكَ الثُّورَةَ كُوپِرِنِيَّكُ الَّذِي ظَهَرَ بَعْدَ نَحْوِ قَرْنِ.

(٢) علم الفلك عند العرب

علم الفلك هو من أَوَّلِ ما اعْتَنَى به في بغداد، ولم يدرس العرب وحدهم مسائله، بل سار على طريقهم وارثوهم أيضًا، ولا سيما حفيُدٌ تيمورلنك، أولوغ بك، الشهير بزيجه، والذي يمكن عَدُّه المثلَ الآخر لمدرسة بغداد التي دام زمن ازدهارها سبعة قرون (١٤٥٠-٧٥٠م).

وكانت بغداد مركزاً مهمًا لباحث علم الفلك، ولكنها لم تكن مركزَ هذه المباحث الوحيدة، فالراصدُ التي كانت قائمة في البلاد المتقدة من آسية الوسطى إلى المحيط الأطلنطي كثيرة، ومنها ما كان في دمشق وسمرقند والقاهرة وفاس وطليطلة وقرطبة ... إلخ.

وأهم مدارس الفلك ما كان في بغداد والقاهرة والأندلس، ولنُقلَّ كلمةً عن كل واحدة منها: أخذ خلفاء بنى العباس، منذ اتخاذهم مدينةً بغداد، التي أقيمت سنة ٧٦٢م، عاصمةً لدولتهم، يحثون على دراسة علم الفلك والرياضيات، وعلى ترجمة ما أَفْلَفَ إقليدس وأرشميدس وبطليموس، وترجمة جميع كتب اليونان في تلك العلوم، ويستدعون العلماء الذين كانوا على شيءٍ من الشهرة إلى بلاطهم.

وأَدَّت مدرسة بغداد الفلكية في زمن هارون الرشيد، وفي زمن ابنه المأمون (٨١٤-٨٣٢م) على الخصوص، إلى أعمالٍ مهمة، وأدَّمَحت مجموعة الأرصاد التي تم أمرها في المرصد ببغداد ودمشق في كتاب «الزيج المصحح» الذي نأسف على ضياعه، ومع ذلك يمكننا أن نعلم صحة الأرصاد التي اشتمل عليها هذا الكتاب من الدقة العظيمة التي عُيِّنَ بها انحرافُ سمت الشمس في ذلك الزمن، فقد كان رَقْمُ الانحراف،

كما حُقِّقَ فيه، ٢٣ درجةً و٣٣ دقيقةً و٥٢ ثانيةً، أي ما يُعادِلُ الرَّقم الحاضر.

ونشأ عن رصد العرب للاعتدال الشمسي تعينُهم مدة السنة بالضبط، وأقدم العرب على قياس خط نصف النهار الذي لم يُوقَّع له إلا بعد مرور ألف سنة، وأنجزوا هذا القياس بحسابهم المسافة الواقعة بين نقطة البداية التي سار منها الراصدون ونقطة النهاية التي ظهر فيها اختلافٌ في ارتفاع القطب درجةً واحدةً، ولم نعلم النتيجة؛ لجهلنا المقدار الصحيح لوحدةِ الطول التي اصطلحوا عليها، ونستبعد، مع ذلك، أن يكون الرَّقم الذي توصلوا إليه صحيحاً تماماً بعد النظر إلى قصر ذلك الخط.

ونذكر من أعمال فلكيٍّ مدرسة بغداد الأخرى ما وضعوه من التقاويم لأمكنة الكواكب السيارة، وتعينُهم بالضبط مبادرة الاعتدالين.

وقد انتهت إلينا أسماء بعض علماء الفلك في ذلك الزمن، ومن أشهرهم **البَتَانِيُّ** الذي عاش في القرن التاسع وتوفي سنة ٩٢٩ م، والذي كان له من الشأن بين العرب ما لبطليموس بين الأغارة، وقد احتوى كتابه «**زِيْجُ الصَّابِيِّ**» على معارف زمنه الفلكية كما احتوى كتاب بطليموس، ولم يصل إلينا النص الأصلي لأزياجه التي لم تعرفها أوربة إلا من ترجمتها اللاتينية المحرّفة مع الأسف، ووضع لالاند الشهير **البتاني** في صَفَّ الفلكيين العشرين الذين عُدُوا أشهر علماء الفلك في العالم.

وألف **أماجور** وابنه، اللذان قاما برصد بين سنة ٨٨٣ م وسنة ٩٣٣ م، أزياجاً، وذهب هذا الأخير إلى تحول حدود أكبر دائرة من دوائر عرض القمر، خلافاً لمن تقدّمه من علماء الفلك، ولا سيما بطليموس، فأدى درسُ هذا الشذوذ في دوائر عرض القمر إلى اكتشاف اختلافٍ قمريٍ ثالث.

واشتهر أبناء موسى بن شاكر الثلاثة، الذين عاشوا في القرن التاسع من الميلاد، بأنّهم من علماء الفلك أيضًا، فقد عيّنوا بضبطٍ لم يكن معروفاً قبلهم مباردة الاعتدالين، ووضعوا تقاويمً لأمكنة النجوم السَّيَّارَة، وقادوا عرض بغداد في سنة ٩٥٩ م، وقيّدوه ٣٣ درجة و ٢٠ دقيقة، أي بـرقم يصح بعشر ثوانٍ تقريباً.

وأشهر علماء الفلك الكثirين الذين ظهروا بعد أولئك هو أبو الوفاء المتوفى ببغداد في سنة ٩٩٨ م، ومما عرفه هذا العالم الفلكي هو الاختلاف القمري الثالث الذي أشرنا إليه آنفًا، وذلك كما ظهر من كتابه العربي الخطى المهم الذي عَثَرَ عليه سيديو منذ بضع سنين، وذلك أنه استوقف نظره ما في نظرية بطليموس من النقص في أمر القمر فبحث في أسبابه فرأى اختلافاً ثالثاً، غير المعادلة المركزية والاختلاف الدُّوري، يُعرف اليوم بالاختلاف.

والحق أن هذا الاكتشاف، الذي عُزِّيَ بعد أبي الوفاء بستمائة سنة إلى تيخو براهه، عظيمٌ إلى الغاية، فقد استدلَّ مسيو سيديو به على وصول مدرسة بغداد، في أواخر القرن العاشر، إلى أقصى ما يمكن علم الفلك أن يصل إليه بغير نظارة ومرقب. وكان أبو الوفاء مُجَهَّزاً بالآلات مُتقنة، فقد شاهد انحراف سمت الشمس بربع دائرة يبلغ نصف قطرها إحدى وعشرين قدماً، أي يبلغ من الاتساع ما يُعدُّ كبيراً في المراصد الحديثة.

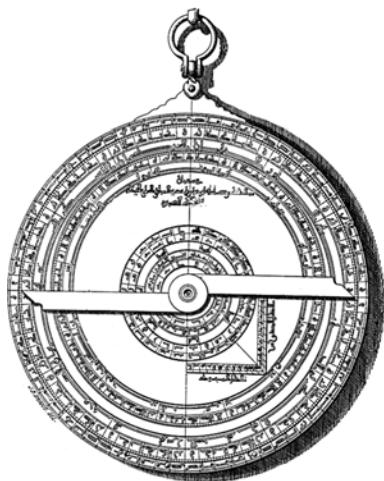
والحوادث التي أدت منذ أواخر القرن العاشر إلى انحطاط سلطان الخلفاء السياسي ببغداد أوجبت فتوراً في الدراسات، ونشأ عن انقسام الدولة وмагاري

السلجوقيين، والحروب الصليبية، وغارات المغول — اضطرابُ البلاد، وقيامُ القاهرة وجامعات الأندلس العربية العظيمة مقامَ بغداد في زعامة الإسلام العلمية. ومع ذلك لم تكُنْ بغداد عن مزاولة العلوم، وكان حُبُّ العرب للعلوم من القوة بحيث لم تمنعهم الحروب والفتن الأهلية وغارات الأجنبي من الاهتمام لها، وبلغ العرب من سعة المعرف ما أثروا معه تأثيراً كبيراً في قاهرتهم، وما صار معه هؤلاء الغالبون حُماةً لهم من فورهم.

ولا شيء، يُورث العجب أكثر من انتصار حضارة العرب على همجية جميع الغزاة، ومن تخرُّج هؤلاء الغزاة، من فورهم، على مدرسة العرب المغلوبين، فقد دام عمل العرب في حقل الحضارة إلى ما بعد زوال سلطانهم السياسي بزمن طويل، وقد دام بفضل ذلك تقدم بغداد العلمي بعد أن صارت قبضة الأجانب، وقد دامت مدرسة بغداد الفلكية على ازدهارها إلى أواسط القرن الخامس عشر من الميلاد، ولم تنقطع عن نشر رسائل مهمة في الفلك، ومن ذلك أن نشر البيروني، والذي كان مشارياً للسلطان محمود الغزنوي (سنة ١٠٣٠ م)، مقالته في «تصحيح الطول والعرض لمساكن المعمور من الأرض»، والبيروني هذا زار بلاد الهند وعلم الهنودس ما انتهت إليه مدرسة بغداد، ومن ذلك أن أمر السلطان ملکشاه السلجوقي، في سنة ١٠٧٩ م بالقيام بأرسالٍ أسفرت عن إصلاح التقويم السنوي بما هو أفضل من التقويم الغريغوري الذي تم بعد ستمائة سنة، وذلك لأن التقويم الغريغوري يؤدي إلى خطأ ثلاثة أيام في كل عشرة آلاف سنة، مع أن التقويم العربي لا يؤدي إلا إلى خطأ يومين في مثل ذلك الزمن.

ولم يكن المغول أقلَّ اعتماداً على العلماء من السلاجوقيين، فقد استدعاى هلاكوخان في سنة ١٢٥٩ م أفضلَ علماء العرب إلى بلاده، وأقام في مراغة مرصدًا كبيراً نموذجيًّا، ولم يلبث كوبلاي خان، الذي هو أخُّ لهلاكوه، أن نقل إلى بلاد الصين التي افتحتها كتب علماء بغداد والقاهرة في علم الفلك، واليوم نعلم أن فلكيي الصين، ولا سيما كوشو كنخ (١٢٨٠)، استنبطوا معارفَهم الفلكية الأساسية من تلك الكتب، ولذا نقول: إن العرب هم الذين نشروا علم الفلك في العالم كله بالحقيقة.

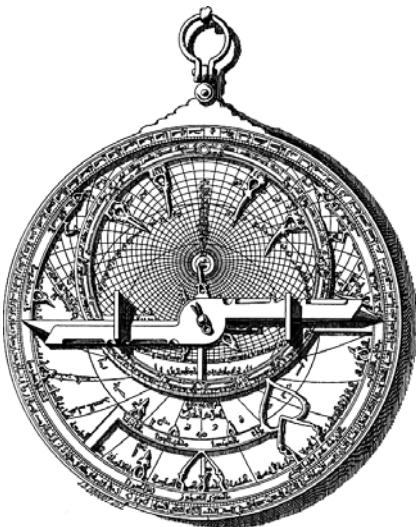
ولما استقرَّ تيمورلنك بسمرقة، التي اتخذها عاصمة دولته العظمى المشتملة على التركستان وببلاد فارس والهند، جمع حوله فريقاً من علماء العرب، ولما آل سلطان سمرقند إلى حفيده أولوغ بك الذي عاش في القرن الخامس عشر من الميلاد أقبل على علم الفلك بنشاط عظيم، وأحاط نفسه بعدد غير قليل من علماء المسلمين، واستطاع،



شكل ١-٣: أسطرلاب عربي قديم (متحف العاديات الإسباني).

بما لديه من الغنى، أن يصنع آلاتٍ رصديةً كانت غير معروفة قبل ذلك التاريخ، فزعم أنه أنشأ ربع دائرة يبلغ نصف قطرها ارتفاع كنيسة أبياصوفية في القدسية، ويمكن عدُّ أولوغ بك، الذي لا يفصله عن كييلر سوى قرن ونصف قرن، آخرٌ ممثلٌ لمدرسة بغداد الفلكية، أي أدلة وصلٌ بين القدماء والمتاخرين؛ لما قام به من الأعمال المهمة.

ويُعد الكتاب الذي نشره أولوغ بك، سنة ١٤٣٧م، صورةً صادقةً عن المعارف الفلكية التي انتهت إليها المدرسة العربية في أواسط القرن الخامس عشر من الميلاد، وقد بحث المؤلف في القسم الأول من هذا الكتاب في مسائل علم الفلك، ودرس فيه أقسامَ الوقت، وموضوع التقويم، ومبادئ علم الفلك العامة، ثم موضوعاتِ هذا العلم العملية كالكسوف والخسوف وتأليف الأزياج واستعمالها ... إلخ، وتشتمل هذه الأزياج على فهارس الكواكب، وحركات القمر والشمس والكواكب السيارة، وطول أهم مدن العالم وعرضها، ومن هذه المدن مدينة سمرقند التي ذكر أن عرضها ٢٩ درجة و٢٧ دقيقة و٢٨ ثانية، فلم أجده في كتب المعاصرين.



شكل ٣-٢: الوجه الثاني للأسطرلاب السابق.

وُحْتم هذا الكتاب بمباحث فن التنجيم الخيالي الذي كان معتبراً كثيراً في زمن أولوغ بك.

وأدى اشتغال أولوغ بك بفن التنجيم إلى قتله، وذلك أنه تخيل، من اقترانات بعض الكواكب السيارة، أن ابنه البكر سيقتله، وأنه جَرَّد ابنه هذا من مناصبه، وأن هذا الابن ثار على أبيه من فُوره وَغَلَبَه، وأن أباه أولوغ بك، هرب إلى التركستان، ثم رجع إلى سمرقند على الرغم من نبوءة النجوم فقتله ابنه.

ومع ذلك فإن جميع علماء الفلك اعتقادوا صحة فن التنجيم، ومنهم فَلَكِيُو أوربة إلى زمن قريب، حتى إن كِيپِلَر العظيم نفسه كان على هذا الاعتقاد فألف تقاويم نَبَوِية. ونذكر، بجانب مدرسة بغداد الفلكية: مدرسة القاهرة التي أخذت — بعد أن فُصلت عن بغداد في أواخر القرن العاشر من الميلاد — تُنافسها في ميدان العلم، فقد اعتنى ولاة أمرها بعلم الفلك اعتناء ولاة أمور بغداد به، وقد أصبح المرصد الذي أنشأوه على جبل المقطم، القائمة عليه القلعة في الوقت الحاضر، من الطراز الأول،

وفي مرصد القاهرة وضع ابنُ يونس، المتوفى سنة ١٠٠٧ م، وذلك في عهد الحاكم (٩٩٠-١٠٢١ م)، الزيج الكبير الذي سماه «الزيج الحاكمي» والذي حل محل الأزياج التي وضعَت قبله، واستنسخ الزيج الحاكمي في جميع كتب علم الفلك ومنها الكتاب الذي ألقه كوشو كنغ في الصين سنة ١٢٨٠ م.

وروى ابنُ السندي، الذي كان يقيم بالقاهرة سنة ١٠٤٠ م، أن مكتبة هذه المدينة كانت تشتمل — في القرن الحادى عشر من الميلاد — على كرتين فلكيتين، وستة آلاف كتاب في الرياضيات وعلم الفلك.

ولم تكن آثار العرب الفلكية في الأندلس أقلَّ أهميةً من آثار المسلمين الفلكية في المشرق، ولكنه لم يبق منها سوى القليل؛ لإبادة جميع مخطوطاتها تقريباً إبادة منظمةً، ولم تُترجم هذه الآثار القليلة التي نجت من التحريق، وترجح أنها لن تترجم؛ لما تقتضيه من معرفة تامة للغة العرب، وللاصطلاحات الفنية التي لا يعلّمها غير المختصين.

ولا نعرف عن أكثر فلكيي العرب في الأندلس شيئاً غير أسمائهم، ولا نعلم عن كتبهم غير إشارات موجزة تكفي لبيان أهميتها، ومن ذلك أن ولد الزرقايل، الذي كان حياً حوالي سنة ١٠٨٠ م، قام بـ٤٠٢ رصداً ليُعِينَ بعد الأقصى للشمس، وأنه عيَّن مقدار حركة المبادرة السنوية لنقطتي الاعتدالين بخمسين ثانية، أي ما يُعادل ما جاء في أزياجنا الحديثة بالضبط، وأنه كان يرقب الأفلاك بآلات اخترعها بنفسه، وأنه صنع ساعاتٍ دقاقَةً أُعجِبَ بها الناس في طليطلة أيماء إعجاب.

وإذ لم تكن كتب عرب الأندلس في علم الفلك موجودةً، أمكن الاستدلال على ما احتوته بما جاء في كتب نصارى ذلك الزمن، ومن ذلك ما توصل إليه سيديو (الذي درس رسائل الملك الأذفونش العاشر القشتالي الفلكية وما ماثلها) من النتائج القائلة: إن العرب سبقوا كيپلر وكوبرنيك في اكتشاف حركات الكواكب السيارة على شكل بيضيّ، وفي نظرية دوران الأرض، وإن أزياج الأذفونش العاشر المسماة «الأزياج الأذفونشية» مأخوذةٌ عن العرب.

وكان علماء الفلك في إفريقيَّة، ولا سيما طنجة وفاس ومراكش ينافسون علماء الفلك في الأندلس، ولكننا نجهل آثارهم جهلاً لأنَّا لا نعلم علماء الأندلس، ونعلم، مع ذلك، أنَّ أبي الحسن المراكشي، الذي كان يعيش في القرن الثالث عشر من الميلاد، عيَّن، بضبط لم يسبقَ إليه أحد، العرض والطول لإحدى وأربعين مدينة إفريقيَّة واقعة بين مراكش



شكل ٣-٣: وجه سابق لأسطرلاب عربي محفوظ في المكتبة الوطنية بباريس (من صورة فوتوغرافية).

والقاهرة، أي ما مسافته تسع مائة فرسخ، وأنه قَيَدَ مشاهداته في كتابه «جامع المبادئ والغايات في علم الميقات» الذي اشتمل على معارفٍ ثمينةٍ لآلات الرصد العربية، فترجم سيدِيو بعضه.

ولم يعرف العرب سوى المِزْوَلَة لتعيين الوقت بالضبط، ولم تكن ساعاتهم صالحة للمباحث الفلكية الدقيقة؛ لعدم تطبيقهم الرَّقَاصَ عليهم.

وكان العرب يُعَيِّنُونَ الزوايا بأرباع الدائرة وأسْطَرلَاب، وقد وصل إلينا عدُّهُ غير قليل من الأسطرلابات، ويوجد في مكتبة باريس الوطنية وحدها ثلاثة أسطرلابات، فنشرنا صورةً لأحدتها في هذا الكتاب، فمن ينعم النظر في تركيبها يعلم أنها دالةٌ على حَذْقٍ كبير، وأنه يصعب صنعُ ما هو أحسن منها في الوقت الحاضر.

ويسهل بيان تركيب الأسطرلاب؛ فهو مؤلفٌ من قرص معدني مقسم إلى درجات، ويدور على هذا القرص عدَّهُ ذو ثَقَبَيْنَ في طرفيه، ويُعلَقُ الأسطرلاب من حَلْقَتِه تعليقاً



شكل ٣-٤: وجه لاحق لذلك الأسطرلاب (من صورة فوتوغرافية).

عمودياً، ثم يُوجَّه العداد نحو الشمس، فمتهى مرت أشعة الشمس من ذينك الثقبين قُرْئ ارتفاع الكوكب من الحد الذي وقف العداد عليه.

وكانت أرباع الدائرة كبيرةً في المرصد أحياناً، ولافائدة من استعمالها في الوقت الحاضر بعد اختراع آلة قِرْنِيَّه الدقيقة التي نتمكن بها من معرفة الدقائق والثوانِي في أصغر الآلات، ولكن بما أن حيازة دائرة مشتملة على تقسيم الدرجات إلى دقائق والدقائق إلى ثوانٍ، تتطلب نصف قطرٍ كبير بحكم الطبيعة كان من عادة فلكيَّي العرب أن يكتفوا بتقسيم الدقيقة إلى اثنى عشر قسماً، فيدل كل قسم من هذه الأقسام على خمس ثوانٍ.

وكذلك كان العرب يقيسون ارتفاع الشمس بامتداد ظلٍ ميلٍ على سطح أفقى، ويكون مثل هذا القياس دقيقاً عندما تكون الآلة المنصوبة عالية.

وتُلْحَّص اكتشافات العرب الفلكية بما يأتي: إدخال الماس إلى الحساب الفلكي منذ القرن العاشر من الميلاد، ووضع أزياجٍ لحركات الكواكب، وتعيين دقيق لانحراف سمت الشمس ونقصانه التدريجي، وتقدير مبادرة الاعتدالين بالضبط، وتحديدٌ صحيح



شكل ٥-٣: أسطرلاب عربي لفليب الثاني بإسبانيا (متحف العاديات الإسباني).

ملدة السنة، وتحقيق لشذوذ أعظم عرض للقمر، وكشف للاختلاف القمري الثالث المعروف بالاختلاف في الوقت الحاضر، والذي قيل إن تيخو براهه اهتدى إليه في سنة ١٦٠١ م لأول مرة.

الفصل الرابع

العلوم الجغرافية

(١) رياضات العرب الجغرافية

كان العرب من السياح المقاديم في كل وقت، وكانوا لا يخسرون المسافوف والمراحل، والاليوم، أيضاً، نراهم يأتون مكة من أقصى البقاء، وي gioibون بقوافلهم داخل إفريقيبة كأمر بسيط، فيصادفهم فيها الأوربيون الذين لا يبلغونها إلا بشق الأنفس.

وكان للعرب، منذ السنين الأولى من قيام دولتهم، علائق تجاريةً بما كان الأوربيون يشكون في وجوده من البلدان، كالصين وبعض البقاع الروسية ومجاهل إفريقيبة ... إلخ.

والآن أشير بإيجاز إلى أعمالهم الجغرافية ورياضاتهم وحدتها، ما دمت سأذكر، في الفصل الذي خصصته للبحث في علاقات المسلمين التجارية، البلاد التي كانت لهم صلات تجارية بها، والطرق التي كانوا يسلكونها للوصول إليها.

وكانت طليعة رؤاد العرب مؤلفةً من تجار يسّيّحون للتجارة، وعلى ما كان يُعوز هؤلاء من الاستعداد الضروري للتأمل العلمي لم تخل رحلاتهم التجارية من طرائف مفيدةٍ في بعض الأحيان.

حقاً لم يخرج أمر سياحات العرب القديمة التي انتهت إلينا خبرها عن ذلك المعنى، ومنها سياحة التاجر سليمان بلاد الصين في القرن التاسع من الميلاد، فقد أبحر سليمان من مرفاً سيراف الواقع على الخليج الفارسي حيث كانت تكثر المراكب الصينية، وجاءoz المحيط الهندي، وبلغ شواطئ بلاد الصين، وكتبَ رحلته في سنة ٨٥١م، ثم أكمل أحد أبناء وطنه أبو زيد كتاب هذه الرحلة في سنة ٨٨٠م، وأضاف إليها معارف أخذها عن عربٍ زاروا بلاد الصين.

وكتاب سليمان، الذي نُقل إلى اللغة الفرنسية في أوائل القرن الأخير، هو أول مؤلَّفٍ نُشر في بلاد الغرب عن بلاد الصين.



شكل ٤-١: خريطة عربية وُضعت في أواسط القرن الثاني عشر من الميلاد (رسمها برييس الأثيني في القاهرة).

وإذا كان سليمان باحثاً عادياً فغير ذلك شأن المسعودي الشهير الذي ولد ببغداد في أواخر القرن التاسع من الميلاد، فقد قضى المسعودي خمساً وعشرين سنة من حياته في الطواف في مملكة الخلفاء الواسعة، وفي المالك المجاورة لها كبلاد الهند، وقيَّد ما شاهده في تأليفه الكثيرة المهمة التي نَعَد كتاب «مروج الذهب» أشهرها، قال المؤرخ العربي العلامة ابن خلدون الذي ذكرناه غير مرَّة والذي ظهر بعد المسعودي بأربعين سنة ما يأتي:

فاما ذِكر الأحوال العامة للأفاق والأجيال والأعصار فهو أُسْ للمؤرخ تبني عليه أكثر مقاصده، وتَبيَّن به أخباره، وقد كان الناس يفردونه بالتأليف، كما فعله المسعودي في كتاب مروج الذهب، شرح فيه أحوال الأمم والأفاق لعهده في عصر الثلاثين والثلاثمائة (٩٤١م) غرباً وشرقاً، وذكر نَحَّالهم وعواوئدهم، ووصف البلدان والجبال والبحار والممالك والدول، وفرق شعوب

العرب والعلم، فصار إماماً للمؤرخين يرجعون إليه، وأصلًا يُعولون في تحقيق الكثير من أخبارهم.

ثم بدأ ابن حوقل، الذي ولد كالمصري في بغداد برحلاته بعد أن تمت رحلات المصري، واسمع ما قاله ابن حوقل في كتابه:

قد عملت كتابي هذا بصفة أشكال الأرض ومقدارها في الطول والعرض وأقاليم البلدان ومحل الغامر منها والعمaran، من جميع بلاد الإسلام، بتفصيل مدتها، وتقسيم ما تفرد بالأعمال المجموعة إليها، وقد جعلت لكل قطعة أفردتُها تصويراً وشكلاً يحكي موضع ذلك الإقليم، ثم ذكرت ما يحيط به من الأماكن والبقاء، وما في أضيافها من المدن والأصقاع، وما لها من القوانين والارتفاع، وما فيها من الأنهر والبحار، وما يحتاج إلى معرفته من جواميل ما يشتمل عليه ذلك الإقليم من وجوه الأموال والجبايات والأعشار والخراجات والمسافات في الطرق، وما فيه من المجالب والتجارات؛ إذ ذلك علمٌ يتفرد به الملوك والساسة وأهل المروءات والساسة من جميع الطبقات.

ورافق البيرونيُّ السلطان محموداً الغزنوبي في حملته التي جردها على بلاد الهند في سنة ١٠٠٠ م، ونشر ما شاهده في بلاد السند وشمال الهند، وحاول البيروني أن يُصحح خريطة تلك البلاد مستنداً إلى حسابه الفلكي.

ويمكن أن نعد من السياح أبا الحسن الذي عاش في القرن الثالث عشر من الميلاد وذكرناه بين علماء الفلك، فقد اجتب بالحقيقة شمال إفريقيـة الممتد من مراكش إلى مصر، وعَيَّـنَ، تعـيـنـا فـلـكـيـاً، مواضع أربع وأربعين مركزاً مهـمـاً قاصـداً تصـحـيـحـ خـرـيـطةـ بطليموس عن الدوائر الإفريـقـيـةـ.

وآخر رحلة عربي كبير ذكره هو ابن بطوطـةـ الذي بدأ بـسـيـاحـاتهـ فيـ سـنـةـ ١٣٢٥ـ مـ، مـسـافـرـاـ منـ مدـيـنـةـ طـنـجـةـ المـراـكـشـيـةـ وـمـجـوـلـاـ فيـ إـفـرـيـقـيـةـ الشـمـالـيـةـ وـمـصـرـ وـفـلـسـطـيـنـ وـعـرـاقـ وـشـمـالـ جـزـيـرـةـ العـرـبـ إـلـىـ مـكـةـ، وـفيـ روـسـيـةـ الـجـنـوـبـيـةـ وـالـقـسـطـنـطـنـيـةـ ...ـ إـلـخـ، وـالـذـيـ ذـهـبـ إـلـىـ بلـادـ الـهـنـدـ مـاـرـاـ منـ بـخـارـىـ وـخـرـاسـانـ وـقـنـدـهـارـ، فـبـلـغـ مدـيـنـةـ دـهـلـيـ الـتـيـ كـانـتـ مـنـ الـعـوـاصـمـ إـلـاـمـيـةـ، وـالـتـيـ أـوـفـدـهـ سـلـطـانـهـاـ إـلـىـ عـاـهـلـ الصـينـ فـانتـهـىـ إـلـىـ بلـادـ الصـينـ بـحـرـاـ، وـقـدـ زـارـ فـطـرـيقـهـ إـلـىـ الصـينـ سـيـلـانـ وـسـومـطـرـةـ وـجـاـواـ، وـوـصـلـ إـلـىـ المـدـيـنـةـ الـتـيـ تـُـعـرـفـ بـبـيـكـيـنـ فـيـ الـوـقـتـ الـحـاضـرـ، ثـمـ عـادـ إـلـىـ وـطـنـهـ بـطـرـيقـ الـبـحـرـ.

ودامت تلك السياحات الأولى التي قام بها ابن بطوطه أربعًا وعشرين سنة، ولكن ابن بطوطة لم يشعر في أثنائها بتعجب، فقد زار بعدها بلاد الأندلس، وأوغل في قلب إفريقيا، وانتهى إلى مدينة تنبكتُو، وتوفي ابن بطوطة في مدينة فاس سنة ١٣٧٧ م بعد أن طاف، تقريبًا، في جميع العالم الذي كان معروفاً في عصره، فرياداتُ كالتى أتتها تكفي لتمجيد من يقوم بها في زماننا أيضًا.

(٢) التقدم الذي حققه العرب في الجغرافية

كان من نتائج رياضيات العرب ومعارفهم الفلكية التي ذكرتها أن اتفق لعلم الجغرافية تقدم مهمٌّ، ولا غرو؛ فالعرب الذين اتخذوا في البداية علماء اليونان، ولا سيما بطليموس، أبدأوا لهم في علم الجغرافية لم يلتبوا أن فاقوا أسانتتهم فيه على حسب عادتهم.

كانت مواضع المدن الكثيرة التي عينها بطليموس تعيناً جغرافيًّا غير مطابقة للحقيقة تماماً، وبلغ مقدار غلطِه في تعين طول البحر المتوسط وحده أربعين ألف فرسخ. ويكتفى أن نقابل بين الأمكانة التي عينها الأغارقة والأمكانة التي عينها العرب؛ ليظهر لنا مقدار التقدم الذي تم على يد العرب، فهذه المقابلة تدل على أن مقدار العرض الذي حققه العرب يقترب من الصحة بما لا يزيد على بعض دقائق، وأن خط الأغارقة فيه بلغ درجات كثيرة.

وكان تعين الطول صعباً على العرب، وذلك لما يُعوزهم في ذلك الحين من مقاييس للزمان (كرونومتر) ومن تقاويم مضبوطةٍ للقمر فكانت مغالطُهم أظہر من ذلك، وإن لم يزد على درجتين إلا نادرًا، أي وإن كانت دون غلط الأغارقة بمراحل.

حقًّا إن أغاليط الأغارقة في تعين الطول كانت فاحشةً في بعض الأحيان، ومنها أن غلط بطليموس، الذي اتخد الإسكندرية مبدأً للطول، في طول طنجة نحو ١٨ درجةً فجعله ٥٣ درجة و ٣٠ دقيقة بدلاً من ٣٥ درجة و ٤١ دقيقة، ومنها أن جعل بطليموس في تقاويمه طول المحور الكبير للبحر المتوسط المتد من طنجة إلى طرابلس الشام تسع عشرة درجةً زيادة على الحقيقة، أي ما يعادل أربعين ألف فرسخ تقريباً، مع أن غلط تقاويم العرب فيه أقلُّ من درجة واحدة.

وكتب العرب التي انتهت إلينا في علم الجغرافية مهمةً إلى الغاية، وكان بعضها أساساً لدراسة هذا العلم في أوربة قروناً كثيرة.



شكل ٤: خريطة الإدريسي العربية (١١٦٠، من رسم ف. دوسان مارتان).

وأقدم كتاب نعرفه عن العرب في علم الجغرافية هو الكتاب الذي نشره النضرُ البصري في سنة ٧٤٠ م، ففي هذا الكتاب عالج النضرُ مختلف الموضوعات التي لا تَمُتُ إلى علم الجغرافية بصلة في الغالب، والتي يلوح أنها خاصة بأعراب على الخصوص. ثم جاء الإصطخري، فألف كتاب الأقاليم في أواسط القرن التاسع من الميلاد، فكان أرقى من كتاب النضر البصري، وكتاب الإصطخري هذا لم يكن، مع ذلك، سوى إحصاء لما في مختلف الولايات من الأنهر والمدن والجبال ... إلخ.

وما كتبه المسعودي المعاصر للإصطخري والمقدسي في سنة ٩٨٥ م في علم الجغرافية هو من قبيل الرحلات أكثر من أن يكون من الكتب الجغرافية.

وأشهر جغرافيي العرب هو الإدريسي، ومن كُتب الإدريسي، التي تُرجمت إلى اللاتينية، تعلّمت أوربة علم الجغرافية في القرون الوسطى.

ولد الإدريسي في الأندلس، ثم ساقت الإدريسي مغامراتٌ كثيرة إلى بلاط ملك صقلية، روجر، بعد أن استولى التورمان عليها بزمن قصير، وما كانت سنة ١١٥٤ م آللَّا الإدريسي كتابه الجغرافي العظيم، مشتملاً على ما قيده المتقدمون في علم الجغرافية، وعلى ما رواه عن السياح من المعارف الكثيرة، وعلى عدة خرائط؛ فاقتصرت أوربة على نسخه بدناءةٍ مدة ثلاثة قرون.

وخرّيطة الإدريسي التي نَشَرْتُ صورتها، والتي اشتغلت على منابع النيل والبحيرات الاستوائية الكبيرة، أي على هذه الأماكن التي لم يكتشفها الأوروبيون إلا في العصر الحاضر، أكثرُ خرائطه طرافة،^١ فهي تثبت أن معارف العرب في جغرافية إفريقيا أعظم مما ظنَّ زمانًا طويلاً.

وأذكر من جغرافيي العرب القزويني وياقوتاً الحموي الذين عاشا في القرن الثالث عشر من الميلاد، وأن كتاب هذا الأخير **مُعَجمُ جغرافيٍّ** حافلٌ بوثائق عن جميع البلدان التي تتتألف منها دولة الخلافة.

وُعرف صاحبُ حماء، وأبو الفداء (١٢٧١-١٢٣١م)، بأنه من علماء الجغرافية أيضاً، ولكنه لم يصنع غير تلخيص كتب أخرى، وقلَّ مثل هذا عن المقريزي والحسن. ويحتاج إحصاء أهم جغرافيي العرب وما أفلوا من الكتب إلى بيان طويل، فقد ذكر أبو الفداء وحده أسماء ستين عالماً جغرافياً من الذين ظهروا قبله، وتكتفي الخلاصة السابقة لإثبات شأنهم مع ذلك، ولو لا إصرار الأوروبيين الخاص على مُبتسراهم الموروثة، التي لا تزال باقية، حِيال الإسلام؛ لتعذر إيضاح السبب في إنكار علماء أفالضل في الجغرافية، كمسيو ثيقيان دو سان مارتـن، لذلك الشأن، ومع ذلك يكفي ما أتى به العرب من عملٍ كبير لإثبات قيمتهم، فالعرب هم الذين انتهوا إلى معارف فلكية مضبوطة من الناحية العلمية عُدَّت أول أساس للخرائط، فصححوا أغاليط اليونان العظيمة في الموضع، والعرب، من ناحية الريـاد، هم الذين نشروا رحلاتٍ عن بقاع العالم التي كان يشكُّ الأوروبيون في وجودها، فضلاً عن عدم وصولهم إليها، والعرب، من ناحية الأدب الجغرافي، هم الذين نشروا كتباً قامت مقام الكتب التي أُلْفت قبلها؛ فاقتصرت أمم الغرب على استنساخها قرونًا كثيرة.

هوامش

(١) قال الإدريسي عن منابع النيل: «وهذان القسمان مخرجهما من جبل القمر الذي فوق خط الاستواء بست عشرة درجة، وذلك أن هذا النيل من هذا الجبل من عشر عيون، فأما خمسة أنهار منها فإنها تصب وتحجتمع في بطیحة كبيرة وخمسة أنهار أخرى تنزل أيضًا من الجبل إلى بطیحة أخرى كبيرة، ويخرج من كل واحدة من البطیحتين ثلاثة أنهار، فترم بأجمعها إلى أن تصب في بطیحة كبيرة جدًّا، وعلى هذه البطیحة مدينة تسمى طرمى».

الفصل الخامس

الفيزياء وتطبيقاتها

(١) الفيزياء والميكانيكا

الفيزياء: ضاعت كتب العرب المهمة في الفيزياء، ولم يبق منها غير أسمائها ككتاب الحسن بن الهيثم في الرؤية المستقيمة والمنكسة والمنعطفة، وفي المرايا المحرقة، ومع ذلك فإننا نستدل على أهمية كتب العرب في الفيزياء من العدد القليل الذي وصل إلينا منها، ولا سيما كتاب الحسن في البصريات الذي نُقل إلى اللغة اللاتينية واللغة الإيطالية؛ فاستعان كييلر به كثيراً في كتابه عن البصريات، ويرى القارئ في كتاب الحسن فصولاً دقيقة عن حرارة المرايا ومحل الصور الظاهر في المرايا، وانحراف الأشياء، وجسامتها الظاهرة ... إلخ، ويرى فيه، على الخصوص، حلاً هندسياً لمسألة الآتية التي تتعلق بمعادلة من الدرجة الرابعة، وهي: إذا U موضع نقطة مضيئة ووَضْعُ العين، فكيف تَجِدُ على المرايا الكُرْبَيَّة والأسطوانية النقطة التي تتجمَّع فيها الأشعة بعد انعكاسها؟ فعدَّ مسيو شال، الذي هو حُجة في هذه الموضوعات، هذا الكتاب «مصدر معارفنا للبصريات».

الميكانيكا: معارف العرب الميكانيكية العملية واسعة جدًا، ويُستدل على مهاراتهم في الميكانيكا من بقایا آلاتهم التي انتهت إلينا، ومن وصفهم لها في مؤلفاتهم.

ورأى الدكتور إ. برنارد الأكسفورد أن العرب هم الذين طبقوا الرقص على الساعة، غير أن ما أبداه من الأسباب لا يكفي، على ما يظهر، لإسناد هذا الاختراع المهم إلى العرب، والذي نرجحه هو أن الساعة الدقاقة التي أرسلها هارون الرشيد إلى شارلaman هي ساعة مائية تدق في كل ساعة بسقوط كراتها النحاسية على فرسن معدني.

ولكن الذي لا ريب فيه هو أن العرب عرفوا الساعات ذات الأثقال التي تختلف كثيراً عن الساعات المائية، ودليلنا على ذلك: ما وُصفت به ساعة الجامع الأموي الشهيرة في كتب كثير من المؤلفين، ولا سيما بنiamin التُطيلي الذي زار فلسطين في القرن الثاني عشر من الميلاد، وقد اقتطفنا الوصف الآتي من ترجمة مسيو سلڤستر دوساسي لابن جُبَير، قال ابن جُبَير:

وعن يمين الخارج من باب جiron في جوار البلاط الذي أمامه غرفة لها هيئة طاقٍ كبير مستدير فيه طيّانٌ صُفر قد فُتحت أبواباً صغاراً على عدد ساعات النهار، ودُبِّرت تدبيراً هندسياً، فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنgettان من صُفر من فَقَيْ بازَيْن مُصَوَّرين من صُفر قائمين على طاستين من صُفر تحت كل واحد منهما، أحدهما: تحت أول باب من تلك الأبواب، والثاني: تحت آخرها، والطاستان مثقوبتان، فعند وقوع البندقيتين فيهما تعودان داخل الجدار إلى الغرفة، وتبصر البازَيْن يَمْدَدان عنقيهما بالبندقيتين إلى الطاستين ويقذفانهما بسرعة بتدبير عجيب تتخيله الأوهام سحرًا، وعند وقوع البندقيتين في الطاستين يُسمع لهما دويٌّ، وينغلق الباب الذي هو لتلك الساعة للحين بلُوح من الصُفر، لا يزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار، حتى تنغلق الأبواب كلها وتنتقضى الساعات، ثم تعود إلى حالها الأول، ولها بالليل تدبير آخر، وذلك أن في القوس المنعطفة على الطيكان المذكورة اثني عشرة دائرةً من النحاس مُخْرَمَةً تعترض في كل دائرة زجاجةً من داخل الجدار في الغرفة، يُدبر ذلك كله منها خلف الطيكان المذكورة وخلف الزجاجة مصباحٌ يدور به الماءُ على ترتيب مقدار الساعة، فإذا انقضت عمَّ الزجاجة ضوء المصباح، وفاض على الدائرة أمامها شعاع، فلاحت للأبصار دائرة حمراء، ثم انتقل ذلك إلى الأخرى حتى تنقضى ساعات الليل وتحمر الدوائر كلها، وقد وُكِّل

بها في الغرفة مُنفَقًّا لحالها، دَرِبُ بشأنها وانتقالها، ويُعِيدُ فتح الأبواب،
وصرُفُ الصنوخ إلى مواضعها.

(٢) الكيمياء

كيمياء العرب مشوبةٌ بالسيمياء، كما كان علم الفلك عندهم مشوّباً بفن التنجيم، ولكن مزج العلم المثبت بالخيال لم يمنع العرب من الوصول إلى اكتشافات مهمة. والمعارف التي انتقلت من اليونان إلى العرب في الكيمياء ضعيفةٌ، ولم يكن لليونان علمٌ بما اكتشفه العرب من المركبات المهمة كالكحول وزيت الراجم (الحامض الكبريتى) وماء الفضة (الحامض النترى) وماء الذهب ... وما إلى ذلك، وقد اكتشف العرب أهمَّ أسس الكيمياء كالتقطير.

قال بعض المؤلفين: «إن لآفوازه واضع علم الكيمياء، وقد نسوا أننا لا عهد لنا بعلم من العلوم، ومنها علم الكيمياء، صار ابتداعه دفعَةً واحدة، وأنه وُجد عند العرب من المختبرات ما وصلوا به إلى اكتشافاتٍ لم يكن لآفوازه ليستطيع أن ينتهي إلى اكتشافاته بغيرها.».



شكل ١-٥: فرسان من العرب يقذفون بالنار اليونانية كما جاء في مخطوط عربي قديم محفوظ في المكتبة الوطنية بباريس.

وأقدم علماء العرب في الكيمياء وأكثربن شهرَةً هو جابر الذي عاش في أواخر القرن الثامن من الميلاد، والذي أَلْفَ كتاباً كثيرةً فيها، ولكنه نشاً عن كثرة من تَسَمَّوا باسمه من معاصريه صعوبةً تمييز ما يجب نسبته إليه منها، ونُقلَ عدد غير قليل من

كتبه إلى اللغة اللاتينية، وقد نُقل كتابه «الاستتمام»، الذي هو من أهم كتبه، إلى اللغة الفرنسية في سنة ١٦٧٢ م، فدل هذا على دوام نفوذه العلمي في أوربة مدةً طويلة. ويتألف من كتب جابر موسوعة علمية حاوية خلاصة ما وصل إليه علم كيمياء العرب في عصره، وتشتمل هذه الكتب على وصف كثير من المركبات الكيماوية التي لم تذكر قبله، كماء الفضة (الحامض النترى) وماء المهمميين (الذين لا نتصور علم الكيمياء بغيرهما).

ويظهر أن جابر بن حيان عَرَفَ خواصَ بعض الأرواح، فقد ذكر: «أن الأرواح حينما تستقر بال أجسام تفقد شكلها وطبيعتها، وتصبح غير ما كانت عليه، وأنها في حالة التحليل إما أن تطير وحدها وتبقى الأجسام التي امتزجت بها، وإما أن تطير مع ما امتزجت به من الأجسام في آن واحد».«

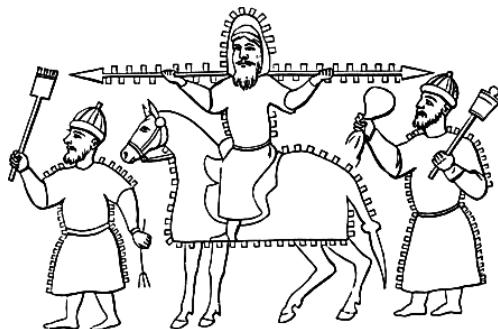
وكان جابر يعتقد، كجميع السيماويين، أن المعادن مركبةٌ من عناصر كثيرةٍ غير معروفة، فيسمّي هؤلاء هذه العناصر، على حسب الأحوال، ببعض الأسماء، كالكبريت والزنبق والزرنيخ ... إلخ.

ولكن هذه الأسماء لم تدلُّ على خواص العناصر المفترضة التي أطلق عليها، وإلى هذا الأمر وأشار السيماويون، غير مرةٍ، فيجب الانتباه إليه خوفاً من الوقوع في مثل ما اقترفه مؤلفون كثيرون من الوزر نحوهم.

ويرى علماء الكيمياء من العرب أن جميع المعادن مؤلفةٌ من عناصر واحدةٍ، وأن بعض المعادن لا يختلف عن بعضٍ إلا بسبب اختلاف نسبة هذه العناصر، وأنه في حالة حل هذه العناصر، وإعادة تركيبها مرةً أخرى على نسب ملائمة يُظفر، كما هو ظاهر، بأي معدن آخر كما يُراد، كالذهب مثلاً. ورأىت مسألة تحويل المعادن على قلوب سيماويي العرب قروناً كثيرة كما هو معلوم، فنشأ عن نظرياتهم، البعيدة من الذهنية الحاضرة بعضَ البعد، خدِّمُ للعلم حقيقةً عند قيامهم بمحاذاتهم التي ما كانت لتقع بغيرها، أَجل، إنه لا يُكتَشَفُ ما يُبْحَثُ عنه، ولكنه يُكتَشَفُ ما لا يُعْثَرُ عليه بغير طلب تحويل المعادن زمناً طويلاً.

واشتملت كتب جابر على بيان كثير من المركبات الكيماوية التي كانت مجهولة قبله، كماء الفضة (الحامض النترى) وماء الذهب والبوتاسيوم وملح النشار وحجر جهنم (نترات الفضة) والسليماني والراسب الأحمر، وكان جابر أول من وصف في كتبه أعمالاً أساسية كاللتقطير والتخصيد والتبلور والتذيب والتحويل ... إلخ.

واكتشف العرب، أيضًا، مركبات أخرى لا غُنْيَةَ للكيمياء والصناعة عنها، كزيت الزاج (الحامض الكبوريتي) والكحول، وكان الرازى المتوفى سنة ٩٤٠ م أول من وصفها فقال: إن زيت الزاج يُستخرج بتقطير كبريت الحديد، وإن الكحول تُستخرج بتقطير المواد الـلـبـيـة أو السكرية المختمرة.



شكل ٢-٥: قذائف محركة استعملها العرب في القرن الثالث عشر من الميلاد (ترى في هذه الصورة فارسًا حاملًا رمحًا ناريًّا، ولابسًا كخادميه قميصًا صفيقًا من صوف ذي دسر معدًا ليليل بنفط يُشعّل فيما بعد، وذلك لإلقاء الرعب في الأعداء) من مخطوط عربي قديم محفوظ في بطرسبرغ.

ودرس أكثر علماء العرب الذين ألهوا في مختلف العلوم مسائل الكيمياء، وضاع أهم كتب الكيمياء العربية، خلا مؤلفات جابر والرازي، فنأسف على ذلك بعد أن تجلّت لنا قيمة ما هو بين أيدينا منها.

ويظهر لنا مدى اكتشافات العرب الكيماوية من كثرة ما كان مجهولاً قبلهم من المركبات التي ذكروها في مؤلفاتهم الطبية، وابتدع العرب فنَ الصيدلة، ويبدو لنا مقدار معارفهم في الكيمياء الصناعية من حِدقهم لفنَ الصباغة، واستخراج المعادن، وصنع الفولاذ، ودباغة الجلد ... إلخ.

(٣) العلوم التطبيقية: الاكتشافات

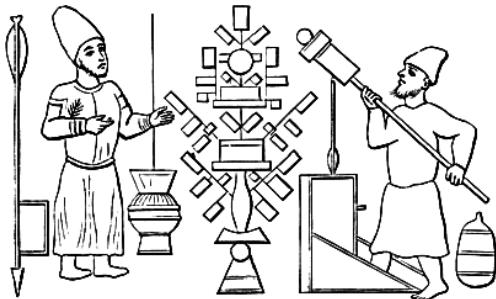
(١-٣) المعارف الصناعية

لم يُهمل العربُ أمر التطبيقات الصناعية مع قيامهم بمباحthem النظرية، وكان لصناعات العرب تفوّقٌ عظيم بفضل معارفهم العلمية، ونعلم ما أدى إليه صناعاتهم من النتائج، وإن جَهَلْنا أكثر طرقها، فنعرف، مثلاً، أنهم كانوا يعلمون استغلال مناجم الكبريت والنحاس والرثيق والحديد والذهب، وأنهم كانوا ماهرين في الْدِبَاغَة، وفي فن تسقيفة الفولاذ، كما تشهد بذلك نصال طليطلة، وأنه كان لنسائجهم وأسلحتهم وج LOD them وورقهم شهرة عالمية، وأنه لم يسبقهم أحد في كثير من فروع الصناعة إلى عصرهم. ونرى، بين اختراعات العرب، ما لا يجوز الاكتفاء بذكره لأهميته، كاختراعهم للبارود مثلاً، ولذا فإننا نقول بضمّ كلماتٍ فيه:

بارود الحرب والأسلحة النارية

استعملت أمم آسية أنواع المركبات المحرقة في حروبها منذ القرون القديمة، ولكن أوربة لم تعرِف هذه المركبات إلا في القرن السابع من الميلاد، ويُظنُّ أن الذي نقلها من آسية هو مهندس معماري اسمه كالينيك، واستفاد البيزنطيون استفادةً عظيمة من هذه المركبات في دُخُر العرب حينما وضعوا نطاقاً أمام القسطنطينية، وأمر القيسار قسطنطين بورْفِيرُو جينيت بعدها من أسرار الدولة وإن لم تثبت أن كُشفَت، وأسفرت مباحث رينو وفاثيه عن القاطع بأن هذه المركبات التي وُصفت في كثير من المخطوطات القديمة مؤلفةً من الكبريت، وبعض المواد الملتهبة وبعض الراتنجات والأدھان.

ولُسْرُوعان ما عَرَفَ العرب تركيب النار اليونانية، وبلغت هذه النار من الانتشار عندهم ما صارت معه «عامل الهجوم المهم» كما قال ذاتك المؤلفان، وتَقْنَنَ العرب في استخدامها، والقذف بها بشتى الطرق، وليس بمجهول خِرُّ الرُّعب الذي ألقته في قلوب الصليبيين فورَ ذكره في أحاديثهم، ومن ذلك أن أعلن جوانقِيلُ أنها أُفْطِعَ شيء رأه في حياته، وأنها ضربٌ من التنانين الكبيرة الطائرة في الهواء، ولما أصبح جوانقِيل في جوار الملك سان لويس: «رَكَعَ ورفع يديه إلى السماء وقال باكيًا: أي ربنا يسوع احفظنا واحفظ قومنا!»



شكل ٣-٥: أسلحة نارية استعملها العرب في القرن الثالث عشر من الميلاد (ترى في هذه الصورة مدفعياً حاملاً بيده مدفعاً صغيراً مقرباً إياه من لهب لإشعال النار وقدف القنبلة، من ذلك المخطوط العربي القديم المحفوظ في بطرسبرغ).

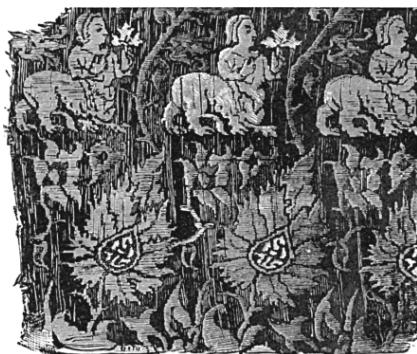
ولا يخلو هذا الفرع من وهم، أي أن النار اليونانية إذا كانت نافعة في المعارك البحرية للقضاء على سفن العدو فإنها لم تكن كذلك في البر، ولم يرو أحدٌ من المؤرخين أنها أودت بحياة أحدٍ من رجال سان لويس أو غيرهم في البر، وأطبقت النار اليونانية على سان لويس، وكثير من فرسانه من غير أن تصيبهم بأذى، فالنار اليونانية، وإن كان من طبيعتها التحرق، لم تصلح للرُّشْق، وهي، وإن كان يُقدَّف بها، لم تتفع لرمي القذائف، وهي، وإن كانت من المحترقات، لم تكن لها خواص البارود في الانفجار.

وعزيزٍ اختراعُ البارود إلى روجر بيكن زمناً طويلاً، مع أن روجر بي肯 لم يفعل غير ما فعله ألبرت الكبير من اقتباس المركبات القديمة، ولا سيما ما وصفه منها مَرْكُوس غراگوس في مخطوط كُتبَ في سنة ١٢٣٠ م بعنوان «كتاب النار لإحراق الأعداء»، والحق أن كثيراً من هذه المركبات يشابه تركيب البارود، ولكنه كان يُستعمل في الأسمدة النارية فقط، وهو مقتبس من العرب، لا ريب، كجميع المركبات الكيماوية في القرون الوسطى.

والعرب هؤلاء قد عَرَفُوا الأسلحة النارية قبل النصارى بزمن طويل كما يأتي بيانه. وأثبتت مباحث مسيو رينو ومسيو فاقيه، وقد سبقهما إليها الغزيري وأندره، وقياردو، أن العرب هم الذين اخترعوا بارود الدافع السهل الانفجار الدافع للقذائف، وبيان ذلك: أن ذينك المؤلفين رأيا في بدء الأمر كما رأى غيرهما، أن أمر هذا الاختراع يعود إلى الصينيين، وأنهما رجعاً في مذكرة ثانية نشرتها سنة ١٨٥٠ م، وذلك بعدما

اطلعا على ما جاء في بعض المخطوطات التي عُثر عليها حديثاً، عن رأيهما مُعْلَمَيْنَ أن العرب هم أصحاب هذا الاختراع العظيم الذي قَلَّ نظام الحرب رأساً على عِقب، ومما قاله ذاتك المؤلفان: «إن الصينيين هم الذين اكتشفوا ملح البارود واستعملوه في النار الصناعية ... وأن العرب هم الذين استخرجوا قوة البارود الدافعة، أي أن العرب هم الذين اخترعوا الأسلحة النارية».

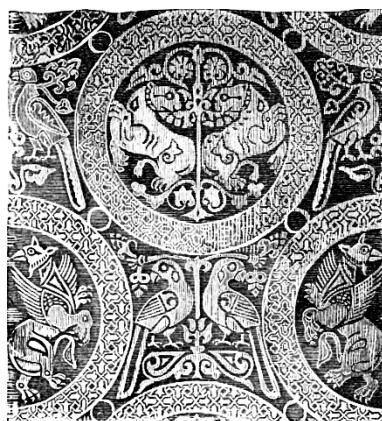
وجرى المؤرخون على الرأي القائل: إن المعركة الأولى التي استعملت فيها المدفع هي معركة كريسي التي حدثت سنة ١٢٤٦م، والحقيقة هي ما أثبته مؤرخو العرب في مؤلفاتهم من النصوص الكثيرة التي تدل على أن استعمال المدفع وقع قبل تلك السنة بزمن طويل، ومن ينظر إلى المختارات المقتففة من المخطوطات التي ترجمها كوندہ يَجِدُ، على الخصوص، أن الأمير يعقوب حاصر زعيم ثوار في مدينة المهدية بإفريقيا في سنة ١٢٠٥، وأنه ضرب أسوارها بمختلف الآلات والقنابل ... أي ضربها بالآلات لم يَرَها الناس قبل ذلك ... فكانت كل واحدة منها ترمي قذائف كبيرةً من الحجارة وقنابل من الحديد، فتسقط في وسط المدينة».



شكل ٤-٤: قطعة من نسيج عربي قديم (من تصوير إبر).

ونرى ذلك صريحاً في تاريخ ابن خلدون عن البربر حيث ذَكَرَ استعمال المدفع في الحِصار بقوله: «ولما فتح السلطان أبو يوسف بلاد المغرب وجَّه عزمه إلى افتتاح

سجل ماسة (١٢٧٣/٥٦٧٢م) من أيدى بني عبد الواد المغلبين عليها، وإدلة دعوته فيها من دعوتهم، فنهض إليها في العساكر والخشود في رجب من سنة اثنين وسبعين، فنَازَلَها وقد حَشَدَ إليها أهل المغرب أجمع من زناتة والعرب والبربر وكافة الجنود والعساكر، ونَصَبَ عليها آلات الحصار من المجنح والعرادات وهندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانة أمام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة تُرْدُ الأفعال إلى قدرة بارئها، فأقام عليها حَوْلًا يغاديها القتال ويراوحها إلى أن سقطت ذات يوم على حين غفلة طائفه من سورها بإلحاح الحجارة من المجنح عليها، فبادروا إلى اقتحام البلد فدخلوه عنوةً من تلك الفُرجة.»
 وتُتَبَّت مخطوطات ذلك الزمان أن الأسلحة النارية شاعت بين العرب بسرعة، وأنهم استخدموها للدفاع عن مدينة الجزيرة التي هاجمها الأذفونش الحادي عشر سنة ١٣٤٢م.



شكل ٥-٥: قطعة من نسيج عربي قديم.

وجاء في تاريخ الأذفونش الحادي عشر: «أن مغاربة المدينة كانوا يقذفون كثيراً من الصواعق على الجيش فيرمون عليه عدداً قنابل كبيرة من الحديد كالتفاح الكبير، وذلك إلى مسافة بعيدة من المدينة، فيمُرُ بعضها من فوق الجيش، ويسقط بعضها عليه.»

وحضر كونت دربي وكونت سالسبري الإنكليزيان ذلك الحصار، وشاهدوا نتائج استخدام البارود، ونقلوا ذلك الاختراع إلى بلادهم من فورهم، واستخدمه الإنكليز في معركة كريسي بعد ذلك بأربع سنين.

وتجد في المخطوطات العربية بياناً لتركيب ما كان العرب يستخدمونه من البارود والأسلحة النارية، وإليك النص الطريف الذي ورد في مخطوطٍ كتبَ في أواخر القرن الثالث عشر من الميلاد فترجمه رينو:

وصفُ للذخيرة التي تُدكُّ في المدفع مع بيان نسبتها: تؤخذ عشرة دراهم من ملح البارود ودرهماً من الفحم ودرهماً ونصف درهم من الكبريت، وتُسحق حتى تصبح كالغبار، ويُملأ منها ثلث المدفع فقط خوفاً من انفجاره، ويصنع الخرّاط من أجل ذلك مدفعاً من خشبٍ تناسب جسماته فوهته، وتُدكُّ الذخيرة فيه بشدة، ويُضاف إليها إما بندق، وإما نبل، ثم تُشعل، ويكون قياس المدفع مناسباً لثقبه، فإذا كان عميقاً أكثر من اتساع الفوهـة بدا ناقصاً.



شكل ٦-٥: قطعة من نسيج عربي قديم (من تصوير بريس الأثيني).

الورقة

كان الأوربيون في القرون الوسطى يكتبون على الرُّقوق لزمن طويل، وكان غلاء أسعارها مانعاً من توافر المخطوطات فيها، ونشأ عن ندرتها أن تَعُود الرهبان حَكَّ كتب كتاب المؤلفين من اليونان والرومان؛ ليستبدلوا بها مواعظهم الدينية، ولولا العرب لضاع أكثر هذه الكتب الرائعة القديمة التي زُعم أنها حُفظت في أروقة الأديار باعتناء. وكان اكتشاف مادةٍ تقوم مقام الرَّقِّ، وتُشابه بَرْدَيِّ قدماء المصريين يُعدُّ من أعظم العوامل في نشر المعارف.

وُثُبِّت المخطوطة التي عَثَرَ عليها الغزيري في مكتبة الإسکوريال والمكتوبة في سنة ١٠٠٩ م على ورق مصنوع من القطن، والتي هي أقدم من جميع المخطوطات الموجودة في مكتبات أوربة، أن العرب أول من أحلَّ الورق محل الرَّقِّ.



شكل ٧-٥: قطعة من نسيج عربي قديم (من رسم بريس الأقيني).

وليس من الصعب أن يصل الباحث في الوقت الحاضر إلى تاريخ اختراع الورق، فمن الثابت أن الصينيين كانوا يعلمون منذ أقدم الأزمان صناعة الورق من شرائط الحرير، وأن هذه الصناعة أدخلت إلى مدينة سمرقند في أوائل التاريخ الهجري، فلما فتحها العرب وجدوا فيها مصنعاً للورق الحريري، ولكن اختراعاً مهماً كهذا لم يكن لينفع في أوربة، التي لم تعرف الحرير تقريباً، إلا باستبدال مادة أخرى بالحرير، وهذا

ما أتاه العرب حين أقاموا القطن مقامه، ولم يلبث العرب أن بلغوا في إتقان صناعة الورق من القطن شأوا لم يُسبق، كما دل عليه البحث في مخطوطات العرب القديمة. ومن الثابت أيضًا أن العرب اخترعوا من الأسمال صناعة الورق الصعبة الكثيرة التراكيب، ويُستند في هذا الرأي إلى أن العرب استخدموها هذا النوع من الورق في زمن أقدم من الزمن الذي استخدمته فيه الأمم النصرانية بمدة طويلة، فأقدم ورق موجود في أوربة من هذا النوع هو ورق الكتاب الذي أرسله جوانغيل إلى الملك سان لويس قبيل وفاته في سنة ١٢٧٠ م، أي بعد حملته الصليبية المصرية الأولى، مع أن لدينا ورقاً عربياً صُنع من الأسمال قبل هذا التاريخ ب نحو قرن، كالورق المحفوظ بين مخطوطات برشلونة، والمكتوبة عليه معاهدة السَّلْم بين ملك أرغونة الأذفونش الثاني وملك قشتالة الأذفونش الرابع في سنة ١١٨٧ م، والمصنوع في مصنع شاطبة العربي الشهير الذي امتدحه العالم الجغرافي الإدريسي في النصف الأول من القرن الثاني عشر من الميلاد.



شكل ٨-٥: سرج عربي قديم (المتحف الملكي بمدريد، من صورة فوتوغرافية التقاطها لوران).

ونشأ عن كثرة المكتبات العامة والخاصة في الأندلس أيام سلطان العرب، بما لم تعرِفه أوربة في ذلك الزمن أن اضطُرَّ العرب إلى زيادة مصانع الورق، فانتهوا إلى صنعه، بإتقان عظيم، من القِنْبَ والكتان الوافررين في الحقول في ذلك الحين.

استخدام البوصلة في الملاحة

البوصلة من اختراع الصينيين، ولكنه لم يُقْدِم دليل على استخدامهم لها في الملاحة. وكان الصينيون من ضعاف الملائين، ولم يبتعدوا في أسفارهم البحرية عن الشواطئ، فكانت البوصلة قليلة النفع لهم.

وغير ذلك كان شأن العرب الذين هم من أعاظم الملائين، والذين كانت صلاتهم ببلاد الصين الواسعة كثيرةً أيام شَّكَّ الأوربيون في وجودها، فكان من الراجح أن يكونوا أولَ من استخدم البوصلة في الملاحة، ولكن هذا لا يخرج عن حدّ الافتراض الذي لا يجوز الإصرار عليه؛ لعدم قيامه على دليل.

وإنما الذي لا ريب فيه هو أنَّ الأوربيين أخذوا هذا الاختراع المهم عن العرب الذين كانوا وحدهم ذوي صلات بالصين، والذين كانوا وحدهم قادرين على إطلاع الغرب عليه لهذا السبب، ومع ذلك فقد مَرَّ بعض الزمن على الأوربيين قبل إدراك فائدته، فالأوربيون لم يستخدموه قبل القرن الثالث عشر من الميلاد، مع أنَّ الإدريسي الذي تكلم عنه في أواسط القرن الثاني عشر من الميلاد ذكره على أنه كثير الشيوع بين بني قومه.

ثبت مما تقدم أنَّ اكتشافات العرب في الطبيعيات ليست أقل أهمية منها في الرياضيات وعلم الفلك، وأنَّ معارف العرب كانت عاليةً في الفيزياء النظرية، ولا سيما البَصَرِيَّات، وأنَّ العرب اخترعوا من الآلات الميكانيكية ما هو على جانب عظيم من الدقة، وأنَّهم اكتشفوا أهمَّ المركبات الكيماوية كالكحول وماء الفضة (الحامض النترى) وزيت الزاج (الحامض الكبريتى)، وأنَّهم أبدعوا ألمَّ الأعمال وأصول التقاطير، وأنَّهم طبقوا الكيمياء على الصيدلة والصناعة، ولا سيما استخراج المعادن وصنع الفولاذ والدباغة ... إلخ، وأنَّهم اخترعوا البارود والأسلحة النارية، وصنعوا الورق من الأسمال، وطبقوا البوصلة على الملاحة كما هو الراجح، وأدخلوا هذا الاختراع المهم إلى أوربة، وما يأتي يدل على مقدار فضلهم في الطبيعيات.

الفصل السادس

العلوم الطبيعية والطبية

(١) العلوم الطبيعية

لم يُقْمِ التاريخ الطبيعي عند العرب، في البداءة، على غير شروح مؤلفات أرسطو، ولكن العرب لم يلبثوا أن فَصَلُوا درسَه في الطبيعة على درسه في الكتب، وللعرب الفضل فيما وضعوا من الكتب الممتدة الكثيرة في الحيوانات والنباتات والمعادن والمحجرات ... إلخ. ويعُد القزويني المتوفى سنة ١٢٨٣ م والملقب بـ «پليني المشارقة» من أشهر علماء التاريخ الطبيعي بين العرب، وتقوم طريقة القزويني على الوصف على الخصوص، كما صنع بوفون بعده.

ولا تجد في كتب العرب ما تجد في الكتب الحديثة من التعميم والتقييم، ولكنك ترى فيها من النصوص ما تعتقد به أن نفوسهم حدثتهم بعض اكتشافات العلم الحديث المهمة، ومن ذلك أنه تجد في رسالة ابن سينا عن الحجارة فصلاً عن منشأ الجبال لا يبتعد فيه عما يُدرَّس اليوم كما هو ظاهر من العبارة الآتية، قال ابن سينا:

تنشأ الجبال عن سببين: فالجبال إما أن تكون نتيجة ارتفاعٍ في قشرة الأرض بفعل أحد الزلزال الشديدة مثلًا، وإما أن تكون نتيجة عمل الماء بأن يُشَقَّ طريقاً جديداً، ويَحْفِر أودية، ويُحدث جبالاً، وذلك لأنك تجد صخوراً لَيْنَةً، وصخوراً ذات صلابة، فيذهب الماء والريح بالصخور اللينة، ويترك الأخرى سليمةً، وهكذا يحدث أكثر التلال.

وللمعادن أصلٌ كالجبال، ولا بد من انقضاء أزمنة طويلة لحدوث جميع هذه التحولات، ومن المحتمل أن تكون الجبال آيلةً إلى الانخفاض في الوقت الحاضر.

ويقيم ابن سينا الدليل على ما تقدم، ويقول: «إن الذي يدل على أن الماء سببُ أساسِي لذلك هو وجود حيوانات مائية وغيرها على كثير من الصخور، ولا تصدر المادة الترابية والصفراء التي تَسْتُر وجه الجبال عما يَصُدُّ عنه هيكل الجبل، بل عن انحلال بقايا الأعشاب والوَحَل الذي يأتي به الماء، ومن المحتمل أن تأتي من وَحَل البحر القديم الذي كان يُعطِّي جميع الأرض فيما مضى.»

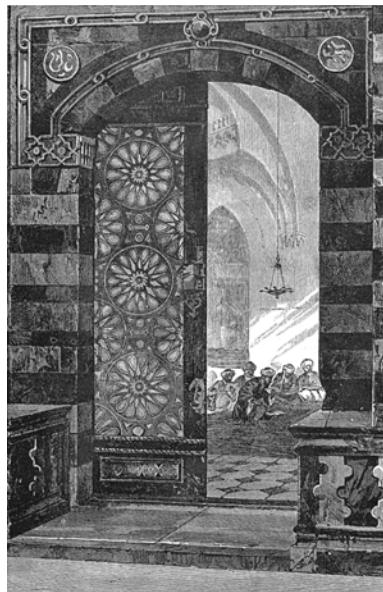
ومن ذلك ترى أن ابن سينا أبصر أن تحولات الكرة الأرضية لم تنشأ عن الطوفانات الكبيرة كما اعتقاد كُوفِّيه، وإنما هي نتيجة تطورات بطئية تَمَّت بتعاقب القرون كما أثبت ذلك علم الأرض الحديث.

وشاعت نظرية تطورات وجه الأرض بتنقل البحار، وتحول شكل الأرض بين العرب شيئاً تدخل به في أذهان الشعب كما نعلم ذلك من الرمز الآتي الذي نقطفه من كتاب العالم الطبيعي القزويني الذي تكلمنا عنه آنفًا، قال القزويني:

قال الخَضِر: مررت بمدينة كثيرة الأهل والعمارة، سألت رجلاً من أهلها: متى بُنيت هذه المدينة؟ فقال: هذه مدينة عظيمة ما عَرَفْنا مدة بنائِها نحن ولا آباءُنا، ثم اجترَّت بها بعد خمسة مائة سنة فلم أَرْ للمدينة أثراً، ورأيت هناك رجلاً يجمع العشب، فسألته: متى خَرِبَت هذه المدينة؟ فقال: لم تزل هذه الأرض كذلك، فقلت: أما كان هنا مدينة؟ فقال: ما رأينا هنا مدينة، ولا سمعنا بها عن آبائنا، ثم مررت بها بعد خمسة مائة عام، فوجدتُ بها بحراً فلقيتُ هناك جمِعاً من الصيادين، فسألتهم: متى صارت هذه الأرض بحراً؟ فقالوا: مثلك يسأل عن هذا! إنها لم تزل كذلك، قلت: أما كانت قبل ذلك ييبساً؟ قالوا: ما رأيناها ولا سمعنا به عن آبائنا، ثم اجترَّت بها بعد خمسة مائة عام وقد يَبْسَط فلقيت بها شخصاً يختلي، فقلت: متى صارت هذه الأرض ييبساً؟ فقال: لم تزل كذلك، فقلت له: أما كان بحراً قبل هذا؟ فقال: ما رأيناها ولا سمعنا به قبل هذا، ثم مررت بها بعد خمسة مائة عام فوجدتها مدينة كثيرة الأهل والعمارة أحسن مما رأيتها أولاً، فسألتُ بعض أهلها: متى بُنيت هذه المدينة؟ فقال: إنها عمارة قديمة ما عَرَفْنا مدة بنائِها نحن ولا آباءُنا.

وبحث علماء الطبيعة من العرب، أيضًا، في النباتات وفي تطبيقاتها على الطب على الخصوص، وأنشأوا حدائق زَرَعوا فيها أندر النباتات وأكثُرها طرافَةً، ومن ذلك أن

اشتملت غرناطة على حديقة رائعة في القرن العاشر من الميلاد، ومن ذلك أن كان لعبد الرحمن الأول حديقة مثُلها بالقرب من قرطبة، وأن أوفد جماعةً من علماء الطبيعة إلى سورية وغيرها من أقطار آسية؛ ليأتوا إليها بأعز النباتات.



شكل ١-٦: مدخل إحدى قاعات جامعة الأزهر بالقاهرة (من رسم إير).

(٢) العلوم الطبية

يُعدُّ الطبُّ والفلك والرياضيات والكيمياء أهمَّ العلوم التي عُني بها العرب، وأتم العرب أعظم اكتشافاتهم في هذه العلوم، وترجمت مؤلفات العرب الطبية في جميع أوربة، ولم يُنْفِ قسمٌ كبيرٌ منها كما أصاب كتبهم الأخرى.

(١-٢) آثار العرب الطبية

عدد المؤلفين من أطباء العرب كثير إلى الغاية، وخصص ابن أبي أصيبيعة مجلداً من كتابه لترجمات أطباء العرب فنكتفي بذكر بعض من اشتهر منهم.

نهض الأغفارقة بالطب أكثر مما نهضوا بمعظم العلوم الأخرى، ووُجد العرب في مؤلفاتهم مباحث مفيدة. وكان هارون (٦٨٥م) أول من قام بترجمة كتب اليونان الطبية، وكانت مجموعته الطبية مقتطفات من كتب أطباء اليونان، ولا سيما جالينوس، ثم ترجمت كتب بقراط وبولس الإجيني ... إلخ. بعد ذلك بزمن قليل.

والرازي، الذي ذكرنا أنه من علماء الكيمياء، هو من أشهر أطباء العرب. وُلد الرازي سنة ٩٣٢م، وتوفي سنة ٩٨٥م، وبعد أن زاول الطب في بغداد خمسين سنة، وألف الرازي في شتى الموضوعات كالفلسفة والتاريخ والكيمياء والطب ... إلخ، ووضع الرازي آثار من ظهر قبله من الأطباء على محك النقد الشديد فوق فراش المرضى، وكان ما كتبه في بعض الحميات ذات البثور كالحصبة والجدري مُعَوِّلاً للأطباء زمناً طويلاً، وكان واسع الاطلاع على علم التشريح، وكان كتابه في أمراض الأطفال أول كتاب بحث في هذا الموضوع، ويرى في كتابه وسائل جديدة للمداواة، كاستخدام الماء البارد في الحميات المستمرة الذي أخذ به علم الطب الحديث، وكاستخدام الكحول والفتائل، وكاستخدام الماجم المعالجة داء السكتة ... إلخ.

وكان الرازي متواضعًا كما كان طبيباً حاذقاً دقيقاً، ومما رُوي أنه أعاد بطريقة جلد الجسم بشدة، ولا سيما الكعب، الحياة إلى شخص سقط فاقد الحس في أحد شوارع قرطبة، واعتقد الناس أنه مات، فلما امتدح الخليفة طريقة في إعادة الحياة إلى الإنسان أجابه أنه رأى تطبيق هذه الطريقة على أعрабي في البابوية ذات مرة، وأن فضله ينحصر في تشخيصه لحالة ذلك المريض التي أعتقد، مستنداً إلى بعض التفصيات، أنها ضربة شمس، وإن لم يرو لنا التاريخ حقيقتها.

وأشهر كتب الرازي كتاب «الحاوي» الذي جمع فيه صناعة الطب، وكتاب «المنصوري» الذي بعث به إلى الأمير منصور المؤلف من عشرة أقسام، وهي:

- (١) التشريح.
- (٢) الأمزجة.
- (٣) الأغذية والأدوية.

- (٤) الصحة.
- (٥) دواء البشرة.
- (٦) نظام السفر.
- (٧) الراحة.
- (٨) السموم.
- (٩) الأمراض على العموم.
- (١٠) الحمى.

وترجمت أكثر كتب الرازى إلى اللغة اللاتينية، وطبعت عدّة مرات، ولا سيما في البندقية سنة ١٥٠٩م، وفي باريس سنة ١٥٢٨م، وسنة ١٧٤٨م، وأعيد طبع ترجمة كتابه في الجُدرى والحصبة سنة ١٧٤٥م، وظلت جامعات الطب في أوربة تعتمد على كتبه زمناً طويلاً، وكانت كتبه، مع كتب ابن سينا، أساساً للتدريس في جامعة لوفكان في القرن السابع عشر من الميلاد، كما ثبت ذلك من برنامج وضع سنة ١٦١٧م، وقد ظهر من هذا البرنامج أن مؤلفات علماء اليونان الطبية لم تتأثر من الحظوة إلا قليلاً، وأنها اقتصرت على بعض جوامع الكلم لبقراط وبعض الخلاصات لجالينوس.

وروى مؤرخو العرب أن الرازى عمى في آخر زمانه بماء نزل على عينيه، فقال حينما قيل له لو قَدَّحتْ: «لا، قد أبصرت من الدنيا حتى مللت منها فلا حاجة لي إلى عينين!»

ونذكر من أطباء العرب على بن العباس المعاصر للرازى تقريباً، والذي عاش في أواخر القرن العاشر من الميلاد، ونذكر من كتبه كتاب «الملكي» المشتمل على الطب النظري والطب العملي، والذي استند فيه إلى مشاهداته في المشافي، لا إلى الكتب، وأظهر فيه عدة أغاليط لبقراط وجالينوس وأريبياسيوس وبولس الإجيني ... إلخ، وابتعد فيه عن مبادئ الطب اليوناني كثيراً في معالجة الأمراض على الخصوص مع اعتماده عليها، وتُرجم إتيان الأنطاكي هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية سنة ١١٢٧م، وطبع هذا الكتاب في مدينة ليون سنة ١٥٢٣م.

وابن سينا هو أشهر جميع أطباء العرب، وبلغ ابن سينا من التأثير في عالم الطب عدة قرون ما لُقبَ معه بأمير الطب.

وُلد ابن سينا سنة ٩٨٠ م، وتُوفي سنة ١٠٣٧ م، وكان في مقتبل عمره جاًبياً فارتقي إلى منصب وزير، وكتب ابن سينا ممتازةً مع وفاته غير مُسِنٌ بسبب إفراطه في العمل وانهماكه في اللذات.

ويشتمل «القانون» الذي هو كتاب ابن سينا المهم في الطب، على علم وظائف الأعضاء، وعلم الصحة، وعلم الأمراض، وعلم المعالجة، والمادة الطبية، ووصف فيه الأمراض بأحسن مما وصفت به في الكتب التي ألفت قبله. ونُقلت كتب ابن سينا إلى أكثر لغات العالم، وظللت مرجعاً عاماً للطب ستة قرون، وبقيت أساساً للمباحث الطبية في جميع جامعات فرنسة وإيطاليا، وكان طبعها يُعاد حتى القرن الثامن عشر، ولم ينقطع تفسيرها في جامعة مونبلييه إلا منذ خمسين سنة. وكان ابن سينا منهمكاً في الشهوات انهماكه في العلوم، وقصير انهماكه في الشهوات عمره كما ذكرنا ذلك آنفًا، ولذلك قيل: إن فلسفته لم تَمْعَنْ عليه بالحكمة، وإن طبَّه لم يمْعَنْ عليه بالصحة.^١

وأبو القاسم القرطبي المتوفى سنة ١١٠٧ م هو أشهر جراحٍ في العرب، وتخيل أبو القاسم كثيراً من آلات الجراحة ورسمها في كتبه، ووصف أبو القاسم عملية سحق الحصاة في المثانة على الخصوص فعدَّ من اختراعات العصر الحاضر على غير حق. ولم يُعرف أبو القاسم في أوربة إلا في القرن الخامس عشر، وذاع صيته فيه، قال العالم الفزيولوجي الكبير هالر: «كانت كتب أبي القاسم المصدر العام الذي استقى منه جميع من ظهر من الجراحين بعد القرن الرابع عشر».

والكتاب الكبير الذي درَسَ أبو القاسم فيه أمور الجراحة ينقسم إلى ثلاثة أبواب: فالباب الأول في مسائل الكي، والباب الثاني في العمليات التي تحتاج إلى المبضع وفي جراحة الأسنان والعيون والفتق والولادة وإخراج الحصاة، والباب الثالث في الكسر والانخلاع، وعلى ما في هذا الكتاب من ضعف في التقسيم نرى ما فيه من المعارف العملية دقِيقاً جدًّا.

وطُبعت الترجمة اللاتينية الأولى لكتاب أبي القاسم في الجراحة سنة ١٤٩٧ م، والطبعة الأخيرة لهذا الكتاب حديثة جدًّا، أي تمت سنة ١٨٦١ م.

وكان لابن رُهْر الأشبيلي، الذي عاش في القرن الثاني عشر من الميلاد، شهرةً عظيمة، وإن كانت دون شهرة أولئك، فقد كان مجرِّباً مصلحًا مُوطئاً لعلم المداواة قائلاً: إن في البدن قوةً كامنة ناظمة للأعضاء كافيةً وحدها لشفاء الأمراض على العموم.



شكل ٢-٦: قطع من الحلي والجحارة الثمينة المنقوشة (متحف العاديات الإسباني).

وجمع ابن زهر دراسة الجراحة والطب والصيدلة مع نقص في التحقيق أحياناً، وتشتمل مباحثته في الجراحة على بيان صحيح في الكسر والانخراج.

وألف ابن رشد، الذي ولد في قرطبة سنة ١١٢٦ م وتوفي سنة ١١٨٨ م، في الطب أيضاً، وإن اشتهر فيلسوفاً شارحاً لكتب أرسطو أكثر من اشتهره طبيباً، وترى له تفاسير لكتب ابن سينا، وكتاباً في المداواة، وكتاباً في السموات والحميات ... إلخ، وطبعت كتب ابن رشد في الطب كثيراً في أوربة.

علم الصحة عند العرب

لم يجهل العرب أهمية حفظ الصحة، وكان العرب يعرفون جيداً أن علم الصحة يعلّمنا طرق الوقاية من الأمراض التي لا يستطيع الطب شفاءها، وكانت مناهجهم الصحية طيبةً منذ القديم، وما أمرَ به القرآن من الوضوء، والامتناع عن شرب الخمر، ثم ما صار عليه أبناء البلاد الحارّة من تفضيل الطعام النباتي على الطعام الحيواني غايةً في الحكمة، وليس فيما نُسب إلى النبيٍّ من الوصايا الصحية ما يُتّقد.

وكان من عادة مؤلفي العرب الغالبة أن يوجّزوا وصاياتهم الصحية في كلمات جامعة يسهل حفظها، ومن ذلك ما قاله طبيب عربيٌّ في القرن التاسع من الميلاد:

ليس شيء أضر بالشيخ من أن تكون له جارية حسنة وطباخ ماهر.

ويظهر أن مشاري العرب التي أنشئت فيما مضى أفضل صحّاً من مشارينا الحديثة؛ فقد كانت واسعة ذات هواء كثير وماء غزير.

ولما عُهد إلى الرازبي في اختيار أفضل حيٍ في بغداد لإقامة مشفىٍ عليه التجأ إلى طريقةٍ لا يُنكرها عليه أصحاب نظرية الميكروب الحديثة، وذلك أنه علق قطعة لحمٍ في كل حيٍ من أحياط العاصمة، وأعلن أن أصلح حيٍ يقام عليه المشفى هو الحي الذي يتآخّر فيه فساد قطعة اللحم المعلقة عن الأحياء الأخرى.

وكانت مشاري العرب، كمشافي أوربة في الوقت الحاضر، ملاجئ للمرضى وأماكن لدراسة الطلاب، وكان الطلاب يتلقّون دروسهم في فُرش المرضى أكثر مما يتلقّونها في الكتب، ولم تقلّدهم جامعات أوربة في القرون الوسطى إلا قليلاً.

وأنشأ العرب مشاري للمصابين ببعض الأمراض كالجانين، وكان عند العرب، كما عندنا جمعياتٌ للإحسان تقوم بمعالجة فقراء المرضى مجاناً في أيام معينة، وكان يُرسَل في حين بعد الحين أطباء وأدوية إلى الأماكن القليلة الأهمية التي لا تستحق أن يقام فيها مشفى.

ولم يجهل العرب تأثير الجو الصحي، ومن ذلك نص ابن رشد في شروحه لكتب ابن سينا على تأثير الإقليم في داء السّلِّ وإيساؤه المصابين به، كما يوصون الآن، بأن يقضوا فصل الشتاء في جزيرة العرب وببلاد النوبة، واليوم نرى المصابين بداء السّلِّ يُرسَلون، في الغالب، إلى بقاع النيل القريبة من بلاد النوبة.

وتنطوي وصايا مدرسة ساليم على نصائح غالٍة في علم الصحة، ولا أحد يجهل أن هذه المدرسة، التي عُدّت أول مدرسة في أوربة زمناً طويلاً، مدينة للعرب بشهرتها، وذلك أن النورمان، لما استولوا على صقلية وعلى جزء من إيطالية في أواسط القرن الحادى عشر من الميلاد، أحاطوا مدرسة الطب التي أنشأها العرب بما أحاطوا به المعاهد الإسلامية من الاعتناء الكبير، وأن قسطنطين الإفريقي، الذي كان من عرب قرطاجة، عُيِّن رئيساً لها، وأنه ترجم أهم كتب العرب الطبية إلى اللغة اللاتينية، فاقتُطِفت من هذه الكتب وصايا مدرسة ساليم التي ظلّت سبباً شهرتها الفائقة زمناً غير قصير.

وكان العرب يعتمدون كثيراً على علم الصحة في معالجة الأمراض، وعلى الوسائل الطبيعية، وليس غير ذلك أمرُ الطبِّ القائم على المداواة الطبيعية التي استقرَّ عندها العلم الحديث كما يظهر. ويلوح لي، على الأرجح، أن الطب العربي في القرن العاشر من الميلاد، لم يؤدِّ إلى وفياتٍ أكثر مما يقع في هذه الأيام.

تقدُّم العرب في الطب

إن أهم تقدُّم للعرب في عالم الطب هو ما كان في الجراحة ووصف الأمراض وأنواع الأدوية والصيَّلة، وظهرت للعرب عدة طرق يعود الطب الحديث إلى بعضها بعد إهمالها قروناً كثيرة كاستعمال الماء البارد في معالجة حُمى التيفوئيد.

والطبُّ مدين للعرب بعاقيرٍ كثيرةٍ كالسليخة والسن المكّي والراوند والتمر الهندي وجوز القيء والقرمز والكافور والكحول ... وما إلى ذلك، وهو مدين لهم بفن الصيَّلة، وبكثير من المستحضرات التي لا تزال تُستعمل كالأشربة واللُّعوق واللزقات والمراهم والدهان والمياه المقطرة ... إلخ، والطب مدين لهم، كذلك، بطرق طريفة في المداواة عاد إليها على أنها اكتشافاتٌ حديثةٌ بعد أن نُسيت زمناً طويلاً، ومنها طريقة إمتصاص النبات بعض الأدوية كما صنع ابن زهر الذي كان يعالج المرضى المصابين بالقبض بإطعامهم عنباً أشربَ من بعض المسهلات.

وعلم الجراحة مدين للعرب، أيضاً، بكثير من مبتكراته الأساسية، وظلت كتبهم فيه مرجعًا للدراسة في كليات الطب إلى وقت قريب جدًا، ومن ذلك أن العرب كانوا يعرِّفون في القرن الحادى عشر من الميلاد معالجةٍ غشاوة العين بخفض العدسة أو إخراجها، وكانوا يعرفون عملية تفتيت الحصاة التي وصفها أبو القاسم بوضوح، وكانوا يعرفون صبَّ الماء البارد لقطع النزف، وكانوا يعرفون الكاوبيات والفتائل إلخ.

وكانوا يعرفون المُرْقِد الذي ظُنِّي أنه من مبتكرات العصر الحاضر، وذلك باستعمال الزُّؤان لتنويم المريض قبل العمليات المؤلمة «حتى يَكُفَّد وعيه وحواسه».

هوماش

(١) لعل المؤلف أراد بذلك قول بعضهم:

«لَمْ يَشْفِ مَا نَابَهْ بِ『الشَّفَاءِ』 وَلَمْ يَنْجُ مَنْ مَوْتَهْ بِ『النَّجَاهِ』»

فأما كتاب «الشفاء» لابن سينا فهو مؤلف من ١٨ جزءاً بعضها في الطب وبعضها الآخر في العلوم الأخرى، وأما كتاب «النجاة» لابن سينا فهو مؤلف من ثلاثة مجلدات في الفلسفة (المترجم).

الفصل السابع

الفنون العربية

الرسمُ والحرُفُ والفنونُ الصناعية

(١) أهمية الآثار الفنية في بعث الأدوار

لم تدلّ يد التحليل العلميّ الدقيق التي قلبت رأينا في الكون رأساً على عقب عالمَ الشعر والفن، ويظهر أن من طبيعة الشعر والفن أن يبقيا بعيدين من مباحث العلماء، فالعلم قد يرى سُنّة دقة لتطور الكواكب وتحول الموجودات وسقوط الأجسام، ولكن هل يسود نَظَمُ القصائد أو إقامة المبني أو صنَّع التماشيل غير الإلهام والهوى؟ حَقًا إن أصحاب الفن يَتَفَلَّتون حين يُحَلِّقُون في سماء الخواطير من قيود السنن، ولا يعرفون لأنفسهم سادة.

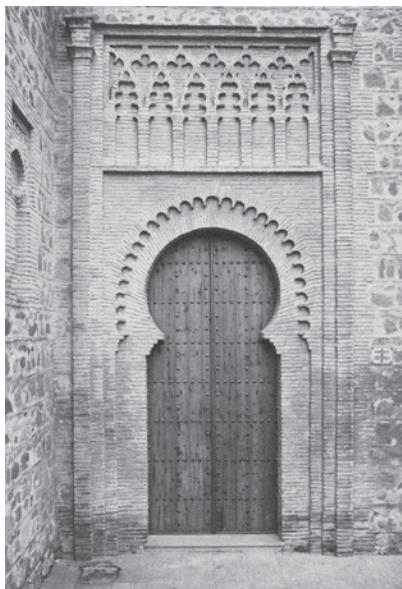
لم يَحُلْ سُحرُ هذه العقيدة دون تلاشيهَا يوم بَسَطَ العلم يده عليها، فقد قرر العلم، من فوره، أن آثار الفن والأداب لم تكن غير مُعَبِّر صادق عن مشاعر أحد الأدوار ومعتقداته واحتياجاته، وأن من نتائج تعبيرها عنه أن كان أحسنُ صفات التاريخ هو ما تركه كُلُّ جيل من الآثار، وأن أصحاب الفن والكتاب لم يتعلموا، بالحقيقة، غير الإعراب، بشكل منظور، عن أذواق الجمهور المحيط بهم وطبعه وعواطفه واحتياجاته، وأنهم، وإن كانوا أحرارًا في الظاهر تقيدوا، بالحقيقة، بقيود كثيرة من المؤثرات والمعتقدات والخيالات والتقاليد التي يتَّألفُ من مجموعها ما نسميه روح العصر، فَرَزَحُوا تحت أَنْقَالِ روح العصر عاجزين عن الخلاص منها على مَدَى واسع.

والأثر الفني عنوانٌ ماديٌّ لخيال العصر الذي يوضع فيه، فالپارِتُون عنوان خيال الأغارقة واحتياجاتهم أيام عظمتهم، والإسْكُوْرِيالُ عنوان مشاعر الإسبان في عصر فليب الثاني، والبيت ذو الطبقات الست عنوان حياة البرجوازي في الوقت الحاضر.

وتدل آثارُ الفن دلالةً صحيحة على أحوالِ الزمن الذي أبَيَّعَتْ فيه إذا وُجد من يَعْرُفُ قراءتها، وإذا كان لكل جيل فنونه وأدابه فلأنَّ لكل جيل احتياجاته الخاصة التي تقضيها الفنون والأداب، فالمَسْجِدُ الذي هو معبدٌ ومدرسةٌ وفندقٌ ومشفى في آنٍ واحدٍ أصدقُ دليل على تمازج الحياة المدنية والدينية عند أتباع النبي، والقصرُ العربي، كالحمراء مثلاً، العاطل خارجه من كل زينة، والمشتمل داخله السريع العطب على كل زخرف يحدُّثنا عن حياة أمَّةٍ ظريفةٍ بارعةٍ سطحيةٍ محبةٍ للحياة المنزليَّة غير مفكرة في سوى الساعة الحاضرة تارِكَةً أمرَ المستقبلَ الله، ولذلك أصاب من قال: أوضَحُ الكتابات ما كُتبَ على الحجر.

ولكن الحجر وحده هو الذي يُنْطَقُ في الآثار الفنية، وكلُّ أثرٍ ماثلٍ يَكُلُّ من يُحسِنُ السَّمَاعَ، والمباني تتنطوي على دلائلٍ عامَّةٍ كما تتنطوي عليها تقسيمات الكِتاب ومختصراتِ فصوله، وتَكُلُّ بالآثار الفنية الفرعية التي يجب على الباحثِ ألا يحتقرها مهما صغَرَ شأنها، ويجبُ عدَّ آنية استنباط الماء والخنجر والأثاث وكل شيء يمتزج فيه الفن بالصناعة من أصدق الوثائق التي يمكن المؤرخين أن يعتمدوا عليها أيضًا، ومتى عرف المؤرخون أن يستخرجوا من هذا كله حوادث التاريخ أُخْرَجَ التاريخ من دائرة سرد الواقع وسلسل الأناسب والدسائس السياسية المزوجة بتقديراتٍ صبيانية لا تقف أمام سلطان النقد، والتي لا يُوصِلُ بتصفح أكاداس الكتب الباحثة فيها إلى معرفة بصيص من حضارة الأزمنة التي تُحدَّثُ عنها.

والآثار الفنية والأدبية الخلقة بالازدرا، للإعانتها ما لدى العروق السائرة نحو الانحطاط من الاحتياجات الوهمية، هي التي تُنسَخُ بنذالِّةٍ عن آثار الماضي لاستخدامها في شؤونِ الزَّمْنِ الحاضر، كأنْ تقام محاطاتُ الخطوط الحديدية أو المدارُسُ الحديثة على الطراز القوطي مثلاً، وكذلك لا معنى للبرج بغير فارِسٍ نبيلٍ يحميه، فإذاً برج إلى البيت الريفيِّ الحديث من قبيل المهازئ التي تَحدُّثُ عندما يلبِسُ برجوازي في الوقت الحاضر خوذةً ودرعًا كما كان يلبِسُ شارلوكن، فإذاً كان صنْعُ تمثالِ القيسِر شارلوكن راكِبًا فرسًا ولابسًا خوذةً ودرعًا مما يزيد في روعة هذا التمثال لدلالته على زمن المعارك والطعن، فإنَّ صنْعَ مثله لأحد رجالِ المال والاقتصاد أو لأحد رجالِ القانون مما يستلزم

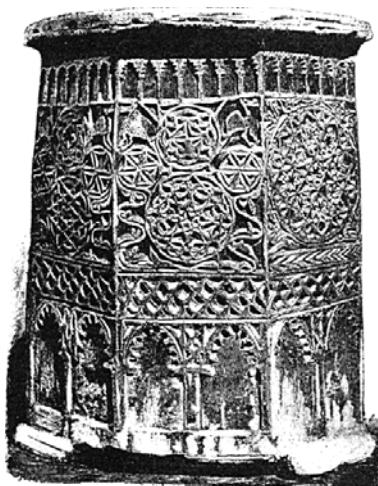


شكل ١-٧: جزئيات معمارية في باب بقصر الحمراء (من صورة فوتوغرافية).

قهقهة الناظرين لا محالة. والحق أن الأثر الفني إذا ما خرج عن زمانه وببيئته أضاع معناه، وأصبح المُتحف أليق مكان له.

وهنا أذكر أن الإبارتون الذي أقيم تحت سماء اليونان الصافية على ذروة الأكروپول المهيمنة على أثينا هو من أجمل ما يتصوره الإنسان من المعابد، فلما أقمنا على طرازه كنيسةً في ميدان المادلين بباريس كان هذا عملاً سَمِّجاً بارداً، ولو لم يبالغ المهندس في تجسيم هذه الكنيسة؛ لكان محل لسخرية الناس عند قياسها بالأبنية العالية التي تحيط بها.

والفنون، إذن، وليدة مشاعر الأمم واحتياجاتها ومعتقداتها كالنظم، وإذا تحولت هذه المشاعر والاحتياجات والمعتقدات وجَب أن تتحول نُظم تلك الأمم وفنونها أيضاً، ولو لم يكن لدينا من دور النهضة الأوربية سوى آثاره الفنية لكي قياسها بآثار القرون الوسطى؛ لإدراك تطور العالم الأوربي تطويراً عميقاً.



شكل ٢-٧: فوهه بئر عربية بقرطبة (من صورة فوتوغرافية).

أجل، قد تَحْمِلْ أَمْمًا أُخْرَى عَلَى انتِحَالِ دِينِهَا وَلِغَتِهَا وَنَظَمِهَا وَفَنِونِهَا، وَلَكِنْ إِنْعَامُ النَّاظِرِ يَدِلُّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْعَنَاصِرِ الْجَدِيدَةِ لَا تَثْبِتُ أَنَّ تَتَحَوَّلَ تَحْوِلًا مُلَائِمًا لِاِحْتِيَاجَاتِ تَلْكَ الْأَمْمَةِ الَّتِي اِنْتَهَلَّتِهَا، وَكَمَا أَنَّ النَّظَمِ الْمُشَقَّةِ مِنَ الْقُرْآنِ فِي بَلَادِ فَارِسِ غَيْرِهَا فِي تَلْكَ الْبَلَادِ الْأُخْرَى، وَلِسَرْعَانِ مَا تَطَوَّرَ فِنِ الْعَمَارَةِ الْعَرَبِيَّةِ الَّذِي أَدْخَلَ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَى بَلَادِ الْهَنْدِ؛ فَاكْتَسَبَ صَفَةُ الْاسْتِقْرَارِ وَالْعَظَمَةِ الَّتِي اِتَّصَفَتْ بِهَا مَبَانِي تَلْكَ الْبَلَادِ الْعَرِيقَةِ فِي الْقَدْمِ.

وَإِذْ كَانَتِ الْفَنُونُ عَنْوَانَ مُشَاعِرِ الْأَمْمَةِ وَتَصْوِيرَاتِهَا كَانَتِ الْعَوَامِلُ الْقَادِرَةُ عَلَى تَحْوِيلِهَا كَثِيرَةً كَثِيرَةً الْعَوَامِلُ الَّتِي تَؤَثِّرُ فِي الْمُجَمَّعَاتِ، وَيُعَدُّ دُرْسُ هَذِهِ الْعَوَامِلِ وَمَا لَهَا مِنَ الْأَثْرِ عَلَى جَانِبِ عَظِيمٍ مِنَ الْأَهْمَيْةِ، وَإِنْ كَنَا لَنْ نَصْنَعَهُ هُنَّا، وَالْمَعَارِفُ الَّتِي لَدِينَا فِي ذَلِكَ عَامَةِ الْآَنِ، وَلَا تَؤَدِّي إِلَى مَا نَتَمَنَاهُ مِنَ الشَّرْحِ الدِّقِيقَةِ، وَإِذَا مَا قُيِّضَ ذَلِكَ لِأَحَدِ الْعُلَمَاءِ فَأَزَالَ النَّقْصَ تَأْلِفَتْ لِغَةُ سَهْلَةٍ مِنْ قِرَاءَةِ آثارِ الْفَنِّ.



شكل ٧-٣: قطعتان من نقود الخليفة عمر.

(٢) مصادر الفنون العربية

يكفي الإنسان أن ينظر إلى إحدى البناءيات التي أقيمت في دور راقٍ من أدوار الحضارة العربية، مسجداً كان ذلك البناء أو قصراً، أو أن ينظر إلى ما صُنع فيه من دَوَّاً أو خُنْجِرًّا أو جلد قرآن؛ ليرى لهذه الآثار طوابع خاصة لا يتطرق الوهم إليه في أصلها، والباحث في مصنوعات العرب، كبيرة كانت أو صغيرة، لا يرى فيها أية صلة ظاهرة بمصنوعات أمة أخرى؛ فالإبداع من مصنوعات العرب تام واضح.

والامر يكون غير ذلك عندما ندرس آثار العرب في بُدُّاء الحضارة العربية بدلاً من درس آثارهم أيام ازدهارها، فلتلك الآثار صلة واضحة بفنون الفرس وال Bizantines الذين ظهروا قبل العرب.

ورأى كثيرون من العلماء ما بين آثار العرب الفنية الأولى وآثار بعض الأمم الشرقية من صلة؛ فاستنتجوا من ذلك أن العرب لم يكونوا أصحاب فن مبتكر، مع أن الواقع أن كل أمة تتتفق بآثار الأمم التي تقدمتها قبل أن تصبح صاحبة لآثار فنية ذاتية، وذلك كما قال پِسْكال بحق: «إنه يجب عد سلسلة الأدمنين الذين ظهروا بتعاقب القرون إنساناً واحداً حياً في كل زمان مُحَصّلاً للمعارف على الدوام»، الواقع أن كل جيل يستفيد في البداعة مما ادخرته الأجيال السابقة، وهو يضيف إليها إذا كان على ذلك من القادرين.

ولم تشذ أمة عن هذه السنة، وليس من الممكن تفسير أمر أمة يُرْعِم عدم اتباعها لها، ومن ذلك أن عُدت الحضارة اليونانية، إلى وقت قريب جداً، وذلك حين كانت مصادرها خافية تماماً، أنها غير مدينة بأي شيء للأمم الأخرى، فأثبتت العلم الرفيع أن أصول الفن اليوناني مقتبسة من الآشوريين والمصريين، ولا ريب في أن قدماء المصريين أنفسهم أخذوا عن أمم أخرى ظَهَرَت قبلهم، ولو لم نُفْقِد أكثر حلقات السلسلة التي



شكل ٧-٤: قطعة حلي عربية (سورية، من صورة فوتوغرافية التقاطها المؤلف).

تربطنا بشعوب القرون الخالية الأولى؛ لاستطعنا أن نعود إلى الوراء بالتدرج فتتمثل العصر الحجري الذي كاد الإنسان يتصل فيه بأنواع الحيوان التي تقدّمه. وقد استفاد العرب والأغارقة والرومان والفينيقيون والعربيون وكل أمة أخرى من مجهودات الماضي، ولو لا ذلك لكان لزاماً أن تبدأ كل أمة بما بدأت به الأمم الأخرى ولسدّ باب التقدم، وكل ما تفعله الأمة في بدء الأمر هو أنها تقتبس من الأمم التي جاءت قبلها، ثم تضيف إلى ما أخذته أموراً أخرى، وقد اقتبس الأغارقة في بدء أمرهم ما عند قدماء المصريين والأشوريين، ثم حولوا المعارف التي لم يبتدعوها بما أضافوا إليها من الإضافات المتتابعة، ثم اقتبس الرومان ما عند اليونان، ولكن الرومان إذ كانوا دون اليونان فنّاً لم يضمّوا إلى ما أخذوا عنهم إلا قليلاً، ولم يصنعوا غير طبع الفن اليوناني بطابع الجلال والعظمة الذي هو عنوان دولتهم الكبرى.

ثم نُقل مقر دولة الرومان إلى بزنطة، وتبدل فنُهم بما أضيف إليه من الزيادات التي اقتنتها مشاعر الأمم الجديدة، أي أن المؤثرات الشرقية ضُمت إلى المؤثرات الإغريقية الرومانية، فنشأ عن تمازجها جميعها الفن الجديد الخاص المسمى بالفن البزنطي.



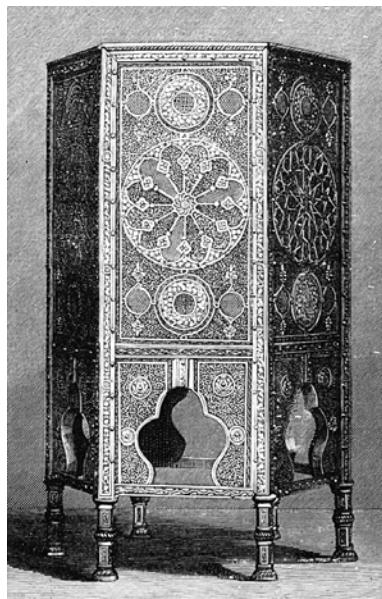
شكل ٥-٧: قطعة حلية فضية (سورية، من صورة فوتوغرافية التققطها المؤلف).

ثم استولى البربريةُ على الغرب، واستفادوا من عناصر الحضارة اللاتينية، ولكنهم حولوا ما استعاروه منها إلى ما يلائم احتياجاتهم ومعتقداتهم، فنشأ عن الطراز اللاتيني المُشَبِّع من المؤثرات البيزنطية والجرمانية ما عُرف في الغرب باسم الطراز الروماني الذي تحول بالتدريج إلى طراز القرون الوسطى القوطي.

ثم جاء القرن الخامس عشر، وتحولت فيه الأفكار والمشاعر بفضل ما تم فيه من الرقي والغنى والثقافة فتحول الفن أيضًا، أي رُجع إلى الطراز الإغريقي اللاتيني القديم مع مراعاة مقتضيات البيئة الجديدة، فظهر طراز عصر النهضة، ثم استمر الفن على التطور فصار جليًّا روزيناً أيام لويس الرابع عشر، ثم بدا عليه التكلف في عهد لويس الخامس عشر، ثم أصبح مبتذلاً مشبعًا من روح المساواة في الوقت الحاضر.

وظهر من الأدوار الكبيرة التي تتبع على فن العمارة منذ القرون القديمة حتى الوقت الحاضر تأثيرُ الماضي، وهل يقال: إن تلك الأدوار عاطلة من فن مبتكر؟ لم يقل

بهذا أحد، ولذا يجب ألا يقال: إن العرب لم يكونوا أصحاب فن مبتكر؛ لأنهم اقتبسوا عناصر فنهم الأولى من الأمم التي ظهرت قبلهم.



شكل ٦-٧: إسكلمة عربية مصنوعة من البرونز المكتف بالفضة (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

وتتجلى قوة الإبداع الفني في الأمم في سرعة تحويل ما ظفرت به من عناصر الفن، وجعله ملائماً لاحتياجاتها وابتكارها بذلك فناً جديداً، فإذا تحقق هذا لدينا علمنا أن العرب لم تسبقهم أمة.

وظهرت قوة العرب الإبداعية منذ أقاموا مبانيهم الأولى كجامع قرطبة الذي أملأوا دقائق صنعته على ما استخدموه في بنائه من متفنني الأجانب.

ومن ذلك أن أعمدة المعابد القديمة التي أخذها العرب في قرطبة كانت قصيرةً غير صالحة؛ ليقوم عليها سقف عاليٌّ كسفف ذلك الجامع، وأنهم وضعوا بعضها فوق

بعض ساترين عدم صلاحها بتلك الحنایا الدالة على مهارتهم الفائقة، فلو كان الترك في محل العرب ما عَنَّ مثلُ هذا الرأي لأدمغتهم الخليظة.



شكل ٧-٧: القسم الأعلى لإسكلمة مصنوعة من البرونز المكفت بالفضة في القرن الثالث عشر (وقد عُرضت هذه الإسكلمة في أول هذا الكتاب، من صورة فوتografية التقاطها المؤلف في القاهرة).

وما على القارئ إلا أن يتصفح صور هذا الكتاب؛ ليعلم قيمة آثار العرب الفنية العظيمة وقوّة الإبداع فيها، وقد استوقفت هذه الآثار أنظار جميع وارثي العرب، ولم يفعل الشرق منذ ظهور العرب على مسرح العالم غير تقليدتها كما قَدَّ الغرب الأفارقة والرومان منذ قرون حتى الزمن الحاضر.

والحق أن وارثي العرب قَلَّدوا العرب، ومن خلال هذا التقليد نستطيع أن نتبين الفرق بين الفن المبتكر والفن غير المبتكر.

كان أمام الأمم التي حلّت محل العرب عناصر بيزنطية وعربية وهندوسية وفارسية ... إلخ، مختلفة باختلاف البلدان، فلم تفعل سوى تتضيدها عاجزةً عن استنباط طراز جديد من مجموعها، فإذا نظرت إلى إحدى بنايات المغول في الهند، مثلاً، أمكنك أن تقول: إن هذا الجزء منها فارسي، وإن ذاك الجزء منها هندي، وإن ذلك الجزء منها عربي، وقلْ مثل هذا عن المباني التي أقامها الترك الذين نَضَدوا فيها عناصر الفنون السابقة من غير أن يمزجوا بعضها ببعض، ولكنك إذا أنعمت النظر في المباني

العربية كالقصور التي أقامها العرب في الأندلس أو المساجد التي أقاموها في القاهرة رأيت العناصر الأولى التي تألفت منها بلغت من التمازج ما يتذرع معه من الانتباه إلى المصادر التي اشتُقَّت منها.

والآن نلمس مزاج الأمة الإبداعي فنقول: مهما تكن عناصر الفن التي تصبح قبضتها تضع طابعها الخاص عليها، فإذا كانت الأمة مبدعةً أمكن أن تتجلّى قوتها الإبداعية في كل شيء حتى في بناء إصطبل أو صنع حذاء، وإذا كانت الأمة عاطلة من مثل هذه القوة لم تُفعِّلْ سوى تنضيد عناصر الفن، كما هو شأن الترك الذين استطاعوا أن يقلدوا كنيسة أياصوفية في القسطنطينية عشر مرات، وأن يُنضّدوا فيما قلدوه بعض الزخارف العربية أو الفارسية، ولكن من غير أن تكون لهم فيه أية مسحة إبداعٍ فنيٍ خاصة.



شكل ٧-٨: باب عربي قديم في القاهرة (من صورة فوتوغرافية التقاطها المؤلف).

(٣) الجمال في فنون العرب

ترانا سائرين بحكم الطبيعة إلى تقدير جمال الفنون العربية بعد أن بحثنا في مصادرها وما فيها من إبداع عظيم، ولكن فقدان المقاييس المضبوطة يجعل هذا التقدير أمراً شخصياً ويقلل من شأنه، ولن يكون نفع الأثر الفني، أي مطابقته لغرضه، مقاييساً صالحًا لتقدير قيمته، فمن الممكن أن تقام عدة بيوت أو عدة بناءات متساوية الفوائد مختلفة القيم الفنية.

ويجب علينا أن نُعرّف الجمال وال بشاعة قبل أن نُعيّن بالضبط درجة الجمال أو البشاعة في الأثر الفني.

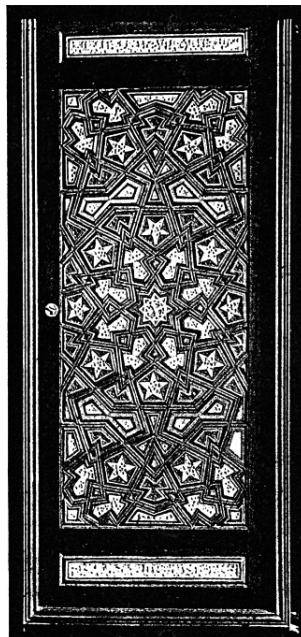
لقد دل البحث على أن قيمة الأمور التي هي من نوع الجمال وال بشاعة تختلف باختلاف العروق والتربية والبيئة والزمن ... وما إلى ذلك من العوامل، والتعريف الوحيد الممكن الذي يلائم جميع العروق في كل زمان هو أن الشيء الجميل هو ما نَسْتَذَدُّه. وهذا التعريف ناقص جدًا لا ريب، ولكن السعي في إكماله يؤدي إلى الاقتراب من دائرة سبب الأسباب المنيعة التي عجز العلم عن دخولها حتى الآن.

وإذا كانا نسْتَذَدُ الشيء فلملاعنته أحوال أمزجتنا التي تختلف باختلاف الأشخاص والعروق، ولكن ما هذه الأحوال؟ ذلك ما لا نقدر على الإجابة عنه.

وليس في الطبيعة جمال مطلق أو شناعة مطلقة، كما أنه ليس فيها صوت أو سكوت أو نور أو ظلام ... أو غير ذلك من الأمور التي هي وليدة ذهتنا، والتي أثبتت الفزيولوجية الحديثة أنها أوهام خالصة، ولم يظهر الجمال وال بشاعة في العالم إلا يوم صار بعض الأشياء والأشكال تأثير حسن أو سيء في حواسنا، وهذه أوجه للذلة والألم وفق آخر تحليل.

وإذا كانت عناصر الأثر الفني منسجمة كان هذا الأثر الفني ذا تأثير حسن في حواسنا، ونقول إذ ذاك: إنه أثر جميل، وإذا كانت تلك العناصر فاقدة الانسجام كانت مؤذية لحواسنا، ونقول إذ ذاك: إنه أثر بشع، وإنما الذي لا نقدر عليه هو بيان السبب في تلذذ العين أو الأذن ببعض التراكيب وتأملها من بعضها الآخر، ونرى اليوم البعيد الذي يكتشف العلم فيه سبب حب شخص لبعض الأطعمة وگرّه شخص آخر لها هو اليوم الذي يكون العلم قد تقدم فيه كثيراً.

والوهم في تقدير قيمة الآثار الفنية نفسها يتطرق إلينا من إجماع فريق كبير من أبناء العرق الواحد على رأي واحد في بعض أوصاف الجمال، ومصدر هذا الإجماع هو



شكل ٧-٩: لوح باب خشبي قديم مرصع بالجاج في القاهرة (مجموعة شيفر، من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

في الحقيقة تمثل مزاج ذلك الفريق، فإذا ما نيط أمر الجمال أو البشاشة بمختلف العروق رأيت اختلافاً في التقدير من فورك؛ فالبزنطي كان يفضل العذارى الضامرات المُمطولات على إلهات قدماء اليونان الضليعات، والبرابرة المiroوتنجيون كانوا يرون صورهم الغليظة أجمل مما أنتجه الحضارة اليونانية اللاتينية، والهمجي من إفريقية الجنوبية يرى المرأة الهوتنتية، التي هي من أشنع نساء العالم في نظرنا، جميلة جمال قينوس دوميديسيس وأيُّولون دُو بلقيدير عند الأوروبي.

ويعود بنا الإيضاح السابق، كما ترى، إلى التعريف الذي بدأنا به، وهو «أن الشيء الجميل هو ما نستلذه»، وإننا نُتّم هذا التعريف بقولنا: «إن الشيء الجميل هو ما

يستلذه أكثر أبناء العرق الواحد في زمن معين»، ولا نستطيع أن نذهب إلى ما هو أبعد من ذلك.

ومهما تجد من نقص في تعريفنا للشيء الجميل ترَه يدلنا، مع ذلك، إلى حقيقة الفن وإلى ما نطالب به رجل الفن، فإذا كان رجل الفن يبحث عن أمثلته في الطبيعة طالبناه بأن يقتبس منها ما نستلذه، وأن يبالغ في إظهار ذلك مبالغة تروقنا. ولا نأمل من رجل الفن لصنعته تمثال امرأة أجمل مما نراه عادة، ففي تجميل الطبيعة، لا في نقلها حرفيًّا، يتجلِّي الفن، فانظر إلى تمثال فينيوس دوميلو تراه آية في الجمال، وسبب الإعجاب به هو أن الطبيعة لم تمنَّ شخصًا واحدًا ضروب الكمال التي تشاهدها مجتمعة فيه.

ثم إذا حدث أن بذل رجل الفن ما عنده من حِدق في صنع تمثال لامرأة عجوز عارية مُتكرِّشة أمكننا الثناء عليه، مع ذلك، لدقته ولما اقتحمه من المصاعب، وإذا كان هذا التمثال محلًّا للإعجاب فلِمَا اصطلاح الناس عليه في زمن معين.

وقد يؤدي اصطلاح الناس في زمن معين، ولا سيما في دور الانحطاط، إلى تبدل في أدواقهم، ومن ذلك تمنِّي أنصار تصوير الطبيعة الحرفي أن تكون آثار الفن مطابقةً للحقائق بدلاً من أن تكون رائعةً مثاليةً، وقد جهل هؤلاء أن الطبيعة مملوقة بالحقائق، لا بما هو جميل، وأن الفن إذا قام، كما يَرَون، على تصوير الطبيعة تصویرًا حرفيًّا فإنه يعود غير موجود، وأن آلة التصوير التي تكفي لالتقاط قبيح الأشياء لا تدعُ في الناس احتياجاً إلى عبقرية رجال الفن المبدعة.

وما على المرء إلا أن ينظر إلى آثار العرب الأدبية والفنية: ليعلم أنهم حاولوا تزيين الطبيعة دائمًا، وذلك لما اتصف به الفن العربي من الخيال والحضارة والبهاء وفيض الزخارف والتَّفَنُّن في أدقِّ الجزئيات.

والأمة العربية قد رغبت، بعد أن اغتنَت (والأمة العربية أمَّة شعراء، وأيُّ شاعر لا يكون متفننًا) في تحقيق خيالاتها فأبدعت تلك القصور الساحرة التي تُخَيِّل إلى الناظر أنها مؤلفةٌ من تخاريم رخامية مرصعة بالذهب والحجارة الكريمة.

ولم يكن لأمة مثل تلك العجائب، ولكن، فهي وليدة جيلٍ فتَّى مضى وخیال خصب ذَوَى، ولا يطمئن أحدٌ في قيام مثلها في الدور الحاضر الماديّ الفاتر الذي دخل البشر فيه.

(٤) الفنون الصناعية العربية

تدلُّ كلمة الفنون الجميلة، عادةً، على فنَّ التصوير وفنَ النحت وفنَ العمارة وفنَ الموسيقى، وتدلُّ كلمة الفنون الصناعية على صنع المنتجات ذاتِ النفع العام التي تُصنَع بطرق آلية، وتكون مُشرَبَةً روحَ الفنِ الجميل.

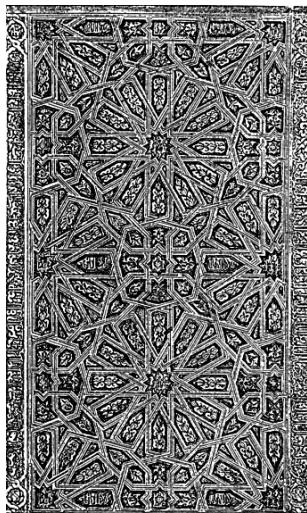
وإنَّ مما يجاذِل في قيمتها، لا ريب، تعبيرَ «الفنون الصناعية»، ولكنني لن أفعل هذا هنا، وإنما أذكر أنَّ الفنون الصناعية تشتمل، عادةً، صناعة الخزف والزجاج الفني والفصيَّفَسَاء والنجارة والصياغة والتكتفيت ... وما إلى ذلك.

وقد تكون لدراسة منتجات الفنون الصناعية، من حيث الحضارة، أهميَّة كالتي تكون لدرس الفنون الجميلة؛ فقد يوجد في أتفه هذه المنتجات ما يدلُّ على أدق شؤون الحياة الشعبية، وما يساعد على تقدير معارف صانعيها الفنية واحتياجات مبدعيها ومقتنيها.

والفنون الصناعية شائعةٌ بين العرب في كل مكان، ورَوْشُم^١ الفرَآن والدلو والسكن، مثلًا، من الأشياء التي يصنعها العرب ببروعةٍ تدلُّ على درجة اتساف أحقر صناعهم بالذوق الفني، والحق أنَّ الفن مستقل عن تطبيقاته، ويمكن أن يتجلَّ في أنفس الأدوات وأثمنها كما يمكن أن يتجلَّ في أحطها.

ومن دواعي الأسف أن يكون درُسُ فنون العرب الصناعية الذي خصصنا له هذا الفصل ناقصاً جدًّا لقلة ما عندنا من الوثائق، ولم يتصدَّ أحدٌ بعدُ لدرس تاريخ مصدر هذه الفنون وتطوراتها المتعاقبة مع ما في هذا من الفوائد الكثيرة.

ومبنيَّ العرب أهمُّ آثار العرب الفنية، وسندرس تاريخ طرازها في الفصل الآتي درسًا مجملًا؛ لكثرَة عددها، ولأنَّ البحث فيها كان الغرض المهمَّ من رحلاتنا، ولأنَّ جمَع المواد التي تؤدي إلى وصف ما بَرَزَ فيه العرب من الفنون الآخر يتطلب نفقاتاً عظيمة، ولذا نقتصر في هذا الفصل على بيان هذه الفنون الأخرى ببيانًا عامًّا عاجزين عن ذكر سلسلة تطورات كل واحِدة منها بحسب الأزمنة، وذلك خلافًا لما نصنِّعه في فنَ البناء.



شكل ١٠-٧: لوح باب خشبي لردهة السفراء في القصر بأشبيلية (متحف العاديات الإسباني).

(٤-١) التصوير

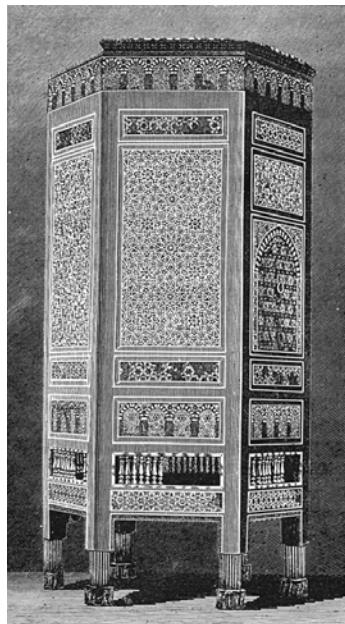
من الأقوال الشائعة أنه حُرِّمَ على المسلمين تصویرُ الرَّبِّ وال موجودات الحية، ويعزو القرآن، أو تفاسير القرآن على الأقل، هذا المنع إلى النبي.

والواقع أن المسلمين لم يكتثروا بذلك إلا في زمِنٍ متأخر، وأنهم تجاهلوه زمناً طويلاً كما تجاهلوا منع ذلك الكتاب المقدس للعبة الشطرنج والشرب بآنية من ذهبٍ أو فضة. وكان الخلفاء أول من خالف حظر تصویر ذوات الحياة، وظهر من صور النقود التي نشرناها في هذا الكتاب أنهم لم يتزدّدوا في رسم صورهم على نقودهم.

والصور التي على النقود أو الصور غير القليل التي على الآنية العربية من الأدلة المفيدة على استعداد العرب للرسم، على معرفتهم للتصوير، ويمكن الاستدلال على معرفة العرب للتصوير بما ذكره مؤرخون الذين أثبأوا بوجود عدة مدارس عربية كثيرة للتصوير فيما مضى، ومن هؤلاء المؤرخ المقرiziُّ الذي ترجم مصوّرين من المسلمين، وذكر أنه وُجد في قصر الخليفة المستنصر، حين نُهُب في سنة ٤٦٠هـ.

ألف قطعة من المنسوجات مصورة عليها حاشية خلفاء العرب مع مقاتلين ورجال مشهورين، وكانت البساط المصنوعة من نسائج الذهب والحرير والخمل مستورّة بتصاوير ممثّلة لرجال من كل نوع.

ويidel ما ذكره المقريزي على جذب مصوري عرب القاهرة في القرن العاشر من الميلاد، وقد روى وجود صورتين لمغنىيْن تبدو إحداهما، وهي لابسة ثوبًا أبيض على أساس أسود، كأنها داخلة في الجدار المصورة عليه، وتبدو الأخرى، وهي لابسة ثوبًا أحمر على أساس أصفر، كأنها خارجة منه نحو الناظر.

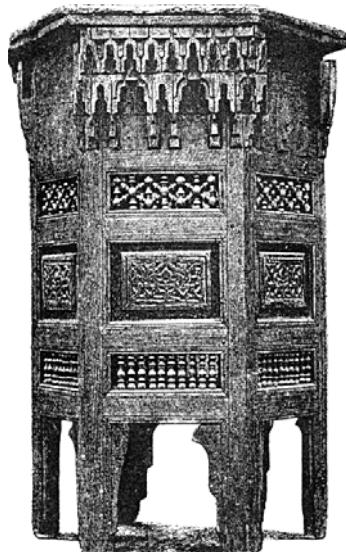


شكل ١١-٧: إسكلمة خشبية مرصعة في القاهرة (من صورة فوتوغرافية).

ويظهر أن مصوري ذلك الزمن كانوا من المتقنيين لضرورب فنّ المناظر، فاستطاعوا تصوير السُّلَم الذي روى المقريزى وجوهه في أحد قصور القاهرة على شكل يخيل إلى الناظر معه أنه حقيقي.

ويحتوي كثير من المخطوطات العربية على صور، ولا سيما المخطوطات الخاصة بالتاريخ الطبيعي، وترويض الخيل ... إلخ، ولا يزال يوجد في المكتبات نسخ قديمة من مقامات الحريري زينتها العرب بالصور، وذكر الغزيري أن أحد المخطوطات في مكتبة الإسکوريال يشتمل على أربعين صورةً لملوك العرب والفرس والملِكَات والقادة وأعاظم الرجال ... إلخ، وأن هذا المخطوط يرجع إلى القرن الثاني عشر.

ويعلم جميع زائري الحمراء أن سقف قاعة الحكم فيها يشتمل على صور لختلف الموضوعات، كمجلس أمراء من العرب، وكمطاردة فارس مغربي لفارس نصري مطاردة المنتصر ... إلخ، وإن وُجد خلافٌ في مصدرها، ولم يتعدد مسيو لاقوا في عَزْوَن منها، على الأقل، إلى العرب، وهي لا تدل على نبوغ فني في مصوريها كما رأيتُ.



شكل ١٢-٧: إسکولة خشبية عربية في القاهرة (من صورة فوتografية).

ومع ذلك فإن تلك الوثائق والأثار لا تكفي للحكم في أمر مصوري العرب، وإنما يمكن تقدير نبوغ رساميهم بصور الحيوان والإنسان التي اشتملت عليهما مخطوطاتهم أو مصنوعاتهم المعدنية.

وتطفو الكتابات والنقوش العربية — في الغالب — فوق صور ذوات الحياة التي رسمها العرب، وقد يُحْدِثُ، أن تؤلَّف الحروف العربية من مزيج من صُورِ الحيوانات والآدميين على شكل عجيب، ومن ذلك ما في الحافة الخارجية، التي نشرنا صورة بعضها، للكوب «المصنوع في القرن الثالث عشر، والمحفوظ في مكتبة باريس الوطنية» من الإفريز الذي تألفت أسطورةً من تشابك صور أشخاصه في حروف عربية.

وأشهر الأوانى العربية المشتملة على صور الآدميين هو الإناء الموجود الآن في متحف اللوفر، المعروض ببناء سان لويس للعماد، والذي استُخدم زمناً طويلاً لتعميد الصبيان في فرنسة، بعد أن فُرِضَ أن سان لويس أتى به أيام الحروب الصليبية، والذي أثبت مسييو دُولونغپيريه أنه من مصنوعات القرن الثالث عشر من الميلاد، والذي ظهر أن أزهار الزنبق أضيفت إليه بين ذلك القرن، والقرن الرابع عشر من الميلاد، وهذا مع ملاحظتي أن زهر الزنبق، أو ربما آخر كثير الشبه به على الأقل، يوجد بكثرة بين زخارف المباني العربية في مصر.

ولكن المسلمين صاروا بعد زمِنٍ مختلِّ باختلاف البلدان لا يرسمون صور ذوات الحياة في مصنوعاتهم أبداً، مُقيدين في ذلك بأقوال الفقهاء الذين تغلَّبت عليهم حرافية القرآن.

ولم تباِل الأمم التي اعتنقت الإسلام، كالفرس والمغول، بمحظورات القرآن التي لم تلائمهم، فترى في بلاد الفرس — على الخصوص — صُوراً كثيرة لذوات الحياة، وإن كانت صُور الآدميين منها متoscطة على العموم، وصُور الأزهار والحيوانات منها على شيء من الجمال مع قليل خيال.

(٤) صنع التماشيل

صنع التماشيل كالتصوير من الأمور النادرة عند العرب، ولذا يجب أن نكتفي بما جاء في كتب التاريخ من الإشارات أو بالنمذج القليلة الناقصة جدًا.

وقد أشرنا في فصل سابق إلى ذلك الخليفة المصري الذي كان قصره مملوءاً بتماثيل نسائه، ومثل ذلك ما ذكرته تواريخ عرب الأندلس من التماشيل التي كانت في قصر عبد الرحمن الشهير، ولا سيما تمثال حَظِيَّته.

ولم يبق من تماثيل العرب غيرُ ما هو تافِهٌ، كتماثيل الحيوانات الوهمية القائمة في قاعة الأسود من قصر الحمراء، وتمثال العُقاب البرونزي الكائن في كانپو سانتو في

بيزه، وتمثال الأسد البرونزي الذي صُنعت ليجري ماء إحدى العيون من قِمِّه فتراه الآن في مجموعة فورتوني.

صُنِعَت تلك التماشيل، التي هي من منتجات الفنون الصناعية، لغرض معين، لا للفن نفسه، ولا نستطيع أن نُقدِّر قدرةَ العرب على صنع التماشيل بتلك الوثائق القليلة جدًا.



شكل ١٣-٧: روشم فران عربي مصنوع من الخشب.

(٣-٤) صناعة المعادن والجارة الثمينة

الصياغة وصناعةُ الحلي والترصيع والتكميف: تقدم العرب كثيرًا في الصناعة المعدنية، وبلغ إتقانُهم لبعضها مبلغًا يصعب الوصول إلى مثله في زماننا، وكانت آنيتهم وأسلحتهم مُكفَّفةً بالفضة ومموهةً باليمن المفرَّض ومرصَّعةً بالجارة الثمينة، وكان من تقدم

العرب استطاعتهم أن يصنعوا من مادة قاسية كالبِلُور قطعاً كبيرة مغطاة بالصور والحكَم مما يُعْسِر صنعه، ويغلو ثمنه في الزمن الحاضر، ومن ذلك الإبريق البلوري الذي صُنِع في القرن العاشر من الميلاد فتجده في متحف اللوفر، وتجد صورة له في هذا الكتاب مع صور نماذج كثيرة لصناعات العرب من المعدن والحجارة الثمينة.

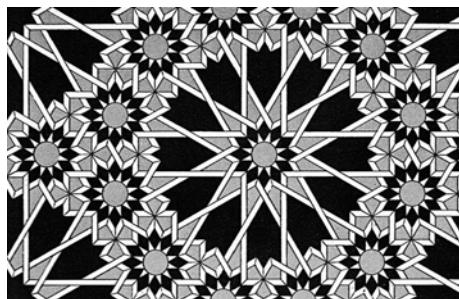
وتجلت روح الإبداع العربية – على الخصوص – في ترصيع المعادن الصالحة لصنع الأسلحة والآنية والأباريق وكِفاف الموازين وأدوات المنازل ... وما إليها، وأطلق اسم الدمشقي على منهاج العرب مشتقاً من اسم المدينة «دمشق» التي زاولته على الخصوص، وكانت دمشق والمُوصل أهمَّ مراكز هذه الصناعة، ولا تزال هذه الصناعة رائجةً في دمشق، ولكن على شكل منحط، ويعود انحطاطها، لا ريب إلى زمن تيمورلنك الذي استولى على دمشق في سنة ١٣٩٩م، فساق جميع صانعي أسلحتها إلى سمرقند وخراسان.

ولا ترجع المصنوعات المعdenية المكَفَّة العربية الموجودة الآن إلى أقدم من أوائل القرن العاشر من الميلاد، وأكثُرها صُنِع في القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر من الميلاد، والأسلحة المصرية التي نشرنا صُورها في جزء آخر من هذا الكتاب هي لطوماني (١٥١١م)، وهي مصنوعة على الطراز الفارسي العربي.

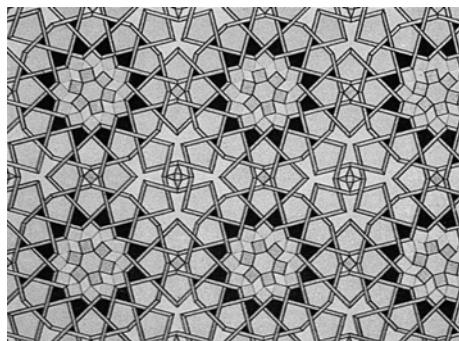
إنني أقتبس وصف مسيو لاقوا لطرق الشرق في التكفيت، وذلك مع التنبيه إلى أن ما ذكره عن صناعة التكفيت الحاضرة في القاهرة لم يكن غير ما في دمشق، فعمال القاهرة الذين يُحسِنون التكفيت في زماننا قليلون جدًا، وأكثر ما في أسواق القاهرة من المصنوعات النحاسية هو من دمشق. قال مسيو لاقوا:

وتُرى طُرُقُ كثيرة لصناعة التكفيت عند الشرقيين، ويتمُ التكفيت بإدخال خيط من الذهب أو الفضة إلى فَرَضٍ مُحدَّثٍ في المعدن بالمنقاش واسعة القعر ضيقة الوجه، ويكون هذا الخيط بارزاً أو مُسوّى على حسب رأي الصانع، فتارةً تُركَب زهرة دقيقة من الذهب أو الفضة على أساس من الفولاذ أو النحاس بين خطَّين متوازيين، وتطرق الأطراف طرقاً خفيفاً، فينجم عن هذا ما يُشبه الإطار، وهذا ما يُفعل في دمشق غالباً، وتارة يمر الصانع بمهارة عجيبة منقاشه المهماري الشكل بسرعة على المعدن الذي يُرغَب في زخرفته، ويرُكَب خيط الفضة بالدق على هذه الأجزاء المعدة؛ ليعلق بها فتمسكة، وهذا

الطراز في التكفيت هو ما لا يزال يَفْعُلُ العمال في القاهرة، وهو ما يقوم به صناع الفرس على الخصوص.



شكل ١٤-٧: رصفة رخام في بيت قديم بالقاهرة.



شكل ١٥-٧: فسيفساء من رخام وصدف في الجامع الكبير بدمشق.

والطريقة الأخيرة هي التي يستعملها صناع دمشق في الوقت الحاضر أيضًا، وهي على ما فيها من السرعة لا تؤدي إلى صنع ما هو متين، أي لا تُنْظَف الأزهار المكتفة بها

من غير أن تخلع، مع أن المعدين المرصّع على حسب الطرق السابقة يؤلّف جزءاً من المعدين المرصّع، ولا يجوز قياس مصنوعات دمشق المعدنية الحاضرة بمصنوعات عصر الخلفاء التي نذكر منها – على سبيل المثال – الإسكملة الرائعة المصنوعة من البرونز، والتي قدّمت لوحة لها في هذا السفر.



شكل ١٦-٧: صندوق صغير مصنوع في القرن الحادى عشر من الميلاد (طراز فارسي عربى، متحف العاديات الإسباني).

(٤-٤) النقود والأوسمة

روى المؤرخ المقرizi في رسالته عن النقود أن الخليفة الأموي عبد الملك هو أول من ضرب النقود الإسلامية، وكان المسلمين حتى السنة السادسة والستين من الهجرة (٦٩٥م) يستخدمون نقود الروم الذهبية والفضية أو يقلدونها مع إضافة بعض الكلمات العربية إليها كاسم الخليفة، وكالكلمات: الحمد لله، ولا إله إلا الله ... إلخ. وللنقوش العربية ثلاثة أنواع: الدينار: وهو من الذهب، تترجم قيمته بين اثنين عشر فرنكاً وخمسة عشر فرنكاً، والدرهم: وهو من الفضة، تعدل قيمته ستين سنتيمًا، والدانق: وهو من النحاس.

ونشرنا في هذا الكتاب، صوراً غير قليلة لنقود العرب في مختلف الأقطار، ولا سيما مصر والأندلس، وهي جميلة على العموم، والحرروف فيها واضحة جدًا.

(٥-٤) المصنوعات الخشبية

وصل العرب في إتقان مصنوعاتهم الخشبية وترصيدها بالصدف والجاج إلى درجة تقضي بالعجب حقاً، واليوم لا تُقلد، إلا بثمن عالٍ، تلك الأبواب العجيبة التي تُرى في بعض المساجد القديمة، وتلك المنابر ذات التقاطيع والتراصيع، وتلك السقوف ذات النقوش المشابكة، وتلك المشربيات المخرمة.

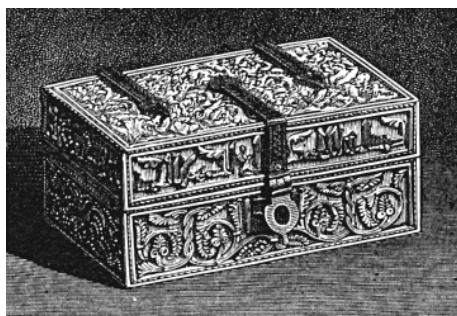


شكل ١٧-٧: صندوق عربي قديم مصنوع من الخشب المرصع في القاهرة (من صورة فوتوغرافية).

وبلغت تلك الصناعة درجة الكمال قبل القرن الثاني عشر من الميلاد، كما تدل عليه القطع الأثرية التي انتهت إلينا من ذلك العصر، فنذكر منها منبر المسجد الأقصى القدسي الرائع.

وكان العرب يُتقنون صناعة حفر العاج إتقاناً نادراً أيضاً، كما تشهد بذلك القطع الكثيرة النفيسة التي وصلت إلينا كالصندوق العاجي الصغير الذي صُنعت لأحد ملوك أشبيلية في القرن الحادي عشر من الميلاد فيُعرف بصندوق سان إيزيدور الليوني، وكصندوق كتدرائية بايو العاجي الذي صُنعت في القرن الثاني عشر من الميلاد، فأتى به من مصر أيام الحروب الصليبية كما نُرِجح فيبدو مزخرفاً بالفضة المموهة بالذهب، وبضروب الزينة المرصعة والمخرمة على أشكال الطيور ولا سيما الطواويس.

وهنا ذكر على العموم، وذلك في معرض البحث في صناعات العرب الخشبية والعاجية والمعدنية، ما يدل على مهارة الصناع الشرقيين العجيبة، وذلك أنهم يصنعون أدق المصنوعات بأغلفة الآلات وألقّها عدداً، أجل، لا يفاس ما يُصنع اليوم في القاهرة ودمشق من الحلي والقطع المرصعة بما كان يصنع منها في عصر الخلفاء، ولكنني لا أعتقد وجود صناع أوربيين قادرين في الوقت الحاضر على صنع مقعدٍ مرصع، أو نارجيلة مكفتة، أو سوار بمثيل تلك الآلات الابتدائية التي رأيتها في الشرق.



شكل ١٨-٧: صندوق صغير من العاج المنقوش في القرن الحادي عشر من الميلاد (متحف كنسنفتون، من صورة فوتوغرافية التقطها مسيو شارل رلغا).

(٦-٤) الفسيفساء

عَرف الرومان استعمال الفسيفساء، واقتبسها البيزنطيون منهم مع إكمال صنعها بإدخال أساس ذهبي إلى الترسيعات الكثيرة الألوان. ولم يُتَح لي أن أحقر إتيان العرب بتعديلات مهمة في صناعة الفسيفساء التي لم يلبثوا أن فضّلوا عليها صناعة المينا في زخارفهن السهلة الإنجاز. وللفسيفساء نوعان عند العرب: فالنوع الأول: هو ما كانوا يكسّون به وجه الأرض وأسفل الجدر من قطع المرمر أو الخزف المطلي الملون مختلف المقاييس، والنوع الثاني: هو ما كانوا يكسّون به الجدر، ولا سيما جدر المحاريب، فنرى أن صنعته بيزنطي تماماً.

وقد رأيت تماثلاً بين قطع الفسيفساء التي هيئ لي أن أدرسها في بلاد اليونان وتركية وسورية ومصر ونماذجها التي أتيت بها من الكنائس البيزنطية في أثينا ومن أياصوفية في القسطنطينية وجامع عمر في القدس ومسجد القاهرة، أي تتألف قطع الحجارة الملونة، وقطع الزجاج التي يُسفر ضمُّ بعضها إلى بعض عن صور من مكعبات صغيرة يبلغ ضلُّع الواحد منها نحو سنتيمتر، ويشتمل كل صباغ فيها على ثلاثة ألوان، على العموم، صالحٌ لإحداث تمازج نور وانعكاسه، والمكعبات الحجرية ملونة في جملتها، والمكعبات الزجاجية المعدة لإحداث أساس ذهبي مذهبٌ في وجهها فقط، وتقوم الطريقة الدقيقة التي اتبعت لبقاء تلك الطبقة الذهبية ودوامها لامعة على طلاء كل مكعب مذهب بطبقة زجاجية رقيقة رقةً الطبقات الزجاجية التي تكون فوق المستحضرات المكروسكوبية في المختبرات، وأرى أن بقاء هذه الطبقة الذهبية مدةً ألف سنة على حالها الأول حدث بفضل ذلك الطلاء الواقي.

(٧-٤) صناعة الزجاج

زاولت جميع الأمم الشرقية، ولا سيما الفرس والمصريون، صناعة الزجاج منذ أيام الفنانيين الذين عُزِي إلَيْهم أمر اختراعه، واكتُشفت في نينوى أدواتٌ زجاجية صُنعت قبل ظهور المسيح بمدة تتراوح بين سبعة قرون وثمانية قرون، ثم سبق صانعوا الزجاج في الإسكندرية إلى رومة أيام الرومان، وصنعوا فيها أ��واباً زجاجية جميلة مَطليَّةٌ بالميناء، ولما ظَهَرَ العَرَبُ لم يَبْقَ لَهُمْ، إِذْنٌ، إِلَّا إِتقانَ تَكَالُوكَ الصناعة التي كانت موجودةً قَبْلَهُمْ.

ولم يلبث العَرَبُ أن تقدموا في صناعة الزجاج تقدماً عظيماً، كما يشهد بذلك ما انتهى إلينا من أوانيهم المذهبة والمطلية بالميناء، ويمكننا أن نتمثل ذلك بسهولةٍ من إنعام النظر في الصور المبعثرة في هذا الكتاب، ولا سيما لوحة مصابيح بعض المساجد. ويرى كثيُّرُ المؤلفين أن مورانو والبندقية مدستان لصانعي الزجاج من العرب بطرقهما التي اكتسبتا بها شهرةً كبيرةً في صناعة الزجاج، والعرب من تَعلُّم من اتصال البندقية بهم اتصالاً تجاريًّا مستمراً.



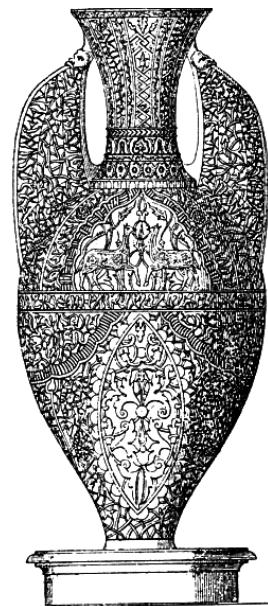
شكل ١٩-٧: صندوق صغير مصنوع في قرطبة من العاج المنقوش، وذلك في القرن العاشر من الميلاد (متحف كنسنغتن) (من صورة فوتوغرافية التقاطها شارل رالا).

(٨-٤) الصناعة الخزفية

استعمال الخزف المطلي بالميناء الملون قديم جدًا، وقد وُجدت قطع منه في بقايا القصور الفارسية القديمة، ولم يلبث العرب أن استخدموه بدلاً من الفسيفساء؛ لما يتطلبه صنع الفسيفساء من انتقاء زمنٍ أطول من الزمن الذي يتطلبه ذلك، ومن مصاعب أشد مما يستلزم ذلك، وتتجذر في أقدم المساجد، كمسجد قرطبة ومسجد القیروان ... إلخ، نماذج شتى للخزف المطلي بالميناء.

وما انفق للعرب في فن العمارة بسرعة اتفق لهم مثله في صناعة الخزف، وقد استطاع العرب، بعد أن اقتبسوا من الأمم الأخرى طرق صنعة الخزف الفنية، أن يبتدعوا منه، في بلاد الأندلس على الخصوص، قطعاً مبتكرةً رائعةً متقنةً لم يسبقهم إليها أحد كمالاً.

وترجع صناعة المسلمين للخزف المطلي بالميناء في بلاد الأندلس إلى القرن العاشر من الميلاد، وقد كان لهم فيها مصانع شهيرة تبيع مصنوعاتها في جميع أنحاء العالم، وقد شاهدنا في قصر الحمراء لواحاً رائعاً مستوراً بالخزف المطلي بالميناء ذي الانعكاس المعدني، ومصنوعة في القرن الثالث عشر من الميلاد ومتشاربة هي والمصنوعات الإيطالية، التي عُرفت مؤخرًا بالمصنوعات الماجوليكيَّة، تشابهاً يُستوقف النظر، وإن في اشتقاء



شكل ٢٠-٧: إناء عربي مأخوذ من قصر الحمراء (كما جاء في صورة قديمة).

كلمة «ماجوليكا»، لا ريب، من «ميورقة» التي كان فيها مصنوع عربي مهم لصنع الخزف المطلي بالميناء دليلاً على أن طرق الإيطاليين في صنعه مقتبسةً من العرب. وأشهر نموذج لصناعة الخزف المطلي بالميناء الإسلامية هو الإناء الذي وُجد في قصر الحمراء، والذي يبلغ ارتفاعه متراً وخمسة وثلاثين سنتيمتراً، وهو مكسوًّ برسوم زرقاء ذهبية (على أساس أبيض ضارب إلى صفرة) وبنقوش عربية وكتاباتٍ وصورٍ حيواناتٍ خيالية تذكرنا باللواعل، وهو حائز، شكلاً لطابع الإبداع الخاص بجميع آثار العرب.

وكانت أهم المراكز العربية لصناعة الخزف المطلي بالميناء في بلنسية ومالقة. قال الرحالة العربي ابن بطوطة مشيراً إلى مالقة سنة ١٣٥٠م: «وبمالقة يُصنع الفخار المذهب العجيب، ويُجلب منها إلى أقصى البلاد».

ومن أشهر معامل صنع الخزف: معمل جزيرة ميورقة الذي يظهر أنه قديم جدًا؛ لافتتاح النصارى لها في سنة ١٢٣٠ م.

ولما تم إجلاء العرب عن إسبانيا هَبَطَت فيها صناعة القاشاني وجميع الصناعات إلى الحضيض بسرعة. قال مسيو دُو سُوميرار: «إن درجة الإنتاج في إسبانيا صفر، واليوم لا تَصْنَع معاملها سوى الأواني المنزلية الغليظة».

واكتُشفَ قطع من القاشاني في صقلية، وافتُرض بسببها وجود مصانع إسلامية للقاشاني فيها سابقاً، غير أن نماذج تلك القطع التي وُجِدت إذ كانت أقرب إلى الفن الفارسي منها إلى الفن العربي صار من المحتمل أن تكون قد أدخلت إلى صقلية بطريق التجارة فيما مضى، ويشتمل متحف كلوني على مجموعة نفيسة من القاشاني الذي يُفترض أنه صِقلِّي عَرَبِيٌّ.

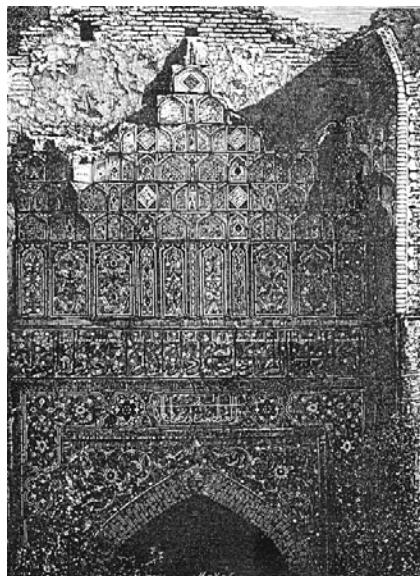
وتشتهر المتاحف الأوروبية على كثير من الأواني الخزفية التي صُنعت تقليداً لأواني عرب الأندلس، ويُسْهَل تبيين هذا التقليد بما فيها من قطع الكتابات العربية المزوجة بالزخارف، وقد حَرَفَ صانعو الخزف من الأجانب هذه الكتابات، التي اتخذوها أساساً للزينة، حين اقتباسها.

ولا يزال يُرى في بلاد العرب وفي أهم مدن الشرق مصنوعاتٌ من الخزف الصيني المزيَّن بالكتابات العربية المذهبة على أساس من اللون الأزرق أو الأبيض، ولا ريب في أن عملاً من مسلمي الصين هم الذين يصنعونها، ووجب ألا يكون عددهم قليلاً بين الملايين العشرين المسلمين الذين تشمل عليهم مملكة ابن السماء.

(٩-٤) المنسوجات والبُسْطَ والزَّرَابِيُّ

لم يصل إلينا شيء من المنسوجات والبسط العربية التي صُنعت أيام ازدهار حضارة العرب، وأقدم ما هو موجود منها في الوقت الحاضر لا يرجع، مع ندرته، إلى أبعد من القرن الثاني عشر من الميلاد.

ونعلم من تواريخ العرب أنه كان يوجد على بُسطِهم وقطفهم ومنسوجاتهم الحريرية، التي صُنعت في معامل قلمون وبهنسا ودمشق وغيرها من المدن، صوراً للأدَمِين والحيوانات، وقد نشرنا في هذا الكتاب صوراً لنسائج عربية قديمة، أو صوراً لنسائج عربية صُنِّعت على النماذج القديمة، وعاد الشرق لا يصنع منسوجات ذات صور للإنسان منذ زمن طويل.



شكل ٢١-٧: صيني مطلي بالميناء في الباب الرئيسي لضريح تيمورلنك (من مجموعة الجنرال كوفمن الفوتوغرافية).

بقي علينا أن ندرس فن عمارة العرب، وبهذا نحتم بحثنا في الآثار العجيبة التي أبدعها أتباع النبي، والتي هي عربيةً أحياناً، فتّانةً غالباً، مبتكرةً دائماً.

هوامش

(١) الروشم: لوح منقوش يُختم به.

الفصل الثامن

فن عمارة العرب

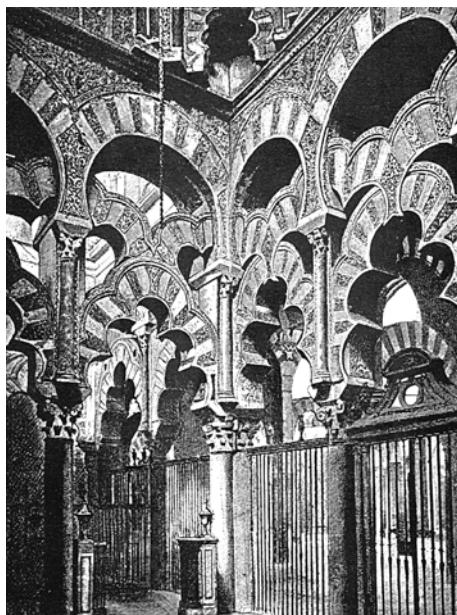
(١) معرفتنا الحاضرة لفن عمارة العرب

لم يعتن علم الآثار الحديث بمباني العرب إلا قليلاً، وأكثر هذه المباني في أماكن بعيدة، ولا يسهل درسها دائماً، وإذا عدّوت ثلاثة كتب أو أربعة كتب مهمة خاصة بالبحث في قصر الحمراء ومساجد القاهرة والقدس وجئت الكتب غافلة عنها تقريرياً، قال باتيسِيه الذي هو مؤلف لتاريخ من أحسن ما لدينا من تواريخ فن البناء، وذلك في الطبعة الأخيرة التي طبع بها كتابه «تاريخ فن البناء» في سنة ١٨٨٠م: «إن مباحث تاريخ العمارة الإسلامية تحتاج إلى توسيع كبير»، ثم أسفَ هذا المؤلف على نقص معالجته لهذا الموضوع، والحق أن هذا المؤلف اقترف عدّة غلطات، ومن ذلك أنه لا تجد بين صور كتابه المهم الكثيرة صورةً لبناء إسلامي في بلاد سوريا وفارس والهند، ولم يكن المسجد المصري، الذي نشر صورته فيه مثلاً، إلا أسوأ نموذج للمباني المصرية القائمة على الطراز العربي، وذلك ببابه ونوافذه القائمة الزوايا وقبّته البصالية الشكل.

وقال سيدِيو في الطبعة الثانية، التي تمت سنة ١٨٧٧م، لكتابه «تاريخ العرب العام»: «من دواعي الأسف أننا لم نبحث حتى الآن بحثاً عاماً في المباني التي أقامها العرب في بلاد سوريا والعراق وفارس، حتى الهند، في مختلف أدوار سيادتهم، ففي هذه المباني، لا ريب صفاتٌ خاصة نرى من المفيد تعريفها».

ومنذ زمنٍ طويل أبدى ج. دوپرنجِه مثل هذا الرجاء في كتابه المتع عن فن عمارة العرب في الأندلس على الخصوص، وقال: «نَعْدُ من حب الدرس أن يُبحَث في أهم المباني التي أقامها العرب في بلاد سوريا وفارس ومصر وإفريقية (نسى المؤلف أن يذكر بلاد الهند)، وما الرسوم العامة للمسجد الأقصى الذي أقامه عمر (!) في القدس، ومساجد

دمشق، ومسجد عمرو بن العاص، ومسجد ابن طولون في القاهرة، ومسجد القيروان؟ وما أوضاع هذه المباني الخاصة؟ وما دقائقها؟ وما زخارفها؟ وما طابعها؟»



شكل ١-٨: أقواس جامع قرطبة.

إن المقابلة بين مباني العرب في مختلف البلدان التي دانت لهم من الأمور التي لا غُنِيَّة عنها للوصول إلى معرفة طرازها، ف بهذه المقابلة يظهر تماثلها الذي نشأ عن وحدة النظم والمعتقدات، ويظهر تباينها الذي نشأ عن اختلاف البيئات والعروق التي كانت تلك النظم والمعتقدات سائدةً لها، وما لدينا من كُتب الوصف القليلة طرح هذه المسائل المهمة جانبًا.

وقد يقع الباحث، حين يقتصر على دراسة فن العمارة العربي في أحد الأقطار التي كانت للعرب سلطان عليها، في مثل الغلطات الفظيعة التي اقترفها شاتو بريان في كتابه الذي سُمِّيَّ «رحلة من باريس إلى القدس»، وذلك وقتما تكلم عن مساجد القاهرة،

وذكر أنها تشبه مباني قدماء المصريين، والحق أنه لا أحد يستطيع في الوقت الحاضر أن يأتي مثل هذا الزعم، فإذا وجد طرازان متباهيان أشد التباين من جميع الوجوه كان ذاك الطرازان الطراز الفرعوني والطراز العربي، ولن يجد المرء مثلاً يستند إليه في اقتباس العرب شيئاً من الفراعنة مهما كان صغيراً.

ولم يذر في خلتنا أن نُفَصِّل في فصل مختصر بهذا الفصل تاريخ فن العمارة العربي الذي غفل العلم عن بيانه، ومع ذلك فإنه يمكننا أن نذكر تقسيماته الأساسية، وأن نُبَيِّن وجه الشبه ووجوه الاختلاف بين البناءيات التي أقيمت على الطراز العربي، والتي لا تزال ماثلةً في الأقطار الممتدة من الأندلس إلى الهند. وليس هذا العمل سهلاً كما يُظن، فهو يتطلب منا أن نسلك طريقاً لم يسبقنا إليها أحد، فضلاً عن عدم اتساع دائرة هذا الكتاب لغير أهمّ البواعث.

(٢) عناصر فن عمارة العرب المميزة

بيئتاً في الفصول السابقة مصادر فن العمارة العربي، وذكرنا فيها ما اقتبسه العرب من الفرس وال Bizantines، وأوضحنا كيف تحرروا من هذه المصادر، وانتهوا إلى إبداع طرازٍ مستقلٍّ خصِّب.

وإنني، قبل أن أبحث عن المباني التي تركها العرب في مختلف البلدان بحثاً جاماً، أرى أن أدرس العناصر التي يتتألف منها فن عمارتهم درساً موجزاً:

المواد الإنسانية: تختلف المواد الإنسانية التي استخدمها العرب في إقامة مبانيهم باختلاف البلدان التي استولوا عليها وباختلاف مقاصدهم من إنسائها، وكان الأجرُ أول ما استعملوا في إنشائها، ولسرعان ما استخدمو الحجارة في إقامة ما هو مهمٌ منها كقصر العزيزة، وقصر القبة في صقلية، وجامع السلطان حسن في القاهرة ... إلخ، وكانوا في الأندلس يستعملون في إنشاء مبانيهم، غالباً، نوعاً من البيتون الذي هو مزيجٌ من المواد «الكلس والرمل والصلصال والحسباء» التي لا تلبث أن تصبح طبقةٍ صلبةً كحجارة النشق.

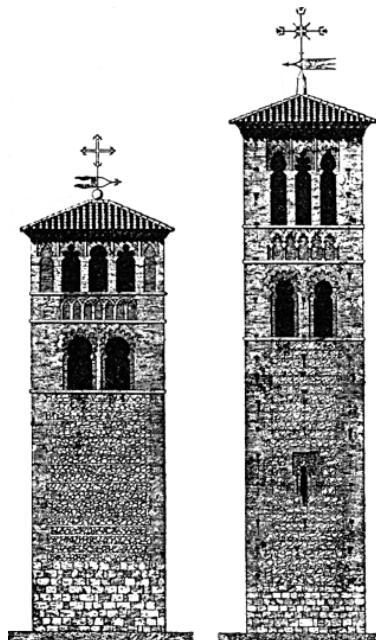
ويقال: إن عيب المباني العربية في قلة مтанتها، فإذا صح هذا القول بالنسبة إلى الكثير منها فإنه غير صحيح بالنسبة إليها كلها، وذلك أن العرب كانوا إذا أرادوا إنشاء بناء على جناح السرعة، مكتفين بالظاهر، أقاموه غير متين كما نقيم بيوتنا في الوقت الحاضر، وأن ما شادوا من المباني التي لا تزال قائمة مع مرور أكثر



شكل ٢-٨: أبراج عدة كنائس في طليطلة أقيمت تقليداً لماذن عربية قديمة.

من ألف سنة عليها يدل على معرفتهم إنشاء بناياتٍ خالدة عند الضرورة،وها هي ذي قصورهم البسيطة، كقصورهم في صقلية، لا تزال تقاوم تقلبات الفصول مع مرور ثمانمئة سنة عليها،وها هو ذا قصرُ الحمراء نفسه لا يزال يقاوم مع خفتِه الظاهره.

الأعمدة وتيجانها: وجد العرب، في جميع البلاد التي استولوا عليها، عدداً كبيراً من المباني الإغريقية والرومانية والبزنطية المتداعية أو المهجورة، وانتفعوا بأعمدتها وتيجان أعمدتها، كما تشهد بذلك مبانيهم الأولى التي تضم عدداً غير قليل من الأعمدة الغربية المصدر، ولما استند العربُ ما وَجَدُوا اضطروا، بحكم الطبيعة، إلى إنشاء ما احتاجوا إليه منها بأنفسهم، وطبعوا عليه طابعهم الخاص الذي كانوا يعرفون كيف يطبعونه على جميع آثارهم كالأعمدة وتيجان الأعمدة التي لم تُشَتَّقْ من أي طراز آخر كما قال مسيو. ج. دوپرانجه، والتي تُرِى في قاعة الأسود من قصر الحمراء، فيجب عَدَّها خاصةً بالعرب من كل وجه.



شكل ٣-٨: برجاً كنيستين في طليطلة أقيماً تقليدياً لـ المآذن العربية قديمة.

الأقواس: إن القوس المصنوعة على رسم البيكارين والقوس المصنوعة على شكل نعل الفرس مما امتاز به فن العمارة العربي، فيشاهد في المباني العربية الأولى. وإن استعمال القوس المصنوعة على رسم البيكارين والقوس المصنوعة على شكل نصف الدائرة معًا مما رأيتُ في أقدم المباني العربية في أوربة وأسية وإفريقية، فأتيح لي درسه.

والقوس المصنوعة على رسم البيكارين مع كسرةٍ خفيفةٍ في أعلىها وحصْرٍ خفيفٍ في أسفلها مما تجد في المباني العربية التي شيدت في دورٍ لاحق؛ فيحتاج المرء إلى شيء من الانتباه ليتبينه فيها، وتكتفي هذه الأقواس، التي وُجِدت مع ذلك لحن المحنبي شكلاً رائعاً.

ثم تطورت القوس المصنوعة على رسم البيكارين في مصر وصُرِّت لا ترى لأسفلها خصراً، وذلك خلافاً لما اتفق لها في الأندلس وإفريقيـة حيث اكتسبت شـكل نـعل الفـرس أو القـوس المـجاوـزة، وأـصـبـحت هـذـه القـوس صـفـة لـفنـ العمـارـة العـربـيـةـ فيما في بعض الأـزـمـنـةـ.



شكل ٤-٤: برج كنيسة سانتياغو العربي في طليطلة (من صورة فوتوغرافية).

وقد قيل: إن القوس المـجاـوزـةـ (المـصـنـوعـةـ عـلـىـ شـكـلـ نـعـلـ الفـرسـ) كانت مـعـروـفةـ عندـ الـبـزـنـطـيـيـنـ، ولـكـ هـذـاـ لمـ يـسـتـنـدـ إـلـىـ دـلـيلـ ماـ دـامـتـ تـلـكـ القـوسـ غـيرـ مشـهـودـةـ فيـ مـعـظـمـ مـبـانـيـ ذـلـكـ الزـمـنـ، وأـرـىـ، معـ ذـلـكـ، أـنـهـاـ لمـ تـكـنـ مـجـهـولـةـ فـيـهـ، وإنـ كـانـتـ قـلـيلـةـ الـاسـتـعـماـلـ، وـالـحـقـ أـنـيـ وـجـدـتـ فـيـ كـنـيـسـةـ كـاـپـنـيـكـارـيـاـ، التـيـ أـقـامـتـهـاـ الـقـيـصـرـةـ أـوـدـوـكـيـيـ فـيـ أـثـيـنـةـ ١٨٤ـمـ، عـلـىـ حـسـبـ ماـ جـاءـ فـيـ كـاتـابـةـ تـبـيـئـتـهـاـ عـلـىـ عـمـودـ، أـقـواـسـاـ مـجاـوزـةـ قـلـيلـاـ جـدـاـ، وـظـهـرـ اـرـتـدـادـ أـسـفـلـ القـوسـ مـنـهـاـ إـلـىـ دـاخـلـهـاـ مـنـ الـضـعـفـ بـحـيثـ يـحـاجـ إـدـراكـهـ إـلـىـ شـيـءـ مـنـ الدـقـةـ.

المآذن: أوجبت ضرورة دعوة المؤمنين إلى الصلاة، وفقاً لأحكام الدين، إقامة المآذن فوق جميع المساجد الإسلامية كما هو معلوم، وتختلف أشكال هذه المآذن باختلاف البلدان اختلافاً أساسياً، فهي مخروطة الشكل في بلاد فارس، ومربعة في بلاد الأندلس وإفريقية، وأسطوانية ذات مطفة في أعلىها في تركيا، ومتعددة الشكل في كل طبقة منها بمصر.

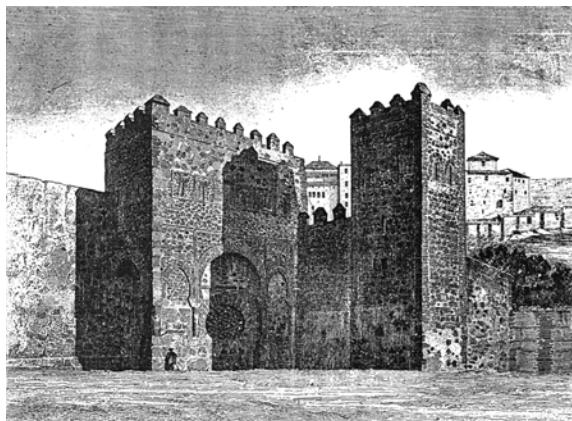
ونرى الكثير من مآذن مصر، ولا سيما مئذنة قايتباي في القاهرة، من العجائب، ولا شيء أدل على دقة العرب وذوقهم الفني من قدرتهم على تحويل البروج البسيطة، ويتجلى الفرق الكبير بين ذوق العرب الفني، وذوق الترك عند مقابلة تلك المآذن العربية بـمآذن التركية على الخصوص.

ومآذن العرب، أكثر مبانيهم، مُتَوَجِّهَةٌ – على العموم – بأنواع الشرف ذات الأشكال المختلفة المعروفة بأقسام الحواجز الواقعة بين الكُوَى^١، ونجد من هذه الأشكال: الدُّرَق^٢، والنصل، والحربة، والمنشار ... إلخ، والمناور، وإن عُرفت في بلاد فارس أيام بنى ساسان، كانت أشكالها أقلَّ تنوعاً من تلك بدرجات.

القباب: ليست القباب مما اخترعه المسلمين وإن كان أصل الكلمة عربياً، فقد كانت القباب معروفة عند البيزنطيين، وكان للأكسرة من بنى ساسان قِبَابٌ في قصورهم، وإنما العرب هم الذين ابتكرتُوا القباب الهيف ذات الخصر، ويتألف من مرور مقطع القبة العربية العمودي من مركزها خطٌّ مُنْحَنٍ يذكرنا بشكل القوس العربية، ثم أفرط الفرس في حَنْوَ قبابهم، فانتهوا إلى شكلها البَصَليُّ الذي سنتكلم عنه قريباً.

ويختلف شكل القباب العربية باختلاف البلدان؛ فهي منخفضة في إفريقية، ولا سيما القيروان، انخفاض القباب البيزنطية، ويرى على كل مسجد فيها عدة قباب من هذا الطراز، والقباب في مصر – على العموم – هي من الطراز التي وصفناه آنفًا، ولا تُرى على المساجد فيها، بل على المزارع أو على الحجرات المجاورة للمساجد والمشتملة على أضرحة، وكلما شاهدت في مصر قبة على مسجد أمكنك أن تقطع بوجود ضريح فيه.

وهنالك بعض الشبه بين القباب المصرية والقباب السورية، أو قبة جامع عمر ذات الخصر الضيق قليلاً على الأقل، وإن كانت القباب السورية أقلَّ هيفاً، وأكثر وزناً، وعاطلةً من الزخارف الخارجية.

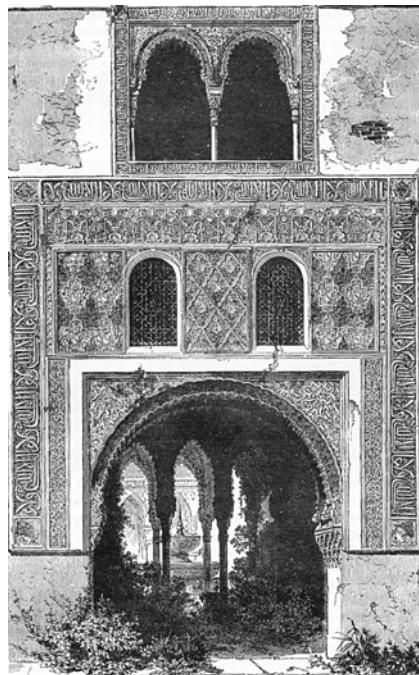


شكل ٨-٥: باب بيزارغة (باب شقرة) في طليطلة.

وترى في مصر، ولا سيما في المقبرة القريبة من أسفل قلعة القاهرة، والتي سميتها سهل القبور، وذلك في الصورة التي نشرتها لها، تميّزاً لها من المقبرة الأخرى المعروفة باسم مزارات الخلفاء، جميع أنواع القباب، كالقباب التي هي على شكل نصف الدائرة، والقباب الإلهيجية^٢، والقباب الأسطوانية، والقباب المخروطة، والقباب المجاوزة، والقباب المقرنة ... إلخ.

المتدليات «المقرنصات»: يظهر أن العرب كانوا يكرهون ما كان يحبه الأغارقة من الأوجه المُلْس المُوحَدة والزوايا والأشكال القائمة، فكانوا يُشنؤن الكُوَّات الصغيرة الناتئة المثلثة الكُرِيَّة المسماة بالمتديليات؛ لتَدَلِّي بعضها فوق بعض في الفضاء تدلياً هندسياً تدريجياً يذكّرنا بخلايا النحل، وذلك لِمَا نرى من رغبتهم في ملء زوايا الجُدُر القائمة، وفي وَصْلِ القباب المستديرة بما تقوم عليه من الرِّدَاه المربعة وصلّاً غير محسوس، وقد استعملت المتدليات في صقلية منذ القرن العاشر والقرن الحادى عشر من الميلاد، وقد حَوَّلَ عرب الأندلس تجويفاتها الكريمة إلى مواشيرٍ قائمة ذات وجوه مقعرة.

ومتدليات مما انفرد به العرب، ولم توجد عند أية أمّة حتى الآن، وما كاد القرن الثاني عشر من الميلاد يَحِلُّ حتى كان أمرها شاملًا لجميع البلدان الإسلامية،



شكل ٦-٨: منظر في داخل قصر الحمراء (من صورة قديمة).

وقد استخدمها العرب فيربط أطناf المآذن بأوجهها القائمة، وفي ملء قباب المساجد، وفي وصلها بالجدر القائمة عليها، وفي وصل القباب الكريية بالأوجه المربعة ... إلخ.

حقاً إن المت Dellيات مما امتاز به الفن العربي، ولا أوفق على رأي مسيو شارل بلان القائل: «إنها نشأت عن ضرورة إحداث الظلل بالوسائل الناتئة»، فالمت Dellيات كثيرة في داخل المبني، حيث لا فائدة في إحداث الظل، كثرتها في خارجها، ولم تنشأ مت Dellيات المآذن، كذلك عن «ضرورة إحداث أروقة عالية لدعوة المسلمين منها إلى الصلاة»، ما رأينا مآذن الأستانة ومآذن بلاد فارس ذات أروقة عاطلة مما يشاهد في مآذن مصر من المت Dellيات، وإنما الذي أراه هو أن اختراع العرب للمت Dellيات نشاً عن

كُرّهم للزوايا والأوجه الموحدة المُلس، كما ذكرت آنفًا، ويتجلى هذه الكره في جميع آثارهم الفنية، سواءً أكانت مآذن أم جلوة قرآن أم دُوِيًّا.

النقوش العربية ودقائق الزخرف: زخارف المباني العربية ذات طابع خاص ينتبه إليه، في الحال، حتى أجهل الناس بفن العمارة، وهذه الزخارف المؤلفة من رسومٍ هندسية ممزوجة بالكتابات من الأمور التي نرى رسماً منها أسهل من وصفها، وهي تابعة لقواعد بسيطةٍ نص عليها مسيو بُرغوان على الرغم من ظواهرها الخيالية. وكانت النقوش العربية تُنقر في الحجر كما في كثير من مساجد القاهرة، أو تصبَّ في قوالب كما في قصر الحمراء.

وللخط العربي شأنٌ كبير في الزخرفة، ولا غرو فهو ذو انسجام عجيب مع النقوش العربية، ولم يُستعمل في الزخرفة، حتى القرن التاسع من الميلاد، غيرُ الخط الكوفي ومشتقاته كالقرمطي والكافوي القائم الزوايا.

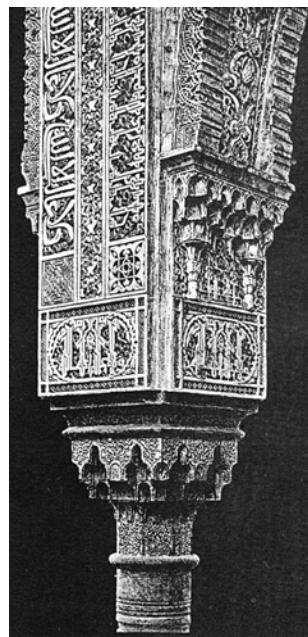
وتؤخذ هذه الكتابات من القرآن على العموم، وأكثر هذه الكتابات استعمالاً هو السطر الأول من القرآن، وهو: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» أو القول الجامع الذي يُلخص به الإسلام وهو: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ».

وقد بلغ الخط العربي من الصلاح للزينة ما كان رجال الفن من النصارى في القرون الوسطى وفي عصر النهضة يُكتثرون معه من استساخ ما كان يقع تحت أيديهم اتفاقاً من قطع الكتابات العربية على المباني المسيحية تزييناً لها سائرين في ذلك مع الهوى، وقد شاهد مسيو لُنْغِيرِيه ومسيو لاڤوا وغيرهما الشيء الكثير منها في إيطالية، وما شاهده مسيو لاڤوا في مكان الأمة من كتدرائية ميلانو «بابٌ مبنيٌ على طراز رسم البيكارين يحيط به إفريزٌ حجريٌ مؤلفٌ من كلمة عربية مكررة عدة مرات، وكتابٌ عربيةٌ حول رأس المسيح المصور فوق أبواب القديس بطرس التي أمر بإنشائها البابا أوجين الرابع، وخطوطٌ كوفية طويلة على قميص القديس بطرس والقديس بولس، ومن دواعي أسفني عدم ترجمة هذا الكاتب لهذه الكتابات، فلعل الكتابة التي حول رأس المسيح هي كلمة: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ!»

الزخارف الملونة: اعتقد الناس زمناً طويلاً أن الأغارقة لم يُلوّنوا مبانيهم وتماثيلهم، وإن كان للقواعد التي اصطلاح عليها الأغارقة قوّة القانون عند الأمم اللاتينية نشأ فيها ذوقٌ مصنوعٌ صرنا نُعد به المباني البيضاء أبنيةً جميلةً جدًا، غافلين عن أن أشعة الشمس على المباني البيضاء تعمي الأبصار وتُغرق دقائقها، وعن أننا نُعجب بها بقوّة

التراث فقط، ومن الحظ الحسن أن أثبتت المباحث الحديثة أن أدوات الأغارقة كانت تختلف عما عزى إليها، وأن الكثير من مبانيهم كان مستوراً بالألوان، وأن اللون الأزرق واللون الأصفر واللون الأحمر أكثر الألوان استعمالاً فيها، وأن أعلى العمد في معبد إجين كان مصبوغاً باللون الأحمر المتشعب منه تروص مذهبة، وأن مقدمة كان مصبوغاً بالأزرق المموه بأطر حمرٍ وخضرٍ.

وفضل العرب، بأدواتهم الفنية الغريزية، ملؤن المبني على بيضها، وكانت نقوشهم العربية مغطاةً على العموم بألوان يدل تنفيذها على معرفة كبيرة وذوق سليم، وكانت جدر الحمراء ووجوهاً والجدر الخارجية للمساجد مستوراً بألوان الألوان.



شكل ٧-٨: دقائق زخارف عمود وتاجه في قصر الحمراء.

والألوان التي استعملها العرب في مصر هي اللون الأحمر واللون الأزرق واللون الأصفر واللون الأخضر واللون الذهبي، وأثبتت أُويين جونس، الذي هو أفضل من بحث في دقائق قصر الحمراء، والذي أدار تجديد قاعدة الأسود في قصر البِلَور بلندن، أن العرب إذ استثنى الميناء الذي يغطي أسفل الجُدرُ، لم يستخدمو في قصر الحمراء سوى اللون الأزرق واللون الأحمر واللون الذهبي، أي اللون الأصفر، وأن هذه الألوان رُتبَت ترتيباً معقولاً جدًا؛ فأخذت اللون الأحمر في أساس نقوشه، وصُبِغَت حواجزه الجانبية باللون الأزرق على مدى واسع لتعديل التأثير الذي ينجم عن اللون الأحمر واللون الذهبي، وفُصل بعض الألوان عن بعض بعصائب بيض أو بظلٍ نتوء الزخرف، ومن المرجح أن كانت العَمَد مصبوغةً باللون الذهبي لما بين العمد البيض وما يقوم عليها من الزخارف ذات الألوان الكثيرة من عدم الانسجام.

وأما ما نرى أثره في قصر الحمراء من اللون الأخضر والأسمر والأرجواني فقد بين ذلك المؤلف أنه من بقايا الترميمات الرديئة التي قام بها الإسبان في مختلف الأزمنة، وقد أضَلَّت بقايا هذا الطلي الرخيف، على الأرجح، مُرمي قصر الحمراء في الوقت الحاضر، فالأجزاء التي أصلاحها، ولا سيما الكسارات التي يبيعونها من الجمهور، لا تَمُتْ بصلة إلى الطريقة المذكورة التي اتبَعُتها بقدر ما تسمح به اللتوغرافية في تحديد أحد لواين الحمراء الذي تجُدُ لوحَةً له في هذا الكتاب.

(٣) المقابلة بين مباني العرب الفنية

(١-٣) مباني بلاد سورية

لم نذكر من مباني سورية، حتى الآن، غير ما أنشئ فيها بعد ظهور محمد، مع أن قبائل عربيةً توطنت بلاد سورية قبل ظهوره، وأقامت فيها دولاً قوية، وتدل البقايا القليلة التي اكتُشفت في بُصرى، والتي لم تُدرس جيداً حتى الآن، على أن فن العمارة فيها كان راقياً في ذلك الزمن، ولذا فإن من المحتمل أن يكون المسلمين الذين استولوا على سورية قد استفادوا من معارف أبناء قومهم أولئك، ولكن فُقدان الوثائق حملنا على السكوت عن ذلك الدور المُنْبِي قانعين بذكر ما شاده العرب بعد الإسلام من المباني العربية في القدِم والمختلفة الطُرُز، والتي ترجع أقسامها المهمة على الأقل إلى القرن الأول من الهجرة كجامع عمر والمسجد الأقصى (في القدس) والجامع الكبير في دمشق.

ويُرى في هذه الآثار الثلاثة بعض المؤثّرات البزنطية والفارسية التي لم يتحرّر فن العمارة العربي في سوريا منها تماماً، ومما هو جدير بالذكر أنه يُشاهد فيها، حتى في أقدم أقسامها، بدء العمل بالأقواس المصنوعة على رسم البيكارين والمصنوعة على شكل نعل الفرس، أي الأقواس ذات الانكسار الضعيف في أعلىها والضيق قليلاً في أسفلها، ويبدو لك هذا النوع من الأقواس في الرواق (من الجامع الكبير) بدمشق، وفي جميع أقسام المسجد الأقصى تقريباً، وفي أعلى عمد الصفّ الأول من داخل جامع عمر. وما يُرى في جميع تلك الآثار الأولى أن تيجان عمدها متصل بعضها ببعض بجسور وصلٍ كبيرة اتصالاً انفرد بعمله مهندسو العرب.

وإذا استعنت بمبدأ القياس، فنظرت إلى أقدم مئذنة في الجامع الكبير بدمشق، علمت أن شكل المآذن العربية الأولى في سوريا كان مربعاً.

وقد استُخدمت القباب المنخفضة المشابهة للقباب البزنطية على العموم، وذلك باستثناء قبة جامع عمر التي أقيمت في تاريخ متاخر عن تاريخ بنائه.

(٢-٣) مباني بلاد مصر

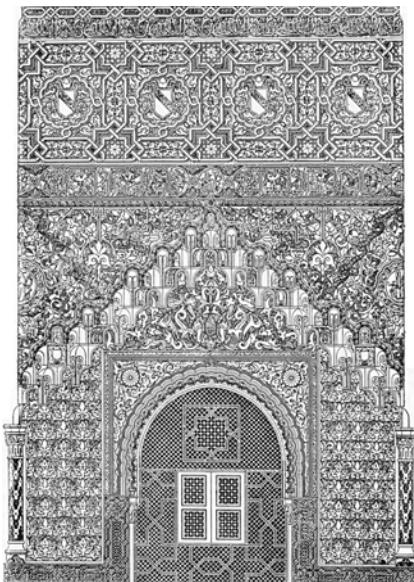
أوضحنا في الفصل الذي خصصناه لتاريخ العرب في مصر سلسلة تحولات فن العمارة العربي العميقه بمصر في ثمانينياته سنة، أي منذ بُني جامع عمرو بن العاص في سنة ٦٤٢م، حتى تم إنشاء جامع قايتباي في سنة ١٤٦٨م، ورأينا أن هذا الفنَّ العربيَّ الذي كان بيزنطي النزعة في البداءة، لم يلبث أن تحرر من كلِّ تأثير أجنبي، وأنه انتهى إلى أشكال مبتكرة تماماً.

ويظهر أنه احترم قسمٌ من زينة جامع عمرو بن العاص الأولى مع ترميمه عدة مرات، ويُرى في جامع عمرو بن العاص أصل الأقواس المصنوعة على رسم البيكارين والمصنوعة على شكل نعل الفرس، ولا ترى في جامع عمرو بن العاص غير المآذن البسيطة التي ليس لكلٍّ منها غير رواقٍ واحدٍ، والتي تنتهي برأس.

ويتجلى في مسجد ابن طولون، الذي أُنشئ في سنة ٩٨٧٦م، بدء الخلاص من المؤثّرات البزنطية، أي أن أقواسه صُنعت، بدون التباس، على رسم البيكارين، وأنها قائمة على دعائم مؤلفة من أعمدة مرصعة في الزوايا، وترى في جامع ابن طولون نقوش الأرهاز والأغصان الصالحة للزينة والمصنوعة على طراز جديٍّ قريب من طراز النقوش العربية، ولم تبدِّ المتلذّيات فيه بعدُ.

وأنشئ جامع ابن طولون من الأجر، وتألف مئذنته من ثلاث طبقات، وليس فيها شيءٌ من الزينة الخارجية، وإنما ترى لكل طبقة منها شكلاً خاصاً؛ فالأولى: مُربعة، والثانية: أسطوانية، والثالثة: مُمَمَّنة.

والزخارف أغزر مادةً وأكثر تنوعاً في الجامع الأزهر الذي شرع بناؤه في أواخر القرن العاشر من الميلاد وأتم في تاريخ أخرى، وأقواس الجامع الأزهر حادة أكثر مما في المساجد السابقة، وتشاهد المثلثيات في كل مكان منه، ولما ذنه عدة أروقة، وزخارفه غنية.



شكل ٨-٨: دقائق الطبقة العليا من قاعة الأخرين في قصر الحمراء (من تصوير أوبن جونس).

وُعدَت أقواس جامع قلانون (١٢٨٣م) مثلاً بارزاً لبلوغ الأقواس العربية المصنوعة على رسم البيكاريين ذُرْوة الرقيّ، ورأينا أنه يوجد شبه كبير بين هذا الجامع والمباني القوطية في القرون الوسطى.

ونرى جامع السلطان حسن (١٣٥٦م) مثلاً لاقتراح الفن العربي من درجة العظماء، ويوجد بين كنائسنا الكبيرة، وهذا الأثر العظيم، الذي يبلغ ثخن جُدره ثمانية أمتار، وارتفاع رتاجه عشرين متراً، وارتفاع قبّته ٥٦ متراً، وارتفاع ماذنه ٨٦ متراً – شبهه أكثر مما بينها وبين المساجد الإسلامية الأولى، ويدل جامع السلطان حسن على أن العرب كانوا يعلمون كيف يقيمون مبانيًّا واسعة متينةً عند الاقتضاء.

ويُثبت جامع برقوق (١٣٨٤م) وجامع المؤيد (١٤١٥م) وجامع قايتباي (١٤٦٨م) تقدماً جديداً تم للعرب، ويُعدُّ جامع قايتباي مبتكرًا تماماً بقبّته العجيبة ومئذنته الرائعة ذات المسائد والأفاريز والأروقة والنقوش الغنية الزاهية، ولو لم يكن للعرب من المباني غيرُ جامع قايتباي لاعتقد الناس، لا ريب أنه عنوان فنًّا لا صلة قريبة أو بعيدة بينه وبين أي فن آخر.

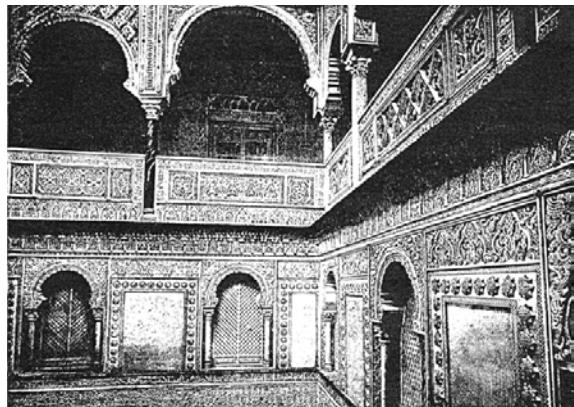
ويُعدُّ جامع قايتباي، والجوامع التي أقيمت في عصره، كجامع قاغبالي (١٥٠٢م)، آخر المباني المهمة التي أُنشئت في مصر على الطراز العربي، ولما حلَّ القرن السادس عشر، واستولى السلطان سليم التركي على مصر أصبحت لا ترى فيها فناً عربيًّا، فقد قضى الترك الفاتحون على الفن العربي بسرعة، وأخذ هذا الفن ينطفئ شيئاً فشيئاً، والحق أن الفن لا يعيش إلا حيث يُقدر ويُشجع، والحق أن دماغ التركي لا يستطيع تقدير الفن الرفيع.

وترى المباني التي أقيمت في العهد التركي من ذوات الشكل الثقيل والزخارف المتعبة والألوان الكريهة، وأصاب إبير حيث قال: «إن من الحظ الحسن أن كانت هذه الآثار غيرُ محتاجة إلى زمن كبير حتى تؤدي عيون رجال الفن، ولم تُبن هذه الآثار لتدوم، وإنما لتكون وسيلة لخدمة الساحات التي أقيمت عليها، وما جزء الذين أقاموها، من غير أن يفكروا في أمر الأجيال الآتية، إلا أن تنتقم منها هذه الأجيال بأن تنساهم».

(٣-٣) مباني بلاد إفريقيية الشمالية

لا ترى غيرَ شبهٍ ضعيف بين المباني العربية في إفريقيبة الشمالية أو صقلية وبينها في مصر، وذلك خلافاً لمماهاتها لمباني الأندلس الأولى.

ونحن لا نقدر أن نتكلم عن القصور الإفريقيبة؛ لعدم وجودها في الوقت الحاضر، وإنما نذكر أن مارمول، الذي زار قصور مراكش وفاس بعد سقوط غربنطة بقرنٍ واحد، قال في وصفه لإفريقيبة: «إن هذه القصور تشبه قصر الحمراء على العموم».



شكل ٩-٨: رواق عالي في إحدى رadas القصر بأشبيلية (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

والشبه الذي يرجح وجوده بين القصور العربية القديمة في إفريقيا وبينها في الأندلس موجود حقاً بين مبانيهما الدينية، وما انتهى إلينا منها دليل قاطع على هذا، وأظهر ما يكون هذا الشبه في مآذنهما المربعة العاطلة من الأروقة والأطناf الخارجية، والمأول بعضها من طبقتين متتَّجِبَتَيْن أو ثلاث طبقات متتَّجِبَات.

وتختلف هذه المآذن العربية الإفريقية الأصلية عن مآذن مصر جملةً وتفصيلاً، ونجد جميع المآذن الإفريقية التي أقيمت بين القيروان وفاس من فصيلة واحدة، ومنها التي أقيمت بالجزائر وطنجة في تواريخ لاحقة مع شيدها على الطُّرُز القديمة، ونجد من هذه الفصيلة برج لاجيرالدة (برج لعبة الهواء) القائم في أشبيلية، وأبراج كنائس طليطلة الكثيرة الباردةعروبة.

وإذا عدُّت هذه المآذن المبكرة وجدت مساجد إفريقية القديمة، كمساجد القيروان مثلاً، تختلف اختلافاً كبيراً عن مساجد مصر وفارس باتخاذها القباب البزنطية المنخفضة عنصراً خاصاً، ويعلو جامع القيروان الكبير، الذي كان هذا السفر أول كتاب اشتمل على صور له، أربع قباب منخفضة.

وإذا أردنا أن نحكم في الأمر مستعينين بالمباني التي لا تزال ماثلةً قلتنا: إن الفن العربي عانى باستمرارِ تأثيرَ الفن البزنطي في إفريقيا الشمالية، مع استثناء مراكش، وإنه لم يستطع أن يتخلص منه كما تخلص في مصر والأندلس.

(٤-٣) مباني بلاد صقلية

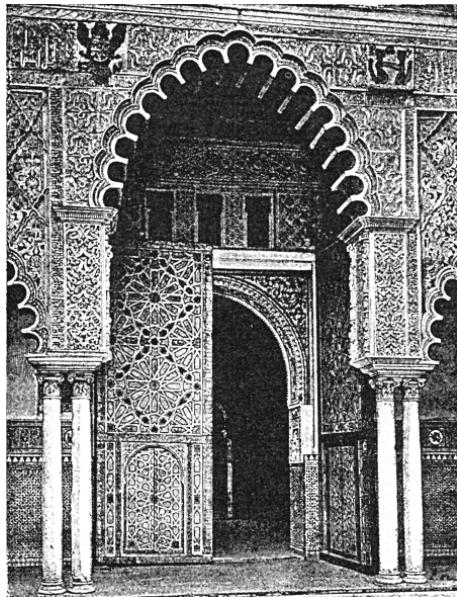
إن قصر العزيزة وقصر القبة القائمين بالقرب من مدينة بلرم هما العماراتان المهمتان في العربستان اللتان أقيمتا في صقلية في أواسط القرن العاشر من الميلاد، ولا يشاهد في مكان قصرٌ عربيٌ له من القدم ما لهما، وهذا يجعل لدرسهما فائدةً عظيمة، وإن مما يزيد في أهميتها إنما هو الظنُّ الغالب بأنهما مشابهان لما كان في إفريقيا الشمالية من القصور نظرًا إلى الصَّلات القديمَة التي كانت بين عرب البلدين في غابر الأزمان، وكوتُنا نستطيع أن نتَّمثَل بهما قصور إفريقيَة.

وقد كان قصر العزيزة وقصر القبة حصنين ومسكينين في آنٍ واحدٍ، وقد قاوما تعاقب القرون لبنيهما من الحجارة المنقوشة الملتصق بعضها ببعض التصافًا محكمًا. وشكل قصر العزيزة الواقع بالقرب من بلرم مُكعبٌ واسعٌ، ويبدو للناظر إلى جدره أنها مُؤلفة من أقواسٍ طويلة مصنوعة على رسم البيكارين صنعتها خفيًّا ومحيطة بنوافذ مزدوجة ذات أعمدة صغيرة، وُسْتَر الإفريز، الذي أُعدَ ليكون تاجًا وحاجزاً، بالخطوط القرمطية التي بقي بعض آثارها، ونشرتُ في فصل آخر من هذا الكتاب صورةً عن التي رسمها جيروول دُوپرانجيه لإحدى رِداته كما كانت منذ أربعين سنة، فظهر منها أنه ذو زخارف بسيطةٍ أنيقةٍ ومتلبياتٍ مشابهة لما في مباني الأندلس. ومن الصعوبة أن نعرف هل غير عمال العرب طراز قصر العزيزة الأصلي أولًا حينما رُمِّمه في عهد ملوك النورمان.

ويُرى قصر القبة غير بعيد من قصر العزيزة كثيرًا.

ويختلف قصر العزيزة وقصر القبة عن قصور العرب في إسبانيا بشكلهما الخارجي وأقواسهما الطويلة المصنوعة على رسم البيكارين وانتظام شكليهما، ولا أرى شبهاً بينهما وبين المباني المصرية، وذلك خلافاً لجيروول دُوپرانجيه، وذلك مع ما قمتُ به من البحث والتدقيق، وذلك خلاً مماثلتهما البعيدة لبعض أجزاء جامع قلاوون.

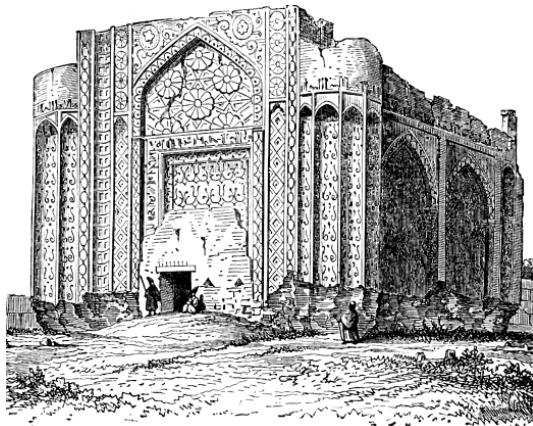
(٥-٣) مباني بلاد الأندلس



شكل ١٠-٨: أحد أبواب ردهة الصبایا في القصر بأشبيلية (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

قسم جيروں دوپرانجہ فنِ العمارة العربيٰ فی بلاد الأندلس إلی ثلاثة أدوار مختلفۃ: الدور البزنطي ودور الانتقال والدور المغربي، ولا أرى سبباً جدياً للتسليم بهذا التقسيم مع رضا الآخرين به على العموم، فلا معنى للتعبير عن فن العمارة العربي بالفن المغربي أي البربری ما دام البربر لم يُدخلوا أي عنصر جديد إلى فنون العرب، أجل، حکم ملوك من البربر عرب الأندلس كما حکم ملوك من الشركس عرب مصر، ولكن البربر والشركس لم يبتدعوا شيئاً في الفنون، ولذلك لا نجد فن بناء مغربي في الأندلس كما أننا لا نجد فن بناء شركسي في القاهرة.

على أن لدينا من البينات ما يثبت أن البنائين في أيام ملوك البربر كانوا من العرب، فقد روى ابن سعيد «أن أميرَي المُوحَّدين، يوسف ويعقوب المنصور، أحضرا من الأندلس مهندسين لإنشاء جميع المباني التي أقاموها في مراكش ورباط وفاس والمنصورية ... ومن المعروفاليوم (١٢٣٧م) أن هذا الإزدهار وهذا الرخاء في مراكش انتقل إلى تونس فأقام سلطانها قصوراً وغرس حدائق وكروماً على الطريقة الأندلسية مستعيناً بمهندسي الأندلس وببنائهما ونجاريه ولبنائهما ودهانيه وبستانييها، أي تم شَيْد هذه المباني وفق رسوم وضعها أناُسُ من الأندلس أو صُنعت تقليداً لبيانِ أندلسية».»



شكل ١١-٨: مسجد همدان القديم بفارس (من تصوير كوست).

وجامعُ قرطبة هو أقدمُ مباني العرب في بلاد الأندلس، وأقيم جامعُ قرطبة في دور فنِ العمارة الذي أُسِّمِيَّه دورَ فنِ العمارة البيزنطي العربي، لا البيزنطي وحده، وذلك لما لم تَجُد من بناء بيزنطي يشابهه، وهو، وإن كان يشتمل بوضوح على بعض عناصر الفن البيزنطي «كتيجان عَمَدِه التي هي على شكل أوراق الشجر ونقوشه التي هي على شكل الألخصان وزينته المتشابكة وفسقائه وزخارفه التي هي على أساس من ذهب ... إلخ»، يختلف عن المباني البيزنطية بما فيه من الزينة بالخط الكوفي، وبأقواسه المصنوعة على شكل نعل الفرس بِفُلَق كثيرة والقائم بعضها فوق بعض، وبجزئيات

زخارفه، ويكتسب جامع قرطبة بهذا طابعاً بادياً الإبداع يتميز به من أي بناء بيزنطي، وما قضت به الحال عند صنعه، أي ضرورة تنضيد ما كان عند القوم آنذاك من العمدة ليinal به علواً مناسباً لعرضه، أكسب صحوته منظراً لا تجده في أي بناء سابق، ومن تجلّي ذوق العرب الفني في شيد طريقتهم في تركيب أقواسه لستر ذلك التنضيد، فعلى من يَعْزو مثل هذا الذوق الفني البديع الرفيع إلى البيزنطيين أن يدلنا على مبانٍ أخرى استعملوا فيها هذه الطريقة.

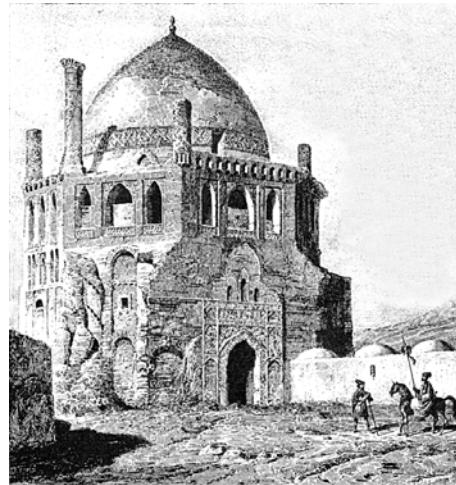
وتخلصَّ عرب الأندلس من المؤثرات الفنية البيزنطية بسرعة كالتي تخلص بها عرب مصر، ولم تثبت النقوش العربية والمتديليات أن قامت مقام الزخارف البيزنطية على أساس ذهبي، ولم تثبت الحثايا أن تحولت إلى أقواس مصنوعة على رسم البيكارين ومنقوشة نقشاً طيفاً.

ومبنيَّ العَرب في طليطلة أقدمُ آثارهم في الأندلس خلا ما في قرطبة، وفي طليطلة آثارٌ عربيةٌ مهمة كباب بيذغرة (باب شقرة) الذي بدأ بإنشائه في القرن التاسع من الميلاد وباب الشمس الذي أُنشئ في القرن الحادي عشر من الميلاد ... إلخ، ويمكن الباحث في طليطلة أن يتبيّن بعض مراحل تطور الفن العربي.

وهدِّمت مآذن المساجد القويمية في الأندلس، ولم يبق منها سوى برج لاجيرالدة (لعبة الهواء) الذي أقيم في أشبيلية في القرن الثاني عشر من الميلاد، ويمكننا أن نذهب إلى أنها كانت مربعة الشكل كالمآذن التي أُنشئت في إفريقيا، وإنني أستند في رأيي هنا إلى ما في بروج كنائس طليطلة التي لا تزال قائمةً من التقليد لمآذن العرب في الشكل والفروع الجوهرية، ويمكننا أن نذهب إلى ما هو أبعد من هذا فنقول: إن الأندلس لم تعرف مآذن مشابهةً لمآذن القاهرة، ولو عرفوها لكان النصارى قد قلدُوها أيضاً.

وكما كانت إقامة العرب بإسبانيا تطول زاد فنُّ بنائهم غنىًّا وزخرفاً، ولسرعان ما تحرر هذا الفن من كل مؤثر أجنبي، ولسرعان ما غابت الزخارف البيزنطية، ولا سيما الفسيفساء على أساس ذهبي، تاركةً المجال لطرازٍ جديدٍ في الزينة، فكان القصر في أشبيلية والحرماء في غرناطة بنايين وصل فنُّ العمارة بهما إلى أسطع أدواره.

وبديء بناء القصر في أشبيلية في القرن الحادي عشر من الميلاد، ثم صُلح في القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر من الميلاد، وذلك عدا ترميمه في زمن شارلوكن وزمن فيليب الثاني والزمن الحاضر، وأُنشئت وجهته في القرن الثالث عشر من الميلاد، ويعدُّ بهُ الدُّمى وبهُ السفراء وغيرهما من أقسامه آثاراً قديمة جداً.



شكل ١٢-٨: مسجد شاه خدا وضريحه في سلطانية (القرن السادس عشر، من تصوير تكسيه).

ولا يلاحظ في أقسام القصر الأشبيلي الأولى مثلُ ما في قصر الحمراء من فَيْضِ الزخارف ومن القباب ذات النقوش المتدرية، ومع ذلك فكلا القصرتين متقارب، ولا يختلفان في غير الدقائق، ويكثر في القصر الأشبيلي ما نَدَر وجوده في قصر الحمراء من الأقواس المجاورة (المصنوعة على شكل نعل الفرس) والأقواس المصنوعة على رسم البيكارين، وتتجد في القصر الأشبيلي من السقوف ذات التقطيع الملوّنة المذهبة المحفورة ما يشابه سقوف قصور القاهرة ودمشق القديمة.

وبلغ خَصْب الفن العربي الأندلسي غايتها في قصر الحمراء الذي أنشئ في القرن الثالث عشر من الميلاد، وعلى ما فيه من غُلُوٌ في الزُّخرف نرى هذا الغلو وليد ذوقٍ رفيع لا يتجلّ في آثار دورٍ مُنحط.

ومع أن جُدُر قصر الحمراء مصنوعةٌ من مزيج من الكلس والرمل والصلصال والحسبياء، لا من الحجارة المنحوتة، ومع أن زخارفه من الجِصِّ المضروب في القوالب،

تجده متيناً إلى الغاية، فقد قاوم تقلبات الجو مدةً خمسة قرون من غير أن يحتاج إلى ترميمٍ ذي بال.

وأهم ما يختص به قصر الحمراء ويتميز به من القصر الأشبيلي على ما أرى، هو ما يأتي: جُدرُه المغطاة بقطعٍ ملؤنة مصنوعة في القوالب، وعمَدُه الخفيفة الأدقية الخطوط الحاملة تيجانًا منقوشة على شكل الأغصان المتشابكة، ونواذنه المؤلفة من الأقواس ذات الحنائر، والمنقوشات على شكل الأزهار والمحاطة بأطر قائمة الزوايا، وسقوفه المغطاة بالمتديليات.

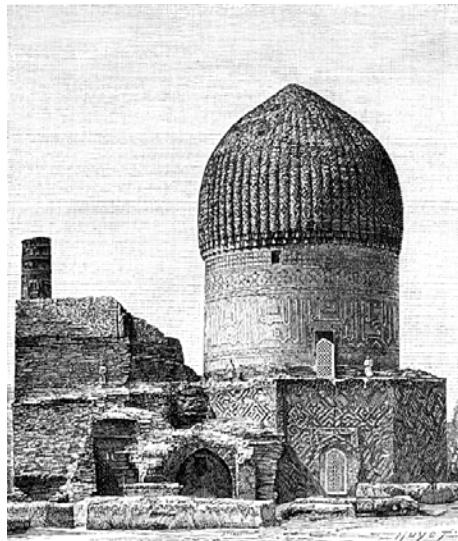
ولا يجد الإنسان في مصر قصوراً عربيةً معاصرة لقصر الحمراء، ولكننا إذا حكمنا بأن زخارف قصور مصر كانت مشابهة لزخارف مساجدها رَجَح عندنا وجود فروقٍ مهمة بين قصور ذينك القطرين، أجل، إن هنالك تقاربًا بين الفن العربي في مصر وبينه في الأندلس، ولكنهما لم يُبْدِيا سوى تشابهٍ بعيدٍ في جميع وجههما.

وكان تأثير فن عمارة العرب في فن عمارة النصارى الذين حلوا محلهم في إسبانياً عظيماً إلى الغاية، وكان النصارى يستخدمون العرب — قبل إجلائهم — في إقامة مبانيهم أو إصلاحها، فنشأ عن تمازج الفنين ظهورُ الفن المُدَجَّن الجديد كما ذكرنا ذلك في فصل آخر، وسنأتي بأمثلة كثيرة على ذلك في الفصل الذي خصصناه لدرس تأثير العرب في أوروبا.

ويُرَى طرازُ خاص قريب من الطراز العربي يمكن تسميته بالطراز العربي الإسرائيلي، وذلك خلا الطراز الذي ذكرته، وذلك في معابد اليهود القديمة التي أقيمت في إسبانيا، ولا يختلف هذا الطراز عن الطراز العربي إلا باستخدام الحروف العبرية في زينته وبالأغصان والأوراق العريضة في زخارفه، وتَعْدُ كِنيسَ الترانسيستو وكِنيس سانتا ماريا لابلانكا في طليطلة أمثلة بارزة على هذا الطراز الذي لا يخلو من مؤثرات الدور البزنطي.

(٦-٣) مباني بلاد الهند

مباني المسلمين في الهند دليلٌ واضح على التطورات التي يمكن أن تتفق لفن عمارة أمة بتأثير العروق التي تتصل بها.



شكل ١٣-٨: ضريح تيمورلنك في سمرقند (من صورة فوتوغرافية، من مجموعة الجنرال كوفمان).

وقد رأينا أن العرب حينما وصلوا إلى الهند وجدوا أنفسهم أمام حضارة قوية قديمة، وأنهم أثروا فيها بديانتهم ولغتهم وفنونهم تأثيراً لا يزال باقياً حتى الآن، وذلك مع ضعف تأثيرهم السياسي فيها دائمًا.

وظهر من وصفنا للمباني الإسلامية في الهند درجةً ما كُتب عليها بوضوح من تاريخ تأثير إحدى الأمم، فقد كانت المؤثرات العربية والهندسية مجتمعةً اجتماعاً وثيقاً في المباني الأولى كباب علاء الدين مع ضعف أثر الفن الفارسي فيها، ثم اجتمع الفن الفارسيُّ والفن الهندوسي بنسبيٍّ متقلبةٍ فيها، وصار الفنُ العربيُّ لا يبدو إلا في الأقسام الثانوية كاتخاذ الكتابات والمتدليات وسائل للزينة، وكاتخاذ أشكال بعض الأقواس. ويعدُّ مزار أكبر وтاج محل وقصر المغول ... إلخ، من الأمثلة لاجتماع هذه المؤثرات التي نشأ عن تناسبها بالحقيقة، طرازٌ خاصٌ يمكن تسميته بالطراز المغولي في الهند، أو الطراز الهندوسي الفارسي العربي.

ويتجلى هذا الطراز — على الخصوص — في مآذن الهند المخروطة الشكل كمآذن بلاد الفرس.

وتختلف مآذن الهند عن مآذن بلاد الفرس بخواريمها وبطبقاتها غير المطلية بالميناء، وتختلف عن مآذن الأندلس وإفريقيا والقاهرة بالزخارف الخارجية والأسكال العامة، فيبدو ذلك أول وهلة.

(٧-٣) مباني بلاد فارس

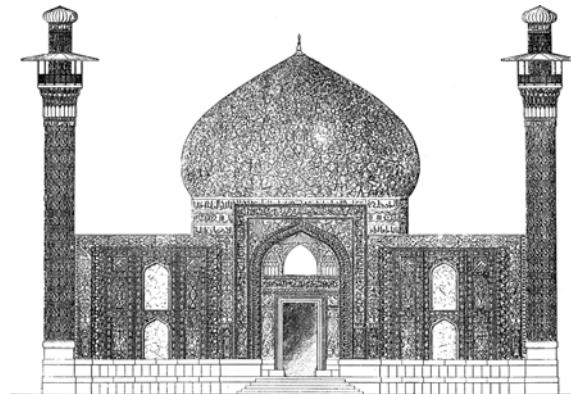
يصل إلينا من المباني الفارسية التي أقيمت أيام الدولة الساسانية المعاصرة لفتح العربي، ولأكثر المباني التي شُيّدت في الصدر الأول من الخلافة، سوى بقايا ناقصة، فكان هذا سبباً في صعوبة تمثيلنا تاريخ فن العمارة الفارسي ومدى تأثيره في فن العمارة العربي على الخصوص، ثم مدى تأثير فن العمارة العربي في فن العمارة الفارسي فيما بعد.

وأقيم أكثر مباني الفرس المهمة في القرن السادس عشر من الميلاد، أي في عهد الشاه عباس، فإذا قوبلت هذه المباني ببقايا العمارات السابقة ظهر أنها مقتبسة منها، وهي قائمةٌ على طراز يختلف عن طراز العرب الفني، ولا تشارك طراز العرب في غير الزخارف.

قال باتيسيه في كتاب «تاريخ فن العمارة» وذلك في معرض الكلام عن مساجد فارس: «يظهر أن مساجد بلاد الفرس لا تختلف عن مساجد بلاد سوريا» وتراني أجهل الأسس التي يَتَّبعُ عليها زعمه هذا ما فِقدَ الشبه بين هذه المباني، والواقع أن المقابلة بين مساجد سوريا القديمة (أي بين مساجد دمشق والقدس وحربون) ومساجد أصبحها أمرٌ متعدد، ولا نجادل في وجود طابع خاصٌ لفن الفارسي مع ما بين الفن الفارسي والفن العربي من صلة القرابة الواضحة التي مصدرها ما في الفن الفارسي من تأثيرٍ بالفن العربي بعد أن كان مؤثراً فيه.

ولمساجد الفرس صفات خاصة كثيرة يتجلّى أهمُّها في شكل مآذنها وأقواسها وقبابها وزينتها الخارجية.

ويذكرنا شكل مآذن الفرس، حتى القديم منها، بمداخن مصانعنا، وهي مخروطة الشكل قليلة الارتفاع مكسوة بالميناء ذات رواقٍ واحدٍ في أعلىها، وهي تختلف اختلافاً جوهرياً عن مآذن سوريا وإفريقيا والأندلس المربعة، وهي تختلف أكثر من ذلك عن



شكل ١٤-٨: رسم مجدد مسجد السنية في تبريز (فارس، من تصوير تكسيه).

ماذن مصر ذات الأروقة الكثيرة التي يتغير مقطعها على حسب الطبقات، والمزينة بأنواع النقوش البارزة.

وللمساجد الفارسية طابع خاصًّا أيضًا؛ فُيُرى لكل مسجد من المساجد القديمة الفارسية المتداعية، كمسجد همدان مثلاً، بابٌ عظيم يبلغ ارتفاعه علوًّا المقدَّم، وينتهي بقوس طريفة مُفرطَحة مصنوعة على رسم البيكاريين من طراز خاصٌّ مما لا ترى مثله في أي مسجد عربي كان.

ونرى لزخارف المساجد الفارسية من الخارج شكلًا خاصًّا أيضًا، أي أنها مكسوَّةٌ بالليناء ذي الرسوم المتنوعة، ولا سيما رسمُ الأزهار، مما امتاز به فن الزخرفة الفارسي، وإذا حدث أن رُئي مثلاً في بعض المباني العربية، كجامع عمر، أمكن القطع بأنها من صنع عمال من الفرس.

وبُنيت قباب المساجد الفارسية الحاضرة بِصَلَّةِ الشكل، وهذه القباب، وإن بدت مبتكرةً، لم تتشَّأ عن غير فرطحة القبة التي يشبهه مقطعها نعل الفرس أو عن تضييق قاعدة القبة المشابهة لقباب المساجد العربية في القاهرة، وبالغ الفرس في فرطحة القبة ذات المقطع الذي هو على رسم البيكاريين فانتهوا إلى القباب التي تشاهد أيضًا في مساجد بغداد الحديثة، والتي رأيت مثلاً في الكنائس الروسية، ولا سيما كنائس

موسكو، حَقًا عُدت القباب الروسية قائمةً على الطراز البزنطي، ولكن الإنصاف يقضي بعدها مبنيةً على الطراز الفارسي البزنطي وحَقًا عَجَز الروس، كما عجز الترك، عن إبداع طراز خاص، ولكنهم علموا جيدًا كيف يُوفِّقون بين احتياجاتهم وبين عناصر فنون البناء التي اقتبسوها من الأمم التي اتصلوا بها، وذلك بخلطهم هذه العناصر.



شكل ١٥-٨: مسجد في أصفهان (من تصوير كوست).

ولم يكن في بقايا أقدم المساجد الفارسية قبَّابٌ بصلية الشكل، وأكثر قباب سمرقند ومشهد وسلطانية وورامين وأريفان ... الخ. التي أنشئت على طراز آثارٍ أقدمَ منها لا ريب، بيزنطيُّ الطراز أو من القباب التي ضيّقت قواعدها قليلاً. وأكثر الفرسُ من استعمال المدلليات والخطوط العربية في مساجدهم، وهذه هي أهم العناصر أخذوها عن العرب.

والقارئ الذي يدرسُ الصور التي نشرناها في هذا الكتاب، إنماً لما علمه مما تقدم، يشاطرنا رأينا في اختلاف فن العمارة العربي باختلاف البلدان، وفي أن من

المتعدد جمع متبادر المباني تحت وصف واحد، كما أنه يتعدد جمع المباني الرومانية والقوطية ومباني عصر النهضة التي أقيمت في فرنسة تحت اسم الطراز الفرنسي. ولا تجد غير شَيْه بعيد بين الطراز البيزنطي العربي الذي تجلّى في الأندلس في جامع قرطبة، والطراز العربي البيزنطي الذي تجلّى في مصر في جامع عمرو بن العاص وجامع ابن طولون، كما أنك لا تجد غير شَيْه بعيد بين الطراز العربي الذي تجلّى في قصر الحمراء والطراز العربي الذي تجلّى في جامع قايتباي، ولذا يجب أن نُقسم الطراز العربي تقسيمًا أساسياً، وأن نستند في هذا التقسيم إلى اختلافه باختلاف البلدان على حسب الطريقة التي سرنا عليها في مباحثنا في العروق، ولذا يمكننا أن نأتي بالتقسيم الآتي الذي يلائم معارفنا الحاضرة:

(أ) الطراز العربي قبل ظهور مُحَمَّد

لا يزال هذا الطراز مجهولاً، خلا ما يُستَشَف من بقايا مباني اليمن القديمة، ومن بقايا المباني التي أقيمت في المملكة العربية السورية القديمة كملكة الغساسنة مثلاً.

(ب) الطراز البيزنطي العربي

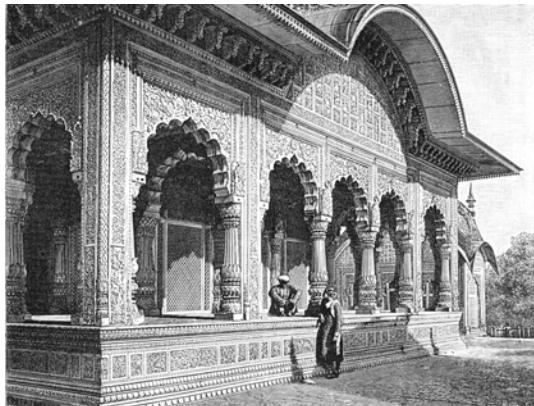
الطراز البيزنطي العربي في سوريا: أقيمت بنايات هذا الطراز، أو جُدد بناؤها، فيما بين القرن السابع والقرن الحادي عشر من الميلاد، ومنها: جامع عمر والمسجد الأقصى في القدس، والجامع الكبير في دمشق.

الطراز البيزنطي العربي في مصر: أقيمت بنايات هذا الطراز فيما بين القرن السابع والقرن العاشر من الميلاد، ومنها: جامع عمرو بن العاص، وجامع ابن طولون.

الطراز البيزنطي العربي في إفريقيا: بُني جامع القيروان الكبير ومساجد الجزائر على حسب النماذج القديمة، وبِقِي تأثير الفن البيزنطي ثابتاً في إفريقيا، وظلت قباب إفريقيا بيزنطية، على العموم، حتى الزمن الحاضر.

الطراز البيزنطي العربي في صقلية: كانت البناءيات، التي أقامها العرب في صقلية قبل الفتح النورمانني، على هذا الطراز، كقصر العزيزة وقصر القبة.

الطراز البيزنطي العربي في الأندلس: بُني على هذا الطراز جامع قرطبة والمباني العربية في طليطلة، وذلك قبل انتهاء القرن العاشر من الميلاد.



شكل ١٦-٨: قصر راجا غوفر دهام (الهند، من صورة فوتografية).

(ج) الطراز العربي الخالص

الطراز العربي في مصر: تكامل هذا الطراز فيما بين القرن العاشر والقرن الخامس عشر من الميلاد، وبلغ ذروة كماله في جامع قايتباي، ويمكن القارئ أن يتبعَ تطوراته من النظر إلى سلسلة صور المساجد التي أحصيناها ونشرناها في هذا الكتاب.

الطراز العربي في الأندلس: تحول فن العمارة العربي في الأندلس بين قرن وقرن أيضاً، ولكن الوثائق الضرورية لوصول أدواره المتوسطة فقدت أيضاً، ولم يبقَ من البناءات التي أقيمت على هذا الطراز غيرُ ما هو قائمٌ في أشبيلية وغرناطة، ومع ذلك فإن هذا يُعد نموذجيًّا.

(د) الطراز العربي المختلط

الطراز الإسباني العربي: يُشاهد اختلاط عناصر فن العمارة النصراني بعناصر فن العمارة العربي في المبني التي أقيمت بعد فتح النصارى لبلاد الأندلس علىخصوص، وواظب سكان القسم الجنوبي من إسبانيا على إقامة بعض بناياتهم

على هذا الطراز المختلط حتى الوقت الحاضر، ويعد كثيرون من آثار طليطلة أمثلة على هذا الطراز المختلط الذي نشرنا كثيراً من صوره في هذا الكتاب.

الطراز الإسرايلي العربي: نذكر من هذا الطراز ما أقيم من المباني التي كانت معابد لليهود في طليطلة كسكننا مارية لبلانكا والتنسيتو ... إلخ.

الطراز الفارسي العربي: إن المباني التي أقيمت في بلاد فارس بعد أن اعتنق الإسلام، ولا سيما مساجد أصبهان، هي من هذا الطراز، ولهذه المباني طابع فارسي واضح وإن كانت ذات أثر عربي.

الطراز الهندي العربي: مباني هذا الطراز خليط من عناصر الفن العربي وعناصر الفن الهندي، ومن هذه المباني منارة قطب ومعبد بندربن، ولا سيما باب علاء الدين الرائع.

الطراز الهندي الفارسي العربي، أو الطراز المغولي في الهند: شيدت المباني التي أقيمت أيام سلطان المغول في الهند على هذا الطراز، ومنها تاج محل وقصر ملوك المغول وكثير من مساجد الهند، وحلت المؤثرات الفارسية في مباني هذا الطراز محل المؤثرات العربية التي كانت سائدة إلى حد كبير، ونرى مباني هذا الطراز خالية من الإبداع الحقيقي وإن دلت على فن خاص تن Cassidy فيه عناصر الفنون الأجنبية التي تتتألف منها أكثر من أن تتمازج.



شكل ١٧-٨: سوار من ذهب يرجع إلى القرن الرابع عشر الميلادي، وهو على الطراز الإسباني العربي (من صورة فوتوغرافية، متحف العاديات بمدريد).

هوماش

- (١) الكوى: جمع الكوة، أي الخرق في الحائط.
- (٢) الدرق: جمع الدرقة، أي الترس من جلود.
- (٣) الإهليجي: البيضي.
- (٤) الملوشور في علم الطبيعيات: مجسم من بلور تكون قاعدته مثلثة الأضلاع.
- (٥) الحنائر: جمع الحنيرة، وهي الطاق المبني.

الفصل التاسع

تجارة العرب: صلاتهم بمختلف الأمم

(١) صلات العرب بالهند

لم يكن نشاطُ العرب التجاري أقلَّ من نشاطهم في العلوم والفنون والصناعة، فقد كان للعرب، في الوقت الذي كانت أوربة فيه تشكُّل في وجود بلاد الشرق الأقصى ولا تأْتُعرف من إفريقيَّة سوى بعض شواطئها، علاقَّ تجاريَّة بالهند والصين وإفريقيَّة الداخلية وبأقسام أوربة النائية كروسية وإسوج ودانيمركا.

ولم يكن نبأ رِيادهم الذي وصل إلينا حتى الآن غيرَ ناقص، حتى إن العلامة سيديو الذي يُعدُّ حُجة فيما يتعلق بالعرب لم يذكر حتى علاقاتهم بشمال أوربة، فرأجو أن يكون فيما أقول في هذا الفصل، مع إيجازه، كافياً لإثباتنا أن العرب لم يُساوِهم في النشاط التجاري غيرَ أممِ الزمان الحاضر.

وترجع صلات العرب الأولى ببلاد الهند إلى أقدم عصور التاريخ، ولكن الذي يظهر أنَّ الهند، لا العرب، هم الذين كانوا يأتون بمحاصيلهم إلى سواحل البلاد العربية قبل محمد، وأن السفن العربية لم تذهب من مرفأَيَّ اليمن إلى بلاد الهند إلا قُبيل ظهور النبي.

ولسرعان ما اتسع أفق صلات العرب التجارية بعد أن أصبح سلطانهم ثابت الأساس، فلم يلبث العرب أن وصلوا إلى شواطئ كُورُمِينِدِل ومَلَبار وسومطرة وجزائر الأرخبيل الكبُرى، وقطعوا خليج سيام، وبلغوا جنوب بلاد الصين.

وكان العرب يتصلون ببلاد الهند بثلاث طرق أساسية، إحداها بريَّة واثنتان منها بحريتان، وكانت الطريق البريَّة تصل أهم مراكز الشرق، كسمرقند ودمشق وبغداد ... إلخ، بالهند بواسطة القوافل مارَّةً ببلاد فارس وكشمير، وكان التجار الذين يُفَضِّلون الطريق البحريَّة يأتون من بلاد الهند إلى موانئ الخليج الفارسي كميناء سيراف، أو

كانوا يدورون حول بلاد العرب ويبلغون موانئ البحر الأحمر، ولا سيما عدن، وكانت السلع التي تصل إلى الخليج الفارسي تُرسل إلى بغداد، وترسل من بغداد إلى جميع المدن المجاورة بواسطة القوافل، وكانت السلع التي تنزل في عدن تُرسل منها إلى السويس وإلى الإسكندرية وإلى جميع مدن سوريا الساحلية، وكان تجار جنوة وفلورنسة وبيزه وكالونة ... إلخ. يجيئون ليبحثوا عن هذه السلع ويرسلوها إلى أوربة، وكانت مصر خط وصل بين الشرق والغرب، وكانت هذه التجارة العظيمة من موارد غنى الخلفاء المهمة كما بيَّنا ذلك.

وكانت السلع التي تُنقل على تلك الطرق المختلفة كثيرةً، وكانت تُبادل، في عدن مثلاً، منتجات الصين والهند بمنتجات بلاد الحبشة ومصر، وإن شئت فقل كان يتبادل فيها أرقاء بلاد التوبة والعاج والتبر بمنسوجات الصين الحريرية وحرفها المطلي وبمنسوجات كشمير، ولا سيما بالأبايرز والعطور والخشب الثمين.

(٢) صلات العرب بالصين

ترجع صلات العرب غير المباشرة بالصين، بواسطة الهند، إلى ما هو أقدم من ظهور محمد بزمن طويل، ولكن صلاتهم المباشرة بها لم تحدث إلا بعد أن أقاموا دولتهم. وكان العرب يتصلون بالصين بطرق بحرية وطرق بحرية كانت لهم ببلاد الهند، وكانتوا يذهبون إلى الصين بحراً من شواطئ بلاد العرب أو من موانئ الخليج الفارسي، فيصلون على جنوبها تَوْا.

وكان العرب يقومون برحلات متواصلة إلى بلاد الصين، ومن أقدمها الرحلة التي تكلمنا عنها في فصل آخر حيث ذكرنا أن التاجر سليمان هو الذي قام بها في سنة ٨٥٠م، ومما يثبت كثرة صلات العرب بأهل الصين: ما كان من تبادل الوفود بين الخلفاء السابقين وملوك الصين، فضلاً عما هو مسطور في سجلات بيت مال الخلفاء من بيان للسلع الصينية.

ومع ذلك يبدو أن طريق البحر لبلاد الصين كانت غير مسلوكةٍ كما يجب، وكان سلوك طريق البر بواسطة القوافل أعظم يسراً أو أكثر استعمالاً، وكانت السلع التي يؤتى بها من الصين إلى مدينة سمرقند التركية تُرسل رأساً إلى مدينة حلب في آسيا الصغرى؛ فتُوزَّع منها على أهم مدن الشرق.

تجارة العرب: صلاتهم بمختلف الأمم

وفي كتاب الرحلة، الذي وضع باللغة الفارسية في أواخر القرن الخامس عشر من الميلاد فنشر مسيو شيفر بعض فصوله، أن تاجراً مسلماً أطلَّ على الطرق البرية التي كانت تُسلَّك إلى الصين، وكانت هذه الطرق ثلاثة: «طريق كشمير، وطريق خوتين، وطريق مغولية».

ويشتمل كتاب الرحلة هذا على طرائف عن نوع السلع التي كانت تُبَادِل بسلع الصين، ومن هذه السلع الأسودُ التي كان الواحد منها يبادل بثلاثين ألف قطعة من النساء.

وكان التجار يرسلون إلى بلاد الصين ثمين الحجارة والمرجان والخيل والمنسوجات الصوفية وأجوام البندقية القرمزية ... إلخ، ويأخذون النسائج الحريرية والديباج والقاشاني والشاي ومختلف المستحضرات الصيدلية في مقابلها.



شكل ١-٩: صندوق صغير مصنوع من العاج المحفور في القرن العاشر من الميلاد على الطراز الهندوسي العربي (متحف كنسنغتن، من صورة فوتوغرافية).

ويمكننا، عند فُقدان الأنباء عن صلات المسلمين بالصين وجهل علاقات الخلفاء بملوكها، أن نستدلَّ على سعة صلات المسلمين التجارية بأهل الصين من وجود عشرين

مليون مسلمٍ منتشرٍ في أجزاء مملكة ابن السماء، ومن وجود مائة ألف مسلمٍ واحدٍ عشر مسجداً في مدينة بكين وحدها.

(٣) صلات العرب بإفريقيا

كانت صلات العرب بإفريقيا على جانب عظيم من الأهمية أيضًا، وكان العرب يعرفون جيداً أصقاعاً إفريقياً الوسطى التي يصل إليها رواننا في الوقت الحاضر بِشُقّ الأنفس، فَيُعْدُ كل ارتياه لما حادثًا مهمًا في أوربة.

ويدلُّ إسلام أمم تلك الأصقاع التي يزورها تجار العرب على مقدرة العرب في حمل الأمم على الترحيب بهم، ويجد السياح أثراً لتأثير العرب في أكثر البقاع التي يدخلونها في الوقت الحاضر، وعندى أنه يَجُدُّر بالسياح المعاصرين الذين يرغبون في درس شؤون إفريقيا درساً مفصلاً من غير أن يُرهقوا ميزانية دولتهم، وفي الاغتناء عند الاقتضاء، أن يخذوا حَذْوَ العرب في ارتياههم، أي في تنظيمهم للقوافل التجارية؛ فالنحو أحسن - على العموم - في حمل أية أمة على قبول فريق من الناس قبولاً حسناً عن طريق المعايضة التجارية من اجتياز هذا الفريق لأرضيها بغير هدف ظاهر، ومبادرتها العدوان برصاص البنادق عند سوء الظن.

وكان لعرب المغرب صلاتٌ تجارية بأقسام إفريقيا الغربية على الخصوص، وكان لعرب مصر صلاتٌ بأصقاع إفريقيا الشرقية والوسطى، وكان عرب مصر يذهبون إلى بلاد السودان بعد أن يقطعوا الصحراء طلباً للذهب والعاج والأرقاء، وبلغ العرب - في ارتياههم إفريقيا - بقاعاً مهمة، ومنها مدنٌ لم يُوفَّق الأوربيون المعاصرون لزيارتها، كمدينة تَبَكُّتو، وكان العرب يصلون إلى السواحل وإلى المناطق الوسطى أيضًا.

قال مسيو سيديو: « يصلُّ العرب من شواطئ إفريقيَّة إلى مضيق باب المندب ثم إلى الزنجبار فإلى بلاد الكاب، ويوسُّسون براشاً ومنبasaً وكيلولة حيث يعتزل أحُّ لأمير شيراز، وموازنبيق وصوفالاً وميلندة وмагادوكسو، ويستولون على الجُزر القربيَّة من الشواطئ، وعلى مراكز كثيرة في مدغشقر ... ولم يكن أقل من هذا تأثير القرآن في إفريقيَّة الوسطى التي لا تزال غير معلومة لدينا، وكان ما أقامه العرب من الممتلكات في الساحل الشرقي يُسْهَلُ عليهم ولوج داخل إفريقيَّة من هذه الناحية، وكان المسلمون يزورون بلاد الصومال الوديعَة المقرَّأة، فتُؤلَّفُ، مع سوقطراء، مستودعاً تجاريًّا مهمًا جدًا، وكانوا يزورون بلاد الحبشة وسنار وكردفان التي لها علاقاتٌ دائمة بمصر فتعدُّ

المفتاح الحقيقي لدارفور والوادي، وكانوا يذهبون من طرابلس الغرب إلى فزان، وكانت قوافلهم تذهب من بلاد المغرب **مُؤْفَلَةً** في الصحراء الكبرى غير خائفة من المغامرة في رمالها التي تمتد من ضفاف النيل إلى المحيط الأطلنطي، والتي تبلغ مساحتها نحو مائتي ألف فرسخ مربع، وغير خائفة من الانتشار في بلاد السودان، والحق أن العرق العربي خط طريقه بين سكان إفريقيا بحروف لا تُمحى، والحق أن جميع السياح المعاصرين أجمعوا على الإشادة بما نجم عن هذا من الإصلاح في تكوين هؤلاء السكان **بَدَنًا وَخُلُقًا وَعُقْلًا.**»



شكل ٢-٩: صندوق صغير من العاج المحفور، وهو مصنوع في مراكش في القرن الحادى عشر من الميلاد (من صورة قديمة).

(٤) صلات العرب بأوربة

كانت لأوربة علائق بالعرب مدةً طويلة، وكانت هذه العلاقة تتم بالطرق الآتية:

- (١) طريق جبال البرنات.
- (٢) طريق البحر المتوسط.



شكل ٣-٩: إناء من البرونز مصنوع على الطراز الصيني العربي (من مجموعة شيفر، من صورة فوتوغرافية التققطها المؤلف).

(٣) طريق **القلغا** المؤدية إلى شمال أوربة باجتياز بلاد روسية؛ فأما الطريقان الأوليان: فكان يسلكهما عرب الأندلس، وأما الطريق الثالثة: فكان يسلكها عرب المشرق.

وأقام العرب بجنوب فرنسه عدة قرون، وكان لا بد لهم من إيجاد صلاتٍ فيما وراء جبال البرنات، غير أنهم كانوا يفضلون أن تَقصدُ بعثاثُهم التجارية سواحل البحر المتوسط على الخصوص، وأن يتصلوا فيها بأمم تجارية مهذبة أكثر من التي كانت تقطن بفرنسا أيام سلطانهم في إسبانيا.

وكان العرب سادة البحر المتوسط، وكانوا يرسلون إلى جميع المواني الأوربية والإفريقية المحيطة بهم منتجاتهم الصناعية والزراعية كالقطن والزعفران والورق والحرير الغرناطي والجلد القرطبي والنسال الطليطلية ... إلخ، وكانت المرافع الإسبانية، قدس ومالقة وقرطاجنة ... إلخ، مراكز لنشاط ينافسه ما هي عليه الآن مناقضةً محزنة.

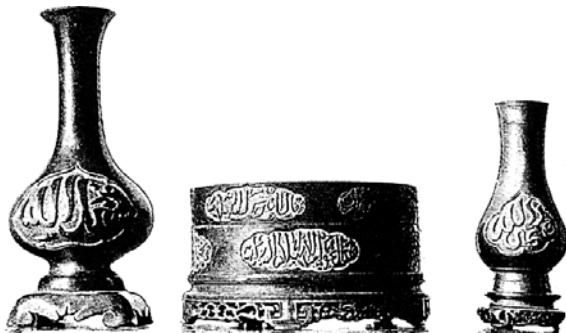
ولا نرى أي أثر لصلات العرب التجارية بشمال أوربة في كتب التاريخ القديمة التي انتهت إلينا، ولكن الوثائق التي هي أدق من كتب التاريخ تثبت وجود تلك الصلات، وتدل على تاريخ بُدايتها ونهايتها فضلاً عن الطرق التي كانوا يسلكونها، وتتألف هذه الوثائق من **نقود** تركها العرب في الطرق التي كانوا يمرون منها؛ فتكشف أعمال الحفر الحديثة عنها في كل يوم.



شكل ٤-٤: إناء من البرونز مصنوع على الطراز الصيني العربي (من مجموعة شيفر، من صورة فوتوغرافية التقاطها المؤلف).

ومن هذه النقود نعلم أن نقطة البداية لتلك التجارة هي سواحل بحر قزوين، حيث كان يجتمع تجار المراكز التجارية الكبرى، كدمشق وبغداد وسمرقند وطهران وتفليس، ويسيرون من أستراخان مع نهر الفُلغا إلى مدينة بلغار (مدينة سنبرسك الحاضرة) الواقعة لدى قدماء البلغار في روسية، والتي كانت تعد مستودعاً تجارياً بين آسيا وشمال أوربة.

ويظهر أن العرب لم يجاوزوا مدينة بلغار، وكان تجار أمم أخرى يأخذون السلع صاعدين مع نهر الفُلغا غير تاركين له إلا ليُنزلوا إلى البحر البلطيّ ويصلوا إلى خليج فنلندا، وكانت نوْفُغورُود وشلزويغ، ولا سيما جزر البحر البلطيّ وغوتنلند وأولند وبُور نهُولُم، أهمّ مستودعات شمال أوربة، وقد عُدّت النقود العربية التي وُجدت في هذه المستودعات بالمائات.

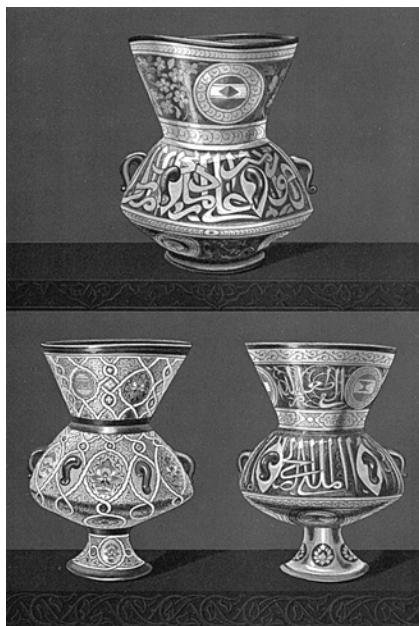


شكل ٥-٩: آنية من البرونز مصنوعة على الطراز الصيني العربي (من مجموعة شيفر، من صورة فوتوغرافية التقاطها المؤلف).

وكان التجار يتوجهون من خليج فنلندا إلى أهم نقاط شواطئ البحر البلطي، أي إلى شواطئ إسوج وفنلندا ودانيماركة وپروسية، وكانوا يصعدون مع ما يجدون على الشواطئ من مجاري المياه، وذلك كما تدل عليه النقود العربية التي وُجدت في سيليزية وبولونية، ولا سيما في جوار وارسو.

ويidel وجودُ كثِيرٍ من النقود العربية في أماكن معينة على صلات أصحاب هذه النقود التجارية بالدولة العربية فيما مضى، وإن لم يكن عندنا سوى فرضيات حول حقيقة الشعوب التي كانوا يتسبّبون إليها، وتراينا نعرف، مع ذلك أنهم كانوا مسلمين، لما لا نزال نجد من روس مسلمين. وثبتت الكتابات الكوفية التي وُجدت في روسية أنه كان للعرب مستعمرات عند الخزر والبلغار هنالك، ولكنه ليس لدينا ما يدل على أن تجار العرب كانوا يذهبون إلى ما هو أبعد من مدينة بلغار، وبلغار روسية هم الذين كانوا ينقلون السلع إلى أهل دانيماركة لا ريب، وأهل دانيماركة، الذين لم تصفهم التواريخ الأوربية لنا بغير القرصنة، كانوا يتعاطون التجارة أكثر من تعاطيهم القرصنة إذن.

وكان العنبر، الذي هو من السلع المرغوب فيها كثيراً في الشرق والفراء والقصدرين، والإماء على حسب ما ورد في بعض النصوص العربية، أهمَّ مواد تجارة العرب في شمال أوربة، وكان أهل دانيماركة يأخذون نسائج الشرق وبُسطه وآنيته المنقوشة وحلَّيه في مقابل هذه السلع، وأرجح أن يكون كثِيرٌ من منتجات الشرق، كالحلي المحرَّزة مثلًا،



شكل ٦-٩: مصايبح عربية قديمة في بعض المساجد وهي مصنوعة من زجاج مطلي بالميناء
(من تصوير المؤلف الفوتوغرافي).

قد دخل في عدة أقسام من أورية الغربية، وتراني أميل إلى الاعتقاد بأن بعض الحلي الموجودة في متحف ستوكلهم، على أنها من مصنوعات إسكندينافية في الدور الحديدي، والتي نشرت صور عدة نماذج لها في كتابي الأخير، قد جلب من الشرق بتلك الطريق التي تكلمت عنها، فالحق أن كثيراً من هذه الحلي ذو منظر شرقي. وتدل تواريخ النقود التي وُجدت في روسية، من مصب نهر القلغا إلى شواطئ البحر البلطي، على أن بدء تلك التجارة العربية كان في عهد الخلفاء الأولين، وأن ختامها لم يجاوز أواخر القرن الحادي عشر من الميلاد، ولذا تكون قد دامت نحو أربعة قرون. وأآخر تاريخ لتلك النقود التي وُجدت هو سنة ١٠٤٠م، وبنو العباس هم أكثر من ذكر فيها من أولياء الأمور بأسية.



شكل ٧-٩: إناء من النحاس المكتف بالفضة مصنوع في دمشق على الطراز الحديث (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

وُجِدَ بين تلك النقود نقود عربية ضُربت في الأندلس، ولكنها من الندرة ما يحتمل أن يكون قد وصلت معه إلى شمال أوربة بعد أن تداولها تجارُ دمشق وسمرقند. والأسبابُ التي انقطعت بها صلاتُ العرب التجارية بشمال أوربة بسيطةً جدًا، أي أنَّ ما اشتعل من الفتنة الداخلية في آسية وما تم من هجرة البلغار وما حدث من الأضطرابات السياسية في روسية وقفها في القرن الحادى عشر، وأنها إذا كانت لم تُستأنف فيما بعد فلِمَا نشأ عن الحروب الصليبية من تحويل تجارة أوربة مع الشرق إلى طريق البحر، وأنَّ أهل البندقية ابتكروا تجارة الشرق مع الغرب منذ القرن الثاني عشر من الميلاد، فصارت جميعُ المنتجات التي يُبادَلُ بها في مختلف أجزاء العالم تمرُّ من أيديهم.

تجارة العرب: صلاتهم بمختلف الأمم

هوامش

(١) المقرأة: الكثيرة الضيافة.

الفصل العاشر

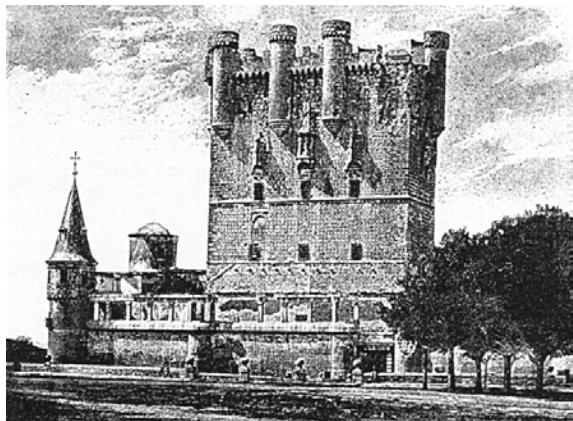
تمدين العرب لأوربة: تأثيرهم في الشرق والغرب

(١) تأثير العرب في الشرق

خضع الشرق لكثير من الشعوب، كالفرس والأغارقة والرومان ... إلخ، ولكن تأثير هذه الشعوب السياسي إذا كان عظيماً دائمًا فإن تأثيرها المدنى كان ضعيفاً عموماً، وإذا عدّوت المدن التي كانت تملّكها هذه الشعوب رأساً رأيتها لم تُوفّق لفرض دينها ولغتها وفنونها، ومن ذلك أن ظلّت مصر الثابتة في زمن البطالمة وفي زمن الرومان وفيّة لماضيها، وكان ما تعلم من اعتناق الغالبين لديانة المغلوبين ولغتهم وطراز بنائهم فيها، وكان ما تَعرِف من إقامة البطالمة لمبانيهم التي رمّمها القياصرة، على الطراز الفرعوني. وما عجز الأغارقة والفرس والرومان عنه في الشرق قدّر عليه العرب بسرعة ومن غير إكراه، ومن ذلك أن مصر، التي كان يلوح أنها أصعب أقطار العالم إذاعناً للمؤثرات الأجنبية، نسيت، في أقل من قرن واحد مرّ على افتتاح عمرو بن العاص لها، ماضي حضارتها الذي دام نحو سبعة آلاف سنة معتنقة ديناً جديداً ولغة جديدة وفناً جديداً اعتنقاً متيناً دام بعد تواري الأمة التي حملتها عليه.

ولم يُغَيِّر المصريون دينهم سوى مرة واحدة قبل العرب، وذلك حين خَرَب قياصرة القسطنطينية بلاد مصر بتحطيمهم جميع آثارها أو تشويهها وجعلهم القتل عقوبة من يخالف حظر عبادة آلهتها الأقدمين، وهكذا عانى المصريون ديناً جديداً فُرض عليهم بالقوة أكثر من اعتناقهم له، وما كان من تهافت المصريين على تبذل النصرانية ودخولهم في الإسلام يُثبت درجة ضعف تأثير النصرانية فيهم.

وما وُفقَ العرب له في مصر من التأثير البالغ اتفق لهم مثُلُه في كل بلد حَفِقَت فوقه رايتهم كإفريقية وسورية وفارس ... إلخ، وبلغ نفوذهم بلاد الهند التي لم يدخلوها إلا عابري سبيل، وبلغ بلاد الصين التي لم يزوروها إلا تجاراً.



شكل ١-١٠: مقدم قصر شقوبية في الوقت الحاضر (من صورة فوتوغرافية).

ولا نرى في التاريخ أمة ذات تأثير بارز كالعرب، وذلك أن جميع الأمم التي اتصل العرب بها اعتنقوا حضارتهم، ولو حيناً من الزمن، وأن العرب لما غابوا عن مسرح التاريخ انتحل قاهرهم كالترك والمغول ... إلخ، تقاليدهم، وبَدَوا للعالم ناسرين لنفوذهم، أَجَل، ماتت حضارة العرب منذ قرون، ولكن العالم لا يعرف اليوم غير دين أتباع النبي ولغتهم في البلاد المتدة من المحيط الأطلنطي إلى السند، ومن البحر المتوسط إلى الصحراء.

ولم يتجلّ تأثير العرب في الشرق في الديانة واللغة والفنون وحدها، بل تجلّ في ثقافته العلمية أيضًا، ومن ذلك أن المسلمين كانوا ذوي صلات مستمرة بالهند والصين، وأنهم نقلوا إليهما قسمًا كبيرًا من المعارف العلمية التي عَدَّها الأوربيون من أصل هنودسي أو صيني فيما بعد، وقد أصحاب سيدِيُّو في توكييد هذا الأمر ذكر — على سبيل المثال — أن العربي البيروني المتوفى سنة ١٠٣١ أتحف الهندوس، في أثناء سياحته

تمدين العرب لأوربة: تأثيرهم في الشرق والغرب

في بلادهم، بمحاتاراتٍ مهمة من كتب العلم فنقلوها بعدهنَّ نَظِمًا إلى السنسكريتية على حسن عادتهم.



شكل ٢-١٠: قصر شقوبية، وقد أقيم على الطراز الإسباني العربي (من رسم قديم لوايزنر).

ويجب ألا تستنبط من هذا القول نتائج واسعة، فإذا كان العرب أفضل من الهندوس علمًا، كما هو واضح، فإنهم دونهم فلسفة وديانة، فليس في عامية القرآن ولا هويته الصبيانية، التي هي من صفات الأديان السامية أيضًا، ما يقاس بنظريات الهندوس التي أتيح لي أن أُبَيِّن عمقها العجيب في كتاب آخر. ويظهر أن ما اقتبسه الصينيون من العرب أهم مما أخذه الهندوس عنهم، وقد بينا في فصل سابق أن علوم العرب دخلت الصين على أثر الغارة المغولية، وأن الفلكي

الصيني الشهير كُوشو كنْع تناول رسالة ابن يونس في الفلك في سنة ١٢٨٠ م وأذاعها في بلاد الصين، وأن الطَّبَّ العربيَّ أدخل إلى الصين وقتما غزاها كوبلاي، أي في سنة ١٢١٥ م.

ولا يزال تأثير العرب العلمي في أهل المشرق جارياً، ولا يزال الفرس يدرسون العلوم في كتب العرب، وقد ذكرنا أن اللغة العربية في بلاد الفرس شأنًا كالذي كان للغة اللاتينية في العرب في القرون الوسطى.

(٢) تأثير العرب في الغرب

(١-٢) تأثير العرب العلمي والأدبي

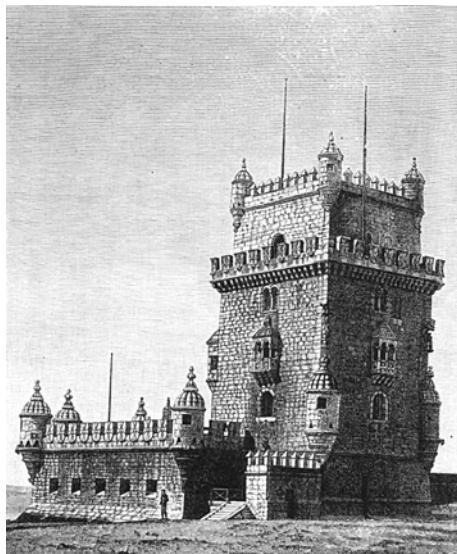
نُشِّطَ الآن أن تأثير العرب في الغرب عظيم أيضًا، وأن أوربة مدينة للعرب بحضارتها، والحق أن تأثير العرب في الغرب ليس أقلًّ منه في الشرق، ولكن بمعنى آخر، فاما تأثيرهم في الشرق فتراه باديًا في أمر الدين واللغة والفنون على الخصوص، وأماماً تأثيرهم الديني في الغرب فتراه صفرًا، وترى تأثيرهم الفني واللغوي فيه ضعيفًا، وترى تأثيرهم العلمي والأدبي والخلقي فيه عظيماً.

ولا يمكن إدراك أهمية شأن العرب في الغرب إلا بتصور حال أوربة حينما دخلوا الحضارة إليها.

إذا رجعنا إلى القرن التاسع والقرن العاشر من الميلاد، حين كانت الحضارة الإسلامية في إسبانيا ساطعة جدًا، رأينا أن مراكز الثقافة في الغرب كانت أبراجًا يسكنها سيدورات متوجهون يفخرون بأنهم لا يقرأون، وأن أكثر رجال النصرانية معرفة كانوا من الرهبان المساكين الجاهلين الذين يقضون أوقاتهم في أدبارهم ليكتشفو كتب الأقدمين النفيضة بخشوع، وذلك كيما يكون عندهم من الرُّفُوق ما هو ضروري لنسخ كتب العبادة.

ودامت همجية أوربة البالغة زمناً طويلاً من غير أن تشعر بها، ولم يجد في أوربة بعض الميل إلى العلم إلا في القرن الحادى عشر وفي القرن الثاني عشر من الميلاد، وذلك حين ظهر فيها أناسٌ رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل الثقيل عنهم فولوا وجوههم شطر العرب الذين كانوا أئمةً وحدهم.

ولم تكن الحروب الصليبية سبباً في إدخال العلوم إلى أوربة كما يُردّد على العموم، وإنما دخلت العلوم أوربة من إسبانية وصقلية وإيطالية، وذلك أن مكتباً للمترجمين

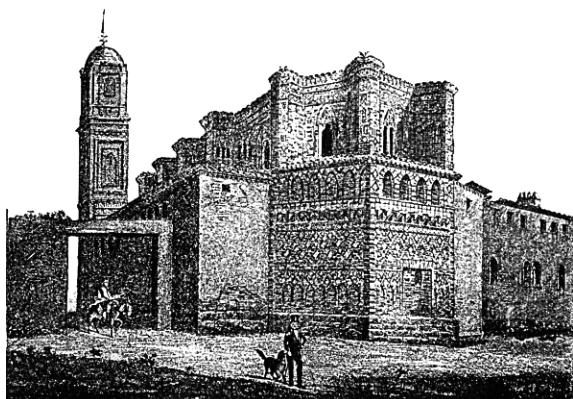


شكل ٣-١٠: برج بليم، وهو قائم على الطراز الإسباني العربي (من صورة فوتوغرافية).

في طليطلة بدأ منذ سنة ١١٢٠ م ينُقلُ أَهْمَ كتب العرب إلى اللغة اللاتينية تحت رعاية رئيس الأساقفة ريمون، وأن أعماله في الترجمة كُلُّتْ بالنجاح ما بدا للعرب بها عالمٌ جديد، ولم يتوانَ الغربُ في أمر هذه الترجمة في القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر من الميلاد، ولم يقتصر الغرب على ترجمة مؤلفات علماء العرب، كالرازي وأبي القاسم وابن سينا وابن رشد ... إلخ، إلى اللغة اللاتينية، بل نُقلَتْ إليها، أيضًا، كتب علماء اليونان التي كان المسلمون قد ترجموها إلى لغتهم الخاصة ككتب جالينوس وبقراط وأفلاطون وأرساطو وأقليدس وأرشميدس وبطليموس؛ فزاد عدد ما تُرجم من كتب العرب إلى اللغة اللاتينية على ثلاثة عشر كتاب كما روى الدكتور لوكلير في كتابه «تاريخ الطب العربي».

والحق أن القرون الوسطى لم تعرف كتب العالم اليوناني القديم إلا من ترجمتها إلى لغة أتباع محمد، وبفضل هذه الترجمة اطلعنا على محتويات كتب اليونان التي ضاع أصلها ككتاب أپلانيوس في المخروطات، وشرح جالينوس في الأمراض السارية،

ورسالة أرسطو في الحجارة ... إلخ، وأنه إذا كانت هناك أمّةٌ تُقرُّ بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمان القديم فالعربُ هم تلك الأمة، لا رهبانُ القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى اسم اليونان. فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعتهم في إنقاذ تلك الكنوز الثمينة اعترافاً أبيدياً، قال مسيو ليبرى: «لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ؛ لتأخرت نهضة أوربة في الآداب عدة قرون.»



شكل ٤-٤: كنيسة القديس بطرس في قلعة أيبوب، وهي قائمة على الطراز الإسباني العربي (من صورة قديمة).

وعربُ الأندلس وحدهم، هم الذين صانوا في القرن العاشر من الميلاد، وذلك في تلك الزاوية الصغيرة من الغرب، العلوم والآداب التي أهملت في كل مكان، حتى في القسطنطينية، ولم يكن في العالم في ذلك الزمن بلادٌ يمكن الدرس فيها غير الأندلس العربية، وذلك خلا الشرق الإسلامي طبعاً، وإلى بلاد الأندلس كان يذهب أولئك النصارى القليلون لطلب العلوم في الحقيقة، ونذكر منهم، على حسب بعض الروايات التي هي موضوع جدال من غير أن يثبت عدم صحتها، جريرت الذي صار بابا في سنة ٩٩٩ م باسم سلفستر الثاني، والذي أراد أن ينشر في أوربة ما تعلمته؛ فعدَّ الناس عمله من الخوارق، واتهموه بأنه باع روحه من الشيطان.

ولم يظهر في أوربة، قبل القرن الخامس عشر من الميلاد، عالمٌ لم يقتصر على استنساخ كتب العرب، وعلى كتب العرب وحدها عُولَ روجر بي肯 وليونارد البيزى وأرنولد الفيلنوفى وريمون لول وسان توما وألبرت الكبير والأذفونش العاشر القشتالى ... إلخ، قال مسيو ريتان: «إن ألبرت الكبير مدين لابن سينا في كلّ شيء، وإن سان توما مدين في جميع فلسفته لابن رشد.»

وطلت ترجمات كتب العرب، ولا سيما الكتب العلمية، مصدرًا وحيدًا، تقريرًا للتدريس في جامعات أوربة خمسة قرون أو ستة قرون، ويمكننا أن نقول: إن تأثير العرب في بعض العلوم، كعلم الطب مثلًا، دام إلى أيامنا، فقد شرحَت كتب ابن سينا في مونبليي في أواخر القرن الماضي.

وبلغ تأثير العرب في جامعات أوربة من الاتساع ما شمل معه بعض المعارف التي لم يحققوا فيها تقدماً مهمًا كالفلسفة مثلًا، فكان ابن رشد الحجة البالغة للفلسفة في جامعاتنا منذ أوائل القرن الثالث عشر من الميلاد، ولما حاول لويس الحادي عشر تنظيم أمور التعليم في سنة ١٤٧٣ م أمر بتدريس مذهب هذا الفيلسوف العربي ومذهب أرسطو.

ولم يكن نفوذ العرب في جامعات إيطالية، ولا سيما جامعة پادو، أقل منه في فرنسة، فقد كان للعرب فيها شأنٌ كالذي بدا للأغارقة واللاتين بعد عصر النهضة، ويمكن القاريء أن يتمثل سعة نفوذ العرب من الاحتياج الصاحب الذي قاله الشاعر الكبير بترارك: «يا عجبًا، استطاع شيشرون أن يكون خطيبًا بعد ديموستين، واستطاع ثيرجل أن يكون شاعرًا بعد أومييس، فهل قدر علينا ألا نؤلف بعد العرب؟ لقد تساوينا نحن والأغارقة وجميع الشعوب غالباً وسبقناها أحياناً، خلا العرب، فيا للحمامة! ويا للضلال! ويا لعقرية إيطالية الناعسة أو الخامدة!»

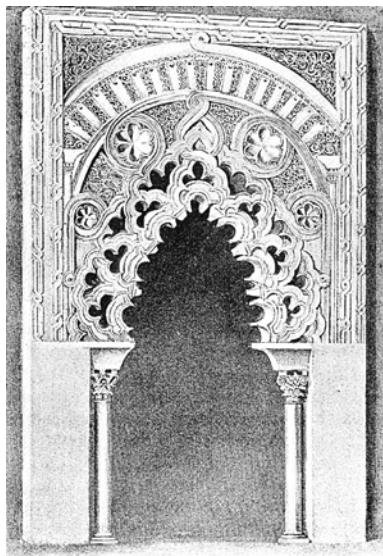
ولم يكن للقرآن تأثيرٌ في جميع مذاهب العرب العلمية والفلسفية التي نشروها في العالم في خمسة قرون، كما أنه لم يكن للتوراة أثرٌ في كتب العلم الحديثة، ولا عجب، فالقرآن مجموعة أحكام كان يحترمها العلماء تقريرًا؛ لأنها مصدر سلطان العرب، ولملاءمتها احتياجات الجماهير التي ليس من طبيعتها أن تكثُر للعلوم والفلسفة في كل زمان إلا قليلاً، غير أن العلماء كانوا لا يبالون بما بين نتائج اكتشافاتهم ونظريات الكتاب المقدس «القرآن» من الاختلاف، فإذا ما بلغت أفكارهم الحرة عامة الناس اضطُرَّ حُماتها من الخلفاء، عادةً، إلى نفيهم لأجل محدود احتراماً للشعور العام، وإذا



شكل ٥-١٠: تيجان أعمدة عربية وتيجان أعمدة على الطراز الإسباني العربي (مسجد قرطبة - مسجد طركونة القديم - شقوبية - سرقسطة - القصر بأشبيلية - طليطلة - دير غرافد - الترانسييتو بطليطلة، متحف العادات الإسباني).

ما هدأت الزوبعة بسرعة استدعاهem الخلفاء، ولم يَبُدْ عدم التسامح بين المسلمين إلا بعد أن اضمحل سلطان العرب في القرن الثالث عشر من الميلاد، وصارت سلطتهم قبضة «شعوب ثقيلة شرسة غير مهذبة» من تركٍ وبربر وغيرهم كما أشار إلى ذلك، بحق، مسيو رينان، وليس المذهب مصدر عدم التسامح في الغالب، بل الأشخاص، وكان العرقُ العربي من التهذيب والسماحة ما لا يَحِيدُ معه عن هذا التسامح الذي أقام الدليل عليه في كل مكان منذ بدء فتوحه.

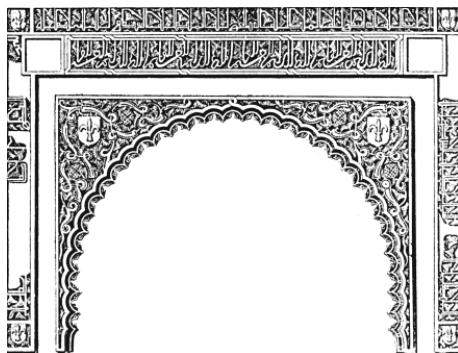
ويمكن القول بأن التسامح الديني كان مطلقاً في دور ازدهار حضارة العرب، وقد أوردنا على هذا غير دليل، ولا نُنْسَهُ فيه، وإنما نشير إلى ما ترجمه مسيو دوزي



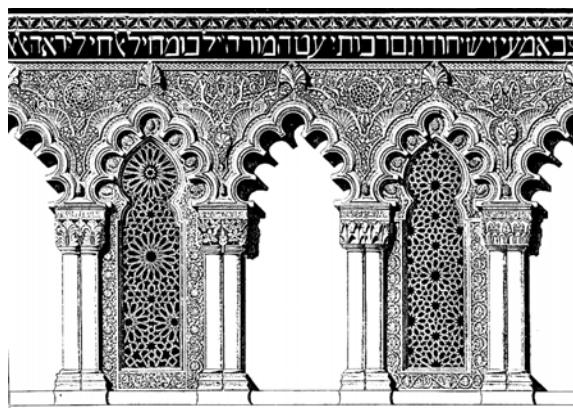
شكل ٦-١٠: قوس الجعفرية في سرقسطة.

من قصة أحد علماء الكلام العرب الذي كان يحضر ببغداد دروساً كثيرة في الفلسفة يشتراك فيها أناس من اليهود والزنادقة والمجوس والمسلمين والنصارى ... إلخ، فيستمع إلى كل واحد منهم باحترام عظيم، ولا يُطلب منه إلا أن يستند إلى الأدلة الصادرة عن العقل، لا إلى الأدلة المأخوذة من أي كتاب ديني كان، فتسامح مثل هذا هو مما لم تصل إليه أوربة بعد ما قامت به في أكثر من ألف سنة من الحروب الطاحنة، وما عانته من الأحقاد المتأصلة، وما مُنِيت به من المذابح الدامية.

وإذا كان تأثير العرب عظيماً في نواحي أوربة التي لم يسيطرها عليها إلا بمؤلفاتهم، أبصروا أنه كان أعظم من هذا في البلاد التي حضّرت لسلطانهم كبلاد إسبانيا التي نرى أن أفضل وسيلة لتقدير تأثير العرب فيها تقديرًا قاطعاً، هو أن ننظر إلى حالتها التي كانت عليها قبل فتحهم إياباً، وفي أثناء سيادتهم لها، وبعد إجلائهم عنها؛ فأما حالها قبل الفتح العربي وفي أيام سلطتهم فقد بحثنا فيها، وذكرنا درجة السعادة التي تمت لها في زمن دولتهم. وأما حالها بعد العرب: فقد تكلمنا عنها



شكل ٧-١٠: قوس على الطراز الإسباني العربي في طليطلة (متحف العادات الإسباني).



شكل ٨-١٠: دقائق زخارف في كنيسة الترانسيتو (كنيسة بطليطلة) وهي على الطراز الإسرائيلي العربي.

أيضاً، وستتاح لنا العودة إليها حينما نبحث في ورثة العرب بما قليل، فهناك نرى أنها هبطت بعد إجلائهم إلى ذرّة من الانحطاط لم تنهض منها حتى الآن، ولن يجد

الباحث مثلاً أوضح من هذا لتأثير أمة في أمة أخرى، والتاريخ لم يشتمل على ما هو أبرز من هذا المثال.

ومما تقدم ننتهي إلى نتيجتين مهمتين: الأولى: هي أنه لم يكن للإسلام، ديانةً، تأثيرٌ في آثار العرب العلمية والفلسفية، والثانية: هي أن فضل الشرق في تأثيره في الغرب يعود إلى العرب وحدهم، وأما الشعوب التي حلت محل العرب، وإن اتفق لها شيء من التأثير السياسي أو الديني لم يكن تأثيرها العلمي والأدبي والفلسفي في غير درجة الصفر.

(٢-٢) تأثير العربي في فن العمارة

للعرب، لا ريب، تأثير في فنون أوربة، ولا سيما في فن عمارتها، ولكنه يبدو لي أضعف مما يعتقد على العموم، ولا أرى أن يُبحث عنه حيث أريد وجوده، ومن ثم أن يقال: إن الطراز القوطي أخذ عن العرب في القرون الوسطى مثلاً، ومع أنني أتفق، مع كثير من المؤلفين، على أن أوربة اقتبست الأقواس القوطية (أي الأقواس المصنوعة على رسم البيكاريين) من العرب، والعرب قد استعملوها في مصر وصقلية وإيطالية منذ القرن العاشر من الميلاد، تراني لا أقول: إننا مدینون للعرب بطرازنا القوطي؛ لما أرى من الفرق العظيم بين كنائسنا التي أقيمت عليه في القرن الثالث عشر أو القرن الرابع عشر من الميلاد وما بُني في أي من هذين القرنين من المساجد، وأن أقواس الأبواب والنوافذ المصنوعة على رسم البيكاريين ليست كل ما في العمارة القوطية التي تتتألف من عناصر مختلفة لا تقدر قيمتها إلا بعد البحث في مجموع البناء.

والحق أن الطراز القوطي لم يستند إلى عنصر واحد، فهو مشتقٌ من الطراز الروماني الذي هو وليد الطراز اللاتيني والطراز البيزنطي، وذلك بعد سلسلة من التطورات، والحق أن الطراز القوطي ظهر، بعد أن تم تكوينه، فنًا مبتكرًا مختلفاً عن فنون العمارة السابقة، فتعد كل كنيسة قوطية أتقن بناؤها من أجمل ما شاد الإنسان من المباني التي لا أستثنى منها أكمل الآثار الإغريقية اللاتينية القديمة.

وهنا أقرر أن الغرب اقتبس أصول فن عمارته من العرب، وأن لعروق الغرب احتياجات وأدواتًا تختلف عن احتياجات الشرق وأدواته، وأن بيئات الغرب مبنية لبيئات الشرق، وأن الفنون وليدة احتياجات أحد الأدوار ومشاعره؛ فكان ما نراه من اختلاف فنون الغرب عن فنون الشرق بحكم الضرورة.

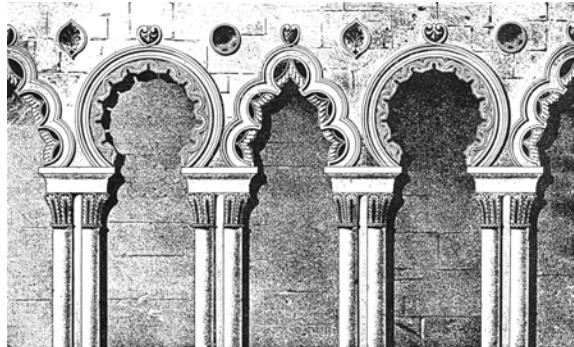


شكل ٩-١٠: دقائق زخارف في كنيسة الترانسيتو بطلبيطة (طراز إسرائيلي عربي).

وإنني، على ما قررت من عدم المشابهة بين الطراز العربي والطراز القوطي بعد أن تكون، لا أنكر أهمية الفروع التي اقتبسها الغربيون من الشرقيين، ولم أنفرد بهذا الاعتراف، بل اعترف بذلك أكثر المؤلفين حجة، واسمع ما قاله باتيسِيَّ:

لا يجوز الشك في أن البنائين الفرنسيين اقتبسوا من الفن الشرقي كثيراً من العناصر المعمارية المهمة والزخارف في القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر من الميلاد ... ألم نجد في كتدرائية پوي، التي هي من أقدس البناءيات

النصرانية، باباً مستوراً بالكتابات العربية؟ أو لم تقم في أربونة وغيرها حصنٌ متوجة وفقَ الذوق العربي؟



شكل ١٠-١٠: بعض أقواس في دير الراهبات بشقوبية (طراز إسباني عربي).

وذكر مسيو لونورمان، الذي هو حجة في هذه الموضوعات مثل باتيسبيه، أن تأثير العرب واضح في كثير من الكنائس الفرنسية، ككنيسة مدينة ماغلُون «١٧٨١م» التي كانت ذات صلات بالشرق، وكنيسة «كانده مين ولوار» وكنيسة «غاماش» «سوم» ... إلخ.

والمَعْ مسيو شارل بلان إلى ما اقتبسه الأوربيون من العرب في فن العمارة، وقال: «أرى من غير مبالغة فيما لأمة من التأثير في أمّة، وذلك خلافاً لما يُسَار عليه اليوم أن الصليبيين الذين شاهدوا ما اشتمل عليه الفن العربي من المشربيات وشرف المآذن والأفارييز أدخلوا إلى فرنسة المراقب والجواSQ والأبراج والأطناf والسياجات التي استُخدِمت كثيراً في العمارات المدنية والحربية في القرون الوسطى».

ولم يكن مسيو برييس الأفيفي المتخصص في فن العمارة العربي على غير هذا الرأي، فقد قال: «إن النصارى أخذوا عن العرب الأبراج الرائعة التي استخدمها الغرب بكثرة حتى أواخر القرن السادس عشر من الميلاد».

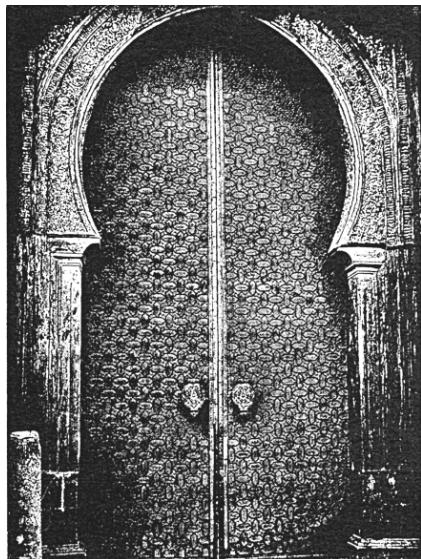
ولا يَغُرُّ عن بالك أن الأوربيين كانوا يستخدمون في القرون الوسطى كثيراً من بنائي الأجانب في إقامة مبانيهم، وأنهم كانوا يوحون إليهم مثلما كان يوحى به العرب

إلى بنائي البزنطيين، وأن هؤلاء المعماريين كانوا يجئون من كل مكان، وأن شارل مان كان يأتي بالكثير منهم من الشرق. وقد نقل مسيو فياردو عبارة من كتاب «تاريخ باريس» لدولور جاء فيها أن مهندسين معماريين من العرب استخدموها في إنشاء كنيسة نوتردام الباريسية: ويتجلّ في إسبانية — على الخصوص — تأثير العرب المعماري العظيم الذي غَفل عن ذكره العلماء المشار إليهم، وقد ذكرنا في فصل سابق أنه نشأ عن تمازج فنون العرب والنصارى طرأت خاصٌ يُعرف بالطراز المدجن الذي ازدهر في القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر من الميلاد على الخصوص، وتَرَى في الصور التي نشرناها في هذا الفصل أمثلةً مهمةً لذلك، وما أبراج كثيرة من كنائس طليطلة إلا مقتبسٌ من المآذن، وليس المبني التي شادها النصارى في الولايات المستقلة في العهد الإسلامي إلا عربيةً أكثر منها نصرانيةً، وذلك كقصر شقوبية الشهير الذي نَشَرْتُ له عدة صور، فتدل إحدى هذه الصور التي التقناها من رسمٍ قديم على حاله قبل حريق سنة ١٨٦٢، وتدلُّ الصور الأخرى الفوتوغرافية الأصل على حاله في الوقت الحاضر، ولا نجهل أن قصر شقوبية هذا أقيم في القرن الحادي عشر من الميلاد، أي أقيم في أيام السيد بأمر الأذفونش السادس الذي طرده أخوه من ممالكه، والتَّجَاءَ إلى عرب طليطلة، ودرس قصرهم فيها وعاد إلى ممالكه، وأنشأ قصرًا شبِّهَا به، ومما يزيد قصر شقوبية قيمةً إمكان عَدَّه مثلاً للقصور العربية المحسنة التي أقيمت في بلاد إسبانية ثم عفا رسمُها تقربيًا في الوقت الحاضر.

ويلوح لي أن آثاراً كثيرة عدها بعض المؤلفين من المبني القائمة على الطراز القوطى الحالص، كبرج بليم الذي أنشأ بالقرب من أشبونة، ذات مسحة عربية بشكلها العام وأبراجها المُطَنَّفة وسرفها وبجزئياتٍ أخرى فيها.

أجل، قد يُرى أن تأثير العرب في إسبانية زال تماماً، ولكن بعض المدن الإسبانية، ولا سيما أشبوبليّة، حافلةً بذكريات العرب، ولا تزال بيوتها تبني على الطراز الإسلامي، وهي لا تختلف عن نماذجها إلا بفقر زخارفها، ولا يزال الرقص والموسيقا فيها على الطريقة العربية، ويشاهد الدم الشرقي فيها بسهولة كما ذكرت ذلك سابقاً.

أجل، يمكن أن تُباد أمة، وأن تُحرق كتبها، وأن تُهدم آثارها، ولكنَّ تأثيرها يكون أقوى من القلْزُ¹ غالباً، ولا يستطيع الإنسان محوه، ولا تقاد العصور تقدِّر عليه.



شكل ١١-١٠: باب الغفران في قرطبة (طراز إسباني عربي، من صورة فوتوغرافية).

(٣-٢) تأثير العرب في الطبائع

لا نعود إلى ما فَصَّلْنَاهُ في فصل سابق عن تأثير العرب الْخُلُقِيِّ في أوربة، وإنما نذكر أننا أثبتنا فيه الفرق العظيم بين سنيورات النصارى وأشياع النبي في ذلك الزمن، وأن النصارى تخلصوا من همجيتهم بفضل اتصالهم بالعرب، واقتباسهم منهم مبادئ فروسيتهم، وما تؤدي إليه هذه المبادئ من الالتزامات، كمراعاة النساء والشيوخ والأولاد واحترام العهود ... إلخ، ونذكر أننا بينما في فصلنا عن الحروب الصليبية أن أوربة النصرانية كانت دون الشرق الإسلامي أخلاً بمراحل، فإذا كان للديانات ما يُسند إليها، وما نجادل فيه، من التأثير في الطبائع على العموم أمكنت المقابلة بين الإسلام والأديان الأخرى التي تَزَعُم أنها أفضل منه على الخصوص.



شكل ١٢-١٠: مدقّة باب الغفران في قرطبة.

وقد تكلمنا في ذلك الفصل، بما فيه الكفاية، عن تأثير العرب الْخُلقي في أوربة، فنحيل القارئ عليه، وإنما نذكر القارئ بالنتيجة التي تَوَصَّل إليها، أيضًا، العالمة المتدين مسيو بارتلمي سنت هيلر في كتابه عن القرآن حيث قال:

أسفرت تجارة العرب وتقليدهم عن تهذيب طبائع سنويوراتنا الغليظة في القرون الوسطى، وتعلّم فرساننا أرقَّ العواطف وأنبلَها وأرحمها من غير أن يفقدوا شيئاً من شجاعتهم، وأشك في أن تكون النصرانية وحدها قد أوجت إليهم بهذا مهما بُولخ في كرمها.

وقد يسأل القارئ بعد ما تقدم: لِمَ يُنْكِرُ تأثير العرب علماءُ الوقت الحاضر الذين يَضعون مبدأ حرية الفكر فوق كل اعتبار ديني كما يلوح؟ لا أرى غير جواب واحد عن هذا السؤال الذي أسأل نفسي به أيضًا وهو أن استقلالنا الفكري لم يكن في غير الظواهر بالحقيقة، وأننا لسنا من أحرار الفكر في بعض الموضوعات كما نريد.



شكل ١٣-١٠: باب مخزن الأمتعة المقدسة في كاتدرائية أشبيلية (طراز إسباني عربي).



شكل ١٤-١٠: قلادة من ذهب مصنوعة في غرناطة في القرن الرابع عشر على الطراز العربي الإسباني (متحف الآثار في مدريد، من صورة فوتوغرافية).

فالماء عندنا ذو شخصيتين: الشخصية العصرية التي كَوَّنَتْها الدراسات الخاصة والبيئة الخلقية والثقافية، والشخصية القديمة غير الشاعرة التي جَمَدَتْ وتحجرت بفعل الأجداد وكانت خلاصةً لماضٍ طويل، والشخصية غير الشاعرة وحدها، ووحدتها فقط، هي التي تتكلم عند أكثر الناس وتُمْسِكُ فيهم العتقدات نفسها مسمماً بأسماء مختلفة، وتتملي آرائهم، فيلوح ما تُمْلِيَ عليهم من الآراء حُرّاً في الظاهر فِيُحترم. والحق أن أتباع محمد ظلوا أشدّ من عرفته أوربة من الأعداء إرهاباً عدة قرون، وأنهم، عندما كانوا لا يُرْعِدونَا بأسلحتهم، كما في زمن شارل مارتل والحروب الصليبية، أو يهددون أوربة بعد فتح القسطنطينية، كانوا يُذْلُونَا بأفضلية حضارتهم الساحقة، وأننا لم نتحرّر من نفوذهم إلا بالأمس.

وتراكمت مبتسراتنا الموروثة ضد الإسلام والمسلمين في قرون كثيرة، وصارت جزءاً من مزاجنا، وأضحت طبيعةً متّصلةً فيينا تأصّلَ حقد اليهود على النصارى الْخَفِي أحياناً والعميق دائماً.



شكل ١٥-١٠: مصباح من زجاج مطلي بالميناء (من تصوير برييس الأثيني).

وإذا أضفنا إلى مبتسراتنا الموروثة ضد المسلمين مُبْتَسِرَنا الموروث الذي زاد مع القرون بفعل ثقافتنا المدرسية البغيضة القائلة: إن اليونان واللاتين وحدّهم منبعُ العلوم

والآداب في الزمن الماضي أدركنا، بسهولةٍ سرّ جهودنا العامّ لتأثير العرب العظيم في تاريخ حضارة أوربة.

ويتراءى لبعض الفضلاء أن من العار أن يُرى أن أوربة النصرانية مدينة لأولئك الكافرين في خروجها من دور التوحش، فعارٌ ظاهر كهذا لا يُقبل إلا بصعوبة.^٢

نختم هذا الفصل بقولنا: إنه كان للحضارة الإسلامية تأثيرٌ عظيم في العالم، وإن هذا التأثير خاص بالعرب وحدهم فلا تشارکهم فيه الشعوب الكثيرة التي اعتنقت دينهم، وإن العرب هذبوا البربرة الدين قَصَوا على دولة الرومان بتأثيرهم الخلقي، وإن العرب هم الذين فتحوا لأوربة ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية بتأثيرهم الثقافي، فكانوا مُمدّنين لنا وأئمةً لنا ستة قرون.

هوما مش

(١) القلز: النحاس الذي لا يعمل فيه الحديد.

(٢) حينما تلتقي المبتسرات الموروثة والثقافة في العالم الفاضل، ولا يدرى على أيهما يعتمد في وزن الأمور، يتجلّى فيه ما يجتمع في شخص واحد من الذاتية القديمة التي هي وليدة الماضي، والذاتية العصرية التي هي وليدة المشاهدة الشخصية، فيصدر عنه من الآراء المتناقضة ما يستوقف النظر، ومن ذلك التناقض المثال البارز الذي يجده القارئ في الخطبة التي ألقاها الكاتب اللبق والعالم الفاضل مسيو رينان في السوربون عن الإسلام، والتي أراد مسيو رينان أن يثبت فيها عجز العرب، ولكن ترهاته كانت تتفق بما كان يجيء في الصفحة التي تليها، فبعد أن قال مسيو رينان مثلاً: إن تقدم العلوم مدين للعرب وحدهم مدة ستمائة سنة، وذكر أن عدم التسامح مما لم يعرفه الإسلام إلا بعد أن حل محل العرب شعوب متاخرة كالبربر والترك، عاد فادعى أن الإسلام اضطهد العلم والفلسفة وقضى على العقل في البلاد التي دانت له.

بيد أن ناقداً بصيراً كمسيو رينان لا يستطيع أن ينام مدة طويلة على مثل ذلك الزعم المناقض لأوضح ما رواه التاريخ، فذهبت عنه مبتسراته الموروثة ثانية، ورجع يعترف بتأثير العرب في القرون الوسطى، ويشهد بتقدم العلوم في بلاد الأندلس أيام سلطانهم.

ومن دواعي الأسف أن تغلبت على رينان مبتسراته غير الشاعرة بعد ذلك سريعاً، فصار يزعم أن علماء العرب ليسوا عرباً؛ بل «من أبناء سمرقند وقرطبة وأشبيلية ...

إلخ». مع أن الواقع أن تلك البلاد مما ملكه العرب، وأن الدم العربي مما جرى في عروق أبنائها، وأن علوم العرب مما كان لها نصيب منه زمناً طويلاً، وأنه إذا أُبيح لأحد أن يجادل في الآثار التي صدرت عن مدارس العرب، كان ذلك من قبيل إباحته لنفسه أن يجادل في مؤلفات علماء فرنسة بحجة أنهم من الشعوب الكثيرة التي تألف من مجموعها الشعب الفرنسي كالنورمان والسلط والأكيتان ... إلخ.

ثم يظهر الكاتب الفاضل مسيو رينان أسيفاً، أحياناً، على سوء رأيه في العرب، ويصل إلى النتيجة غير المنتظرة الآتية التي تندم، كذلك، على ما بين ذاتية الإنسان القديمة وذاتيته العصرية من التنازع، ويأسف على أنه ليس من أتباع النبي، فيقول: «إنني لم أدخل مسجداً من غير أن أهتز خاسعاً، أي من غير أن أشعر بشيء من الحسرة على أنني لست مسلماً».

الباب السادس

انحطاط حضارة العرب

الفصل الأول

ورثة العرب

تأثير الأوربيين في الشرق

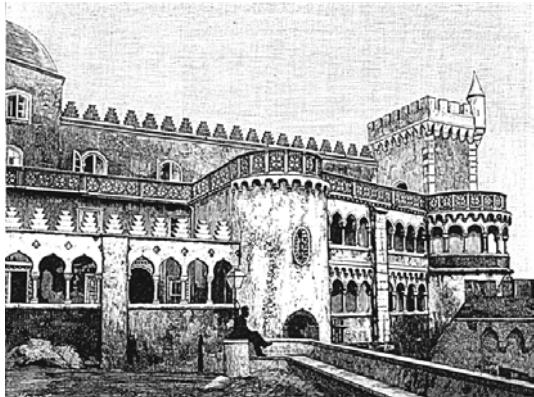
(١) ورثة العرب في الأندلس

إن من أحسن الوسائل لتقدير ما لامِة من التأثير النافع أو الضار في أمة أخرى هو أن يبحث في أحوال هذه الأمة قبل أن تخضع للنفوذ الأجنبي وفي أثناء خضوعها له وبعد خلاصها منه؛ فاما أحوال الأمم التي دانت للعرب قبل خضوعها لهم وفي أثناء حكمهم لها فقد بحثنا فيها بما فيه الكفاية، وأما أحوالها، بعد أن غاب العرب عن مسرح العالم، فنبحث فيها الآن بادئين بإسبانية.

لم يفكر النصارى، بعد أن استردوا غرناطة التي كانت مَعْقِل الإسلام الأخير في أوربة، في السير على سنة العرب في التسامح الذي رأوه منهم عدة قرون؛ بل أخذوا يضطهدون العرب بقسوة عظيمة على الرغم من العهود، ولكنهم لم يعزموا على طرد هم جميعهم إلا بعد مرور قرن، ومع ما كان يصيب العرب من الاضطهاد كان تفوقهم الثقافي على الإسبان عاملاً في بقائهم على رأس جميع الصناعات، وكان من الصواب اتهام الإسبان إياهم بالاستيلاء على جميع المهن.

وطالب الشعب بطردهم فقط، وبدا الإكليروس متطرفاً فأشار بقتلهم جميعاً رجالاً ونساءً وشيوخاً وأطفالاً، وسلك فليب الثاني طريقاً وسطاً فاكتفى بإعلان طرد هم في سنة ١٦١٠م، ولكنه أمر بأن يُقتل أكثرهم قبل أن يُوفّقوا لترك إسبانيا، فقتل ثلاثة أرباعهم تقريباً.

وتمَّ الجلاء والذبح، وعمَّ الفرح إسپانية؛ لما ظُنِّ من دخولها عهداً جديداً.



شكل ١-١: قصر حديث في بهنا (البرتغال، طراز إسپاني عربي، من صورة فوتوغرافية).

حَقًا لقد ظهر عهْدُ جَدِيدٍ مَا وُجِدَتْ نَتَائِجٌ عَظِيمَةٌ لِهَذَا الْاسْتِئْصالِ الْجَامِعِ الَّذِي لَا نَظِيرٌ لَهُ فِي التَّارِيْخِ، وَيَكُونُ تَقْدِيرُنَا لِأَلْهَمِيَّةِ هَذِهِ النَّتَائِجِ أَتَمَّ إِذَا مَا رَجَعْنَا بَعْضَ السَّنِينِ إِلَى الْخَلْفِ، وَبَحْثَنَا فِي أَمْرِ إِسْپَانِيَّةٍ بَعْدِ اخْتِفَاءِ سُلْطَانِ الْعَرَبِ السِّيَاسِيِّ عَنْهَا.

رَأَى النَّصَارَى، الَّذِينَ هَاجَرُوا إِلَى الْمَنَاطِقِ الْجَبَلِيَّةِ فَرَازُوا مِنْ سُلْطَانِ الْعَرَبِ، إِمْكَانِ إِعْادَةِ دُولَتِهِمُ الْقَدِيمَةِ بَعْدِ مَا شَاهَدُوا بَدِئْ تَضَعُضَ سُلْطَانِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْأَنْدَلُسِ بِفَعْلِ تَنَافِسِهِمْ وَحَرُوبِهِمُ الدَّاخِلِيَّةِ.

وَلَمْ تُكَلِّ أَعْمَالُ هَؤُلَاءِ النَّصَارَى بِالنِّجَاحِ فِي الْبَدَاءَةِ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَهْنُوا؛ لِمَا كَانَ يَغْلِي فِي عِروقِهِمْ مِنْ الْحَمِيَّةِ الْدِينِيَّةِ، وَقَدْ صَارَ لَهُمْ مَا لِلْعَرَبِ مِنَ الْخِبَرَةِ الْحَرَبِيَّةِ بِفَضْلِ الْوَقَائِعِ الَّتِي اشْتَرَكُوا فِيهَا عَدَةُ قَرْوَنٍ مَا دَامَ الْقَتَالُ مِهْنَتَهُمُ الْوَحِيدَةِ، وَقَدْ سَاعَدَهُمْ اِنْقَسَامُ الْعَرَبِ عَلَى النِّجَاحِ فَاسْتَطَاعُوا، بَعْدِ حَرُوبٍ طَوِيلَةٍ، أَنْ يَقِيمُوا دُوَيْلَاتٍ لَمْ تَفْتَأِ تَعْظُمُ وَتَتَحدَّى حَتَّى اسْتَولَتْ بَعْدِ ثَمَانِيَّةِ قَرْوَنٍ عَلَى غَرَنَاطَةِ الَّتِي كَانَتْ عَاصِمَةً آخِرَ دُولَةِ عَرَبِيَّةٍ فِي الْأَنْدَلُسِ، وَبِهِذَا أَضَحَتْ جَمِيعَ إِسْپَانِيَّةَ قِبْضَتِهَا، وَبِهِذَا أَسْتَانَتْ إِسْپَانِيَّةُ أَوْلَ دُولَةَ حَرَبِيَّةٍ فِي أُورَبَةِ.

ولم يكن الملك شارلوكن وفليپ الثاني أقل براءة من سلفهما فرديناند، وكان القرن الذي مر بين سقوط غرناطة ووفاة فليپ الثاني دور عظيم لإسبانيا لن ترى مثله.



شكل ٢-١: ترس فليپ الثاني في إسبانيا (من صورة فوتوغرافية التقاطها لوران).

أجل، كان العرب يُضطهدون في جميع ذلك العهد، ولكن مع بقائهم، وكان العرب ذوي شأن فيه بما لهم من التفوق الثقافي، وكان العلماء وأرباب الصناعات والتجار من العرب وحدهم، لا من الإسبان الذين كانوا ينظرون إلى كل مهنة شرراً، خلا مهنة الإكليريوس ومهنة الجنديّة.

وكانت إسبانيا تشمل، إذن، على جيلين مختلفين من الأدմيين عاملين بمختلف الطرق على عظمتها، أحدهما من النصارى القابضين على زمام السلطة العسكرية، والأخر من العرب القابضين على ناحية الحضارة المادية.

وكان وجود هذين الجيلين أمراً ضروريّاً، وذلك أن السلطة العسكرية إذا كانت كافية لإقامة دولة فإنها تعجز وحدها عن إدامتها، وأن ازدهار هذه الدولة لا يكون إلا بتوافر بعض عناصر الحضارة، وأن تماسك هذه الدولة لا يدوم طويلاً إلا ببقاء هذه العناصر.

وهذا هو عَيْنُ ما أصاب إِسْپانِيَّة بعد طرد العَرَب، فقد حلَّ الانحطاط فيها محلَّ العَظَمَة، وقد زاد انحطاطها سرعةً ما عَطَلَت من قادة عظام حربِين كالذين ظهروا في قرن واحد، وقد أضاعت كل شيء حين حَسِرت سلطانها الحربي وحُرمت الحضارة معاً. وكان من سرعة الانحطاط الذي عَقَبَ إجلاء العَرَب وقتَهم ما يمكننا أن نقول معه: إن التَّارِيخ لم يَرِو خبر أمة كإِسْپانِيَّة هبَطت إلى دَرَكٍ عَمِيقَة في وقت قصير جدًّا، فقد توارت العلوم والفنون والزراعة، والصناعة، وكل ما هو ضروري لعَظَمَةِ الأُمَّة، عن بلاد إِسْپانِيَّة على عجل، وقد أغلقت أبواب مصانعها الكبُرى، وأهملت زراعة أراضيها، وصارت أريافها بلا قُبَّع، وبما أن المدن لا تزدهر بغير صناعة ولا زراعة فقد خَلَت المدن الإِسْپانِيَّة من السكان على شكل سريع مخيف، وأصبح عدد سكان مدريدي مئتي ألف بعد أن كان أربعينَألفًا، وصارت أشبيلية، التي كانت تحتوي ١٦٠٠ حِرْفَة كافية لإِعَاشَة ١٣٠٠٠ شخص، لا تشتمل على غير ٣٠٠ حِرْفَة، وهذا فضلاً عن خلوُّها من ثلاثة أربع سكانها كما جاء في رسالة مجلس الكورتس إلى الملك فليبي الرابع، ولم يبق في طليطلة سوى ثلاثة عشر مصنعاً للصوف بعد أن كان فيها خمسون، وخَسِرت طليطلة جميع مصانعها الحريرية التي كان يعيش منها أربعون ألف شخص، ووقع مثل هذا في كل مكان، ولم تُعْتَمَّ المدن الكبيرة، كقرطبة وشقوبية وبُرْغُش، أن أصبحت كالصحراء تقربياً، وزال ما ظل قائماً فيها من المصانع القليلة بعد تواري العَرَب، وكان من غياب جميع الصناعات في إِسْپانِيَّة أن اضطرَّ القوم إلى جلب عمالٍ من هولندا عندما أُريد إنشاء مصنعين للصوف في شقوبية في أوائل القرن الثامن عشر.

ونَجَمَ عن أَفُول الصناعة والزراعة في بلاد إِسْپانِيَّة على هذا الوجه السريع ما يشاهد فيها من البؤس العميق، ومن وقوعها في الانحطاط التام في قليل من السنين. ومصائب كذلك مما يقتل كل نشاط وحيوية بسرعة، وإمبراطورية واسعة لا تغرب الشمس عن أملاكها كذلك، كما قيل، لا بد من أن تقع في دور الهمجية المظلم على عجل ما لم تُنْقَذَ بسلطان الأجنبي، ولذا اضطرت إِسْپانِيَّة، لتعيش بعد وَهْنٍ، إلى تسليم زمام سلطتها العليا وشُؤونها الإدارية وصناعتها وتجارتها إلى رؤساء من الأجانب كالفرنسيين والطليان والأتلانت ... إلخ.

غير أنه لم ينشأ عن سلطة فليبي الخامس، الذي هو حفيد لويس الرابع عشر، والإدارة الأجنبية التي أُكِرَهَ هو وخلفاؤه على إدخالها إلى إِسْپانِيَّة سوى حيوية ظاهرة غير حقيقة، وذلك لتعذر انتشال أمة بعد هبوطها.

حًقا، ظهر في إسبانية ملوك نوابع كشارل الثالث، وتمتعت إسبانية برخاء مصنوع ذات زمن، وذلك عندما استحضرت من الخارج فريقاً من العلماء وأرباب الصناعات، ولكن هذا كان على غير جدوى، فلن يستطيع أحد إحياء الموتى، وحًقا إن العرب زالوا، وقضت محاكم التفتيش على كل من يزيد ذكاؤه قليلاً على المستوى المتوسط، فصرت ترى فيها سكاناً، وعادت لا تحتوي رجالاً.

وأجمع كُتاب العصر الذين زاروا إسبانية على الاعتراف بضعف مستوى الإسبان الثقافي، وكان هذا الضعف عميقاً عاماً في أواخر القرن السابع عشر من الميلاد، وبدت تلك البلاد التي أضاءت العالم أيام سلطان العرب خاليةً من أية مدرسة لتعليم الفيزياء والرياضيات والطبيعتيات، وجرت لا ترى فيها كلها، حتى سنة ١٧٧٦ م كيمانياً قادرًا على صنع أبسط التراكيز الكيماوية، ولا شخصاً قادرًا على إنشاء مركب أو سفينة شراعية، وذلك كما قال الكاتب الإسباني كنپومانس مؤكداً.

ولا مرأء في نجاح محاكم التفتيش المرهوبة في أعمالها، فقد أصبحت جميع بلاد إسبانية لا تعرف غير كتب العبادة، ولا تعرف عملاً غير الأمور الدينية، جاهلةً ما أتاه نيوتن وهارقي وغيرهما من الاكتشافات العظيمة جهلاً تاماً.

ولم يسمع أطباء الإسبان شيئاً عن الدورة الدموية إلى ما بعد اكتشافها بقرن ونصف قرن، ويمكن استجلاء مستوى معارفهم بالأمر الغريب القائل: إن بعض الناس، في سنة ١٧٦٠ م، اقترحوا، مع التواضع، إزالة الأقدار التي كانت تملأ شوارع مدريد وتفسد هواءها، وإن رجال الصحة احتجوا على ذلك بشدة ذاكرين أن آباءهم العقلاء كانوا يعرفون ما يصنعون، وأنه يمكن السكان أن يعيشوا مثلهم بين الأقدار، وأن رفعها ينطوي على تجربة لا يقدر أحدٌ على كشف عواقبها.

ولم تستطع أطيب الجهات أن تنھض ببلاد إسبانية التعسة، فالليوم لا تجد فيها زراعة ولا صناعة^١ والليوم تستعين بالاجانب في كل ما يحتاج إلى استعداد يزيد على أدنى مستوى، والليوم يُدير الأجانب مصانعها، ويُمدون خطوطها الحديدية، ويمدونها من يسوق قاطراتها، وبكل ما له علاقة بالعلوم والصناعات.

وببلاد هذه حالها تُعد من البلاد التي تقدّر على معالجة أمورها أية حكومة قديرةٍ حرّة أو غير حرّة، وذلك أن الحكم لا يمكن بغير موافقة الجمهور، وأن الجمهور الإسباني دون حكومته دائمًا مهما كانت هذه الحكومة قليلة الرقى، أجل، تتمتع إسبانية بمظاهر الحضارة، ولكن هذا لا يَعدُ حد المظاهر، فالجهل عام فيها كما

كان في القرون الوسطى،^٢ ولو قُيض لحاكم التفتيش أن تعوداليوم إلى إسبانية لرأته جميع طبقات الشعب الإسباني ظهيرًا لها، والحكم العادل الشديد الذي أصدره المؤرخ الإنكليزي الكبير بكل منذ بضع سنين على إسبانية يسري على حاضرها، وعلى زمن طويل من مستقبلها لا ريب، قال بكل:

لا تزال إسبانية نائمة هادئة فاقدة للحسّ غير شاعرة بكل ما يجري في بقية العالم، أي معنودة غير موجودة، وإسبانية هنالك، حيث أقصى نقطة في القارة لم تكن، وهي جامدة ضخمة الجرم، ممثلة لغير مشاعر القرون الوسطى وأفكارها، ومما يُحزن فيها كثيراً افتتاعها بحالها، واعتقادها أنها أرقى أمم أوربة، مع أنها أكثرها تأخراً، هي فخور بكل ما يجب أن يَحْمِر وجهها منه خجلاً، فخور بقدام آرائها، فخور بتدينها، فخور بقوتها إيمانها، فخور بسرعة تصديقها الطائش الذي لا حد له، فخور برفضها لإصلاح معتقداتها وعاداتها، فخور بحقدها على الملحدين، فخور بيقظتها الدائمة في إبطال كل ما يَعْمَلُونَه؛ ليستقرروا بأرضها استقراراً شرعياً، ومن مجموع هذه الأمور تتالف تلك الخلاصة الكئيبة التي تُسمى إسبانية.

(٢) ورثة العرب في مصر والشرق

الترك هم ورثة العرب في مصر وقسم كبير من الشرق كما هو معلوم. وإذا ما نظر المرء إلى الترك من الناحية السياسية، أدرك أنه كان لهم دور كبير من العظمة، فقد ارتعدت فرائص أقوى ملوك أوربة، زمناً طويلاً، فرقاً من سلاطينهم الذين قاموا مقام القياصرة، وأحلوا الهلال محل الصليب الإغريقي فوق أبياصوفية، وبسطوا نفوذ الإسلام في الآفاق.

بيد أن عظمة الترك لم تكن في غير الحرب، فالترك، وإن استطاعوا أن يؤسسوا دولةً كبيرة، أثبتوا عجزهم عن إبداع حضارة في كل زمان، وكان أقصى جهودهم أن يستفيدوا مما أصبح تحت أيديهم من علوم العرب وفنونهم وصناعاتهم وتجارتهم، ولم يقدر الترك أن يتقدموا خطوة واحدة في هذه المعارف التي ازدهرت أيام سلطان العرب، والأمم، إذ كانت ترجع إلى الوراء، حتماً، إذا لم تتقدم، لم تلبث ساعة انحطاط الترك أن دَقَّت.

وتراجع نهاية تاريخ حضارة العرب في الشرق إلى اليوم الذي صارت مقادير دولتهم قبضة الترك بالقوة، أجل، ما فتئ العرب يحيون في التاريخ بنفوذهم الديني، ولكن الشعوب التي خلفتهم لم تستطع أن تمسك مستوى الحضارة الذي بلغوه. وكان الانحطاط عميقاً في مصر على الخصوص، وبدأ هذا الانحطاط عندما جعلت انتصارات السلطان سليم منها ولابةً من الدولة العثمانية، فقد أخذت الفنون والعلوم والصناعات تنطفئ فيها شيئاً فشيئاً.

وكان يدير مصر في العهد العثماني ولاةٌ متقلبون غيرُ مفكرين في غير الاغتناء بسرعة، ولم تلبث مصر أن وقعت في ضنك العيش كبقية الولايات العثمانية التابعة للأسنانة، وزال رونقها القديم عنها، وصارت لا تقام فيها عمارةٌ جديدة، وأضحت مبانيها القديمة مهملاً، ولم يبق منها غيرُ ما سمح به الدهر.



شكل ٣-١: درقة قديمة لأحد ملوك غرناطة (من صورة فوتوغرافية).

ولا أحد يجهلُ ما آلت إليه الولايات العثمانية في الوقت الحاضر، ومن العبث أن نُفِيَض في بيان أمرها، وإنما نقول، ملخصين لما قدّرت به بإنصاف: إنها ليست خيراً

من أية بلاد عاطلة من الإدارة، فطرقها مهملة، ومناجمها وغاباتها وثروتها الزراعية معطلة، وقطع السُّبُل فيها من الأمور الشاملة لأبواب مدنها الكبيرة كإزمير مثلاً، ولا تخلو بحارها، ومنها بحر مرمرة والبسفور، من القراءنة.

ولا يستنتج القارئ مما تقدم أن أهل تركية أحط من سكان أوربة، فتركية تشتمل، بالحقيقة، على ذلك التضاد الغريب الذي أَعْجَبَ من أنتي لم أره في مكان آخر، أي أنها ذات سكان لهم صفاتٌ من الطراز الأول مع أن طبقاتها القائدة أدنى من هؤلاء السكان بمراحل خلافاً لما في الغرب، وأن فلاحي الترك وعمالهم زهاد صابرون على الأعمال أو فياء لأسرهم، ذوو نشاط محتملون لجُور حكومة فاسدة احتمالاً فلسفياً، ويرجح الجندي التركي الموت في مكانه على الهزيمة، وهو لا يُقْبض راتباً، وهو لا يلبس سوى الثياب الرثة، ويتألف طعامه من الخبز والماء، وقد قال لي أحد القادة الحربيين، الذين رأوا جنود الترك عن كثب: إنك لا تجد في أوربة جيشاً يستطيع العيش يوماً واحداً في مثل تلك الأحوال، وقد يكون الترك خيراً جنود أوربة مع أنهم أسوأ الجنود قيادةً.

وينطبق هذا القول على الترك حَصْرًا، لا على جميع سكان الولايات الآسيوية التي يَحْكُمُ فيها الترك، وذلك أنه يُرى، في الغالب، في مدن تلك الولايات، على الخصوص، مزيج فاسد من مختلف العروق يُعَدُّ حُثالة من جميع الفاتحين الذين جَاسُوا خلالها منذ قرون كثيرة فزاده النظام العثماني فساداً، ولا ننكر وجود بعض المزايا في هذا المزيج الفاسد، ولكن مع القول بانحطاط مستوى الخلقي وشجاعته.

والليوم، لا ترى في هذا الشرق الفاسد سوى سلطانٍ أجمع الناس على احترامه، وقد سمعت اسمه يرُنُّ في كل مكان يقع بين سواحل مراكش وصحراء جزيرة العرب، وبين شواطئ البسفور ورمال أثيوبيا، في الآستانة تحت قبة أيا صوفية، وفي القدس على ذروة التل التي كان قائماً عليها هيكل سليمان، وتحت قباب كنيسة القبر المقدس (القيامة) الدُّكْن، وفي مصر من الأهرام إلى خرائب طيبة ذات مائة الباب، وفي كل زاوية يأوي إليها السائح، ذلك الاسم الذي يرُنُّ راجياً متوسلاً هالكاً مبعوثاً بلا انقطاع إلى أن يُعشى عليه بين جَلَبَة سخرية أو عويلٍ، ذلك الاسم الذي يُنطَقُ به بلهجة الوعيد مع إمكان رئيته كالأمل، ذلك الاسم الذي يبدو تميمة قادرة تُغْنِي عن الخطب الطويلة، ويصبح الإنسان بها سيداً في الشرق، ذلك الاسم الذي يكفي تردیده على وجه ما لتنُرُجَّ أَسِرَّة الوجوه ويُسجد الندماء ولتفتَّرَ ثغور النساء عن ابتسامتٍ تأخذ بمجامع القلوب، ذلك الاسم الساحر الذي يسهل أن يُنال به ما لا يَقْدِرُ أمير المؤمنين على مَنْحِه، والذي

استطاع قائدُ أوريُّ أن ينتصر به في إحدى المعارك عند النطق به منذ وقت قريب، وأن يصبح سيد دولة الفراعنة التي تَطَلَّب فتحُها قبل مدةٍ عقريَّة ناپليون الحربية، ذلك الاسم اللاهوتي المسيطر الذي له من القدرة ما ليس الله ولرسوله مُحَمَّد، والذي يُحترم ويُبَجِّل في كل ناحية من تركية، ذلك هو البخشيش.

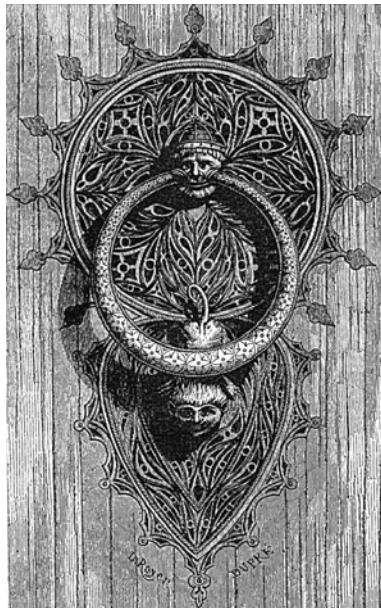
ورثة العرب الآخرون في مصر: ليست مصر تابعةً لسلطان الترك في الوقت الحاضر، وقد وقعت بين يدي إنكلترة القوية التجارية، ويمكن من اطلعوا على المؤس الشديد الذي شَمِلَ بلاد الهند منذ سيطرة الإنكلزير عليها أن يبصروا المصير الذي يتَّنَظر مصر السيئة الحظ، وما ذكرته في فصل سابق مقدار الضنك الذي أصاب فلاحي مصر منذ سنين بفعل مضاربيِّن من الأوربيِّين،^٢ ولكن هذا الضنك يُعدَّ أمراً ذهبيًّا عند مقاييسه بما ينتظرون، فسَيِّرون أنفسهم محاطين، كالهنود، بطرق منظمة مخيفة هادئة ساحقة عاصرة ممتصة لا تُبْقِي ولا تَذَر.

ويظهر أن مصير المباني العربية القديمة التي لا تزال قائمةً في القاهرة، سيكون كمصير أمثالها في بلاد الهند، أي أن تزول بسرعة، وأن تحل محلها تُكْنُ للجيش أو ما يماثلها، وهذا هي ذي الأعمال التي هي من هذا القبيل تسير سيراً يدل على أنها لا تطول في عهد السادة الجدد، وعلى القارئ أن يطالع مقالات مسيو دُو رُونه (الرافق لبعثة الآثار في القاهرة) المتعة ليَطَلَّع على أعمال التخريب التي تُتَقْرَفُ في الوقت الحاضر اقتافاً لا يُصَدِّقُه العقل، وليرَّأَ أن أنفس الآثار التي لا تُقْدَدْ تُهَمَّ بحجَّة فتح الشوارع وبناء التُكَنِ.^٤

(٣) ورثة العرب في الهند

المغول هم ورثة العرب الأوَّل في الهند، والمغول قد ورثوا من حضارة العرب، وهم، وإن لم يقدروا على إحياء هذه الحضارة، استطاعوا أن ينتفعوا بها على الأقل، فتَمَتَّعَتْ بلاد الهند الواسعة في أيامهم بالرخاء والغنى.

والإنكلزير هم ورثة المغول في الهند، والإإنكلزير قد مَدَّنُوها، أي أنشأوا فيها الطرق والخطوط الحديدية التي يَسْهُلُ عليهم أن يستغلوها بها، ولكنه نَجَّمَ عن هذه الحضارة الجديدة أن غَرَّقتَ بلاد الهند في بحر من البوس لم تَرَ بُقْعةً من بقاع الدنيا مثله، والإإنكلزير عَمَلَيُّون على خلاف الإسبان الذين طَرَدوا العرب، فهم بدلاً من أن يفكروا في إجلاء الهنود رأوا من الحكمة أن يستغلوهم بانتظام، ونحن، إذا ما نظرنا إلى الأمر

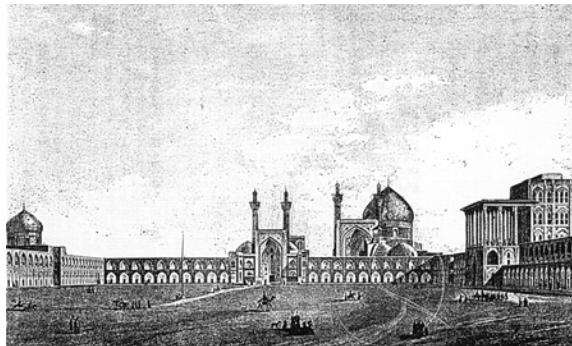


شكل ١-٤: مدق باب كتدرائية طركونة (طراز إسباني عربي).

من الناحية التجارية فرأينا بضعة آلاف من التجار يسوقون مئات الملايين من البشر إلى العمل في سبيلهم بأساليب أشد من الاسترقاق ألف مرة، لم يسعنا إلا الإعجاب بهم، ويكون حكمنا غير ذلك إذا ما بحثنا في الأمر من الناحية الإنسانية.

نشأ عن طريقة الإنكليز الاستعمارية الدقيقة اغتناءُ الجزر البريطانية اغتناءً لا حدّ له، وفقر أولئك الهندوَ المُسخرين المساكين فقرًا مطلقاً تقربيًا، فقال مسيو غرانتِديه، مُبيناً نظام نزع الملكية لعدم دفع الضرائب النافع، وذلك بعد أن ذكر أن طبقة الفلاحين التي كانت في عهد الملوك المحليين تؤدي سدس المحاصيل الزراعية ضرائب صارت تؤدي نصفها في عهد الإنكليز: «إن هذا النظام أنزل طبقة الزرّاع إلى الدرك الأسفل من الانحطاط».

وتحديثاً درس أحد كتاب الإنكليز، مسْتَرْ هِنْدَمَانْ، حالة الهند في العهد الإنكليزي؛ فأثبتت أن إنكلترا تُغرق الهند بالضرائب فلا يبقى لهم غير الموت جوعاً، وأنها تُخَرِّب



شكل ١-٥: الميدان الملكي في أصفهان (من تصوير كوست).

جميع مصانعهم؛ لكي تتمكن السلع الإنكليزية من إيجاد أسواق لها عندهم، ثم قال: «إننا نسير إلى مصيبة لا مثيل لها في تاريخ العالم.»

وقد يكون التشاوُم لحمة هذه النبوءة، ولكن صدقها يظهر عندما نعلم أن في ولاية مدراس وحدها ستة عشر مليون فقير كما جاء في الإحصاءات الرسمية، وأن السكان الباليسين مُكَلَّفون في كل سنة باتفاق أربعمائة مليون على الجيش وخمسين مليوناً على الإدارة، فضلاً عن إرسال ما تَعْدِل قيمته خمسمائة مليون إلى إنكلترة. °

(٤) شأن الأوروبيين في الشرق: سبب إخفاقةهم

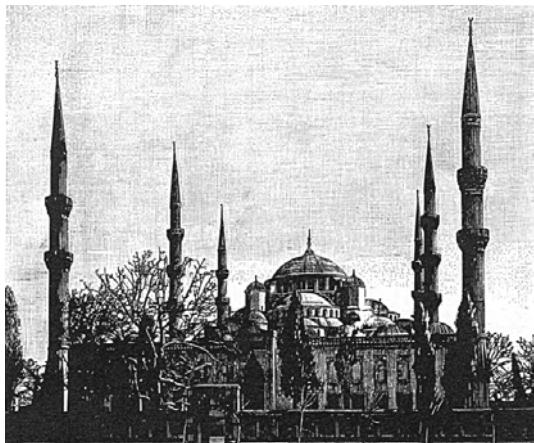
درسنا ما كان للتأثير في الغرب بواسطة العرب، ولا يخلو منفائدة أن ندرس الآن تأثير الأوروبيين الحاضر في الشرقيين: دلت المشاهدة على أن هذا التأثير صفر في كل وقت، وكنا نرغب عن هذا الموضوع لو لم نر من المفيد أن نبحث في أسباب رفض الشرقيين لحضارة الغرب ومعتقداته رفضاً مستمراً مع اعتناقهم ما أتاهم به العرب بسهولة.

ومن الأسباب العامة في عجز الأوروبيين عن حمل الأمم الأجنبية على انتقال حضارتهم هو أن الحضارة الأوروبية ولديها تطور دام زمناً طويلاً، وأننا لم نصل إلى درجتها الحاضرة إلا بعد أن قطعنا كثيراً من المراحل الضرورية بالتدريج، فالرغبة في

إكراه أمة على قطع هذه المراحل فجأة هي من الأوهام كالرغبة في جعل الطفل كهلاً قبل أن يصبح فتى.

وهذا السببُ وحده لا يفسر لنا، مع ذلك، قلة تأثير حضارتنا في الشرقيين، ما وجد بين عناصر حضارتنا ما هو بسيط سهل الملاعنة لاحتياجاتهم وما رفضوه أيضاً، ولذا فإنَّ لعدم نجاحنا أسباباً أخرى.

ومن هذه الأسباب نذكر أن زيادة التعقيد في عناصر حضارتنا أسفرت عن كثرة احتياجاتنا المصنوعة، وأن هذه الاحتياجات المصنوعة المهيمنة أوجبت اضطراباً شديداً في حياة الأوروبي الحديث فحملته على العمل المضني في سبيل قضائها، فكان ما نرى من كُرْه الشرقيين لهذا الاضطراب والعمل المضني، وقد عطلوا من احتياجاتهم.



شكل ٦-٦: الوجهة الرئيسية لجامع السلطان أحمد بالأسنانة (من صورة فوتوغرافية).

حَقًّا إن احتياجات الشرقيين من عرب وصينيين وهنود وغيرهم ضعيفة إلى الغاية؛ فالعربي يكتفي في لباسه بقطعة من المنسوجات، وفي طعامه بماله وقليل من التمر، والهنودي أو الصيني يكتفي في طعامه بحفنة من الأرز وقليل من الشاي، ولا تجد فيه كبير احتياج في أمر المأوى، وقد نشأ عن زهد الصيني وفقدان احتياجاته

ونشاطه أن تقهقر أمامه العامل الذي يزعم أنه من شعب أرقى من شعبه؛ فاضطربت أمريكا وأسترالية إلى منعه من دخول بلادهما في الوقت الحاضر.

وإذا أضيف إلى ما بين الشرقيين والأوربيين من ذلك الاختلاف اختلافهما في الشعور والتفكير بذات الهوية العميقية بينهما، ولا يحسُدنا الشرقيون على حضارتنا، وأقلهم حسداً لنا من يَزُورُ منهم بلادنا، ويحمل هؤلاء عند رجوعهم إلى بلادهم أسوأ الآراء فيينا، معتقدين أن دخول حضارتنا بلادهم ينطوي على أعظم البلاء والفجائع، ويستدل المثقفون منهم على هذا بما صارت إليه بلاد الهند، وذلك مع الإجماع على أن الشرقيين أسعد حالاً من الأوربيين، وأعظم شرفاً، وأمتن أخلاقاً ما ظلوا غير متصلين بهم.

ولكن إذا كان التبادل الواضح بين حياة الشرقيين والأوربيين وأفكارهم ومشاعرهم كافياً لإيضاح عدم اكتزاث أمم الشرق لنعْم حضارتنا، فإنه لا يكفي لإيضاح رفضهم لنا وازدرائهم البَيْن لنظمنا ومعتقداتنا وأخلاقنا.

ومن العبث أن نكتم سبب تلك المشاعر، فهي ناشئة عن مَكَر الأمم المتقدمة وظلمها الأمم الأخرى التي هي غير متقدمة أو التي نَعُدُّها ضعيفة الحضارة.

وسياسة الأوربيين القائلة: «إنَّه لا يجوز أن يمشيَ على الأرض فريقٌ من الهمج» تؤدي إلى إبادة الأمم غير المتقدمة أي المتتوحشة بسرعة؛ فيطارد الأوربيون سكان أمريكا الأصليين كما يطارد الصَّيَادُون الأرانب، ويزول أصحاب الجلود الحمر من أمريكا لسلب أرْضِي الصيد منهم وحصرهم في مناطق جديبة لا يخرجون منها بفعل الجوع إلا ليُجَدَّلوا كما يُجَدَّلُ البط، ويُبَادَ هَمَجُ أقيانوسية، ولم يبقَ من أهل تسمانية الأصليين أحداً^٦.

ولم تكن سياسة الأوربيين نحو الأمم الشرقية المتقدمة، كالصينيين والهنود مثلًا، أحسن كثيراً من سياستهم نحو أولئك الهمج، وإذا أخذينا عن محاربتنا لهم بما ليس فيه ذرَّة، من الإنفاق نرى أن سلوكنا اليومي تجاههم يكفي لجعلهم شديدي العداوة لنا، وكل من يُوغل في الشرق يَعْلَم أن أحقر الأوربيين يعتقد أن كل شيء مباح له في الشرق،^٧ وإذا لم يُستَغَلُ الشريقي رأساً، كما يُسْتَغَلُ في الهند بما يُثقل به كاهله من الضرائب التي تنزع آخر كسرة خبز منه، فإنه يُسْتَغَلُ بالحيل التجارية التي تتم بوقاحة دالة على ضعف الطَّلَاء لدى رجالنا المتقدمين، ويفقد الأوربي في الشرق كل صفاتِه ويهبط أخلاقاً إلى ما هو أدنى من مستوى الشعوب التي يستغلها، ولو حوكم



شكل ١-٧: جامع السلطان أحمد بالاستانة من ناحية البسفور (من صورة فوتوغرافية).

التجار الأوروبيون من أجل صلاتهم التجارية بالشرق على حسب قوانين بلادهم ما تَفَلَّتْ
إلا أَقْلُّهُمْ من أكثر العقوبات شِينًا.

إذن، لا يخلو من سبب ما يحمله الشرقيون من الرأي السيئ في شرفنا وأخلاقنا، وستكون قصة علاقات أوربة المتمدنة بالصين في القرن التاسع عشر من الميلاد من أسوأ صفحات تاريخ حضارتنا، وقد يُدعى حَفَدُتُنا، ذات يوم، إلى التكفير عنها بشِينٍ غالٍ، وكيف يُفَكَّرُ في أمر حرب الأفيون الدامية التي أكره الإنكلiz فيها بلاد الصين، وذلك بقوة المدفع، على إدخال هذا السم القاتل الذي أرادت حكومتها تحريمه؛ لما رَاعَها من أخطاره، حَقًا إن فائدة إنكلترة من تجارة الأفيون مائة وخمسون مليونًا في كل سنة، ولكن عدد الوفيات السنوية في بلاد الصين بفعل استعمال الأفيون ستمائة ألف نفسٍ كما جاء في إحصاءات الدكتور كريستيان المعبدلة على الخصوص. وهنا نسأل: أليس من الحق أن يُعلَّم الصينيون أبناءهم وصفَ الغربيين بالبرابرة بعد الذي رأوا من حرب الأفيون الطاحنة وما أسفرت عنه هذه الحرب من إباحة تجارتِه كُرْهًا؟ لا يكون جواب الصينيين، كما روى ذلك الدكتور، وذلك عندما يحاول مبشرو الإنكلiz تنصيرهم، إلا قولهم: «ماذا؟ تُسْمِونَا للقضاء علينا ثم تأتون لتعليمنا الفضيلة!»، وليس

الصيني على حق في تفكيره ذلك لا ريب، فهو لا يُدرك أن الإنكليزي يَحْوز، بالوراثة، حِكْمًا أخلاقية شديدة خاصة لا بد له من اتباعها، وذلك بأن ينفق على المبشرين ليُعَدُوا الأكسيوي للحياة الأبدية التي يسوقه إليها بسرعة ذلك الأفгиون الذي يبيعونه منه! واستوقفت بغضاء الشرقيين للأوربيين نظرَ جميع السياح المتصفين بشيء من الملاحظة، وأذكر منهم السياسي الممتاز والوزير المفوض السابق، مسيو دوروشيشوار، الذي قال في كتاب نشره حديثاً: «إن أول ما يراه الغريب حينما تطأ قدماه بلاد الهند هو كُرْه الهندي لسادته»، إلى أن قال في معرض كلامه عن الصين: «إن أجزاء البيض شديدة الحباء من أبناء وطنهم؛ لاضطرارهم إلى الاتصال بالبيض».»

وإن للشرقين في سلوكنا ما يُسَوِّغ مقتهم لنا أشدَّ المقت بما فيه الكفاية، وإنني أضع نفسي في مكانهم وأنظر إلى الأمور من وجهة نظرهم، وأضيف إلى ذلك، غير متعدد، قوله: إننا لو بدأنا عنوان الفضائل لهم؛ لكان من مصالحهم أن يرْفِضُونا، وأن يحيطوا ببلادهم بأسوار كالتي أحياطت بها مملكة ابن السماء، فما يصنعون بحضوره غير ملائمة لأفكارهم ومشاعرهم واحتياجاتهم جديرة، لذلك، بأن يرْفِضُوها؟ وما فائدتهم من ترك نظمهم الموروثة وحياتهم السعيدة القليلة الاحتياجات وانتفالهم لحياتنا المحمَّة ولمنازعاتنا التي لا يُشَفِّي لها غليل، ولنظام طبقاتنا الاجتماعية المتفاوتة، ولعيشنا الكريه في المصانع، وكل ما تطلبه الحضارات الظاهرة من مختلف الاحتياجات؟

وعنَّ لليابان، أي لهذه الدولة الشرقية، أن تعتنق حضارتنا كما قيل، وأتيح لي أن أذكر ما أسفرت عن هذه التجربة من الارتباك في بلاد اليابان التي كانت سعيدةً، والتي كانت «حال الواحد من سكانها تُعدُّ أفضل مائة مرةٍ من حال العامل المُعزِّز اللاهث التَّعب الذي يَكْسِب عيشه بعناء في المصانع»، كما قال أحد الأوربيين الذين عُهد إليهم في إدخال الحضارة المصنوعة إليها.

ولم ينشأ عن افتتاح العرب للشرق مثل هذه الشرور، فقد كانت الأمم التي قهرواها شرقيةً مثلهم، وكانت مشاعرها واحتياجاتها وطريق معايشها مماثلةً لما كان عندهم، ولم ينشأ عن استيلاء العرب أو المغول أو الترك على الهند وفارس ومصر العلية من التغييرات الأساسية كما ينشأ عن انتقال أهل هذه البلدان للحضارة الحديثة، ولا بد من أن تثال يد التبديل التام حيَاة هذه الأمم الشرقية عند اتصالها بالأوربيين، ولكن عجز الأمم الشرقية عن منافسة الأوربيين يؤدي حتماً إلى مثل ما صار إليه الهنود من البؤس الأسود والثورات الشديدة التي يُولدُها اليأس.

تبينَ مما تقدم، وذلك بدرجة الكفاية، تأثيرُ الغرب المخرب في الشرق في الوقت الحاضر، ولا يوجد ما يُسوغ به الأوربيون شرّهم وطمعهم سوى المبدأ الذي لم يعرف التاريخ غيره، وهو حق الأقوى، والإيمان بهذا الحق المهيمن وحده هو الذي لا يزال قائماً من بين عقائد الأجيال المسنة، ولدى الشعوب الحديثة ما يشغلها من الهموم الخطرة عن التفكير في تمدين الأمم الأخرى ما اضطرت إلى النظر في أمور عيشها قبل كل شيء، ولن يكون للأمم من الحقوق في التنازع الحاضر الذي يزيد كل يوم إلا بنسبة ما عندها من المقاتلين والمدافعين، واليوم لا أمل لأحد في المحافظة على غير ما يقترب على الدفاع عنه، فإما غالبٌ، وإما مغلوبٌ، وإما صيادٌ، وإما قنصلٌ، وهذه هي سُنة الأزمنة الحديثة، ولا قيمة لكلمة العدل والإنصاف في علاقات الأمم بعضها ببعض، ولا مؤيد لها، وهي من الألفاظ المبهمة المشابهة لاحتاجاتنا المبتذلة التي يستعملها العالم بأسره فتنتهي بها رسائنا من غير أن تخدع إنساناً.

والاليوم يحذّرنا الشعراء عن العصر الذهبي الذي يسود الناس فيه إخاءً عام، وإننيأشك في وجود مثل هذا العصر في أي زمِنٍ كان، وهو إن وجد تلاشى إلى الأبد، ولم يَرِنْ قولُ برينيوس «ويل للمغلوب!»، حينما هدَّ رومة بخرابها، أكثر مما في الساعة الحاضرة، فالإنسان قد دخل دوراً من الحديد والنار لا بد من هلاك كل ضعيف فيه.

هوامش

- (١) قال مسيو لوقا ملاده في «مجلة الجمعية الجغرافية المدريدية» سنة ١٨٨٢ م: إنه لا يصلح ٤٥ في المائة من أراضي إسبانيا للفلاحنة في الوقت الحاضر مع أنها كانت غنية جدًا في الزراعة أيام العرب، ولا تزيد نسبة القسم الخصب على عشرة في المائة منها، ويعد من أهم العوامل في هذه الحالة المحزنة: إبادة الإسبان لجميع غاباتها تقريباً.
- ونحن إذا نظرنا إلى الإحصاءات وحدها رأينا إسبانية تتمتع برخاء كبير منذ بضع سنين، فقد ارتفعت قيمة صادراتها السنوية، التي كانت بين سنة ١٨٦٠ م وسنة ١٨٧٠ م ٢٣٧ مليون فرنك، إلى ٥٠٠ مليون فرنك بين سنة ١٨٧٠ م وسنة ١٨٨٠ م، بيد أنه يظهر من التدقيق في أسباب ارتفاع هذه الأرقام أنه أمر عارض، وأنه ناشئ، في الحقيقة، عن تخريب حشرات الفيلوكسيرة لما يزيد على ثلث كروم العنبر في فرنسة، وعن اضطرار تجار فرنسة إلى اشتراء مقدار من الخمر الإسبانية سداً للنقص، وعن إصدار إسبانية إلى فرنسة، من سنة ١٨٧٠ م إلى سنة ١٨٨٢ م، ستة ملايين هيكتوليتر، بعد أن

كانت تصدر إليها ٣٠٠٠٠ هيكتوليتر، أي عشرين مرة زيادة على ما في الماضي، وعن بلوغ ثمن ما اشتريته فرنسة من الخمر الإسبانية في سنة ١٨٨١ م ٢٦٤ مليون فرنك.

(٢) دل الإحصاء الأخير على أن ثلاثة أرباع سكان إسبانيا، أي اثنى عشر مليون شخص من مجموع أهلها الذي هو ١٦٦٢٠٠٠ شخص أميون لا يقرأون ولا يكتبون.

(٣) يصعب بيان ما امتصه رجال المال الأوربيون، ولا سيما اليهود، من فلاحي مصر في بعض سنين، وإنما نعلم من الأرقام التي نشرها مسيو فاندنبرغ في سنة ١٨٧٨ م أن رجال المال أخذوا من مبلغ الـ ١٧٥٠٠٠ فرنك، الذي هو مجموع القروض الخمسة، ٥٢٢ مليون فرنك إكرامية أو عمالة ... إلخ، وأن نصيب الخزينة المصرية منه لم يكن سوى ٨٧٥ مليون فرنك، وأن هذه الخزينة دفعت من الفوائد، منذ زمن طويل، ما يعدل رأس المال.

(٤) تتم عمليات الهدم بلباقه، ولا يرد اسم سادة مصر الجدد (الإنجليز) في الأوامر التي تصدر بشأنها، وقد نشرت في عدد الوقائع المصرية الصادر في ٢٠ من يناير سنة ١٨٨٣ م، وذلك إرضاء لهواة الآثار القديمة في الظاهر، لائحة للمحافظة على الآثار التاريخية أو الدينية أو الفنية قائلة: «تبقي هذه المباني بقدر الإمكان على الخط الذي هي عليه، ولا يسري عليها حكم الدخول في حذاء التنظيم إلا عند تجديد بنائها»، فتعتبر «إلا عند تجديد بنائهما» معقد ما كان بعض المباني يزيد اتساعاً على كنيسة نوتردام دوپاري، وما كان من الممكن تفسير تعبير «الآثار التاريخية» على حسب الهوى، فلا يكون لتلك اللائحة نتيجة سوى تعجيل عمليات الهدم.

ومن سوء حظ بناء الشوارع الأوربية والثكن أن أريدت السرعة فهبت عاصفة سخط على الأمر بهدم خمسة من أنفس مباني القاهرة الأثرية، وأن اشتركت الجرائد الإنكليزية نفسها في الاحتجاج مع رجال الفن فوقفت.

ولم يتم وقفه إلا بصعوبة، كما يظهر من قول ناظر الأشغال العامة علي باشا مبارك للجنة المحافظة على الآثار: «هل نحتاج إلى ذلك العدد الكبير من الآثار؟ ألا يغني النموذج الواحد عن بقيتها؟»، هذا القول بديع حقاً، فهو يؤدي إلى الاكتفاء بواحدة من الصور التي رسمها رفائيل أو روبينس واستخدام بقيتها في حزم السلع وصرها، ومما تمحيض عنه فصاحة ذلك الناظر البارع قوله لتلك اللجنة بشأن باب زويلة الذي كان يقتل المجرمون أمامه: «لا نريد مثل هذه الذكريات هنالك، فلندهمه كما هدم الفرنسيون حصن الباستيل!»

فعلى هوا الفن الذين يرغبون أن يشاهدو في القاهرة كنوز فن العمارة، التي هي وليدة حضارة العرب في ألف سنة، أن يسرعوا، فقد لا يمضي زمن قصير حتى تكون قد زالت وأحل التجار (الذين يحتقرونها؛ لعدم فائدتها، وأنها من صنع أمة أخرى، ولرغبتهم في إمتاع المصريين بنعم الحضارة) محلها ثكناً جميلة، وكنائس بروتستانية طريفة، ومخازن لبيع الكتاب المقدس والمسكرات كثيرة، وبيوتاً لجموع القساوسة والمبشرين متنوعة.

(٥) قدر المبلغ الذي قبضته إنكلترا من الهند منذ عشرين سنة بعشرة مليارات، وذلك عدا النقد الذي ينفق لتمويل الفاتحين الذين يأخذ كل واحد منهم في المستعمرة راتب وزير أو أمير، وقد حدثت مدة إقامة الموظف الإنكليزي في الهند بخمس سنين على العموم، لعدها كافية لإثرائه، ويمكن اجتلاء حال الهند من عبارة الكاتب الإنكليزي مستر هندمان الآتية: «إن من الأمور المخيفة، حقاً، أن تكره الولايات الشمالية الغربية الهندية على إصدار حبوبها مع موت ٣٠٠٠٠ من أبنائها جوغاً في بضعة أشهر»، ثم ذكر هذا المؤلف الإنكليزي أنه مات، في سنة ١٨٧٧ م، في مقاطعة مدراس وحدها ٩٣٥٠٠ نفس كما جاء في التقارير الرسمية، ولم يحدث غير ما يزيد هذه الحالة سوءاً؛ لما ينجم عن ضرورة دفع الضرائب الثقيلة من إضعاف خصب الأراضين الزراعية بسرعة.

ولا ريب في صحة الإحصاءات التي نشرها مستر هندمان في مجلة القرن التاسع عشر تحت عنوان «إفلاس الهند»، والمسوغ الوحيد الذي قيل عن الجزية السنوية التي تدفعها الهند إلى إنكلترة، ومقدارها خمسماة مليون، هو قول مجلة الأسبوعين: «إنها ثمن تتمتع الهند بحكومة منظمة محبة للسلام»، ويرى الهندوس، حتماً، شيئاً من المبالغة في وصف حكومة الهند بمحبتها للسلام مع موت هندوس يزيد عددهم كثيراً على عدد الذين يُقتلون في أشد الحروب سفكًا للدماء، وذلك بفعل الجوع في كل سنة.

(٦) أحيل القارئ على الحوادث التي ذكرتها في كتابي الأخير: «الإنسان والمجتمعات» (الصفحة ٩١ من المجلد الثاني) ليتبين سياسة البيض في إفريقيا وأقيانوسية، وإنما أورد هنا الأسلوب الدقيق الذي يسير عليه ربابة السفن الإنكليزية: لجمع ما يحتاجون إليه من العمال في جزر الملايو، وهو أنهم يجذبون بحيل، ولاسيما بمظاهر ودية، أناساً كثريين من أهل هذه الجزر، ويضربون رقابهم ويأخذون، لزمن معين، من رؤساء القبائل المعادية عدداً من العمال في مقابل كل رأس من أولئك، وإن كانوا لا يعيدين

إلى هؤلاء العمال حريتهم أبداً خلافاً للعهود، فأعمال مثل هذه هي التي جعلت العالم الطبيعي كاترفاج يصل في كتابه عن الجنس البشري إلى قوله: إنه لا يجوز للعرق الأبيض الأوروبي أن يلوم أكثر الشعوب توحشاً من ناحية احترام حياة الإنسان، فليرجع العرق الأبيض قليلاً إلى تاريخه الخاص، وليتذكر بعض الحروب والوقائع التي كتبها بحروف من دم، وليتذكر على الخصوص، ماذا صنع مع أخواته المتأخرات، وماذا أسفرت عنه خطواته حول العالم من الفقر، وليتذكر جرائم القتل التي اقترفها بدم بارد لاعباً لاهياً في الغالب، وليتذكر اصطياده للإنسان بانتظام كما يصطاد الوحش الضاربة، وليتذكر استئصاله أمماً؛ ليفسح في المجال للمستعمرين الأوروبيين، وليعرف أن احترام حياة الإنسان إذا كان سُنة مقدسة عامة فإنه لم يَرُو أن شعراً انتهك حرمتها بفظاعة مثله.»

(٧) أدعوا من يريد أن يطلع على رأي الفريق المثقف من الشرقيين في الأوروبيين إلى قراءة المقالة الممتازة التي نشرها في المجلة العلمية سنة ١٨٧٨ م مسيو مازانا مایدا المفوّض الياباني العام لدى المعرض الباريسي الكبير الأخير، فمع ما حاول به ذلك المفوس من كتمان رأيه بسبب منصبه الرسمي وجنسية تلك المجلة نراه قد أوضح العمل المخرب الذي يقرفه الإنكليز نحو الصينيين بقصد ابتزاز أموالهم، ثم ذكر «أن الأجانب في مدن اليابان وأريافها لا يحترمون من يجاورهم، ولا يبالون بارتكاب أي إتلاف فيما يملكون ... غير مكترين للقوانين ولا للطبائع».»

الفصل الثاني

أسباب عظمة العرب وانحطاطهم

حال الإسلام الحاضرة

(١) أسباب عظمة العرب

نختِمُ تاريخ حضارة العرب بتلخيصنا أسبابَ عظمتهم وانحطاطهم في نظرة شاملة، فنقول: إن الزمن الذي ظهر فيه العرب من العوامل التمهيدية في قوتهم، وإن لعامل الزمن التمهيدي أهمية كبيرة في حياة الأفراد والأمم، وإن هناك صفاتٍ لا تبرُّ إلا في وقتٍ معين، فلو ظهر نابليون في زمن لويس الرابع عشر ما استطاع أن يصير سيد أوربة، ولو ظهر محمد أيام سلطان الرومان ما قدرَ العرب على الخروج من جزيرتهم لا رَبِّ، ولظل التاريخ جاهلاً لهم.

ولِدَ محمد في أحسن الأوقات، وقد رأينا أن العالم المسنَّ كان متصدعاً فيه من كل جانب، ولم يتوجب على أتباع محمد إلا أن يهُزُّوه ليتساقط.

بيد أن القضاء على دولةٍ لا يكفي لإقامة حضارة، ويدل عجز البراءة الذين ورثوا حضارة الرومان في الغرب، كما ورثها العرب في الشرق، على ما في إقامة الحضارات من المصاعب، وإذا كان ذلك العامل التمهيدي مساعداً على إنشاء دولة جديدة وحضارة جديدة فلا بد من عوامل أساسية أخرى لإقامتها مما نُعِّينه الآن.

وتتأثر العرق من أهمِّ تلك العوامل التي نذكرها: رأينا أن من أهم خصائص العرق أن يتَّصف أفراده – على الخصوص – بمشاعر وقابلياتٍ متماثلة، وأن يوجّهوا جهودهم نحو غَرض واحد، وهذه المشاعر المتماثلة التي

تكوّنت بتعاقب الوراثة، أي التي تتّألف الأخلاق القومية من مجموعها، هي تراث ماضٍ ساعد أجدادنا على تكوينه، فنساعد على تكوينه أيضًا من أجل ذريّاتنا، وهذه المشاعر، وإن كانت تختلف بين شعب وشعب لا تختلف إلا قليلاً في الشعب الواحد.

ولا ريب في وجود أثر لكل جيل فيما هوأساسي من الأخلاق القومية، ولكن هذا الأثر ضعيفٌ، ولا بد من مرور عدة قرون حتى يبدو الطور الناشئ عن الآثار الموروثة المتراكمة بالتدريج واضحًا، وعلى ما تؤدي إليه التربية والبيئة والأحوال من التطور السريع لا يكون هذا التطور إلا مؤقتاً.

والواقع أن صفاتِ العرق الخُلُقية والعقلية ثابتة ثباتَ صفاتِ الأنواع الجثمانية، والليوم نعلم أن هذه الصفات تتحول مع الزمن أيضًا، وإن عدّها علماءُ التاريخ الطبيعي سابقًا لا تتبدل مطلقاً.



شكل ١-٢: باعْ خبز جائِل في القدس (من صورة فوتوغرافية).

وقد حاولت أن أثبت في كتاب آخر أن الأخلاق التي تتألف من تجمُّع المشاعر اللاشعوري، لا الذكاء، هي التي تُسْرِّينا، ولذا يجب على من يَرْغب في الوقوف على شأن الأفراد والأقوام في التاريخ أن يبدأ بالبحث في أخلاقهم، وقول بوليوس قيصر في أجدادنا: «إنهم مُحبون للثورات، موَدُون للحروب بلا سبب، غيرٌ صُرِّ على نوابِ الدهر» مما يساعد على تفسير حوادث ماضينا.

ومن السهل أن نستعين بحوادث التاريخ فنُثبت أن نتائج الأخلاق تختلف باختلاف الأحوال، وأن المزايا والنقائص التي كانت سبباً في عظمة أمّة في زمن معين قد تكون سبب انحطاطها في زمن آخر، كما هو أمر العرب، ويُدلل إنعام النظر على صدور مختلف النتائج عن عللٍ واحدة، ومن ذلك أنه يظهر، أول وهلة، وجودُ هوة اجتماعية بين الإغريقي في عصر بركليس وبينه في العصر البزنطي مع أن الأحوال، لا الجوهر الخلقي، هي التي تغيرت في هذين العصرتين، أي أن رقة الإغريقي ودقّته الفلسفية وجمال لغته انقلبت إلى خداعٍ وبغيٍ كلامي وثرثرة بزنطية بفعل البيئة وتبدل الزمن، وقد يُخيّل إلى الناظر أن رجال محاكم التفتيش في القرون الوسطى يختلفون بإيمانهم المتقد ومحافظتهم الغريزية الشديدة عن اليعاقبة المعاصرين المتصفين بالزندقة المتطرفة والغرائز الثورية، مع أن قليل تأملٍ يدل على أن هذين الفريقين متشابهان، وأن أسماء المعتقدات وحدها هي التي تَغَيَّرت.

وينضم إلى عناصر الْخُلُقِ الْقُومِيِّ الْأَسَاسِيِّ الثابتة ثبات الفقر في ذوات الفقراء عناصر ثانويةٌ تختلف كاختلاف الطول وشكل الجسم واللون في ذوات الفقرات أيضًا، وهذه العناصر الثانية هي ما يَصُحُّ أن يقال معها: إن الأذواق والأفكار تتغير بتغير الأرمان، ولكن تغيراتٍ كهذه لا تؤثر في عناصر الخلق الجوهرية، ويمكن تشبيه هذه العناصر الجوهرية بالصخرة التي تلتقط عليها الأمواج من غير أن ترحرحها، ويمكن تشبيه تلك التغيرات بما تَضَعُه الأمواج من الرمل والصَّدف والنبات على هذه الصخرة؛ لتعود فتأخذ منها بسرعة.

ومما تقدم يعلم القارئ أن البحث التاريخي يجب أن يستند على دراسة عناصر الْخُلُقِ الْقُومِيِّ الْأَسَاسِيِّ ليُفرّق بين الأمم، وقد وَصَفْنَا — بما فيه الكفاية — عناصر الْخُلُقِ الْعَرَبِيِّ، ولا فائدة من الرجوع إليها مرة أخرى، ونحن إذا تركنا جانبًا ما قلناه عن ذكاء العرب وحماستهم واستعدادهم الفني والأدبي ... وما إلى ذلك من الصفات التي لولا وجودها فيهم ما استطاعوا أن يصلوا إلى درجة الحضارة، فإننا نذكر صفاتهم



شكل ٢-٢: عرب من جوار أسوان (مصر العليا، من صورة فوتوغرافية التقاطها المؤلف).

الحربية المتأصلة التي يمكن اتخاذُها مثلاً بارزاً على قولنا: إنه ينشأ عن القابليات الواحدة نتائجٌ تختلف باختلاف الأحوال.

ولم تكن جزيرة العرب، قبل ظهور محمد، سوى ميدان حرب دائم واسع؛ لما تأصلَ في العرب من الطبائع الحربية، ولما جاء الإسلام وألْفَ بين قلوب العرب وجَهُوا جميع قُوَّاتِهم إلى البلاد الأجنبية، وكانت طبائعهم الحربية من أسباب انتصاراتهم، ولما خلا الميدان من أعداء يحاربونهم صوَّبوا أسلحتهم نحو أنفسهم بفعل صفاتهم الحربية المتأصلة، وبدت هذه الصفات، التي كانت سر عظمتهم، سبب انحطاطهم.

ولكن قولنا: إنه ينشأ عن العنصر الخلقيِّ الواحد نتائجٌ مختلفةٌ باختلاف الأحوال لا يكفي وحده لإيضاح تطور أمة؛ فهناك أحوالٌ وعواملٌ أخرى كثيرةٌ لها تأثيرٌ عظيم أيضًا.

ونذكر على رأس هذه العوامل التي ندرسها ذلك العامل الذي توحدت بفضله جميع القبائل العربية المنقسمة، وهو الدين الذي أنشأه محمد، فقد منح هذا الدين ما كانت تحتاج إليه أممٌ من المثل الأعلى المشترك الذي اكتسبوا به من الحمية ما استعدوا به للتضحية بأنفسهم في سبيله.

وقد أتيح لي أن أذكر غيرَ مرة أن عبادة أيٌّ مثلٌ عالٍ من أقوى العوامل في تطور المجتمعات البشرية، ويكفي أن يكون المثل الأعلى قوياً؛ ليمنح الأمة مشاعر مشتركة وأماماً مشتركة وإيماناً متيناً ينفع به كُلُّ واحد من أبنائها في التضحية بنفسه في سبيل نصره، وكانت عظمة روما مثلاً الرومان الأعلى، وكان نيل حياة أخرى يجتنى منها أطاييف النعم مثلاً النصارى الأعلى، وتخيل الرجل العصري آلهة جدداً يقيم لهم تماثيل مع أنهم وهميون كقدماء الآلهة لا رب، وذلك مع كفاية تأثيرهم الطيب لوقاية مجتمعاتنا القديمة من الزوال حيناً من الزمن، وليس التاريخ سوى رواية للحوادث التي قام بها الناس انتصاراً مثلٌ عالٍ، ولو لا تأثير المثل العليا ما تمدن الإنسان، ولظل في دور الهمجية، وبيداً دور انحطاط الأمة حينما تعود عاطلةً من مثلاً عالٍ محترم يستعد كل واحد من أبنائها لوقف نفسه عليه.

والمثل الأعلى الذي أبدعه محمد دينيٌّ محسن، والدولة التي أسسها العرب هي الدولة العظمى الوحيدة التي قامت باسم دين اشتقت منه جميع نظمها السياسية والاجتماعية.

وهل يكفي هذا المثل الأعلى القوي والعوامل الأخرى التي ذكرناها لإيضاح عظمة العرب؟ كلا.

تقدمنا في الإيضاح وقلنا: إن العالم القديم كان متصدعاً، وإن أمّة ذات صفاتٍ حربية اتحدت بفضل معتقداتها المشتركة وصارت مستعدة لفتحه، وإنَّه بقي لهذه الأمة أن تستولي عليه فعلاً وتحفظه.

ورأينا كيف تمت فتوح العرب، وكيف أنهم لم تُفلَّ عزائمهم ثانيةً، وأنهم تعلموا من غالبيهم ما كانوا يجهلون من فنون الحرب بعد أن خرجوا من جزيرتهم وغلبوا الوارثون الآخرين للسلطان الإغريقي الروماني، فلما تساووا هم والروم في الأساليب الحربية لم يبق شُكُّ في تمام النصر لهم؛ لاستعداد كل جندي عربي لبذل نفسه في سبيل دينه، ولتواري كل إخلاص وحماسة وإيمان في جيش الروم منذ زمن طويل.

وكان يمكن أن تعمي فتوح العرب الأولى أبصارهم، وأن يقتربوا من المظالم ما يقتربه الفاتحون عادة، ويسيئوا معاملة المغلوبين، ويُكرهون على اعتناق دينهم الذي



شكل ٣-٢: فتى عربي من مصر العليا (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

كانوا يرغبون في نشره في العالم، ولو فعلوا هذا لتألبت عليهم جميع الأمم التي كانت غير خاضعة لهم بعد، ولأصحابهم مثل ما أصاب الصليبيين عندما دخلوا بلاد سوريا مؤخراً، ولكن العرب اجتبوا ذلك، فقد أدرك الخلفاء السابقون الذين كان عندهم من العبرية السياسية ما ندر وجوده في دعاة الديانات الجديدة، أن النظم والأديان ليست مما يُفرض قسراً، فعاملوا، كما رأينا، أهل سوريا ومصر وإسبانيا وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم تاركين لهم قوانينهم ومعتقداتهم غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة، في الغالب، إذا ما قيست بما كانوا يدفعونه سابقاً، في مقابل حفظ الأمن بينهم، فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب ولا دينًا مثل دينهم.

وما جعله المؤرخون من حلم العرب الفاتحين وتسامحهم كان من الأسباب السريعة في اتساع فتوحهم، وفي سهولة اعتناق كثير من الأمم لدينهم ونظمهم، ولغتهم التي

رسخت، وقاومت جميع الغارات، وبقيت قائمةً حتى بعد تواري سلطان العرب عن مسرح العالم، ونعدُّ من الواضح خاصةً أمر مصر التي لم يوفق فاتحوها من الفرس والأغارقة والرومأن أن يقلبوا الحضارة الفرعونية القديمة فيها وأن يقيموا حضارتهم مقامها.

وهنالك أسبابٌ آخرٌ غيرُ تسامح العرب وحِلْمِهم ساعدت على انتشار دينهم ونظمهم المشتقة منه، وذلك أن هذه النظم كانت من البساطة، في الحقيقة، ما لاَمت معه احتياجات طبقات الأهلين الوسطى البسيطة أيضًا، وإذا حدث اتفاقاً، أن كانت هذه النظم غيرَ ملائمة لهذه الاحتياجات عَلَى العرب كما تقضي به الضرورة، وبهذا نفس السرّ في اختلاف نظم المسلمين في بلاد الهند وفارس وجزيرة العرب وإفريقية ومصر اختلافاً كبيراً في بعض الأحيان مع أن القرآن واحد.

والآن انتهينا إلى الزمن الذي أتمَّ العرب فيه فتحَهم للعالم، ولكنَّ بحثنا لما يتمَّ، وذلك أن دور الفتح لم يكن سوى وجه واحد من وجوه تاريخ أشیاع النبي، وأن العرب أبدعوا حضارةً جديدةً بعد أن فتحوا العالم، وأن الأسباب التي ذكرناها لا تكفي لإيضاح هذا الإبداع، فلا بد، إذن، من وجود عوامل أخرى.

وُجد عاملان قاطعان في إبداع حضارة العرب، وهما بيئَة العرب الجديدة وقابلياتُ ذكائِهم.

والبيئة مما وصفنا آنفًا، ولم يلبث العرب بعد خروجهم من صحراء جزيرتهم أن وجدوا أنفسهم أمام ما بَهَرَهم من آثار الحضارة الإغريقية اللاتينية، وأن أدركوا تفوقها الثقافي كما كانوا قد أدركوا تفوقها الحربي، فجدوا ليكونوا على مستواها من فورهم. وييتطلب استمراء حضارة راقية ذكاءً مثقفاً، وأثبتت الجهود الخائبة التي حاول البربرة قروناً كثيرةً أن يدركوا بها معنى ما بَقَيَ من الحضارة اللاتينية صعوبةً ذلك، ولم يكن العرب من البربرة لحسن الحظ، ونحن، وإن كنا نجهل حضارتهم قبل ظهور محمد بزمنٍ طويل، أي حين كانوا ذوي صلات تجارية ببقية العالم، أثبتتنا أنهم كانوا ذوي ثقافةً أدبيةً رفيعةً أيامَ هذا النبي.

والحق أن الرجل الأديب المثقف يجهل أموراً كثيرة، وإنما يتعلمها بسهولةٍ لما فيه من الاستعداد الذهني، وقد أظهر العرب في دراسة العالم الجديد في أعينهم، من الحماسة كالاستعداد الذي أبدوا لفتحه.

ولم يتقييد العرب في دراسة الحضارة التي واجهتهم فجأةً بمثل التقاليد التي أثقلت كاهل البنطبيين منذ زمنٍ طويل، فكانت هذه الحرية من أسباب تقدمهم السريع،

فالذى يحدُث في حياة الأمم، في الغالب، هو أن تأثير الماضي يُعَبِّد الناس لِنَيْر التقاليد المسنة بعد نفعه لهم، وينعهم من كل تقدم.

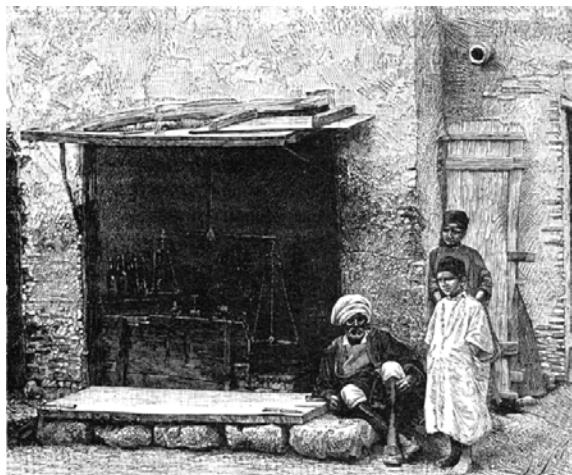
ولم يلبث أن تجلَّ استقلال العرب الروحي الطبيعي وخيالهم وقوه إبداعهم في مبتكراتهم الحديثة، وقد رأينا أنه لم يمض غيرُ وقتٍ قصير حتى طبعوا على فنِ العمارة وسائل الفنون، ثم على مباحثهم العلمية، طابعهم الخاص الذي يبدو في آثارهم أول وهلة، وأنهم لم يبالوا بفلسفة اليونان النظرية لملاءمتها القليلة لزاجهم النفسي، وأن همَّهم كان مصروفاً إلى الفنون والعلوم والأداب على الخصوص، فوصفنا بدرجة الكفاية ما ابتكروه في هذه الفروع الكثيرة.

تلك هي أسباب عظمة العرب السياسية، ولنبحث الآن في أسباب انحطاطهم.

(٢) أسباب انحطاط العرب

يمكن الاستناد إلى كثير من العوامل التي ذكرنا أنها من أسباب عظمة العرب في بيان انحطاطهم، ويكفي أن ننظر إلى عامل الزمن المهم؛ لتعلم أنه ينشأ عن أنفع صفات الأفراد والأمم في أحد الأزمنة أسوأ النتائج في زمن آخر، وأن الاستعداد الخُلقي أو الذهني الذي يكون عاملاً ناجحاً في أحد الأوقات حتى يكون عاملاً حبوط وإخفاق في وقت ثانٍ. ولقد بيَّنتُ سابقاً كيف أن غرائز العرب في الحرب والخصام، التي كانت نافعة في دور فتوحهم، لم تلبث أن أصبحت ضارةً بعد انتصاراته وخُلو الميدان من أعداء يحاربونهم، وذلك أن العرب، بعد أن تَمَّ فتوحهم، أخذ ميلهم المتواصل إلى الانقسام يبدو، وصارت دولتهم تتجزأ حتى سقطت، وذلك كما حدث لهم في إسبانيا وصقلية اللتين أضاعوهما بفعل انقساماتهم الداخلية على الخصوص، واللتين أجلاهما النصارى عنهما بسبب تنافسهم الدائم فيما بينهما.

ويمكن عد نظم العرب السياسية والاجتماعية، التي ذكرنا أنها من أسباب تقدمهم السريع، من عوامل انحطاطهم أيضاً، وبيان ذلك: أن العرب لم يقدروا على فتح العالم إلا حينما خضعوا للشريعة الجديدة التي جاء بها محمد، وجمعوا كلمتهم المتفرقة تحت لوائها، وهي التي كان يمكنها وحدتها أن تجمع القوى المبعثرة في جزيرة العرب، وقد بقي نير هذه الشريعة الحازم طيباً ما بقيت نظم النبي ملائمة لاحتياجات أمته، فلما أصبح تعديل هذه النظم ضرورة لازِبٍ، بسبب مبتكرات حضارة العرب، كان نير التقاليد من الثقل بحيث لا يمكن زحزحته.



شكل ٢-٤: تاجر تونسي (من صورة فوتوغرافية).

وعادت نُظم القرآن، التي كانت عنوان احتياجات العرب في زمن محمد، لا تكون هكذا بعد بضعة قرون، والقرآن، إذ كان دستوراً دينياً ومدنياً وسياسياً في آن واحد، وكان لا يتبدل بسبب مصدره الإلهي، تَعَذَّر تعديل أحكامه الأساسية.

وتجلّت نتائج الاختلاف – على الخصوص – بعد أن أخذ نجم سلطان العرب يَأْفَل، وصار يتكرر رد الفعل الديني الذي أصبح يهدف باسم تجديد الإسلام، إلى وقوف الإسلام عند ظاهر آي القرآن، مع أن المسلمين في عصور خلفاء بغداد وقرطبة الظاهرة كانوا يعرفون جيداً أن يُعَدّلوا تعاليمهم وفق ما تقتضيه احتياجات الأمم التي رَضِيتُ بها.

وتجلّ محدود عدم القدرة على التعديل الكبير – على الخصوص – في نُظم العرب السياسية التي تقضي بأن يُقبِض على زمام الدولة ولِيُ أمر واحد يجمع في يده جميع السلطات العسكرية والدينية والمدنية، فهذه النظم، وإن كانت وحدتها تساعد على تأسيس دولة عظيمة بسهولة، تَعُذَّر أقل النظم صلاحاً لبقائهما، والدول الكبرى المطلقة التي تكون جميع السلطات فيها قبضةً رجل واحد، وإن كانت ذات قدرة عظيمة على

الفتح، لا ترتقي إلا إذا كان على رأسها رجال عظماء، فإذا افتقدتهم تداعى كل شيء دفعة واحدة.

ومن نتائج سوء نظام العرب السياسي: ما أصيّبت به دولتهم من الانقسام، أي لم يُعْتَمِّ ولاة الأقطار، الذين كان ينْصِبُهُمُ الخلفاء ليديروا شؤونها، والذين كانوا يتمتعون فيها بمثل ما يتمتع به الخلفاء من السلطات العسكرية والمدنية، أن أرادوا الاستقلال بها، وقد سَهَلَ عليهم هذا الاستقلال؛ لما لم يروا من سلطان يساوي سلطانهم، وقد نشأ عن نجاح بعضهم إغراء الآخرين، فلم تلبث أهم ولايات الدولة أن تحولت بهذا إلى دويلات مستقلة.

وكان لهذا الانقسام نتائج ضارةٌ ونتائج نافعة، فأما نتائجه الضارة: فهي أنه أضعف سلطان العرب العربي، وأما نتائجه النافعة فهي: أنه مَهَدَ السبيل لتقدير الحضارة، والحق أن مصر والأندلس ما كانتا لتبلغا ما وصلتا إليه من الرقي والرخاء لو لم تتفصلَا عن الدولة الكبرى، وأنه ما كان ليتفق لهما، في حالة بقائهما من أجزاء تلك الدولة، غيرُ مصير الولايات العثمانية التي يُعزل ولاتها عزلاً مستمراً فلا يصرفون همَّهم إلا إلى الاغتناء منها بسرعة؛ لِمَا لا يَرَوْنَ لِأنفسهم فوائدٍ في تقدمها.

أجل، إن تقدم بعض تلك الدُّوَلَاتِ المستقلة كان عظيماً، ولكن عاقبتها كانت كعاقبة الدول القديمة التي استندت إلى عدد الجنود وقيمتهم في سلطانها العسكري بدلاً من أن تستند بعض الاستناد إلى أدلة حرية مهمة كما هو واقعُ الآن، والتي كانت تنهار أمام أول غارة أجنبية.

ثم إن الحضارة التي تهذب الطبائع وتُثْقِفُ الذهن لا تُنْمِي الصفات الحربية، وهي تهيئ سقوط الدول الكبرى بذلك، وذلك لأن الأمم التي يكون أبناؤها من المُعوزين ترغب في تغيير حالها، وتهدد الأمم المتقدمة المتကاعسة التي تكون على شيء من الرُّخاء، وبهذا سقطت أكثر الحضارات القديمة، وهذا ما أصاب الرومان، وهذا ما أصاب العرب أيضاً، ولو كان الترك والمغول وغيرهم من الأمم التي صرعت العرب في إبان تمدنهم قد هاجموا أتباع النبي أياض تأسيس هؤلاء لدولتهم، وتتأليفهم أممٌ صابرة على المكاره متعودة شطف العيش غير مُترفةٍ لباءوا بالخسران.

ونذكر من أسباب انحطاط العرب أيضاً: اختلاف العروق التي خضعت لسلطانهم، ويتجلى تأثير هذا السبب على وجهين مختلفين مشؤومين: الأول؛ ما أسفَرَ عن تقابل مختلف العروق من التحاكُّ، وما يجرُ إليه هذا التحاك من تنافسها. والثاني؛ ما أسفَرَ عن التوالد الكثير من فساد دم الغالبين بسرعة.

وكان اختلاط مختلف الأمم في دولة واحدة عامل انحلال قوي دائمًا، وقد أثبت التاريخ أنه لا يمكن بقاء مختلف العروق تحت سلطان واحد إلا بمعراة الشرطين الآتيين، وهما: أن يكون الفاتح من القوة ما يعلم كل واحد معه أن كل مقاومة له لا تجدي نفعاً، وألا يتواذل الغالب والمغلوب، ومن ثم ألا يفني الغالب فيه. ولم يُرِعِ العرب الشرط الثاني قط، ولم يراعه الرومان في كل زمان، وقد انحط الرومان حالاً حينما عَدَلُوا عنه.

ومن أهم العوامل الكثيرة في انحلال العالم الروماني القديم؛ سهولة منح السادة القدماء جميع حقوق المواطن للبرابرية، فقد نَجَمَ عن هذا أن غَصَّت روماً بمختلف العروق، وعَطَّلَتْ من سيادة الرومان، وانطفأت المشاعر التي كانت سر عظمتها سابقاً، وقد كان المواطن من أهل روما لا يتعدد ثانيةً في التضحية بحياته في سبيلها؛ لما في عظمتها من مثلٍ عالٍ قادر، فما تكون قيمة مثلًّا هذا المثل الأعلى في نفوس البرابرية؟ ومن الصعب جدًا أن تُنْضَوَى إلى نظامٍ واحدٍ لأممٍ مختلفة العروق وذات مصالح ومشاعر متباعدةٍ في الغالب، وهذا لا يكون إلا بالضغط الشديد على الأكثر، ومن الأدلة عليه النظام المفروض على الإيرلنديين والهنود في الوقت الحاضر. وما كان العرب ليُلْجَأُوا إلى مثل هذا الضغط حِيَالَ مختلف العروق التي خضعت لهم ما انتَهَتْ دياناتهم ونظمهم بسهولة، وما ساوَى الإسلام مساواةً تامةً بين جميع الذين اعتنقوه على اختلاف شعوبهم.

هذه هي شريعة القرآن، ولم يرحب الغالبون عنها، ولم يؤلف الغالبون والمغلوبون في بدء الأمر سوى أمة واحدة ذات معتقداتٍ واحدة ومشاعر واحدة ومصالح واحدة، وقد ساد الوفاق جميع نواحي الدولة العربية ما ظل العرب أقوياءً محترمين في كل مكان.

بيد أن منافساتِ هذه الشعوب كانت خامدةً غير هامة، وقد بدأ حينما عاد العرب إلى ما تعودوه من الشُّقاق والانقسام، وصارت بلاد الإسلام ميدان خاص دائم بين أحزابٍ لم تترك تنازعها حتى حين كان النصارى يحاصرُون آخر معقل إسلاميًّا في الأندلس.

ونشأ عن وجود عروق كثيرة في البلاد التي دانت للإسلام نتيجةً أخرى أشرنا إلى خطرها آنفًا، وهي اضطرار العرب إلى الامتزاج بجميع الأمم التي كانوا يعيشون بينها، وكان يمكن العرب أن يكتسبوا بعض الأهلية من اختلاطهم بالأمم التي لم

تكن دونهم كثيراً، كنصارى إسبانية مثلًا، وهم إذا ما اخطلوا بعروق متأخرة كبعض الشعوب الآسيوية والبربر لم يُصبهم غير الخسران، وكان التوالد في كلتا الحالين يؤدي حتماً إلى تقويض الأخلاق التي يتتألف من اجتماعها عرقهم، ولذا أصبحت البلاد التي كانت خاضعة لسلطانهم كإسبانية ومصر، لا تشتمل إلا على قليل من العرب بعد زوال سلطانهم السياسي عنها.

وكان عامل توالد العروق الذي أشرنا إليه يكفي وحده لتقرير انحطاط العرب، ولو لم يكونوا عُرضةً للمغازي ومختلف العوامل الأخرى، وذلك كما هو ثابت من أمرهم في مراكش التي نراها اليوم شبه همجية مع عدم غزو الأجنبي لها ومع مزاحمتها برخائها لبلاد الأندلس فيما مضى، والتي نجد أن تفوق البربر فيها وتوالد سكانها والزنوج أدى إلى خفض مستوى حضارتها خفضاً عظيماً.

وقد رُعم أن المستقبل للمولدين، وقد يكون الأمر هكذا، ولكنني لا أتمناه للأمم التي ترحب في المحافظة على مستواها في العالم.

(٣) مقام العرب في التاريخ

ظهر مما قلناه عن حضارة العرب وأسباب عظمتهم وانحطاطهم أنه كان للعرب خصالٌ عظيمةٌ ومساويةٌ كبيرةٌ وقابليةٌ ذهنيةٌ عاليةٌ، وإذا كان العرب دون الرومان مرتبةً في النظم السياسية والاجتماعية فهم أعلى منهم بسعةٍ معارفهم العلمية والفنية، ويمكن القول، على العموم: إن للعرب مقاماً رفيعاً في التاريخ، ولنعني هذا المقام بالضبط: يتطلب تعين قيمة الفرد أو الأمة بالضبط حيازة مقياس مُدرج، ولكن مثل هذا المقياس مفقود تماماً، وإن عدم وجوده يجعل أحکامنا مبنيةً على مشاعرنا الشخصية أكثر مما تبني على عقلكنا، وهذا يكفي لعدّها موضع شك.

ولو ظفرنا بهذا المقياس النفسي، غير الموجود، لتقدير قيمة الرجال لوجب تجديده دائمًا، فهو إن صلح لتقدير الأفضلية في زمنٍ لا يصلح لتقديرها في زمن آخر. وكانت أعلى درجة في الأفضلية التي يتخيلها اليوناني هو أن يكون الأول في الألعاب الأنثropic، أي المصارعة أو العدو أو الملاكمه أو ما إليها من التمارين، فإذا ما فاز فيها كان مظهراً لأعظم تكريماً، أي كان اسمه يُنشَّط على الرخام، وكان من حقوقه أن يدخل مسقط رأسه من ثُغْرَة تُفتح له في الجدار، وكان هذا التكرييم سائغاً، لا ريب، في زمن

كان للقوة والليةة الجثمانية شأن كبير فيه، ولكن مثل هذه الأفضلية لا يُقدّر اليوم في غير أسواق القرى، ولا يكاد يمنح صاحبه خبزه اليومي.

ونحن، عند مرورنا من مجرى القرون، نرى تحول مقياس الأفضلية باستمرار، أي كانت الأفضلية قائمة على القوة الجثمانية والشجاعة في القرون الوسطى أيضاً، وكانت تقاس بالمعارف العلمية والفنية والأدبية في أدوارٍ أخرى، وبقوّة الجدل بفصاحة حول بعض الموضوعات في أدوارٍ غيرها، واليوم يميل الناس إلى قياس الأفضلية بما يُملك من النقود، وسيكون ملوك العصر الذي سندخله عما قليل أقدر الناس على حيازة الثروات، ونرى اتصافبني إسرائيل بدرجةٍ من هذه القابلية لم يساوهم فيها أحدٌ، وبننصر من خلال الكُره العام الذي يُحاك حولهم في كلٌّ مكانٍ ما يدل على اضطرار الناس إلى مقاتلتهم بعنفٍ للتخلص من سلطانهم الخطر.



شكل ٥-٢: مقعد مصنوع في دمشق من الخشب المرصع بالصدف (من صورة فوتوغرافية التقاطها المؤلف).

ومما يستوقف نظر الباحث ما يراه، عند درس الأحوال التي تُعيّن نجاح الأفراد أو الأمم في العالم، من ضعف شأن الذكاء وقوّة أثر الإرادة والعناد وغيره من الصفات الخلقية، ولا شك في المخرج عند افتراض رجلين أو شعبين: أحدهما؛ محدود الذكاء عظيم الشجاعة ماضي العزيمة كبير الصبر مستعد للتضحية بنفسه في سبيل مثلٍ عالٍ،

وثنائيهما؛ رفيع الذكاء عاطل من القابليات التي ذكرتها؛ فالفوز يكون حليف الأقل ذكاءً منها لا ريب، وإذا ما عُدَّ الذكاء عامل نجاحٍ فقط أمكننا أن نقول: إن ضرره أكثر من نفعه عندما يكون فوق المستوى المتوسط، ويَظْهُرُ مصداق هذا القول، الذي يلوح أنه غريبٌ، عندما يتمثّلُ المرء مصيرًا معركةً يكون أحد الشعوبين فيها مؤلِّفًا من أناس حائزين لجميع الأخلاق التي تكلمت عنها آنفًا ويكون الآخر مؤلِّفًا من المفكرين الذين لا يطمعون في عالمٍ أفضلٍ من العالم الحاضر، والذين يقولون ببطلان كلٍ مثلٍ عالٍ، ولا يُضْحِيُونَ بأنفسهم في سبيل أيٍّ خيالٍ كان، والذين يبتسمون من ضعف مبادئ محمد اللاهوتية، ومع ذلك فإنَّ العالم لم يعرف فلاسفةً تشمل مذاهبهم على جزءٍ من السلطان المخيف للأوهام التي استطاع مؤسسو الديانات أن يبتدعوها، والمؤمنُ، عربيًّا كان أو رمانيًّا والله عبدً أو عظمةً روماً، يتُّم له النصر بفضل معتقداته بسهولةٍ إذا ما ضحى بنفسه في سبيلها.

ذلك ما حدث دائمًا، ولا شيء يحمل على افتراض غيره، ومع أن الرومان كانوا سادةً العالم لم يُبدوا تفوقًا ذهنيًّا ظاهرًا في الفنون والعلوم، وكان الأغارةة أستاذة لهم في كل ما يمْتُ إلى الفكر بصلة، ولم يَحُلْ هذا دون استعبادهم لهؤلاء الأغارةة. ونحن، إذا لم نبال بغير الفوز، أمكننا أن نبحث عن مقاييس التفوق والأفضلية في الصفات الخلُقية المذكورة آنفًا، ولكن مقاييسًا كهذا خارجُ أيضًا؛ لعدم قيمته فيما عدا ذلك الهدف الخاص، أي فيما عدا الفوز العتيدي.

والحق يقضي بـألا ننظر إلى المسألة إلا من جهة الحضارة العامة، أي من الناحية الإنسانية؛ لنرى أنه يجب أن يُبْعَثُ عن الأفضلية في المستوى الذهني، لا في تلك الصفات الخلُقية، أجل، ما كان نيوتن، أو ليبنتز، ليُفْوز في الألعاب الأنطوية أو ليقاوم جنديًّا رومانيًّا ثانيةً واحدةً، ولكن أمثاله من شباب آلهة الفكر أو جبوا في العالم تحولاتٍ كثيرةً بما لاكتشافاتهم من النتائج القريبة والبعيدة أكثر مما أوجبته جميع القبائل الآسيوية التي أقامت دولاً كبيرة، والمستقبل حينما يحكم في أمر الماضي بمثل هذه الحرية الفكرية التي لا عهد لنا بها اليوم سيقول، لا ريب، أن اختراع الطباعة والآلة البخارية والخطوط الحديدية والتلغراف الكهربائي ... وما إليه من الاختراعات الكثيرة أحدث في طرق معيش الناس من التطورات ما لا قيمة بجانبه لما أحدثته أشهر الثورات.

ولنُهَمِّل، إذن، ضروب الفوز المادي التي تعدُّها الجماهير (والتاريخ في الغالب) مقاييس حقيقةً لتقدير قيمة الأفراد والأمم، ولنُعلن أن قيمة الأمة العقلية، ومن ثم

درجتها في سلم الحضارة، تُقاس بعدد من يظهر بينها من ذوي المدارك السامية، وإنما يضاف الفوز إلى التفوق العقليٌّ عندما يوجد بجانب أعظم رجالها القليلين جمُّعٌ كافٍ من ذوي الذكاء العادي والثقافة المتوسطة والصفات الخلقية العالية التي ذكرناها. ونستطيع، بعد هذا الإيضاح التمهيدي، أن نُعيِّن، بما فيه الكفاية، مكانَ العرب في التاريخ، فنقول: إنه ظهر من العرب رجالٌ من الطراز العالي كما تشهد بذلك اكتشافاتهم، ولكنني لا أظن أنهم أخرجو رجلاً عظيماً كأولئك العباقرة الذين ذكرتهم، والعربُ كانوا دون الأغارقة في كثير من المسائل، مساوين للرومانيين في الذكاء لا ريب، غير حائزين، إلا لوقت قصير، ما كان سبباً في دوام فوز روما زمناً طويلاً من الصفات الخلقية.

وإذا قابلنا بين العرب والأمم الأوروبية، بدلاً من مقارنتهم بالأمم التي غابت عن مسرح العالم، أمكننا أن نقول: إنهم أرقى من جميع أمم الغرب التي عاشت قبل عصر النهضة أخلاقياً وثقافياً، فلم تعرف جامعات القرون الوسطى، في قرون كثيرة، مصدرًا غير مؤلفاتهم ومناهجهم، وكانت أخلاقهم أفضل من أخلاق أجدادنا بمراحل. وكان العرب قد تواروا عن التاريخ حَوَالَي عصر النهضة، ولا نقدر أن نقول شيئاً مما يمكن أن يصلوا إليه لو لم يتواروا، ولكننا لا نعتقد، مع ذلك، أنهم كانوا يبلغون مستوىً أفضل مما بلغوا؛ لما كان يسفر نقص نُظمهم عنه من الموانع.

ولا تمكن المقابلة بين مختلف الأدوار، كالدور الذي غاب فيه العرب والدور الحاضر كما هو واضح، ولكننا إذا حملنا على المقابلة بين هذين الدورين قلنا: إن أكبر العرب السابقين دون أكبر الزمن الحاضر، وإن عرب طبقات الوسطى السابقة مساوون لأبناء طبقاتنا الوسطى المتقدنة الحاضرة على الأقل، وأرقى منها في الغالب.

وما قلناه عن طبقات العرب الوسطى السابقة نقول مثلاً عن أكثر الشرقيين في الوقت الحاضر، أي إن طبقات العرب والصينيين والهندوس الوسطى الحاضرة ليست دون أخواتها في أوربة، وإننا نرى بين هؤلاء زُرْعاً وعُمَّالاً ماهرين مهارة زراعتنا وعمالنا على الأقل، وإن في مزاحمة الصينيين الساحقة للعمال الأنجلوسكسون في أمريكا وأسترالية، وما نَجَمَ عنها من اتباع سياسة طردتهم منها تقربياً، دليلاً قاطعاً على ذلك.

والشرقيون المساوون لنا مهارةً، وهم الذين لم يُحْطَ الختصاص ذكاءهم يفوقوننا بقناعتهم وقلة احتياجاتهم وطبائعهم الموروثة، وهم لا يفتقرن إلا إلى أمر أساسى، أي



إلى طبقةٍ عاليةٍ كافيةٍ وبعض العظاماء؛ ليكونوا هم والأمم الأوروبية المتقدمة على قدم المساواة، ومن حظنا الحَسْن أن كانوا عاطلين من مثل هؤلاء، وإنما لاستطاعوا بالإضافة إلى طبقاتهم الوسطى، أن يقوموا مقامها، وأن يقْبضُوا على زمام الحضارة، ولذا فإنه إذا قُيِّض للاشتراكيين في الوقت الحاضر أن يحققُوا أحَلَمَهم في إقامة مجتمع من ذوي الذكاء المتوسط، وفي القضاء التدريجي على الأفضليات؛ فإن سيادة العالم تنتقل من فورها إلى أبناء الشرق الأقصى.

(٤) حال الإسلام الحاضرة

ثقلتْ قرونٌ على أعفار العرب، ودخلتْ حضارتهم في ذمة التاريخ منذ زمنٍ طويل، ولا نقول، مع ذلك، إنهم ماتوا تماماً، فنرى الآن ديانتهم ولغتهم اللتين أدخلوهما إلى العالم أكثر انتشاراً مما كانتا عليه في أنضر أدوارهم، والعربية هي اللغةُ العامَّة^١ من مراكش إلى الهند، ولا يزال الإسلام جاداً في تقدمه.

ويُقدَّر علماء الجغرافية عدد المسلمين في العالم بـ ١١٠ مليون، ولكن هذا الرقم، الذي وضع حين كنا نجهل انتشار الإسلام في الصين وإفريقيا الوسطى، أقلُّ من

الحقيقة، واليوم يدرس القرآن، فيما عدا جزيرة العرب، في مصر وسوريا وتركية وأسية الصغرى وفارس وقسمٍ منهم من روسية وإفريقية والصين والهند، وتناول القرآن مدغشقر وإفريقية الجنوبية، وُعرف في جزر الملايو، وعلمه أهل جاوة وسومطرة، وتقدّم إلى غينية الجديدة، ودخل أمريكا مع زنوج إفريقية.

والسهولة العجيبة التي ينتشر بها القرآن في العالم شاملةً للنظر تماماً، فالمسلم أينما مر ترك خلفه دينه، وبلغ عدد أشياع النبي ملايين كثيرةً في البلاد التي دخلها العرب بقصد التجارة، لا فاتحين، وبعض أجزاء الصين وإفريقية الوسطى وروسية، وتم اعتناق هذه الملايين للإسلام طوعاً، لا كرهاً، ولم يسمع أن الضرورة قبضت بإرسال جيوش مع هؤلاء التجار المبشرين العرب لمساعدتهم، ويتسنى نطاق الإسلام بعد أن يقيمه هؤلاء في أي مكان كان، ولم تُستأصل شأفة الإسلام بعد أن رسخ في روسية منذ عدة قرون، واليوم يقطن خمسون مليون مسلم ببلاد الهند، ولم يُوقف مبشرو البروتستان لأي تنصير في الهند مع مظاهره حكمتها لهم، ولا نعلم بالضبط عدد المسلمين في إفريقية، ولكن الرواد المعاصرين كلما أوغلوا فيها وجدوا قبائل تُبشر بالإسلام، والآن يُمدّن الإسلام أقوام إفريقية، حيث يكونون، مُظهراً عمله الطيب في كل مكان.

ولقد أصاب مسيو ج. دوقال حيث قال: «من فضل الإسلام زوال الأصنام والأنصاب من الدنيا، وتحريم القرابين البشرية، وأكل لحوم الإنسان، وحفظ حقوق المرأة، وتقيد مبدأ تعدد الزوجات وتنظيمه مع عدم الوصول إلى الحق المطلق، وتوطيد أواصر الأسرة وجعل الرقيق عضواً فيها، وفتح أبواب كثيرة سهلة لتحريره، وتهذيب الطبائع العامة ورفع مستواها بالصلة والزكاة، وإيواء الغرباء، وتنقيف المشاعر بالعدل والإحسان، وتعليم أولياء الأمور أن عليهم من الواجبات ما على الرعية، وإقامة المجتمع على أسس منظمة، وإذا حدث أن وُجد جُورٌ في الغالب، كما في أي مكان آخر، وُجد في العدل الإلهي ما يُخفّف وطأته، وذلك أن في رجاء الحياة الآخرة، حيث السعادة وحسن الثواب، سندًا لضحايا الدهر أو الظلم، وتلك هي بعض المحسنات التي تدل في كل مكان على انتشار الإسلام بين المجتمعات غير المتقدنة».

ويتقدم الإسلام في الصين تقدماً يقضي بالعجب، ويكتب للإسلام أسطع فوز في الصين حيث اضطرب المبشرون الأوروبيون إلى الاعتراف بالحبוט، وقد رأينا أن عدد أتباع محمد في الصين عشرون مليوناً، وأن في مدينة پكين وحدها مائة ألف مسلم.

قال الأستاذ وازيلياف: «دخل الإسلام مملكة ابن السماء كما دخلتها البدائية (البوزية)، وسيقوم الإسلام، ومسلمو الصين لا يُشكّون في ذلك، مقام ديانة شاكية مونى، وهذه المسألة على جانب عظيم من الأهمية، فإذا وقع مثلُ هذا الحادث واعتنقت الصين، التي تضم ثلث البشر على الأقل، دين الإسلام تغيّرت علاقات العالم القديم السياسية تغييرًا عظيمًا، وأمكن دين محمد، الذي يمتد، إذ ذاك، من جبل طارق إلى المحيط الهادئ، أن يُهدم النصرانية من جديد.»

لقد تم الكتاب، ولنلخّصه في بعض كلمات فنقول: إن الأمم التي فاقت العرب تمدنًا قليلة إلى الغاية، وإننا لا نذكر أمةً، كالعرب، حققت من المبتكرات العظيمة في وقت قصير مثل ما حققوا، وإن العرب أقاموا دينًا من أقوى الأديان التي سادت العالم، أقاموا دينًا لا يزال تأثيره أشد حيويةً مما لأي دين آخر، وإنهم أنشأوا، من الناحية السياسية، دولةً من أعظم الدول التي عرفها التاريخ، وإنهم مدنوا أوربة ثقافة وأخلاً، فالعروق التي سَمَّت سموًّا العرب وهبطت هبوطهم نادرةً، ولم يظهر، كالعرب، عرقٌ يصلح أن يكون مثلاً بارزاً لتأثير العوامل التي تهيمن على قيام الدول وعظمتها وانحطاطها.

هوامش

- (١) تُطبع في الأستانة جريدة عربية واحدة، وفي سوريا عشر صحف، منها ثلاثة مجلات أسبوعية، وتُطبع في أكثر البلاد التي يتكلم سكانها بالعربية جرائد ذات نفع محلي.

المصادر

غايتنا من نشر هذا الفهرس هي أن يكون لدى القارئ جدولٌ جميع الكتب العربية المهمة التي تُرجمت إلى اللغات الأوربية، ولم نصف إليه سوى الكتب المؤلفة وفق الوثائق الأصلية كالخطوطات والأثار ... إلخ، ولم نذكر من الكتب العربية غير المترجمة إلا التي لها أهمية خاصة كمقامات الحريري مثلاً.

ويجد القارئ في هذا الفهرس إشارة إلى مؤلفين من الفرس والمغول لم يُذكروا على العموم، ولكن كتبهم تفيد كثيراً في الاطلاع على تاريخ العرب في بلاد الشرق.

(١) الفهارس والنشرات الدورية ... إلخ

حاجي خليفة: كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون، نشره المستشرق فلوجل في لييسك بين سنة ١٨٣٥ وسنة ١٨٥٨ م مع ترجمة لاتينية له في سبعة مجلدات.
السمعاني اللبناني – المكتبة الشرقية، كتبها باللاتينية في اثنى عشر مجلداً، ولم يطبع منها إلا أربعة في رومة بين سنة ١٧١٩ وسنة ١٧٣٠ م.

AMARI, *Biblioteca Arabo-sicula*, Roma, 1880, in-8°.

CASIRI, *Bibliotheca Arabico-hispana Escurialensis*, Matriti, 1760–1770, 2 Vol., In-f 8°.

DEREMBOURG, *Les manuscrits Arabes de L'Escurial*, Paris, 1883, 2 Vol., in-8°.

Dozy, etc. *Catalogus codicum orientalium bibl. Ac. Lugd. Batav., Lugd. Batavorum*, 1851–1873, 5 Vol., in-8°.

DUGAT, *Histoire des Orientalistes de L'Europe*, Paris, 1868–1870, 2 Vol., in-12°.

FRCEHN, *Indications bibliographiques relatives à la littérature historico-géographique des Arabes, des Persans et des Turcs*, Saint-Pétersbourg, 1845, in-8°.

FLUEGEL, *Die Arabischen, Persischen und Turkischen Handschrift, der K. K. Hofbib. Zu Wien Vienne*, 1865–1867, 3 Vol, in-4°.

GONZALÉS, *Plan de una biblioteca de autores arabes esPanoles*, Madrid, 1861, in-4°.

HERBELOT, *Bibliothèque orientale*, Paris, 1697.

تجد عدة طبعات لهذا الكتاب المهم، وأحسنها ما طُبع في لاهاي بين سنة ١٧٧٧ وسنة ١٧٧٩ م في أربعة مجلدات.

HOMMELIUS, *Bibliotheca Juris rabbinica et saracenorum arabica, instructa*, Byruthi, 1762, in-8°.

HOTTINGER, *Promptuarium sive Bibliotheca orientalis*, Heidelbergoe, 1658, in-4°.

ROSSI, *Dizionario storico degli autori arabi più celebri e delle Principali loro opere*, Parma, 1807, in-8°.

SCHNURRER, *Bibliotheca arabica*, Halœ, 1811, in-8°.

WÜSTENFELD, *Die Geschichtschreiber der Araben und ihre Werke* (XVIII XVIII vol. der Ab. der kon. ges. der Wiss. Zu Göttingen), Göttingen, 1882, in-4°.

ZENKER, *Bibliotheca orientalis*, Leipzig, 1848–1866, 2 vol., in-8°.

المصادر

وتجد أيضًا إشارات إلى الكتب العربية، وترجمات للمخطوطات العربية، والرحلات في بلاد العرب في النشرات الدورية الآتية:

Journal Asiatique, Paris, 1822–1883.

تُرجمت كتب المسعودي وابن بطوطة، إلخ، في هذه المجموعة المهمة.

Journal of the Asiatic Society, Calcutta, 1837–1883.

Zeitschrift der Deutsch. Morgenländ. gesellschaft.

في هذه المجموعة كتب مهمة عن العرب.

Bulletin et Mémoires de la Société de Géographie de Paris.

يشتمل الجزء الخامس والجزء السادس من المذكرات على ترجمة لجغرافية الإدريسي.

Journal of the Royal Geographic Society, London.

تشتمل هذه المجموعة على رحلات برلن وپاللي وغيرهما في جزيرة العرب.

وتجد أيضًا بيانًا عن كتب العرب العلمية في آخر المطلب الذي خصصنا له في هذا الفهرس.

(٢) تاريخ العرب في الأقطار المختلفة التي خضعت للإسلام

ابن عبد الحكم: فتح الأندلس، ترجمه هاري جونس إلى الإنكليزية، وطبع بلندن سنة ١٨٥٨ م.

ابن الأثير: الكامل في التاريخ، طبع بين سنة ١٨٥٠ وسنة ١٨٧٤ م بليندن وأوبسالا في اثني عشر مجلداً بعنابة المستشرق تورنبرغ.

ابن جبير: رحلة ابن جبير، ترجم أماري القسم المختص منها بচقلية إلى الفرنسية، وطبع بباريس سنة ١٨٤٦ م.

ابن خلكان: وفيات الأعيان، ترجمه إلى الإنكليزية دو سلان، ونشر في لندن بين سنة ١٨٤٢ وسنة ١٨٧١ م في أربعة مجلدات ضخمة، ويشتمل على تراجم مشاهير الإسلام منذ محمد إلى أواسط القرن الثالث عشر من الميلاد.

ابن خدون: تاريخ ابن خدون، اشتغل دو سلان بنشر القسم المختص ببلاد المغرب والبربر منه، فنشره في الجزائر سنة ١٨٤٧ م في مجلدين كبيرين، وسماه كتاب الدول الإسلامية في المغرب، ثم نقل هذا القسم إلى الفرنسية، ونشره في الجزائر بين سنة ١٨٥٢ وسنة ١٨٥٦ م في أربعة مجلدات.

ابن خدون: تاريخ ابن خدون، ترجم ديفرجيه إلى الفرنسية القسم المختص منه بأخبار بني الأغلب في إفريقيا وصقلية إلى حين استيلاء الفرنج عليها، وطبع بباريس سنة ١٨٤١ م.

ابن القوطية: تاريخ الأندلس، ترجمه شاربونو إلى الفرنسية، وطبع بباريس سنة ١٨٥٦ م.

ابن مجير الدين العليمي: الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل، ترجمه سوفير إلى الفرنسية، وطبع بباريس سنة ١٨٧٢ م.

أبو عبيد البكري: المسالك والممالك، ترجمه دو سلان إلى الفرنسية، وطبع بباريس سنة ١٨٥٩ م.

أبو الفرج الملطي: تاريخ مختصر الدول، وهو تاريخ عاممنذ بدء العالم إلى زمن المؤلف، ترجمه پوكوك إلى اللاتينية، وطبع بأوكسونية سنة ١٦٦٣ م، وترجمه بور إلى الألمانية، وطبع بليبيسك سنة ١٧٨٥ م.

أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ترجمه أدلر إلى اللاتينية، وطبع بليبيسك بين سنة ١٧٨٩ وسنة ١٧٩٤ م في خمسة مجلدات.

أبو الحسن الفاسي: الأنسي المطرب، وروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ترجمه بوميه إلى الفرنسية، وطبع بباريس سنة ١٧٦٠ م.

أبو الغازى بهادور: تاريخ المغول، ترجمه دي ميزون إلى الفرنسية، وطبع بيترسبرغ سنة ١٨٧١ م في مجلدين.

أكبر: آثار الشاه أكبر، ترجمه غلادوين من الفارسية إلى الإنكليزية، وطبع بكلكتة بين سنة ١٧٨٣ وسنة ١٧٨٦ م في ثلاثة مجلدات، (ألف هذا الكتاب بأمر أكبر، ويشتمل على وصف حسن للهندوستان في عهد المغول)، وتوجد طبعة ثانية لهذا الكتاب في مجلدين نُشرت بلندن سنة ١٨٠٠ م.

البيروني: الآثار الباقية عن القرون الخالية، عن سخاو الألماي بترجمته إلى الإنكليزية، وطبع الأصل بليبيسك سنة ١٨٧٨ م، وطبع الترجمة بلندن سنة ١٨٧٩ م.

تيمور: أنظمة تيمورلنك السياسية والحربية، وضعها بالغولية، وترجمها لانجليس من الفارسية إلى الفرنسية، وطبع بباريس سنة ١٧٨٧ م.

رشيد الدين: تاريخ المغول، ترجمه كاتمير إلى الفرنسية.

روض القرطاس (؟): وهو كتاب يبحث في ملوك المغرب والأندلس وأخبار مدينة فاس، نقله بوميه إلى الفرنسية، وطبع ترجمته هذه بباريس سنة ١٨٦٠ م.

زين الدين المعبرى: تحفة المجاهدين، ترجمه رولندرسن إلى الإنكليزية، وطبع بلندن سنة ١٨٣٢ م (وهو يشتمل على تاريخ المسلمين بالهند).

الطبرى: كتاب أخبار الرسل والملوك، ترجم البلعami هذا الكتاب إلى الفارسية، وترجمه من ترجمة البلعami زوتيرغ إلى الفرنسية، وطبع الترجمة بباريس سنة ١٨٧٤ م في أربعة مجلدات، وقد ترجم هذا الكتاب المشهور إلى اللاتينية وإلى التركية أيضاً، وهو يشتمل على تاريخ العالم إلى سنة ٣٠٢ هـ.

العتبى: كتاب اليمنى، ترجمه إلى الفارسية الجربادكانى، وترجمه من النسخة الفارسية إلى الإنكليزية رينولد، وطبع بلندن سنة ١٨٥٨ م.

عبداللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار بما في مصر من الآثار، وتجد في آخر هذا الكتاب مختارات كثيرة للمستشرقين، ترجمه دوساسي إلى الفرنسية، وطبع بباريس سنة ١٨١٠ م.

غلام حسين خان: تاريخ الإسلام في الهند في القرن الأخير، ترجمه إلى الإنكليزية بريغس، وطبع بلندن سنة ١٨٣٢ م في مجلد واحد.

فرشته: تاريخ الإسلام في الهند إلى سنة ١٦١٢ م، ترجمه بريغس من الفارسية إلى الإنكليزية، وطبع بلندن سنة ١٨٢٩ م في أربعة مجلدات.

محمد القieroاني: تاريخ إفريقية، ترجمه ريموزه إلى الفرنسية، وطبع بباريس سنة ١٨٤٥ م.

المسعودي: مروج الذهب، ترجمه باربيه دو مينار إلى اللغة الفرنسية، وطبع بباريس بين سنة ١٨٦١ وسنة ١٨٧٨ م في تسع مجلدات، وهو تاريخ عام تمتد أخباره إلى القرن العاشر من الميلاد، وتجد له ترجمة إلى الإنكليزية قام بها سپرنغر، وطبع بلندن سنة ١٨٤١ م.

المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، نقله باسكوال دوكانيكوس إلى الإنكليزية ملخصاً، وطبع بلندن بين سنة ١٨٤٠ وسنة ١٨٤٣ م في مجلدين كبيرين.

المقرizi: كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، ترجمه إلى الفرنسية كاترمير، وطبع بباريس بين سنة ١٨٣٧ وسنة ١٨٤٥ م في مجلدين باسم «تاريخ السلاطين المماليك».

المكين بن العميد: المجموع المبارك (١١٥٠-٧٥٠) ترجمه فاتيه إلى الفرنسية، وطبع بباريس سنة ١٦٥٧ م.

الواقدي: كتاب فتوح الشام، عَلَقَ عليه ليس وطبعه بكلكتة بين سنة ١٨٥٥ وسنة ١٨٦٢ م في تسعه أجزاء.

AMARI, *Frammenti di testi arabi per servire alla storia della Sicilia musulmana*, Firenze, 1855, in-8°.

Storia dei musulmani di sicilia, Firenze, 1854-1869, 4 vol., in-8°.

Biblioteca Arabo-sicula, Lipsia, 1856, 2 Vol., in-8°.

- CARDONNE, *Histoire de L'Afrique et de L'Espagne sous La domination des Mores d'après des manuscrits arabes*, paris, 1765, 3 vol., in-12°.
- CAUSSIN DE PERCEVAL, *Essai sur l'histoire des Arabes avant l'islamisme*, paris, 1845, 3 vol., in-8°.
- CONDE, *Historia de La dominacion de los Arabes in Espana*, Barcelone, 1844, 3 vol., in-16°.

ألف هذا الكتاب على حسب المخطوطات العربية، وترجمه مارل إلى الفرنسية في ثلاثة مجلدات، وطبعه بباريس سنة ١٨٢٥ م.

- CHRICHTON, *History of Arabia*, Edimbourg, 1833, 2 vol. in-8°.
- DEFERMERY, *Histoire des sultans Ghourides*. Trad. française, paris, 1844, in-8°.
- Histoire des khans mongols du Turkistan et de la Transoxiane*, traduitc du persan, paris, 1853, in-8°.
- DESVERGERS, *Arabie*, paris, 1847, in-8°.
- DORN, *Muhammedanische Quellen zur Geschichte der südlichen Küsftenlander des Kasپischen* (Textes arabes, persans et turcs) publiés et commentés par B. Dorn, 4 vol., in-8°. Saint-pétersbourg, 1850–1858.
- DOZY, *Histoire des musulmans d'Espagne de 711 à 1110*, Leyde, 1861, 4 vol., in-8°.
- ELLIOTT, *The History of India as told by its own historians*. The Muhammedan period. London, 1877, 8 vol., in-8°.
- FRESNEL, *Letter sur L'histoire des Arabes avant L'islamisme*, paris, 1836, in-8°.
- GŒJE, *Fragmenta historicum arabicorum*, Lugd. Batavorum, 1869, 2 vol., in-4°.
- Grangeret De LAGRANGE, *Les Arabes en Espagne*, paris, 1824, in-8°.

- GREGORIO, *Rerum arab quæ ad hist siculam spectant ampla collectio, arab. et Lat.*, Panormi, 1797, in-f°.
- HALÉVY, *Etudes sabéennes*, Paris, 1875, in-8°.
- HOWORTH, *History of the Mongols*, London, 1880, 2 vol., in-8°.
- KREMER *Culturgeschichte des Orients*, Wien, 1875–1877, 2 vol., in-8°.
- LEES, *History of the Caliphs ... to the year 900 of the Hijrah*, Calcutta, 1857, in-8°.
- MARCEL, *Histoira de L'Egypte depuis La conquête des Arabes*, Paris, 1848, in-8°.
- MIRCHOND, *Historia Ghaznevidarum*, Berlin, 1832, in-4°.
- Historia Samanidarum*, Gött., 1808.
- MURPHY, *The history of the Mohometan empire in Spain*, London, 1816, in-4°.
- OSBORN, *Islam under the Khalifs of Bagdad*, London, 1878, in-8°.
- POCOCKE, *Specimen historiæ arabum*, Oxoniœ, 1649, in-4°.

وهو مقتطف من تاريخ أبي الفرج في منشأ العرب وطبائعهم، وطبع هذا الكتاب مجدداً سنة ١٨٠٦م، مضافة إليه ترجمة دو ساسي لكتاب أبي الفداء عن قدماء العرب.

- LA PRIMAUDAIE, *Les Arabes en Sicile et en Italie*, Paris, 1867, in-8°.
- RASMUSSEN, *Historia præcipuorum arabum regnorum ... ante islamismum*, Hauniœ 1817, in-4°.

وفق ما جاء في المخطوطات العربية في كوبنهاغن.

- Recueil des historiens orientaux des Croisades*, publié par de Slanc et De-fremery, Paris, 1872–1876, 2 vol., in-f°.
- REINAUD, *Chroniques arabes, extraites des historiens Arabes et relatives aux guerres des Croisades*, Paris, 1829, in-8°.

Invasion des Sarrasins en France, Savoie, etc., Paris, 1836, in-8° (d'après les auteurs chrétiens et musulmans).

S. DE SACY, *Mémoires sur les antiquités de La perse et sur L'histoire des Arabes avant Mahomet*, Paris, in-4°.

SAUVAIRE, *Histoire de Jérusalem et d'Hebron depuis Abraham jusqu'à la fin du xve Siècle de J.-C. (traduite sur le texte arabe de Moudjir-ed-dyn)* Paris, 1876, in-8°.

SEDILLOT, *Histoire générale des arabes*, 2e éd., Paris, 1877, 2 vol., in-8°.

SPRUNER, *Historischen Hand atlas*, Gotha, 1853, in-f°.

WAKEDI, *Geschichte der Eroberung von Mesopotamien und Armenien, Herausgegeben von Mordtmann*, Hambourg, 1847, in-4°.

G. WELL, *Gesch. der Khalifen Manhein*, 1846–1862, 5 vol. — *Geschichte der islam Völker*, stuttgart, 1866, in-8°.

WHEELER, *The History of India from the earliest ages*, London, 1881, 4 vol.

WUSTENFELD, *Die Chroniken der stadt Mekka*, Leipzig, 1858–1859, 3 vol., in-8°.

(٣) ديانة العرب

أبو الفداء: المختصر في تاريخ البشر، ترجمه أدلر إلى اللاتينية، وطبع بليبسك بين سنة ١٧٨٩ وسنة ١٧٩٤ م في خمسة مجلدات، وترجم ديفرجه سيرة النبي من هذا التاريخ إلى الفرنسية، وطبعها بباريس سنة ١٨٣٧ م.

بشير الدين: تفسير القرآن، طبع بكلكتة بين سنة ١٨٥٢ وسنة ١٨٥٧ م في عشرة مجلدات.

التبريزي: مشكاة المصايبح «في الحديث»، ترجمه ماتيو إلى الإنكليزية، وطبع بكلكتة سنة ١٨١٠ م في مجلدين.

شريف: قانون الإسلام (أو عادات المسلمين في الهند)، طُبع بلندن سنة ١٨٣٢ م.

القرآن: نقله كازيمرسكي إلى الفرنسية، وطبعت ترجمته بباريس سنة ١٨٤٠ م، وكانت الطبعة الأولى للقرآن بالعربية في سنة ١٦٩١ م، وللقرآن ترجمات في كثير من اللغات، وأقدم هذه الترجمات هي التي قام بها بيبلياندر سنة ١٥٤٣ م، وأما تفاسير القرآن وتقاويمه فلا يحصيها عد.

محمد الشهريستاني: كتاب الملل والنحل، طبعه كورتن بلندن سنة ١٨٤٢ م في مجلدين.

Barthélémy SAINT-HILAIRE, *Mahomet et le Coran*, Paris, 1865, in-8°.

Dabry DE THIERSANT, *Le Mahométisme en Chine*, paris, 1878, 2 vol., in-8°.

DOZY, *Essai sur L'Histoire de l'islamisme*, trad. Chauvin, paris 1879, in-8°.

DUGAT, *Histoire des philosophes et des théologiens musulmans de 632 à 1158 de j.-c.*, paris, 1878.

FLUEGEL, *Concordantiae Corani arabicæ*, Leipzig, 1842, in-4°.

GALLAND, *Recueil des rites et cérémonies du pèlerinage de La Mecque*, Amsterdam, 1754, in-8°.

KREHL, *Über die Religion der vorislamischen Araber*, Leipzig, 1863. in-4°.

MAHOMET, *The original sources for the biography of Mahomet*, Calcutta, 1853, in-8°.

NCELDEKE, *Geschichte des Qorâns*, Göttingen, 1860, in-8°.

SPRENGER, *Das Leben und die Lehre des Mohamed nach bisher grösstentheils unbenutzten Quellen*, Berlin, 1868, in-8°.

G. DE TASSY, *Mémoire sur des particularités de la religion musulmane dans L'Inde*, Paris, 1813, in-8°.

(٤) الإثنوغرافية والنظم الاجتماعية والطبائع والعادات

خليل بن إسحق: كتاب المختصر في الفقه المالكي، ترجمة سيفونت إلى الفرنسية، وطبع بقسنطينة سنة ١٨٧٨ م.

AVRIL, *L'Arabie contemporaine*, Paris, 1868, in-8°.

BLUNT, *Bedouin tribes of the Euphrates*, London, 1879, 2 vol. in-8°.

BLAU, *Arabien in VI Jahrhundert. Eine ethnographische skizze (zeitschrift der dents. Morgenland Ges. 23° volume)*

BURCKHARDT, *Travels in Arabia*, London, 1829, 3 vol., in-4°.

BURTON, *Personal narrative of a pilgrimage to el Medinah and Mecca*, London, 1855, 3 vol., in-12.

Du CAUROY, *Législation musulmane sunnite, rite hanefi*, Paris, 1848, in-8°.

DAUMAS, *La vie arabe et la société musulmane*, paris, in-8°.

DIETRICI, *Die Anthropologie der Araber in X Jahrhundert*, Berlin, 1865, in-8°.

QUERRY, *Droit musulman (Législation schyite)*, paris, 1871, 2,vol., in-8°.

ISAMBERT, *Itinéraire de L'Orient*, 2e éd., paris, 1882, 3 vol., in-8°.

معلومات كثيرة غير صحيحة في الغالب.

KHANIKOFF, *Mémoire sur l'ethnographie de La Perse*, Paris, 1866, in-4°.

NIZAM, *collection of opinions and precepts of Mahomeddan law*, calcutta, 1828–1835, 6 vol., in-4°.

NIEBUHR, *Voyage en Arabie*. Trad. Française, Amsterdam, 1776, 2 vol., in-4°.

PALAGRAVE, *Voyage dans l'Arabie Centrale*, Trad. Française, paris, 1866, 2 vol., in-8°.

LE PLAY, *Les Ouvriers de l'Orient*, Tours, 1867, in-8°.

PELLEY, *Visit to the Wahabee capital of central arabia*. (proc. Of the Royal Geog. Society, 1865).

PLAYFAIR, *Histoire de l'Arabie beureuse*, paris, 1859, in-8°.

SANTAGRA et CHARBNNEAU, *Droit musulman, statut personnel et successions*, paris, 1873–1874, 2 vol., in-8°.

H. SPENCER, *Descriptive Sociology*, London, 8 vol., in-8°.

تحت الطبع، ويبحث مجلد من هذا الكتاب المهم في العرب.

VAMBÉRY, *sittenbilder aus dem Morgenlande*, Berlin, 1876.

Vivien DE SAINT-MARTIN, *Dictionnaire de géographie*, paris, in-4°.

ظهر منه مجلدان.

WALLIN, *Journey from Cairo to Médina* (J. of Roy. Geog. Soc.) 1454.

WELLSTED, *Travels in Arabia*, London, 1838, 2 vol., in-8°.

WETZTIEN, *Nord-arabien ... (Zeitschrift für allgemeine Erdkunde)*, 1865.

WUESTENFELD, *Genealogische Tabellen der arabischen stamme und Familien*, Göttingen, 1852, 1 vol., in-4°.

(٥) الآداب والفلسفة

ابن رشد: طُبعت شروحه لفلسفة أرسطو مراراً باللغة اللاتينية في البندقية على الخصوص سنة ١٥٩٥ م، وللخص مسيو زينان فلسفة ابن رشد في كتابه الذي سماه «ابن رشد وفلسفة ابن رشد»، وطبعه بباريس سنة ١٨٥٢ م.

أبو طالب: عاصر محمدًا، وتُرجمت آثاره غير مرة، وهي في الحكم والشعر، ونشرت ترجمة لاتينية لها مع النص العربي بأوكسوني سنة ١٨٠٦ م.

ألف ليلة وليلة: طُبعت رواية ألف ليلة وليلة في أكثر اللغات، ولم تكن جميع الطبعات الفرنسية غير تكرار لطبع ترجمة غالاند الناقصة، ويعد من أحسن الطبعات المعروفة ما نشره على حسب النص العربي أستاذ اللغات الشرقية في هيدلبرغ: مسيو فيل.

Tausend und eine nacht, stuttgart, 1872, 4 vol., in-8°.

امرأة القيس: نشر دوسلان ديوانه مع ترجمته بباريس سنة ١٨٣٧ م.
الأمثال العربية: تجد عدة مجموعات للأمثال العربية، وإليك أهمها:

Proverbiorum arabicorum centuriæ duæ cum interpretatione latina et scholüs. J. Scaligeri, leidœ, 1614, in-4°: *MEIDANI, proverbium arabicorum*, ed. Schroeder, Lugd. Batav., 1795, in-4°.

وقد نقل كاتمير قسماً من أمثال الميداني هذه إلى الفرنسية، وطبع ما ترجمه بباريس سنة ١٨٣٧ م، ونقل بركهارد أمثال عوام مصر إلى الإنكليزية، وطبع ما ترجمه بلندن سنة ١٨٣٠ م.

LANDBERG, *Proverbes et dictos du peuple arabe*, Leyde et Paris, 1883, in-8°, tome I^{er}.

جامي: أخلاق جلالي، ترجمه ثومسن من الفارسية إلى الإنكليزية، وطبع بلندن سنة ١٨٣٩ م.

الحريري: مقامات الحريري، نشرها دو ساسي بباريس سنة ١٨٢٢ م (ولا تجد ترجمة كاملة لهذا الأثر المهم).

الزمخشي: نواخ الكلم، ترجمه مينار إلى الفرنسية، وطبع الترجمة مع الأصل العربي بباريس سنة ١٨٧٦ م.

الزمخشي: أطواق الذهب، ترجمه مينار إلى الفرنسية، وطبع بباريس سنة ١٨٧٦ م.

عنترة: نقل هاملتون أشعاره إلى الإنكليزية، وطبعها بلندن في مجلدين سنة ١٨٢٠ م، ونقل ديفيك حماسياته إلى الفرنسية وطبعها بباريس، وتجد لقصائد عنترة ترجمة بالألمانية طبعها منيل بيتافورم سنة ١٨١٦ م، وتجد أشعاره مطبوعة في ترجمات الم العلاقات الكثيرة إلى اللاتينية والإإنكليزية والألمانية.

القزويني: كتاب في المنطق العربي، نشره سپرنغر مع ترجمة إنكليزية بكلكتة سنة ١٨٥٤ م.

لقمان: أمثال لقمان، نقلها مارسيل إلى الفرنسية، وطبعت بباريس سنة ١٨٠٣ م، (يوجد ترجمات كثيرة لهذا الكتاب).

المعلمات السبع: نشر كوسان دوپرسقال أصلها العربي، وترجمت هذه القصائد المشهورة إلى اللاتينية والإإنكليزية والألمانية.

المقدسي: الطيور والأزهار، ترجمه دوتاسي، وطبع بباريس سنة ١٨٢١ م.

CARLYLE, *Specimens of arabica poetry from the earliest times*, Cambridge, 1796, in-4°.

DOZY *Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyen-âge*, Leyde, 1860, 2 vol., in-8° (3e éd. 1881).

G. W. FREITAG, *Darstellung der arabischen Verkunst*, Bône, 1831, in-8°.

Grangeret De LAGRANGE, *Anthologie arabe*, Paris, 1828, in-8°.

Hammer PURGSTALL, *Literatur geschichte der araber*, Vienne, 1850–1856, 7 vol., in-8°.

HUMBERT, *Anthologie arabe*, Paris, 1819, in-8°.

J. JAHN, *Arabische Chrestomathie*, vienne, 1802, in-8°.

MEHREN, *Die Rhetic der Araben*, Kopenhagen, 1853, in-8°.

NOELDOKE, *Beiträge zur Kenntnis der pœsie der alten Araber*, Hannover, 1864, in-8°.

SCHMOLDERS, *Essai sur les écoles philosophiques chez les arabes*, Paris, 1842, in-8°.

S. DE SACY, *Chrestomathie arabe*, Paris, 1826, 3 vol., in-8°.

G. WAHL, *Neue arabische anthologie*, Leipzig, 1791, in-8°.

(٦) مؤلفات العرب العلمية

اعتمدت جامعات أوربية على ما تُرجم إلى اللاتينية من مؤلفات العرب وحدهم عدة قرون، وأُعيد طبع ترجمة هذه المؤلفات مراتاً، ونقتصر على ذكر أهم علماء العرب وكتبهم الأساسية مع الإشارة إلى القرون التي عاشوا فيها؛ لعدم فائدة إحصائهم كلهم.

ابن رشد: ظهر هذا الفيلسوف الشهير في القرن الثاني عشر من الميلاد، وله كتب في علم الفلك والطب، ومن كتبه في الطب كتاب الترياق الذي تُرجم إلى اللاتينية، وطبع في البندقية سنة ١٥٥٢ م، وكتاب السموم الذي تُرجم إلى اللاتينية وطبع في لوغدوني سنة ١٥١٧ م، وكتاب الكليات في الطب الذي تُرجم إلى اللاتينية، وطبع في البندقية سنة ١٥٥٢ م.

ابن زهر: ظهر في القرن الثاني عشر من الميلاد، واشتهر بكتابه «التسير في المداواة والتدبير» الذي تُرجم إلى اللاتينية، وطبع في البندقية سنة ١٤٩٠ م.

ابن سينا: ظهر في القرن العاشر من الميلاد، وهو أشهر أطباء العرب، وطبع كتابه المهم «القانون في الطب» عدة مرات، وظهرت الطبعة الأولى لكتبه في البندقية سنة ١٤٨٤ م، ولم ينقطع العلماء عن شرح مؤلفاته حتى القرن الأخير.

ابن البيطار: ظهر في القرن الثاني عشر من الميلاد، وهو من أشهر علماء النبات من العرب، وترجم لوكليير كتابه «جامع مفردات الأدوية والأغذية» إلى الفرنسية، وطبع بباريس في ١٨٧٧-١٨٨١ م في مجلدين.

ابن العوام: ظهر في القرن السادس من الهجرة، وهو من علماء الأندلس المشهورين في علم النبات، وترجم كليمان مولر كتابه في الفلاحة حديثاً، وطبع بباريس سنة ١٨٦٦ م.

ابن يونس: ظهر في القرن العاشر من الميلاد، وهو من واضعي «الزيج الحاكمي» الذي هو أهم كتاب عربي في الفلك، وترجم كوسان دوپرسقال بعضه إلى الفرنسية، وطبع بباريس سنة ١٨٠٤ م.

أبو الحسن المراكشي المراكشي: ظهر في القرن الثالث عشر من الميلاد، وله تصانيف كثيرة منها: كتاب «جامع المبادئ والغايات في علم الميقات» الذي ترجم سيديو بعضه، وطبعه سنة ١٨٤٣ م.

أبو الوفاء البوزجاني: ظهر في القرن العاشر من الميلاد، وهو من أشهر علماء الفلك عند العرب، وترجم سيديو بعض الفصول من كتبه إلى الفرنسية، وطبعها بباريس سنة ١٨٤٥ م.

أبو القاسم: ظهر في القرن الثاني عشر من الميلاد، وهو أشهر جراحى العرب، وترجم كتابه في الجراحة مراراً، وطبع أحسن ترجمة لاتينية له ببال سنة ١٥٤١ م.

أبو معشر البلخي: ظهر في القرن الثامن من الميلاد، وترجم كتابه «المدخل الصغير» إلى اللاتينية، وطبع في أوغسبurg سنة ١٤٨٩ م، وترجم كتابه في الأبعاد الفلكية إلى اللاتينية أيضاً، وطبع في سنة ١٤٨٩ وسنة ١٥١٥ م.

أرطفيوس (Artephius): ظهر في القرن الحادي عشر، وكتب رسالة في السيمياء، وترجمها أرنولد إلى الفرنسية سنة ١٦١٢ م.

أماجور: ظهر في القرن التاسع من الميلاد، وهو مؤلف كتاب «الزيج البديع» ومن أماجور اقتبس ابن يونس أرصاده.

أولوغ بك: ظهر في القرن الرابع عشر من الميلاد، وهو حفيد تيمورلنك، ويُعد من أشهر ممثلي مدرسة بغداد الفلكية، وترجمت أزياجه إلى اللاتينية، وطبعت في أكسفورد سنة ١٦٦٥ م، وترجم سيديو مقدمات هذه الأزياج إلى الفرنسية، وطبعها في باريس سنة ١٨٤٧ م.

البتاني: ظهر في القرن التاسع من الميلاد، وأهم مؤلفاته كتاب «زيج الصابي» الذي ترجم عدة مرات، وطبع بنورنبرغ سنة ١٥٣٧ م.

ثابت بن قرة: ظهر في القرن التاسع من الميلاد، وهو أول من طبق الجبر على الهندسة، ونشر سيديو فصولاً من مؤلفاته التي تشتمل على حل هندسي للمعادلات المكعبية.

جابر بن حيان الكوفي: ظهر في القرن الثامن من الميلاد، وهو أشهر كيماويي العرب، وتحتوي المكتبة الوطنية بباريس على ستة مخطوطات لاتينية من كتبه طُبعت جميعها خلا جزء منها خاص بالمتلثات الكمية، وأشهر مؤلفاته كتاب «الاستتمام»

الذي طُبع سنة ١٤٠٩ م، وُترجم إلى الفرنسية سنة ١٦٧٢ م، وتجد ترجمة إنكليزية لكتبه مؤرخة في سنة ١٦٦٨.

جابر الأشبيلي: ظهر في القرن الحادى عشر من الميلاد، وترجم كتابه في الفلك إلى اللاتينية، وطبع في نورنبرغ سنة ١٥٣٣ م، ولا يفرقون في الغالب بين جابر هذا وجابر الكيماوي.

الحسن بن الهيثم: ظهر في القرن الحادى عشر من الميلاد، وهو من علماء الفلك والرياضيات، وترجم فيتليو كتابه في المناظر إلى اللاتينية سنة ١٢٧٠ م، وترجم سيديو بعض فصول من كتابه في الأصول الهندسية.

الخوارزمي: ظهر في القرن التاسع من الميلاد، ومن مؤلفاته كتاب الجبر والمقابلة الذي ترجمه رودلف دوبروغ إلى اللاتينية في أوائل القرن الثاني عشر من الميلاد، ثم نقله روزن إلى الإنكليزية وطبعه سنة ١٨٣١ م.

الرازي: ظهر في القرن التاسع من الميلاد، واشتهر بالطب والكيمياء، وبلغ عدد مؤلفاته ٢٢٦، وأهمها كتاب «الحاوي» الذي طُبع غير مرة منذ سنة ١٤٨٦ م، ونشر كتابه «الجدرى والحصبة» سنة ١٧٦٦ م، وللرازي ثلاثة مخطوطات في الكيمياء.

زاديت Zadith (؟): ظهر في القرن الثاني عشر من الميلاد، وله كتاب في الكيمياء اسمه Tabula Chimice طُبع في المسرح الكيماوي.

علي بن العباس: ظهر في القرن العاشر من الميلاد، وترجم كتابه «الملكي» في الطب المؤلف من خمسين جزءاً إلى اللاتينية، وطبع في البندقية سنة ١٤٩٢ م.

الفارابي Alpharebi (؟): ظهر في القرن الحادى عشر من الميلاد، واشتهر بأنه من علماء الكيمياء، وألفت كتبه التي أحصاها الغزيري بالعبرية، ولم تُطبع حتى الآن.

الفرغاني: ظهر في القرن التاسع من الميلاد، وهو صاحب كتاب «الدخل إلى علم هيئة الأفلاك وحركات النجوم» الذي تُرجم إلى اللاتينية ثلاث مرات، والمتّرجم الأول له هو يوحنا الأشبيلي الذي نقله إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر من الميلاد، وقد طُبعت ترجمته الأولى بفيرار سنة ١٤٩٢ م، وطبع ترجمته الأخيرة سنة ١٦٦٩ م.

القزويني: ظهر في القرن الثالث عشر من الميلاد، وألف في جميع الموضوعات مع اشتئاره في الفلك والجغرافية والطبيعيات، وترجم شيري فصولاً من كتابه «عجبائب

الخلوقات» في الفلك والجغرافية الطبيعية إلى الفرنسية، وطبع في باريس سنة ١٨٠٥م، وترجم كتابه في الفلك إلى الألمانية حديثاً.

قسطنطين الإفريقي: ظهر في القرن الحادى عشر من الميلاد، وأدخل طب العرب إلى إيطالية، وإليه يعود الفضل في شهرة مدرسة ساليرم، وألف عدة كتب ذكر منها De morborum cognitione وذكر منها De remediorum De morborum cognitione الذي طُبع غير مرة، وكانت طبعته الأولى ببال سنة ١٥٣٦م.

الكرخي: ظهر في القرن الخامس من الهجرة، وترجم واپكه كتاب «الفخرى» في الجبر لهذا المؤلف، وطبعه في سنة ١٨٥٣م.

الكندي: ظهر في القرن التاسع من الميلاد، وزادت مؤلفاته على مئتين ذكرها صاحب الفهرس، ومنها رسالة في معرفة قوى الأدوية المركبة، ترجمت إلى اللاتينية وطبع مراراً بين سنة ١٥٣١ وسنة ١٦٠٣م.

محمد بن أفندي (باشا) الفلكي: هو مؤلف كتاب «القاويم العربية قبل الإسلام» الذي طُبع بباريس سنة ١٨٥٨م.

محمد بن موسى: ظهر هذا الرياضي الشهير في القرن التاسع من الميلاد، وترجم كتابه في الجبر عدة مرات، ومار هو الذي قام بترجمته الأخيرة، فطبعت في روما سنة ١٨٦٦م.

نصير الدين الطوسي: ظهر في القرن الثالث عشر من الميلاد، وله تقاويم ترجم بعضها إلى اللاتينية باسم التقويم الجغرافي، وطبع في ليدن سنة ١٦٤٨م، وفي لندن سنة ١٦٥٢م.

ولد الزرقاني: ظهر في القرن الحادى عشر من الميلاد، وكانت أزياجه الفلكية مع أزياج البتاني أساساً للأزياج الأدفونشية.

يوحنا بن ماسويه: ظهر في القرن التاسع من الميلاد، وله عدة كتب في الأدوية طُبعـت مراراً، ونشرت كتبـه المهمـة باسم Canones universales في البندقـية سنة ١٤٧١م.

وتـعد تلك الكـتب أـهم ما تـرجم إـلى بعض اللـغات الأـوروبـية من مؤـلفـات العـربـ، وتـقـيدـ المؤـلفـاتـ الآـتـيةـ في مـعـرـفـةـ آـثـارـهـ العـلـمـيـةـ.

- DELAMBRE, *Histoire de L'astronomie au Moyen-âge*, paris, 1819, in-4°.
- DORN, *Description of an arabic celestial globe*, London, 1829, in-4°.
- JOURDAIN, *Mémoire sur l'observatoire de Méragah* (mag. encyclopédique de 1810).
- LECLERC, *Histoire de la médecine arabe*, Paris, 1876, 2 vol., in-8°.
- FURNARI, *La Médecine arabe au IX^e siècle*, Paris, 1846, 2 vol., in-8°.
- REINAUD, *L'art militaire chez les arabes du Moyen-âge*, Paris, 1848, in-8°.
- SÉDILLOT, *Recherches pour servir à l'histoire des sciences mathématiques chez les orientaux*, Paris, 1837, in-4°.
- SINOBAS, *Libros del saber de astronomia del rey Alfonso X de Castilla*, Madrid, 1863.
- SPRENGEL, *Histoire de la Médecine*. (Hall, 1792–1803) traduit en français par Jourdan.
- WŒOPKE, *Essai d'une restitution des travaux perdus d'Apollonius sur les quantités irrationnelles, d'après un manuscrit arabe*, paris, 1856, in-4°.
- Recherches sur L'histoire des sciences mathématiques chez les Orientaux*, Paris, 1860, in-8°.
- WUESTENFELD, *Geschichte der arabischen Aerzte und Naturförscher*, Göttingen, 1840, in-8°.

(٧) الجغرافية والرحلات

- ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأ MCSAR وعجائب الأسفار، وتُعرف ببرحالة ابن بطوطة، ترجمها ديفريميري وسنكونيتي إلى الفرنسية، وطبعت بباريس بين سنة ١٨٧٣ وسنة ١٨٧٩ م في أربعة مجلدات.
- ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب في الجغرافية، ترجمها هيلنده، وطبعت بلندن سنة ١٨٢٣ م.

ابن خرداذبه: كتاب المسالك والممالك، ترجمه مينار إلى الفرنسية، وطبع بباريس سنة ١٨٦٥ م.

ابن حوقل: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبع بعنایة دوغویه في لیدن سنة ١٨٧١ م، وترجم أوزیلی ما هو خاص منه بجغرافية المشرق إلى الإنكليزية وطبع في لندن سنة ١٨٠٠ م، وترجم دو سلان ما هو خاص منه بإفريقيا إلى الفرنسية، وطبع في باريس سنة ١٨٤٢ م، وترجم أماري ما هو خاص منه بوصف بلرم في القرن العاشر من الميلاد، وطبع في باريس سنة ١٨٤٥ م.

أبو الفداء: تقويم البلدان، ترجمه رینو وجويار إلى الفرنسية، وطبع بباريس بين سنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٨٣ م في ثلاثة مجلدات، وترجم غانیه القسم الخاص منه بجزيرة العرب، وطبع بأكسفورد سنة ١٧٤٠ م، وترجم سولفا القسم الخاص منه بالغرب، وطبع بالجزائر سنة ١٨٣٩ م.

الإدريسي: كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ترجمه جوبر إلى الفرنسية، وطبع بباريس سنة ١٨٤٠ م في مجلدين.

الإصطخري: كتاب مسالك الممالك، طبع بعنایة دوغویه في لیدن سنة ١٨٧٠ م.

الإصطخري: كتاب الأقاليم، طبع بعنایة الدكتور مولر الألماني.

البكري: كتاب المسالك والممالك، ترجم دو سلان ما هو خاص منه بإفريقيا الشمالية، وطبع بباريس سنة ١٨٥٩ م.

القزويني: عجائب المخلوقات، في الفلك والجغرافية الطبيعية عند العرب، ترجم إلى الألمانية، وطبع في ليبسک سنة ١٨٦٨ م.

المسعودي: كتاب مروج الذهب، ترجمه باربیه دو مینار، وطبع في باريس بين سنة ١٨٦١ وسنة ١٨٧٨ م في تسعة مجلدات (وهذا الكتاب تاريخي جغرافي معاً).

ياقوت: معجم البلدان، طبعه فون وستنفلد في ليبسک بين سنة ١٨٦٦ وسنة ١٨٧٠ م في أربعة مجلدات ومجلدين للفهارس والحواشي، وترجم مسیو باربیه دومینار ما هو خاص منه ببلاد فارس إلى اللغة الفرنسية، وطبعه في باريس سنة ١٨٦١ م.

BABELON, *Commerce des Arabes dans le nord de L'Europe*, Paris, 1882, in-8°.

FRÖEHN, Ibn Fozlan,s und anderer Araber Berichte über die Russen älterer zeit, saint-pétersbourg, 1823, in-4°.

GÖEJE, *Bibliotheca geographorum arabicorum*. Lugd. Batavorum, 1870–1879, 4 vol.

ويشتمل المجلد الأول على كتاب الإصطخري، والمجلد الثاني على كتاب ابن حوقل، والمجلد الثالث على كتاب الإدريسي.

REINAUD, *Relations des voyages faits par les Arabes et les persans dans L'Inde et la Chine dans le IX^e siècle de l'ère chretienne* Texte arabe et traduction, Paris, 1845, 2 vol., in-8°.

SPRENGER, *Die post und Reiserouten des Orients*, Leipzig, 1864, in-8°.

STUVE, *Die Handelszüge der Araber*, Berlin, 1836, in-8°.

B. DE TUDÈL.

ترجمت رحلات هذا الرحالة الشهير في أوربة وأسية وإفريقية في القرن الثاني عشر، عدة مرات؛ إلى اللغة الفرنسية على الخصوص (Amsterdam, 1743, in-8°).

(٨) الآثار والنقود والفنون الجميلة

ابن خلدون: المقدمة، وترجم كوكبر دومونبره ما هو خاص منها بفن البناء، وطبع في باريس سنة ١٨٢٧ م.

المقريزي: نبذة العقود في أمور النقود، ترجمها دوساسي إلى الفرنسية، وطبعت بباريس سنة ١٧٩٧ م.

.Monumentos Arquitectonicos de España كتاب مباني إسبانية الأثرية

تنشر الحكومة الإسبانية هذا الكتاب المصور نشراً متتابعاً، وطبع منه سبعة أجزاء حتى الآن.

Barbier De MEYNARD, *Ibrahim ... Scènes de la vie d'artiste au III^e siècle de l'hégire*, Paris, 1869, in-8°.

BATISSION, *Histoire de l'art monumental*, Paris, 1880, 2e éd., in-8°.

BOURGOIN, *Les Arts arabes*, Paris, in-4°.

Caussin DE PERCEVAL, *Notices sur Les principaux musiciens arabes des trois premiers siècles de l'hégire*, Paris, in-8°.

CHRISTIANOWITSCH, *La Musique arabe aux temps anciens*, Paris, 1863, in-4°.

COSTE, *L'Architecture arabe d'après Les monuments du Caire dessinés de 1818 à 1825*, Paris, 1838, in-f°.

Monuments modernes de La Perse, Paris, 1870, in-f°.

DAVILLIERS, *Histoire de faïences hispano-moresques*, Paris, 1861, in-8°.

J. DE LA RADA Y. DELGADO, *Museo espanol de antigüedades*, Madrid, in-f°.

تحت الطبع، وقد ظهر من هذا الأثر النفيس تسعة مجلدات.

FLANDIN, *L'Orient*, 3 vol., Paris, 1840, in-f°.

Girault DE PRANGEY, *Essai sur l'architecture des Arabes et des maures en Lisbonne et en Sicile*, Paris, 1842, in-4°.

GUÉRIN, *Voyage archéologique dans la province de Tunis*, Paris. 1862, 2 vol., in-8°.

O. JONES, *L'Alhambra*, London, 1830, 2 vol., in-f°.

The Alhambra Court in the Crystal palace erected and described by O. Jones, London, 1854, in-8°.

KIESEWETTER, *Die Musik der Araber*, Leipzig, 1842, in-4°.

LABORDE et LINANT, *Voyage dans L'Arabie Petrée*, Paris, 1830, in-f°.

LANGLOIS, *Numismatique des Arabes avant L'islamisme*, 1859, in-4°.

LONGPÉRIER, *Archéologie orientale, monuments arabes*, t. 1^{er}, Paris, 1883,
in-8°.

Marmol DE CARJAVAUX, *Description générale de l'Afrique, Trad. de P.
d'Alancourt*, Paris, 1667, 3 vol., in-4°.

MURPHY, *The arabian antiquities of spain*, London, 1815, in-f°.

Prisse d'AVESNES, *L'Art arabe d'après Les monuments du caire*, Paris,
1878. 3 vol., in-f°.

RAVOISIER, *Architecture, sculpture, inscription et vues de L'Algérie*, in-f°.

جزء من رياض الجزائر بين سنة ١٨٤٠ وسنة ١٨٤٢ م، وقد نُشر بأمر الحكومة.

REINAUD, *Monuments du Cabinet du duc de Blacas*, Paris, 1828, 2 vol.,
in-8°.

ROBLES, *Malaga muslimana. Illustré*, Paris, 1880, in-8°.

Salvator DANIEL, *La Musique Arabe*, Paris, 1863, in-8°.

SAULCY, *Numismatique des rois nobathéens de Pétra*, 1874, in-8°.

SCHLUMBERGER, *Le Trésor de Sana, Etude sur les monnaies hymyaritiques*,
Paris, 1880, in-4°.

TEXIER, *L'Arménie, la Perse et la Mésopotamic*, Paris, 1842–1852, 3 vol.,
in-f°.

UYFALVY, *L'Art des cuivres anciens au Cachemire. Illustré*, Paris, 1883,
in-8°.

VOGUÉ, *Le Temple de Jérusalem*, Paris, 1864, in-4°.

- (١) لم يذكر المؤلف اسم مؤلف هذا الكتاب، ولعله كتاب «تاريخ مدينة فاس» المطبوع في بارم سنة ١٨٧٨ م في ٧٥ صفحة خالياً من اسم المؤلف، وهو يشتمل على أخبار مدينة فاس إلى سنة ٨٠٣ هـ (المترجم).